

الْكِتَابُ الْأَوَّلُ

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا
التي يجمل بكل من ينشد السعادة في
الدارين أن يجهد جهده في التحلي بها

[وهذا الكتاب مكسورٌ على خمسة عشر باباً بينها]

[جميعاً لِحَمَّةِ نَسَبٍ وَقَرَابَةِ]

الباب الأول

في البرِّ والتقوى

البرُّ وألوانه

قال علاؤنا ما خلاصته: إِنَّ أَوَّلَ مَعْنَى الْبِرِّ: السَّعَةُ ، ومنه البرُّ - بفتح الباء - مقابل البحر ، ثم اشتُقَّ منه البرُّ بمعنى التوسع في فعل الخير ، وكُلُّ فِعْلٍ مَرَضِيٍّ ... وهكذا أطاؤه على التوسع في الإحسان إلى الناس ، وهو كِبَابُ الْبِرِّ ؛ وعلى صِلَةِ الرَّحِمِ ، وهي دُنْوَانُ الْبِرِّ ؛ وعلى التقوى ، وهي جِمَاعُ الْبِرِّ^(١) ، قال تعالى : وَإِذْ لَبَّيْكَ مِنْ آتِي ، وقال كبيد :

• وَمَا الْبِرُّ إِلَّا مُضْمَرَاتٌ مِنْ التَّقَى •

وَوَرَدَ الْبِرُّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَفِي شِعْرِ الْعَرَبِ مُقَابِلًا الْإِنْتِمِ - وَالْإِنْتِمِ : الشَّرُّ وَكُلُّ فِعْلٍ غَيْرِ مَرَضِيٍّ بِمَا يُؤْتِمُّ - قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنْتِمِ وَالْعُدْوَانِ . وَاقْتِرَانَهُ بِالْتَّقْوَى يُدُلُّ عَلَى أَنَّ الْبِرَّ بِسَبِيلِ تَقْوَى ، وَرُوي أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ الْمُصْطَفَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِنْتِمِ ، فَقَالَ : الْبِرُّ مَا سَكَنْتُ إِلَيْهِ نَفْسُكَ وَاطْمَأَنَّ بِه قَلْبُكَ ، وَالْإِنْتِمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَتَرَدَّدَ فِي صَدْرِكَ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ ، أَوْ كَمَا قَالَ . « حَاكَ فِي نَفْسِكَ : أَى أَثَرَ فِيهَا وَرَسَخَ وَحَزَّ

(١) ولان البر يطابق على كل أولئك ، قال الإمام البيضاوى : البر ثلاثة : برٌّ في

عبادة الله ، وبرٌّ في مراعاة الأقارب ، وبرٌّ في معاملة الأجانب

وَقَدَحَ ، وقوله : وإن أفتاك الناس : أى وإن جعلوا لك فيه رُخصةً وجوازاً ،
وقال زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ :

وَالِإِثْمُ مِنْ شَرِّ مَا يَصَالُ بِهِ وَالسِّرُّ كَالغَيْثِ نَبْتُهُ أَمْرٌ

« ما يصال به : ما يُفتخر به ، وأمرٌ : كثيرٌ مُبارك ، ومن أسماء الله السِّرُّ -
يفتح الباء - ومعناه الواسع الخير ، وقوله تعالى : لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا
تُحِبُّونَ ، فمعناه : لن تنالوا برَّ الله ، أى لن تنالوا خَيْرِي الدنيا والآخرة حتى
تنفقوا مما تحبون ، أما خير الدنيا فهو ما يسره الله للعبد من الهدى والنعمة ،
وأما خير الآخرة فهو الفوز بالنعيم الدائم فى الجنة ، أو تقول : لن تنالوا
حقيقة البر - أى الخير - حتى تنفقوا مما تحبون . . . والأبرار : الأخيار ، جمع برّ ،
وقد قوبلت كلمة الأبرار بالفُجَّار فى قوله تعالى : إن الأبرارَ لنى نعيم . وإن
الفُجَّارَ لنى جحيم - والفجار : الذين يبعثون فى الشرور والآثام - وحب
مَبْرُورٍ : مقبول يجازى بالبر ، أى الثواب ، أى خير الآخرة ؛ وبرّ فى يمينه
أى صدق ، أى كان خيراً فيه بهذا الصدق .

« وبعد » فكل ما أوردوه من معانى البر فى إله الخير مرَّده . . .



ولهم فى البرِّ مُطلقاً ، أى الخير غير مقيد بلون من ألوانه ، عبقریات وذخائر ،
فمن ذلك قول الحُطَيْبَةِ :

وَمَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

« جَوَازِيَهُ : جمع جازية اسم مصدر للجزاء ، كالعافية ، أى لا يعدم جزاء عليه ،

قال أبو عمرو بن العلاء : لم يقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيبية
هذا ، فقيل له : فقول طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ :

مَسْتَبْدِي لَكَ الْآيَامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

فقال: «ن يأتيك بها بمن زوّدت أكثر، وليس بيت مما قالته الشعراء إلا وفيه مطعن، إلا قول الخطيئة هذا. ويروى أن كعباً الحنبر - المشهور بكعب الأخبار - لما سمع هذا البيت قال: والذي نفسي بيده: إن هذا البيت لمكتوب في التوراة... وقال عبيد بن الأبرص:

والخيرُ يَبْقَى وإن طالَ الزمانُ به والشّرُ أَخْبَثُ ما أوعيتَ من زادٍ
« يقال: أوعيت الزاد والمتاع: إذا جعلته في الوعاء »
وقال أبو العتاهية:

لَيَعْلَمَنَّ النَّاسُ أَنِ الثَّقَى وَالْبِرِّ كَانَا خَيْرَ ما يُذْخَرُ

وقبله قال الأخطل - ورواه المبرد في الكامل للخليل بن أحمد واضع علم العروض -:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
روى صاحب الأغاني: أن هشام بن عبد الملك لما سمع الأخطل وهو يقول هذا البيت قال: هنياً لك أبا مالك هذا الإسلام! فقال الأخطل:
يا أمير المؤمنين، ما زلت مسلياً في ديني؛ وقبل هذا البيت في ديوان الأخطل:
والناس همهم الحياة وما أرى طول الحياة يزيد غير خبال
« الخبال: الفساد، أو هولون من الجنون... »

وقال أحمد شوقي في نهج البردة: - وهذه الآيات يصح أن تذكر في باب التقوى وفي باب الدنيا وفي الزهد، كما يصح أن تذكر في هذا الموضع -:

يا نفسُ دُنْيَاكِ تُخْفِي كُلَّ بُكْيَةٍ وإنْ بَدَأَكِ مِنْهَا حُسْنُ مُبْتَسِمِ-
فَضَى بِنَقْوَاكِ فَأَمَّا كَلِمَا صَحَّكَتْ كما يَفُضُّ أَدَى الرَّقْشَاءِ بِالنَّزَمِ-
لا تُحْنِلِي بِجَنَاحِها أَوْ جِنَايَتِها الموتُ بِالزَّهْرِ بِمِثْلِ الموتِ بِالْفَحْمِ-

صَلَحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ رَجْعُهُ فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِيمِ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرَاتِعِ وَخَمِ
«المبتسم: يريد الابتسام، أو موضع الابتسام، وهو الشجر. والرقشاء
من الحيات: المنقطة بالسواد والبياض. وأذى الرقشاء: سُئِمَهَا. والثرم:
كسر السن من أصلها. والجنى: ما يُجْنَى من الشجرة ويقطف من ثمرها؛
يقول في هذا البيت: إن سعادة الدنيا وشقاءها بمنزلة سواء، وكلاهما ألم
غير أن أحد الألمين ينزل بساحة النفس سافراً غير مُتَكْرٍ - وهو جنائتها
أى آلامها - والآخر - وهو جناها أى لذاتها - يتدرب إليها من أبواب
غفلتها فيتجمل ويخُلب حتى ينال منها، إذ أن من ورائه السَّمَّ ناعماً، فثقلها في
ذلك مثل الموت بالفحم والموت بالزهر، كلاهما موت، وإن كان هذا من
أثر الاختناق بأرج الزهر، وذلك من دَخْن الفحم. والمرتع: من رتعت
الماشية: أكلت ماشاءت، والمرتع: مكان الرتوع، والوخم: الردىء البوء،
وقال المعرى:

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِالْأَجْلِ ثَوَابِهَا
«يقول المعرى: إن فعل كل ما هو جميلٌ خيرٌ وأحسن من فعل
مالميس بجميل، ولو لم يجن المرء من وراء الجميل وفعله إلا أنه خير وأحسن
وأسمى وأرفع؛ لكان في ذلك الغناء كله، أما فعل الجميل ونصب عين فاعله
ذلك الثواب الذى سيجازى به، فإن هذا إسفاف بالإنسانية إلى الحضيض
الأوهد، ويُعدُّ من الأعمال التى يرفعها الله إلى أسفل، وجملة القول: إنه غير
لائق بالكمال والمثل الأعلى، أليس من كان هذا شأنهم إنما يتاجرون الله الذى
يعلم السرّ وأخفى، والذى هو جميل يحب الجمال! وسترى في باب التقوى

كثيرا من عقوباتهم في هذا المعنى - منى فمل الخير حبا في الخير، وولوعا بالحق والجمال والمثالية الكامنة فيه.



وبما روى لنا من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه: رأيت الجنة والنار فلم أر مثل الخير والشر... قال ابن الأثير في النهاية: أي لم أر مثلهما لا يميز بينهما فيبالغ في طلب الجنة والهرب من النار... أقول: ولعل الأظهر أن يكون المعنى: لم أر شيئا يكون وصاله إلى دخول الجنة مثل الخير، ولم أر شيئا يكون سببا في دخول النار مثل الشر^(١).. هذا، وإن أبي المجدون وأشباه المجددين إلا أن يؤولوا الجنة بأنها الهناءة وغبطة الروح التي يشعر بها الأخيار البررة ويرآحون لها في هذه الحياة، والنار بأنها الشقاوة التي يعانها الأشرار الفجرة، ويتسعر لهبها في أحناء ضلوعهم، فهم وما يختارون ويحلون لهم، إذ أن هذا - أي سعادة الخير في الدنيا وشقاوة الشرير فيها - حق وصحيح في ذاته، وإن لم يك مرادا لانباء الله ورسله بالجنة والنار، حين يريدون الجنة والنار بمعناها المعروف، على أن الإسلام على ذلك يمتد بالسعادة والشقاوة في الدنيا كما أنه يعتد بهما فيما بعد الموت... وفي الحديث أيضا: خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره... وقال صلوات الله عليه:

(١) ورد هذا الحديث عن أنس بن مالك هكذا: صلى لنا النبي صلى الله عليه وسلم ثم رقى المنبر، فأشار بيده إلى قبة المسجد وقال: لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الجنة والنار ممثلتين في قبة هذا الجدار فلم أر كاليوم في الخير والشر. الجامع الصغير،

خير الناس خیرهم لنفسه « وممناه : إذا جاملَ الناسَ جاملوه وإذا أحسن إليهم كفاؤه بمثله » وأما الحديث : خيركم خيركم لأهله ؛ فهو حث على صلة الرحم ، وسيأتي ... ومما يُؤثرُ من أحاديث سيدنا رسول الله في هذا الباب قوله صلوات الله عليه : شَرُّ الناس من خافه الناس اتقاءً شره « ومثل هذا القول تبكيت للشَّير ، وأنه وإن ظفر بما يظفر به من أغراض هذه الدنيا فهو خاسرٌ دائمٌ » وكان من دعاء سيدنا رسول الله : إن الخَيْرَ يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ « يريد : أن الشر لا يُتقرب به إليك ولا يُبتغى به وجهك ، أو أن الشر لا يصعد إليك وإنما يصعد إليك الطيب من القول والعمل ، كما قال سبحانه : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه . وفي هذا الدعاء إرشاد إلى استعمال الأدب في الثناء على الله والدعاء ، وأن تضاف إليه محاسن الأشياء دون مساوئها... ومن كلمة لعلي بن أبي طالب : إن للخير والشر أهلاً ، فمهما تركتموه منهما كفاكموه أهله » يقول رضى الله عنه : إنَّ عنَّ لك باب من أبواب الخير وتركته فسوف يكفيكه بعض الناس ممن جعله الله أهلاً للخير ، وإنَّ عنَّ لك بابٌ من أبواب الشر فتركته فسوف يكفيكه بعض الناس ممن جعلهم الله أهلاً للشر وأذى الناس ، فاختر لنفسك أيما أحب إليك : أن تحظى بالمحمدة والثواب وتفعل ما إن تركته فمله غيرك وحظي بحمده وثوابه ، أو أن تتركه ، وأيما أحب إليك : أن تشقى بالدم عاجلاً والعقاب آجلاً وتفعل ما إن تركته كفاك غيرك وبلغت غرضك منه على يد غيرك ، أو أن تفعله ؛ وإذا نـجـير بالعاقل أن يُؤثرَ فعلَ الخير وتركَ الشر ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ومن قولهم في أوصاف البررة الأخيار : فُلانٌ تَقَى الساحة من المآثم ، يَرىُ الذمَّة من الجرائم ؛ إذا رَضِيَ لم يقل غيرَ الصدق ، وإذا سَخِطَ لم يتجاوزَ

جانبَ الحقِّ ؛ يرجع إلى نفسِ أمارَةٍ بالخيرِ ، بعيدةٍ من الشرِّ ، مدلولَةٌ على سبيلِ البرِّ ... ووصفَ أعرابيٌّ رجلاً بلون من ألوانِ البرِّ وبالأمعية والذكاء والحصافة والآنأة قال : كان - والله - الفهمُ منه ذا أذنين ، والجوابُ ذا لِسَانَيْنِ ، لم أرَ أحداً كان أرتقى لِخَلَلِ رَأْيٍ مِنْهُ ، ولا أبعدَ مسافةَ رَوِيَّةٍ ومَرَادَ طَرْفٍ ، إنما يرمى بهتته حيث أشار إليه الكرم ، وما زال - والله - يتَحَسَّى مَرارةَ أخلاقِ الإخوانِ وَيَسْقِيهِمْ عُذوبةَ أخلاقه ...

« كان الفهم منه ذا أذنين : يريد أنه كان يعي ويتفطن لما يرى ويسمع فطنة أوفت على الغاية ، إذ أنها فطنة مضاعفة ، فكأن له أذنين . أما قوله : والجوابُ ذا لسانين : فإنما يريد قوة العارضة واللِّسَن ، وهذا غير قولهم : فلان ذو وجهين وذو لسانين ، يريدون : النفاق والذبذبة . ورتق الفتق : أصلحه ، والمراد : المكان من راد يرود : إذا جاء وذهب ، ويتحسى : يقال حسا الماء : شربه ، وتحساه : إذا شرب في مهلة ، وهو هنا مجاز »

ومن كلمة لابن المقفع يصف الرجل يتلاقى البرُّ في بُرْدِيهِ بألوانِ شتى مِنَ المُثَلِّ العُلِيَا وأخلاقِ السادة ، في أسلوبٍ بديع - وقد وردت هذه الكلمة في نهج البلاغة منسوبةً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه - : كان لي أخٌ في الله ، كان أعظمَ الناسِ في عيني ، وكان رأسَ ماعظمه في عيني صغرُ الدنيا في عيني ، كان خارجاً من سلطانِ بطنه ؛ فلا يشهَى مالا يجِدُ ، ولا يُكثِرُ إذا وجدَ . وكان خارجاً من سلطانِ فرجه ؛ فلا يدعو إليه ، وؤنة ، ولا يستخفُّ إليه رأياً ولا بدناً ، وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطانِ لسانه ؛ فلا يتكلم بما لا يعلم ولا يماري فيما علم . وكان خارجاً من سلطانِ الجهالة ؛ فلا يُقدِّم أبداً إلا على ثقةٍ بنفسه ، وكان

أكثرَ دهره صابِنا ، فإذا قال بزَّ القائلين ، وكان ضعيفا مستضعفا ، فإذا جَدَّ الجِدُّ فهو الليث عاديا ، وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يشارك في وراء ، ولا يُدلي بِجُحَّةٍ ، حتى يَرى قاضيا فهِمًا وشُهودا عدولا ، وكان لا يلومُ أحدا فيما يكون العذر في مثله حتى يعلمَ ما عذرُه ، وكان لا يشكو وَجَعَه إلا عند من يَرجو عنده البرَّ ، ولا يستشير صاحبا إلا أن يَرجو منه النصيحة . وكان لا يتبرَّم ولا يتخط ، ولا يتشكَّى ولا يتشهى ، ولا ينتقمُ من العدو ولا يَغفُلُ عن الوليِّ ، ولا يُخصُّ نفسه بشيء دون إخوانه ، من اهتمامه وحيلته وقوته ... فمليك هذه الأخلاق إن أطقها ، ولن تطيق ، ولكن أخذ القائل خَيْرٌ من ترك الجميع ... قوله كان لي أخ الخ : فليس يعنى أبا بعينه ولكن هذا كلام خارج مخرج المثل ، وعادة العرب جارية بذلك مثل قولهم في الشعر : قفلت لصاحبي ، وباصاحبي . وقوله : فلا يتشهى مالا يجدد ، فإن ذلك لعمرى من سقوط المروءة . قال الأحنف بن قيس : جَنَّبُوا مجالسنا ذكر تَشهى الأطعمة وحديث الكاح ؛ ومن طُرفِ الجاحظ مارواه عن نفسه :- جلسنا في دار بفلنا نتشهى الأطعمة ، فقال واحد : أنا أشهى سباجة كثيرة الزعفران ، وقال آخر : وأنا أشهى هريسة كثيرة الدارصيني ... وإلى جانبنا امرأة بيننا وبينها بئرُ الدارِ ، فضربت الحائط وقالت : أنا حامل ، فأعطوني مِلَّةَ هذه الغَضارة - الصفحة - من طيبخكم ، فقال ثمامة بن الأشرس : جارتنا هذه تسم رائحة الأمانى اوقوله : وكان ضعيفا مستضعفا : يريد : كسب الجانب وطأ الأكناف ، ... وقَرَعَ رَجُلٌ بابَ بعض الخَيْرين من السلف ، في ليل ، فقال لجارته : أبصرى من القارع ، فأتت الباب فقالت : من ذا؟ قال أنا صديقُ مولاك ، فقال الرجل : قولى له : والله إنك لصديق ؟ فنالت له ذلك ، فقال :

والله إني لصديق ، فهض الرجل وبيده سيف وكيس يسوق جاربه ، وفتح الباب وقال : ماشأذك ؟ قال : راعنى أمر ، قال : لباك ماساءك ، فإنى قد قسمتُ أمرك بين صديق : فهذا المال ، وبين عدو : فهذا السيف ، أو مشوق : فهذه الجارية . فقال الرجل : لله بلادك ، مارأيت مثلك ... « أقول : هذه لعمرى هى أخلاق السادة النبلاء ذوى البر والمروءة والوفاء والحزم والظرف ، وكون - وجود - أمثال هؤلاء من ذوى الإنسانية العالية هو الذى يُحسِّنُ ظننا بالحياة ويجملها فى أعيننا ، ويجعلها مُحْتَمَلَةً مطاقَةً ، لا كما نرى اليوم ... » وقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت يصف رجلاً قليل الخير - أى لا خير فيه - (١)

أَبَى لَكَ فِعْلَ الْخَيْرِ رَأَى مُقَصَّرٌ
وَنَفْسَ أَضَاقَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ بِاعِهَا
إِذَا مَا أَرَادَتْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَرَّةً
عَصَاهَا وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرِّ أَطَاعَهَا

ومن قولهم فى قليل الخير :

هُوَ فِي الْخَيْرِ قَطُوفٌ وَهُوَ فِي الشَّرِّ وَسَاعٌ

« القطوف من الإنسان والحيوان : البطء المتقارب الخطو ، ووساع : واسع الخطو سريع السير ، ومن قولهم فى المتسارين فى الخير والشر . هما كَفَرَسَى رِهَان ، وهذا فى الخير ، وأما فى الشر فيقال : هُما كِحِمَارَى الْعِبَادَى . » والعبادى : رجل من العباد ؛ وهم قوم من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية فألفبوا أن يتسموا بالعبيد وقالوا : نحن العباد ، وقد نزلوا بالحيرة . ومنهم عَدَى بن زيد العبادى الشاعر المشهور . أما هذا العبادى فيروى أنه قيل له - أى حِمَارِيكَ شَرٌّ ؟ فقال : هذا ، ثم هذا !

(١) كان عبد الرحمن هذا قد سأل محمد بن عمرو عامل سليمان بن عبد الملك حاجة فلم يقضها ، فسألها عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقضاهها ، فقال أبياتا منها هذان اليتان

وقال الأشعرُ الرِّقْبَانُ - وهو شاعر جاهلي من بني أسد - يخاطب ابن عمِّه
له يسمى رضوان ، يصفه بالشر واللؤم والنذالة والفسولة :

بِحَسْبِكَ فِي الْقَوْمِ أَنْ يَعْلَمُوا بِأَنَّكَ فِيهِمْ غَنِيٌّ مُضِرُّ
وَقَدْ عَلِمَ الْمَعَشْرُ الطَّارِقُوكَ بِأَنَّكَ لِلضَّيْفِ جُوعٌ وَقُرُّ
إِذَا مَا اتَّدَى الْقَوْمُ لَمْ تَأْتِهِمْ كَأَنَّكَ قَدْ وُلِدْتَكَ الْحُمُرُ
مَسِيخٌ مَلِيخٌ كَلْحَمِّ الْحَوَارِ فَلَا أَنْتَ حُلُوٌّ وَلَا أَنْتَ مُرُّ

« قوله : غنيٌّ مُضِرُّ ، فالمُضِرُّ : الذي له ضرةٌ من المال ، وهي القطعة من
المال والإبل والغنم ، أو المال الكثير ، كما هنا ، وانتدى القوم : اجتمعوا
في ناديتهم ، والمسِيخُ : الذي لا طعم له ، والمليخ مثله ، وخصَّ به بعض الغويين
الحواري الذي ينجر حين يقع من بطن أمه فلا يوجد له طعم ، ونال ابن الأعرابي :
المليخ من الرجال : الذي لا تشتهي أن تراه حينك فلا تجالسُه ولا تسمعُ أذُنك
حديثه ، والحواري : ولد الناقة ساعةً تَضَعُه » ... ومما يحسنُ إيرادَه في هذا
الباب لِلْبُسَيْتِ واشتباهه قول عمر رضي الله عنه - وقد قيل له : فلان لا يعرف
الشر - فقال : ذلك أوقع له فيه ، إذ أن معناه : أن لا يكون الإنسان مغفلاً وإنما
الواجب النفطة والحذر وسوء الظن بالناس ، لما جُبل عليه سوادهم من الشر
واللؤم والخداع ، وفي معناه يقول حكيم لابته : استَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ
وكن من خيارهم على حذر ... وقد كان الفاروق رضي الله عنه لا يَقَعِّعُ
له بالشَّنَانِ^(١) وكان سيئ الظن بالناس ، يَدُلُّ على ذلك شدته وصرامته

(١) لا يقع له بالشَّنَانِ : مثلٌ ، أي لا يخدع ولا يروع ، وأصله من تحريك الجلد
اليابس للبعير ليفزع ، ومعنى القعقة : التحريك ، والشَّنَانِ : جمع شن وهو القرية الخلق
أو الخلق - البالي - من كل وعاء صنع من جلد .

وحذرُهُ وسياسته الحازمة الرشيدة... «وبعد، فإنك ترى في باب طبائع الإنسان كثيرا من عقرياتهم في الشر ووصف الأشرار وحكمة امتزاج الخير بالشر في العالم، كما أنه سيمرُّ بك قريبا كثير من عقرياتهم في التقوى وحسن الخلق...»

ومن أروع وأجمع ما قيل في البر على سائر ألوانه قوله جلَّ شأنه: ليس البرَّ أن تُؤلوا وُجوهكم قِبَلَ المَشْرِيقِ والمَغْرِبِ، وَلَكِنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ والمَلَائِكَةِ وَالكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى والمَيْتَى والمَسَاكِينَ وابنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفي الرقابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، والمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، والصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ والنَّضْرَاءِ وَحِينَ البَأْسِ، أولئك الَّذِينَ صدقوا وأولئك هُمُ المَتَّقُونَ...

«نزلت هذه الآية الكريمة بعد أن أكثر أهل الكتاب من يهود ونصارى، الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسولُ الله إلى الكعبة، وزعم كل من الفريقين أن البرّ هو التوجُّه إلى قِبَلَتِهِ، ففندَ اللهُ سبحانه هذا الزعم وبهرجَهُ وقال: ليس البرُّ العظيمُ الذي يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البرِّ هُوَ أمرُ القِبَلَةِ، ولكنَّ البرَّ الذي يجب الاهتمامُ به وَصَرَفُ الهِمَّةِ إليه هُوَ بَرٌّ مَنْ آمَنَ وَقَامَ بِهَذِهِ الأَعْمَالِ... هذا، وقوله: ليس البرُّ أن تُؤلوا، فالبرُّ بالنَّصْبِ خبرٌ ليس مُقَدَّمٌ، وأن تُؤلوا، وُؤَلَّ بِمصدر اسم ليس مؤخر، وقوله: ولكن البر من آمن: إما مثلُ قول الخنساء^(١):

(١) الخنساء: هي تماضر بنت عمرو بن الشريد من سروات قبائل بني سليم من أهل نجد، أشعر النساء في عصرها أدركت الإسلام وأسلمت توفيت سنة ٢٤ هـ وقولها فإنما هي إقبال وإدبار، من آيات ترى أخواها صخرًا تقول فيها:

فإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ هـ أو تقول ؛ ولكن البرّ: أى ذا البرّ
 أو تقول، إنه على حذف مضاف، أى برّ من آمن. وقوله سبحانه: والكتاب،
 يعنى جنس كتب الله، أو القرآن. وقوله: على حبه، أى مع حُبّ المال
 والشُّحِّ به، وقَدَّم ذوى القربى لأن الإحسان إليهم أفضل، كما ورَدَ في
 الأثر: صَدَقْتُكَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي رَحِمِكَ اثْنَتَانِ، صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ،
 وابن السبيل: المسافر المنقطع، وقيل الضيف: لأن السبيل يَرُوعَفُ به - أى
 يتقدم به ويبرزه للقيمين كما يَرُوعَفُ الأنف بدم الرعاف - وقوله: وفي الرقاب: أى
 وفي مُعَارَنَةِ الْمَكَاتِبِينَ حَتَّى يَفْكَرُوا رِقَابَهُمْ وَقِيلَ: فِي شِرَاءِ الرِقَابِ وَإِعْتَاقِهَا،
 وقيل: فِي فَكِّ الْأَسَارِيِّ. وقوله: والموفون بعهدهم: عَطُفٌ عَلَى مَنْ آمَنَ
 وقوله: والصابرين، فهو منصوب على المدح، وَلَمْ يُعْطَفْ، لفضل الصبر على
 سائر الأعمال، والبأساء، أى في الأموال كالنقر، والضراء، أى في الأنفس
 كالمرض. وحين البأس: أى وقت مجاهدة العدو... أليست هذه الآية الكريمة
 - كما قال الإمام البيضاوى، وكما ترى - جامعة للكلمات الإنسانية بأسرها، دالة
 عليها صريحا وضمنا، فإنها على تشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد،
 وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس. وقد أشير إلى الأول بقوله: مَنْ آمَنَ

فَمَا عَجُولٌ عَلَى بَوِّ مُطِيفٍ بِهِ لَهَا حَيْنَانِ إِعْلَانِ وَإِسْرَارِ
 تَرْتَعُ مَا غَفَلَتْ حَتَّى إِذَا أَدَاكَ كَرْتٌ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارُ
 يَوْمًا بِأَوْجَدٍ مِنِّي حِينَ فَارَقَنِي صَخْرٌ وَلِدَهْرٍ إِحْلَاءُ وَإِسْرَارِ

د العجول من الإبل: الواله التي قدمت ولدها، لعجلتها في جيئتها وذهابها جزعا
 والبؤ: جلد ولد الناقة يحشى تبنا ونحوه ويقرب منها فتعطف عليه وتدر، وقولها: فإنما
 هي إقبال وإدبار: جعلها نفس الإقبال والإدبار مبالغة، أى أنها تنلهي عن الرعى فتقبل
 وتدر جزعا

بِالله . إلى : والنبیین ، وإلى الثاني بقوله : وآتى المال ... إلى : والرقاب ،
 وإلى الثالث بقوله : وأقام الصلاة ... إلى آخرها . ولذلك وُصِفَ المستجمعُ
 لها بالصدق ، نظراً إلى إيمانه واعتقاده ، وبالتقوى : اعتباراً بمعاشرته للخلق
 ومعاملته مع الحق سبحانه ، ولذلك قال عليه السلام : مَنْ عمل بهذه الآية فقد
 استكمل الإيمان .

برُّ الوالدين وصلةُ الرحم

وعقوباتهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى °

وإليك شدوا من عقوباتهم في لون من ألوان البر لقد نراه بادي الرأي قليل
 الخطر ، وهو عند الله الحق ، ولدى إلقاء البال إليه ، وإنعام النظر فيه ، عظيمٌ
 كُلِّ العِظَم ، خطير كل الخطر ، ذلك هو صلة الرحم بعامة ، وبر الوالدين بخاصة ،
 ولقد قرن الله يرُّ الوالدين بالتوحيد ، وأكثرت في كتابه المُنزَل من الحَضِّ
 على هذا البر بأسلوب يُخَيِّلُ إلى السامع إليه أن برَّ الوالدين ركن من أركان
 الدين ، وأساس من أُسُسِ الأخلاق لا يُؤْبَهُ لسائرهما بدونه ، وإنه لكذلك ،
 وفي الحق إن هذه الإشادة البالغة من الإسلام ببر الوالدين وصلة الرحم
 لِمَا يُعْتَدُّ من فضائل هذا الدين الحنيف وخصائصه التي يمتاز بها . فليُتَّقِ أبناءُ
 اليوم بالهم إلى ذلك ، وليجعلوه دائماً نُصَبَ أعينهم ، إن كانوا يريدون الخير
 لأنفسهم ، وإلا فلا يُبْعِدُ اللهُ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ... هذا وستسمع بادي ذي بدء خير

(هـ) البَابَةُ عند العرب : الوجه ، والبَابَاتُ الوجوه وأنشدوا تميم بن مقبل :

بنى عامر ماتأمرون بشاعر تخير بابات الكتاب هجائياً

معناه : تخير هجائياً من وجوه الكتاب ، ويقال فلان من أهون باباته الكذب
 وهي أنواع خبثه ، وإذا قال الناس : هذا شئ . من بابتي ، فعناه من الوجه الذي أريده
 ويصلح لي .

ما قالوا في هذا اللون من البر، ثم نعبه بخير ما قالوا في الآباء والأبناء والأقارب، مما يتأشب إلى هذا المعنى، وينشعب به القول، ولا يخلو بعضه من طرفة، حتى نستوعب المنتقى من كلامهم في كل باب، وحتى يكون فيما يستطرف منه استراحة للقارئ وانتقال ينفى ملل الجِدِّ عنه... فمن ذلك ما يقول الله عز وجل - وَتَجَزَّأُ بِهِذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْجَامِعَةَ عَنْ سَائِرِ الْآيَاتِ الَّتِي يَزْتَحِرُّ بِهَا كِتَابُ اللَّهِ فِي بَابِ الْبِرِّ بِالْوَالِدِينَ - : وَاقْضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلْمِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ، وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ... الْآيَاتِ

وقوله سبحانه : وَاقْضَى رَبُّكَ : أى أمر أمرًا مقطوعاً به... وإِنَّهَا لَكَلِمَةٌ مُرْوَعَةٌ تَرْجُحُ النَّفْسَ رَجًّا وَتُزَلِّزُ أَرْجَاءَ مَا زَلَّالَا شَدِيدًا . وَلَا جَرَمَ أَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ . أَمَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ : أى قَضَى بِرَبِّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ؛ لِأَنَّ غَايَةَ التَّعْظِيمِ لَا تَحِقُّ إِلَّا لِمَنْ لَهُ غَايَةُ الْعِظَمَةِ وَنَهَايَةُ الْإِنْعَامِ . وَقَوْلُهُ : وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا ، أى وَقَضَى بِأَنْ تُحْسِنُوا بِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا ، وَقَوْلُهُ : إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا ، فَإِمَّا : هِيَ إِنْ الشَّرْطِيَّةُ زِيدَتْ عَلَيْهِمَا تَأْكِيدًا لَهَا ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : إِنْ يَبْلُغَنَّ ، وَأَحَدُهُمَا فَاعِلٌ يَبْلُغَنَّ ، وَأَفٍ : صَوْتٌ يَدُلُّ عَلَى التَّضَجُّرِ ، وَعِنْدَكَ : قَالَ الزُّبَيْرِيُّ : مَعْنَاهُ : أَنْ يَكْبُرَا وَيُعْجِزَا وَيَصِيرَا كَلَاءً عَلَى وَلَدِهِمَا لِأَنَّ كَافِلَ لَهَا غَيْرَهُ ، فَهُمَا فِي بَيْتِهِ وَكَتْفِهِ ، وَذَلِكَ أَشَقُّ عَلَيْهِ وَأَشَدُّ احْتِمَالًا وَصَبْرًا ، وَرَبَّمَا تَوَلَّى مِنْهُمَا مَا كَانَ يَتَوَلَّى مِنْهُ فِي حَالِ الطُّفُولَةِ ، فَهُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَسْتَعْمَلَ مَعَهُمَا وَطَأَةَ الخُلُقِ وَإِينَ الْجَانِبِ

والاحتمال ، حتى لا يقول لهما - إذا أضجره ما يُستقذر منهما أو يستثقل من ثؤنهما - : أف ، فضلا عما يزيد على أف ... قال : ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما كما ترى ، حيث افتتح الآية بأن شفّع الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما - التوحيد والإحسان إلى الوالدين - في سلك القضاء - الأمر - بهما معا ، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يُرخص في أدنى كلمة تنفقت من المتضجر ، مع موجبات الضجر ومتمتضياته ، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في الاستطاعة ... وقوله : ولا تهرهما : أى لا تنههما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك ، وقل لهما قولاً كريماً : أى جميلاً ، كما يمتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة . وقوله سبحانه : واخفض لهما جناح الذل ، قال الإمام الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعنى : واخفض لهما جناحك كما قال : واخفض جناحك للدومنين ، فأضافه إلى الذلّ أو الذلّ^(١) كما أضيف حاتم إلى الجود ، على معنى واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول ، والثاني : أن تجعل لذلّه أو لذلّه لهما جناحاً خفياً كما جعل لبيد - الشاعر المخضرم - للشمال يداً وللقرّة زماماً^(٢) مُبالغة في التذلل والتواضع لهما ، وقوله سبحانه : من الرحمة : أى من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما ، لكسبرهما وافتقارهما إلى من كان أفقر خاق الله إليهما بالأمس ،

(١) الذلّ الأول من ذلّ ذلافه وذليل بمعنى الخضوع ، والذلّ الثاني بكسر الذال ، وبضها أيضاً - من ذل يذلّ فهو ذلول بمعنى اللين (٢) في قوله من معلقته :

وَعَدَاةٍ رِيحٍ قَدْ كَشَفَتْ وَرِقَّةً إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا
 ، القرّة : البرد يقول لبيد : كم من غداة تهب فيها الشمال - وهي أبرد الرياح - وبرد قد ملكت الشمال زمامه ، قد كمنفت عادية البرد عن الناس بنحر الجزر لهم ، وتحرير المعنى : كم من برد كمنفت غرب عاديته بإطعام الناس .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: رَضِيَ اللهُ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسُخِطُهُ فِي سُخْطِهِمَا. وَرَوَى: يَفْعَلُ الْبَارُّ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَيَفْعَلُ الْعَاقُ مَا يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ فَلَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ: وَقَالَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ: إِنْ أَبَوِيَّ بَلِغَا مِنَ الْكِبَرِ أَنْ أَلِيَّ مِنْهُمَا مَا وَوَلِيَا مَنِيَّ فِي الصَّغَرِ، فَهَلْ قَضَيْتُهُمَا حَقَّهُمَا؟ قَالَ: لَا، فَإِنَّمَا كَانَا يَفْعَلَانِ ذَلِكَ وَهَمَا يُحِبَّانِ بَقَاءَكَ، وَأَنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ وَأَنْتَ تَرِيدُ مَوْتَهُمَا: وَعَنْ حُدَيْفَةَ: أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَتْلِ أَبِيهِ وَهُوَ فِي صَفِّ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: دَعُهُ بِلَيْهِ غَيْرُكَ. وَسُئِلَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَّاضٍ عَنِ ابْنِ الْوَالِدَيْنِ، فَقَالَ: أَنْ لَا تَقُومَ إِلَى خِدْمَتَيْهِمَا عَنِ كَسَلٍ، وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ: فَقَالَ: أَنْ لَا تَرْفَعَ صَوْتَكَ عَلَيْهِمَا، وَلَا تَنْظُرَ شَرْرًا إِلَيْهِمَا، وَلَا يَرِيَا مِنْكَ مُخَالَفَةً فِي ظَاهِرٍ وَلَا بَاطِنٍ، وَأَنْ تَسْتَرْحِمَ عَلَيْهِمَا مَا عَاشَا، وَتَدْعُو لَهَا إِذَا مَاتَا، وَتَقُومَ بِخِدْمَةِ أُودَادَيْهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، فَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ... أَمَا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ: فَهَذَا تَوْصِيَةٌ بِغَيْرِ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْأَقْرَابِ بَعْدَ التَّوَصِيَةِ بِهِمَا، يَقُولُ سَبْحَانَهُ: أَنْوَهُمْ حَقَّهُمْ، وَحَقَّهُمْ صَلَّتُهُمْ بِالْمُودَةِ وَالزِّيَارَةِ وَحَسَنِ الْمَعَامَرَةِ وَالْمُؤَالَفَةِ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْمَعَاوَدَةِ إِنْ كَانُوا مِيَّاسِيرَ، وَتَعَهُدُهُمْ بِالْمَالِ إِنْ كَانُوا عَاجِزِينَ عَنِ الْكَسْبِ. «انظر التفصيلات في كتب الفقه، وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: إني أريد الغزو، فقال عليه الصلاة والسلام: أحسّ أبواك؟ قال: نعم، قال: فَمِنْهُمَا فَجَاهِدْ. وَسُئِلَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ ابْنِ الْوَالِدَيْنِ، فَقَالَ: أَنْ تَبْدُلَ لَهَا مَا مَلَكَتْ، وَتَطِيعَهُمَا فِيمَا أَمَرَكَ، مَا لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَةً، وَأَيُّ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لك به عِلْمٌ فَلَا تُطْعُهُمَا، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ...

ومما يُؤَثِّرُ من أخبار البررة : ما يقول المأمون بن الرشيد : لم أرَ أحداً
أَبْرَّ من الفضل بن يحيى - البرمكي - بأبيه ، بَأَخ من برِّه به أن يحيى كان
لا يتوضأ إلا بماء مُسَخَّنٍ وهما في السجن ، فنهما السجان من إدخال الحطب
في ليلة باردة ، فقام الفضل - حين أَخَذَ يحيى مُضَجَّه - إلى مُقْمٍ ^(١) كان يُسَخِّنُ
فيه الماء ، فلاه ثم أدناه من المصباح ، فلم يزل قائماً وهو في يده حتى
أصبح ... وقيل لعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : إنك
من أبرَّ الناس بأملك ولنا نراك تأكلُ مع أمك في صحفة ، قال : إني أخاف
أن تسبقها يدي إلى شيء سبقت عينها إليه فأكون قد عققته . وقيل
لِعمر بن ذر ^(٢) - وقد مات ابنه - : كيف كان برُّ آبيك بك ؟ قال :
ما ماشيته قط نهاراً إلا مشى خافئاً ، ولا ليلاً إلا مشى أمامي ، ولا رقي
سطحا وأنا تحته .

ومما يروى في باب العقوق وأحوال العققة : « والعقوق ضد البر »

(١) إناؤه من نحاس يسخن فيه الماء (٢) هو عمر بن عبد الله بن ذر بن زرارة بن مسعود الهمداني
كان واعظاً بليغاً وعباداً صالحاً وكان ابنه - واسمه ذر - مباركا طيعا له . دخل يوما على
ابنه وهو موجود بنفسه فقال : يا بني ، إنه ما علينا من موتك غضاضة - ذل وانكسار وقفور -
ولابنا إلى أحد سوى الله حاجة . فلما مات وصلى عليه وواراه وقف على قبره : وقال :
يا ذر ، قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، لانا لا ندرى ما قلت وما قيل لك . اللهم
إنى وهبت له ما قصر فيه مما افترضت عليه من حق ، فهب له ما قصر فيه من حقه
واجعل ثوابي عليه - يريد ثواب صبره - له ، وزدني من فضلك ، إنى إليك من الراغبين
قال ابن خلكان : وكان عمر المذكور يعد من المرجئة ، وتوفى سنة ١٥٥ هـ

وأصله من العَقِّ وهو الشق والقطع ، يقال عَقَّ الولدُ والده يُعَقِّه عَقًّا وعقوقًا
 وَمَعَقَّةً : إذا شَقَّ عصا طاعته ، وعَقَّ والديه : قطعهما ولم يصل رحمهُ منهما
 وقد يُعَمُّ بلفظ العقوق جميعُ الرِّحم ، والولد عاق ، والجمع عَقَقَةٌ ، مثل كَفَرَةٍ «
 فمن قولهم في العقوق : العقوقُ نُكْلٌ من لا يُشكَلُ الشكلُ الموت
 والهلاك ، وأكثر ما يُستعملُ في فقدان الرجل والمرأة ولدهما ، يعنون أن
 مَنْ ابتلى بولدٍ عاقٍ فكأنه نُكِلَهُ » وقال بعضهم لابن له عاقٍ : أنت
 كالإصْبَحِ الزائدة ، إن تُرِكَتْ شانتُ وإن قُطِعَتْ آذتُ ... وقيل لأعرابيٍّ
 كيفَ ابْنُكَ؟ - وكان عاقًا - فقال : عَدَابٌ رَعِفَ به الدهرُ ، فإلَيْتَنِي قَدْ
 أودَعْتُهُ القَبْرَ ، فإنه بلاءٌ لا يقاومه الصبر ، وفائدة لا يجب فيها الشكر « قوله
 رَعِفَ به الدهرُ : يريد تقدم به الدهر وعَجِلَ ،

وأورد أبو العباس المبرد في الكامل هذه الأبيات لامرأة يقال لها أمُّ
 ثواب الهزانية ، في ابنها - وكان لها عاقًا - وقد اختارها أبو تمام في حماسه :
 رَيْبَتُهُ وَهُوَ مِثْلُ الفَرُخِ أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى فِي رِيشِهِ زَعْبًا
 حَتَّى إِذَا آصَّ كالفُحَالِ شَدَّبَهُ أَبَارُهُ وَنَقَى عَنْ مَتْنِهِ الكَرَبَا
 أَنشَا يُحَرِّقُ أَثْوَابِي وَيَضْرِبُنِي أَبْعَدَ سِتِّينَ عِنْدِي يَبْتَغِي الأَدْبَا
 إِنِّي لَا بُصْرُ فِي تَرْجِيلِ لِمَتِهِ وَخَطَّ لِحْيَتِهِ فِي وَجْهِهِ عَجَبًا
 قَالَتْ لَهُ عِرْسُهُ يَوْمًا لِتُسْمِعْنِي رِقْقًا يَا ابْنَ لَنَا فِي أُمَّنَا أَرَبَا
 وَلَوْ رَأَيْتَنِي فِي نَارِ مُسْعَرَةٍ مِنَ الجِجَمِ لَزَادَتْ فَوْقَهَا حَطْبًا

« هذه أبيات من شعر الفطرة ، تصف في دِقَّةِ حالِ الابنِ العاقِ يكون
 حَظْلُهُ وَهَوَاهُ مع زَوْجِهِ على أُمَّه ، وكذلك تصف ذلك العداء القديم بين الكَنَّةِ

وَحَمَاتِهَا^(١)، وقولها: أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ، وصف للفرخ، ومعناه: أكبرُ
 أَعْضَائِهِ أُمُّ الطَّعَامِ: أى معدته، وكذلك قولها: ترى فى ريشه زغبا: وصف
 آخر للفرخ، وَالزَّغْبُ: أول ما يبدو من ريش الفرخ، تصف ضعف نشأة
 ابنها، وآض: صَارَ، وَالْفُحَّالُ: فخال النخل، أى الذَّكْرُ منه، وَأَبَارُهُ: الذى
 يصاحبه يقال: أَبْرَتِ النَّخْلَ: إذا لَقَّحْتَهُ، وشَدَّ بِهِ: قطع ما عليه من الكرانيف
 وهى أصول السَّعْفِ الغلاظ التى إذا يَبَسَتْ صارت أمثال الأكتاف،
 ومته: فمن كل شيء ما ظهر منه، والكرب: ما يبق من أصول السَّعْفِ فى النخل
 تريد: حتى إذا بلغ أشده واستوى طوله، وأنشا: أصله أنشا، تريد: آتدا
 وأقبل، وقولها: أبعدين عندى يتغى الأديبا، تريد: أنضربه إياها يريد تأديبها
 بعد أن بلغت الستين حق منه وعبث، إذ من العناء رياضة الهرم، وقولها:
 إنى لأبصر... البيت، فاللمة: الشعر الذى يلم بالمنكب، والترجيل: تسريح الشعر
 تصفه بالحسن والجمال، وعرسه: زوجه، وأما... أضاقها إلى نفسها خديعة،
 وأربا: حاجة، تريد: لا ينبغي لك أن تهينها... .

وقيل لرجل أبطأ فى الزوج: لم أبطأت؟ فقال: أريد أن أسبق أولادى
 فى اليتم قبل أن يسبقونى فى العقوق...

وأورد المبرد أيضا عن رجل يسمى أبا المِخْشِ حديثا طريفا قال:
 قال أبو المِخْشِ: كانت لى ابنة تجلس معى على المائدة فُتَبْرزُ كَفًّا كأنها
 طَلْعَةٌ، فى ذراعِ كَأَنَّهَا جَمَّارَةٌ، فلا تقعُ عَيْنُهَا على أَكْلَةٍ نَفِيسَةٍ إِلَّا خَصَّتْنِي بها

(١) الكنة: امرأة الابن - وامرأة الاخ أيضا - والحماة: أم زوجها؛ قال الشاعر:

إن الحماة أولعت بالكِنَّةِ وأنت الكِنَّةُ إلا ضنَّه

فَزَوَّجْتُهَا .. وصار يجلسُ معي على المائدةِ ابنُ ثُلِي ، فَيُسَبِّرُ كَمَا كَانَتْهَا
 كِرْنَاقَةً ، فِي ذِرَاعِ كَانَهَا كَرَبَّةً ، فَوَاللَّهِ إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي إِلَى لُقْمَةٍ طَيِّبَةٍ إِلَّا
 سَبَقَتْ يَدُهُ إِلَيْهَا ... « الطَّلَعَةُ فِي كَلَامِ أَبِي الْمِنْخَشِ هَذَا جَمْعُهَا طَلَعٌ ، وَهُوَ نَوْرُ
 النَّخْلَةِ مَا دَامَ فِي الْكَافُورِ ، وَهُوَ وَعَاوُهُ الَّذِي يَنْشَقُّ عَنْهُ ، وَالْجَمَارَةُ : شِجْمَةُ النَّخْلَةِ
 الَّتِي إِذَا قَطَعْتَ رِقَّةَ رَأْسِهَا ظَهَرَتْ كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ سَنَامٌ ، وَالْكَرْنَاقَةُ : طَرْفُ
 الْكَرْبَةِ الْعَرِيضِ الَّذِي يَتَّصِلُ بِالنَّخْلَةِ كَأَنَّهُ كَتْفٌ ، وَقَوْلُهُ : إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي
 فَإِنَّ نَافِيَةَ بِمَعْنَى مَا ،

وأورد أبو تمام في باب الهجاء من حماسته لأحد الشعراء أياتاً لها قصة
 فيها اعتبار لمن أراد أن يعتبر من عقبة الأبناء ، وإليك هذه القصة والآيات :
 كان في زمن عبد الملك بن مروان رجل يُسَمَّى مُنَازِلَ بْنَ فُرْعَانَ ، وَكَانَ
 لِمُنَازِلِ هَذَا ابْنٌ يُقَالُ لَهُ خَلِيْجٌ - وَهُوَ مِنْ رَهْطِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - فَعَقَّ
 خَلِيْجٌ أَبَاهُ مُنَازِلًا ، فَقَدَّمَهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَرَبِيٍّ ، وَالْيَاسَمَةَ ، مُسْتَعْدِيًّا
 عَلَيْهِ - وَقَالَ :

تَظَلَّمَنِي حَقِّي خَلِيْجٌ وَعَقَّيْ عَلَى حِينِ كَانَتْ كَالْحَنِيِّ عِظَامِي (١)
 لَعَمْرِي لَفَسَدَ رَبِّيْتُهُ فَرِحًا بِهِ فَلَا يَفْرَحُنْ بَعْدِي امْرُؤٌ بِنُغْلَامِ
 وَكَيْفَ أُرَجِّي النِّفْعَ مِنْهُ وَأُمُّهُ حَرَامِيَّةٌ ؟ مَا غَرَّنِي بِحَرَامِ (٢)
 وَرَجَّيْتُ مِنْهُ الْخَيْرَ حِينَ اسْتَرَدَّتْهُ وَمَا بَعْضُ مَا يَزْدَادُ غَيْرَ غَرَامِ (٣)

(١) كانت كالحني عظامي : أي كانت عظامي كالحني ، وهو جمع حنية ، وهي القوس ،
 لأنها حنية ، أي معطوفة

(٢) حرامية : نسبة إلى حرام وهي قبيلة

(٣) الغرام هنا : العذاب والشر الدائم والبلاء الذي لا يستطيع أن يتفصى منه قال

تعالى : إن عذابها كان غراما : أي هلاكا دائما ملحا

فأراد إبراهيم بن عَرَبِي ضَرْبُهُ ، فقال : أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ ، لا تَعَجَلْ عَلَى
أَعرَفِ هَذَا ؟ قال : لا ، قال : هَذَا مُنَازِلُ ابنِ فُرْعانَ ، الَّذِي عَقَّ أباهُ ، وفيه
يقول أبوه :

جَزَتْ رَحِمٌ بَيْنِي وَبَيْنَ مُنَازِلِ	جَزَاءً كَمَا يَسْتَنْزِلُ الدِّينَ طَالِبُهُ (١)
لَرَبِّيَّتُهُ حَتَّى إِذَا آضَ شَيْطَمًا	يَكَادُ يُسَاوِي غَارِبَ الفَحْلِ غَارِبُهُ (٢)
فَلَمَّا رَأَى أَبْصَرَ الشَّخْصَ أَشْخُصًا	قَرِيبًا وَذَا الشَّخْصِ البَعِيدِ أَقَارِبُهُ (٣)
تَعَمَّدَ حَتَّى ظَالِمًا وَلَوَى يَدِي	لَوَى يَدَهُ اللهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ (٤)
وَكَانَ لَهُ عِنْدِي إِذَا جَاعَ أَوْ بَكَى	مِنَ الزَّادِ أَحْلَى زَادِنَا وَأَطَابِبُهُ
وَرَبِّيَّتُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَرَكَتُهُ	أَخَا القَوْمِ وَأَسْتَعْنَى عَنِ المَسْحِ شَارِبُهُ (٥)
وَجَمَعْتُهَا دُهِمًا جِلَادًا كَأَنَّهَا	أَشَاءَ نَحْيِي لِي لَمْ تُقَطِّعْ جَوَائِبُهُ (٦)

(١) يدغو على ابنه منازل ، وجعل فعل الجزاء للرحم والجازى هو الله سبحانه
يقول : جزى الله منازل على الرحم أى القرابة التى بينى وبينه - فقد قطعها - جزاء
يستوفى له وعليه ، كما يستنزل صاحب الدين حقه من المدين

(٢) الشيطم : الطويل ، ولربيته : جواب قسم انطوى عليه الكلام ، وربيته وربيته
وتريبته وربته تريبيا بمعنى واحد ، وآض : صار ، وأصل الغارب فى الإبل - وهو
ما يكون قدماه السنام - ثم استعير حتى قيل لأعلى كل شيء : غوارب ، يقول : إنه رباه
حتى بلغ مبلغ الرجال

(٣) قريبا : حال ، والمعنى : أبصر الشخص مقاربا ، أى أبصره وأقرب منه - أشخصا ،
وأقاربه : أظنه قريبا ، يقول : لما رأى شيئا كبيرا ضعفت نظره واختلفت مواقع

بصارته حتى يرى الشخص القريب منه شخصا ويرى الشخص البعيد منه قريبا
(٤) تعمد حتى : ستره وأخفاه ، وقوله : ولوى يدي : أى فلتها وأزالها عن
حالتها وهيئتها

(٥) أخا القوم : قال الإمام التبريزى : نصب أخا القوم على الحال من الهاء فى
تركته ، وجاز كونه حالا وإن كان معرفة فى اللفظ لأنه لا يعنى قوما بأعيانهم وإنما
يريد تركته قويا لاحقا بالرجال (٦) وجمعتها : الضمير إلى الخيل وإن لم

فَأَخْرَجَنِي مِنْهَا سَلِيْبًا كَأَنِّي حُسَامٌ يَمَانُ فَارَقْتُهُ مَضَارِبُهُ (١)
 إِنَّ أُرْعَشْتَ كَفًّا أَيْكَ وَأَصْبَحْتَ يَدَاكَ يَدَيَّ لَيْتَ فَإِنَّكَ ضَارِبُهُ (٢)
 فقال الوالي : يا هذا ، عَقَقْتَ فَعَقَقْتَ ، فَمَا لَكَ مَثَلًا إِلَّا قَوْلُ خَالِدِ
 لِأَبِي ذُوَيْبٍ :

فَلَا تَجْزَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا فَأُولُ رَاضِي سِيرَةٍ مَنْ يَسِيرُهَا
 قال الإمام التبريزي : وذلك أن أبا ذُوَيْبٍ (٣) هذا كان غلاما ، وكان
 لِرَجُلٍ صَدِيقَةً ، فكان الرجل يبعث أبا ذُوَيْبٍ إلى صديقه بالرسائل ، فلما
 ترعرع أبو ذُوَيْبٍ كسرها على الصديق - يريد أفسدها وأمالها عنه إليه - ،
 ولما ترجّل أبو ذُوَيْبٍ - يريد صار رجلا - مُنِعَ منها وحُجِبَتْ عنه
 وحجب عنها ، فكان يبعث خالدا إليها بالرسائل ، وخالد يومئذ
 غلام ، فلما ترعرع خالد كسرها على أبي ذُوَيْبٍ ، فقال أبو ذُوَيْبٍ يعنف
 المرأة :

تُرِيدِينَ كَيْ تَجْمَعِيَنِي وَخَالِدًا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيُنْحَكُ فِي غَمْدٍ
 وجعل يؤنب خالدا ، فقال خالد :

يذكرها وهذا أسلوب معروف لهم ، ودعما : جمع أدم ، وهو الأسود ، وجلادا : صلابا ،
 والأشياء بالفتح والمد : صغار النخل وقيل النخل عامة واحده أشاة (١) السليب : الذي سلب
 ماله ، استعاره من الشجر يسلب ورقه ويعزى منه ، والمضارب : جمع مضرب : حد السيف ،
 يقول : لما جمعت من الخيل الدم الجلاد ما جمعت وأعددتها لي وله ، عدا على بعد
 أن ريته وبلغ مبلغ الرجال وجرذني من الخيل وتركني سليبا ، فأشبه حال السيف
 اليمان القاطع تفلل حده (٢) أرعشت كفا أيك : يريد : أبعد أن كبر أبوك وبلغ
 من الكبر عتيا وأصبحت أنت شابا قويا ، تجترئ عليه وتمينه وتضربه

(٣) أبو ذُوَيْبٍ هذا هو الشاعر أبو ذُوَيْبٍ الهذلي ، وخالد هو ابن أخته ، والمرأة
 هي امرأة رجل يقال له عبد عمرو بن عامر من بني عامر بن صعصعة ، انظر أمثال
 الميبداني في شرحه هذا المثل ، ولا تجزعن من سيرة أنت سرتها ، ،

فلا تَحْزَنَنَّ مِنْ سِيرَةِ أَنْتِ سِرَّتِهَا البيت
 ولأُمَيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْتِ الشَّاعِرِ الجَاهِلِيَّ (١) أَيْبَاتُ حَسَانٌ يَشْكُو فِيهَا هُوَ
 الآخِرُ ابْنَهُ الَّذِي عَقَهُ وَأَسَاءَ إِلَيْهِ : وَقَدْ اخْتَارَهَا أَبُو تَمَامٍ فِي حِمَاةِ قَالٍ :
 عَذُوْتُكَ مَوْلُودَا وَعُائَتُكَ يَا بَعْمَا تُعَلُّ بِمَا أُذِنِي إِلَيْكَ وَتُنْهَلُّ (٢)
 إِذَا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بِالشَّكْوِ لَمْ أَبْتِ إِشْكُوكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَّلُّ (٣)
 كَأَنِّي أَنَا المَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي طُرِقْتَ بِهِ دُونِي وَعَيْنِي تَهْمَلُّ (٤)
 فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أَوْمَلُّ
 جَعَلْتُ جَزَائِي مِنْكَ جَبْهًا وَغُلْظَةً كَأَنَّكَ أَنْتَ المُنْعِمُ المُتَفَضَّلُ (٥)

(١) اسمه عبد الله بن ربيعة بن عوف من بني بكر بن هوازن . وكان ممن حزم
 الخزفي الجاهلية ورفض عبادة الاوثان والتمس الدين وطمع في النبوة فلما بعث سيدنا
 رسول الله صلى الله عليه وسلم حسده وقال : إنما كنت أرجو أن أكونه

(٢) وعلتك : من عال عياله يعولهم : كفاهم معاشهم ، ويروى : ومنتك ، من مان
 أهله يموتهم مونا : أنفق عليهم ، ويا فعا : شابا ، من أيفع الغلام مثل أبقل الموضع فهو
 باقل وأورق النبت فهو وارق وأورس فهو وارس وأقرب فهو قارب : إذا
 قربت إليه من الماء ليلا ، وكلهن فوادر ، وتعل من عله يعله : سقاه ثانية ، وتهل من
 أنهله : سقاه أول سقية ، يريد ، إطعامه وسقيه مرة بعد أخرى
 (٣) الشكو : المرض نفسه قاله الليث وأنشد :

أَخِي إِنْ تَشَكَّى مِنْ أَدَى كُنْتُ رِطْبُهُ وَإِنْ كَانَ ذَاكَ الشَّكْوِي فَأَخِي طِبِّي
 وَأَتَمَّلُّ : يريد يتقلب على فراشه من غمه عليه . قال اللغويون : إذا بنا بالرجل
 مضجعه من هم أو وصب قيل قد تملل ، وأصله أتملل ، من الملة وهي الرماد الحار يدفن
 فيه الخبز لينضج كأن المتقلب على فراشه من الهم يتقلب على تلك الملة
 (٤) المطروق من طرقة الهم يطرقه - بالضم - طرقا : أتاه ونزل به ، مجاز من طرق
 القوم : جاءهم ليلا ، وتمل : تسيل وتفيض وقد هملت عينه تهمل - بالضم والكسر -
 هملا وهملانا : سالت وفاضت (٥) جبهها مصدر جبهه بالمكروه : استقبله به ،
 وذلك مجاز من جبهه : صك جبهته . ويروى : جعلت جزائي غلظة وفضاظة

فَلِمَتَكَ إِذْ لَمْ تَرَعِ حَقَّ أَبِي تَنِي فَقَلَّتْ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ^(١)
 وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِهِ الْمَفْنَدِ رَأْيُهُ وَفِي رَأْيِكَ التَّفْنِيدُ لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ^(٢)
 تَرَاهُ مُعِدًّا لِلْخِلَافِ كَأَنَّهُ بَرَدٍ عَلَى أَهْلِ الصَّوَابِ مُوَكَّلٌ^(٣)

* * *

ومن المستطرف من أقوالهم في الأولاد المتخلفين : ما يُروى أن رجلاً بعث ابنه ليُشترى حَبلاً ، فقال له : آجعلهُ عشرين ذراعاً ، فقال الولدُ : في عرض كم ؟ قال : في عرض مُصِيتي فيك .. وكان لأبي العباس المبرِّد صاحبِ الكامل ابنٌ مُتخلفٌ ، فقيل له يوماً : عَطَّ سَوْءَ تَك ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ ابْنِهِ .. وقيل لصبيٍّ : لِمَ لَا تَتَعَلَّمُ الْآدَبَ ؟ فقال : إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَكْذِبَ وَالِدِي ، لِأَنَّهُ قَالَ لِي : إِنَّكَ لَا تَفْلَحُ أَبَدًا ...

* * *

هذا وكما أن لوالدك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حقٌّ . وما ورد في ذلك ما جاء في الحديث : من حَقَّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحْسِنَ آدَبَهُ ، وَأَنْ يُعِفَّهُ إِذَا بَلَغَ . « أَنْ يُحْسِنَ آدَبَهُ : أَنْ يُعْنَى تَرْبِيئَهُ وَتَهْدِيئَهُ وَتَعْلِيمَهُ ، وَأَنْ يُعِفَّهُ : أَيِ يَعْمَلُ عَلَى أَنْ يَكُونَ عَفَاً عَنِ الْحَرَامِ فَيُزَوِّجُهُ » ... وقال حكيم من آدَبِ وَلَدِهِ صَغِيرًا ، سُرَّ بِهِ كَبِيرًا ، وَقَالُوا : مَنْ آدَبَ وَلَدَهُ ، أَرْعَمَ حَاسِدَهُ وَمَنْ آدَبَ الْإِسْلَامَ : إِذَا بَلَغَ أَوْلَادَكُمْ سَبْعَ سِنِينَ فَسُرُّوهُمْ بِالطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَإِذَا بَلَغُوا عَشْرًا فَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا ، وَإِذَا بَلَغُوا ثَلَاثَةَ عَشْرٍ فَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ ؛ وَمَنْ كَلَامُهُمْ : لَا عِبَّ ابْنُكَ سَبْعًا وَعَلَّمَهُ سَبْعًا وَجَالَسَ بِهِ إِخْوَانَكَ

(١) كما الجار المجاور يفعل : أي كما يراعى الجار حق الجوار من الوفاء به

(٢) المفند رأيه : اسم مفعول من فند رأيه : خطأه (٣) معدا : اسم فاعل ،

أعد الأمر عدته : هياه له

سبعاً يَتَّبِينُ لَكَ أَخْلَافٌ هُوَ بَعْدَكَ أُمَّ خَلْفٌ « الْخَلْفُ - بفتح اللام: الولد الصالح، والخلف - بسكونها: الطالح، تقول: أعطاك الله خَلْفًا مما ذهب لك ولا تقل خَلْفًا، وتقول أنت خَلْفٌ سَوْءٌ من أبيك، هذا هو الأعراف عند أهل اللغة^(١)، وقال رجل لأبيه. يا أبت، إن عَظِيمَ حَقِّكَ عَلَيَّ لَا يُذْهِبُ صَغِيرَ حَقِّي عَلَيْكَ، وإن الذي تَمَّتْ به إلى أُمَّتُ بِمِثْلِهِ إِلَيْكَ، ولستُ أُرْعَمُ أَنَا عَلَيَّ سِوَاهُ، ولكن لا يَحِلُّ الاعتداء... »

وقالوا: إِنَّ الْوَالِدَ الْبَارَّ أَبْرَأُ مِنَ الْوَالِدِ، لَأَنَّ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ طَبِيعَةٌ، وَبِرُّ الْوَالِدِ وَاجِبٌ، وَالْوَالِدُ أَبَدًا ثَقِيلٌ، وَلَعَلَّ الْمُنْبِيَّ يَنْظُرُ إِلَى هَذَا الْمُنَى إِذْ يَقُولُ:

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْقَائِمُ أَخِي مِنْ وَاصِلِ الْوَالِدِ

ومما يستطرف في هذا الباب ما يروى من احتجاج بعض العققة لعقوقهم: فقد قيل لبعض الفلاسفة: لِمَ تَعُقُّ وَالِدَيْكَ؟ قال: لأنهما أخرجاني إلى السكون والفساد... وضربَ رَجُلٌ أَبَاهُ، فقيل له: أَمَا عَرَفْتَ حَقَّهُ؟ قال: لا، لَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ حَقِّي، فبيل: فما حقُّ الولد على الوالد؟ قال: أَنْ يَتَخَيَّرَ أُمَّهُ، وَيُحَسِّنَ اسْمَهُ، وَيُحْتَنِنَهُ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ، ثُمَّ كَشَفَ عَنْ عَوْرَتِهِ فَإِذَا هُوَ أَقْلَفٌ - لَمْ يُحْتَنَنْ - وَقَالَ: آسَمِي بُرْعُوثَ... وَلَا أَعْلَمُ حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ، وَقَدْ اسْتَوْلَدَنِي مِنْ زَنْجِيَّةٍ... فقيل للوالد: احتمله، فإنك تستأهل... »

(١) قال الله عز وجل: خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وقال لبيد:

ذهب الذين يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ

وعير رجل ابنه بأمه، فقال الابن: هي والله خير لي منك، لأنها أحسنت الاختيار فولدتني من حُرٍّ، وأنت أسأت الاختيار فولدتني من أمّة... وقال رجل لابنه: ما أطيب الشكل يا بني! فقال الابن: اليتم أطيب منه يا أبت! وقيل لبعضهم: أي ولدك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتى يكبر، ومرتبهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يقدم...

دأقول: وإنما قال صغيرهم حتى يكبر، لأن كبير الأولاد في العادة قلما يظفر من حب أبيه بمثل ما يظفر به الصغير، وقد قالوا في ذلك ما بين عن السبب، وهو ما روى أن رجلا من العرب رأى بنه يثبون على الخيل وقد تنادوا بالغاظة، فذهب يروم ذلك مرة وثانية فلم يقدر، فقال: من سره بنوه ساءته نفسه... وفي ضد هذا المعنى يقول أكرم بن صيفي حكيم العرب:

إِنَّ بَنِي صَيْفِيَّةٍ صَيْفِيُّونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُّونَ

ويقال أصاف الرجل يصيف إصافة: إذا لم يولد له حتى يسن ويكبر وأولاده صيفيون، والواحد صيفي، والرّبعيون: الذين ولدوا في حدائثه وأول شبابه، ولما حضرت سليمان بن عبد الملك الوفاة تمثّل بهذا البيت لأنه لم يكن في أبنائه من يقبله العهد بعده، ومعنى ذلك عندهم: أن الأولاد الكبار أفضل من الصغار لدى الوالد، ولا سيما إذا كبر. وهذا على نقيض قول القائل: من سره بنوه ساءته نفسه، وإن كان لكل وجه هو مولئها،



وناول عمر بن الخطاب رجلاً شيئاً فقال له: خدّمك بنوك، فقال عمر:

يَلِ أَعْنَانَا اللهُ عَنْهُمْ.

وكان يقال: ابْنُكَ رَيْحَانُكَ سَبْعًا، وخَادِمُكَ سَبْعًا ثم عدوٌّ أو صديقٌ ...

وفي الأثر: رِيحُ الْوَالِدِ مِنْ رِيحِ الْجَنَّةِ ...

وكان رسول الله يُقْبَلُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو حفيد المصطفى -
يوماً، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرةً من الأولاد ما أقبأت واحداً منهم،
فقال رسول الله: فما أصنع إن كان الله تَزَعِ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ!

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا مات الرجل انقطع
عمله، إلا من ثلاث: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أو عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ.
وقالوا: خيرٌ ما أُعْطِيَ الرَّجُلُ بَعْدَ الصَّحَةِ وَالْأَمْنِ وَالْعَقْلِ وَلَدٌ مُوَافِقٌ.
من زوجةٍ موافقةٍ * ومُتَعَةٍ الْعَيْشِ بَيْنَ الْإِهْلِ وَالْوَالِدِ *

وكانت الْعَرَبُ تُسَمِّي مَنْ لَا وِلْدَانَ لَهُ صُنْبُورًا، وَالصُّنْبُورُ فِي اللُّغَةِ: الْإِبْتَرُ
لِأَعْقَبٍ لَهُ وَلَا أُخْ، فإذا مات انقطع ذِكْرُهُ وَكَانَ كَفَّارٌ قُرَيْشٍ يُطْلَقُونَ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ: صُنْبُورًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: إِنَّ شَانِتَكَ هُوَ الْإِبْتَرُ « شانتك:
مبغضك، والابتَر الذي لا عقب له » ...

وقال حكيم في مَيِّتٍ: إن كان له ولد فهو حَيٌّ وإن لم يكن له ولدٌ
فهو مَيِّتٌ

ومن أمثال العرب: أَبْنُكَ ابْنُ بُوْحِكَ « أي ابنُ نَفْسِكَ لِأَنَّ تَبْنِيَّتَهُ،
ومثله: وَوَلَدُكَ مِنْ دَمِي عَقِيبُكَ » يعنون: الذي نَفِسْتِ بِهِ فَادَمَى النَّفَاسُ
عَقِيبُكَ، أي: ابْنُكَ مِنْ وِلْدَانِهِ لِأَنَّ تَبْنِيَّتَهُ، وقيل لحكيم: ما السَّعَادَةُ؟ قال:
أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ ابْنٌ وَاحِدٌ، فقليل له: الْوَاحِدُ يُخْشَى عَلَيْهِ الْمَوْتُ! قال:
لَمْ تَسْأَلُونِي عَنِ الشَّقَاوَةِ ...

وهناك فريق من الناس يذهبون إلى ذمِّ الولد وقلة جدواه : وما يروى في هذا الباب أنه قيلَ لبعض الزهادِ : هَلَّا تزوّجت ؟ فربما يكون لك خَلْفٌ ؟ فقال : كفى بالزهيد فيه قوله تعالى : إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ؛ وقوله سبحانه وتعالى : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ... وقالوا : قِلَّةُ العيالِ أحدُ اليسارينِ ، وقال المتنبي :

وما الدهرُ أهلٌ أن يُومَلَ عنده حياةٌ وأن يُشتاقَ فيه إلى الدَسَلِ
هَلِ الوَلَدُ المَحْبُوبُ إِلَّا تَعَلَّةٌ

وهلْ خَلْوَةٌ الحَسَنَاءِ إِلَّا أذى البَعْلِ (١)

وقد ذُفَّتْ خَلْوَاءُ البَنِينَ عَلَى الصَّبَا فلا تَحَسَّبَنِي قلتُ ما قلتُ عن جَهْلٍ
وقال المَعْرَى - وهو إمامُ السَّاخِطِينَ ، « أو المَتَشَائِمِينَ كما يقولون اليوم » - :

أَرَى وُلْدَ الفَتَى عَيْبًا عَلَيْهِ لَقَدْ سَعِدَ الَّذِي أُنْضِيَ عَقِيمًا
فإِذَا أَنْ يُرَبِّيَهُ عَدُوًّا وَإِذَا أَنْ يُخَلِّفَهُ يَتِيمًا
وَإِذَا أَنْ يُصَادِفَهُ حِمَامٌ فَيَبْقَى حُزْنُهُ أَبَدًا مُقِيمًا

وَبُشْرُ الحَسَنِ البَصْرِيُّ بابنٍ فقال : لا مرحبا بمن إن كنت غنيا أذهلني ،
وإن كنت فقيرا أتعبني ، لا أرضى كدِّي له كدًّا ، ولا سنجي له في الحياة
سعيًا ، أهتمُّ بفقره بعد وفاتي ، حين لا ينالني به سرور ، ولا يُهمُّه لي حُزن ،
وأصحّر الحسن يوما - أي ذهب إلى الصحراء - فرأى صيادا فقال : ما أكثرُ

(١) تعلقة : يقال : فلان يملل نفسه بتعلة : أي لهاها به كما يعلل الصبي بشيء من الطعام يتجرأ به عن اللبث . يقول : إن السرور بالولد المحبوب لا يدوم وإنما هو تعلق إلى وقت ، ثم قال : وخلوتك بامرأتك أذى لك في الحقيقة لأنها تجلب لك ولداً تقتم من أجله وتتأذى بتربيته وربما كانت العاقبة إلى الشكل

ما يَقَعُ فِي شَبَكَتِكَ؟ قَالَ: كُلُّ طَيْرٍ زَاقٍ «أَيُّ يَزُقُّ أَفْرَاخَهُ أَيْ يُطْعِمُهَا
بِقِيهِ، فَقَالَ الْحَسَنُ: هَلَكَ الْمُعِيلُونَ «أَيُّ الَّذِينَ لَهُمْ عِيَالٌ كَثُرَ،
وَقَالَ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَحَدِ ابْنَيْ بَدْتِهِ: إِنَّكُمْ لَتُجَبَّنُونَ
وَإِنَّكُمْ لَتُجْلُونَ وَإِنَّكُمْ لَمِنْ رِيحَانِ اللَّهِ، وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: الْوَالِدُ مَجْبُتُهُ
مَجْهَلَةٌ مَبْخَلَةٌ.. «يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْوَالِدَ يَحْمِلُ أَبَاهُ عَلَى الْجَبَنِ، فَلَا
يُجَاهِدُ وَلَا يَشْجَعُ، لِأَنَّهُ يُحِبُّ الْبَقَاءَ لِأَجْلِهِ، وَعَلَى الْجَهْلِ، بِمَلَاعِبَتِهِ إِيَّاهُ
وَتُرُؤْلِهِ إِلَى مُسْتَوَاهُ، وَتَرْكِهِ الْعَقْلَ وَمُقْتَضَاهُ، أَوْ بَاشْتِغَالِهِ بِهِ عَنْ طَلَبِ الْعِلْمِ،
وَعَلَى الْبُخْلِ، لِأَنَّهُ يُبْقِي عَلَى الْمَالِ لِأَجْلِهِ وَيَبْخُلُ بِهِ وَيَشْعُ»..

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي الْإِشْفَاقِ عَلَى الْأَوْلَادِ: فَوَلُ حِطَّانَ بْنِ الْمُعَلَّى - وَهُوَ

شَاعِرٌ إِسْلَامِيٌّ، وَأَيَّاتُهُ هَذِهِ فِي الْحَمَاسَةِ -:

أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ مِنْ شَاخٍ عَالٍ إِلَى خَفِضٍ
وَعَالَنِي الدَّهْرُ بِوَفْرِ الْغِنَى فَلَيْسَ لِي مَالٌ سِوَى عِرْضِي
أَبْكَانِي الدَّهْرُ وَيَا رَبِّمَا أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بِمَا يُرْضِي
لَوْلَا بُبَيَّاتُ كَرْغِبِ الْقَطَا رُدُّدَنَ مِنْ بَعْضِ إِلَى بَعْضٍ
لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَاسِعٌ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ
وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ
لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَمَّتْ عَيْنِي مِنَ الْقُمْضِ
«أَنْزَلَنِي الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ: أَنْزَلَهُ مِنَ الْعِزَّةِ إِلَى الذَّلَّةِ يَحْكُمُ فِيهِ بِمَا شَاءَ،
وَمِنْ شَاخٍ: مِنْ جَبَلٍ شَاهِقٍ طَوِيلٍ فِي السَّمَاءِ، وَإِلَى خَفِضٍ: إِلَى مَطْمَئِنٍّ مِنْ
الْأَرْضِ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ. وَعَالَنِي الدَّهْرُ: أَخَذَهُ غِيْلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرُ، وَبِوَفْرِ

الغنى : يريد : فى كثرة ماله ، وقوله : فليس لى مال سوى عرضى يريد : لم يبق له الدهر شيئا إلا أتى عليه سوى عرضه فلم ينتقصه . والعرض : قال ابن الأثير : موضع المدح والذم من الإنسان سواء كان فى نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره ، وقيل : هو جانبه الذى يصونه من نفسه وحسبه ويحامى عنه أن يُنتقص ويُتَلَب ، وقال أبو العباس ثعلب : إذا ذكر عرض فلان فعناه أموره التى يرتفع أو يسقط من جهتها بحمد أو بدم ، فيجوز أن تكون أمورا يوصف هو بها دون أسلافه ويجوز أن تذكر أسلافه لتلحقه النقيصة بعيهم وقول الشاعر :

✽ وأدركُ ميسورَ الغنى ومعنى عرضى ✽ أى أفعالى الجميلة

وقوله : بما يرضى : أى أضحكنى أحيانا بما يرضينى . وقوله : كزغب القطا : واحدها زغباء والذكر أزغب والصدر الزغب ، وهو أول ما يبدو من ريش الفرخ ، وكذا من شعر الصبي ، وقوله : رُدِّدْن من بعض إلى بعض : تصوير لهيئة تداخل الأفراخ واضمام بعضهن إلى بعض أول نشأتهم ، يصف بناته بأنهن ضعاف لا يستطعن القيام بشؤونهن . ومضطرب : أى اضطراب ، أى تحرك . وأكبادنا : تمثيل لمعنى الشفقة عليهن ، وقد بينها بقوله : لو هبت الريح ... البيت ... والغمض بضم العين : النوم ،

✽ ✽ ✽

ويقول إسحاق بن خلف ^(١) - من شعراء الدولة العباسية - فى بنت أخت له

(١) ترجم له صاحب الإغانى وإسحق هذا هو الذى يقول فى صفة السيف :

ألقى بجنايب خصره أمضى من الأجل المتأخ
وكأنما ذرَّ الهبا عليه أنفاس الرياح =

تسمى أئيمة كان حديبا عليها كلفا بها ، وهي من أبيات الحماسة :

لولا أئيمته لم أجزع من العدم ولم أفأس الدجى في حديد الظلم -
وزادنى رغبة في العيش معرفى ذل اليتيمة يجفوها ذور الرحم -
أحاذر الفقر يوما أن يُيلم بها فيهتك الستر عن لحم على وضم -
تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا

والموت أكرم نزال على الحرم -

أخى فظاظة عم أو جفاء أخ

وكنت أبقى عليها من أذى الكلم

«العدم: الفقر، وقوله: فيهتك الستر، فالهتك: جذبك الستر تقطعه من موضعه

أو تشق منه جزءا فيبدو ماوراءه ، وإسناده إلى الفقر مجاز ، وقوله عن لحم على وضم ، فالوضم : ما وضع عليه اللحم من خشب ونحوه ، وكانت العرب في باديتها إذا نحر بعير للحي بقدمونه ، تقلع شجرا وتضع عليه اللحم مقطعا يأخذ منه كل شريك قسمة ولم يعرض له أحد ، وكانت تضرب المشل في

== وهو الذى يقول فى مدح العربية من أبيات :

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تكررمة إذا لم يلحن
قال المبرد : وأحسبه أخذ قوله : والمرء تكررمة إذا لم يلحن من حديث حدثنا
به عن الأصمعي قال : كان يقال : ثلاثة يحكم لهم بالنبل لا يدري من هم : رجل رأته
راكبا فى شارة حسنة ، أو سمعته يعرب ، أو شممت منه طيبا . وثلاثة يحكم عليهم
بالاستصغار حتى يدري من هم : رجل شممت منه رائحة نبيذ فى محفل ، أو سمعته فى
مصر عربى يتكلم بالفارسية - أو الفرنسية أو الانكليزية أو غيرهما من اللغات - ورجل
رأته على ظهر طريق ينازع فى القدر .. ما أطيب هذا الكلام وأسماء وألقه
بأخلاق السادة .

ضعف النساء وقلة امتناعهن على طُلابهن إلا أن يذادَ عنهن ، بذلك اللحم مادام مع الوضم .
 وقوله : شفقا ، أى خيفة ، وقد شفق يشفق - بالفتح - وأشفق عليه يشفق :
 خاف ، وقوله : والموت أكرم نزال على الحُرْم ؛ فالحرم ، جمع حُرمة ، وهى
 عيال الرجل ونساؤه ، يريد : أن الموت أكرمُ ضيف ينزل عليهن ، وفى هذا
 المعنى قولهم .. دَفَنُ البنات ، من المسكُرات ، وسيمر عليك كلامهم فى هذا المعنى
 فى باب النساء ، وقوله : وكنت أبقى عليها : من أبقيت عليه : إذا أرعيتَ عليه
 ورحمته « ... وقال عمرانُ بنُ حِطَّان - وقد كان رأسَ القَعْدِ من الصُّفْرىة
 » طائفة من الخوارج ، وكان خطيبهم وشاعرهم ، وهو من التابعين :-

أقد زاد الحياةَ إلى حُبًّا بَنَاتِي أَنَّهُنَّ مِنَ الضَّعَافِ
 مَحَاقَّةَ أَنْ يَرَيْنَ البُؤْسَ بَعْدِي وَأَنْ يَشْرَبْنَ رَنَقًا بَعْدَ صَافِ
 وَأَنْ يَعْرَبْنَ إِنْ كَسَى البَجَوَارِي فَتَذْبُو العَيْنُ عَن كَرَمِ عِجَافِ
 ولولا ذاك قد سَوِّمْتُ مَهْرِي وفى الرحمن للأضعفاءِ كافِ
 أبابا مَنْ لَنَا إِنْ غَبَتَ عَنَّا وصارَ الحَيُّ بَعْدَكَ فى اختلافِ

« الرنق : الماء الكدر ، وكرم : قال ابن سيده وغيره : رَجُلٌ كَرَمٌ :
 أى كريم ، وكذلك الإثنان والجمع والمؤنث تقول : امرأة كرم ونسوة كرم
 لأنه وصف بالمصدر ، وعجاف : جمع عجفاء على غير قياس ، والنجف : الهزال
 وسومت مهري : فالخيل المسومة : المرسله وعليها ركبانها ، وفى التنزيل العزيز :
 والخيل المسومة ، من قولك سومت فلانا إذا خائتته وسومه ، أى : وما يريد ، وقيل
 الخيل المسومة : هى التى عليها السمة والسومة وهى العلامة »

وقال شاعر جاهلى يمتدح ابنه لِسِبْرِهِ بِهِ ، وهى من آيات الحماسة :

رَأَيْتُ رَبَّاطًا حِينَ تَمَّ شَبَابُهُ وَوَلَى شِبَابِي لَيْسَ فى بَرِّهِ عَثْبُ
 إِذَا كَانَ أَوْلَادُ الرِّجَالِ حَرَازَةَ فَأَنْتَ الحَلَالُ الحُلُوُّ والبَارِدُ العَذْبُ

لنا جانبٌ منه دَمِيثٌ وجانبٌ إذا رَأَمَهُ الأعداءُ مُمْتَنِعٌ صَعْبٌ
 وتأخُذُهُ عند المكارِمِ هِزَّةٌ كما هَتَزَتْ تَحْتَ البَارِحِ الغُصْنُ الرَطْبُ
 «قوله ليس في بَرِّهِ عَثْبٌ: يريد ليس في بره لَوْمٌ ولا سَخَطٌ، وقوله:
 إذا كان أولاد الرجال حَزَازَةً، فالحزازة: وجع في القلب من غَيْظٍ ونحوه
 والجمع حَزَازَاتٍ، وتروى: إذا كان أولاد الرجال مرارةً، وهي الأَنْسَبُ
 بقوله فأنت الحلال الحُلُو، يكتنى به عن الرجل الذي لا رية فيه، على المَثَلِ بالحُلُو
 الحلال مما يُذَاق، يصف طيب أخلاقه، وقوله: دَمِيثٌ: أى سهل لِينٌ،
 والبارح: الريح تهب من الشمال في الصيف خاصة،

وقال عمرو بن شَأْسٍ - وهو شاعر فارس شهد مع سيدنا رسول الله الحديبية
 وكانت امرأته تُؤذِي ابنه عِرَاراً - وكان من أمة سَوَدَاءٍ - تُعِيرُهُ بالسواد
 وَتَشْتُمُهُ، فلما أَعْيَتْ أباه عمراً أنشأ كلمة عدتها عشرون بيتاً اختار منها
 أبو تمام هذه الأبيات:

أرادت عِرَاراً بالهَوَانِ وَهَنْ يُرِيدُ	عِرَاراً لَعَمْرِي بالهَوَانِ فَقَدْ ظَلِمَ
فإن كنتِ مَنِّي أو تُرِيدِينَ صُحْبِي	فكوني له كالسَّمْنِ رُبَّ له الأَدَمِ
وإن كُنتِ تَهْوِينَ الفِرَاقَ ظَعِينَتِي	فكوني له كالذَّئِبِ ضَاعَتِ له الغَنَمِ
وإلَّا فِيبِرِي مِثْلَ ماسارِ را كُبِّ	تَجشَّمِ خِمْسًا ليس في سَيرِهِ يَتَمِّ
وإنَّ عِرَاراً إن يَكُنْ ذا شَكِيمَةٍ	تُقاسِئُهَا مِنْهُ فما أَمَلِكُ الشَّيْمِ
وإنَّ عِرَاراً إن يَكُنْ غيرَ واضِحِ	فإنِّي أَحِبُّ الجَوْنَ ذا المَنْسِيبِ العَمِّ

«قوله: فإن كنت مني: نقل الكلام من الإخبار إلى الخطب ومعنى فإن كنت مني: فإن
 كنت توافقيني، من قولهم فلان منياً. أى: يوافقنا. وقال المرصفي: معناه: فإن كنت
 مثل نفسي سيدة، وقوله: أو تريدين صحبتي: أى أو تكونين مثل غيرك في المعيشة لا حظ

لها في السيادة، وقوله: فكوني له كالسمن: أى كوني له كالسمن الذى لا يتغير،
والرب: خلاصة التمر بعد طبخه وعصره، والأدم: اسم جمع الأديم وهو الجلد
المدبوغ، يريد الأسقية التى يجعل فيها الرب. وكانت العرب تدهن وعاء السمن
بالرب لتمنع فساده ويزيد فى طيب ريحه، فقوله: رُبّ له الأدم: أى جعل فيه
الرب لئلا يفسد، وقوله وإن كنت تهوين الخ يقول: وإن كنت تؤثرين
مفارقتي مصممة على ذلك فكوني له ذئبا أهملت له الغنم يعيث فيها، ويقال لزواج
الرجل: ظعينة، وهى دقيمة، والأصل فى الظعينة المرأة فى هودجها وهى سائرة،
وقوله: وإلا فسيرى الخ، فالخمس: فلاةٌ بعد ماؤها حتى إر الإبل كترده فى اليوم
الرابع سوى اليوم الذى شربت فيه وصدرت، واليتم: التتور والتقصير
والإبطاء، يقول: وإلا فارقني وسيرى سير راكب تكلف ورود الماء
للخمس، وقوله: وإن عرارا... البيت، فالشكيمة: شدة النفس وإباؤها، والشيمة:
الخليقة، وكان عرار هذا حديد القلب ذرب اللسان، يقول: لا أفدر على
تغيير خلقه، فإما أن تلاميذه على ما تقاسينه من حدته، وإما أن تفارقني فإنه أحب
إلى منك، وقوله غير واضح: أى غير أبيض: مستعار من وضح الصبح
وهو يياضه، والجون هنا: الأسود المشرب حمرة، والمنتكب: مجتمع عظم
العضد والكتف، يصفه بالقوة والشدة، والعمم: التام، قالوا: كان عرار
هذا أحد فصحاء العقلاء، توجه عن المهلب بن أبي صفرة إلى الحجّاج رسولا
فى بعض فتوحه، فلما مثل بين يدي الحجّاج لم يرفه وازدراه، فلما استنطقه
أبان وأعرب ماشاء وبلغ الغاية والمراد فى كل ما سأل، فأنشد الحجّاج
تمثلا:

أرادت عرارا بالهوان ومن يرُدُّ عرارا لعمرى بالهوان فقد ظلم

فقال عرار : أنا - أيد الله الأمير - عرار ، فأعجِبَ به وبذلك الاتفاق .

صلة الرحم : « وبعد » فلنورد بعض ما قالوا في صلة الرحم ، والرحم في الاصل : موضع تكوين الولد ، ثم سميت القرابة رحماً ، فالرحم : خلاف الأجنبي ، وقال ابن الأثير : ذُوو الرحم : هم الأقارب ، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب - قرابة - ويطلق في الفرائض - علم المواريث - على الأقارب من جهة النساء . ويقال : رَحِمَ ورَحِمَ ورَحِمَ ، وهي مؤنثة ، قال زهير بن أبي سُلي :

خُذُوا حَظَّكُمْ يَا آلَ عِكْرِمَ وَاذْكُرُوا

أَوْاصِرَنَا وَالرَّحِمُ بِالغَيْبِ تُذَكِّرُ (١)

ومما ورد في صلة الرحم : قوله جل شأنه : وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، أَي وَاتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا ، وفي قراءة : وَالْأَرْحَامَ بِالخِنُصِ ، وَإِذَنْ يَكُونُ الْمَعْنَى : تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، وهو قولهم : نشدتك بالله وبالرحم . . . ، وقال صلى الله عليه وسلم : الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنْ اللَّهِ - وفي رواية : من الرحمن - معلقةً بالعرش تقول اللَّهُمَّ صَلِّ مَنْ وَصَّأَنِي وَأَنْطَعْ مَنْ قَطَعَنِي . . . قال الجوهري : الشجنة بالضم والفتح والكسر : عروق الشجر المشتبكة ، و : بيني وبينه شجنة رحم : أى قرابة مشتبكة ، ومن ذا قولهم : الحديث ذو شجون : أى ذو شُعَبٍ وَاِمْتِسَاكِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وعبارة أبي عبيدة في تفسير هذا الحديث : شجنة من الله : أى قرابة من الله مشتبكة كاشتباك العروق ، شبه بذلك مجازاً واتساعاً ، وأصل الشجنة . شعبة من غصن (١) من أبيات جميلة تراها في خزانة البغدادي ج ٢ ص ٢٨٧ وطبعة السلفية ،

من غصون الشجر ثم استعمل اتساعاً في الرحم المشتبكة « وقال عبد الله بن أبي أوفى: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: لا يجالسنا قاطعُ رحمٍ ، فقام شاب ، فأنى خالته له ، - وكان بينه وبينها شيء - فأخبرها بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستغفرت له واستغفر لها ، ثم رجع والنبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه فأخبره ، فقال النبي: إن الرحمة لا تنزل على قاطع رحم . وفي الحديث: من أحبَّ أن يُبَدِّطَ له في رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ له في أَجَلِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ « يُنْسَأُ: يُؤَخَّرُ ومنه الحديث . صلة الرحم مَثْرَاةٌ في المال مَنَسَأَةٌ في الأثر . منسأة: مفعلة من النَّسَأِ أَي مَظَنَّةٌ له وموضع ، والأثر: الأجل ، وفي الحديث: لا تستنسؤا الشيطان أي إذا أردتم عملاً صالحاً فلا تؤخروه إلى غد ولا تستمهلوا الشيطان ، يريد: أن ذلك مهلةٌ مُسَوَّلَةٌ من الشيطان . ولعل المراد من تبسيط الرزق ومد العمر: البركة والخير والسعادة ورفاعة العيش ، وللعلماء في ذلك كلام كثير راجعه في المطولات ، ...



وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم: من كان منهم يؤثر أقرباه بالولايات والعمالات وإسناد أمور الدولة إليهم ، فإنما كان ذلك - بعد كفاية الأقرباء واستحقاقهم - للبر صرفاً ، أي امتثالاً لأمر الله في وجوب صلة الرحم ، ومن كان منهم يؤثر الأجانب ويُنْقِصِي الأقاربَ ويَحْرِمُهُم أعمالَ الدولة . فإنما كان ذلك للبر أيضاً ، إذ كان ذلك إمعاناً في التورع والتأثم وتركاً لما يريب إلى مالا يريب ... وفي ذلك يقول الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه: كان عمر يمنعُ أقرباهه ابتغاء وجهِ الله ، وأنا أُعْطِي قراباتي لوجهِ الله ، ولن يُرَى مثلي عُمرٌ ... فنأمل قوله: ولن يُرَى مثل عُمر ... أي لن يبلغ إنسان مبلغه في

الحزم والسياسة الرشيدة وَضَبِطَ النفس أَنْ تَسْتَرْسل مع ما يُشبه الهوى ...
يعنى أَنَّ عُمَرَ أَفضلُ مني، رضى الله عن الجميع ..

ومما يروى فى معنى حث الأقارب على التعاون: أَنَّ أكنمَ بنَ صَيْفِيَّ
حكيمَ العرب دعا أولاده عند موته، فاستدعى بِضمانَةٍ من السهام «أى حُرْمَةَ
منها، لغة فى الإضمانه»، وتقدم إلى كل واحد أن يكسرها، فلم يقدر واحد
على كسرها، ثم بددها وتقدم إليهم أن يكسروها، فاستسهلوا كسرها، فقال:
كونوا مجتمعين، لِيُعْجِزَ من ناوأكم «أى عاداكم» عن كسركم، لعجزكم ...
وقال الشاعر فى هذا المعنى:

إِنَّ القِدَاحَ إِذا اجتمعنَ فزأها بالكسر ذو حَرْدٍ وبَطْشٍ أَيْدٍ (١)
عَزَّتْ فَلَمْ تُكْسَرْ، وَإِنْ هِيَ بُدِّتْ فالوهن والتكسيرُ لِلْمُتَبَدِّدِ
وقال آخر فى هذا المعنى:

إِذا ما أراد الله ذُلَّ قَبِيلَةٍ رَمَّاهما بتشتيت الهوى والتخاذل
«وهذا كما يقال فى الأقارب يقال فى كل جماعة بينهم كُفْمَةٌ تجمعهم، من
وطن وغير وطن، ومما يروى: أَنَّ رجلا من العرب قتل ابنَ أخيه، فدُفِعَ
إلى أخيه لِيقتادَ منه فلما أهوى بالسيف أرعدت يداهُ، فألقى السيف من
من يده وعَفَّاهُ عنه، وقال: - والبيتان فى الحماسة -:

(١) الحرد بتسكين الراء وبفتحها لغتان: الغضب والغيط، قال الأشهب
ابن رُمَيْلَةَ:

أَسودُ شَرِّى لاقَتِ أَسودَ خَفِيَّةٍ نَسَأَتُوا على حَرْدِ دماءِ الأَسودِ
والأيد: القوى

أَقُولُ لِلنَّفْسِ تَأْسَاءً وَتَعْزِيبَةً إِحْدَى يَدَيَّ أَصَابَتْنِي وَلَمْ تُرِدْ (١)
يَكْلَاهُمَا خَلْفَ مَنْ فَقَدَ صَاحِبَهُ هَذَا أَخِي حِينَ أَدْعُوهُ رِذَاوَلَدِي (٢)
وفي مثل هذا المعنى يقول الحارث بن وَعْلة الذُهلي - وهي من
أبيات الحماسة - :

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا، أُسِّمَ، أَخِي فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي
فَلَيْنَ عَفْوَتْ لَأَعْفُونَ جَلَالًا وَلَيْنَ سَطَوْتُ لِأُوهِنَنَّ عَظْمِي
لَا تَأْتِنَنَّ قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ وَبَدَأْتَهُمْ بِاللَّسْمِ وَالرَّغْمِ
أَنْ يَأْبُرُوا نَحْلًا لِعَيْرِهِمْ وَالشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وَقَدْ يَنْبِي
وَزَعَمْتُمْ أَنْ لَأَحْلُومَ لَنَا إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِذِي الْحِلْمِ
وَوَطِئْتَنَا وَطَأً عَلَى حَنْقِي وَطَأَ الْمُقَيْدِ نَابِتَ الْهَرَمِ
وَرَكْنَا لَحْمًا عَلَى وَضْمٍ لَوْ كَتَّ تَسْتَبِقِي مِنَ اللَّحْمِ

• يقول في البيت الأول : قَوْمِي - يَا أَمِيمة - هم الذين فَجَعُونِي بِأَخِي
وَوَتَرُونِي فِيهِ ، فإذا حاولت الانتصارَ منهم عاد ذلك بالنكابة في نفسي ،
لأن عَزَّ الرجل بعشيرته . وهذا الكلام تحزن وتفجع وليس ياخبار . وقوله :
فلئن عفوت ... البيت . يقول : إن تركتُ طلب الانتقام منهم صفحتُ
عن أمرٍ عظيم . وإن انتقمْتُ منهم أُرَهنتُ عَظْمِي : أي أضعفُته ، ويقال :

(١) تأساء: تفعال من الأسوة ، يقول : أعزى النفس عنه متأسيا بغيري عن
قتل ولده، وقوله إحدى يدي: مبتدأ، وأصابتنى خبر، ولم ترد: في موضع الحال، والجملة
في موضع نصب على أنه مفعول لقوله أقول

(٢) يقول: كل واحد من الأخ الواتر والابن المفقود يصلح لأن يرضى به عوضا

من فقدان الآخر

عفوت من الذنب : إذا صفحت عنه ، والسطو : الأخذ بعنف ، والجلال :
من الأضداد : يكون الصغيرَ ويكون العظيمَ ، وهو المراد ههنا . وقوله :
لاتأمننّ قوما ... ألبيتين ، حوّل الكلام عن الإخبار إلى الخطاب مُتَوَعِّدًا ،
والرغم : مصدر رغمت فلانا : إذا فديت به ما يُرْغَمُ أنْفَه ويُذَلُّه ، وتوله :
أن يأبروا : في موضع نصب على البدل من قوما في البيت الذي قبله ، كأنه
قال : لاتأمننّ أبرّ قويم ظلمتهم نخلا لغيرهم ، يقال : أبرتُ النخل وأبرته :
إذا لَقَعْتَهُ . يقول : إذا ظلمت قوما فلا تأمنهم أن ينتقموا منك فنشتفي
أعداؤك منك : فتكون كمن أصلح أمر غيره ، وقال بعضهم : المعنى : إن
ظلمتونا تحوّلنا عنكم ، فلا يكون لكم بعدنا مُقَامٌ - إقامة - فتتحولون أو
يملككم العدوُّ ، فيكون ما أبرّنا نحن وأنتم ، لهم دوننا ودونكم ، وقال
أبو الدلاء المدري : قد اختلف في معنى هذا البيت ، فقيل : أراد أنه يُفَارِقُهُمْ
ويَهْبِطُ هو وتوهُ أرضا ذات نخل كان لغيرهم فيدفعونهم عنه ويأبرونه ،
كأنه يتهدّدهم بترخله عنهم ، لأن ذلك يؤديهم إلى الذلِّ ، واستدلوا على هذا
الوجه بقوله في القصيدة :

قَوْضِ خِيَانِكَ وَالتَّمَسِ بِلَدَا يَنْأَى عَنِ العَاشِيكَ بِالظُّلْمِ

وقيل : بل يريد أنه يحاربهم فيصلحهم لغيره فيجعلهم كالنخل التي قد
أبرت ، إذ كان عدوهم ينال غرضه منهم إذا أعانه عليهم ، وقيل : بل عني
أنه يسبي نساءهم قوطاً فيكون ذلك كالإبار الذي هو تلقيح النخل . قال
التبريزي : وهذا الوجه أشبه بمذهب العرب مما تقدم ، لأنهم يَكُونُونَ
النخلةَ بالمرأة . وقوله : وزعمتم أن لاحلوم لنا : فأكثر ما يستعمل الزعم فيما
كان باطلا أو فيه آرتياب ، والحلوم : العقول ، وقرع العصا : كتابة عن التنبية ،

واختلف في أول من قرعت له العصا ، فتييل عمرو بن الظرب العدواني
وقيل عمرو بن جُمّة الدوسي ، وخبرهما : أن كل واحد منهما كان حَكَمًا للرب
يتحاكمون إليه في كل مُعضلة ، قالوا : إن العرب أتوا عمرو بن جُمّة
يتحاكمون إليه ، فغلطَ في حكومته - وكان قد أسنَّ - فقالت له ابنته : إنك
قد صرْتَ تهمُ في حكومتك - أي تغلط - فقال : إذا رأيتِ ذلك مني
فأقرعي العصا ، فكان إذا قرعت له العصا فطن . يقول : زعمتم أنه لا عقول
لنا وأنا سفهاء ، فإن كان الأمر على ما زعمتم فبهونا أتم ، وهذا تهكم من الشاعر
بهم ، وقوله : ووطيننا ... أبيت ، فالحنق : الغيظ ، والهرم : شجر ، أو
البقلة الحقاء - هي التي تُسعى الرَّجَلَة - ، أو ضربٌ من الجِمض فيه مُلوحةٌ
وهو أذله وأشدّه انبساطا على الأرض واستبطاحا ... وفي المثل : أذل من
الهرمة ، يقول : وأثرتُ فينا تأثير الحنق الغضبان كما يؤثر البعير المُقيّد إذا
وطئَ هذا النبات الضعيف ، وخصَّ المقيد لأن وطأته أثقل ، لأنه لا يتمكن
من وضع قوائمه على حسب إرادته . كما خص الحنق لأن إبقائه أقل . ومن
قول العرب : أعوذ بالله من وطأة الدليل ، أي من أن يطانى ، لأن وطأته
أشد لسوء ملكته ، كما قال امرؤ القيس :

فإنك لم يَفخَرَ عليكَ كفاخِرٍ ضعيفٍ ولم يَغْلِبِكَ مثلُ مُغْلَبٍ
وخص النباتَ وأراد : الحديثَ النباتِ ، وهو أغصنُ له وأرق ، ويروى :
يابسُ الهرمِ ، وقوله وتركنا لحما على وضم : فالوضم : الخشبة التي يَصعُ
الجزارُ اللحمَ عليها يُوقى بها اللحمُ من الأرض ، أو تقول : خِوانُ الجزار ، وقد تقدم
يقول . تركنا لادفاع بنا كاللحم على الوضم يتناوله من شاء ، ثم قال : لو كنت
تستبقي من اللحم ، أي لو كنت تترك بقية ، قال النربزي : جعل ذلك مثلا

لاستفساده لهم وسماحته بهم ،

والعرب تقول في العطف على القريب والحمية له وإن لم يكن وادًا :
« أَنْفَكَ مِنْكَ وَإِنْ دَنَّ ^(١) » وَعَيْصُكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَشْبَابًا ^(٢) وَقَالَ
قائلهم - وهو حريث بن جابر - :

إِذَا ظَلِمَ الْمَوْلَى قَزَعْتُ إِظْلَمَهُ فَحَرَّكَ أَحْشَائِي وَهَرَّتْ كِلَابِيَا ^(٣)
وقيل لأعرابي : مات قول في ابن العم ؟ فقال عدوك وعدو عدوك ، ولما
مات عبادة بن الصامت بكى عليه أخوه أوس بن الصامت ، فقيل له : أتبكي
عليه وقد كان يريد قتلك ؟ فقال : حركني للبقاء عليه ارتكاضنا في بطن ،
وارتضاعنا من ندي . . . ودخل رجل من أشرف العرب على بعض الملوك ،
فسأله عن أخيه . فأوقع به يعيبه ويشتمه ، وفي المجلس رجل يشؤد -
يبغضه - فشرع معه في القول ، فقال له : مهلاً ! إني لآكل لحمي ولا أدعه
لآكل . . . وقال الشاعر - قيل هو زرارة بن سبيع ، وقيل فضلة بن خالد ، وقيل
دودان بن سعد ، وكلهم من بني أسد ، شعراء جاهليون ، والآيات من الحماسة :
لَعَمْرِي لَرَهْطُ الْمَرْءِ خَيْرٌ بَقِيَّةً عَلَيْهِ وَإِنْ عَالُوا بِهِ كُلَّ مَرَكَبٍ
مِنَ الْجَانِبِ الْأَفْصَى وَإِنْ كَانَ ذَاغِيٌّ جَزِيلٌ وَلَمْ يُخْبِرْكَ مِثْلُ مُجَرَّبٍ

(١) دَنَّ أَنفَهُ يَدَنُّ : إذا سال ، والذنان والذنين : الخياط الرقيق الذي يسيل من
الأنف (٢) العيص : منبت الشجر ، والأشب : الملتف ، ومعنى المثل : أصلك منك
وإن كان ذا شوك مشتبك غير سهل : أي أصلك منك وإن كان أقاربك على خلاف
ماتريد ، فاصبر عليهم فإنه لا بد منهم . .

(٣) هَرَّتْ الْكَلْبُ يَهْرُ هَرِيرًا : إذا نبح وكشر عن أنيابه ، ومن طبع الكلب أن
يهز دون أهله ويذب عنهم

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ عَدَى لَسْتَ مِنْهُمْ فَكُلِّ مَاعَلَفْتَ مِنْ خَيْثٍ وَطَيْبٍ
 « عالوا به يريد: علّوا به ، كل مركب : صعب أو ذلول ، يريد : وإن
 حمله مالا يستطيع ، ومن الجانب الاقصى ، يريد : من الحى الأبعد ، وقوله :
 ولم تك منهم ، يروى : * إذا كنت في قوم عدى لست منهم *
 وعدى بالكسر : غرباء ، فأما قوم عدى فقد ورد فيها الضم والكسر
 وقوله : فكل ماعلفت : فهذا مثل ، يريد به : المسألة والمدارة ، ويروى للشاعر
 بعد هذا البيت :

فَإِنْ حَدَّثْتُكَ النَّفْسَ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى مَا حَوَتْ أَيْدِي الرِّجَالِ فَكَذِّبْ

* * *

وقديما أكثروا من شكوى الأقارب : من جهة أنهم يحكم تجاورهم
 وقرابتهم أدنى إلى الحسد والعداوة ، فقالوا : الأقارب عقارب وأشهم بك
 رحما أشدهم بك لدغا ، وقال بعض حكماء العجم : ثلاث لا يُستصاح فسادهم
 بشيء من الحيل : العداوة بين الأقارب ، وتحاسد الأكفاء ، والركاكة في
 الملوك ... ولذلك شكوا من أن عداوة الأقارب أشد على النفس من عداوة
 الأباعد فقالوا : - والقائل طرفة بن العبد - :

وَوَظَلُّ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهْتَدِ
 ونال الشريف الرضى :

وَلِلذُّلِّ بَيْنَ الْإِقْرَبِينَ مَضَاضَةٌ وَالذُّلُّ مَا بَيْنَ الْإِبَاعِدِ أَرْوَحُ
 وَإِذَا أَتَيْتَ مِنَ الرِّجَالِ قَوَارِصَ فِسْهَامِ ذِي الْقُرْبَى الْقَرِيْبَةَ أَجْرَحُ (١)
 فمنهم من يحلم ويبقى على مقتضيات القرابة ، ويتجأ عن ذنوب

(١) القوارص : جمع قارصة وهي الكلمة المؤذبة قال الفرزدق :

قَوَارِصُ تَأْتِينِي وَتَحْتَمِرُونَهَا وَقَدْ يَمَلَأُ الْقَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعَمُ

أقربائه على الرغم من عدائهم ، فيقولون - والقائل محمد بن عبد الله الأزدي -
صحابي جليل - وهذه الأبيات في الحماسة - :

لَا أَدْفَعُ ابْنَ الْعَمِّ يَمْشِي عَلَى شَفَا وَإِنْ بَلَغْتَنِي مِنْ أَذَاهُ الْجِنَادِ عُ
وَلَكِنْ أُوَاسِيهِ وَأَنْسَى ذُنُوبَهُ لِتَرْجِعَهُ يَوْمًا إِلَى الرَّوَاجِعِ
وَحَسْبُكَ مِنْ ذُلِّ وَسُوءِ صَنِيعَةٍ مَنَاوَاةِ ذِي الْقُرْبَى وَإِنْ قِيلَ قَاطِعُ

« الشفا : حرف الشيء وحده ، مثل الشفير ، وقد أشفى على الهلاك : أشرف -
والجنادع في الأصل - كما قال أبو حنيفة الدينوري - : الجنادب الصغيرة ، وجنادب
الضب : دواب أصغر من القردان تكون عند جحره فإذا بدت هي
عُلم أن الضب خارج فيقال حينئذ : بدت جنادعه ، ثم قيل لأوائل الشر :
بدت جنادعه ، يقول الشاعر : لا أدفعه يمشي على حد الهلاك وإن بالغ في
الإساءة ، والمناوأة : المداواة ، وأصله الهمز يقال : ناواه مُناوأة : أى عاداه ،
وقوله : وإن قيل قاطع : يريد : وإن قيل في ذي القربى إنه قاطع لرحمه فلا
يحملك ذلك على مناوأة ، وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا وَآلِنَا لَا تَنْدَبُوا بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا
لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُوا وَنَاوُنَا وَنَكْفَ الْأَذَى عَنْكُمْ وَتُوذُونَا
مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مِنْ نَحْتِ أَثْلَتِنَا سِيرُوا رُؤَيْدًا كَمَا كُنْتُمْ تَسِيرُونَا
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا لَا نُجِبُكُمْ وَلَا نَلُومُكُمْ إِنْ لَمْ تَحْبُونَا
كُلُّ لَهُ نَيْسَةٌ فِي بُعْضِ صَاحِبِهِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَقْلِيكُمْ وَتَقْلُونَا

« مهلا : يريد : رفقوا وسكونا لاتعجلوا ، ويريد بنى عمه : بنى أمية ، وقد
كان في صدورهم أحقاد ، وقوله لاتنبشوا : يريد لاتستخرجوا ما كان بيننا

من العداوة مدفونا في الصدور، وقوله: من نحت أثنتنا، فالأثلة: واحد الأثل وهو من الغضاه شجر طوال مستقيم الخشب ومنه تصنع الأقواح والجفان ونحتها: قشرها أو نشرها، يريد: هلا بني عمنا في إظهار المثالب والمعائب التي تلصقونها بنا، وقوله: كل له نية الخ يريد: إنا وإياكم لعلی طرفی نقيض نحن نبغضكم لاغتصابكم الملك واستيلائكم على أموال المسلمين وأنتم تبغضوننا على قربابتنا من النبي صلوات الله عليه، وقلاه يقلبه قلى: أبغضه، وقد حذف نون الرفع من تقولنا ضرورة

وقال ذو الأصبغ العدواني: (١)

لولا أواصر قربي لست تحفظها ورهبة الله في مؤلى يعاديني
إذن بريتك برياً لا انجبارله إني رأيتك لا تنفك تبريني

وممن من اضطر إلى الانتقام من أقاربه: أو ممن تربطه بهم آصرة مأم تأسف، فقال قيس بن زهير في ذلك:

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شقاني
قتلت ياخوتي سادات قومي وقد كانوا لنا حلى الزمان
فإن أك قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بناني

وقال النخعي:

فإنك حين تبلغهم أذاه وإن ظلموا لمحترق الضمير

(١) واسمه مُحَرَّثان بن الحارث بن محزث، شاعر فارس من قدماء الشعراء في الجاهلية، وبيته هذان من قصيدة له في ابن عم له اسمه عمرو وهي قصيدة بارعة جدا أولها:

يامن لقلب شديد الهم محزون أوسى تذكّر ليلى أم هارون
وقد ترجم له صاحب الأغاني، انظر الجزء الثالث طبعة دارالكتب،

وقال المنبئ في ذلك :

وكيف يَتَمُّ بأُسْكَ في أناسٍ تُصِيبُهُمْ فَيُؤْلِمُكَ المُصَابُ
وقال البحترى من قصيدة له يمدح بها المتوكل على الله العباسى ويذكر

صالح بن تغلب - :

وفرسانٍ هيجاءٍ تَجِيئُ صُدُورُهَا بأحقادها حتى تضيقَ دُرُوعُهَا

تُقْتَلُ من وَتِرٍ أعزَّ نفوسِها عليها بأيدي ماتكاد تُطيعها

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تَذَكَّرَتِ القُرْبَى ففاضت دموعها

وقال سيدنا على كرم الله وجهه - حين تصفح القتلى يوم الجمل : شَفَيْتُ

نَفْسِي ، وَجَدَعْتُ أَنْفِي - وسيمر بك هذا الكلام بتمامه في موضع آخر من هذا

الكتاب ... ومنهم من يركب رأسه وَيُحِبُّ في عداة أقاربه خَبًا ولا يبالي -

وقد قال قائلهم - أوس بن حَبَاءِ التيمي - :

إذا المرءُ أولاك الهوانَ فأولهُ هواناً وإن كانت قريبا أو اصِرهُ

ويبلغ الحق بهذا الصنف من الناس أن يظاهر الأجنبي على القريب

وقد شبه العرب هذا الصنف بذئب السوء قال الفرزدق - :

وَكُنْتُ كَذِئْبِ السُّوءِ لَمَّا رَأَى دَمًا بصاحبه يوما أحالَ على الدِّمِّ

« وهو معلوم أن الذئبَ إذا رأى بصاحبه دمًا أقبل عليه ليأكله ، وإنه

لبديهي أن هذا التماؤل للأجنبي على القريب لا يثمر إلا الضرر الموبق ، وقد

قال قائلهم في ذلك - وهو أبو يعقوب الخُرَيْبِيُّ - :

كانوا بني أمٍ ففرَّقَ شملَهُم عَدَمُ العُقُولِ وَخِيفَةُ الأَحْلَامِ

وقد ورد في علاج العداء الذي يحدث بين الأقارب : وهو علاج مُسَكَّن ... ولاكنه لا علاج غيره - قولُ أَكْثَمِ بْنِ صَيْفِيٍّ حَكِيمِ الْعَرَبِ : تَبَاعَدُوا فِي الدِّيَارِ تَقَارَبُوا فِي الْمَوَدَّةِ ... وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى الأشعري : مُرْ ذَوَى الْقَرَابَاتِ أَنْ يَتَزَاوَرُوا وَلَا يَتَجَاوَرُوا ... وقال في هذا المعنى وزاد شاعرٌ جاهلي من بني أسد - وكان له ابن عم يترصد له مرافع السوء - :

دَاوَابْنِ عَمِّ السُّوءِ بِالنَّأْيِ وَالْغِنَى كَفَى بِالْغِنَى وَالنَّأْيِ عَنْهُ مُدَاوِيَا
يَسْأَلُ الْغِنَى وَالنَّأْيُ أَدْوَاءَ صَدْرِهِ وَيُبِيدِي التَّدَانِي غِلْظَةً وَتَقَالِيَا
أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكُهُ كَفَى الدَّهْرُ لَوَوَكَلْتُهُ بِي كَافِيَا

• النَّأْيُ : البعد ، والغنى : مصدر غَنِيَ عن الشيء يَغْنَى : استغنى عنه ، وأَطْرَحَهُ فلم يلتفت إليه ، وَيَسْأَلُ : ينتزع برفق ، وأدواء صدره : أضعافه وأحقادها ، والتَّدَانِي : يريد إظهار التقارب منه ، وتَقَالِيَا : تباغضا ، وحك بَرَكُهُ : فالحك : إمرار جرم على جرم ، والبرك في الأصل : كل كل البعير ، وهو صدره الذي يدكُّ به مآخته ، استعاره لادهر ، وقوله . كَفَى الدَّهْرُ الخ : يريد : كَفَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ وَحَدَّةً فِي الْإِسَاءَةِ فَلَا تَكُونُ إِعَانَتُهُ وَحَادِثُ الدَّهْرِ مَا عَلَيْهِ ،

ومن كلامهم في الإخوة : ماورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : حَقُّ كَبِيرِ الْإِخْوَةِ عَلَى صَغِيرِهِمْ حَقُّ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ ... وَيُرْوَى أَنَّ إِخْوَةَ حَضَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَتَكَلَّمُوا أَصْغَرَهُمْ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَلَكَبْرُ السُّكْبَرِ ... «الكبر : جمع الأكبر ، كأخمر وأخمر : أى لبدا الأ أكبر بالكلام ، أرقده والأ أكبر ، إرشادا إلى الأدب في تقديم الأسن ، وقيل لحكيم معه أخ أكبر منه ؛ أهذا أخوك ؟ فقل بل أنا أخوه ... وكان بين الحسن والحسين رضى الله عنهما كلام ، فقيل للحسين : أدخل

على أخيك فهو أكبر منك ، فقال : إني سمعتُ جدِّي صلى الله عليه وسلم يقول : أيما اثنين جرى بينهما كلام ، فطلب أحدهما رضا الآخر ، كان سابقه إلى الجنة ، وأنا أكرهه أن أسبق أخى الأكبر ، فبلغ قوله أخاه ، فأتاه عاجلا وأرضاه ...



ومما يتصل بالإخوة وينشعب به القول في هذا الباب : ما روى في الأخوين يختلفان في النجابة والتخلف والحسن والدمامة ، فهذا كَيْسٌ رَفِيعٌ ، وهذا أَحْمَقُ وضيع ؛ وهذا جميل ، وهذا دميم ، قال الأصمعي : لم يقل أحد في تفضيل أخ على أخ وهما لأب وأم مثل قول ابن المعتز لأخيه صخر :

أبوك أبى وأنت أخى ولكن تفاضلت العناكب والرؤس
وفي هذا المعنى يقول بعضهم :

تفرّد بالعلياء عن أهل بيته وكلُّ يهتدي به إلى المجد والدُّ
وتختلف الأثمار في شجراتها إذا شَرقتْ بالماء والماء واحدٌ

وقال رجل لأخيه : لَأَهْجُوَنَّكَ ، فقال : كيف تهجونى وأنا أخوك لأبيك وأمك ؟ فقال :

غُلامٌ أتاه الأثوم من شَطْرِ نَفْسِهِ ولم يأتِهِ مِنْ شَطْرِ أُمِّ وَلَا أَبِ
وقال رجل لآخر ، وكان هذا الآخر قبيحاً ومعه أخٌ صبيحٌ ، : ما أمك إلا شجرة البلوط ، تحمل سنة بلوطاً وسنة عَفْصاً^(١) وفي هذا المعنى يقول آخر :

(١) البلوط : أبو فروة ، والعفص : تتره يكون على شجرة البلوط أو ضرب منه

أَمَا رَأَيْتَ بَنِي بَدْرٍ وَقَدْ خُلِقُوا كَأَنَّهُمْ خُبْرٌ بَقَالٍ وَكُتَابٍ (١)

قطيعة الإخوة

ومما جاء في قطيعة الإخوة وتبريرها - والقطيعة الهجران ، ضد الصلة - : ما روى أنه قيل لأعرابي : لِمَ تَقْطَعُ أَخَاكَ شَقِيمَكَ ؟ فقال : أَنَا أَقْطَعُ الْفَاسِدَ مِنْ جَسَدِي الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْهُ ، فَكَيْفَ لَا أَقْطَعُهُ إِذَا فَسَدَ ! وكتب الفضل بن سهل الوزير إلى المأمون - الخليفة العباسي - : أما بعد ، يَا خَلِيعَ الْخُلُوعِ - يريد الأمين أخا المأمون - وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النَّسَبِ وَاللَّحْمَةِ ، فَقَدْ فَرَّقَ كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَهُمَا فِيمَا اقْتَضَى عَلَيْنَا مِنْ نَبَأِ نُوحٍ ، فَقَالَ : يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، وَلَا صِلَةٌ لِأَحَدٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَلَا قَطِيعَةٌ مَا كَانَتِ الْقَطِيعَةُ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، وَالسَّلَامُ . . . وَقِيلَ لِبُزْرِجِيمَ : أَخُوكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ صَدِيقُكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا أَحِبُّ أَخِي إِذَا كَانَ صَدِيقًا . وَيُقَالُ : الْقَرَابَةُ مَحْتَاجَةٌ إِلَى الْمَوَدَّةِ ، وَالْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْإِنْسَابِ ، وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

فَإِذَا الْقَرَابَةُ لَا تُقَرَّبُ قَاطِمًا وَإِذَا الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْإِنْسَابِ

الناس تجاه البنات

وقد كان الأوائل يُجَاهِ الْبَنَاتِ - وكذلك الناس إلى يومنا هذا - فريقين - : فَأَمَّا فَرِيقٌ فَقَدْ كَانُوا يُفَضِّلُونَهُنَّ وَيَحْنُونَ عَلَيْهِنَّ ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ذَلِكَ مَا يُرْوَى أَنَّ مَعْنَ بْنَ أُوَيْسَ الْمُرَزِيِّ - شاعر إسلاميٍّ من الفحول -

(١) البقال : بائع البقول ، والكتاب : المدرسة يحفظ فيها كتاب الله وما إليه

كان مثنائاً - وكان له ثمان بنات ، وكان يُحْسِنُ مُحَبِّبَتَهُنَّ وَتَرَبِّبَهُنَّ ، فَوَلِدَ لِبَعْضِ عَشِيرَتِهِ بِلْتٌ ، فَكَرِهَهَا وَأَظْهَرَ جَزَعًا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ مَعْنُ :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَسْكُرُهُونَ بِنَاتِهِمْ

وَفِيهِمْ - لَا تُكْذِبُ - نِسَاءً صَوَالِحُ

وَفِيهِمْ - وَالْأَيَّامُ يَعْتُرُنَ بِالْفَتَى - عَ - وَائِدٌ لَا يَمْلِكُنَّهُ وَنَوَاحٍ

وَدَخَلَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ ابْنَتُهُ عَائِشَةُ ، فَقَالَ : مَنْ هَذِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : هَذِهِ مُفَاحَةُ الْقَابِ ؛ فَقَالَ : أَنْيذُهَا عَنْكَ ، قُلْ : وَلِمَ ؟ قَالَ : لِأَنَّ يَلِدُنَ الْأَعْدَاءَ ، وَيُقَرِّبُنَ الْبُعْدَاءَ ، وَيُورِثُنَ الضَّغَائِنَ ^(١) ، فَقَالَ : لَا تَقُلْ ذَلِكَ يَا عَمْرُو ، فَإِنَّ اللَّهَ مَرَّضَ التَّرَضَى وَلَا تَدَبَّ الْمَوْتَى وَلَا أَعَانَ عَلَى الْأَحْزَانِ مِثْلَهُنَّ ، وَإِنَّكَ لَوَاجِدٌ خَالًا قَدْ نَفَعَهُ بَنُو أُخْتِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : مَا أَعْلَمُكَ إِلَّا حَبِيبَتَهُنَّ إِلَى ..

وقال بعضهم : البناتُ حسناتٌ . والبنونُ نعمٌ ، والحسناتُ مثابٌ عليها ، والنعمُ مسؤلٌ عنها ..

وأما الفريق الآخرُ فيكره البنات : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَكَبِيرٍ - كما قال سبحانه وتعالى - وَنَدِيمًا قَالُوا : نِعْمَ الْحَتَنُ الْقَبْرِ ^(٢) ... وَدَفَنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرَمَاتِ ...

* وَمَا خَتَنُ فِينَا أَعْفُ مِنَ الْقَبْرِ *

ونظر أيرابى إلى بِلْتِ تُدْفَنُ ، فَقَالَ : نِعْمَ الصَّهْرُ صَاهِرْتُمْ ... وَقَالَ

(١) يورث : من أزث النار : أوقدها (٢) الحتن : زوج البنت

الحسين بن علي رضي الله عنه : والد البنت مُتَّعِبٌ ، ووالدُ بنتَيْنِ مُثْقَلٌ ،
 ووالد ثلاث فعلى الناس أن يُعينوه... وقال الزهري : كانوا لا يرونَ علي
 صاحب ثلاثِ بناتٍ صدقةً ولا جهاداً ... وكانت العربُ لا تأكل طعامَ
 صاحب البناتِ وقد قال قائلهم :

إذا ما المرءُ شبَّ له بناتٌ عَصَبِنَ برأسه عَتْنَا وَعَارَا

وأد البنات : وناهيك في هذا الباب سُنْعَةٌ وَسُوءٌ صَنِيعَةٌ بما كان العربُ يفعلون
 في الجاهلية من وأد البنات (١) ... وما فَيَّضُوا إلى أن أُرْسِلَ سَيِّدُ البِشْرِ صلوات الله
 عليه ، فنَهَى عن ذلك ، وأَنْزَلَ اللهُ عز وتقدس : وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ
 ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ وكثيراً من الآيات في هذا المعنى المُفْطِعِ ... ودخل قيس بن
 عاصم المِنَقَرِيُّ - وهو سَيِّدُ أهل الوبر - على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :
 إني وأدتُ آثَمَتِي عَشْرَةَ بِنَاتٍ ، فما أَصْنَعُ ؟ فقال رسول الله : أَعْتَقْ عَنْ
 كُلِّ نَوُودَةٍ نَسَمَةً ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : فما الذي حَمَلَكَ على ذلك
 وأنت أكثر العرب مالا ؟ فقال : مَخَافَةٌ أَنْ يَنْدَكِحَهُنَّ مِثْلَكَ (٢) ، فبَسَمَ رسول
 الله وقال : هذا سيد أهل الوبر ... قال قيس : ما وُلِدْتُ لِي ابْنَةٌ إِلَّا وَأَدْتُهَا
 سِوَى بُنِيَّةٍ وَلَدْتُهَا أُمَّهَا وَأَنَا فِي سَفَرٍ ، فلما عُدْتُ ذَكَرْتُ أَنَّهَا وَلَدَتْ ابْنَةً
 مَيْتَةً ... فَأَوْدَعْتُهَا أَخْوَالَهَا حَتَّى كَبُرَتْ ، فَأَدْخَلْتُهَا مَنْزِلِي مُتَرَيِّنَةً ،

(١) وأد بنته يتدما وأدا : دفنها في القبر وهي حية

(٢) هذه معجزة وعنجهية من هذا الأعرابي الجلف في حق الصديق رضي الله عنه

وإن كان قيس بن عاصم سيد أهل الوبر ، وما أحلم سيدنا رسول الله الذي أرسل
 ليتم مكارم الاخلاق ، والذي أمر بأن يدعو الناس الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة
 الحسنة .

فاستَحَسَنَتْهَا ، فقلتُ : مَنْ هذه ؟ فقالت : هذه ابنتُكَ ، وهي التي أَخْبَرْتُكَ
أني ولدتها ميتةً ، فأخَذْتُهَا ودفنتُها حَيَّةً وهي تصيح وتقول : انتُرُكني
هكذا ؟ فلم أعرِّج عليها ، فقال صلى الله عليه وسلم : من لا يرَّحم لا يرَّحم ...

الخال والخولة

بقى بعد ذلك أن نورد شيئاً مما قالوا في الخولة والخال : والقول في ذلك
ينشعب أيضاً ، فقد قالوا في مدح الخال وذمه ، وقالوا في معنى نزاع
الولد إلى خاله ^(١) ، فَلَمَنْتَي شيئا مما قالوا في هذه المعاني ، فأما قولهم في
اعتبار الخولة وكونها كالأبوة ، فمن ذلك ما روى أن الأسود بن وهب
خال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليه ، فبسط صلى الله عليه وسلم له
رِدَاءَهُ ، فقال الأسود : حسبي أن أجلس على ما أنت عليه ، فقال صلى الله عليه
وسلم : أجلس فإن الخال والد ... ومن طريق هذا الباب ما روى أن الحجاج
قال لابن معمرٍ : إنك تزعم أن الحسن والحسين ابنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم ؟ قال : نعم ، قال : والله لا تقتلُكَ ، فقال ابن معمر : أليس الله يقول :
ومن ذُرِّيَّتِهِ دَارِدٌ وسليمان ، إلى قوله : وزكريا ويحيى وعيسى ، وإنما عيسى
ابنُ مريم : ابن بنت ، فقال نجوت ... وأما من عدَّ الخولة ليست من النسب
والفرابة ، فمن قولهم في ذلك - والقائل ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن
- شاعر جاهلي - وقيل غيره - :

إذا كنتَ في سعدٍ وأملكُ مِنْهُمُ غريباً فلا يغرركَ خالكُ من سعدٍ

(١) نزاع فلان إلى أبيه أو خاله ينزع نزوعاً ونزاعاً : ذهب إليه وأشبهه ، ومثله نزاع
الإنسان إلى أهله والبعير إلى وطنه نزاعاً ونزوعاً : حنّ واشتاق

فإن ابن أخت القوم مصغى إناؤه إذا لم يُزاحم خاله بأب جلد^(١)
وتقدم شابُّ إلى عبد الله بن الحسين رضى الله عنه فقال: إن جدى أوصى
ببُكْتِ ماله لولدٍ ولده، وأنا من ولدِ بنته، والوصى ليس يُعطينى منه، فقال:
لاحقَّ لك فيه، أما سمعت قول الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبنائنا بنوهُنَّ أبناءُ الرجالِ الأبايدِ

• يقول: إن بنى أبنائنا مثل بنينا، أما بنو بناتنا فليسوا منا وإنما هم أبناء
الاجانب، فنونا خبر مقدم وبنو أبنائنا مبتدأ مؤخر، وهذا البيت لا يعرف
قائله على شهرته. قال الإمام العيني: هذا البيت استشهد به النحاة على جواز
تقديم الخبر، والفرَضِيُّونَ - علماء المواريث - على دخول أبناء الأبناء
في الميراث وأن الانتساب إلى الآباء، والفقهاء كذلك في الوصية،
وأهل المعاني والبيان في التشبيه، ولم أر أحدا منهم عزاه إلى قائله
وقالوا في نزاع الولد إلى خاله:

عليك الحال إن الحال يسرى إلى ابن الأخت بالشبه المبين

وقالوا:

لكل امرئٍ شكلٌ يقرُّ بعينه

وقرّة عين الفسلي أن يصحب الفسلا

وتعرف في مجد امرئٍ مجد خاله

وينسذل أن تلقى أبا أمه نذلاً

(١) مصغى إناؤه: نقص حظه، يقال أصغى فلان إناؤه فلان: إذا أماله ونقصه
من حظه يقول هذا الشاعر: لا تغتر بخؤلك فإنك منقوص الحظ مالم تزاحم أحوالك
بآباء شراف وأعمام أعزة.

« الفسل : النذل الذى لامرءة له ولا جلد » وقال رافع بن هريريم :-
شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم ، يخاطب بنى أخوته :-

فَهَلَّا عَيْرَ عَمَّكُمْ ظَلَمْتُمْ إِذَا مَا كُنْتُمْ مُتَّظِلِينَ
عَفَارِيَتَا عَلِيٍّ وَأَكْلِ مَالِي وَجُبْنَا عَنْ رِجَالِ آخِرِينَا
وَلَوْ كُنْتُمْ لِمُكَيْسَةَ أَكَاسَتْ وَكَيْسُ الْأُمِّ كَيْسُ اللَّبِينَا
وَلَكِنْ أُمَّكُمْ حَمَمَتْ فَجَنَّمْ غِثَانَا مَا نَرَى فِيكُمْ سَمِينَا

وموضع هذه الآيات باب إنجاب الأدهيات فى كتاب النساء وترى نظائرله هناك
« قوله متظلينا ، تقول : تظلنى مالى : أى ظلنى مالى ، و « ما » فى : إذا ما كنتم :
زائدة ، والمكيسة : المرأة التى تلد أولادا أكياسا ، وأكاست المرأة : ولدت
ولدا كياسا ، والكيس : خلاف الحق ، ورجل كيس : أريب ظريف ، وقوله :
ولكن أمكم حممت : أى صارت حمقاء ، والغثا : جمع غثيث بمعنى مهزول »

مدعو القرابة البعيدة

ومما يستطرف من محاسنهم فى مدعى القرابة البعيدة : قول رجل لآخر :
لست ترعى حقى وبيننا قرابة ا فقال : من أين ؟ قال : إن أباك كان قد خطب
أُمِّي ، فلو تم الأمر لكنت أنا أنت ... فقال : هذه والله رحم مائة ...
وَتَعَرَّضَ رَجُلٌ لِهَشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَادَّعَى أَنَّهُ أَخُوهُ ، فَسَأَلَهُ : مِنْ أَيْنَ ذَلِكَ ؟
قَالَ : مِنْ آدَمَ فَأَمَرَ أَنْ يُعْطَى دِرْهَمًا ، فَقَالَ : لَا يُعْطَى مِثْلَكَ دِرْهَمًا ،
فَقَالَ هَشَامٌ : لَوْ قَسَمْتُ مَا فِي بَيْتِ الْمَالِ عَلَى الْقَرَابَةِ الَّتِي ادَّعَيْتَهَا لَمْ يَبْتَلِكْ
إِلَّا دُونَ ذَلِكَ ... وَفِي هَذَا الْمَعْنَى - مَعْنَى ادِّعَاءِ الْقَرَابَةِ وَاتِّفَاقِهَا -
يَقُولُ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ :

لَعْمُرِكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَيْلَ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النِّعَامِ (١)

محاسنهم في الآباء والأبناء والأقارب من بابات شتى

ولنعطف على سائر محاسنهم في الآباء والأبناء والقرابات من بابات شتى :

فمن ذلك تفاخرهم بالحسب وكرم المحدث ، قال عدى بن أرطاة لإياس : دُلَّنِي عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْقُرَاءِ أَوْلِيَهُمْ ، فَقَالَ : الْقُرَاءُ ضَرْبَانُ : ضَرْبٌ يَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا ، غَمًّا ظَنُّكَ بِهِمْ : وَضَرْبٌ يَعْمَلُونَ لِلْآخِرَةِ فَلَا يَعْمَلُونَ لَكَ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الَّذِينَ يَسْتَحْيُونَ لِأَحْسَابِهِمْ ... وَقَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلَى :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وقال :

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطُّ إِلَّا وَشِيحَهُ وَتُعْرُسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

« الْخَطُّ : الرَّاح ، قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ الدِّينُورِيُّ الْعَالِمُ النَّبَاتِيُّ الْأَشْهُرُ : الْخَطُّ :

الرَّمَاحُ ، وَهُوَ نَسَبَةٌ قَدْ جَرَى بِجَرَى الْأَسْمِ الْعِلْمِ وَنَسَبَتْهُ إِلَى الْخَطِّ ، خَطَّ الْبَجْرَيْنِ ، وَإِلَيْهَا تَرَفُّأَ نَسْفَنَ إِذَا جَاءَتْ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ ، وَلَيْسَ الْخَطُّ - الَّذِي هُوَ الرَّمَّاحُ -

مِنْ نَبَاتِ أَرْضِ الْعَرَبِ . وَزَادَ الْجَوْهَرِيُّ : وَإِنَّمَا نَسَبَتْ إِلَى الْخَطِّ لِأَنَّهَا تَحْمِلُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ فَتَقُومُ بِهِ . وَوَشِيحُهُ : فَالْوَشِيحُ شَجَرُ الرَّمَّاحِ ، ...

ودخل بعض أولاد عبد الله بن الزبير على سليمان بن محمد ، فجلس على مُرْقَةٍ

(١) الإل : القرابة ، والسقب : ولد الناقة ، والرأل : ولد النعام ، هجو حسان أبا سفيان الحارث بن عبد المطلب ، وزعم بعضهم أن هذا الشعر يقوله حسان لعقبة بن أبي معيط ، وذكروا أنه كان لزنبة ولذلك قال له عمر حين أمر رسول الله بضر عتقه ، فقال : أقتل من بين قريش صبوا ، فقال عمر : « حَقَّ قَدْجَ لَيْسَ مِنْهَا ،

«الوسادة يتكأ عليها ، فاخاظ من ذلك وقال : من أجلسك دهنًا ؟ قال : صَفِيَّةُ
بنت عبد المطالب : فسكن فضبه . وقال أبو تمام :

تَسَّبَ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نُورًا وَمِنْ فَاتِي الصَّبَاحِ عَمُودًا

• • •

وقالوا فيمن يشبه أباه في علاء ابنتاه : شَيْخِيَّةُ أَعْرَفُهَا مِنْ أَحْزَمِ^(١) و :
وإن امرءًا في الفضل أشبه جده ووالده الأذنى لغير ظلوم
وقال أبو تمام فيمن مكارهته تدلُّ على كرم أسلافه :

'فروغ لا ترثي عليك إلا شهدت بها على طيب الأروم^(٢)

وفي الشرف الحديث دليلُ صدق
وقال عامر بن الطفيل^(٣) في المستغنى بنفسه عن حبه :

إني وإن كنتُ ابنُ فارسٍ عامرٍ وفي السرِّ منها والصِّمِّ المهذب^(٤)

فما سودتني عامرٌ عن وراثة أبي الله أن أثنو بأتم ولا أب

ولكنني أحمي حماها وأتقى إذاها وأرسي من رماها بمقنب^(٥)

(١) الشنشة : العادة والطبيعة وهذا مثل ، وأصله لاني أخزم الطائي وهو جد
جندمرتين - حاتم الطائي ، وكان له ابن يقال له أخزم كان عاقاً مات وترك بنين فوثبوا يوماً
على جدم أبي أخزم فأدتموه فقال :

إن بني ضرجوني بالدم شنشة أعرفها من أخزم

يعني أن هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق

(٢) الأروم : جمع أرومة ، وهي الأصل

(٣) شاعر مخضرم وفارس مذكور بعيد الصوت في العرب

(٤) وفي السر منها : من سر الوادي ، وهو أكرم . وضع فيه يريد أنه في

كرم موضع من نسبا (٥) مقنب كقنبر : جماعة الخيل والرجال والجمع مقانب

ويروي : من رماها بمنكب ، والمنكب في الأصل : مجتمع عظم العضد والكتف ، ضربه

مثلاً للشدة والقوة

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب :
 كَسْنَا وَإِنْ كُرِمَتْ أَوَائِلُنَا يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ تَسِكَلُ
 نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا
 وقال المنبهي :

حُذِّ مَاتَرَاهُ وَدَعَّ شَيْئًا سَمِعَتْ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنِ زُحَلِ
 وقال :

لَا يَقْوَى شَرَفُ بِلْ شَرَفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
 وَمَا فَضَّلَ الْوَلَدَ عَلَى الْوَالِدِ بِأَحْسَنَ مِنْ قَوْلِ الْمُنْبَهِيِّ :
 وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الْعُلَبَاءُ عُنُصْرَهَا فَإِنَّ فِي الْخَمْرِ مَعْنَى لَيْسَ بِالْعِنَبِ
 وقوله أيضا :
 * فَإِنَّكَ مَاءُ الْوَرْدِ إِنْ ذَهَبَ الْوَرْدُ *

وقال ابن الرومي فيمن ازداد شرف آباءه به :
 وَكَمْ أَبٍ قَدْ عَلَا بِأَبْنِ دُرًّا شَرِيفٍ كَمَا عَلَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانُ
 يَسْمُو الرِّجَالُ بِآبَاءِ وَأَوْنَةٍ تَسْمُو الرِّجَالُ بِأَبْنَاءِ وَتَزْدَانُ



وقالوا في أنه لا اعتداد بمن شرف أصله إذا لم يشرف بنفسه :
 - والقائل المعلم الأول أرسطوطاليس - : إذا كان الإنسان خسيس الأبوين
 شريف النفس ، كانت خسته أبويه زائدة في شرفه ، وإذا كان شريف الأبوين
 خسيس النفس ، كان شرف أبويه زائداً في خسته . وقال ابن الرومي :
 وَمَا الْحَسَبُ الْمُرُوثُ لِأَدْرَ دَرُهُ بِحَسَبِ إِلَّا بِأَخْرَ مُكْتَسَبُ
 إِذَا الْعُودُ لَمْ يُشْمِرْ وَإِنْ كَانَ سُعْبَةً
 مِنَ الشُّمِرَاتِ اعْتَدَهُ النَّاسُ فِي الْحَطَبِ

« لا دَرْدَرَةٌ : لازكا عمله ، دعاء عليه أن لا يجعله الله نافعاً ،

وقال سقراط - في الاعتذار عن شرفت نفسه ولم يشرف أصله - وقد
عَيَّرَهُ رجل بحسبه - : حَسْبِي مِثِّي ابتداءً ، وَحَسْبُكَ إِلَيْكَ انتهى ... وقال قائل
في هذا المعنى : لَأَنَّ يكون الرجل شريف النفس ذئب الأصل ، أَفْضَلُ من
أن يكون ذئب النفس شريف الأصل ، ألا ترى أن رأس الكلب خير من
ذئب الأسد !

ومما يستظرف من اعتذار المتخلفين الأندال ، عن تخلفهم عن آباءهم الأشراف
ماروى : أنه قيل لأعرابي : ما أشبهت أباك ! فقال : لو أشبه كل رجل أباه
كنا كآدم ... وخطب رجل قَصَرَ عن أبيه إلى رجل رفيع القدر ، ابنته ، فقال
له العظيم : لو كنت مثل أبيك ! فقال : لو كنت مثل أبي لم أخطب إليك ...

ومن محاسنهم في ذم من قصر عن آبائه : قول بعضهم :

لَئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءِ لَمْ شَرَّفْ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بَشْتَمَا وَلَدُوا
وقول أبي تمام :

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ آبَاءَ وَمُفْتَخَرًا وَالْأَمَّ النَّاسِ مَبْلُؤًا وَنَحْتَبَرًا

ونظر رجل إلى ابن نذل من أب كريم فقال : سبحان الله من قائل :
يُخْرِجُ الْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ . وقال شاعر في لثيم النفس كريم الأبوين :
فَلَا يَعْجَبَنَّ النَّاسُ مِنْكَ وَمِنْهُمَا فَمَا حَبَّتْ مِنْ فِضَّةٍ بِعَجِيبِ
« الحبث من الحديد والفضة ونحوهما : مانفاه الكبير ولا خير فيه ،

وقالوا فيمن يَخْزَى من ذكر آبائه : فمن ذلك أن رجلاً سُئِلَ عن نسبه ، فقال : أنا ابن أخت فلان ، فقال أعرابي : الناس ينتسبون طولاً وأنت تنتسب عرضاً

ومن محاسنهم فيمن لا يعتدّ بأبيه : قول الأخطل :
وَإِذَا وَضَعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ رَجَحُوا وَشَالَ أَبُوكَ فِي الْمِيزَانِ
« شال الميزان : ارتفعت إحدى كفتيه ، ويقال : شال أبوك في الميزان ، وهو مثل في المفاخرة يقال : فاخترته فشال ميزانه : أى فخرته بأبائى وغلبته ، وقال بعض شعراء أصفهان :

تَبَجَّحَ بِالْكِتَابَةِ كُلِّ وَغَدٍ فُقُبْحًا لِلْكِتَابَةِ وَالْعَمَالَةِ
أَرَى الْآبَاءَ نَسَبَتْهُمْ جَمِيعًا إِلَى الْإِبْنَاءِ مِنْ فِرْطِ النَّدَالَةِ

وقالوا فى الابن يجارى أباه : العصامن العَصِيَّةِ و : هل تَلِدُ الحية لإلْحِيَّةِ
وقال شاعر :

وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ أَنْ لَا تَلُوْمَهُ عَلَى الشَّرِّ مَنْ لَمْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ وَالِدُهُ
إِذَا الْمَرْءُ أَلْفَى وَالِدِيَهُ كِلَيْهِمَا عَلَى اللُّؤْمِ فَأَعْدِرُهُ إِذَا خَابَ رَأْيُهُ (١)

وقالت الخنساء - وقيل لها : ما تَدَحَّتِ أَخَاكَ حَتَّى هَجَوْتَ أَبَاكَ ! فقالت :

جَارَى أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَعَاوَرَانِ مُلَاعَةً الْحُضْرِ
حَتَّى إِذَا نَزَّتِ الْقُلُوبُ وَقَدِ لُرَّتْ هُنَاكَ الْعُدْرُ بِالْعُدْرِ
وَعَلَا هُتَافُ النَّاسِ أُثَيْمًا قَالَ الْمُجِيبُ هُنَاكَ : لَا أَدْرِ

(١) أصل الرائد : الذى يتقدم القوم يبصر لهم الكلا ومساقط الغيث

بَرَزَتْ صَحِيفَةٌ وَجْهَ وَالِدِهِ وَهَضَى عَلَى خُلُوعِهِ يَجْرِي
أُولَى فَأُولَى أَنْ يَسَاوِيَهُ لَوْلَا جَلَالُ السَّنِّ وَالْكِبَرِ
وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا صَقْرَانِ قَدْ حَطَّأَ إِلَى وَكْرِ

«قوله: ملاءة الحضر: فالحضر: العدو والجرى، وإنما تريد بملاءة الحضر: الغبار
وكان عدى بن الرقاع نظر إلى هذا في قوله يصف حماراً وأتانا:
يتعاوران في الغبار ملاءةً بيضاء محدثةً هما تسجها

ونزت القلوب: يريد طمحت واشرأبت لتعرف من السابق، ولزت: قرنت
والعذر: جمع عذار وهو ماسال من اللجام على خد الفرس، ويروى القدر
بالقدر، والقدر: المنزلة، والكبر: أظنها بضم الكاف بمعنى الأ كبر أى ولولا
جلال الأ كبر، ولك أن تقرأها الكبر بكسر الكاف أى الكبر ولكنك
أسكن الباء ضرورة،

أما الإسلام فقد عدّ الشرف والحسب إنما هو بالثقي فقال سبحانه: إن
أكرمكم عند الله أتقاكم، قال بعضهم: ما أبقى الله بهذه الآية لأحد شرف
أبوة... ورأى عمر بن الخطاب رجلاً يقول أنا ابن بطحاء مكة، فوقف
عليه وقال: إن كان لك دين فلك شرف، وإن كان لك عقل فلك مروءة.
وإن كان لك علم فلك شرف، وإلا فأنت والحمار سواء، وقالوا: كان
الشرف في الجاهلية بالبيان والشجاعة والسماحة، وفي الإسلام بالدين والثقي...

وقالوا في الدعوة: أى ادعاء الولد الدعى غير أبيه، أى انتسابه إلى
غير أبيه، وقد كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية. فنهى الإسلام عنه، وكان سيدنا
رسول الله قد تبني زيد بن حارثة عتيق الرسول، فكانوا يقولون له: ابن

محمد ، فأمر الله عزّ وجل أن ينسب الناس إلى آباؤهم وأن لا ينسبوا إلى من
 تنبأهم فقال : وما جعل أديعائكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم « أى للاحقيقة
 لله فى الواقع ، والله يقول الحق « أى ماله حقيقة عينية » وهو يهدى
 السبيل ، آدعواهم لآباؤهم هو أفسط عند الله « هو : أى دعوتهم لآباؤهم ، وأفسط :
 عدل ، ومعناه البالغ فى الصدق ، فإن لم تعدوا آباؤهم فإخوانكم فى الدين
 ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعدت قلوبكم ، وكان
 الله غفورا رحيما ...

والأحاديث فى ذلك متوافرة ، فمنها قوله صلوات الله عليه : الولدُ للفراش
 وللعاهر الحجرُ ... « يعنى أن الولد لصاحب الفراش ، من السيد أو الزوج ،
 وللزاني الحية والحرماني ، وهذا كما تقول : مالك عندى شى غير التراب ،
 وما بيدك غير الحجر ، وذهب قوم إلى أنه كنى بالحجر عن الرجم ، قال ابن
 الأثير : وليس كذلك لأنه ليس كلُّ زانٍ يُرجم ، .. وقالوا فى التعريض بالنسب -
 والقائل أبو نواس :

إذا ذكرتَ عديًّا فى بنى نُمَيْلٍ فقدّم الدال قبل العين فى النسب
 ودخل ابن مُكْرَمٍ على أبى العيناء - صاحب الزوادر والمجون وكان ضربا -
 ليُهَيِّئَهُ بآبِنِ وُلْدِهِ ، فوضع عنده حجرا ، فلما خرج أخبرَ أبو العيناء ،
 فقال : لعن الله هذا ، أما تعلمون ماذا عنيّ ؟ إنما أراد قول رسول الله :
 لولد للفراش وللعاهر الحجر ...

ولقى رجل رجلا فقال له : ممن أنت ؟ قال : قرشى والحمد لله ، فقال :
 لمد لله فى هذا الموضع ريبة ... وقال زياد بن أبيه - وهو ابن سفيان لريبة -
 لرجل : يادعيّ ، فقال : الدعوة قد تشرف بها المدعى على ، فكيف عير بها !

وفي قولهم فيمن لا يشبه والدَيْه وذويه خَلْقَةً :

أَلْوَانُهُمْ إِلَيْكَ عَنْ أَنْسَابِهِمْ مُعْتَدِرَةٌ

وكان بأصْبِهَانَ رجل مجنون يعرف بابن المستهام ، فقيل لأحمد بن عبد العزيز : إنه مليح ذو نوادر ، فاستحضره ، فلما تأمله قال - أي المجنون - :

في اختلاف الوجوه من آلِ عَجَلٍ لَدَلِيلٍ على فسادِ النساءِ
فأراد أحمد أن يبيّشَ به ، ثم كَفَّ عنه مخافةً أن يتحدث الناس بذلك ...
ومن طريف ما قالوا أيضا في التعريض بالرجل أن ابنه من زِنْيَةٍ ، ما يروى
أنه قيل لرجل : إن امرأة فلان ولدت بعد الزفافِ بِخَمْسَةِ أَشْهُرٍ فقال : إنه
بَنَى جَدَارَهُ على أَسِّ غَيْرِهِ ...
وخاصمَ ذو الرمة رجلا من ولَدِ زياد بن أبيه فقال له الزياتي : يادعي ،
فأنشد ذو الرمة :

بُيْتِنَةٌ قَالَتْ يَا جَمِيلَ أَرَبْتَنَا قَقَلْتَ كَلَانَا يَا بَيْتِنُ مَرِيْبٌ (١)

ومما يصح أن يذكر في هذا الباب : كما يصح أن يذكر في كتاب النساء قولهم في أن الولد الذي يَنْسِلُ من الأقارب يخرج ضاويا ضعيفا ، فمن ذلك قوله صلوات الله عليه : «اغْتَرِبُوا لَا تُضْرُوا» أي تزوجوا الغرائب دون القرائب فإن ولد الغريبة أنجب وأقوى من ولد القرية ، وقد أضوت المرأة إذا ولدت ولدا ضعيفا ، فعنى لا تضروا : لا تأتوا بأولاد ضاوين ، أي ضعفاء نحفاء ، الواحد : ضارٍ ، وكذلك قال صلوات الله عليه : لَا تَنْكِحُوا الْقَرَابَةَ الْقَرِيْبَةَ

(١) أربتنا : رأينا منك ما يربينا ونكرهه منك

فإن الرلد يُخلَق ضاويًا ... ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم من قریش صغار الأجسام فقال : مالكم صغرتم ؟ قالوا : قُربُ أمهاتنا من آبائنا ، قال : صدقتم ، اغتربوا لاتضُوروا ... وقال العتيبي : زَوْجَ أهل بيت ، بعضهم فى بعض ، فلما بلغوا البطن الرابع بلغ بهم الضعف إلى أن كانوا يَحْبُون حَبْوًا لا يستطيعون القيام ضعفا ...

الرضاعة

وكذلك نورد هنا قولهم فى الرضاعة : قال رسول الله : يَحْرُمُ من الرضاعة ما يَحْرُمُ من النسب . انظر كتب الفقه ، ونهى رسول الله عن رضاع الحَمَاء وقال : لانسترضعوا الحَمَاء فإن الولد يَنْزِع إلى اللبن ... وقال رجل فى وصف آخر نسبه إلى الرعونة : كيف لا يكون أرعن وقد أرضعته فلانة ! والله إنها كانت تزُق الفَرْخ - أى بفيها - فأرى الرعونة فى طيرانه .. ورووا أن الحسن البصرى رحمة الله عليه كانت أمه تَغْشى أمَّ سَلَمَةَ زوج سيدنا رسول الله ، فدرت عليه من لبنها ، فورث منه علمه وفصاحته وورعه :



الإحسان

وعقرباتهم فى الجود واصطناع المعروف وقوى الأضياف

وذم البخل والسؤال

وهذا لَوْنُ ثانٍ من ألوان البرِّ هو فى الواقع يَنْظُمُ لَوْنَيْنِ ، فأما أولهما فهو هذا الذى نحنُ بصددِهِ الآن ، وهو الجودُ واصطناعُ المعروف ، وسائر ما يمتُّ إلى ذلك بسببِ واصل من قوى الأضياف وذم البخل ، وأما الآخرُ فهو حُسنُ الخلق ، وسنفرده له وَضْلاً تراه عقيب هذا .

تحفى الإسلام بالإحسان: وكما أن صلاة الرَّحْمِ بِعَامَّةٍ، وبرِّ الوالدين بِخَاصَّةٍ،
 بما تحفى به الإسلام كُلَّ التحفى، حتى قرَّنه بالتوحيد وبالتقوى، ترى هذا الدين
 الحنيف، لقد تحفى كذلك كلَّ التحفى بالإحسانِ إلى مُستحقِّيه، وذمَّ الشُّحَّ ونعاهُ،
 على أهليه، وامتدح الجودَ وتوَّه به كلَّ التوَّبه، حتى قرَّنه بالذكره بالإيمان،
 ووصف أهله بالفلاح، والفلاح اسمٌ جامعٌ لسعادة الدارين، فقال سبحانه
 وتقدس: ألم، ذلك الكتاب لا ريبَ فيه هُدًى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب
 ويطيعون الصلاةَ وما رزقناهم يُنفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل
 مِن قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون...
 وقال في وصف الأنصار: ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ،
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ... «الخصاصة: الفقر، ويرقى:
 يضان» وقال عزَّ وجلَّ: مَثَلُ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
 أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
 وَاسِعٌ عَلِيمٌ، إلى أن قال سبحانه: ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضاة
 الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حَبَّةٍ بَرْبُورَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُوفًا ضِعْفَيْنِ...
 الآيات... «قوله سبحانه: كمثل حبة... الآية، فإن ذلك تمثيل لا يقتضى
 وقوعه، والجنة: البستان، والربوة: الموضع المرتفع، وشجره في العادة يكون
 أحسن منظرًا وأزكى ثمرًا، والوايل: المطر العظيم، وقال: لن تناولوا البرَّ حتى
 تنفقوا بما تحبون، وما تنفقوا من شيء فهو يخلفه والله خير الرازقين.
 «والبر ههنا: فهو يرُّ الله، أى خيرُ الدنيا والآخرة، أى السعادةُ والفلاحُ
 والفوزُ، أو تقول: لن تناولوا البرَّ: أى لن تناولوا حقيقةَ البرِّ حتى تُنفقوا
 بما تحبون»

قال الراغب في الذريعة : وَحَقُّ لِلجُودِ أَنْ يُقَرَّنَ بِالِإِيمَانِ ، فَلَا شَيْءَ أَخْصُّ بِهِ ، وَأَشَدُّ مُجَانَسَةً ، مِنْهُ ، إِذْ مِنْ صِفَةِ المَؤْمِنِ انشِرَاحُ الصِّدْرِ : فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يُبَشِّرْهُ صَدْرَهُ لِلِإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُضِلَّهُ يُجْعَلْ صَدْرَهُ حَصِيئًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ . . . وَهَذَا مِنْ صِفَاتِ الجَوَادِ وَالبَخِيلِ ، لِأَنَّ الجَوَادَ يوصَفُ بِسَعَةِ الصِّدْرِ الْإِنْفَاقِ ، وَالبَخِيلُ يوصَفُ بِضِيقِ الصِّدْرِ لِلِإِمْسَاكِ . . .

الناس مجبولون على البخل

« وأما بعد » فَإِنَّ أَكْثَرَ هَذَا النَّاسِ لَقَدْ جُوبِلُوا عَلَى البُخْلِ ، فَالبُخْلُ هُوَ الْأَصْلُ ، وَإِنَّمَا الجُودُ فِي سَائِرِ أَلْوَانِهِ ، تَكَثُّفٌ وَتَعَمُّلٌ وَحَمْلٌ لِلنَّفْسِ عَلَى مَكْرُوهِهَا وَعَلَى غَيْرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ قِيلَ لِحَاتِمِ الطَّائِيِّ الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ فِي الجُودِ : كَيْفَ تَجِدُ الجُودَ فِي قَلْبِكَ ؟ فَقَالَ : إِنِّي لِأَجِدُهُ كَمَا يَجِدُهُ النَّاسُ ، وَلَكِنِّي أَحْمِلُ نَفْسِي عَلَى خُطْطِ الكِرَامِ (١) ، وَقَالَ بَعْضُ الْأَجْوَادِ : إِنَّا لَنَجِدُ كَمَا يَجِدُ البِخْلَاءُ وَلَكِنَّا نَصْبِرُ وَلَا يَصْبِرُونَ . . . وَفِي هَذَا المَعْنَى يَقُولُ البَحْتَرِيُّ :

وَأَشَقُّ الْأَفْعَالِ أَنْ تَهَبَّ الْأَنْفُسُ مَا أُعْثِقَتْ عَلَيْهِ الْأَكْفُ
وَيَقُولُ أَبُو يَعْقُوبَ الخُرَيْمِيُّ :

وَدُونَ النَّدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ نَلِيَّةٌ بِهَا مَصْعَدٌ حَزْنٌ وَمُنْحَدَرٌ سَهْلٌ (١)
ويقول أبو العتاهية :

إِطْرَحْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتِ فَهَلَنْ تَرَى إِلَّا بَخِيلًا
ويقول ابن نباتة السعدي :

(١) الخُطْطُ: جمع الخُطَّةِ ، وهى الحال والامر والخطب

(٢) النلية: المكان المرتفع الصعب المَطْلَعِ ، أى أن الكرم شاق على النفس

كيف السبيلُ إلى الغنى والبخلُ في الناسِ فظنه
وأكثرُ من يتسَخَّى ويَجُودُ فإِثْمًا يَجُودُ رَغْبًا أَوْ رَهْبًا - رغباً في عاجل
الجزاء * كملقى الحبِّ للطَّيرِ ليصيدَ به لا لينفَعَه *
وَمَنْ يَظُنُّ نَشْرَ الحَبِّ جُودًا وَيَنْصِبُ تَحْتَ مَا نَشَرَ الشَّبَاكَ (١)
ورهباً من عابٍ يلتصق به أو مكروهٍ يُصيبُه :

مِثْلُ الحِمَارِ المَوْقِعِ الظَّهْرَ لَا يُعْطِيكَ شَيْئًا إِلَّا إِذَا رَهَبَا (٢)
وهناك صنفٌ من الناسِ يُعْطَى ويمنع لا يُبْخَلُ ولا كرمًا، وإنما يكونُ
ذلك تهوُّرًا واندفاعاً منه مع نزوةٍ من نزوات النفوسِ ، كما قال الأديب
أبو بكر الخوارزمي في الوزير الصاحب بن عباد :

لَا تَحْمَدَنَّ ابْنَ عَبَّادٍ وَإِنْ هَطَلَتْ يَدَاهُ بِالْجُودِ حَتَّى أَخْجَلَ الدَّيْمَاءَ
فإنها خَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ يُعْطَى ويمنع لا يُبْخَلُ ولا كرمًا
وَقَلَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجُودُ اسْتِجَابَةً لِفَطْرَتِهِ ، وَلِدَاعِي الضَّمِيرِ ، كَمَا يَقُولُونَ ،
فَلْيُنَظَّرْ هَذَا ، وَلْيُنَظَّرْ كَذَلِكَ أَنَّ البُخْلَ رَذِيلَةٌ تَسْتَبَعُ رذَائِلَ ، وَنَاهِيكَ
بِالجِبْنِ رَذِيلَةٌ ، هِيَ أَلْزَمُ الرذَائِلِ للبُخْلِ : كَمَا أَنَّ الجُودَ فَضِيلَةٌ تَسْتَبَعُ فَضَائِلَ ،
وَحَسْبُكَ بِالشَّجَاعَةِ فَضِيلَةٌ هِيَ أَخْصُ الفَضَائِلِ بِالْجُودِ :

(١) للتبني ، وقوله ومن يظن : عطف على كل نفس في البيت قبله وهو :

وَأَمَّا فِدَاؤُكَ كُلِّ نَفْسٍ وَإِنْ كَانَتْ لِمَلِكَةٍ مَلَكَ

يقول : الملوك يجودون لطلب العوض كما نثر الصائد جبا تحت الشبكة ، ولا يعد
ذلك جوداً لأنه إنما نثر لآخذ الصيد الذي هو خير من الحب
(٢) للحكم بن عبد الأسد ، والموقع الظهر : الذي يظهره آثار الدبراكثرة ما حمل
عليه وركب ، فهو ذلول .

ذَرِينِي فَإِنَّ الشُّحَّ يَا أُمَّ هَيْتَمَ لِصَالِحِ أَخْلَاقِ الرِّجَالِ سَرُوقٌ (١)

وإذا اختبرت علت غير مُدَافِعٍ أَنْ السَّامِحَ سَجِيئَةٌ الأبطال
وقال أبو تمام في ذلك - من أبيات يمدح بها خالد بن يزيد الشيباني :
وإذا رأيت أبا يزيد في نَدَى وَوَعْنَى وَمُبْدَى غَارَةٍ وَمُعِيدَا
يَقْرِي مُرَجِيهَ مُشَاشَةَ مَالِهِ وَشَبَا الأَسِنَّةِ نُقْرَةَ وَوَرِيدَا
أَيَقْنَتَ أَنْ مِنَ السَّامِحِ شِجَاعَةٌ تُدْمِي وَأَنْ مِنَ الشِّجَاعَةِ جُودَا (٢)

وقال المتنبي :

هو الشجاع يَعْدُ البُخْلَ مِنْ جُبْنٍ وَهُوَ الجَوَادُ يَعْدُ الجُبْنَ مِنْ بُخْلٍ
وقد عدوا الشجاعة لونا من الجود فقال مسلم بن الوليد :
يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ البَخِيلُ بِهَا والجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الجُودِ

(١) من أبيات جميلة نبيلة لعمر بن الاثم ، وبعد البيت :

ذَرِينِي وَحُطِّي فِي هَوَايَ فَإِنِّي عَلَى الحَسْبِ العَالِي الرَفِيعِ شَفِيقٌ
وَمُسْتَمْنِحٌ بَعْدَ المَدْوَةِ دَعْوَتِهِ وَقَدْ كَانَ مِنْ سَارِي الشِّتَاءِ طُرُوقٌ
فَقَلْتُ لَهُ أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَبِيتُ صَالِحِ وَصَدِيقِ
أَصْفَتْ فَلَمْ أَفِجْشْ عَلَيْهِ وَلَمْ أَقُلْ لِأَحْرَمِهِ إِنَّ الفِئَاءَ مَضِيقُ
لَعْمُرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادُ بَآهَلِهَا وَلَكِنْ أَخْلَاقُ الرِّجَالِ تَضِيقُ

(٢) الوغى : الحرب ، وقرى الضيف يقربه قرى : أضافه وأحسن اليه ، والمشاشة
واحدة المشاس وهو رأس العظم الذي يمكن مضغه ، يقول : انه يطعم المجتدى ماله حتى
انه ليش العظم وهذه مبالغة في أنه يمكن المجتدى من ماله . والشبا : جمع شباة ، وشباة
كل شيء حده ، والثغرة : نقرة النحر

ولأجل هذين الملاحظين ، تظاهرت الآياتُ والأحاديثُ وما أثر عن الأوائل من العلماء والحكماء والشعراء والربّانيين ، على ذمّ البخل وامتداح الجود والإحسان ، وأكثروا وأفتتوا وأبدعوا ، الأمرُ الذي يدلُّ على أنهم قدروا أثرَ الجودِ والبخلِ في الخلقِ حقَّ قدره ، وأنهم لذلك سَنُوا هذه الغارةَ الشَّعْواءَ على الإنسانِ الأنانيِّ الكزِّ الشَّحيحِ الكاينِ في نفسِ كُلِّ إنسانٍ ...

عقرياتهم في مدح الجود وذم البخل

ولنأخذ الآن في عقرياتهم في ذم البخل ومدح الجود والإحسان واصطناع المعروف ، والكلام في هذه المعاني يدخلُ بعضه في بعض ... كتب رجلٌ من البخلاء إلى رجلٍ من الأسخياء يُخَوِّفُهُ الفقرَ ، فأجابه : الشيطانُ يَعِدُكُمْ الفقرَ ويأمُرُكم بالفحشاءِ واللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ... وإنِ أكرهُ أن أتركُ أمراً قد وقعَ لِأَمْرٍ لَعَلَّهُ لَا يَقَعُ . « يقول سبحانه : إِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُ النَّاسَ الْفَقْرَ فِي الْإِنْفَاقِ ، أَي يَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ عَاقِبَةَ إِنْفَاقِكُمْ أَنْ تَفْتَقِرُوا - وَالْوَعْدُ كَمَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ يَسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ - وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، أَي يَغْرِيكُمْ بِالْبُخْلِ وَمَنْعِ الصَّدَقَاتِ إِغْرَاءَ الْأَمْرِ لِلْأُمُورِ ، فَالْفَحْشَاءُ هُنَا : الْبُخْلُ ، وَالْفَاحِشُ عِنْدَ الْعَرَبِ : الْبَخِيلُ ، قَالَ طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ فِي مُعَلَّقَتِهِ :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي

عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمَتَشَدِّدِ ^(١)

ثم قال سبحانه : والله يعدكم في الإنفاق مغفرةً لذنوبكم وكفارةً لها ، وأن

(١) يعتام : يخنار ، والعقائل : كرائم الأموال والنساء ، الواحدة عقيلة ، والفاحش البخيل ، يقول طرفه : إن المرات لا يبقى على الأجواد والبخلاء فيصطنع الكرام وكرائم أموال البخلاء فلا يجدى البخل على صاحبه ، فالجود أحرى لأنه أحمد .

مُخْلِيفَ عَالِيكُمْ أَفْضَلَ مِمَّا أَنْفَقْتُمْ» وَقِيلَ لِإِبْلِيسَ : مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ ؟
 فَقَالَ : عَابِدُ الْبُخَيْلِ ... قِيلَ : فَمَنْ أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : فَاسِقُ سَخِيٍّ ،
 فَإِنْ سَخَّاهُ يُنْجِيهِ ... أَفَرَأَيْتَ أَلَيْسَ هَذَا الْكَلَامُ تَمْثِيلًا جَمِيلًا لِحَالِ الْبُخَيْلِ
 وَالْجَوَادِ ! حَتَّى إِنَّهُمْ فَضَّلُوا الْفَاسِقَ السَّخِيَّ عَلَى الْعَابِدِ الْبُخَيْلِ ، وَأَحْسَنُ مِنْهُمَا
 جَمِيعًا لِعَمْرَى : الْعَابِدُ الْكَرِيمُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الْعَابِدُ الْبُخَيْلُ مُفْضُولًا ، لِأَنَّ
 الْعِبَادَةَ الْحَقَّ لَا تَجْتَمِعُ وَالْبُخْلَ ... وَقَالَ بَعْضُهُمْ لآخِرَ : إِنَّكَ مِتْلَأْفٌ ، فَقَالَ :
 مَنَعَ الْجُودِ سُوءَ ظَنِّ بِالْمَعْبُودِ ، قَالَ تَعَالَى : وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ
 وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . وَمِنْ هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ : عَلَيْكُمْ بِأَهْلِ السَّخَاءِ وَالشَّجَاعَةِ
 فَانَّهُمْ أَهْلُ حُسْنِ ظَنِّ بِاللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبُخْلِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ مِنْ ضَرِّ
 بُخْلِهِمْ ، وَمَدَمَّةِ النَّاسِ لَهُمْ ، وَإِطْبَاقِ الْقُلُوبِ عَلَى بُغْضِهِمْ ، إِلَّا سُوءَ ظَنِّهِمْ
 بِرَبِّهِمْ فِي الْخَلْفِ - أَى الْعَوْضِ - لَكَانَ عَظِيمًا ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ مَحْمُودُ
 الْوَرَّاقُ :

مَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ خَيْرًا جَادَ مُبْتَدِنًا وَالْبُخْلُ مِنْ سُوءِ ظَنِّ الْمَرْءِ بِاللَّهِ
 وَوَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : خَصَلَتَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ : الْبُخْلُ وَالْكِبَرُ
 وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

أُنَاسٌ تَأْمَهُونَ لَهُمْ رُؤَاؤُهُمْ تَغِيْمُ سَمَاوَهُمْ مِنْ غَيْرِ وَبَلٍ (١)
 وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ فِي ذَلِكَ : رَبُّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ... « الرَّاعِدَةُ : السَّحَابَةُ
 ذَاتُ الرَّعْدِ ، وَالصَّلَفُ قَلَّةُ الْخَيْرِ ، وَهَذَا الْمَثَلُ يَضْرِبُ لِلْبُخْلِ مَعَ الْوُجُودِ
 وَالسَّعَةِ ، وَالْأَمَّةُ لِللُّغَةِ كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي هَذَا الْمَثَلِ رَاجِعُهُ فِي مَادَّةِ «صَلَفٍ» بِلِسَانِ

(١) تَأْمَهُونَ : مَنْ التَّيَهُ وَهُوَ الزُّهْوُ وَالْكِبَرُ ، وَالرُّؤَاؤُ : حَسَنُ الْمَنْظَرِ ، وَالْوَبْلُ :
 الْمَطَرُ الْعَظِيمُ

العرب» ... ومن قولهم في البَحِيل لا يُرَجِي خَيْرُهُ ولا يَبِضُ حَجْرَهُ :
يُعالج نفساً بينَ جَنِينِهِ كَرْزَةً إِذا هَمَّ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلاً
ومن المستطرف من كتاباتهم في هذا المعنى ما روى : أن امرأة قالت
لزوجها : والله ما يُقيم الفأرُ في دَارِكَ إِلا لِحُبِّ الوطن ... وقال رجل : إني
أُصد فلاناً راجياً نداءه ، فقال له صاحبه :
و تَرُجُو النَّدَى من إِنْاءٍ قَلْنَا ارْتَشَحَا

كالمُسْتَذِيبِ لِشَحْمِ الْكَلْبِ مِنْ ذَنْبِهِ

وقال ابن الرومي - وهو من مُقَدِّعَةِ الْمُضْحِكَةِ - :

يُقَتِّرُ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وليس بِيَأْتِي ولا خَالِدِ
ولو يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تَنْفَسُ مِنْ مَنخَرٍ وَاحِدِ

« المَنخَرُ : ثقب الأنف ، وقال آخر :

يُحِبُّ المَدِيحَ أَبُو خَالِدِ وَيَفْرَعُ مِنْ صِلَةِ المَادِحِ
كَيْسَرَ تَوَدُّ لَذِيذَ النِّكاحِ وَتَهْلَعُ مِنْ صَوْتِهِ النَّاكِحِ

وقال البُحْتَرِيُّ - وهو معنى بديع - :

جِدَّةٌ يذُودُ البُخْلُ عن أَطرافِها كالبَحْرِ يَدْفَعُ ما حُهِ عن مائِهِ (١)

وقال بشار :

إِذا جِشَّتْهُ في حاجَةٍ سَدَّ بابَهُ فلمْ تَلَقَّهُ إِلا وَأَنْتَ كَمِينُ
إِذا سَلَّمَ المِسْكِينُ طارُ فُؤادِهِ مخافةِ سُؤْلِ وَاغْتِراءِ جُنُونِ

(١) الجدة : الغنى ، و يذود : يدفع

وقال ابن الرومي . وهو كذلك من هجائه المضحك :

تَجَنَّبَ سَلِيمَانَ قُفِّلَ النَّدَى فَقَدْ يَدْتَسُّ النَّاسُ مِنْ فُجْحِهِ
ولو كان يملك أمر أنتيه لما طمِع الحش في سَلِحِهِ

« الحش : المستراح - موضع قضاء الحاجة - والسلح : النجو - الغائط - »

وقال ابن الرومي أيضا - وهو معنى بديع - وإن كان من بابه غير هذه البابه :

وَإِذَا أَمْرٌ وَمَدَحٌ أَمْرًا لِلنَّوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُقَدَّرْ فِيهِ بَعْدَ الْمُسْتَقَى عِنْدَ الْوَرُودِ لِمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ

« الرشاء : جبل الدلو ، وقالوا : من لم يأت الخير صغيرا لم يأتِه كبيراً ، وفي

ذلك يقول المعلوط السعدي - وهو شاعر إسلامي - :

إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَبَهُ الْمَرْوَةُ نَاشِئًا فَطَلَبُهَا كَهَلَا عَلَيْهِ شَدِيدُ^(١)

. وقالوا في البخيل كلما ازداد ثراء ازداد بخلاً وكزازة ، والنقائل ابن الرومي -

والبيتان من أوابده وتوليدانه البديعة :

إِذَا عَمَرَ الْمَالُ الْبَخِيلَ وَجَدَّتْهُ يَزِيدُ بِهِ يُبْسًا وَإِنْ ظَنَّ يَرْطُبُ
وَلَيْسَ عَجِيبًا ذَلِكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ إِذَا عَمَرَ الْمَاءَ الْحِجَارَةَ تَصْلُبُ

وقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ يُهْلِكُ أَهْلَهُ إِذَا جَمَّ آتِيهِ وَسَدَّ طَرِيقَهُ

(١) من أبيات جميلة يقول فيها :

مَتَى مَا يَرَّ النَّاسُ الْغَنَى وَجَارُهُ فَقَمِيرٌ يَقُولُوا عَاجِزٌ وَجَلِيدٌ
وَلَيْسَ الْغَنَى وَالْفَقْرُ مِنْ حِيلَةِ الْفَتَى وَلَكِنْ أَحَاطَ قَسَمَتْ وَجُدُودٌ
فَكَمْ قَدَرْنَا مِنْ غَنَى مُدَمَّمٍ وَصُعُوكِ قَوْمٍ مَاتَ وَهُوَ حَمِيدٌ

إذا المرء البيت

وَمَنْ جَاوَرَ الْمَاءَ الْغَزِيرَ جَمَّهُ وَسُدَّ سَبِيلُ الْمَاءِ فَهُوَ غَرَبَهُ

وقال :

الْمَالُ يُكْسِبُ رَبَّهُ - مَا لَمْ يَفِضْ فِي الرَّاعِبِينَ إِلَيْهِ - سُوءَ ثَنَاءِ

كَلِمَاءِ تَأْسُنُ بَسْرُهُ إِلَّا إِذَا حَبَطَتِ السُّقَاةُ جِجَامَهُ بِدَلَاءِ

« تأسن : تنغير ، وخبطه : ضربه ، والجمام : بتثايت الجيم : معظم الشيء »

عقرياتهم في الجود واصطناع المعروف

ولندع البُخلَ والبخلَاءَ لحظةً وننتقل إلى عقرياتهم في الجود والإحسان

واصطناع المعروف : جاء في كلية ودمته : إن أحسنَ الناسَ عَيْشاً من حَسَنَ

عَيْشِ النَّاسِ فِي عَيْشِهِ ، وَإِنْ مِنْ أَلَدِ اللَّذَّةِ الْإِفْضَالَ عَلَى الْإِخْوَانِ ، وَفِي

الْحَدِيثِ : لَيْسَ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَيْسَتْ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ

أَعْطَيْتَ فَأَمْضَيْتَ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ مِلْكُ الْوَارِثِ وَقَالَ شَاعِرُهُمْ :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَالْمَالُ لَكَ

وقال سعيد بن العاص من خطبة له : مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً فَلْيُنْفِقْ

مِنْهُ سِرّاً وَجَهراً حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا يُتْرَكَ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ :

إِمَّا مُصْلِحٌ ، فَلَا يَقْلُ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَإِمَّا مُفْسِدٌ فَلَا يَبْقَى لَهُ شَيْءٌ ... فَقَالَ

مَعَاوِيَةُ : جَمَعَ أَبُو عَثْمَانَ طَرَفِي الْكَلَامِ ...

وقال الأحنف بن قيس : مَا شَأْنَتْ رَجُلًا مُذْ كُنْتُ رَجُلًا ، وَلَا زَحَمْتُ

رُكْبَتَيْ رُكْبَتَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ أَصِلْ مُجْتَدِي حَتَّى يَنْتَسِحَ جَبِينُهُ عَرَفَا كَمَا يَنْتَسِحُ

الْحِمِيْتُ ، فَوَاللَّهِ مَا وَصَلْتُهُ ... « قَوْلُهُ : مُجْتَدِي : يَرِيدُ . الَّذِي يَأْتِيهِ بِطَلْبِ مَالِهِ

يُقَالُ : اجْتَدَاهُ يَجْتَدِيهِ وَأَعْتَفَاهُ يَعْتَفِيهِ وَأَعْتَرَاهُ يَعْتَرِيهِ وَأَعْتَرْتَهُ يَعْتَرُهُ وَعَرَاهُ

يعرّوه، : إذا قصده يتعرّض لنائله . وَيَنْتِجُ كَيْضِرْبُ : يَرْشَحُ ، وَالْحَمِيْتُ :
وعاء السمن . يقول الأحنف : إنه لا يُحوج سائله إلى أن يترشّحَ جبينه
عرقاً ، لمبادرته بإعطائه « وقال معاوية بن أبي سفيان لوردان مولى عمرو بن
العاص : ما بقى من الدنيا تَلَذُّه ؟ قال : العريض الطويل ، قال : وما هو ؟ قال :
أَنْ أَتَى أَحَاً قَدْ نَكَبَهُ الدَّهْرُ فَأَجْبُرَهُ ، قال : نحنُ أحقُّ بهذا منك . . . قال :
إِنَّ أَحَقَّ بهذا منك مَنْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ . . . وقال ابن عباس : ثلاثة لا أكافئهم :
رجلٌ بدأني بالسلام ، ورجلٌ وَسَّعَ لِي فِي الْمَجْلِسِ ، ورجلٌ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ
فِي الْمَشْيِ إِلَى إِدَاةِ التَّسْلِيمِ عَلَيَّ ؟ فأما الرابع فلا يكافئه عني إلا الله عز وجل ،
قيل : ومن هو ؟ قال : رَجُلٌ نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ فَبَاتَ لَيْلَتَهُ يَفْسِكُرُ بَيْنَ يُنْزِلُهُ ، ثم
رَأَى أَهْلًا لِحَاجَتِهِ فَأَنْزَلَهَا بِي . وقال ابن عباس أيضا : لا يُزَهِّدَنَّكَ فِي
المعروف كَفْرٌ من كَفْرِهِ ، فَإِنَّهُ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَمْ تَصْطَنِعْهُ إِلَيْهِ : « كَفْرٌ
من كَفْرِهِ : يريد : كَفْرُ النِّعْمَةِ ، أَيْ عَدَمُ شُكْرِهَا ، وَقَوْلُهُ : مَنْ لَمْ تَصْطَنِعْهُ إِلَيْهِ
يريد الله عز وجل »

وَأُنشِدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، أَحَدُ الْأَجْوَادِ فِي الْإِسْلَامِ
قَوْلَ الشَّاعِرِ :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ الْمَضْنَعِ (١)

فقال : هذا رجل يريد أن يُبْخَلَ النَّاسَ ، آمَطَرُ المَعْرُوفِ مَطْرًا فَإِنْ
صَادَفَ مَوْضِعًا فَهُوَ الَّذِي قَصَدَتْ لَهُ ، وَإِلَّا كُنْتَ أَحَقَّ بِهِ

« وبعد » فهناك في هذا المعنى كما ترى مذهبان ، فذهب يرى إعطاء

(١) الصنِيعَةُ : ما أسديت من المعروف ، وبعد هذا البيت :

فَإِذَا صَنَعْتَ صَنِيعَةً فَاعْمِدْ بِهَا لِلَّهِ أَوْ لِدَوَى الْقَرَائِبِ أَوْ دَعِ

المستحق وغير المستحق ، الكريم- واللئيم ، الشاكر ، والكافر : ويةقول
هذا المذهب - والقائل الشاعر محمود الوراق :

فإمّا كريمٌ صُنْتُ بالجودِ عِرْضَهُ وإمّا لئيمٌ صُنْتُ عن أَوْمِهِ عِرْضِي
وقال بعضهم : لأنْ أُخْطِئَ باذلاً ، أَحْبَبْتُ إِلَىَّ مَنْ أَنْ أُصِيبَ مانعاً ، باذلاً
ومانعاً : حالان من فاعل أُخْطِئَ وأصيبَ «

ومذهب آخر يرى حرمانَ اللئيمِ وَمَنْ يُسْتَضْرُّ بِإِعْطَائِهِ ، قال قائلهم :
اتَّقُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ . وقالوا : اللئيمُ يَزْدَادُ بِالْعُرْفِ
خَبَالًا ، كما يزداد المريض من كثرة الطعام وبالآ ، « خبالا : فسادا ،
وقال شاعر :

* ليس في مَنعٍ غَيْرِ ذِي الْحَقِّ بُخْلٌ *

وقال الآخر :

وَمَنْ يَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ

يُلَاقِي كَمَا لَاقَى مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ (١)

(١) أم عامر : الضبع ، وكان من حديث هذا المثل أن قوما خرجوا إلى الصيد
في يوم حار ، فبينما هم كذلك إذ عرضت لهم أم عامر ، وهي الضبع ، فطردوها - أي
حاولوا صيدها - فأتعبتهم حتى أُلْجِأُوا إِلَى خَبَاءِ أَعْرَابِي فَأَقْتَحَمَتْهُ ، فخرج إليهم
الأعرابي فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا : صيدنا وطريدتنا . قال : كلا ، والذي نفسي بيده
لا تصلون إليها ما نبت قائم سيني بيدي . فرجعوا وتركوه ، فقام إلى لفحة - « اللفحة :
الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ، فخلبها وقرب إليها ماء ، فأقبلت مرة تلغ من هذا ومرة
تلغ من هذا حتى عاشت واستراحت ، فبينما الأعرابي نائم في جوف بيته إذ وثبت عليه
فبقرت بطنه وشربت دمه وأكلت حشوته - أمعامه - وتركته فجاء ابن عم له فوجده
على تلك الصورة فالتفت إلى موضع الضبع فلم يرها فقال : صاحبتى والله ، وأخذ سيفه
في كنانته واتبعها فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشد البيت

وأخيرا قالوا - والقائل أبو العتاهية :-

إذا المال لم يُوجِبْ عليك عطاءه صنيعةٌ تقوى أو خليلٌ مُخالِفُه
منعتَ وبعضَ المنعِ حزمٌ وقوةٌ ولم يبتذلِكَ المالَ إلا حقائقُه^(١)

وقال الحسنُ والحُسَيْنُ رضوان الله عليهما لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرَفْتَ في بذلِ المالِ! قال: بأبي أنتما، إن الله عَوَّدَنِي أَنْ يُفْضَلَ عَلَيَّ، وعودته أن أفضَلَ على عباده، فأخاف أن أقطع العادة، فيقطع عني... ومرَّ يزيدُ بنُ المهَلَّبِ بأعرابية، في خروجه من بين عمر بن عبد العزيز^(٢)، يريد البصرة، فقرأته عَنزاً فقبلها، وقال لابنه معاوية: مامعك من النفقة؟ فقال: ثمانمائة دينار، قال: فادفعها إليها، فقال له ابنه: إنك تريد الرجال، ولا يكون الرجال إلا بالمال، وهذه يُرضيها اليسير، وهي بعدُ لا تعرفُك، فقال له: إن كانت ترَضَى باليسير فأنا لأَرْضَى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفُني، فأنا أعْرِفُ نفسي، اذفَعها إليها...

وأورد المبرِّدُ في الكامل ما يأتي: وأشرف عمر بن هُبيرة الفَزَارِيُّ - والي العراقين يزيد بن عبد الملك - من قصره بالكوفة يوماً، فإذا هو بأعرابيٍّ

(١) حقائقه: جمع حقيقة: ما يحق عليك أن تحميه

(٢) وذلك سنة ١٠١ للهجرة، وكان عمر بن عبد العزيز أخذه بعدة وعدهما سليمان بن عبد الملك، وذلك أن يزيد كان عاملاً على حراسان، فانتح جرجان وطبرستان، ثم بشره بفتحهما في كتاب أرسله إليه يقول فيه: وقد صار عندي من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار لكل ذي حق حقه في النية والغنيمة ستة آلاف ألف، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله... ثم مات سليمان وولى الخلافة عمر، فسأل يزيد، فتلكأ فأمر بسجنه، ثم هرب لما بلغه شدة مرض عمر الذي مات به مخافة من يزيد بن عبد الملك الخليفة بعده لما كان بينهما من التباغض

يُرَقِّصُ جَمَلَهُ الْآلُ^(١) فقال : لحاجبه : إن أرادني هذا فأوصله إليّ ، فلما دنا الأعرابي سألته ، فقال : قصدت الأمير ، فأدخله إليه ، فلما مثل بين يديه قال له عمر : ما خطبك ؟ فقال الأعرابي :

أَصْلَحَكَ اللهُ قَلَّ مَا بِيَدِي فَمَا أَطِيقُ الْعِيَالِ إِذْ كَثُرُوا
أَلْحَ دَهْرٌ أَنَحَى بِكُلِّكَلِهِ^(٢) فَأَرْسَلُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا
رَجُوكَ لِلدَّهْرِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ غَيْثَ سَحَابٍ إِنْ خَانَهُمْ مَطَرٌ

فأخذت عمر الأريحيّة ، فجعل يهتز في مجلسه ، ثم قال : أرسلوك إليّ وانتظروا الإذن والله لا تجلس حتى ترجع إليهم غانماً . وأمر له بألف دينار ، ورده على بعيره ... قال المبرد : وحدثت أن الخبر لمعن بن زائدة . أقول : وقد أورده ابن خلكان منسوبا لمعن .



وهذا معن بن زائدة هو الآخر له في المكارم عُزْرٌ وأوضاع ، وهو أشهر في باب الأريحيّة والجود والإقدام والحلم من أن يتوّه به ، ودو معن بن زائدة الشيباني ، كان في أيام بني أمية مُتَنَقِّلاً في الولايات ، ومنقطعا إلى يزيد ابن عمر بن هبيرة وإلى العراقيين ، فلما أدال من بني أمية بنو العباس ، وجرى بين أبي جعفر المنصور وبين يزيد بن عمر المذكور ماجرى ، أبلّى يومئذ معنٌ مع يزيدَ بلاءً حسنا ، فلما قُتِلَ يزيد خاف معن من أبي جعفر المنصور ، فاستتر عنه مدة وجرى له مُدَّةٌ استتارِهِ غرائب ، وهنا يحدثنا شاعره الفحلُ مَرُوان بن حفصة بحديث طريف من هذه الغرائب . قال :

(١) الْآلُ : ما تراه في الضحى كالماء بين السماء والأرض ، ويرقصه : يحمله على الرقص ، وهو نوع من السير كالخباب

(٢) انحى : اعتمد ومال ، والكلكل : الصدر ، استعاره لوطأة الدهر وثقله

أخبرني معنٌ وهو يومئذ مُتَوَلَّى بِلَادِ الْعَيْنِ : أَنَّ الْمَنْصُورَ جَدًّا فِي طَلْبِي ، وَجَعَلَ
لِمَنْ يَحْمِيُنِي إِلَيْهِ مَالًا ، قَالَ مَعْنٌ : فَاضْطُرِرْتُ لِإِلْحَاحِهِ فِي الطَّلَبِ إِلَى أَنْ
تَعَرَّضْتُ لِلشَّمْسِ حَتَّى لَوَّحَتْ وَجْهِي ، وَلَبِئْسَتْ جُبَّةٌ صُوفٍ ، وَرَكِبْتُ جَمَلًا
وَخَرَجْتُ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْبَادِيَةِ لِأَقِيمَ بِهَا ، فَلَمَّا خَرَجْتُ مِنْ بَابِ حَرْبٍ -
أَحَدِ أَبْوَابِ بَغْدَادٍ - تَبِعَنِي أَسْوَدٌ مُتَقَلِّدٌ سَيْفًا حَتَّى إِذَا غَيْبَتْ عَنِ الْحَرَسِ ،
قَبِضَ عَلَى خِطَامِ الْجَمَلِ ، فَأَنَاحَهُ ، وَقَبِضَ عَلَى يَدِي ، فَقَلَّتْ لَهُ : مَا بَكَ ؟ قَالَ :
أَنْتِ طَلِيَّةٌ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَلتْ : وَمَنْ أَنَا حَتَّى أُطَلَبَ ؟ قَالَ : أَنْتِ مَعْنُ بْنُ
زَائِدَةَ ، فَقَلَّتْ لَهُ : يَا هَذَا ، اتَّقِ اللَّهَ عِزَّ وَجَلِّ ، وَأَيْنَ أَنَا مِنْ مَعْنٍ ؟ فَقَالَ :
دَعْ هَذَا ، فَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَأَعْرِفُ بِكَ مِنْكَ ، فَلَمَّا رَأَيْتَ مِنْهُ الْجِدَّةَ قَلتْ لَهُ : هَذَا
عِقدٌ جَوْهَرٍ قَدْ حَمَلْتُهُ مَعِيَ بِأَضْعَافِ مَا جَمَلَهُ الْمَنْصُورُ لِمَنْ يَحْمِيُهُ بِي ، فَخُذْهُ
وَلَا تَسْكُنْ سَبِيلًا لِسَفْكِ دَمِي ، قَالَ : هَاتِهِ ، فَأَخْرَجْتَهُ إِلَيْهِ ، فَنَظَرَ فِيهِ سَاعَةً ،
وَقَالَ صَدَقْتَ فِي قِيَمَتِهِ ، وَلَسْتُ قَابِلَةً حَتَّى أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ ، فَإِنْ صَدَقْتَنِي
أَطْلُقْتِكَ ، قَلتْ : قَلِّ ، قَالَ : إِنْ النَّاسَ قَدِ وَصَفُوكَ بِالْجُودِ ، فَأَخْبِرْنِي :
هَلْ وَهَبْتَ مَالَكَ كُلَّهُ قَطُّ ؟ قَلتْ : لَا ، قَالَ فَنِصْفَهُ ، قَلتْ : لَا ، قَالَ : فَنُكِّلَهُ
قَلتْ : لَا ، حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ ، فَاسْتَحْيَيْتِ وَقَلتْ : أَظُنُّ أَنِّي قَدِ فَعَلتْ
هَذَا ، قَالَ : مَا ذَاكَ بِعَظِيمٍ ، أَنَا وَاللَّهُ رَاجِلٌ - يَرِيدُ مِنَ الْمَشَاةِ - وَرِزْقِي مِنْ
أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ كُلِّ شَهْرٍ عِشْرُونَ دِرْهَمًا ، وَهَذَا الْجَوْهَرُ قِيَمَتُهُ أَلُوفٌ
دِنَانِيرٍ ، وَقَدْ وَهَبْتَهُ لَكَ وَوَهَبْتُكَ لِنَفْسِكَ وَلِجُودِكَ الْمَأْثُورِ بَيْنَ النَّاسِ
وَلتَعْلَمْ أَنَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ أَجْرُدُ مِنْكَ ، فَلَا تُعْجِبُكَ نَفْسُكَ ، وَلتَحْتَمِرْ
بَعْدَ هَذَا كُلِّ جُودٍ فَعَلْتَهُ وَلَا تَتَوَقَّفْ عَنِ مَكْرُمَةٍ ، ثُمَّ رَمَى الْعَقْدَ فِي حِجْرِي ،
وَتَرَكَ خِطَامَ الْجَمَلِ ، وَوَلَّى مَنْصَرَفًا ، فَقَلتْ : يَا هَذَا ، وَاللَّهُ لَقَدْ فَضَحْتَنِي ،

وَأَسْفَكَ دَمِي عَلَى أَهْوَنُ مِمَّا فَعَلْتَ ، فَنَحْدُ مَا دَفَعْتَهُ لَكَ ذَائِقِي غَيْثِي عَنْهُ ، فَضَحَكَ
 وَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تُكَدِّبَنِي فِي مَقَالِي هَذَا ! وَاللَّهِ لَا أَخَذْتُهُ وَلَا أَخَذَ لِمَعْرُوفٍ
 ثَمَنًا أَبَدًا ، وَهَضِي لِسَابِلِهِ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ طَلَبْتَهُ بَعْدَ أَنْ أَوْنْتُ ، وَبَذَلْتُ لِمَنْ يَجِيءُ
 بِهِ مَا شَاءَ فَمَا عَرَفْتُ لَهُ خَبْرًا ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ ابْتَلَعَتْهُ ... أَلَا تَرَى مَعِيَ أَنَّ
 مَا فَعَلَهُ هَذَا الْجَنْدِيُّ الْفَقِيرُ إِنْ لَمْ يَفْقُ بِهِ مَعَانَ بَنَ زَائِدَةَ وَأَشْبَاهَ مَعَانَ بَنِ
 زَائِدَةَ ، فِي بَابِ الْمَرْوَةِ وَالْفَتْوَةِ وَالنَّجْدَةِ وَالكَرْمِ وَعَبَقْرِيَةِ الرُّوحِ فَإِنَّهُ لَا يَقِلُّ
 عَنْهُمْ !

جُهْدُ الْمُقِلِّ إِذَا أَدَاكَ نَائِلَهُ وَكَثْرُ مَنْ غَيَّ سَيَّانٍ فِي الْجُودِ
 فهو كما قال الشاعر :

وَلَمْ يَكْ أَكْثَرَ الْفَتِيَانَ مَالًا وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا

وَمِنْ هُنَا حَثُّوا عَلَى الْجُودِ وَالْمَرْوَةِ وَالتَّسَخُّي حَتَّى فِي حَالَةِ الْعُسْرِ وَالضَّقِيقِ
 فَمِنْ ذَلِكَ مَا قَرَأْنَاهُ مَلْسُوبًا لِإِبْرَاهِيمَ أَوْ لِيَحْيَى بْنِ خَالِدِ الْبَرْمَكِيِّ أَوْ لِمَرْأَةٍ
 مِنَ الْعَرَبِ تَوْصَى بِهِ ابْنَهَا ، وَهُوَ : إِذَا أَقْبَلْتَ عَلَيْكَ الدُّنْيَا فَانْفِقْ ، فَإِنَّهَا لَا تَقْفَى ،
 وَإِذَا أَذْبَرْتَ عَنْكَ فَانْفِقْ فَإِنَّهَا لَا تَبْقَى . أَخَذَهُ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ فَقَالَ :

وَأَنْفِقْ إِذَا أَنْفَقْتَ إِنْ كُنْتَ مُوسِرًا

وَأَنْفِقْ عَلَى مَا خَيَّلَتْ حِينَ تُعْسِرُ

فَلَا الْجُودُ يُفْنِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبَلُ

وَلَا الْبَخْلُ يُبْقِي الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرُ

وقال الآخر في معناه :

لَا تَبْخَانِ بَدُنِيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَلَيْسَ يَنْقُصُهَا التَّجْدِيرُ وَالسَّرْفُ

فَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَىٰ أَنْ يَجُودُ بِهَا وَالشُّكْرُ مِنْهَا إِذَا مَا أُذْبِرْتَ خَلْفُ



ولا تنسَ أن مرادهم بالإففاق والجود هنا : الإففاقُ في سبيل الله والبرِّ
لا في سبيل الشيطان والإثم ، والجودُ على ذوى الحقوق ومن هم في حاجة إليك
حتى مع إدبار الدنيا عنك ، وبالحرى مرادهم بالسرف : السرفُ في الشرف ، وما
يُكسب المرءَ محمِدةً ومِقةً^(١) . ويؤثر عن معاوية أو المأمون - وقد قيل
لاحدهما : لاخير في السرف - فقال : لا سرفَ في الشرف ...

وقال سلم بن قتيبة : أحدكم يحقر الشيء فيأني ما هو شر منه ، يعني المنع ،
يريد الحثَّ على إعطاء القليل إن لم يُستطع إعطاء الكثير ، وقال حماد بن عمار
في ذلك من آيات :

بُتَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعَكَ قَلْبُهُ فَكُلْ مَا سَدَّ فَتَرَا فَهُوَ مَجْمُودٌ

يقول فيها :

إِنَّ الْكَرِيمَ لِيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ مَجْهُودٌ
إِذَا تَكْرَّمْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَائِلَ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
وَاللَّبَّخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ زُرُقُ الْعُيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودُ
أُورِقُ بَخِيرٍ تُرَجَّى لِلزَّوَالِ فَمَا تُرَجَّى الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ

والعرب تقول : من حقرَ حرمَ ... « حقر الشيء : عداه حقيراً ، أى

من حقر يسيراً يقدرُ عليه ولم يقدر على الكثير ضاعت لديه الحقوق ، وفي
الحديث : لا تردوا السائلَ ولو بظلفٍ مُحْرِقٍ « الظلف من كل ما يجترُّ من

الحيوانات كالبقرة والظبي بمنزلة الحافر من الفرس، ويقال : أحرق الشيء بالنار وحرّقه شدّد لكثرة ، وقال المعري :

إذا طرق المسكينُ بابك فأجبهُ قليلاً ولو مقدّارَ حبةٍ خرّ دلِ
ولا تحتمِرْ شيئاً تُساعفه به فكمّ من حِصاةٍ أيدتْ ظهراً مجدلِ

المجدل : النصر المشرف ، وكان ابن عباس يقول : صاحب المعروف لا يقع ، فإن وقع وجد مُتّكأ . وهذا من قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : المعروف يقي مصارع السوء ... وكان ابن عباس يقول أيضا : ما رأيت رجلا أوليته معروفا إلا أضاء ما بيني وبينه ، ولا رأيت رجلا أوليته سوءا إلا أظلم ما بيني وبينه ، وما يروى في هذا المعنى أن رجلا كان في مجلس خالد بن عبد الله القسريّ ، فقام من المجلس ، فقال خالد : إني لأُبغض هذا الرجلَ وماله إلى ذنّب ، فقال رجل من القوم : أوله أيها الأمير معروفا ففعل ، فما كنت أن خفّ على قلبه وصار أحداً جُلسائه . وفي هذا المعنى يقول سيّد مُوسيقى الإسلام أبو إسحاق الموصلي :

أرى الناس سُخْلانَ الجوادِ ولا أرى بخيلا له في العالمين خيلا
ومن خير حالات الفقى لو علمته إذا نال شيئا أن يكرن يُذيلُ
فإني رأيت البخل يُزرى بأهله فأكرمت نفسي أن يُقالَ بخيلُ

ويقول المتنبي :

وأحسنُ وجه في الورى وجهُ مُحسِنٍ وأيمنُ كَفٍ في الورى كَفٌ مُنعمٍ
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ انصتَ نِعَمُ الله عليه ، كثرت حوائجُ الناس إليه ، فمن لم يحتمل تلك المؤمنُ عُرضَ لزوال تلك النعم ، وقال خالد بن عبد الله القسريّ أيضا : حوائجُ الناس إليكم نعمةٌ من الله عليكم ،

قَالَ تَمَلُّوا النَّعْمَ فَتَتَحَوَّلَ نِقْمًا، قَالَ الشَّاعِرُ :

بَدَا - حِينَ أَثْرَى - بِإِخْوَانِهِ فَوَدَّعَلَّ عَنْهُمْ شِبَابَةَ الْعَدَمِ (١)

وَذَكَرَهُ الْحَزْمُ غِيبَ الْأُمُورِ فَبَادَرَ قَبْلَ انْتِقَالِ النَّعْمِ

وَعَنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ : تَنْزِيلُ الْمَعُونَةِ عَلَى قَدْرِ الْمَثْرُونَةِ « وَمَعْنَاهُ : أَنَّهُ كَلِمَا

تَمَكَّثَ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ يَحِقُّ عَلَيْهِ أَنْ يَعُولَهُمْ وَيَقُومَ بِمَوْتِهِمْ ، فَعَقَلَ ، أَوْ كَلِمَا أَنْفَقَ

الْمَرْءُ فِي سَبِيلِ الْبِرِّ ، أَعْطَاهُ اللَّهُ بِمَقْدَارِ ذَلِكَ ، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ :

مَنْ وَسَّعَ وَسَّعَ عَلَيْهِ ، وَ : كَلِمَا كَثُرَ الْعِيَالُ كَثُرَ الرِّزْقُ ...

وَقَالُوا فِي مَعْنَى النَّجْدَةِ وَإِقَالَةِ الْعَثْرَاتِ وَرَاجِحَاتِ ذَوَى الْجَاهِ :

بَدَّلُ الْجَاهِ زَكَةَ الشَّرَفِ . وَفِي الْحَدِيثِ : إِنْ اللَّهُ يَسْأَلُ الْعَبْدَ عَنْ جَاهِهِ كَمَا

يَسْأَلُهُ عَنْ مَالِهِ وَنَعْمَتِهِ ، فَيَقُولُ : جَعَلْتُ لَكَ جَاهًا فَهَلْ تَصْرَتْ بِهِ مَظْلُومًا

أَوْ قَوَّمتَ بِهِ ظَالِمًا أَوْ أَنْعَمْتَ بِهِ مَكْرُوبًا وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا : أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ

تُعِينَ مِنْ لَجَاهٍ لَهُ ... وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ :

وَإِذَا أَمْرُؤُ أَسْدَى إِلَى صَدِيقَةٍ مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّمَا مِنْ مَالِهِ

وَكَانَ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : آسَفُوعُوا لِمَنْ وَرَاءَكُمْ فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ

أَرَادَ السُّلْطَانَ - يَرِيدُ : كُلُّ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ - وَصَلَ إِلَيْهِ ، وَلَا كُلُّ مَنْ وَصَلَ

اسْتَطَاعَ أَنْ يُكَلِّمَهُ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا قَوْلُهُ سَبَّحَانَهُ : مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً

يَكُنُّ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنُّ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَبِتًا . « قَالَ الْمَفْسُورُونَ : الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ : هِيَ الَّتِي رُوِيَ بِهَا

حَقُّ مُسْلِمٍ وَدُفِعَ بِهَا عَنْهُ شَرٌّ أَوْ جُلِبَ إِلَيْهِ خَيْرٌ وَابْتُغِيَ وَجْهُ اللَّهِ وَلَمْ

(١) بدا ، هي : بدأ ، بالهزم ، فسهل للشعر ، والشبابة : طرف السيف وحدث كل شيء

وفلل : كسر

تُؤَخَذُ عَلَيْهَا رِشْوَةٌ، وَالسَّيِّئَةُ مَا كَانَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: يَكُنْ لَهُ
 نَصِيبٌ مِنْهَا: فَذَلِكَ النِّصِيبُ: هُوَ ثَوَابُ الشَّفَاعَةِ وَجَزَاؤُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَقَوْلُهُ
 يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا: أَي نَصِيبٌ مِنْ وَزْرِهَا مُسَاوٍ لَهَا فِي الْقَدْرِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:
 وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا، فَلَمَقِيتُ: الْمُتَقَدِّرُ مِنْ أَقَاتِ عَلَى الشَّيْءِ:
 إِذَا قَدَرَ، قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ وَقِيلَ لِأَبِي قَيْسٍ بِنِ رِفَاعَةَ -:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ

وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيتًا (١)

وُقِّرَ الْمُقِيتُ بِالْحَافِظِ وَاشْتِقَاقُهُ مِنَ الْقُوَّةِ، فَإِنَّهُ يَقْوَى الْبَدْنَ
 وَيَحْفَظُهُ.

وَمِنْ أَجْلِ مَا قِيلَ فِي الْجُودِ قَوْلُ حَاتِمِ طَائِي:

أَمَاوِيٌّ مَا يُعْنِي السَّرَّاءُ عَنِ الْفَقْرِ

إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

(١) رَوَى الصَّاعِقَانِي هَذَا الْبَيْتَ مَعَ آيَاتٍ أُخْرَى هَكَذَا:

وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ أُقِيتُ

بَيْتُ اللَّيْلِ مُرْفِقًا نَقِيلًا عَلَى قَرَشِ الْفَتَاةِ وَمَا أَيْتُ

تَعْنُ إِلَى مِنْهُ تُؤْذِيَاتُ كَمَا تُؤْذِي الْجَدَائِبُ الْبُرُوتُ

وَالْمُرْتَقُ: الْمَشْكِيُّ عَلَى مَرْقِيهِ، وَتَعْنُ: تَسْرَعُ وَتَظْهَرُ، وَالْجَدْمَارُ: مَا بَقِيَ مِنْ أَصْلِ

السَّعْفَةِ، وَالْبُرُوتُ: الْفَأْسُ، لِقَاعُهُ يَمَانِيهِ يَنْطَقُونَهَا الْبُرْتُ وَالْبُرْتُ، وَالْبُرُوتُ فَاعِلٌ

تُؤْذِي،

(٢) مَآوِيٌّ: مَنَادَى مَرَحِمِ مَآوِيَةٍ وَهِيَ زَوْجَةُ حَاتِمٍ، وَحَشْرَجَتْ: أَي النَّفْسُ وَإِنْ

لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهَا ذِكْرٌ، لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ

أماويَّ إنَّ يُصِيحُ صَدَائِ بِقَفْرَةٍ
 مِنْ الْأَرْضِ لِمَاءٍ لَدَيَّ وَلَا خَمْرُ (١)
 تَرَى أَنْ مَا أَبَقِيْتُ لِمَ أَكُ رَبَّهُ
 وَأَبَّ يَدِي مِمَّا بَخِلْتُ بِهِ صَفْرُ (٢)
 أماويَّ إنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ
 وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ
 غِنِينَا زَمَانًا بِالتَّصَعُّكِ وَالغِنَى
 وَكُلًّا سَقَانَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ (٣)
 فما زادنا بأوًّا على ذى قرابة
 غِنَانَا وَلَا أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ (٤)

ألست معي في أن على هذه الأبيات مسحة من الجمال وأثرا بيننا من الصدق وأن لها لوطظة من ثمم بالقباب ا أليس حاتم يقول : الحق أول : إنه لا يلغى لك ياماوية أن تلوميني على إنفاق مالي في سبيل البر والإلطاف ، والتخرق في النوال وقرى الأضياف ، أما تعلمين أن مال المرء لا يغنى عنه شيئا إذا ما الموت رماه بسهامه وغادر هذه الحياة ، أما تعلمين أن المرء متى نُيذ جسده بالعراء وأودع حفرة موحشة مقفرة ليس معه شيء مما كان يحتازه في هذه الدنيا من مال ، بدا لك أن المال الذي تركته وبخلت به على مستحقه أصبح

(١) الصدى هنا : جسد الانسان بعد موته

(٢) ربه : صاحبه ، و صفر : خلو (٣) غنينا : عشنا ، غنى كفرح : عاش ، وغنى بالمكان : أقام ، والمراد بالتصعك الفقر ، وبكأسيهما : يعنى الفقر والغنى (٤) البأو : الكبر والفخر ، يقال : بأوت على القوم أبأى بأوا ...

مابكا لغيرى وأصبحت أنا خالي الوفاض^(١) بادي الإنفاض^(٢) لا أملك من هذا المال شروى نقير^(٣) ! أليس الأخلق بي لذلك أن أنفقهُ وأتسخى به على أهليه ، فأنفَعَ بعد موتى - إذا أنا فعلتُ - بالذكر في الناس والحديث الحسن ! وأية قيمة للبال يا ماوية ، ذلك الذى يجيء وبذهب ، ويغدو ويروح ! أليس الأخلق بالماقل الثاقب النظر أن يفيد منه ما هو أبقي على الزمن الباقي من الزمن - أن يفيد منه الذكر من طريق إنفاقه ، والجود به في وجوه استحقاقه ! لقد عشنا يازوجتى حيناً من الدهر أغنياء كما عشنا حيناً فقراء ، وكُلَّا سقانا الدهر بكأسيهما ، فما أزرى الدهر بأحسابنا ، ولا أضغى إناء أعراضنا ، ولا أسف بأخلاقنا ، كما هو شأنه مع ضعفاء النفوس ، وكذلك إذ كنا أغنياء ، ما أبطرتنا الغنى ، وما أطعنا ، على ذوى قربانا ، لانا نعلم علما ليس بالظن أن المال عرض زائل ، أما الجوهر ، أما الذَّكر ، أما الشرف ، أما الخلق ، فكل أولئك هو الذى عليه المعول ، وإنه لذخيرة لا تنفد ، وهى حسب العاقل الذى راض نفسه على السكون إلى الحقائق ، ولم يُخْلِذِ إلى أم دفر^(٤) باطل الأباطيل . . .

«أما بعد، فلقد أذكرتنا هذه العقريات الكريمة من القول، عبقرية رجل من رجالات السلف لقد بلغ المبالغ في الإحسان واصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنه لحق علينا أن نعرض شيئاً لهذه العبقرية من الفعال^(٥)، إذ أن كتابنا هذا ليس بمقصود على العبقرى من القول وإنما نعرض كذلك للعبقرى من الأنامى فى أى معنى من المعانى^(٦) على شريطة أن يكون ذلك لِمَأمًا، فلا

(١) فارغ الجراب (٢) ظاهر الفقر (٣) النقير : نكتة فى النواة يكون منها نبات النخلة وشروى نقير : مثل هذه النكتة (٤) أم دفر: الدنيا وأصل الدفر: التن (٥) الفعال بفتح الفاء : الفعل الحسن (٦) فى أى معنى : متعلق بالعبقرى

نَعْقِلُ الإِغْفَالَ كُلَّهُ مَا يَعْنِينَا مِنْ سِيرِ الْعَبْقَرِيِّينَ ، وَبِمَتْ مَعْنَاهَا بِسَبَبِ وَاصِلٍ إِلَى أَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَلَا تَبْسُطُ التَّبْسُطَ الَّذِي يُلْحِقُنَا بِأَصْحَابِ السَّيْرِ وَالْمُتَرْجِمِينَ ؛ وَشَخْصِيَّتِنَا الَّتِي حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْنَا أَنْ نُسَلِّمَ بِعَبْقَرِيَّتِهَا فِي بَابِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ هُوَ رَجُلٌ مِنْ رِجَالِ أَسْلَافِنَا كَمَا قُلْنَا - هُوَ قَاضِي الْقَضَاةِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ

أحمد بن أبي دواد *

كان هذا أحمد بن أبي دوادٍ شَخْصِيَّةً ضَخْمَةً ذاتَ أثرٍ فَعَالٍ خَالِدٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ، إِذْ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَشْيَاعِ الْمُعْتَرِلَةِ ، وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ الْقَائِلِينَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، الْعَامِلِينَ عَلَى تَرْوِيحِ هَذِهِ الْبَدْعَةِ ، مُسْتَظْهِرًا عَلَى ذَلِكَ بِجَاهِهِ وَنُفُوذِهِ لَدَى الْمَسْأَمُونَ وَالْمُعْتَصِمِ وَالْوَائِقِ . وَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعَمَزٍ - فِي نَظَرِ رِجَالِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ - إِلَّا هَذِهِ ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الصُّوَلِيُّ : لَوْلَا مَا وَضَعَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ مَحَبَّةِ الْمِحْنَةِ - مِحْنَةِ الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، وَحَمَلِ النَّاسِ عَلَيْهِ - لَاجْتَمَعَتِ الْأَلْسُنُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُضَفْ إِلَى كَرَمِهِ كَرْمٌ أَحَدٍ ... وَمَنْ أَحَبَّ الْوَقُوفَ عَلَى مَوْقِفِ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَلْيَرْجِعْ إِلَى مَقَاتِمِهَا ... وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي مَكَاتِمِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَمَنْزِلَتِهِ مِنَ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ، وَرَسُوخِ قَدَمِهِ فِي الْفَضْلِ وَالتُّبَّلِ وَمَكَارِمِ

(٥) قَالَ ابْنُ خُلِكَانٍ - بَعْدَ أَنْ سَرَدَ نَسَبَهُ وَنَمَاهُ إِلَى إِيَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعْدَانَ بْنِ عَدْنَانَ أَيْ أَنَّهُ عَرَبِيٌّ إِيَادِيٌّ - إِنَّ أَسْلَمَهُ مِنْ قَرْيَةِ بَقْنَسِرِينَ ، وَاتَّجَرَ أَبُوهُ إِلَى الشَّامِ وَأَخَذَهُ مَعَهُ وَهُوَ وَاحِدٌ ، فَتَشَأَ أَحْمَدُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَخَاصَّةً الْفِقْهِ وَالْكَلَامِ حَتَّى بَلَغَ مَا يَبْلُغُ ، وَصَحِبَ هِيَاجَ بْنَ عَلَاءِ السُّلَمِيِّ - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ - فَصَارَ إِلَى الْإِعْتِزَالِ ، وَكَانَتْ وِلَادَتُهُ سَنَةَ ١٦٠ هـ بِالْبَصْرَةِ وَتُوفِيَ سَنَةَ ٢٤٠ هـ بَعْدَ أَنْ أُصِيبَ بِالْفَالِجِ فِي زَمَنِ الْمُتَوَكِّلِ

الأخلاق ، وأفاعيله المَحَلَّدة في هذه المعاني - والكلام يدخل بعضه في بعض - : قال أبو العيناء^(١) مارأيت رئيساً تَطُّ أفصح ولا أنطق من ابن أبي دُواد ، وقال : كان ابنُ أبي دُوادِ شاعراً مُجيداً ، فصيحاً بليغاً : وقد ذكره دَعْبِل بن عليّ الخُزاعيُّ - الشاعر العبقرىُّ - في كتابه الذي جمع فيه أسماء الشعراء وروى له آياتاً حسناً : وقال أبو بكر الجرجانيّ : سمعت أبا العيناء الضربير يقول : مارأيت في الدنيا أقومَ على أدبٍ من ابن أبي دُواد - يُريد أبو العيناء بالأدب هنا : أدب النفس - ماخرجت من عنده يوماً تَطُّ فقال : ياغلام خذ بيده ، بل قال : ياغلام أخرج معه ، فكنت أتقِدُ هذه الكلمة عليه ، فلا يُخِلُّ بها ولا أسمعُها من غيره ... قالوا : ودو أولُ من افتتح الكلامَ مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحدٌ حتى يبدؤه . وقال إبراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون ، فذكروا من بايع من الأنصار ليلة العقبة ، فاختلَفوا في ذلك ، ودخل ابنُ أبي دُواد ، فمدَّهم واحداً واحداً بأسمائهم وكُناهم وأنسابهم ، فقال المأمون : إذا استجلسَ الناسَ فاضلاً فمِثْلَ أحمد ، فقال أحمد : بل إذا جالسَ العالمُ خليفةً فمِثْلَ أمير المؤمنين ، الذي يفهم عنه ، ويكون أعلمَ بما يقوله منه . وقال أحمد بن عبد الرحمن الكلبى : ابن أبي دُواد رُوِّحَ كلُّه من قرينه إلى قدِّمه . وقال لازون بن اسماعيلَ : مارأيت أحداً قَطُّ أطوعَ لأحد ، من المُعتصم لابن أبي دُواد ، كان - المُعتصم - يُسألُ الشيءَ اليسيرَ فيمتنع منه ، ثم يدخل ابن أبي دُواد فيكلمه في أهله

(١) أبو العيناء هو أبو عبدالله محمد بن القاسم الضربير ، ولد سنة ١٩١ وتوفى سنة ٢٨٢ كان من ظرفاء العالم وفيه من اللسن وسرعة الجواب ما لم يكن لأحد من نظرائه ، وترى نوادره مبعثرة في هذا الكتاب

وفي أهل الثغور وفي الحرمين وفي أقاصي أهل المشرق والمغرب ، فيجيبه إلى كل ما يريد ، ولقد كلبه يوماً في مقدار ألف ألف درهم ليخففَ بها نهرُ في أقاصي خراسان ، فقال له : وما عليّ من هذا النهر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى يسألك عن النظر في أمر أقصى رعيتك ، كما يسألك عن النظر في أمر أدناها ، ولم يزل يرفُقُ به حتى أطلقها . قالوا : وكان ابتداء اتصال ابن أبي دُواد بالمأمون ما حدث به ابنُ أبي دُواد نفسه ، قال : كنت أحضرُ مجلسَ القاضي يحيى بنِ أكرم ، مع الفقهاء ، فإني عنده يوماً إذ جاءه رسولُ المأمون ، فقال له : يقول لك أميرُ المؤمنين : انتقل إلينا أنتَ وجميعُ من معك من أصحابك ، فلم يُجبْ أن أحضرَ معه ، ولم يستطع أن يؤخّرني ، فحضرت مع القوم ، وتكلّمنا بحضرة المأمون ، فأقبل المأمون ينظرُ إليّ إذا شرّعتُ في الكلام ، ويتفهّم ما أقول ، ويستحسنه ، ثم قال لي : مَنْ تكون ؟ فانتدبتُ له ، فقال : ما أخرك عنا ؟ فكبرهت أن أُجيبَ على يحيى ، فقلت : حُبسة القدر ، وبلوغ الكتاب أجله ، فقال : لا أعلمن ما كان لنا من مجلس إلا حَضرتَه ، فقلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، ثم اتصل الأمر ، وقيل : قدِم يحيى بنُ أكرم قاضياً على البصرة من خراسان ، من قبيل المأمون ، في آخر سنة ٢٠٢ وهو حَدَثٌ ، سنه نيف وعشرون سنة ، فاستصحب جماعةً من أهل العلم والمروآت ، منهم ابنُ أبي دُرَاد ، فلما قدِم المأمون ببغداد في سنة ٢٠٤ قال ليحيى : اختر لي من أصحابك جماعةً يجالسونني ويكثرُونَ الدخولَ إليّ ، فاختر منهم عشرين ، فيهم ابنُ أبي دُواد ، فكثروا على المأمون ، فقال : اختر منهم ، فاختر عشرة فيهم ابنُ أبي دُواد ، ثم قال : اختر منهم ، فاختر خمسة ، فيهم ابنُ أبي دُواد ، واتصل أمرُه ... وكان من وصية المأمون إلى أخيه المعتصم عند الموت :

وأبو عبدالله أحمد بن أبي دواد لا يُفارُكُكَ الشركةَ في المشورةِ في كلِّ أمرٍ ،
فإنه موضع ذلك ، ولا تتخذنَ وزيراً ، فلما وليَ المعتصم ، جعل ابنَ أبي دواد
قاضياً القضاةَ مكانَ يحيى بن أكرم ، وكان لا يفعلُ فعلاً باطناً ولا ظاهراً إلا
برأيه ... ولما مات المعتصم وتولى بعده ولدهُ الواثقُ بالله حسنتَ حالُ ابنِ
أبي دواد ، وما زال إلى أن وليَ أخوه المتوكلُ ، فأصيب ابنُ أبي دواد بالفالج
فكانت مدةَ عظمةِ ابنِ أبي دواد ونفوذه وجاهه نحواً من ثمان وعشرين سنة ...
قال ابن خلكان - الذي نعتمد عليه في هذا الباب - : وكان ابنُ أبي دواد كثيراً
ما يُنشد - ولم يذكرَ أنهما له أو لغيره - :

ما أنتَ بالسبِّ الضَّعيفِ وإنما تُنجحُ الأمورَ بقوةِ الأنسابِ

فاليومَ حاجتنا إليك وإنما يدعى الطيبُ لشدَّةِ الأوصابِ

ومن كلامه : ثلاثةٌ ينبغي أن يُجَّلوا وتُعرفَ أقدارُهم : العلماءُ ، وولادةُ العدلِ ،

والإخوان ، فمن استخفَّ بالعلماءِ أهلكَ دينه ، ومن استخفَّ بالولاهِ أهلكَ دُنياه ،

ومن استخفَّ بالإخوانِ أهلكَ رُوءته ، ومن كلامه أيضاً : ليس بكاملٍ من لم

يحمِلَ وِليَّه على منبرٍ ولو أنه حارسٌ ، وعدوُّه على جذعٍ ولو أنه وزيرٌ ^(١)

(١) هذا على حد قول عبدالله بن معاوية :

إذا أنتَ لم تنفعَ فضرَّ فإنما يُرجى الفتي كما يضرُّ وينفعُ

وقول الآخر :

ولكن قتي الفتيان من راح واغتدى لضرَّ عدوِّ أو لنفعِ صديقِ

وقول المتنبي :

لمن تطلب الدنيا إذا لم تُردِّبها سرورٌ محبٍّ أو إساءةٌ مجرمِ

وقول ابن الرومي :

قليلا ، قال ابن أبي دواد : وعمرني البول فلم أقدر على حبسه ، وعليت أني إن نُمتُ قُتِل الرجل ، فجمعت ثيابي تحتي وبلتُ فيها ، حتى حَلَّصْتُ الرجل قال : فلما قت نظر المعتصم إلى ثيابي رطبةً فقال : يا أبا عبد الله ، أكان تحتك ماءً ؟ فقلت : لا ، يأمر المؤمنين ، ولكنه كان كذا وكذا ! فضحك المعتصم ، ودعالي وقال ، أحسنت ، بارك الله عليك ، وخلع عليه وأمر له بمائة ألف درهم ... وقال أبو العيناء : كان الأفشينُ - التركي وكان من أجل قواد المعتصم ، وأبلى في أمرِ بابك الخرميِّ بلاءَ حمده له - يَحْسُدُ أبا دُلفَ القاسمَ بنَ عيسى العجليَّ (١) - وهو كذلك أحدُ قوادِ المأمون ثم المعتصم من بعده . وكان تحت إمرة الأفشين في حرب بابك - للعربية والشجاعة

(١) وهذا أبو دلف كان كذلك كريما سوريا جوادا ممدحا شجاعا مقدما فاضلا ، مدحه أبو تمام وعلى بن جبلة المعروف بالعمكوك وبكر بن النطاح ، وفيه يقول العمكوك قصيدته التي يقول فيها :

إنما الدنيا أبو دُلفٍ بين مغزاه ومخضره
 فإذا ولّى أبو دُلفٍ ولت الدنيا على أثره
 كلُّ من في الأرض من عرب بين باديه إلى حضره
 مُستعيرٌ منك مكرمةً يكتسيها يومَ مفتخره

ويقول بكر بن النطاح :

يا طالبا للكيمااءِ وعليه مدحُ ابن عيسى الكيمااءِ الأعظم
 لو لم يكن في الأرض إلا درهم ومدحتَه لآتاك ذاك الدرهم
 وقد أعطاه أبو دلف على هذين البيتين عشرة آلاف درهم ... هذا ودلف اسم علم ممنوع من الصرف للعلمية والعدل لأنه معدول عن دالف ، قاله ابن بري

فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية قتل ، فأخذه ببعض أسبابه ، فجلس له وأحضره ، وأحضر السيّاف ليقتله ، وبلغ ابن أبي دؤاد الخبر ، فركب من وقته مع من حضر من عدوّله ، فدخل على الأفضين ، وقد جرى بأبي دُلف ليقتل ، فوقف ، ثم قال : إني رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرت أن لا تُحدّث في القاسم بن عيسى حدّثنا حتى تُسلّمه إلىّ ، ثم انفتحت إلى العدول وقال : أشهدوا أنّي أدّيت الرسالة إليه عن أمير المؤمنين والقاسم حتى معافى ، فقالوا : قد شهدنا ، وخرج ، فلم يقدر الأفضين عليه ، وسار ابن أبي دؤاد إلى المعتصم من وقته ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قد أدّيتُ عنك رسالة لم تُقلها لي ، ما اعتدُّ بعملٍ خيرٍ خيراً منها ، وإني لأرجو لك الجنة بها ، ثم أخبره الخبر ، فصوّب رأيه ، ووجّه من أحضر القاسم ، فأطلقه وذهب له : وعنف الأفضين فيما عزم عليه ... ومن مروآته : أن المعتصم كان قد اشتدّ غيظه على محمد بن الجهم البرمكيّ ، فأمر بضرب عنقه ، فلما رأى ابن أبي دؤاد ذلك وأن لا حيلة له فيه وقد شدّ برأسه وأقيم في النّضج وهزّ السيّف قال ابن أبي دؤاد للمعتصم : وكيف تأخذ ماله إذا قتله ؟ قال المعتصم : ومن يحول بيني وبينه ؟ قال : يا أبا الله تعالى ذلك ، ويأباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأباه عدل أمير المؤمنين ، فإن المال للوارث إذا قتله حتى تُقيم البيّنة على ما فعله ، وأمره باستخراج ما اختاره أقرب عليك وهو حتى ، فقال : أحبسوه حتى يُناظر ، فتأخّر أمره على مالٍ حملة « أي كتمّله ، وخصّص محمد ... وقال أبو العيّن : غضب المعتصم على خالد بن يزيد بن يزيد الشّيبانيّ ، وأشخصه من ولايته ، لتعجز لِحَقّه في مالٍ طلب منه ، وأسباب غير ذلك ، فجلس المعتصم لعقوبته ، وكان قد طرّح نفسه على ابن أبي دؤاد ، فنكلم فيه فلم يُجبه المعتصم ،

فلما جلس لعقوبته حضر ابن أبي دواد، فجلس دون مجلسه، فقال له المعتصم: يا أبا عبد الله، جلست في غير مجلسك! فقال له: ما ينبغي أن أجلس إلا دون مجلسي هذا... فقال له: وكيف؟ قال: لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعي موضع من يشفع في رجل فلا يشفع، قال: فارجع إلى مجلسك، قال: مُشَفَّعاً أو غير مُشَفَّعٍ^(١)؟ فقال: بل دَشَفَّعاً، فارتفع إلى مجلسه، ثم قال: إن الناس لا يعلون رضا أمير المؤمنين عنه إن لم يخضع عليه^(٢) - فأمر بالخلع عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد استحق هذا وأصحابه رزق ستة أشهر لا بد أن يقبضوها، وإن أمرت لهم بها في هذا الوقت قامت مقام الصلوة، قال: قد أمرت لهم بها، فخرج خالد وعليه الخلع، والمال بين يديه، وإن الناس ينتظرون في الطرق الإيقاع به، وصاح رجل: الحمد لله على خلاصك ياسيد العرب، فقال خالد: أسكت، سيد العرب والله أحمد بن أبي دواد... وقال الواثق يوماً لابن أبي دواد - تضحراً بكثرة حوائجه: قد اختلت بيوت المال بطلباتك للأئدين بك والمتوسلين إليك! فقال: يا أمير المؤمنين، هي نتائج شكرها متصلة بك، وذخائر أجرها مكتوب لك. ومالي من ذلك إلا أن أخلده المدح فيك، فقال: أحسنت.

«وبعد، فلنتجزأ بهذا المقدار من مساعي ابن أبي دواد سيد العرب وعقريتها في النجدة والمروءة والكرم والأريحية والشجاعة الأدبية»

(١) يقال: شفع له وشفع له إلى الملك مثلاً، فشفعه فيه تشفيحاً، فالطالب شفيح

وشافع، والمشفع: الذي تقبل شفاعته، أما المشفع فهو الذي يقبل الشفاعة

(٢) قال في أساس البلاغة: خلع عليه: إذا نزع ثوبه وطرحه عليه، وكساه

الخلاء والخلع

وما آتت لف هذه المعاني الكريمة مما انبعثت له قرائحُ خولِ شعراء الإسلام، أمثال
أبي تمام، فأنطقهم بالمأثور من الشعر الفخم، وامتدحوا به هذا الرجل العظيم،
فقال أبو تمام :

لقد أنست مساوي كل دهرٍ محاسنُ أحمدَ بنِ أبي دُوادٍ
وما سافرتُ في الآفاقِ إلا ومن جدِّ والكَرَّاحِ لتي وزادِي

قال علي الرازي: رأيت أبا تمام عند ابن أبي دواد ومعه رجل يُنشدُ عنه
قصيدة منها هذان البيتان، فلما أنشدتهما قال ابن أبي دواد لأبي تمام:
هذا المعنى تفردتَ به أم أخذته؟ فقال: هولى، وقد أَلَمْتُ فيه بقول
أبي نواس:

وإن جرتِ الألفاظُ منا بمدحِ غيرِكَ إنساناً فأنتَ الذى نَعْنِي
ومدحه أبو تمام أيضا بقصيدته التى أولها:

أرأيتَ أىَّ سوائِفٍ وُحْدُودٍ عَنَّتْ لنا بينَ اللّوى وزرُودِ

وفى الآيات الثلاثة البديعة فى الحسد:

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فِضِيلَةٍ طَوِيَّتْ أتاحَ لها لسانَ حَسودِ

لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتَ ما كانَ يُعَرِّفُ طِيبُ عَرَفِ العُودِ

لولا التَّخَوُّفُ للعوائِبِ لم تزلْ للأحاسِدِ التَّعَمُّى على الحَسودِ

ودخل أبو تمام عليه يوماً، وقد طالَت أيامه فى الوقوف ببابه ولا يصل

إليه، ولما وصل قال له ابن أبي دواد: أَحَسَبُكَ عاتبا يا أبا تمام، فقال

أبو تمام: إنما يُعْتَبُ على واحدٍ وأنتَ الناسُ جميعاً، فكيف يُعْتَبُ عليه!

فقال له: مِن أينَ لك هذا يا أبا تمام؟ فقال من قول الحاذق - يعنى

أبا نواس - فى الفضل بن الربيع:

وليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ^(١)
ولما وُلِّيَ ابْنُ أَبِي دُوَادٍ الْمِظَالِمَ قَالَ أَبُو تَمَامٍ قَصِيدَةً يَتَذَلُّمُ إِلَيْهِ، مِنْ جَمَلَتِهَا
قوله :

إِذَا أَنْتَ صَيَّعْتَ الْقَرِيضَ وَأَهْلَهُ فَلَا عَجَبٌ إِنْ صَيَّعْتَهُ الْأَعَاجِمُ
فَتَذْهَبَ عِظْفِيهِ الْقَرِيضُ تَوْقَعًا لِعَدْلِكَ مُذْ صَارَتْ إِلَيْكَ الْمِظَالِمُ
وَلَوْلَا خِلَالُ سَنِّهَا الشَّعْرُ مَا دَرَى بُغَاةَ الْعُلَى مِنْ أَيْنَ تَوَنَّى الْمَكَارِمُ

ومدائحُ أبي تمام وغيرِ أبي تمام فيه كثيرة متوافرة ... وقال أبو بكر بن
دريد : كان ابن أبي دواد هُوَ الْفَاحِشُ لِأَهْلِ الْأَدَبِ مِنْ أُمَّةٍ بَلَدٍ كَانُوا ، وَكَانَ
قَدْ ضَمَّ مِنْهُمْ جَمَاعَةً يَعُولُهُمْ وَيَمُونُهُمْ ، فَلَمَّا مَاتَ حَضَرَ بِيَابِهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ
وَقَالُوا يُدْفِنُ مِنْ كَانُ سَائِقَةَ الْكِرْمِ^(٢) وَتَارِيخَ الْأَدَبِ وَلَا نَتَكَلَّمُ فِيهِ إِلَّا
هَذَا وَهَنْ^(٣) وَتَقْصِيرٍ ، فَلَمَّا طَلَعَ سَرِيرُهُ قَامَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ :
الْيَوْمَ مَاتَ نِظَامُ الْمَلِكِ وَاللَّسَنِ وَمَاتَ مَنْ كَانَ يُسْتَعْدَى عَلَى الزَّمَنِ^(٤)

(١) وأخذه أبو نواس من قول جرير :

إِذَا عَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا

(٢) الساقية : جمع سائق وهم الذين يسوقون جيش الغزاة ويكونون من ورائه
يحفظونه ، فلعل هؤلاء الأدباء يريدون بقولهم من كان ساقية الكرم : أنه كان يحوط
الكرم ويحفظه فكانه الجيش الذين يحفظون جيوش الكرم ، والمراد : أنه أمير الكرم
إذ أنه يحوطه ويحفظه

(٣) وهن : ضعف

(٤) يقال : استعدت الأمير على فلان فأعداني : أي استعنت به عليه فأعداني

والاسم منه العدوى وهي المعونة

وَأَظْلَمْتَ سُبُلُ الْآدَابِ إِذْ حُجِبَتْ شَمْسُ الْمَكَارِمِ فِي غُيْمٍ مِنَ الْكَفَنِ
وتقدم الثاني فقال :

تَرَكَ الْمَنَابِرَ وَالسَّرِيرَ تَوَاضِعًا وَلَهُ مَنَابِرٌ لَوْ يَشَاءُ وَسَّرِيرٌ
ولغيره يُجَنَّبِي الْخِرَاجَ وَإِنَّمَا تُجَنَّبِي إِلَيْهِ تَحَامِدٌ وَأُجُورٌ^(١)
وتقدم الثالث فقال :

وَلَيْسَ قَتِيقُ الْمَسْكِ رِيحٌ خُبُوطِهِ وَلَكِنَّهُ ذَاكَ الشَّأُ الْمُخْلَفُ^(٢)
وَلَيْسَ صَرِيرُ النَّعْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ وَلَكِنَّهُ أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقْصَفُ^(٣)

رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود

«وبعد، فلننظف على كلامهم في الجودِ وذم البخل : أورد الجاحظ في كتابه «البخلاء» رسالة جميلة جداً نسبها إلى أبي العاصي بن عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفى - أرسلها إلى رجل من عشيرته، وقد سمع بأنه يجلس إلى قوم من البخلاء، أمثال سهل بن هارون والأصمعي، وقد تأثر بمذهبهم في البخل وامتداحهم إياه، فكتب إليه هذه الرسالة ينعى فيها على البخلاء مذهبهم، ويذم البخل وينوّه بالجود - ونحن فإننا نقطف من هذه الرسالة تفتاً ونترك سايرها لمن يجب أن يراجعها في كتاب البخلاء - قال :

(١) أجور : جمع أجر وهو الثواب

(٢) قَتِيقُ الْمَسْكِ : استخراج رائحته بشيء نخلطه به، ومسك قتيق : مستخرج

الرائحة بجله في غيره - كما يفعلون اليوم به وبالعنبر .

(٣) الاصلاب : جمع صلب وهو العظم من لدن الكاهل إلى العجب، وتقصف :

بجذف إحدى التائين أى تقصف والتقصف : التكرس

وهل تزيد حال من أنفق جميع ماله ، ورأى المكروة في عياله ، وظاهر فقره ، وشمت به عدوه ، على أكثر من انصراف المؤمنين عنه ، وعلى بغض عياله ^(١) ، وعلى خشونة الملابس ، وجشوبة المأكل ^(٢) ؟ وهذا كله ، يجتمع في مسك ^(٣) البخيل ، ومضروب على هامة ^(٤) الشحيح ، ومعجل للثيم ^(٥) وملازم للنوع ؛ ألا إن المُنْفَقَ قد رَجَحَ المحمّدة ، وتمتّع بالنعمة ، ولم يعطل المقدرة ^(٦) ، ووفى كلّ خصلة من هذه حقها ، ووفّر عليها نصيبها ، والممسك معذب ، يحضّر نفسه ، وبالكدّ لغيره ؛ مع لزوم الحجّة ^(٧) ، وسقوط الهمة ^(٨) والتعرض للذمّ والإهانة ، ومع تحكيم العرة السوداء في نفسه ^(٩) وتسليطها على عرضه ، وتمكينها من عيشه ، وسرور قلبه ^(١٠) .

إنّ الله جوادٌ لا يبخل ، وصدوقٌ لا يكذب ، ووفى لا يغير ، وحكيمٌ لا يعجل ، وعدلٌ لا يظلم . وقد أمرنا بالجد ، ونهانا عن البخل ؛ وأمرنا بالصدق ، ونهانا عن الكذب ؛ وأمرنا بالحلم ، ونهانا عن العجلة ؛ وأمرنا بالعدل ، ونهانا عن الظلم ؛ وأمرنا بالوفاء ، ونهانا عن الغدر .

-
- (١) أى بغضهم له (٢) جشوبة المأكل : غلظه وخشورته أو قلة إدامه
 (٣) المسك : الجلد والمراد : النفس والشخص (٤) الهامة : الرأس
 والجمع : هام (٥) اللثيم : الشحيح النفس (٦) أى لم يعطل المقدرة على فعل
 الخير وكسب الثناء (٧) مع لزوم الحجّة : أى مع قيام الحجّة عليه في بخله وعجزه
 عن الزيادة عن نفسه (٨) سقوط الهمة : العجز عن جلائل الأعمال
 (٩) المرة : خلط من أخلاط البدن ، والمزاج الأسود : هو المزاج المضطرب
 الكثير المخاوف والوساوس
 (١٠) وتسليطها : يعنى أنه بمخاوفه ووساوسه يستهدف للذم ، وتتمكن هذه المرة
 من نفسه فتتغصص عليه عيشه وتعصف بسروره

فَلَمْ يَأْمُرْنَا إِلَّا بِمَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَزُجِّرْنَا إِلَّا عَمَّا لَمْ يَرْضَهُ لِنَفْسِهِ : وَقَدْ
 قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : إِنَّ اللَّهَ أَجْوَدُ الْأَجْوَدِينَ ، وَأَجْدُ الْأَجْدِينَ ؛ كَمَا قَالُوا : أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ، وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . وَقَالُوا فِي التَّأْدِيبِ لِسَائِلِهِمْ ، وَالتَّعْلِيمِ لِأَجْوَادِهِمْ :
 لَا تَجَاوِدُوا اللَّهَ ^(١) فَإِنَّ اللَّهَ - جَلَّ ذِكْرُهُ - أَجْوَدُ وَأَجْدُ . وَذَكَرَ نَفْسَهُ جَلَّ
 جَلَالُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - فَقَالَ : « ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » ، وَ « ذُو الطَّوْلِ » ^(٢)
 لِإِلَهِهِ إِلَّا هُوَ ، وَقَالَ : « ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ،



وَذَكَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالُوا : لَمْ يَضَعْ دِرْهَمًا عَلَى دِرْهَمٍ ،
 وَلَا لَيْتَةً عَلَى لَيْتَةٍ . وَمَلَكَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ ، فَقَبَضَ الصَّدَقَاتِ ، وَجُبَيْتُ لَهُ
 الْأَمْوَالُ ، مَا بَيْنَ عُذْرَانَ الْعِرَاقِ إِلَى شَجْرِ عُثْمَانَ ^(٣) إِلَى أَقْصَى مَخْلِفِ ^(٤) الْبَيْنِ
 ثُمَّ نُوتِي وَعَلَيْهِ دَيْنٌ ، وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ . وَلَمْ يُسْأَلْ حَاجَةً قَطُّ فَقَالَ : لَا .
 وَكَانَ إِذَا سُئِلَ أُعْطِيَ ، وَإِذَا وَعِدَ أَوْ أَطْمَعُ ، كَانَ وَعْدُهُ كَالْعِيَانِ ^(٥) ، وَإِطْمَاعُهُ
 كَالْإِنجَازِ . وَمَدَحَتْهُ الشُّعْرَاءُ بِالْجُودِ . وَذَكَرَتْهُ الْخُطَبَاءُ بِالسَّمْحِ . وَلَقَدْ كَانَ
 يَهْبُ لِلرَّجُلِ الْوَاحِدِ الضَّاجِعَةَ مِنَ الشَّاءِ ^(٦) وَالْعَرَجَ مِنَ الْإِبِلِ ^(٧) - وَكَانَ
 أَكْثَرُ مَا يَهْبُ الْمَلِكُ مِنَ الْعَرَبِ مِائَةَ بَعِيرٍ ، فَيَقَالُ : وَهَبْ هُنَيْدَةً ^(٨) . وَإِنَّمَا

(١) أى لتحاولوا أن تصلوا في الجود إلى مثل جود الله (٢) الطول :
 الإفضال والإنعام (٣) ساحل البحرين عمان وعدن (٤) الخلف : الكورة
 ودو عند أهل اليمن وحاد الخاليف وهى كورها أى المدن والأصقاع
 (٥) العيان : مصدر عاين الشيء : أبصره والمعنى : أن وعده فى الوثوق بتحقيقه
 كالشيء المشاهد (٦) الضاجعة : الغنم الكثيرة (٧) العرج من الإبل : ما بين
 السبعين إلى الثمانين وقيل : ما بين الثمانين إلى التسعين ، وقيل : مائة وخمسون ونوبق
 ذلك ، وقيل : من خمسمائة إلى الألف (٨) هند وهنيدة : اسم للمائة من الإبل خاصة

يقال ذلك ، إذا أريد بالقول غاية المدح ، ولقد وهبَ لرجل ألفَ بعير .
فلما رآها تزدهمُ في الهوادي ^(١) قال : أشهدُ أنك نبي . وما هذا مما تجودُ
به الأنفس .

وأجمعتِ الأممُ كلُّها بَحْيَئِهَا وَسَخِيئِهَا ومزوجُهَا ، ^(٢) على ذمِّ البخل ، وحمدِ
الجود ، كما أجمعوا على ذمِّ الكذب وحمدِ الصدق .

فمن أراد أن يخالف ما وصف الله - جل ذكره - به نفسه ، وما منح من
ذلك نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وما فطر على تفضيله العرب قاطبة ،
والأمم كافةً ، لم يكن عندنا فيه إلا إكفاره واستسقاطه ^(٣)

ولم نزال الأمة أبغضت جواداً قط ولا حقّرتُهُ ، بل أحبّته وأعظمته ، بل
أحبّت عقبه وأعظمت من أجله رهطه . ولا وجدناهم أبغضوا جواداً ،
لمجاوزته حمد الجود إلى السرف ، ولا حقّرتُهُ ، بل وجدناهم يتعلون
مناقبه ، ويتدارسون محاسنه ، وحتى أضافوا إليه من نوادر الجليل ^(٤) ما لم يفعلوه
وتحلّوه ^(٥) من غرائب الكرم ما لم يكن ليبلغه ، ولذلك زعموا أن الشاء في الدنيا
يُضاعف ^(٦) كما تُضاعف الحسنات في الآخرة . نعم ، وحتى أضافوا إليه

(١) الهادية والهادى : العتق ، والهادية من كل شيء : أوله وما تقدم منه فيكون
معنى تزدهم في الهوادي : تزدهم بأعناقها وهذا ما يشاهد في الإبل . أو يكون المعنى :
تزدهم في أوائلها وهذا شاهد أيضاً في كل قطع

(٢) مزوجها : من امتزج فيه السخاء والبخل فكان وسطاً بين الكريم والبخل

(٣) في اللسان : وأكفرت الرجل : دعوته كافراً ، واستسقاطه : إسقاطه من

بين العقلاء

(٤) الفل الجليل (٥) نحلوه : نسبوا إليه (٦) يضاعفه الناس أضعافاً

كثيرة بما يضيفون إليه ويزيدون عليه

كلّ مدح شارد^(١)، وكلّ معروف مجهولٍ الصاحب . ثم وجدنا هؤلاء بأعيانهم للبخيل على ضدّ هذه الصفة ، وعلى خلاف هذا المذهب : وجدناهم يُغضونه مرّة ، ويُحَقِّرونه مرّة ، ويُغضون بفضل بغضه ولده ، ويحتقرون بفضل احتقارهم له رهطه ، ويُضيفون إليه من نواذر اللّوم ما لم يبلغه ، ومن غرائب البخل ما لم يفعله ، وحتى ضاعفوا عليه من سوء الثناء بقدر ما ضاعفوا للجواد من حسن الثناء .

وعلى أنّنا لانجد الجوانح^(٢) إلى أمثال الاسخياء ، أسرع منها إلى أموال البخلاء ، ولا رأينا عدد من افتقر من البخلاء أقلّ .

والبخيل عند الناس ليس هو الذي يبخل على نفسه فقط ؛ فقد يستحق عندم اسم البخيل ويستوجب الذم ، من لا يدع لنفسه هوى إلا ركيه ، ولا حاجة إلا قضاها ، ولا شهوة إلا ركبها وبلغ فيها غايته . وإنما يقع عليه اسم البخيل ، إذا كان زاهداً في كل ما أوجب الشكر ، ونوّه بالذكر ، وأدخر الأجر

وقد يُعاقَّب البخيل^(٣) على نفسه من المؤمن ، ويلزمها من الكلف ، ويتخذ من الجوارى والخدم ، ومن الدوابِّ والحشم^(٤) ، ومن الآنية العجيبة ، ومن البزة الفاخرة^(٥) . والشارّة الحسنة^(٦) ، ما يُرَبِّي على نفقة السخيّ المثرى^(٧) ويضعف على جود الجواد الكريم^(٨) فيذهب ماله وهو مذموم ، ويتغير

(١) شارد : نافر ، يريد المدح الغريب الذي لا يخطر عادة بالبال

(٢) الجوانح : جمع جائحة وهي الآفة .

(٣) يعلق : يوجب ويكلف (٤) الحشم : الخدم وهي كلمة في معنى الجمع ولا واحد لها من لفظها (٥) البزة : الهيئة : يقال : هو حسن البزة

(٦) الشارة هنا : الزينة واللباس

(٧) يرَبِّي : يقال : أربى الشيء على كذا : زاد عليه

(٨) ضعف يضعف : من باب كرم ، زاد

حاله وهو ملوم . وربما غَابَ عليه حُبُّ القِيَانِ (١) واستُهْتِرَ بالخِصْيَانِ (٢) .
 وربما أَفْرَطَ في حُبِّ الصيدِ ، واستولى عليه حُبُّ المراكبِ (٣) ، وربما كان
 إتلافه في العُرسِ والحُرسِ (٤) والوليمةِ ، وإسرافه في الإِعْذَارِ (٥) وفي العَقِيقَةِ (٦)
 والوكيرةِ (٧) ، وربما ذهب أهواله في الوضائعِ (٨) والودائعِ . وربما كان
 شديدَ البُخْلِ ، شديدَ الحُبِّ للذِّكْرِ (٩) ويكونُ مُنْخَلُهُ أُرْشَجَ (١٠) ولوْهه أَقْبَحُ ،
 فَيُنْفِقُ أهواله وَيُتَلَفُ خزائنه ، ولم يَخْرُجْ كَفَافًا (١١) ولم يَنْجُ سَلِيمًا
 كأنك لم تَرَ بِخَيْلًا مَخْدُوعًا (١٢) ، وبخَيْلًا مَضْعُوفًا ، وبخَيْلًا مِضْيَاعًا ، وبخَيْلًا

- (١) القيان : جمع قينة ، بفتح فسكون ، الأمانة البيضاء مغنية أو غير مغنية
 (٢) استهتر بالشئ . ، بالبناء للجھول . : أولع به : والولوع بالخصيان نوع من السرف
 والترف كان شائعا في أيامهم
 (٣) المراكب : جمع مركب والمراد ما يركب من الخيل ونحوها
 (٤) الحرس بالضم والحراس بالكسر : طعام يصنع ابتهاجا بالولادة
 (٥) الإِعْذَارُ : وليمة الختان وطعام البناء ، الدخلة ،
 (٦) العَقِيقَةُ : الشاة تذبح في اليوم السابع من ولادة المولود
 (٧) الوكيرة : الطعام يتخذه الرجل ويدعو إليه عند انتهاء ما كان يبنيه
 (٨) الوضائع : جمع وضيفة وهي ما يرفعه الدائن عن المدين من الدين
 (٩) شديد الحب لأن يذكر بما ينفقه من مال في هذه السبيل
 (١٠) أى أعلق بنفسه
 (١١) الأصل فى معنى الكفاف : ما يكف عن سؤال الناس ويفنى ، ومعنى لم
 يخرج كفافا هنا : لم يخرج خاليا من الذم وهو فى معنى : ولم ينج سليما
 (١٢) يتخيل كاتب الرسالة أن المخاطب ينكر ما ذهب إليه فهو يتجه إليه
 قائلا : كأنك الخ ، والمضعوف : ضعيف الرأى

فَناجَا ^(١) وَبَخِيلا ذَهَبَ ما لَهُ فِي البِناءِ، وَبَخِيلا ذَهَبَ ما لَهُ فِي الكِيمياءِ ^(٢) ،
 وَبَخِيلا أَنْفَقَ ما لَهُ فِي طَمَعِ كاذِبٍ ، وَعَلَى أَمَلِ خائِبٍ ، وَفِي طَلَبِ الوِلايَاتِ ،
 وَالدخولِ فِي القَبالاتِ ^(٣) ، وَكانتِ فِنتُهُ بِما يُؤمَلُ مِنَ الإِمرَةِ ^(٤) ، فَوَقُ
 فِنتَهُ بِما قَدِ حَواهِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفضَّةِ ، وَقَدِ رَأىناهُ ^(٥) يُنْفِقُ عَلى ما نَدَتْهُ وَفَاكَهَتْهُ
 أَلْفَ دِرْهَمٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَعِندَهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عُرْسٌ ^(٦) ، وَلأنَّ بَطْعانَ طاعِنٍ
 فِي الإِسلامِ ، أَهونُ عَليه مِنَ أَنْ يَطْعنَ طاعِنٌ فِي الرِّغيفِ الثَّانِي ، وَشَقُّ
 عِصا الدِّينِ ، أَهونُ عَليه مِنَ شَقِّ رِغيفٍ ، لا يَعدُّ الثَّامَةَ فِي عِرْضِهِ ثَلْثَةٌ ،
 وَيَعدُّها فِي ثَريدَتِهِ مِنَ أَعْظَمِ الثُّلَمِ ^(٧)

وَإِما صارتِ الآفاتُ إِلى أُمُوالِ البِخلاءِ أَسْرَعَ وَالجِوانِحُ عَلَيمِهِمُ أَكْلبَ ^(٨) ؛

(١) النفاق : المدعى المتباهى بما ليس له

(٢) الكيمياء في زعمهم : تحويل المعادن الخسيسة - بالصناعة - إلى معادن نفيسة ،
 أقول : وقد رأيت بعيني رأسي رجلا ثريا من ذوى قرابتنا كان يضرب به المثل في البخل
 ولكنه في أواخر أيامه أضع ثروته التي كانت تبلغ ثلثمائة فدان من أجرد أطيان
 مديرية الغربية في سبيل هذا الكيمياء بعد أن تعرف على رجل مغربي قد اشتهر بهذه
 الصناعة التي كم خربت من بيوت أمثال هؤلاء البخلاء المخبولين

(٣) القبالة - بالفتح - الكفالة ، واسم لما يلتزمه الإنسان من عمل ودين ونحوها ،

والقبيل : الكفيل والضامن

(٤) الإمرة : اسم مصدر، من أمر علينا : إذا ولى

(٥) يريد بخيلا من البخلاء

(٦) العرس من معانيه : الرثيمة

(٧) الثلثة : الفرجة في الشيء المهذوم أو المكسور

(٨) أكلب : أضرى وأولع وأشد

لأنهم أقلُّ توكلًا ، وأسوأ بالله ظنًا . والجوادُ إما أن يكون متوكلاً ، وإما أن يكون أحسنَ بالله ظنًا ، وهو على كل حال المتوكل أشبهه ، وإلى ما أشبهه أنزع^(١) ، وكيف أدار أمره ، فليس من يتسكل على خزه ، ويلجأ إلى كَيْسِه^(٢) ويرجع إلى جَوْدَةِ احتياظه وشدة احتراسه

واعتلالُ البخيل بالحدثان ، وسوء الظن بتقلب الزمان ، إنما هو كناية عن سوء الظن بخلق الحدثان^(٣) ، وبالذي يُحدث الأزمات وأهل الزمان . ولا تجرى الأحداث إلا على تقدير المحدث لها ؟ وهل تختلف الأزمنة إلا على تصرف من دبرها ؟ أولسنا وإن جهلنا أسبابها فقد أيقننا بأنها تجرى إلى غاياتها ؟^(٤) والدليل على أنه ليس بهم خوف الفقر ، وأن الجمع والمنع إما أن يكون عادةً منهم ، أو طبيعةً فيهم ، أنك قد تجد الملك بخيلاً ، ومملكته أوسع ، وخرجه أدر ، وعدوه أسكن^(٥) وقد علمنا أن الزنج أقصر الناس مرة^(٦) ورويةً وأذهلهم عن معرفة العاقبة^(٧) : فلو كان سخاؤهم إنما هو لِكَلالِ حُدْمِهم^(٨) ،

(١) الضمير في أشبهه يعود الى المتوكل وأنزع : أميل

(٢) كَيْسِه : عقله وفطنته

(٣) حدثان الدهر : نوابه . واعتلال البخيل بالحدثان : أى تلسه العطل والأعدار

بالخوف من نواب الدهر الخ

(٤) الفاء من فقد : زائدة ، لأن جملة فقد أيقنا : خبر ليس

(٥) الخرج والخراج : ما يحصل من غلة الأرض ، وأدر : أكثر ، وعدوه أسكن :

أى غير متحفز لقتاله وإذن فالمال موفور لديه

(٦) المزة : العقل والإحكام

(٧) أى وهم مع ذلك أسخياء

(٨) كلال الحد : أصله فى السيف والسكين ونحوهما والمراد هنا الغباء وقلة

الذكاء والفطنة

وتفحص عتوهم ، وقلة معرفتهم ، لكان ينبغي لفارس أن تكون أبخل من الروم وتكون الروم أبخل من الصقالبة^(١) ؛ وكان ينبغي في الرجال ، في الجملة ، أن يكونوا أبخل من النساء ، في الجملة ، وكان ينبغي للصبيان أن يكونوا أسخى من النساء ، وكان ينبغي أن يكون أقلُّ البخلاء عقلاً ، أعتلَّ من أشدَّ الأجواد عقلاً ؛ وكان ينبغي للكلب - وهو المضروبُ به المثلُ في اللوم - أن يكون أعرف بالأمور من الديك ، المضروب به المثل في الجود^(٢)

ونحن لانجد الجوادَ يفرُّ من اسمِ السرفِ إلى الجود ، كما نجد البخيلَ يفرُّ من اسمِ البخلِ إلى الاقتصاد^(٣) . ونجد الشجاعَ يفرُّ من اسمِ المنهزم ، والمستحي يفرُّ من اسمِ الخجل . ولو قيل لخطيب ثابت الجنان : وقاح^(٤) لجزع - فلو لم يكن من فضيلة الجود إلا أن جميع المتجاوزين لحدود أصناف الخير يكرهون اسم تلك الفضلة^(٥) - إلا الجواد^(٦) ، لقد كان في ذلك ما يبين قدره ، ويُظهر فضله .

ولو كانوا لأولادهم يجمعون ، ولهم يكفون ، ومن أجلهم يحرصون ، لجعلوا لهم كثيراً مما يطلبون ، ولتركوا محاسبتهم في كثير مما يشتهون .

(١) الصقالبة : جيل تناخم بلادهم بلاد الخزر - في روسيا - وبحر الخزر هو بحر قزوين

(٢) وصف الديك بالجود لأن من عادته أن يدعو الدجاج ويثير لها الحب

(٣) ونحن الخ ، وذلك لأن الجواد لا يخاف من اسم السرف خوف البخيل من

اسم البخل لأن السرف في رأى الجواد يكاد يلحق بالجود

(٤) الوقاح : القليل الحياء .

(٥) الفضلة هنا : تجاوز الحد في الفضيلة

(٦) إلا الجواد ، أى فإنه لا يكره أن يلقب بالسرف

وهذا بعض ما بعض بعض المورثين إلى الوارثين ، وزهد الأخلاف (١) في طول عمر الأسلاف ...

ولو كانوا لأولادهم يُمهدون ، ولهم يجمعون ، كما جمع الخِصيانُ الأوال ، ولما كنز الرهبان الكنوز ، ولاستراح العاقر من ذل الرغبة (٢) وتسليم العقيم من كد الحرص . وكيف ؟ ونحن نجده بعد أن يموت ابنه الذى كان يعتل به (٣) ، والذى من أجله كان يجمع ، على حاله (٤) فى الطلب والحرص ، وعلى مثل ما كان عليه من الجمع والمنع

والعامة لم تقصر فى الطلب والحكمة (٥) ، والبخلاء لم يحدوا شيئا من جهدهم (٦) ولا أعفوا بعد قدرتهم (٧) ، ولا قصرُوا فى شيء من الحرص والحصر (٨) ، لانهم فى دار قلعة ، بعرض نقلة (٩) . حتى لو كانوا بالخلود موقنين ، لا غفلوا تلك الفضول (١٠)

(١) الأخلاف : جمع خلف وهم أبناء الانسان الذين يخلفونه بعد موته

(٢) ذل الطمع والحرص (٣) يعتل به : يتخذة علة وسببا للجمع والمنع

(٤) على حاله : متعلق الجار والمجرور مفعول ثان لتجد (٥) والعامة الخ كأنه

الحق العامة بالبخلاء ، لصفات البخل فيهم ، والحكمة هنا : الجمع والإمساك

(٦) أى لم يجبسوا جهودهم فى سبيل جمع الاموال (٧) اعنى : أنفق العفو من

ماله وهو ما يفضل عن النفقة وبعد قدرتهم : أى بعد اقتدارهم وإيسارهم

(٨) الحصر : البخل

(٩) يقال : الدنيا دار قلعة : أى انقلاع وارتحال ، وقوله : وبعرض نقلة : أى أن

الدنيا دار يعرض فيها انتقال فلا تدوم على حال (١٠) حتى لو كانوا الخ هذا من

الترقى فى الدليل يقول : لو كتب لهم الخلود ، لوجب أن يغفلوا طلب ما يزيد على عيشتهم

وحالتهم ولجادوا به لو حصل فى أيديهم ولكنهم لا يعقلون بسبب ماركب فيهم من

الحرص والجشع

فالبخيلُ مجتهد ، والعامى غير مقصّر .^(١) فمن لم يَسْتَعِنْ على ما وصفنا بطبيعة قوّة ، وبشهوةٍ شديدة ، وبنظر شافٍ ، كان إما عامياً ، وإما بخيلاً شقيماً^(٢) - ففيم اغتلاهم بأولادهم ، واحتجاجهم بخوف التلّونِ من أزمئتهم^(٣) ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أفدّ كذبَ عنده كذبته ، وكان جواداً : لولا حصلةٌ وممكك الله عليها ، لشردتُ بك من وافر قوم^(٤) ... وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم : هل لك في بيض النساءِ وأدم الإبل^(٥) ، قال : ومن هم ؟ قال : بنو مدلج^(٦) . قال : يمتنعني من ذلك قرأهم الضيف ، وصيلتهم الرّحّم . وقال لهم أيضاً : إذا نحرُوا ثجّوا^(٧) ، وإذا لبّوا عجوا^(٨) . وقال الأنصار : من سيديكم ؟ قالوا : الحرث بن قيس ، على أنه يزّن^(٩) . فينا يبخل ، فقال : وأى داء أدوأ من البخل ؟ جعله من أدوا الداء .

- (١) معنى اجتهاد البخيل هنا أنه يفعل ما يفعل عن احتجاج واقتناع بصواب ما يفعل . أما العامى فليس له من العقل ما به يقيم الحجة على حكرته وإنما هو مسوق إلى ذلك بطبيعته فهو ملحق بالبخل .
- (٢) فمن لم يستعن الخ ، على ما وصفنا : على ما بينا من تمكن البخل والجشع من النفوس . والطبيعة القوية : السليمة من العلل النفسية ، أما الشهوة الشديدة : فهو يريد بها الميل الشديد للتخلص من هذا الضعف ، وقوله وبنظر شافٍ : يقصد به التفكير الصحيح المؤسس على البرهان القويم لا السفسطة .
- (٣) تلون الأزمئة : تغلبها وتنكرها (٤) ومقه يمقه ، كوثق يثق : أحبه . وشردت بك : أبعدتك وطرديت ، وقوله من وافر قوم : هو بيان للكاف في « بك » ، (٥) الأدم : جمع آدم وأدام ، والأدم في الإبل : لون مشرب سواداً أو بياضاً أو هو البياض الواضح والتقدير : هل لك في قوم الخ أى هل لك في غزو قوم الخ كما يفهم من المقام (٦) بنو مدلج قبيلة من كنانة (٧) وقال لهم : أى قال في حقهم ، وثجوا : أسالوا دماء الذبائح في الحج (٨) التلية في الحج قول : ليك اللهم ليك الخ وعج يعج ، بالكسر والفتح ، صاح ورفع صوته (٩) يزّن : يتهم

وقال الأنصار : أنا والله ، ما علمتكم إلا لتكثروا عند الفزع وتقولون عند الطمع^(١) ، وقال : كفى بالمرء حرصا رُكوبه البحر^(٢) . - وقال : لو أن لابن آدم واديين من مال لا يتغنى ثالثا ، ولا يُشبع ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب^(٣) . وقال : السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان وقال : إن الله جوادٌ يُحب الجود . وقال : أنفق يا بلال ، ولا تحش من ذى العرش إقلا لا^(٤)

هذا ما رأينا اختياره من هذه الرسالة الجاحظية البارعة الجامعة . ونعود إلى سائر عبقرياتهم فى الجود والإحسان

كلمة علوية لسيدنا رسول الله

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقال : إني أخاف عليكم بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ... قال : فقال رجل : أو يأتى الخير بالشر يا رسول الله ؟ قال : فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأينا أنه ينزل عليه^(٥) ، فأفاق يمسح عنه الرخضاء^(٦) وقال : أين هذا السائل - وكأنه حمده - فقال : إنه لا يأتى

(١) لتكثروا الخ : أى لتجتمعوا بجموعكم للنجدة والذود ، وقتلهم عند الطمع : لساقتهم وكرمهم وقلة حرصهم ، والمراد : الطمع فى مغنم حرب أو نحوه
(٢) كفى بالمرء الخ يذم صلى الله عليه وسلم الجشع والحرص على جمع المال ولا سيما عند توقع الخطر كركوب البحر فى تلك الأيام وليس المراد ذم السعى على الرزق الحلال من أى وجه كان ، كما هو ظاهر
(٣) واديين : نهرين (٤) أنفق الخ ، بلال : هو بلال بن حمارة الحبشى مؤذن سيدنا رسول الله

(٥) ينزل عليه : يوحى إليه (٦) الرخضاء : العرق الكثير وكثيرا ما يستعمل

الخير بالشر، وإنّ مما يُذبتُ الربيعُ ما يَقْتُلُ حَبَطًا أو يُيْلِمُ^(١)، إلا آكلةَ النَّخْرِ^(٢)، فإنها أكلتُ حتى إذ امتلأتْ خاصرتاها استقبلت عينَ الشمسِ فقلّطت^(٣) وبالت ثم رتعت. وإن هذا المالَ خِضْرَةٌ حُلوةٌ، ونِعْمَ صاحبُ المُسَلِّمِ دو، إن أعطى المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيلِ. أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال الإمام اللغوى أبو منصور الأزهري^(٤): فى هذا الحديث، ثلثان، ضرب أحدهما للمفرط فى جمع الدنيا مع منْع ما جمع من حقه، والآخر ضربه للمقتصد فى جمع المالِ وبذله فى حقه، فأما قوله صلى الله عليه وسلم: وإن مما ينبت الربيع ما يمتل حبطا، فهو مَثَلُ الحريص المفرط فى الجمع والمنع، وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب^(٥) التى تحلّولها المشاية فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتَهْلِكُ، كذلك الذى يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشح على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها، يهلك فى الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب - أقول: ويهلك فى الدنيا كذلك، وهل لا يعد هلاكا لمن هذه حاله ما يلاقيه من إزاء الناس به وازورارهم عنه وانظواتهم له على البغض والحقد والحسد وصنوف الأذى وعدم إياه خنزيرا من خنازير البشر أو مجنوناً من صرعى الأثرة والأناثية وحب الذات، وبالْحَرِيّ لاخير فيه لأحد ولا لنفسه وإنما هو لا يعدو

فى عرق الحمى والمرض (١) الحبط - كما سيمر بك - أن تأكل المشاية فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها فتملك، ويلىم: يقرب ويدنو من الهلاك (٢) الخضر بفتح فكسر جمع خضرة: ضرب من الجنبه أى عروق العشب الغامضة فى الأرض كما سيأتى (٣) ثلطت: تغوطت وأكثر ما يقال للإبل والبقر والفيلة (٤) هو محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، الإمام المشهور فى اللغة، صاحب التهذيب ولد سنة ٢٨٢ وتوفى سنة ٣٧٠ بمدينة هراة إحدى مدن خراسان، فالأزهري نسبة جده أزهري (٥) أحرار العشب: الرقيق الرطب منه

أن يكون صيرفاً أو حارس مال ليس غير :

يَجْنِي الْغَنَى لِلنَّامِ لَوْ عَقَلُوا مَا لَيْسَ يَجْنِي عَلَيْهِمُ الْعَدَمُ
مُمْ لَأَمْوَالِهِمْ وَكَسَنَ لَهُمْ وَالْعَارُ يَبْقَى وَالْجُرْحُ يَلْتَسِمُ

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَمْسَكَتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَاَلْمَالُ لَكَ

هذا إذا أضاف الشَّحَّ على نفسه إلى الشح على ذوى الحقوق

أما إذا آثر نفسه بالتمتع بلذات الدنيا فأى هلاك بعد الذى يصيبه من
الاسقام والايوجاع وسائر أدواء الترف والسرف واجتواء المحرومين إياه
وحقنهم عليه وما عساه يتولد من ذلك كله من الغوائل الاجتماعية التى نرى
أفعلها اليوم - قال الأزهرى : وأما مثل المقتصد المحمود فقوله صلى الله
عليه وسلم : **إِلَّا آكَلَةُ الْخَضِرِ فَإِنَّمَا أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ خَاصَرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ**
عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ثُمَّ رَتَمَتْ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْخَضِرَ لَيْسَ مِنْ أَحْرَارِ
الْبَقُولِ الَّتِي تَسْتَكْتَرُ مِنْهَا الْمَاشِيَةُ فَتَهْلِكُهَا أَكْلًا وَلَكِنَّهُ مِنَ الْجَنْبَةِ (١) الَّتِي
تَرَعَاهَا بَعْدَ هَيْجِ الشَّبِّ وَيُبْسِيهِ ، وَالْمَاشِيَةُ تَرَعُ مِنْهَا شَيْئًا شَيْئًا وَلَا تَسْتَكْتَرُ
مِنْهَا فَلَا تَحْبُطُ بِطَوْنِهَا عَنْهُ . فَضَرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آكَلَةَ
الْخَضِرِ مِثْلًا لِمَنْ يَقْتَصِدُ فِي أَخْذِ الدُّنْيَا وَجَمَعَهَا وَلَا يَسْرِفُ فِي الْحِرْصِ عَلَيْهَا
وَأَنَّهُ يَنْجُو مِنْ وَبَالِهَا كَمَا نَجَتْ آكَلَةُ الْخَضِرِ ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ : فَإِنَّمَا إِذَا أَصَابَتْ
مِنَ الْخَضِرِ اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَتَلَطَّتْ وَبَالَتْ ، وَإِذَا تَلَطَّتْ فَقَدْ ذَهَبَ

(١) أسلفنا أن الجنبه هي الكلا الذى له عروق في الارض، قال أبو حنيفة الدينورى:
الجنبه ما كان في نبتته بين البقل والشجر فيكون فوق البقل ودون الشجر مثل الحماط
عما يبقى أصله في الشتاء ويبيد فرعه ، وسمى جنبه لانها كما قال الأزهرى صغرت عن
الشجر الكبار وارتفعت عن التي لأرومة لها في الارض

حبطها، وإنما تحبب المشاة إذا لم تثلط ولم تبل ، ثم حث صلوات الله عليه على إعطاء المسكين واليتيم من هذا المال، مع حلاوته ورغبة الناس فيه، ليقب الله تبارك وتعالى وبال نعمتها في دنياه وآخرته.



هيات أن أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى

ومن كلمة لسيدنا على رضى الله عنه في كتاب له إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة: ولو شئت لأهدت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسأج هذا القز، ولكن هيات أن يغلبتى هواى، ويقودنى جسعى إلى تخير الأطعمة، ولعل بالحجاز وباليمامة من لاطمع له فى القرص، ولا عهد له بالشبع أو أبيت مبطانا وحولى بطون غرثى،^(١) وأكبأد حرى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبك عاراً أن تبيت بيطنة وحولك أكباد تحن إلى القد^(٢)

أفنع من نفسى بأن يقال: هذا أمير المؤمنين ولا اشاركهم فى مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم فى جشوبة العيش^(٣) فما خلقت ليشفلى أكل الطيات، كالبيهة المربوطة ههنا علفها، أو المرسله شغلها تقمها، تكثرش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها...

(١) الميطان: الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل، وغرثى: جاعة

(٢) البيطنة: الكظة، وذلك أن يمتلى الإنسان من الطعام امتلاء شديداً، والقَد:

سيور قد - تقطع - من جلد غير مدبوغ. وهذا البيت من آيات لحاتم الطائي

المشهور بالجود (٣) جشوبة العيش: خشونته وغلظه

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم - وكان من قبلهم دؤدبهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - يرؤن - ونعماً رأوا - أن السياسة الرشيدة ، وأن الطريق إلى الإحسان - ولا طريق غيرها - إنما تتحقق بالرغبة عن شهوات الحياة الدنيا ، وتنكّب السرف والترف ، وكانوا يريدون عمّالهم على هذه السياسة التي لا سياسة غيرها .

كان الخلفاء الراشدون مثلاً علياً في الرغبة عن شهوات الحياة الدنيا

قال الربيع بن زياد الحارثي : كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين ، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأمره بالقدوم عليه هو وعماله ، وأن يستخلفوا جميعاً . قال : فلما قدمنا أتيت يرفاً « مولى عمر » فقلت : يا يرفاً مُسْتَرَشِدٌ وابن سبيل ... أى الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله ، فأوماً إلى بالخشونة . فاتخذتُ حُفَيْنِ مُطَارِقَيْنِ^(١) وابستُ جُبَةً صوف ولثتُ عمامتي على رأسي^(٢) . فدخلنا على عمر ، فصقنا بين يديه ، فصعد فينا وصوب^(٣) فلم تأخذ عينه أحداً غيرى ، فدعاني فقل : من أنت ؟ قلت : الربيع ابن زياد الحارثي ، قال : وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت : البحرين ، قال : كم ترتزق؟^(٤) قلت : ألفاً ، قال : كثيرٌ ... فما تصنع به ؟ قلت : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقاربى ، فما نضل عنهم فعلى فقراء المسلمين ، قال : فلا بأس ، ارجع إلى موضعك ، فرجعت إلى موضعى من الصف ، فصعد فينا وصوب فلم تقع

(١) طراق النعل : ما أطبقت عليه فخرزت به ، فعنى مطارقين : خصفت إحداهما

فوق الأخرى (٢) أى أدرت بعضها على بعض على غير استواء

(٣) صعد فينا : رفع رأسه فنظر الأعلى ، وصوب : خفض رأسه فنظر الأسفل

(٤) أى كم مرتبك

عينه إلا على فدعاني فقال: كم سنك؟ قلت: خمس وأربعون سنة، قال: الآن - بين استحكمت. ^(١) ثم دعا بالطعام وأصحابي حديث عهدهم بلين العيش، وقد تجوّعت له، فأُتِيَ بِخُبْزٍ وَأَكْسَارٍ بِعِيرٍ ^(٢) فجعل أصحابي يعافون ذلك وجعلت أكل فأجيد، فجعلت أنظر إليه يا حظي من بينهم، ثم سبقت في كلمة تمنيت أني سُخْتُ في الأرض ^(٣) فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك، فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا! فزجرني، ثم قال: كيف قلت! فقلت: أقول - يا أمير المؤمنين - : أن تنظر إلى قوتك من الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه يوم ويُطبخ لك اللحم كذلك، فتؤتى بالخبز لئناً واللحم غريصاً ^(٤)... فسكن من غربه ^(٥) وقال: أههنا غرت؟ ^(٦) قلت: نعم، فقال: يا ربيع، إننا لو نشاء ملأنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك وصناب ^(٧)، ولكن رأيت الله عز وجل نعى على قومه شهواتهم

(١) استحكمت: تناهيت عما يضرك في دينك ودنياك

(٢) أكسار: جمع كسر، والكسر: عظم ليس عليه كثير لحم

(٣) ساخ في الأرض: غاص فيها ودخل

(٤) غريصاً: طرياً (٥) يريد حديثه (٦) غرت: أي ذهبت يقال: غار

الرجل: إذا أتى الغور وناحيته مما انخفاض من الأرض، وأنجد: إذا أتى نجداً أو ناحيته

مما ارتفع من الأرض (٧) صلائق جمع صليقة وهي القطعة المشوية من اللحم

والسبائك: ما يسبك أي ينخل من الدقيق فيؤخذ خالصه وهو ما يسمى الحواري أي

ما يتقى من لباب البر. والصناب: صباغ يتخذ من الخردل والزبد

(٨) نعى على قوم شهواتهم: عابها ووبخهم عليها. أما الآية التي ذكرها الفاروق

بعد فهي: وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْمَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ

الدنيا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

في الأرض بغير الحقِّ وبما كُنتُمْ تَفْسُقُونَ

فقال : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا... ثم أمر أبا موسى بإقرارى وأن يُسْتَبَدَلَ بِأَصْحَابِي... وهذا من الفاروق هو - فضلا عن أنه الأليق بكل من وُلِّيَ أمر الناس - غاية في السداد والسياسة لرشيده الحازمة كما قلنا

عظيمة الفاروق

في زهده وتقواه

هذا والله المَلِكُ الهنيء

وما يصح إirاده هنا ما يأتي : لما أتى بالهَرْمُزَانِ صاحبِ نُسْتَرٍ، إلى عمر ابن الخطاب - وكان هذا الهَرْمُزَانِ من أعظم آوادِ الفُرسِ ، وكان على مِيْمَنَةِ جيشِ رُسُومٍ وزير ملك فارس يَزْدَجِرْدُ بن شهريار بن ابرويز في حرب القادسية سنة ١٤ من الهجرة ، فلما قتل رستم وانتصر المسلمون فرَّ الهَرْمُزَانِ بمن بقي من جُنُودِهِ ، وما زال المسلمون يتابعونه الغارة بعد الغارة حتى لجأ إلى مدينة نُسْتَرٍ^(١) ، وتحصَّنَ بها ، فحاصروه أشدَّ حِصَارٍ ، ثم أنزلوه على حُكْمِ الفاروق ، فأسلمه قائد جيش المسلمين أبو سَبْرَةَ بن أبي رُهم إلى وفد فيهم أنس بن مالك والاحنف بن قيس ، فأتوا به إلى الفاروق - وكان الفاروق يلتف في كِسائِهِ وينام في ناحية المسجد ، فجعلوا يسألون عنه فيقال : مَرَّ هُنَا آنفاً فَيَضَعُ فِي قَلْبِ الهَرْمُزَانِ ، إذ رآه كَبَعَضِ السُّوقِ^(٢)... حتى انتهوا به إلى عمر وهو نائم في ناحية المسجد... فقال الهَرْمُزَانُ : هذا والله المَلِكُ الهنيء...^(٣) فلما جلس عمر امتلأ قلبُ العِلْجِ^(٤) منه هيبة ، لما رأى عنده

(١) نُسْتَرُ : مدينة عظيمة جمعها عمر بن الخطاب من أرض البصرة لقرىها منها
 (٢) السُّوقُ : جمع سوقة كغرفة وغرف ، وهم الرعية (٣) إذ لا يحتاج إلى أحراس ولا عدد (٤) العِلْجُ في الأصل : الحمار الوحشي : وقد أطلقه المسلمون على الرجل من كفار العجم ومن يشبه العجم

من الجِدِّ والاجتهاد، وألِّيس من هَيِّية التقوى ... ثم نظر عمر إليه وقال :
 آلهرْمُزان ! قال : نعم ، فقال عمر : الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وأشباهه ،
 وأمر بنزع ما عليه من الديباج المذهب ، والناج المكلل بالياقوت ، وأمر له
 بثوبٍ صفيق^(١) ، وهم بقتله ، فطلب الهرْمُزانُ ماءً ، وقال : أخاف أن أُقتلَ
 وأنا أشرب ! فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشرب ، فأراقه ، فقال عمر :
 والله لا أنخدعُ حتى تُسلم ، فأسلم ، وفرَّضَ له فى العطاء ألفين ، وأقام
 بالمدينة .



تعود إلى عبقرياتهم فى الجود من بابات شتى ... ولقد أسلفنا أن الأوائل
 لم يتركوها معنى إلا طَرَقوه : * وهل غادرَ الشعراءُ من مُترِّدٍ * (٢)
 وهو معلوم أن الخمر تُحَدِّثُ فى شاربها إذا انتشى هِزَّةً وطرباً وأريحيةً
 وقد تُحِيلُ البخيلَ كريماً ، فإذا قالوا فى ذلك ؟ قالوا : - والقائلُ البُحْتَرِيُّ - :
 تَكْرَمْتَ مِنْ قَبْلِ الكُوَيْسِ عَلَيْهِم - فما أسْطَعْنَ أَنْ يُحَدِّثَنَّ فَيْكَ تَكْرَمًا
 وقال أبو نُوَاسٍ :
 قَى لا تُذِيبُ الخمرُ شَحْمَةَ مالِهِ وَلَكِنْ أَيْادِ عُوْدٍ وَبَوَادِي (٣)
 وقال المتنبي :

(١) صفيق : جيد النسيج (٢) صدر بيت لعنترة وتماه :

* أم دل عَرَفْتَ الدار بعد توهم *

وهذا البيت مطلع معلقته ، يقول لعنترة : إن الشعراء قد سبقونا إلى القول ، فلم يدعوا
 مجالا لقائل ، والمتروم فى الأصل : الموضع الذى يرقع ويستصلح

(٣) شحمة ماله : أطيئه ، وقوله : ولكن أيا دعود وبادى ، يقول : ولكنه يعطى
 عطاياها قبل الخمر وبعد الخمر ودائماً ، فعطاياها تبتدأ وتعاد

لا تَجِدُ الخمرَ في مَكَارِمِهِ إِذَا انتَشَى - خَلَّةٌ تَلَافَاهَا (١)

والأصل في هذا قول عنبرة في معلقته :

وَإِذَا صَحَّوتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكَرُّمِي
وَقَالَ زُهَيْرٌ :

أخوثة لا تُهْلِكُ الخمرُ مالهَ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالَ نَائِلُهُ
وقد عَضُّوا من قول عمرو بن كلثوم :

✽ إِذَا مَا المَاءُ خَالَطَهَا سَخِينًا (٢) ✽

ومعنى ذلك كله أنهم لا يعدون جود السكران جوداً ، وإنما الجود
عندهم ما كان من كرم نظري لا تبتئته خرم وما يشبه الخمر . وإذا هم وصفوا
الخمر بأنها ثورث شاربها شيئاً يشبه الكرم ، فذاك من باب استقصائهم
لمعاني الخمر وما تحدّثه في شاربها ، كما قد سيمر بك في بابها ...

ولقد سمّت مكارم الأخلاق بكثيرٍ من ذوى الأريحية إلى أنهم لا يقطعون
نواهم عنّ يغضبون عليهم وَيَبْسُ السُّرَى بينهم ، وقد روى في ذلك أنّ

(١) الخلة : الخصلة والثلة ، وتلافاها - بحذف إحدى التامين : تلافاهما ، أى

تداركها

(٢) عجز : بيت من معلقته وصدرة :

✽ مُشْعَشَعَةٌ كَأَنَّ الحِصَّ فِيهَا ✽

يصف الخمر يقول : استقى الخمر مشعشعة ، أى بمزوجة بالماء ، فإنها من شدة حرمتها
كأنما ألقى فيها الحص - وهو الورس - نبات أحمر يشبه الزعفران - وإذا شربناها وسكرنا
جدنا بعقائل أموالنا وسمحنا بذخائر أعلاقنا ، فسخينا : فعل من سخى يسخى سخاء -
وهذه لغة - ولغة فيها وهى سخا يسخو سخاوة ، وثالثة وهى سخو يسخو - ويجوز أن تكون
سخينا صفة ومعناها الحار فيكون المعنى : كأنها حال امتزاجها بالماء وكون الماء حاراً
نور هذا البيت ، وإذن فلا مطعن عليه

بعض النبلاء كان يُجرى على رجلٍ شيئاً ، ثم غَضِبَ عليه ، و حَدَّثَ أن كتب
 إليه إطلاقاتٍ ، و رُفِعَت إليه الإطلاقاتُ ، و تَرَكَ اسمَ المَغضُوبِ عليه ، فقال له
 أبوه : فأين ذِكرُ رِزقِ فلانٍ ؟ فقال : إنَّكَ قد كنتَ غَضِبْتَ عليه ، فقال :
 يا بُنَيَّ ، غَضِبِي لا يُسْقِطُ هَبْتِي ... إنَّ أبَاكَ لا يَغْضِبُ في النَّوَالِ ...
 و حَتَّى المحتاجينَ المَغضُوبِ عليهم كانت أَنفُسُهُم كريمةً أَيْبَةً ، فقد رُوِيَ
 أن بعضهم كان يُجرى على رَجُلٍ شيئاً ، فغَضِبَ عليه ، فمَقَطَعَهُ ، ثم رَضِيَ عنه
 فردَّه ، فأبى الرجل أن يَقْبَلَهُ وقال : إني كنتُ أَظُنُّ أن عطاءَهُ مَكْرَمَةٌ ؛ فأَمَّا
 وقد صارَ غَضْبُهُ يَقْطَعُهُ ، فلا حاجة لي فيه ... وكذلك بَأَغَتْ بهم مكارمُ
 الأخلاق أن يُعْطُوا المَعْتَفِينَ ، أكانوا فقراءَ أم أغنياءَ ، فلا يَخْضُونَ ،
 وقد رُوِيَ في الخبر : أعطوا السائل ولو جاء على فرس ، وروى أيضاً :
 كلُّ معروفٍ صدقة ، لغنيٍ أو فقيرٍ ؛ و يُشْبَهُونَ من هذا حاله بالغيث ، قال
 ابن المعتز :

وَيُصِيبُ بِالْجُودِ الْفَقِيرَ وَذَا الْغَنَى كَالغَيْثِ يَسْقِي مُجْدِبًا وَمَرِيحًا
 وقال المنبي :

وَيَدُّ لَهَا كَرَمُ الْغَمَامِ لِأَنَّهُ يَسْقِي الْعِمَارَةَ وَالْمَكَانَ الْبَلْقَمًا
 وكذلك تَسَامَوْا وبلغوا من عبقرية الروح أن صاروا يُعْثُونَ الانخداع
 عن المال والتبالة في ابذاله كرمًا ، وقالوا : إنَّ الكَرِيمَ إذا ما خَادَعْتَهُ
 انخَدَعَا ... وفي ذلك يقول البحري :

وَإِذَا خَادَعْتَهُ عَنْ مَالِهِ عَرَفَ الْمَسْلَكَ فِيهِ فَانخَدَعْ
 ويقول :

وقد يتغابى المرء عن عظم ماله ومن تحت برديه المغيرة أو عمرو
 « المغيرة : هو المغيرة بن شعبة ، وعمرو : هو عمرو بن العاص وكانا من
 الدهاة ، ... وقيل لبعضهم : ما الشرف ؟ فقال : الانخداع عن المال ، ولا تجد
 أحداً يتغافل عن ماله إلا وجدت له في قلبه فضيلة لا تقدر على دفعها ،
 وقد أدبنا نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله : رحم الله سهل البيع سهل الشراء ،
 وهذا خلاف قول الناس : المغبون غير محمود ولا مأجور ، وقد قال صلى
 الله عليه وسلم : ألا أدلكم على شيء يحببه الله ورسوله ؟ قالوا : بلى يا رسول
 الله ، قال : التغابن للضعيف ... وما يروى في هذا الباب ما أورده ابن
 خلكان في ترجمة الوزير الخطير أبي الحسن علي بن الفرات وزير المقتدر بالله
 ابن المعتض بالله العباسي - وكانت وفاته سنة ٣٢٧ هـ - وهو : أن رجلا اتصلت
 عظامه ، وانقطعت مآدته ، فزور كتابا من أبي الحسن بن الفرات إلى أبي
 زُبَور المارداني عامل مصر ، يتضمن الوصاة به والتأكيد في الإقبال عليه
 والإحسان إليه ، وخرج إلى مصر ، فلقية به ، فارتاب أبو زُبَور في أمره
 لتغير الخطاب على ما جرت به العادة ، وكون الدعاء أكثر مما يقتضيه محله
 فراعاه مراعاة قريبة ووصله بصلة قليلة ، واحتبس عنده على وعد وعده به
 وكتب إلى أبي الحسن بن الفرات يذكر الكتاب الوارد عليه ، وأنفذه بعينه
 إليه ، واستثبته فيه ، فوقف ابن الفرات على الكتاب المزور ، فوجد فيه
 ذكر الرجل وأنه من ذوى الحرّات والحقوق الواجة عليه ، وعرضه على
 كتابه وعرفهم الصورة فيه وعجب إليهم منها وما أ قدم عليه الرجل ، وقال
 لهم : ما الرأي في أمر هذا الرجل عندكم ؟ فقال بعضهم : تأديبه أو حبسه ،
 وقال آخر : قطع إبهامه لئلا يعاود مثل هذا ، ولئلا يقتدى به غيره فيما هو

أكثر من هذا، وقال أجمعهم محضراً: يُكشَفُ لأبي زُنْبُورِ قصته، ويُرسَمُ له طرْدُه وجرمانه، فقال ابن الفرات: ما أبعدكم من الحرية والخيرية: وأنقرَ طباعكم عنها رجل توَّسَل بنا وتحَمَّل المشقة إلى مصر في تأمیل الصلاح بجاهنا، واستمدادُ صنَع الله عز وجل بالانتساب إلينا، ويكون أحسنُ أحواله عند أحسنكم محضراً تكذيب ظنه وتخييب سعيه! والله لا كان هذا أبداً، ثم إنه أخذ القلم من دواته ووقع على الكتاب الزور: هذا كتابي، ولست أعلم لم أنكرت أمره واعترضتكم شبهة فيه! وليس كلُّ من خَدَمنا وأوجب حقاً علينا تعرفه! وهذا رجل خَدَمني في أيام نكبتني، وما أعتدُّه في قضاء حقه أكثر مما كلفْتُك في أمره من القيام به، فأحسن تفقده ووفّر رِفده وصرّفه فيما يعود عليه نفعه... ورَدّه إلى أبي زُنْبُورِ من يومه؛ فلما مضت على ذلك مدة طويلة دخل على أبي الحسن بن الفرات رجل ذو هيئة مقبولة ويزة جميلة، وأقبل يدعو له ويُثني عليه ويكي ويُقَبِّل الأرض، فقال له ابن الفرات: من أنت بارك الله فيك! - وكانت هذه كلمته - فقال: صاحب الكتاب المزور إلى أبي زُنْبُورِ، الذي صحّحه كرمُ الوزير وتفضله، فعل الله به وصنع، فضحك ابن الفرات، وقال: كم وصل إليك منه؟ قال: وصل إلى من ماله ومما قسّطه على عمّاله وعملٍ صرفني فيه، عشرون ألف دينار، فقال ابن الفرات: الحمد لله، الزمنا، فإننا نُعرِّضك لما يزدادُ به صلاحُ حالِك، ثم اختبره فوجده كاتباً مُبيناً، فاستخدمه وأكسبه مالا جزيلاً...

قِرَى الأضياف

وهناك لون من ألوان الجود، لقد أكثروا فيه القول وافتتوا، وأطالوا في التفاخر به والإشادة بمحاسنه، وجعلوه عنوان الكرم والنجدة والمرورة ووضعوا له آداباً ودرساتير. ذلك هو قِرَى الأضياف، ونحن فإننا نختار ذرواً من عقرياتهم في هذا المعنى. وفيما يتأشب إليه وينشعب منه والله المستعان...

معنى قري الضيف: قال علماء اللغة: يقال: قَرَى الضيفَ قِرَى وقَرَاءً: أضافه وأحسن إليه، واستقراني واقتراني وأقراني: طلب مني القِرَى، وإنه لَقِرَى للضيف، والآثي قريّة، وكذلك: إنه لَمَقِرَى للضيف ومِقراء، والآثي مِقراءة ومِقراء...

«وأما بعد، فقد قلنا في البخل إنه جِيلةٌ وإنه الأصلُ وإنَّ الناس لقد حُخِلُوا بخلاء، إلى آخر ما قلنا صدرَ هذا الباب، وهذا الذي قلنا يقال في قِرَى الأضياف، وأن الأصل هو البُخل بالقِرَى؛ فلنورد عليك شيئاً مما قالوا في البخل بالقِرَى ثم نردفه بالقول على الجود بالقِرَى وحثهم عليه، والكلام يدخل بعضه في بعض.

طَرَفٌ مِنْ مُلْجِهِمْ فِي ذَلِكَ: قال بعض البخلاء لغلامه: هاتِ الطعامَ، وأغْلِقِ البابَ، فقال الغلام: يا مولاي، ليس هذا بحزمٍ، وإنما أُغْلِقُ البابَ، وأُقَدِّمُ الطعامَ، فقال له: أنتَ حُرٌّ لَوَجْهِ اللَّهِ... وطبخ بعض البخلاء قِدْرًا، وجلس يأكلُ مع زوجته فقال: ما أَطْيَبَ هذا الطعامَ لولا كَثْرَةُ الزَّحَامِ! فقالت: وأي زحامٍ وما ثمَّ إلا أنا وأنت! قال: أَحَبُّ أَنْ

أكون أنا والقدْر ... وَعَزَمَ بَعْضُ إِخْوَانِ أَشْعَبَ عَلَيْهِ لِيَأْكُلَ عِنْدَهُ ، فَقَالَ :
 إِنِّي أَخَافُ مِنْ ثَقِيلٍ يَأْكُلُ مَعَنَا فَيَنْقُصُ لَدُنَّا ، فَقَالَ : لَيْسَ عِنْدِي إِلَّا مَا حِبُّ ،
 فَخَضِيَ مَعَهُ ، فَبَيْنَمَا هُمَا يَأْكُلَانِ ، إِذَا بِالْبَابِ قَدْ طُرِقَ ، فَقَالَ أَشْعَبُ : مَا أَرَانَا إِلَّا
 قَدْ صِرْنَا لِمَا نَكْرَهُ ، فَقَالَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ : إِنَّهُ صَدِيقِي : وَفِيهِ عَشْرُ خِصَالٍ
 إِنْ كَرِهَتْ مِنْهَا وَاحِدَةً لَمْ آذَنْ لَهُ ، قَالَ أَشْعَبُ : هَاتِ ، قَالَ : أَوْلَهَا أَنَّهُ
 لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ ، فَقَالَ : التَّسْعُ لَكَ وَدَعُّهُ يَدْخُلُ ، فَقَدْ أَمِنَّا مِنْهُ مَا نَخَافُهُ ...
 وَأَكَلَ رَجُلٌ مَعَ بَعْضِ الْبِخْلَاءِ ، وَكَانَ عَلَى مَائِدَتِهِ أَرْغِفَةٌ هُنَا وَهُنَاكَ ، فَلَمَّا
 فَرَّغَ مِنْ رَغِيفِهِ قَالَ : يَا غَلَامَ ، قَرَيْبِي ، فَقَالَ الدَّاعِي الْبَخِيلُ : وَمَا تَصْنَعُ بِهِ ؟
 قَالَ : أَرَكُبُهُ إِلَى ذَلِكَ الرَّغِيفِ ... وَحَدَّثَ أَبُو نُؤَاسٍ قَالَ : قَلْتُ لِرَجُلٍ مِنْ
 أَهْلِ خِرَاسَانَ : لِمَ تَأْكُلُ وَحَدِّكَ ؟ قَالَ : لَيْسَ عَلَيَّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ سُؤَالٌ ،
 إِنَّمَا السُّؤَالُ عَلَى مَنْ أَكَلَ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، لِأَنَّ ذَاكَ تَكْلُفٌ ، وَأَأْكَلِي وَحْدِي هُوَ
 الْأَكْلُ الْأَصْلِيُّ ... وَأَضَافَ رَجُلٌ أُعْرَابِيًّا ، فَلَمْ يَأْتِهِ بِشَيْءٍ يَأْكُلُهُ حَتَّى غَشِيَ
 عَلَيْهِ مِنَ الْجُوعِ ، فَأَخَذَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ ، فَقَالَ :

لِحُسْبُ يَا أَخِي عَلَيْهِ لَحْمٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حَسَنِ الْقُرْآنِ

تَظَلُّ تُنْهَدُهُ الْقُرْآنَ حَوْلِي كَأَنِّي مِنْ عَفَارِيَتِ الزَّمَانِ

وقيل للجمتاز: من يحضر مائدة فلان؟ فقال: أكرم خلق الله: الكرام
 الكاتبون... واصطحب رجلان فقال أحدهما للآخر: تعال حتى نأكل
 معاً، فقال: معي خبزٌ ومعك خبزٌ، فلولا أنك تريد الشر لآكلت وحدك...
 وقيل لآخر: ألا تأكل معنا؟ فقال: الجماعة بجماعة... ودخل على
 ابنِ لِرَجُلٍ مِنَ الْأَشْرَافِ دَاخِلٌ وَبَيْنَ يَدَيْهِ فَرَارِيحٌ ، فَغَطَّى الطَّبَقَ بِمِنْدِيلِهِ
 وَأَدْخَلَ رَأْسَهُ فِي جَيْبِهِ وَقَالَ لِلدَّاخِلِ عَلَيْهِ : كُنْ فِي الْحُجْرَةِ الْأُخْرَى حَتَّى

أَفْرَعٌ مِنْ بَحُورِي ... وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ يَوْمًا وَالْمَائِدَةُ مَوْضُوعَةٌ
وَالْقَوْمُ يَأْكُلُونَ وَقَدْ رَفَعَ بَعْضُهُمْ يَدَهُ ، فَمَدَّ يَدَهُ لِيَأْكُلَ ، فَقَالَ : أَجْهَزُ عَلَى
الْجِرْحَى ، وَلَا تَتَعَرَّضُ الْأَصْحَاءُ ... « يريد : كُلُّ مَا كُسِرَ وَبَيْلَ مِنْهُ وَلَا
تَعْرِضُ إِلَى الصَّحِيحِ ، وَرَأَى رَجُلٌ الْحَطِيمَةَ - الشَّاعِرُ الْمَخْضَرُمُ الْعَبْقَرِيَّ اللَّثِيمَ -
وَبِيَدِهِ عَصَا فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالَ : عَجْرَاءٌ مِنْ سَلَمٍ ^(١) ، قَالَ : إِنِّي ضَيْفٌ ، قَالَ :
لِلضَّيْفَانِ أَعْدَدْتُهَا ... وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا فَقَالَ : أَلْعَوَا مِنَ الصَّلَاةِ الْأَذَانَ ،
مَخَافَةَ أَنْ تَسْمَعَهُ الْأَذَانَ ، فَيَهْلُ عَلَيْهِ الضَّيْفَانِ ... وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ شَاعِرٌ :
تَرَاهُمْ خَشْيَةَ الْأَضْيَافِ خُرْسًا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِلَا أَذَانٍ

وَكَانُوا يَعُدُّونَ أَنَّ بَيْتَ الرَّجُلِ سَبْعَانَ وَجَارُهُ جَوْعَانٌ ، عَارًا وَسَنَارًا
وَلَوْ مَا وَنَذَالَةَ ، وَيَتَهَاجِرُونَ بِذَلِكَ ، وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذَا قَوْلُ الْأَعَشَى -
مِيمُونَ بْنِ قَيْسٍ - فِي عِلْقَمَةَ بْنِ عَلَاتَةَ :
تَبْتُونَ فِي الْمَشَى مِلَاءً يُطُونُكُمْ وَجَارَاتِكُمْ عَرْتُ يَيْبِنَ خَمَائِصًا ^(٢)
وَقَوْلُ بِيضَانَ بْنِ بَرْدٍ :
وَضَيْفٌ عَمِرُو وَعَمِرُو يَسْهَرَانِ مَعًا عَمِرُوا لِبِطْنَتِهِ وَالضَّيْفُ لِلْجُوعِ
وَقَالَ شَاعِرٌ :

وَجِيرَةٌ لَا تَرَى فِي النَّاسِ مِثْلَهُمْ إِذَا يَكُونُ لَهُمْ عِيدٌ وَإِفْطَارُ
إِنْ بُوْقِدُوا يُوسِعُونَ مِنْ دُخَانِهِمْ - وَلَيْسَ يَبْلُغُنَا مَا تُنْضِجُ النَّارُ

وَمِنْ مُأْجِهِمْ فِيمَنْ لَا يُظْفَرُ بِخُبْرِهِ . قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

(١) الْعَجْرَاءُ : الْعَصَا الَّتِي فِيهَا أُبْنٌ - عَقْدٌ - ، وَالسَّلْمُ : شَجَرٌ

(٢) رَوَوْا أَنَّ عِلْقَمَةَ لَمَّا سَمِعَ هَذَا الْبَيْتَ قَالَ : فَضَحَنِي وَاللَّهِ ، اللَّهُمَّ أَخْزِهِ إِنْ لَمْ

يَكُنْ صَادِقًا ، وَعَرْتُ : جَائِعَاتٌ ، وَمِثْلُهُ خَمَائِصُ

وما خبزُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءِ مُغْرَبٍ (١) بُصُورٌ فِي بُسْطِ الْمَلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ

وقال الآخر :

قد فرّ من نزيله فأرهُ وعاذَ بالجيران مرتزقا

وهذا من قول امرأة لزوجها : والله ما يقيم الفأر في دارك إلا لب الوطن ، وقد تقدم آنفا ... وقيل لبخيل : إنك تُكريم خبزك وتهين لإكرامه نفسك ! فقال : كيف لأفعل ذلك والخبز هو الذي أخرج آدم وحواء وإبليس والطاوس من الجنة ... وتعدى الجواز عند هاشمي ، فر الغلام بصحفة فقطر منها قطرة على ثوب الجواز ، فقال الهاشمي : آتته بطست يغسلها ، فقال الجواز : دعه ، فرقتكم لا تغير الثياب ... يريد : لادسم فيها ،

تفاخرهم بالإحسان إلى الضيف والجار : ولأنهم يعدون شبح المرء وجاره جافع ، عارا - كما تقدم - تراهم يتفاخرون بإكرام الضيف والجار ، ومن أحسن ما قيل في ذلك قول عروة بن الورد :

وإني أمرؤٌ عافٍ إنائي شِرْكَةٌ وأنت امرؤٌ عافٍ إنائك واحدٌ

(١) عنقاء مغرب وعنقاء مغرب . وعنقاء مغربة : طائر معروف الاسم مجهول الجسم ، قال ابن الكلبي : كان لأهل الرس نبي يقال له حنظلة بن صفوان ، وكان بأرضهم جبل يقال له دح مصعده في السماء ميل ، فكان ينتابه طائفة كأعظم ما يكون لها عنق طويل ، من أحسن الطير ، فيها من كل لون ، وكانت تقع منقضة فكانت تنقض على الطير فتأكلها فجاءت وانقضت على صبي فذهبت به فسميت عنقاء مغربا لأنها تغرب - تبعد - بكل ما أخذته ، ثم انقضت على جارية ترعرعت وضمتهما إلى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ، ثم طارت بها فشكوا ذلك إلى نبيهم ، فدعا عليها فساط الله عليها آفة فهلكت ، فضربتها العرب مثلا في أشعارها ويقال : ألوت به العنقاء المغرب ، وطارت به العنقاء ...

أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جِسْمِ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَّاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ
 « العاقى : طالب المعروف ، يريد بالبيت الأول : أنه ليس من شرار
 الناس يأكل وحده ، وقوله : والماء بارد : كنى بذلك عن تحمله ضرر نفسه
 وعبارة بعض الشراح : يقول عروة : إن قوته الذى هو قوام رَمَقِهِ ومُقيم
 جسمه ، يطعمه ويؤثر به على نفسه ، وأنه عند الجهد وشدة الزمان يَحْسُو
 الماء ويسقى اللبن ، وإنما رَغِبَ الجواد فى المال لِيَهَبَهُ ، وطلبه له لِيُنْهَبَهُ . »
 وفى هذا المعنى يقول مسكين الدارمي - وهو شاعر شجاع من أهل العراق
 كان فى زمن معاوية بن أبى سفيان - :

إِن أَدَعَ مِسْكِينًا فَمَا قَصَرْتُ قَدْرِي بِيُوتِ الْحَيِّ وَالْجُدُرُ (١)
 مَأْسَ رَحْلِي الْعَنْكَبُوتُ وَلَا جَدِيَاتُهُ مِنْ وَضَعِهِ غُبْرُ (٢)
 لَا أَخْذُ الصَّيَّانَ الثَّمَمُ وَالْأَمْرُ قَدْ يُغْزَى بِهِ الْأَمْرُ (٣)
 وَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ تَرَكْتُ وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ لِقَائِهِ سِتْرُ
 لَا يَزْهَبُ الْجِيرَانُ غَدَرْتَنَا حَتَّى يُوَارِي ذِكْرَنَا الْقَبْرُ

(١) قوله فما قصرت قدرى الخ : فبيوت فاعل قصرت ، يقول : إن قدرى بارزة
 لاتحجبها السواتر والحيطان ، يصف نفسه بأنه مضياف جواد محسن إلى جيرانه
 (٢) قوله مأس رحلي العنكبوت الخ : كناية مليحة عن مواصلته السير لأن
 العنكبوت إنما ينسج على مالا تناله الأيدي ولا يكثر استعماله ، والجديات جمع جدية
 بسكون الدال وهى باطن دقة الرحل ، يقول : إن جديات رحله ليست غرباء
 لكثرة ترحاله

(٣) يقول : لا أقبل الصبي وأنا أريد التعرض لأمه ، وما أحلى قوله : والامر قد
 يغزى به الامر . ويغزى : يقصد ، ومثل هذا قول عقيل بن علفة :

وَلَا أَلْقِي لِذِي الْوَدَاعَاتِ سَوَاطِي الْأَعْبُهُ وَزَلَّتْهُ أَرِيدُ
 وزلته يروى وغزته يروى وربته ، والأعبه يروى لآلهيه . وللشعراء فى هذا المعنى
 كثير ، وهو معنى يدل على أن العرب غاية فى الفطنة ودقة الملاحظة وأنهم لاتخدعهم

لَسْنَا كَأَنفِوَامٍ إِذَا كَلَّحَتْ إِحْدَى السَّنِينِ جَارُهُمْ تَمْرٌ (١)
 مَوْلَاهُمْ لَنَحْمٌ عَلَى وَضْمٍ (٢) تَنْتَابُهُ الْعِقبَانُ وَالنَّسْرُ
 نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ وَإِلَيْهِ قَبْلِي تُنْزَلُ الْقِدْرُ (٣)
 مَاضَرَ جَارِي إِذْ أُجَاوِرُهُ أَنْ لَا يَكُونُ لَبَيْتِهِ سِترٌ
 أَعْشَى إِذَا مَا جَارَتِي حَخَّرَجَتْ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْحِدْرُ (٤)
 وَبَصْمٌ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمْعِي وَمَا بِي غَيْرُهُ وَقَرُّ (٥)

ظواهر الأمور عما تخفى وراءها . وغواة الناس إلى يومنا هذا قد استغلوا هذا المعنى استغلالا مكشوفاً فاجبهم الله .

(١) جازهم تمر : أى يستحلى الغدر به كما يستحلى التمر

(٢) الوضم : خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم، وتركهم لحما على وضم : أى أذلمهم

(٣) يروى أنه كان لمسكين هذا امرأة تماضه - تلاحيه وتنازعه - فلما قال : نارى

ونار الجار واحدة قالت له : أجل ، إنما ناره ونارك واحدة لأنه أوقدولم توقد، والقدر تنزل إليه قبلك ، لأنه طبخ ولم تطبخ وأنت تستطعمه، ولما قال أن لا يكون لبيته ستر قالت له : أجل ، إن كان له ستر هتكته

(٤) من دقائق هذه اللغة ما قاله صاحب الكشاف فى تفسير قوله تعالى : ومن يعش

عن ذكر الرحمن ، قال : بضم الشين وفتحها ، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة فى

بصره قيل عَشَى - أى والمضارع يعشى ، وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشا -

والمضارع يعشو - ونظيره عرج لمن به آفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير

عرج قال الخطيبه :

مَتَى تَأْتِيهِ تَعْشُوْهُ إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرٌ مَوْقِدٍ

أى تنظر إليها نظر العشى لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء، فعنى

الفتح : ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن، وأما القراءة بالضم فعناها ومن يتعام

عن ذكره ، أى يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى . (٥) الوقر : الثقل فى الأذن

وصية بخيل لابنه

وهاك وصية بخيل لابنه أراد بها أن ينصح ابنه بالتقليل من الطعام ،
شحاً وكزازة ، ولكنه أودعها على الرغم منه نصائح قيمة يجمل أن نتخذ
دستوراً في الطعام لمن أراد أن يصح ويعافى ، فهي حق أريد بها باطل ، ومن
ثم اخترناها ، وهي وصية جاحظية أوردها الجاحظ في كتابه البخلاء ونسبها
إلى رجل يسمى أبا عبد الرحمن الثوري كان يحب الرأس - رؤس الضأن وغير
الضأن - قال الثوري لابنه - :

إياك ونهم الصبيان ^(١) ، وشره الزراع ^(٢) ، وأخلاق النوائح ^(٣) ودع
عنك خبط الملاحين ^(٤) والفعلة ^(٥) ونمش الأعراب ^(٥) والمهنة ^(٥) . وكل ما بين
يديك ؛ فإتما هو حقلك الذي وقع لك ، وصار أقرب إليك ؛ وأعلم أنه إذا كان
في الطعام شيء طريف ، ولقمة كريمة ، وضغفة شهية ، فإنما ذلك للشيخ
المعظم ، والصبي المدلل . واست واحداً منهما . فأنت قد نأى الدعوات

(١) النهم : إفراط الشهوة في الطعام (٢) الشره : غلبة الحرص على الطعام .
وإنما خص شره الزراع لأنهم أهل كد ونصب وحركة فيشرون إلى الطعام لفرط
ما يذلون من قوام البدنية (٣) النوائح جمع نائحة : اسم يقع على النساء يجتمعن
في مناحة ، ولعله يريد أن النوائح ينحن ما ينحن فإذا حضر الطعام أقبلن عليه شراهات
ونسين ما كن فيه من بكاء وعويل (٤) الملاح : نوق السفينة ، والخبط : السير
على غير هدى ، والفعلة : عملة الطين ونحوه . يقول : لا تذهب في الطعام على غير هدى
كالملاحين ، ولا تكن غنياً في أكلك كما تفعل الفعلة

(٥) يقول : لا تنمش اللحم كما ينمسه الأعراب الجفاة وكما ينمش المهنة : جمع ماهن ،

وهو العبد الخادم

والولائم ، وتَدْخُلُ منازلَ الإخوانِ ، وعهدُك بِاللَّحْمِ قَرِيبٌ . وإخوانُك أَشَدُّ قَرَمًا إِلَيْهِ مِنْكَ ، وإنما هو رأس واحد ، فلا عليك أن تتجافى عن بعض وتُصِيبَ بعضا . وأنا - بعدُ - أكره لك الموالاةَ بين اللحم ، فإن الله يُبْغِضُ أَهْلَ البيتِ اللَّحْمِيِّينَ^(١) وكان يقول : إياكم وهذه المَجَازِرُ فَإِنَّهَا ضَرَاوَةٌ كَضَرَاوَةِ الحَمْرِ^(٢) وكان يقول : مُدْمِنُ اللحمِ كَمُدْمِنِ الخمرِ . وقال الشيخ - ورأى رجلا يَأْكُلُ اللحمَ ، فقال : لحمٌ يَأْكُلُ لحمًا... أف لهذا عملا !

وقال الأولُ : أَهْلَكَ الرَّجَالُ الأَحْمَرَانِ : اللحمُ والخمرُ ، وأهلك النساءُ الأَحْمَرَانِ : الذهبُ والزَّعْفَرَانُ^(٣) ... أَى بُنَى ، عَوْدٌ نَفْسِكَ الأَثَرَةَ^(٤) ، ومجاهدةَ الهوى والشهوة .^(٥) ولا تَنْهَشْ نَهَشَ الأَفَاعِي ، ولا تَخْضَمْ خَضَمَ البراذين^(٦) ، ولا تُدِيمِ الأَكْلَ إِدَامَةَ النَّعَاجِ ، ولا تَلْقَمْ لَقَمَ الجِمالِ ، إن

(١) هذا حديث أورده ابن الأثير في النهاية هكذا : إن الله يبغض أهل البيت للحمين ، قيل هم الذين يكثرون أكل لحوم الناس بالغيبة : وقيل : هم الذين يكثرون أكل اللحم ويدمنونه ، وهو أشبه ...

(٢) في اللسان : وفي حديث عمر : اتقوا هذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر ، أراد مواضع الجزارين التي تنجر فيها الإبل وتمذج البقر والشاة ويباع لحانها وإنما نهاهم عنها لأنه كره لهم إدمان أكل اللحوم ، وجعل لها ضراوة كضراوة الخمر ، أى عادة كعادتها ، لأن من اعتاد أكل اللحوم أسرف في النفقة فجعل العادة في أكل اللحوم كالعادة في شرب الخمر ، لما في الدرهم عليها من السرف في النفقة والفساد

(٣) فالذهب للحلية والزعفران للتطيب

(٤) الأثرة : اسم مصدر من أثر بوثر إثثاراً ، أى عود نفسك أن تؤثر غيرك على نفسك (٥) ومجاهدة الخ : إما أنه يريد المعنى العام وإما يريد : لا تطلق لنفسك العنان فيما تشتهيه وتمواه من ألوان الطعام (٦) الخضم : الأكل بجميع الفم والبراذين : جمع برذون كفرعون وهو من الخيل العظيم الخنقة الجافيا الغليظ الأعضاء

اللَّهُ قَدْ فَضَّلَكَ ، فجعلك إنساناً ؛ فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا ، وأحذر
سرعة الكظة ^(١) ، وسرف البطن ، وقد قال بعض الحكماء : إذا كنت بطينا
فعد نفسك في الزمى ^(٢) . وقال الأعشى :

• والبطنه مما تسفه الأحلاما ^(٣) •

واعلم أن الشبع داعية البشم ^(٤) ، وأن البشم داعية السقم ، وأن السقم
داعية الموت . ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة ثيمة . وهو قاتل نفسه ،
وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره ^(٥) أي بُنى ، إن القاتل والمقتول في النار ^(٦)
ولو سألت حذائق الأطباء لاخبروك أن عامة أهل القبور إنما ماتوا بالتخمر
وآعرف خطأ من قال : أكلة وموتة أوخذ بقول من قال : رب أكلة تمنع
أكلات ^(٧) . وقد قال الحسن البصرى - : يا ابن آدم كل في ثلك بطنك ، واشرب في
ثلك بطنك ، ودع الثلك للتفكر والتفلس . وقال بكر بن عبد الله المزني ^(٨) :
ما وجدت طعام العيش حتى استبدلت الخمص بالكظة ^(٩) ، وحتى لم ألبس من

(١) الكظة : الامتلاء من الطعام ، وسرعة الكظة أن يسرع إليه الامتلاء وهو لا يزال
يتناول الطعام فيتفاقم عليه الأمر

(٢) البطن : عظيم البطن من كثرة ما يأكل . والزمى : ذؤو العاهات الذين يدوم
مرضهم زمناً طويلاً (٣) الأحلام : العقول وتسفه الأحلام : تطيشها والبيت :

يا بنى المنذر بن عبدان والبطن سنة مما تسفه الأحلاما
(٤) البشم : التخمة من كثرة الأكل (٥) ألوم من قاتل غيره : أحق منه
بأن يلام (٦) يقول : إن من مات بالتخمة فقد قتل نفسه فهو قاتل ومقتول في
وقت معاً فهو في النار على رأيه

(٧) أي لما ينشأ عنها من الأمراض (٨) كان من أفاضل التابعين صالحاً
عمياً قال الجاحظ : وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا : شيخها الحسن وقتاها بكر ...
مات سنة ١٠٨ هـ (٩) الخمص : الجوع أى حتى اتخذت الجوع بدل الكظة

ثيَابِي مَا يَسْتَعْدِمُنِي^(١)، وحتى لم آكلُ إلا ما لا أغسل يدي منه ! يَا بُنَيَّ، والله ما أَدَى
 حَقَّ الرُّكُوعِ، ولا وظيفَةَ السُّجُودِ، ذرِ كِظَّةً، ولا خَشَعَ لَهِ ذُو بَطْنَةٍ^(٢)،
 والصُّومَ مَصْحَةً^(٣)، والوَجَبَاتُ عَيْشُ الصَّالِحِينَ^(٤)، ثم قال: لِأَمْرٍ مَا^(٥)،
 طالت أعمارُ الهنْدِ^(٦)، وَحَمَّتْ أَبْدَانُ الأعرابِ. اللهُ دَرُّ الحارثِ بنِ كَلْدَةَ^(٧)،
 حين زعم أن الدواء هو الأزم^(٨)، وأن الداء هو إدخال الطعام في أثر الطعام !
 أَي بُنَيَّ لِمَ صَفَّتُ أذْهَانَ العَرَبِ؟ ولم صدقت أحساسُ الأعرابِ^(٩) ولم صَحَّتْ
 أَبْدَانُ الرُّهْبَانِ، مع طول الإقامة في الصوامع؟ وحتى لم تعرّف الثَّقَرِسَ،
 ولا وجمَعَ المفاصلِ، ولا الأورامِ؛ إلا لقلّة الرزءِ^(١٠) من الطعام، وخِيفَةَ الرِّادِ،
 والتبُّلُغَ باليسيرِ^(١١)

أَي بُنَيَّ، إن نَسِمتَ الدُّنْيَا وَرَوَّحَ الحَيَاةِ^(١٢) أَفْضَلَ مِنْ أَنْ تَبْدِيتَ كَطَيْظًا،

- (١) يستعديني: أي يجعاني خادما له أي بالمحافظة عليه، لانه ثمين
 (٢) يقول: إن الممتلي طعاما لا يمكن أن يركع في الصلاة تمام الركوع ولا أن
 يسجد تمام السجود، والخشوع وتفريغ القلب لله تعالى لا يكون مع التخمّة والعناء منها
 (٣) مصحّة: يصح عليه (٤) الوجبات جمع وجبة وهي الأكلة الواحدة
 في اليوم واليلة
 (٥) لأمر ما: أي لأمر عظيم (٦) أي أعمار أهاها (٧) طيب العرب
 سافر إلى فارس وتعلم هناك الطب واشتهر فيه ونال به مالا وأدرك الإسلام
 (٨) أزم، من باب ضرب: أمسك عن المطعم والمشرب روى أن عمر بن الخطاب
 سأل الحرث بن كعدة عن الطب، فقال: هو الأزم، يعني: الحمية
 (٩) الاحساس جمع حس وهو الشعور بالشيء (١٠) الرزء هنا: ما يصيبه الإنسان
 من طعام (١١) التبُّلُغُ باليسير: الاكتفاء به (١٢) روح الحياة: راحتها وما
 يستروح إليه

وأن تكون لِقَصْرِ العُمر حايِفاً . وكيف لا ترغِب في تدبيرٍ يجمعُ لكِ صحَّةَ
البدن ، وذكاءَ الذَّهن ، وصلاحَ المَعى ، وكثرةَ المال ، والقُرْبَ من عيش
الملائكة^(١) ؟ أى بنى ، لم صار الضُّبُّ أطولَ شيءٍ عُمرًا ؛ إلا لأنه إنما يعيش
بالنَّسيم^(٢) ؟ ولم قال الرسولُ صلى الله عليه وسلم إن الصومِ وِجاءٌ^(٣) ، إلا ليُجعل
الجوعَ حِجَازاً دونَ الشَّهوات . أى بنى . قد بلغتُ تسعينَ عاماً مانعُصَّ لى^(٤)
سِنِّ ، ولا تحركَ لى عَظْم^(٥) ، ولا انتَشَرَ بى عَصَب^(٦) ، ولا عرَفْتُ ذنين
أنف^(٧) ، ولا سِيلانَ عين^(٨) ، ولا سَلَسَ بول^(٩) ، ما ذلكِ عِلةٌ إلا التَّخفيفُ
من الزَّاد . فإن كنتِ تُحِبُّ الحِياةَ فهذه سبيلُ الحِياةِ ، وإن كنتِ تُحِبُّ
الموتَ ، فلا يُبْعِدُ اللهُ إلا مَنْ ظَلَمَ .



بخيل يبيع القرى

ونزل جريرٌ - الشاعر الإسلامى الأشهر - بقوم من بنى العنبر بن عمرو
ابن تميم فلم يَقْرُوهُ ، حتى اشترى منهم القَرى ، فانصرف وهو يقول :

(١) إذم : لا يَأْكلون ولا يشربون (٢) كون الضب لا يعيش إلا بالنسيم ولا
يَأْكل ألبسة غير صحيح ولكن الثورى نقل خرافة قديمة (٣) وِجاء : مانع
من الشهوات

(٤) فغص : اضطرب وتحرك ويروى نقص (٥) لعله يريد بالتحرك
الالتواء كاحديداب الظهر (٦) الانتشار : الانتفاخ فى العصب للإلتعاب
(٧) الذنين : المخاط الرقيق الذى يسيل من الأنف ويروى ذنين أذن والذنين صوت
الذباب ونحوه من هينة الكلام الذى لا يفهم والمراد ما يشبه هذا الصوت فى الأذن
من الكبر (٨) هو ما يحدث فى الكبر من ضعف العينين فتسيل منها دموع وسوائل
أخرى (٩) سلس البول : استرساله وعدم استمساكه لحدوث مرض بصاحبه

يَا مَالِكُ ابْنَ طَرِيفٍ إِنَّ بَيْعَكُمْ رَفَدَ الْقَرَى مُفْسِدٌ لِلدِّينِ وَالْحَسْبِ
 قَالُوا نَبِيعُكُمْ بَيْعًا فَقُلْتُ لَهُمْ بِيَعُوا الْمَوَالِيَّ وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْعَرَبِ
 لَوْلَا كِرَامُ طَرِيفٍ مَا غَفَرْتُ لَكُمْ بَيْعِي قِرَائِي وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي
 هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ رِيَشِ الذَّنَابِيِّ وَبِلَيْسِ الرَّأْسِ كَالذَّنَبِ
 «قوله: يبعوا الموالى واستحيوا من العرب، قال المبرد: تزعم الرواة: أن

جِلَّةُ الْمَوَالِي - عُظَمَاءُهُمْ - أَتَفَوْا مِنْ هَذَا الْبَيْتِ، لِأَنَّهُ حَطَّهْمُ وَوَضَعَهُمْ وَرَأَى
 أَنَّ الْإِسَاءَةَ إِلَيْهِمْ غَيْرُ مُحْسَبَةٍ عَيْبًا... وَقَوْلُهُ: وَلَا أَنْسَأْتُكُمْ غَضَبِي، يَقُولُ:
 لَمْ أُؤَخِّرْهُ عَنْكُمْ، وَقَوْلُهُ: هَلْ أَنْتُمْ غَيْرُ أَوْشَابٍ زَعَانِفَةٍ، فَالْإِشَابَةُ الْجَمَاعَةُ تَدْخُلُ
 فِي قَوْمٍ وَبَلَسَتْ مِنْهُمْ وَقَدْ تَطَلَّقَ الْأَوْشَابُ عَلَى أَخْلَاطِ أَتِنَاسٍ تَجْتَمِعُ مِنْ كُلِّ
 أَوْبٍ، مَا خُوذُ مِنْ أَشْبِ الشَّيْءِ كَضَرْبٍ. خَلَطَهُ، وَأَمَّا الزَعَانِفُ فَأَصْلُهَا
 أَجْنَحَةُ السَّمَكِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ الْأَدْعِيَاءُ لِأَنَّهُمْ النَّصَقُوا بِالصَّمِيمِ كَمَا النَّصَقَتْ تِلْكَ
 الْأَجْنَحَةُ بِعِظَامِ السَّمَكِ،

عقرياتهم في قرى الأضياف

قال الله جلّ شأنه في مدح قوم: وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا
 وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا... وقال سيدنا رسول الله: أَيُّمَا رَجُلٍ ضَافَ قَوْمًا فَأَصْبَحَ
 الضَّيْفُ مُحْرُومًا، فَإِنْ نَصَرَهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حَتَّى يَأْخُذَ بِقَرَى لَيْلَتِهِ مِنْ
 زَرْعِهِ وَمَالِهِ (١) ...

(١) قال الإمام العلقمي: قال شيخنا: هذا الحديث وما هو بسبيل منه كان في أول
 الأمر حين كانت الضيافة واجبة، وقد نسخ وجوبها. أقول: وعلى أنه نسخ وجوبها
 فلا تزال معدودة في باب الفضائل الإنسانية المرغوب فيها والمثاب عليها والدالة على
 النجيزة البازة الكريمة

وفي الحديث أيضا: الخَيْرُ أَسْرَعُ إِلَى مُطْعِمِ الطَّعَامِ مِنَ الشَّفْرَةِ فِي سَنَامِ
 البعير « الشَّفْرَةُ: السكين العظيمة العريضة » وقال صلوات الله عليه: ليس
 منا من بات شبعاً وَضَيْفُهُ بَطْنُهُ طَاوٍ . وقال تعالى في مدح القائم بخدمة
 ضيفه: هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين؟ قيل وصفهم بذلك لأنه
 قام بخدمتهم بنفسه... ونزل ضيف على جعفر بن أبي طالب، فتخفف هو
 وغلبلانه عند نزوله وعاونوه في حلولة، فلما أراد الارتحال عنهم لم يُعِنه
 غلبلانه، فشكاهم فقال: إن غلبلانا لا يعينون على الارتحال... وقالوا: أمدح
 بيت قاله العرب قول حسان بن ثابت:

يُعْشُونَ حَتَّى مَا تَهْرُ كَلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
 « يقول: قد أنست كلابهم بالزوار فهي لا تتبجهم، وهم من شجاعتهم
 لا يسألون عن جيش يقبل نحوهم لقله أكرامهم ولثقتهم ببسالة أنفسهم
 وشدتهم على أعدائهم، ومثل هذا قول أبي تمام:

إِذَا اسْتَنْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مِنْ دَعَائِهِمْ لَأَيَّةِ حَرْبٍ أَوْ لَأَيِّ مَكَانٍ
 أَوْ تَقُولُ: لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ، أَيْ أَنَّهُمْ فِي سَعَةِ لَأَيُّوهُمْ الْجَمْعُ
 الْكَثِيرُ، لِسَعَتِهِمْ وَسَخَائِهِمْ»

وقال إبراهيم بن هرمة من أبيات في ابتهاج الكلب بالضيف:
 يَكَادُ إِذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبِلًا يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمُ
 وقال حاتم الطائي وهو سيد الأجواد بالطعام:
 أَضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِزْزَالِ رَحْلِهِ وَيُخِصُّ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيدُ
 وَمَا الْخِصْبُ الْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى
 وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خِصْبُ

ومن قولهم في الحث على ترك التكلف وتعجيل الحاضر: سُئِلَ أَقْرَى
 أهل اليمامة للضيف: كيف صَبَطْتُمْ الْقَرَى؟ قال: بأن لا تتكفَمَ ماليس
 عندنا... وقال بعضهم: الضيفُ إلى القليل العاجل أحوَجُ منه إلى الكثير
 الآجل، أما سمعت قول الله تعالى: فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ^(١) وقال
 تعالى: إلى طعامٍ غيرِ ناظرينِ إِنْهَاءُهُ... «أى غير منتظرين نُضَجِهِ وإدراكه
 وبلوغه، يقال: أنى يأنى: إذا نضج»

ومن قولهم فيمن آثر على نفسه: قولُ صوفيٍّ لآخر: كيف يعمل
 فقراؤكم؟ قال: إذا وجدوا أكلوا، وإذا عَدِمُوا صَبَرُوا، فقال: هذا فِعْلُ
 الكلاب، إن الفقير منا إذا عَدِمَ صَبَرَ، وإذا وَجَدَ طعاماً آثر به غيره...
 وقالوا في وصف الرجل الكريم يُسوء خلقه مع أهله خوف التقصير:
 والقائل زنبب بنت الطَّيْثَرِيَّة تَرثى أخاها يزيد:

إذا نَزَلَ الأضيافُ كانَ عَدْوَرًا على الأهلِ حتى تَسْتَقِلَّ مَراجِلُهُ
 يُعِينُكَ مَظْلومًا وَيُنْجِيكَ ظالمًا وَكُلُّ الَّذِي حُمِلَتْهُ فَهُوَ حَامِلُهُ
 «العَدْوَرُ: السبيُّ الحاقُّ القليلِ الصبرِ فيما يريدُه ويَهْمُ به، وإنما جعلته
 عَدْوَرًا لشدَّةِ تَهْمِهِ بأمر الأضيافِ وحرصه على تعجيلِ قِراهِم حتى تستقل
 المَراجِلُ على الأثافي^(٢)، والمَراجِلُ: القَدورُ واحداها مِرْجَلٌ. وقوله:
 وَيُنْجِيكَ ظالمًا، أى إِنْ ظَلَمْتَ فَطَوْلَبْتَ بِظُلْمِكَ حَمَكًا وَمَنَعَ مِنْكَ،

(١) حذ الشاة: شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتضجها نهى حنيد

(٢) الأثافي: جمع أثفية: وهى الحجر توضع عليه القدر وثلاثة الأثافي: القطعة

من الجبل يجعل القدر عليها وعلى حجرين أمامها ويقال: رماه بثلاثة الأثافي: أى بالشركه

هذا؛ ومن السنة - كما ورد في الحديث - أن يَمْشِيَ الرجل مع ضيفه إلى باب الدار .

وقد كان الأضياف يُعْطون التُّدْلَ وَيَرْضَخُونَ لهم بالمال ^(١) فقد رَوَى بعضهم قال : رأيت ابن عباس في وِليمة فأكل وألقى للخباز درهما .

محادثة الضيف

وكانوا يُجَاهِ محادثة الضيف على الطعام فربقن ، فبرقن يَسْتَجِيبُهُ وَيَسْتَحْسِنُهُ ،
وَمِنْ صاحب الدعوة أَحْسَنُ ، وقالوا في ذلك : محادثة الإخوان - تزيد في
لذة الطعام . وقال شاعرهم :

وأكثر ما ألدُّ به وألهو محادثة الضيف على الطعام

وأما الفريق الآخر فيكره الحديث على المائدة وقالوا في ذلك : مَنْ
أكثر الكلام على طعامه غَشَّ بطنه وَثَقُلَ على إخوانه . وقال الجاحظ في
كتابه « التاج » : وَلِشَيْءٍ مَا كَانَتْ ملوك آلِ ساسانَ - إذا قُدِّمَتْ موائدُهُمْ -
زَمَزَمُوا عليها ^(٢) ، فلم يَنْطِقْ ناطِقٌ بِحَرْفٍ حتى تُرْفَعَ ، فإن اضْطُرُّوا إلى كلام ،
كان مكانه إشارة أو إيماء يدلُّ على الغرض الذي أرادوا والمعنى الذي
قصدوا . . . وكانوا يقولون إنَّ هذه الأَطعمة بها حياة هذا العالم ، فينبغي
للإنسان أن يَجْمَلَ ذَهْنَهُ في مَطْعَمِهِ وَيَشْغَلَ رُوحَهُ وَجوارِحَهُ فيه ، حتى
تأخذ كُلُّ جارحةٍ بِقِسْطِهَا من الطعام ، فيغتذى بها البدنُ والروحُ الحيوانيةُ
التي في القلب والطبيعةُ التي في الكبد ، اغتذاءً تاماً ، وتقبيله الطبيعة قبولاً
جامعاً . قال الجاحظ : وفي تركِ الكلام على الطعام فضائل كثيرة هي في آيينهم ^(٣) . . .

(١) التُّدْلُ : خدم الضيافة : ويقال : رضخ له من ماله رخصة : أعطاه قليلاً من كثير

(٢) الزمزمة : تراطن الملوح على أكلهم وهم صموت (٣) آيينهم : قانونهم ودستورهم

وقال المسعودى فى مروج الذهب : ذكروا أن كيمورث هو أول من أمر بالسكوت عند الطعام ، لتأخذ الطبيعة بقسطها ، فيصلح البدن بما يرد إليه من الغذاء ، وتسكن النفس عند ذلك ، فتدبر لكل عضو من الأعضاء تدبيراً يُؤدى إلى ما فيه صلاح الجسم من أخذ صفو الطعام ، فيكون الذى يرد إلى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها وما فيه صلاحها ، وإن الإنسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب ، انصرف قسطن من التدبير وجزء من التغذى إلى حيث انصباب الهمة ووقوع الاشتراك ، فأضر ذلك بالنفس الحيوانية والقوى الإنسانية ، وإذا كان ذلك دائماً أدى ذلك إلى مفارقة النفس الناطقة المميّزة الفكرية لهذا الجسد المرثى ، وفى ذلك ترك للحكمة وخروج عن الصواب ... أقول : وقد أبدت التجارب الحديثة هذا المذهب ، إذ تحققت أن الكلام على الطعام مدرّجته لسوء الهضم ... وإني بحمد الله لعلّى هذا المذهب مُدْ نَشَأْتى ، أى أنى بفطرتى لا أتحدث على الطعام ، حتى عدّ ذلك أهلى ومن يخاطونى مغمّزاً فى يشف عما وراءه ، مما يشبه النّهم وليس به يعلم الله وإنماهى الفطرة التى فطرنى الله عليها ، ومن خلقتى أنى أعدّ الكلام على الطعام ضرباً من التكلف الذى لا أستسيغه ... على أن الأكل مهمة حيوانية سخيّة يجمّل أن لا يَحْتَقَل بها هذا الاحتفال الكسروى الذى نراه هذه الأيام ، ورحم الله جمال الدين الأفغانى إذ يقول : وددت لو أنى خلقت مُصمّتا^(١) وقبله قال الخليل بن أحمد : أثقل ساعاتى الساعة التى آكل فيها ، أو كما قال :

أما محادثة الأضياف على غير الطعام : فمن المجمع على استحسانه ، وفى

(١) المصمت : الذى لا جوف له

ذلك يقول مسكين الدارمي أو عتبة بن بجير :

لِحَافِي لِحَافِ الضَّيْفِ وَالْبَيْتِ يُبْتُهُ وَلَمْ يُبْلِهْنِي عَنْهُ الْغَزَالُ الْمُنْتَعُ
أَحَدُهُ إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقِرَى وَتَعَلَّمُ نَفْسِي أَنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

« الغزال المنتع : زوجته ، ويهجع : ينام ، يريد أنه يحمدته ويقرّ به بهذا

الحديث حتى ينام ،

وكانوا لكرههم يُفَضُّونَ الْاجْتِمَاعَ عَلَى الْأَكْلِ وَيَسْتَقْبِحُونَ التَّفَرُّدَ :

شكا رجل إلى سيدنا رسول الله قلة البركة في طعامهم ، فقال : لعلمكم تفرقون

على طعامكم ! قال : نعم ، قال : اجتمعوا عليه واذكروا اسم الله لديه ...

وفي الحديث أيضا : أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ : من أكل وحده ، وضرب

عَبْدَهُ ، ومنع رِفْدَهُ ، « الرُفْدُ : العطاء » ... وقال قيس بن عاصم المِنْقَرِيُّ :

إِذَا مَا ضَعَّتِ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيْلًا فَإِنِّي لَسْتُ أَكِلُهُ وَحْدِي ^(١)

(١) بعده :

قَصِيًّا كَرِيْمًا أَوْ قَرِيْبًا فَإِنِّي أَخَافُ دَمَمَاتِ الْأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي

وَكَيْفَ يُسْبِغُ الْمَرْءُ زَادًا وَجَارُهُ خَفِيْفُ الْمَعْنَى بِأَدْيِ الْخِصَاصَةِ وَالْجَهْدِ

وَاللَّمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَإِخْلِ يُبَلِّغُ أَطْرَافَ الْأَكِيلِ عَلَى عَمْدِ

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا وَمَا فِي إِلَّا تَلَكَّ مِنْ شِيْمَةِ الْعَبْدِ

وقوله قصيا كريما أو قريبا فإني : قال المبرد : هذا من طريق المعاني وذلك أنه لم يحتاج

إلى أن يشترط في نسبته الكرم لأنه ضمن ذلك واشترط في القصي أن يكون كريما

لأنه كره أن يكون مؤاكلة غير كريم . ورواية الأغانى :

✽ أَخَا طَارِقًا أَوْ جَارِيَّةً فَإِنِّي ✽

وروا أن قيسا لما قال فالتسي له أكيبلا : أرسلت زوجته جارية فأتته بأكيل وقالت :

أبي المرء قيس أن يذوق طعامه بغير أكيبل إنه لكريم

وقال عبد الله بن المعتز في اجتماع الأيدي على الطعام:
 كَأَنَّ أَكْفَ الْقَوْمِ فِي جَفَنَاتِهِ قَطَا لَمْ يُنْفَرُهُ عَنِ الْمَاءِ عَارُخٌ ^(١)
 وكانت العرب تعدّ التفرد بالأكل احتقَابَ وَزْرٍ ^(٢) حتى أنزل الله عز
 و تقدّس : ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ^(٣) ...

السؤال

وعبقرياتهم فيه ، من جميع نواحيه

ذَمَّ السُّؤال : لما احتضِرَ قيسُ بنُ عاصمِ المنقَرِي ^(٤) سيد أدل الوبَر ، قال

(١) الجفّنات : جمع جفنة : القصعة الكبيرة

(٢) يقال : احتقَب فلان الإثم والوزر : احتمله ، كأنه جمعه واحتقبه من خلفه ،
 أى جمعه في حتمية ، والحتمية الوعاء الذي يجعل الرجل فيه زاده وكانوا يجعلونها خلفهم
 على الراحلة (٣) قال البيضاوي : نزلت هذه الآية في بني ليث بن عمرو من كنانة ،
 كانوا يتحزجون أن يأكل الرجل وحده ؛ أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف
 لا يأكلون إلا معه ؛ أو في قوم تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في
 الغذارة والنهم

(٤) تقدم له ذكر فيما أسلفنا وهذا قيس هو الذي يقول فيه عبدة بن الطيب يرثيه
 - وعبدة شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم وكان في جيش النعمان بن مقرن الذين
 حاربوا معه الفرس بالمدائن - :

وما كانَ قَيْسٌ هُلْكَهُ هُلْكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا
 وعبدة هذا هو صاحب الآيات التي روى أن عبد الملك بن مروان قال يوماً لجلسائه : أي
 المناديل أفضل ؟ فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غرقُ البيض ، وقال آخرون
 مناديل اليمن ، كأنها نور الربيع ، فقال عبد الملك : بل مناديل أخى بني تميم : عبدة بن
 الطيب حيث يقول :

لبنيه : يَا بَنِيَّ ، احفظوا عَنِّي ثَلَاثًا ، فَلَا أَحَدٌ أَتَّصِحُّ لَكُمْ مِنِّي ، إِذَا أَنَا مِتُّ
 فَسَوِّدُوا كِبَارِكُمْ وَلَا تُسَوِّدُوا صِغَارِكُمْ ، فَيُحَقِّرَ النَّاسُ كِبَارِكُمْ وَتَهْوَنُوا
 عَلَيْهِمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِحِفْظِ الْمَالِ ، فَإِنَّهُ مَنْبَهَةٌ لِلْكَرِيمِ وَيُسْتَفْتَى بِهِ عَنِ اللَّئِيمِ ،
 وَإِيَّاكُمْ وَالْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ ... وَسَوِّدُوا كِبَارِكُمْ : فَالسَّيِّدُ هُنَا
 الرَّئِيسُ أَيْ أَسْنَدُوا رِيَاسَتَكُمْ إِلَى كِبَارِكُمْ ، وَمَنْبَهَةٌ لِلْكَرِيمِ : أَيْ مُشْعِرٌ بِقَدْرِهِ
 وَمُعَلِّلٌ لَهُ ، وَقَوْلُهُ : فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ فَأَجْرُ بَقْصَرِ الْمَهْمَزَةِ : أَيْ أَدْنَى
 وَأَرْذَلُ ، وَإِذَا مُدِّ فَمَعْنَاهُ : أَنْ السُّؤَالَ آخِرَ مَا يَكْتَسِبُ بِهِ الْمَرْءُ عِنْدَ الْعِجْزِ عَنِ
 الْكَسْبِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ إِيَّاكُمْ وَالْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهَا آخِرُ كَسْبِ الرَّجُلِ ،
 فَلَعَلَّ قَيْسًا أَخَذَهَا مِنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ، لِأَنَّ قَيْسًا مَنِ اسْلَمَ وَنَزَلَ الْبَصْرَةَ
 وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا : مَنْ سَأَلَ وَهُوَ غَنِيٌّ جَاءَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَدُوشًا
 أَوْ نُخُوشًا أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ «السُّكُودُوحُ : الْخَدُوشُ ، وَكُلُّ أَثَرٍ مِنْ خَدَشٍ
 أَوْ تَضْرِبٍ فَهُوَ كَدْحٌ ، وَقَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِنْ أَحَدُكُمْ يَخْرُجُ بِمَسْأَلَتِهِ مِنْ
 عِنْدِي مُتَأَبِّطًا ، وَمَا هِيَ إِلَّا النَّارُ ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَلِمَ تُعْطِيهِ
 وَهِيَ نَارٌ؟ فَقَالَ : يَا بَنُونَ إِلَّا أَنْ يَسْأَلُوا وَيَأْتِيَ اللَّهُ لِي الْبُخْلَ ... وَقَالُوا :
 إِيَّاكَ وَطَلَبَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ فَإِنَّهُ فَقَرٌّ حَاضِرٌ ، وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ : السَّخَاءُ
 سَخَاءَانُ : سَخَاؤُكَ بِمَا فِي يَدِكَ ، وَسَخَاؤُكَ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَهُوَ أَمْحَضٌ فِي

لَمَّا نَزَلْنَا ضَرَبْنَا ظِلًّا أُخْبِيَّةً وَفَارَ لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ الْمَرَاجِيلُ
 وَرَدَّ وَأَشَقَرُ مَا يُؤْنِيهِ طَابَخُهُ مَاغِيرَ الْعَلَى مِنْهُ فَهَوَ مَا كَوُلُ
 نُمَّتَ قَنَا إِلَى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ أَعْرَافُهُنَّ لَا يَدِينَا مَنَادِيلُ

• يعني بالمراجيل : المراحل فزاد فيها الياء ضرورة ، وما يؤنيه : ما ينضجه ، والجرد

المسومة : الخيل

الكرم، وأبعدُ من الدّنس، ومن جمّهما فقد استكمل الفضل ٠٠٠ وقال شاعرٌ:
 لا تَحْسَبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الْبَيْلَىٰ وَإِنَّمَا الْمَوْتُ سُؤَالَ الرَّجَالِ
 كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنَّ ذَا أَشَدُّ مِنْ ذَاكَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ
 وقد كانوا يتحملون المكارهَ تفادياً من السؤال: روى الأصمعي قال: مررت
 بكنّاس بالبصرة يَكْنُسُ كنيفاً ويُغْتَى:

أضاعوني وأىّ قتيّ أضاعوا ليوم كريبه وسداد ثغري^(١)
 فقلت له: أما سداد الكنيف فأنت ملىء به^(٢)، فلا علم لي بك كيف
 أنت فيه، أو كنت حديث السن فأردت العبث به - فأعرض عني ملياً ثم أقبل
 عليّ وأنشد مُتمثلاً:

وأكرم نفسي إنى إن أهنتها وحقك لم تكرم على أخذ بعدي
 قال الأصمعي: فقلت له: والله، ما يكون من الهوان شيء أكثر مما بذلتهم له،
 فبأى شيء أكرمتها؟ فقال: بلى، والله، إن من الهوان لشرّ مما أنا فيه، فقلت: وما هو؟
 فقال: الحاجة إليك وإلى أمثالك من الناس، فانصرفت عنه أخزى الناس ٠٠٠ ومثله
 ما روى أن أبا عمرو بن العلاء قال: اجترت بكنّاس يُنشد:

إذا أنت لم تعرف لنفسك قدرها هوانا لها كانت على الناس أهونا
 فقلت: سبحان الله، أتُنشد مثل هذا وتتعاطى مثل هذا الفعل؟ فقال:
 إن إنشادي لمثله أصرّني إلى هذا، فرارا من ذلّ السؤال...



(١) سيمر بك حديث طريف عن هذا البيت في موضع آخر من هذا الكتاب

(٢) ملىء به: مضطلع به

ذم الإلحاح والحث على الإجمال في الطلب :

في الحديث : إن الله يُبْغِضُ من عباده السائلَ الْمَلْحِيفَ ، وقال حكيم :
لَا يُكْثِرَنَّ الرَّجُلُ عَلَى أَخِيهِ الْمَسْأَلَةَ ، فَإِنَّ الْعِجْلَ إِذَا أُرْطِيَ فِي مَصِّ أُمِّهِ
نَطَخَتْهُ وَنَحَّتَهُ ، وقال بشار بن برد : * وَلَيْسَ لِلْمَلْحِيفِ مِثْلُ الرَّدِّ *
ووقع بعض الكبار في قصة مُلَبِّحِ مُكْبِرٍ للسؤال : دَخَ هَذَا الضَّرْعُ
يَدِرُّ لغيرك كما دَرَلَك . وقالوا : اطلبوا الحاجات بعِزَّة النفس فإن يَسِدَ اللهُ
قضاءها ... وقال ابن الرومي في الإحسان يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِهِوَانِ :

إِذَا أَنَا نَالْتَنِي فَوَاضِلُ مُفْضِلٍ فَأَهْلًا بِهَا مَا م تَكُنُّ بِهِوَانِ
فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْهُوَانُ قَرِينَهَا فَبُعْدًا لَهَا مَا يَنْقِضِي لِأَوَانِ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَلْتَدُّ شَهْدًا بِعَلْقَمِ أَبَتْ لهُوََاتِي ذَاكَ وَالشَّفْتَانِ
يَدُ مَكَانًا مِنْ كَرِيمٍ يُصَوِّنِي وَإِلَّا فِلي رِزْقٍ بِكُلِّ مَكَانِ

* * *

دقة موقف السائل : ومن عبقرياتهم في صعوبة موقف من يسأل لنفسه
شيئا ولا سيما إذا كان ممن يُكْرَمُون أَنفُسَهُمْ :

قال سعيد بن العاص : موطنان لا أعتذر من العي فيهما : إذا سألتُ
حاجةً لنفسِي ، وإذا كَلَّمْتُ جاهِلا ... وسار الفضلُ بن الرِّبِيعِ - الوزير كان - إلى
أبي عباد في نكبتِهِ يسأله حاجة ، فَأَرْتَجِ عَلَيْهِ ، فقال له أبو عباد : بهذا
اللِّسَانِ خَدَمْتَ خَلِيفَتَيْنِ ! فقال الفضل : إِنَّا تَوَدَّوْنَا أَنْ نُسْأَلَ لَا أَنْ
نَسْأَلَ ... وَكَلَّمَ أَعْرَابِيَّ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ، وَتَلَجَّجَ فِي كَلَامِهِ ، فقال :
لَا تَلْنِي عَلَى الْإِخْتِلَاطِ ، فَإِنْ مَعِيَ ذُلُّ الْحَاجَةِ وَمَعَكَ عِزُّ الْأَسْتِغْنَاءِ ...

* * *

عقبرياتهم في آداب السؤال واستنجاح الحوائج

ولهم في السؤال وآدابه واستنجاح الحوائج ودستوره، تحاسن رأينا أن ننسبها، إتماما لهذا الباب، فمن ذلك حثهم على سؤال الشبان دون الشيوخ، والصباح دون القباح، والكريم الفقير دون الغني اللثيم. وهذا لعمري من حذق الأوائل وتفطنهم إلى طبائع النفوس...

قال حكيم: طلب الحوائج عند الشبان أسهل منها عند الشيوخ، ألا ترى أن يعقوب عليه السلام لما سأله بنوه أن يستغفر لهم قال: سوف أستغفر لكم ربي، وقال يوسف عليه السلام: لا تريب عليكم اليوم... وفي الأثر: اطلبوا الحوائج إلى حسان الوجوه^(١)... وسئل ابن عائشة عن هذا الحديث فقال: معناه: اطلبوها من الوجوه التي يحسن بالمرء أن يطلبها منها... وقال البحترى:

مَنْ حَسَنَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَسَجَا يَأُ وَأَعْطَاهُ كُفَّ الكُفَمَا

وقال السري الرفاء:

صَرَفْتُ عَنِ الكَثِيرِ الوَفْرِ طَرَفِي وَهَا أَنَا لِلْقَلِيلِ الوَفْرِ رَاجٍ^(٢)

وَكَمْ مِنْ نُظْفَةٍ عَادَتْ وَكَانَتْ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ بَحْرِ أَجَاجٍ^(٣)

وقالت امرأة من ولد حسان بن ثابت:

(١) في الجامع الصغير: اطلبوا الخير إلى حسان الوجوه

(٢) الوفير: المال الكثير (٣) النطفة: الماء القليل الصافي يبقى في الدلو

أو القربة ونحوها، وأجاج: ملح ممر

سَلِ الْخَيْرَ أَهْلَ الْخَيْرِ قَدَمًا وَلَا تَسَلْ

فَتَى ذَاقَ طَعْمَ الْعَيْشِ مِنْذُ قَرِيبٍ

وقال مسلم بن قتيبة: لا تَطْلُبَنَّ حاجتك إلى كذاب، فإنه يُقَرِّبُهَا وهي بعيدٌ، وَيُبَعِّدُهَا وهي قريبٌ^(١)، ولا إلى أحقِّ فإنه يُريدُ أن يَنْفَعَكَ فَيُضْرِبُكَ ولا إلى رجلٍ له عِنْدَ مَنْ تَسْأَلُهُ الْحَاجَّةَ حَاجَّةٌ، فإنه لا يُؤَثِّرُكَ على نَفْسِهِ وقال شاعر:

لَا تَطْلُبَنَّ إِلَى لَيْمٍ حَاجَةً وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ قَائِمًا كَالْقَاعِدِ

يَاخَادِعَ الْبُخْلَاءِ عَنِّ أَمْوَالِهِمْ هَيْهَاتَ تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ

وقال بعض الأدباء: عليك بذى الحَصْرِ الْبَيْكِيِّ^(٢)، وبذى الْحَيْمِ الرِّضِيِّ^(٣)

فإن مثقالا من شدة الحياء والعِي، أنفعُ في الحاجة من قطارٍ من لسانِ سليلٍ وَعَقْلٍ ذَكِيٍّ، وعليك بالشهمِ النَّدْبِ^(٤) الذي إن عجز أياسك، وإن عجز أطمعك... وقال الفاروق رضى الله عنه: لا تَسْتَعِنْ على حاجتك إلا بالخيرِ يُحِبُّ نَجَاحَهَا لَكَ... وقال ابن عباس: لا تَسْأَلَنَّ حَاجَةً بِاللَّيْلِ، ولا تَسْأَلَنَّ أَعْمَى، فإن الحياء في العينين.

ومن آداب السؤال عندهم أن لا يُتجاوزَ الحدُّ فيه: قالوا: من سأل

(١) بعيد وقريب: يوصف بهما المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ومنه قوله تعالى «إن رحمة الله قريب من المحسنين»

(٢) الحصر: ضرب من العِي، والبيكي: القليل الكلام

(٣) الحيم: الخلق والطبيعة والسجية والأصل، قال:

وَمَنْ يَبْدَعُ مَا لَيْسَ مِنْ حَيْمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى نَفْسِ حَيْمِهَا

(٤) الشهم: الذكي الفؤاد، المتوقد النجد النافذ في الأمور، والندب: الخفيف

في الحاجة

فوق قدره ، فقد استوجب الردّ ، ومن لم يرج إلا ما هو مستحق له ، فإلى الردّ ... وقال الشاعر :

إِنَّكَ إِذَا كَلَّفْتَنِي مَالًا أَطِقُ سَاءَكَ مَا سَرَّكَ مِنِّي مِنْ خُلُقٍ

وكانوا لا يرون بأسا بسؤال الملوك وسؤال الابن أباه : فقالوا : مسألة الرجل السلطان ، ومسألة الابن أباه ، لا تنقصه ولا تشينه :

وَإِذَا ابْتُلِيتَ بِبَذَلٍ وَجْهَكَ سَائِلًا فَأَبْذُلُهُ لِلْمَتَكَّرِمِ الْمِفْضَالِ

وقال أبو جعفر المنصور لرجل أحمد منه أمرا : سل حاجتك فقال : يبيحك الله يا أمير المؤمنين ، قال : سل ، فليس يمكنك ذلك في كل وقت ؛ فقال : ولم يا أمير المؤمنين ؟ فوالله ، لا أستقصر عمرك ولا أرهب بخلك ولا أعتنم مالك ، وإن سؤالك لزين وإن عطائك لشرف ، وما على أحد بذل وجهه إليك نقص ولا شين ، فأمر حتى ملئ فوه درأ ... وقال العتّابي : إن طلبت حاجة إلى ذي سلطان ، فأجل في الطلب إليه ، وإياك والإلحاح عليه ، فإن إلحاحك يكلم عريضك ، ويريق ماء وجهك ، فلا تأخذ منه عوضا لما يأخذ منك ، ولعل الإلحاح يجمع عليك إخلاق ماء الوجه وحرمان النجاح فإنه ربما ملّ المطلوب إليه حتى يستخفّ الطالب .

ومن قولهم في الحث على الحذق واللاطافة في المسألة : قال رجل لآخر : لو أنا مت ما كنت تفعل ؟ قال : كنت أكفّك وأدفئك ، قال : فاكسني الساعة بما تكفّني به ، وإذا مت فادفني عريانا ... وقال شاعر :

أَحْلُبُ لَبُونَكَ إِسْأَسًا وَتَمْرِيَةً لَا يَقْطَعُ الدَّرَّ إِلَّا عُتْفُ مُحْتَلِبِهِ

• اللبون : الناقة أو الشاة ذات اللبن ، والإسّاس : أن يسمح بضرع الناقة يسكنها لتدرّ ، ومثله التمرية ، والدر : اللبن ، ... رسأل أعرابي عبد الملك بن مروان -

وكان بخيلاً وكانوا يطلقون عليه : رَشَحَ الحجر - فقال له : سل الله ، فقال : سألتُه فأحالي عليك ، فضحك منه وأعطاه .. وأتى رجل بعضَ الولاية ، وكان صديقَه ، فتشاغل عنه ، فترأى له يوماً ، فقال : أعذرتني فإني مشغول ، فقال لولا الشُّغْلُ ما أتيتك ، لا بلغتني الله يوم فراغك . وفي هذا المعنى يقول أبو علي البصير :

لَا تُصَيِّرْ شُغْلَكَ لِيَوْمِ مَآئِمْكَ
مَآئِمْكَ لِيَوْمِ مَآئِمْكَ

لِنَمَّا يُحَمَّدُ أَنْ تَقْرَعَ فِي وَقْتِ اشْتِغَالِكَ

لَوْ تَقَرَّرْتَ مِنَ الشُّغْلِ آتُونَا فِي الْمَسَالِكِ

وقال بعض الأدباء للصاحب بن عباد : إن جردان داري ^(١) يمشين بالعصا هزاً ، فقال : بشرهن بمجيء الحنطة ... وقسم بعضهم مالا بين بنيه فقال له عبد صغير : فأعطني أولاً ، فقال له : ولمه ؟ قال : لأن الله تعالى يقول : المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، فبدأ بالمال ، وأناماك ، فأعطاه وقدمه ... ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم ، فقال له : إني أتيتك في حاجة ، فإن شئت قضيتها وكنا جميعا كريمين ، وإن شئت منعتها وكنا جميعا لثيمين . وقال ابن عبد ربه صاحب العقد : أراد : إن قضيتها كنت أنت كريما بقضائها ، وكنت أنا كريما بسؤالك إياها لأنني وضعتُ طلبتي في موضعها ، فإن لم تقضها كنت أنت لثيما بمنعك ، وكنت أنا لثيما بسوء اختياري لك ، وسرق حبيب - أبو تمام - هذا المعنى فقال :

عِيَاشُ إِنَّكَ لِلثَّيْمِ وَإِنِّي مُدْصِرَتَ مَوْضِعِ مَطْلَبِي لِلثَّيْمِ

ومن مآحِ المُكْدِينِ ووصاياهم : قيل لرجل مُكْدٍ : متى تعلت الكدبة والسؤال ؟ قال : يوم وُلِدْتُ ، مُنِعْتُ الثَّدْيَ فصحت ، وبكيت فأُعْطيت

(١) الجرذان جمع جرد : الفأر

الثدى، فسكت... وقال رجل لآخر: قد وَضَعَ مِنْكَ سِوَالُكَ؟ فقال: لقد
سأل موسى والخضرُ عليهما السلام أهلَ قرية، فأبوا أن يُضيفوهما، فوالله
ما وضع هذا من نبي الله وعالمه، فكيف يضع مني! وقال بعض المُكِدِّينَ:
مكتوبٌ على باب الجنة: مَنْ صَبَرَ عَبْرَ... وقال آخر: كَلَّبَ طَائِفٌ، خَيْرٌ
من أَسَدٍ رَابِضٍ، وقالوا: الهية خيبة، وقال سَلْمُ الخاسر:
من رَأَى النَّاسَ ماتَ غَمًّا وفاز بِاللَّذَّةِ الجَسورُ
وقال أَشْجَعُ السُّلبي:

ليس للحاجات إلا مَنْ له وَجْهٌ وَقَاحٌ

وقال أبو تمام:

وَحُذْفُمْ بِالرُّقَى إِنَّ المَهَارَى يُهَيِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الحِدَاءِ

وقال ابن الرومي:

وإنَّ الأُمَّ لم تُرَضِعْ صَبِيًّا معَ الإِشْفَاقِ لو سَكَتَ الغُلامُ

ومن قولهم في الحث على معاودة السؤال: قولُ عمر رضى الله عنه: إذا
سألتونا حاجةً فعادونا فيها، فإنما سميت القلوب قلوباً لتقلبها... وقال
عبد الملك بن مروان في خطبة له: لا يَمْنَعُنْ رَجُلًا سألَ اليوم شيئاً فَمَتَّعْتُهُ،
أن يسأل غداً؛ فإنَّ الأمورَ بيدَ الله لا يدي. وقال شاعرٌ:

لا يُؤَيِّسُكَ مِنْ كَرِيمِ نَبْوَةٍ يَلْبُو الفَتَى وَهَوَ الجَوَادُ الخِضْرِمُ^(١)
فإذا تَبَا فاستَبِقِهِ وتأنَّهُ حَتَّى يَجِيءَ بِهَا الطَّبَاعُ الأَكْرَمُ^(٢)

(١) النبوة: الجهوة والتباعد ويقال: نباعته بصره ينبر: تجافى ولم ينظر إليه كأنه
حقره. والخضرم بالكسر: الجواد الكثير العطاء أو السيد الحمرل
(٢) يقال: تأنبتك حتى لا أناة بي، أى تنظرتك حتى لا انتظر بي، والطباع كالغرار
واحد طباع الإنسان أى الخليفة والسجية التى طبع عليها قال الزجاجى الطباع واحد

وقالوا: إذا سألتَ كريماً حاجة فدعه وسؤمَ نفسه^(١) فإنه لا يفكرُ إلا في خير ، وإذا سألتَ لثيماً حاجةً فعاقضه^(٢) ولا تدعه يتفكر فيمتّعير ، وقال بعضهم في ضد ذلك: إذا سألتَ لثيماً حاجةً فأجله حتى يروض نفسه ... « أى يعالج نفسه الكزة اللثيمة »

ولهم في الاعتذار عن سؤال اللثيم وأخذهم منه: قال أبو تمام:

حُذِّدْ مَا أَتَاكَ مِنَ اللَّثِيمِ إِذَا نَأَى أَهْلُ الْكَرَمِ
فَلَا تُسَدُّ تَفْتَرِسُ الْكِلَابِ إِذَا تَعَدَّرَتِ الْغَنَمُ

وقال المتنبي:

غَيْرَ اخْتِيَارٍ قَبْلْتُ بِرِّكَ بِي وَالْجَوْعُ يُرِضِي الْأَسْوَدَ بِالْجَيْفِ
وقال المهلبى الوزير:

مَا كُنْتُ إِلَّا كَلْبِمْ مَيِّتٍ دَعَا إِلَى أَكْلِهِ اضْطِرَارُ

ولأبى على البصير:

لَعَمْرُ أَيْبِكَ مَا نُسِبَ الْمُعَلَّى إِلَى كَرَمٍ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمُ
وَلَكِنَّ الْبِلَادَ إِذَا أَشْعَرَتْ وَصَوَّحَ نَبْتُهَا رُعَى الْمَشِيمُ

واقشعرت: قال الأزهرى: يقال: اقشعرت الأرض من المجل - الجذب -

وفي الحديث: إن الأرض إذا لم ينزل عليها المطر اربدت واقشعرت: أى

تقبضت وتجمعت ، وصَوَّحَ نَبْتُهَا: يبس .

ومن قولهم في التعريض بالسؤال: قال أمية بن أبى الصلت:

أَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شَيْمَتَكَ الْحَيَاءُ

مذكر كالنجار - الاصل - (١) أى وما يريد ويتجه اليه

(٢) فعاقضه: فاسلك معه مسلكاً ملتويّاً بعزّة

إذا أثنى عليك المرء يوماً كَفَاهُ مِنْ تَعْرِضِهِ الثَّنَاءُ
وقال ابن الرومي :

يَا مَنْ إِذَا التَّعْرِضُ صَافَحَ نَفْسَهُ أَغْنَى الْعُقَاةَ بِهِ عَنِ التَّصْرِيحِ -
وقال المتنبي :

أَقْلُ سَلَامِي جَبَّ مَا خَفَّ عَنْكُمْ وَأَسْكُتُ كَمَا لَا يَكُونُ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ
وقال أبو بكر الخوارزمي :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً فُلِقَاؤُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ
فَإِذَا رَأَاكَ مُسَلِّمًا عَرَفَ الَّذِي حَمَلَتْهُ فَكَاَنَّهُ مَلْزُومُ

المسئول يُجَاه السائل

قال شريح^(١) : مَنْ سَأَلَ حَاجَةً فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ عَلَى الرَّقِّ ، فَإِنْ قَضَاهَا

(١) هو القاضي شريح بن الحارث ، استقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة فأقام قاضياً خمساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة وذكاء ومعرفة وعقل وإصابة ، وكان شاعراً محسناً وكان مزاحاً ، دخل عليه عدى بن أرطاة فقال له : أين أنت أصلحك الله فقال : بينك وبين الحائط ، قال : استمع مني ، قال : قل أسمع ، قال : لاني رجل من الشام ، قال : من مكان سحيق ، قال : تزوجت عندكم ، قال : بالرقاء والبنين قال : وأردت أن أرحلها ، قال : الرجل أحق بأهله ، قال : وشرطت لها دارها قال : الشرط أملك قال : فاحكم الآن بيننا ، قال : قد فعلت ، قال : فعلى من حكمت ؟ قال : على ابن أمك ، قال : بشهادة من ؟ قال : بشهادة ابن أخت خالتك ... ويُروى أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه دخل مع خصم له ذى إلى القاضي شريح هذا فقام له ، فقال علي : هذا أول جورك ، ثم أسند ظهره الى الجدار وقال : أما لو أن خصمى كان مسلماً لجلست بجانبه ... وتزوج شرح امرأة من بني تميم تسمى زنبب هتقم عليها شيئاً فضر بها ثم ندم وقال :

المسؤلُ استعبده بها ، وإن رَدَّه ، رجع حُرّاً ، وهما ذليلان ، هذا بِذِلِّ اللّوْمِ
وهذا بِذِلِّ السَّوَالِ . وقال أبو تمام :

ماماء كَمَفِّكَ - إن جادت وإن بَحَلَّتْ من ماءٍ وَجْهِي إذا أَفْنَيْتَهُ - عَوْضُ

وقالوا : العَجَبُ لمن يشتري العبيدَ بالأموال ولا يشتري الأحرارَ بالوَالِ ...
وسئل خالدُ بن يزيدَ : مال الجود ؟ قال : أن تُعْطِيَ مَنْ سَأَلَكَ ، فقال ابنه :
يا أَبَتِ ، هذا هو الكَدُّ ، إنما الجودُ أن تُعْطِيَ مَنْ سَأَلَكَ ومن لم يَسْأَلْكَ ...
وقالوا : أهناً المعروف أعجَلُهُ . وقال بعض الناس : إذا أوليتني نعمةً فَعَجَّلْها ،
فإن النفسَ مولاةٌ بحَبِّ العاجلِ ، وإن الله تعالى قد أخبر عما في نفوسنا فقال :
كلا ، بل تُحِبُّونَ العاجلةَ ... ولزِمَ بعضُ الحكماءِ بابَ بعضِ ملوكِ العجمِ دَهْرًا
فلم يَصِلْ إليه ، فتأطَّفَ للحاجِبِ في إيصالِ رُقعةٍ ، ففعل ، وكان فيها أربعة أسطر
السطر الأول : « الأمل والضرورة أقدمان عليك »

والسطر الثاني : « العُدْمُ لا يكون معه صَبْرٌ على المطالبة »

والسطر الثالث : « الانصراف بلا فائدة شمانية للأعداء ،

والسطر الرابع : « فإما تَعْمُ مُشْمِرَةٌ ، وإما لا مُرِيحَةٌ ،

فلما قرأها وَقَعَ في كل سطرٍ : زَهْ ؛ فَأُعْطِيَ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ مِثْقَالٍ فِضَّةٍ -

زَهْ في لغة الفرس معناها : أحسنت ، ... ووقفت عجوزٌ على قيس بن سعد فقالت :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمْ فَسَلَّتْ يَمِينِي يَوْمَ أَضْرِبُ زَيْنَبَا

أَأَضْرِبُهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ أَنْتَ بِهِ فَمَا الْعَدْلُ مَنِّي ضَرْبٌ مَن لَيْسَ مُذْنِبَا

فزينبُ شمسُ والنساءُ كواكبُ إذا طلعت لم تُبْقِ مَنهنَّ كوكبا

توفى شريح سنة ٨٧ هـ وهو ابن مائة سنة .

أشكو إليك فلة الجرذان ، قال : ما أحسن هذه الكناية ؟ أمننوا بيدها خبزاً ولحماً
وسمناً وتمراً . وقد تقدم مثلها .

الاعتذار عن المسئول إن لم يعط

قال أبو نواس :

فإن توريتني منك الجميل فأهله وإلا فإني عاذر وشكور

وقال ابن الرومي :

وإن عاق النضاء نذاك عني فليست أراك في منعي مليماً^(١)

وما عيئت إذا يجتاز أرضاً إلى أخرى بمعتد ثيماً

وكتب أبو العيناء إلى ابن أبي دؤاد : سنا وأهلنا الضر ، وبضاعتنا المودة
والشكر ، فإن تمطنا فأنت أهل لذلك ، وإن لم تمطنا فلسنا بمن يلزك في
الصدقات ، فإن أعطوا منها رضى وإن لم يعطوا منها إذانهم يستخون^(٢) وهناك
من لا يعذر ، روى أن الحجاج لما دخل مكة قال لأهلها : أتيناكم وقد غاض
الماء لكثرة الزواجب ، فاعذرونا ، فقال رجل : لا عذر الله من عذرك ، وأنت
أمير المصرين وابن عظيم القرين^(٣) فقال : صدقت ، واستقرض ما لا من
التجار فقرق فيهم ، وقال أبو تمام :

فلو حاردت شول عذرت لفاحها

ولكن حرمت اندر والضرع حافل^(٤)

(١) مليماً : فاعلاً ما يلام عليه (٢) اللز : العيب والوقوع في الناس . يشير الى

الآية الكريمة (٣) القرينان : مكة والطائف

(٤) حاردت الافة : قل لبنا ، والشول جمع شائلة والشائلة من الإبل التي أتى عليها

من حملها أو وضعها سبعة أشهر نجف لبنا ، واللحاق : جمع نفحة : الحامل والمراد : عذرتها

طلب الكثير والرضا بالقليل

قال أعرابيٌّ لخالد بن عبد الله من أبيات :

أخالدُ بين الحمد والاجر حاجتي فأيهما تأتي فأنت عمادُ

فقال له خالد : سَلْ ما بَدالك ، فقال : مائة ألف درهم ، قال : أسرفت ، قال :

ألف درهم ، قال خالد : ما أدري أمِن إسرارك أتعجب أم من حَظك ، فقال :

إني سألتك على قدرك ، فلما أبيتَ سألتُ على قدرى ، فقال : إذن والله لا تغلبني

على معروفى ...

من يسأل حاجة يزعمها صغيرة

قال رجل لعمارة بن حمزة : أتيتك فى حُويجة ، فقال : اطلب لها رُجِيلاً ...

وقال آخر مثل هذا فقال : دَعها حتى تكبُر ... وقال رجل لعبد الله بن عباس

رضى الله عنه : أتيتك فى حاجة صغيرة ، فقال : هايتها ، فالحرُّ لا يصغر عن

كبير أخيه ولا يكبُرُ عن صغيره ...

الحث على الصبر والأناة فى طلب الحاجات

قال الشاعر :

إن الأمورَ إذا اتسَدَّتْ مَسالِكُها فالصبرُ يفتَحُ منها كلَّ ما ارْتُجِجا^(١)

أخلاقُ بذي الصبرِ أن يَحْظَى بِحاجته ومُدْمِنِ القَرعِ الأبوابِ أن يَلِجَا

لأنَّ تَأَيُّسَن وإن طالَتْ مُطالبَةُ إذا استَعنَت بِصبرٍ أن ترى فرجَا

وقال أبو نواس :

هذه الشول والدر : اللبن ، وحافل : ملآن (١) كل ما ارتجج : كل ما اغلق

ولا يُدْرِك الحاجاتِ مِنْ حَيْثُ تُبْتَغَى
 مِنَ النَّاسِ إِلَّا الْمَصْبِحُونَ عَلَى رِجْلِ (١)
 تَأَنَّ مَوَاعِيدَ الْكِرَامِ فُرُبَمَا
 أَصْدَتْ مِنَ الْإِلْحَاحِ سَمَحًا عَلَى بُخْلِ
 وَقَالَ الْقَطَائِمِيُّ :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْدَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعِجِلِ الزَّلَلُ
 وَالْعَرَبُ تَقُولُ : رَبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا ؛ يَرِيدُونَ أَنْ الرَّجُلَ قَدْ يَخْرُقُ
 وَيَحْمَقُ فَيَعَجَلُ فِي حَاجَتِهِ فَتَأَخَّرَ أَوْ تَبَطَّلَ بِذَلِكَ .

العطية لا تجدى في غير وقتها

قال البحرى :

وَاعْلَمْ أَنَّ الْغَيْثَ لَيْسَ بِنَافِعٍ لِلسَّرِّ مَا لَمْ يَأْتِ فِي إِبَانِهِ
 وَقَالَ : * يُرَجَى الطَّيِّبُ لِسَاعَةِ الْأَوْصَابِ *
 الْمَسْئُولُ أَهْلٌ لِأَنَّ يُسْأَلَ

قَالَ عَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْفُحْلِ مِنَ قَصِيدَةٍ يَخَاطَبُ الْحَارِثَ بْنَ أَبِي شَمْرٍ
 الْعَسَانِي - وَكَانَ أَسْرَ أَخَاهُ شَأْسًا فَرَحَلَ إِلَيْهِ يَطْلُبُهُ مِنْهُ - :
 وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطَتْ بِنِعْمَةٍ فُحَقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنْوُبُ (٢)
 وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي طَاهِرٍ - :

أَتَيْتُكَ لَمْ أَطْمَعْ إِلَى غَيْرِ طَمَعٍ كَرِيمٍ وَلَمْ أَفْرَعْ إِلَى غَيْرِ مَفْرَعٍ (٣)

(١) يقول : إنما يقضيها المشمرون القيام لا المتزملون القيام
 (٢) خطبه بخير : أعطاه من غير معرفة بينهما ، شبه بخابط الليل . والذنوب :
 الحظ والنصيب (٣) فزع إليه : لجأ إليه

التأسف على الحرمان

قال البحرى من أبيات يمدح بها الفتح بن خاقان ويعاتبه :

سحابٌ حَطَّانِي جَوْدُهُ وَهُوَ مُسْبِلٌ وَبَحْرٌ عَدَانِي قَيْضُهُ وَهُوَ مُفْعَمٌ^(١)
وَبَدْرٌ أَضَاءَ الْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا

وموضع رَحْلِي منه أَسْوَدٌ مُظْلِمٌ^(٢)

أَشْكُو نَدَاهُ بَعْدَ أَنْ وَسِعَ الْوَرَى

وما إنْ يَذُمُّ الْغَيْثَ إِلَّا مُدْمَمٌ

تعريضهم بمن خيبهم

وَقَفَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَى دَارِ سَائِلَا : فَقَالَ لَهُ صَبِيٌّ مِنَ الدَّارِ : بورك فيك ، فقال

له : قَبِّحَ اللهُ هَذَا النَّمِّ ، فَقَدْ تَعَلَّمَ الشَّرَّ صَغِيرًا ... ووقف سائلٌ على قوم
فقال أحدهم : صناعتنا واحدة ، فقال السائل : فأنا قَوَّادٌ فهل أتم قَوَّادون ؟

☆☆☆

يَرُونَ الْهَدَايَا وَالرُّشَى مَدْرَجَةً لِلنَّجَاحِ

كانت العرب تقول : مَنْ صَانَعَ لَمْ يَحْتَشِمْ مِنْ طَلَبِ الْحَاجَةِ «صانع : هادى»...
وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه : نِعَمَ الشَّيْءُ : الْهَدِيَّةُ أَمَامَ الْحَاجَةِ ... وكان
سفيان الثوري يقول : إذا أردت أن تتزوج فأهدِ إلى الأُمِّ ... ومن أمثالهم :
مَنْ يَحْتَطِبُ الْحَسَنَاءَ يُعْطِي مَهْرًا ... «يريدون من طلب حاجة مُهِمَّةً بَدَلًا
فيها» وقال شاعرهم :

(١) الجود : المطر الغزير ، ومسبل : هائل (٢) الرحل : المنزل ، ومفعم : مالىء

ما من صديق وإن تمت صدائته

يوماً بأجمع في الحاجات من طبّي

إذا تقنّع بالمندبيل منطلقاً لم يخش نبوة بواب ولا غلق

لا تكذبن فإن الناس مذخلقوا لرغبة يكرمون الناس أرفق

«نبوة: جفوة، وفرق: خوف» وقال رؤبة بن العجاج:

لما رأيت الشفعاء بلدوا وسألوا أميرهم فأنكدوا

نامستهم برشوة فأفردوا وسهل الله بها ما شددوا

«بلدوا: يقال: بلد الرجل: إذا لم يتجه لشيء، وبلد: إذا تكس في

العمل وضعف حتى في الجرى. وقوله: فأنكدوا: أي وجدوه غيراً

مقللاً إذ لم يجدوا عنده إلا نزرأ قليلاً، وقوله: نامستهم برشوة: يقول:

أفهمتهم أن يلجأوا إلى رشوة الأمير ويحتالوا بذلك، قال في اللسان: نامس

الرجل صاحبه: ساره، ومنه الناموس، وهو صاحب سر الرجل - ويقال له

اليوم السكر تبر الخاص - وقوله: فأفردوا: أي خصصوا، وفي الحديث: إياكم

والإفراد، قالوا: يارسول الله، وما الإفراد؟ قال: الرجل يكون منكم أميراً

أو عاملاً فيأتيه المسكين والأرملة فيقول لهم: مكانكم، ويأتيه الشريف

والغني فيؤدنيه ويقول: عجلوا قضاء حاجته ويترك الآخرون مقمردين

«أي ساكتين ذلاً»

قطع العادة

ومن أحسن ما قيل في قطع العادة قول أعرابي - وقد سأل قوماً، فرّق له

برجل منهم فضمة إليه وأجرى له رزقاً أياماً ثم قطع عنه - فقال الأعرابي:

تَسْرَى فَلِمَا حَاسِبَ الْمَرْءَ نَفْسَهُ رَأَى أَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ السَّرْوُ
 « تَسْرَى : أى تكلف السَّرْو ، والسَّرْو : السخاء » وقال شاعر - قيل هو
 أبو الأسود الدؤلى ، وقيل أنس بن أبي أنس الليثى :-

لَيْتَ شِعْرَى عَنْ أَمِيرِي مَا الَّذِي غَالَهُ فِي الْوُدِّ حَتَّى وَدَّعَهُ
 لَا يُنْهَى بَعْدَ إِذْ أَكْرَمْتَنِي وَشَدِيدُ عَادَةِ مُنْتَزَعَهُ
 لَا يَكُنْ بَرُّكَ بَرُّقًا خَلْبًا إِنَّ خَيْرَ الْبَرِّقِ مَا الْغَيْثُ مَعَهُ

« البرق الخلب : الذى لامطر معه » وفى الحديث : الخير عادة والشرُّ لجاجة . يقال
 لَجَّ فِي الْأَمْرِ يَلُجُّ وَيَلْجُ لَجَاجَةً وَلَجَّاجًا وَبَلَجًا : إذا تَمَادَى عَلَيْهِ وَأَبَى أَنْ يَنْصَرِفَ
 عَنْهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ وَأَنْ غَيْرَهُ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ فِيمَنْ اصْطَنَعَ مَعْرُوفًا شَمَّ
 أَفْسَدَهُ بِالْمَنِّ أَوْ قَطَعَهُ حِينَ كَادَ يَيْتِمُ : شَوَى أَخُوكَ حَتَّى إِذَا أَنْضَجَ رَمَدًا
 « رَمَدٌ : أَلْقَى الشَّيْءَ فِي الرَّمَادِ »

شكوى العافين

من تفضيل بعضهم على بعض فى العطاء

قَدِمَ عَلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُؤِدٌ مِنَ الْعَرَبِ ، فَأَعْطَاهُمْ
 وَفَضَّلَ رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : كُلُّ الْقَوْمِ عِيَالٌ عَلَيْهِ .
 وَأَعْطَى سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ يَرْمِ حُتَيْنِ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ ، وَكَانُوا أَشْرَافًا ،
 بِأَلْفِهِمْ وَيَتَأَلَّفُ بِهِمْ تَوْمَهُمْ ، فَأَعْطَى فِيمَنْ أَعْطَى ، عُيَيْنَةَ بْنِ حِضْنِ الْفَزَارِيِّ ،
 وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسِ التَّمِيمِيِّ ، أَعْطَى كُلًّا مِنْهُمَا مِائَةَ بَعِيرٍ ، وَأَعْطَى عَبَّاسَ بْنَ
 مِرْدَاسِ أَبَا عَرَّ ، وَكَانَ كَذَلِكَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَكَانَ شَاعِرًا ، فَسَخِطَهَا وَقَالَ
 يَعَاتِبُ سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ :

أَتَجَعَّ - لُ تَهَيَّ وَنَهَبَ الْعُبَيْدُ بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ ^(١)
وما كان حِصْنٌ وَلَا حَائِشٌ ^(٢) يَفُوقَانِ مِرْدَاسٍ فِي بَجْعَمٍ
وما كنتُ دونَ امرئٍ منهما ^(٣) وَمَنْ تَضَعُ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعُ
وقد كنتُ في الحربِ ذَا تَدْرَأٍ ^(٤) فَلَمْ أُعْطَ شَيْئًا وَلَمْ أُمْنَعُ
إِلَّا أَفَائِلَ ^(٥) أُعْطِيَتْهَا عَدِيدَ قَوَائِمِهِ الْأَرْبَعِ ^(٦)
فلما أنشدتها بين يدي رسول الله قال لعلي بن أبي طالب : يا علي ، أقطع
عني لسانه ، فقبض علي يده وخرج به فقال : أقطع أنت لساني يا أبا الحسن ؟
فقال : إني لمُضِّ فيك ما أمرت ، ثم مضى به إلى إبل الصدقة فقال خذ
ما أحببت ...

بلاغة المكدين

سأل أعرابيٌ فقال في مسأله : لقد جُعْتُ حتى أَكَلْتُ النَّوَى الْمُحْرَقَ ،
ولقد مَشَيْتُ حتى أَتَعَلْتُ الدَّمِ ، وحتى سَقَطَ مِنْ رِجْلِي بَخْصُ لَحْمٍ ، وحتى تَمَنَّيْتُ
أن وجهي حذاءٌ لِقَدَمِي ، فهل من أخ يرَحْمُنَا ! « البنخص : لحم يخالطه بياض
من فساد يحل به » ... ووقف أعرابي على حلقة الحسن البصري فقال : رحِمَ
الله امرءاً أعطى من سَعَةٍ ووَاسَى من كَفَافٍ وآثر من قوت . فقال الحسن :

(١) النهب : الغنيمة ، والعبيد بالتصغير اسم فرس العباس ، وكان يدعى فارس العبيد .
(٢) مرداس مصروف ولكنه هنا ممنوع من الصرف للضرورة ، وانظر كتب النحاة .
(٣) تدرأ : من الدرء وهو الدفع قال في الصحاح : وقولهم : السلطان ذو تدرأ ،
أي ذو عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وهذا اسم موضع للدفع ، وقوله : فلم
أعط شيئا الخ أي لم أعط شيئا طائلا أو لم أعط شيئا استحقه وهو المائة : ولم أمنع
من الإعطاء لأنني أعطيت بعضا

(٤) الافائل : جمع أفيل بالفاء كالفصيل وزنا ومعنى

ماترك أحداً منكم حتى سأله... وقال المازني : وقف علينا أعرابي فقال :
 رحم الله امرأة لم تمجج أذناه كلامي ، وقدّم لنفسه معاذاً من سوء مقامى ،
 فإن البلاد مجذبة والحال مُصعبة ^(١) والحياء زاجر يمنع من كلامكم ، والعُدْم
 عاذر يدعو إلى إخباركم ، والدعاء أحد الصدقتين ، فرحم الله امرأة أمرت بمخير
 ودعا بخير . فقال له رجل من القوم : بمن الرجل ؟ فقال : اللهم غفراً بمن
 لا تضرُّك جهالته ، ولا تفعلك معرفته ، ذُلُّ الاكتساب ، يمنع من
 عز الانتساب .

حسن الخلق

وعقرياتهم فيه وفيما يتأشب إليه

وهذا هو أحد لَوْنِي الإحسان إلى الناس ، وإن شئت قلت هو اللَوْن

الثالث من ألوان البرِّ ، أعني حُسن الخلق

تحضيضهم على حسن الخلق

قال الله عز وجل : وأخفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

وقال : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . « خذ العفو :

فالعفو : السهل الميسر ، يقول سبحانه : احْتَمِلْ أَخْلَاقَ النَّاسِ وَأَقْبَلْ مَا سَهَّلَ

منها وتيسر ، ولا تستقص عليهم فيستقصى الله عليك ، دع ما فيه من العداوة

والبغضاء قال سُريح :

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَعْضُبُ

(١) يقال صعب الامر وأصعب : صار صعباً

فإني رأيتُ الحُبَّ في الصِّدْرِ والأذى

إذا اجْتَمَعَا لم يَلْبَثِ الحُبُّ يَنْهَبُ

وقوله سبحانه وتعالى: وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ: فالجاهل هنا ما قابل العقل والجاهلون: الحتمى الأشرار السيئوا الأخلاق، أمر الله نبيه بأن لا يمارى الجاهلين ولا يُكافئهم بمثل أفعالهم «

وقال سيدنا رسول الله: إنكم إن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم. ومن ذا قول حكيم وقد قيل له: هل من جودٍ يُتناوَلُ به الخلقُ؟ فقال: نعم، أن تحسن الخلقَ وتنوي الخير لكل أحد... وقال صلوات الله عليه: ألا أخبركم بأحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة! أحاسنكم أخلاقا المؤطون أكنافا، الذين يالفون ويؤلفون، ألا أخبركم بأبغضكم إلى وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة! الثرثارون المتفهبون... « قوله: أحاسنكم أخلاقا يريد: الأحاسن منكم على إرادة التفضيل لا الوصف، وذلك أن العرب تقول في الوصف: رجلٌ حَسَنٌ ولم تقل رجلاً أحسن، مع قولهم امرأة حَسَاء. ونظيره في عكسه: غلامٌ أَمْرُدٌ ولم يقولوا جاريةً مَرْدَاء. وقوله: المؤطون أكنافا: يريد دمانه الخلق ولين الجانب وأن ناحيته يتمكن فيها صاحبه غير مؤذى ولا نابٍ به موضعه. وأصل التوطئة: التذليل والتهديد يقال: فرائش وطىء إذا كان وثيراً - أى ليناً - والثرثارون: الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحق، وأصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء يقال: عينٌ ثرثارة وثرارة: إذا كانت كثيرة الماء... والمتفهبون: بسبيل من «الثرثارون»، وهو تأسيس له، واشتقاقه من قولهم: فَوْقَ الغدير يَفْهَقُ: إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد: يصفهم

بأنهم يوسعون أشداقهم ويملاونها بالكلام . قال أبو العباس المبرد بعد ما أورد ما أوردناه من تفسير هذا الحديث : وتصديق ما فسرناه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يريد الصدق في المنطق والتصدد وترك ما لا يحتاج إليه : قوله لجرير بن عبد الله البجلي : يا جرير : إذا قلت فأوجز وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف ، وقال الله جل شأنه في الحث على لين الكلام : وقولوا للناس حسناً . وقال : فقولا له قولاً ليناً ، وقال : وقُلْ لهما قولاً كريماً . وقال : فقلْ لهم قولاً ميسوراً... وقالوا : من لانت كلمته وجبت محبته . وقالت جدة سفيان بن عيينة له :

بُنِيَ لِمَنْ الْبَرِّ شَيْءٌ هَيْنٌ الْمَفْرُشُ اللَّيْنُ وَالطُّعْمُ

وَ مَنْطِقٌ إِذَا نَطَقْتَ لَيْنٌ ۝

« قولها هينٌ : فالعرب تقول : رجلٌ هينٌ لينٌ وهينٌ لينٌ ، وفي الحديث : المؤمنون هينون لينون كالجل الأنفِ إن قُدَّتْه انقادَ وإن أُنْحَتَتْه على صخرة استنابح » جل أنفٌ : أى مأنوف ، أى يشتكى أنفه من خشاش أو بُرَّة^(١) أو خِزامة في أنفه فلا يمتنع على قائده في شيء للوجع ، فهو ذلول مُنقادٌ ، ومعنى المؤمنون كالجل الأنف : أنهم لا يريمون التشكى ، أى يُديمون التشكى بما بهم إلى الله وحده لا إلى سواه . أقول : وأحسن من هذا التفسير قول بعضهم : الجلل الأنف : الدليل المُواقِى الذى يَأْتِفُ من الزجر ومن الضرب ويُعطى ما عنده من السير عَفْواً سهلاً ، كذلك المؤمن ، لا يحتاج إلى زجر ولا

(١) الخشاش : عويد من خشب يُدْتَحَلُ في عظم أنف البعير يشد به الزمام ليكون أسرع لاقتياده . والبرة : ما يوضع في لحم أنف البعير ويكون من صفر نحاس أبيض - أما الخِزامة فهي من شعر

عتاب ، وما لَزِيهَ من حَقِّ صَبْرٍ عَلَيْهِ وقام به ، وهذا تفسير جميل ، وهو أليق
 بكلام سيدنا رسول الله ، . وسُئِلَتْ عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن خُأَقِ النبي صلي
 اللهُ عَلَيْهِ وسلم فقالت : أوما تَقْرؤون القرآن : وإنك لعلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ... وقالوا :
 صفاء الأخلاق من نَفَاء الأعراف . «الأعراف جمع عِرْق وهو الأصل يقال رجل
 مُعْرِقٌ في الحسب والكرم قالت قُتَيْبَةُ بنت النضر بن الحارث أو أخته :

أُحْمَدٌ وَاَلَانَتِ ضَنْءٌ نُجَيْبِيَّةٌ فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقٌ

أى عريق النسب أصيل ، ويستعمل في اللوم أيضا تقول : إن فلانا لمُعْرِقٌ في
 الكرم ، ومُعْرِقٌ في اللوم . والضناء : الولد والأصل والمعدن» وقال البحترى :

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الخَلَائِقِ إِنِهَا مُسَلَّةٌ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَمَأْتَمٌ

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : ثلاثة من قريش أحسنها أخلاقا وأصبها
 وجوها وأشدّها حياءً ، إن حدّثوك لم يَكْذِبوك ، وإن حدّثتهم بحقّ أو باطل
 لم يَكْذِبوك : أبو بكر الصّدّيق ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعثمان بن عفان
 رضى اللهُ عَنْهُمْ ...

وفي الأثر أيضا : أن حُسنَ الخُلُقِ وحُسنَ الجوار يُعَمِّرانَ الديارَ وَيَزِيدانَ
 في الأعمار . وفي كتاب للهند : مَنْ تَزَوَّدَ خَمْساً بِلُغْتِهِ وَآتَسْتَهُ : كَفَّ الأذى ،
 وحسن الخلق ، ومُجانبة الرّيب ، والنَّسَبُ في العمل ، وحسن الأدب

نَهَيْهِمْ عَنِ سُوءِ الخُلُقِ

وقالوا : سوء الخُلُقِ يَنْسُدُ العملَ كما يُنْسُدُ الصَّيْرُ العسلَ « الصبر هو هذا
 الدواء المر ولا يسكن إلا في ضرورة الشعر » وفي الحديث : مَنْ سَاءَ
 خُلُقُهُ عَذَّبَ نَفْسَهُ ، وقال العتّابي :

وَكُنْتَ امْرَأً لَوْ شِئْتَ أَنْ تَبَاغَ الْمَنَى بَلَغْتَ بِأَذْنِي غَايَةَ تَسْتَدِيمِهَا
 وَلَكِنْ فِطَامُ النَّفْسِ أَثْقَلُ حَمِيلاً مِنْ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ حِينَ تَرُومُهَا
 وَقَالَ عِقَالُ بْنُ شَبَبَةَ: كُنْتُ رَدِيفَ أَبِي، فَلَقِيَهُ جَرِيرٌ عَلَى بَغْلٍ، خِيَاهُ
 أَبِي وَالطَّفَهُ، فَلَمَّا مَضَى قُلْتُ: أَبْعَدَ مَا نَالَ لَنَا مَا قَالَ! قَالَ: يَا بُنَيَّ، أَنَا رَسَعُ
 جُرْحِي ١. وقال ابن الحنفية: قد يُدْفَعُ بِاحْتِمَالِ مَكْرُوهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ...
 وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: إِنَّا لَنَسْكَشِرُ فِي وَجْهِهِ قَوْمٍ وَإِنْ قُلُوبُنَا لَتَقْلِيمٍ (١)
 وَقَالُوا: لَا مُدَارَاةَ لِلخُلُقِ السَّيِّئِ الْقَبِيحِ، كَالشَّجَرَةِ الْمُرَّةِ لَوْ طَلَيْتِ بِالْعَسَلِ
 لَمْ تُثْمَرَ إِلَّا مُرًّا، وَكَذَلِكَ الْكَلْبُ لَوْ أَدْخَلْتَهُ الْفَالْبَ سَنِينَ لَعَادَ إِلَى أَعْرَاجِهِ.
 وَمَنْ طُرِفَهُمْ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلَ بَعْضِهِمْ لِأَحْمَدَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ: لَقَدْ أُعْطِيتَ مَا لَمْ
 يُعْطَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَنَّنِي لَمْ تَخْرُجْ مِنْ ذَلِكَ لِأَضْرِبَكَ،
 فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ: وَلَوْ كُنْتَ فُظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَفْضُوا
 مِنْ حَوْلِكَ وَأَنْتَ فُظٌّ وَنَحْنُ لَا نَنْفُضُ مِنْ حَوْلِكَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: خَطَبْتُ
 امْرَأَةً، فَأَجَابَتْنِي فَقَالَتْ: إِنْ بِي الْخُتَّاقُ؛ فَقَالَتْ: أَسْوَأُ خُلُقًا مِنْكَ مِنْ يُلِجُّكَ
 إِلَى سُوءِ الْخُتَّاقِ... وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِرَجُلٍ بِي الْحَاقُ: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَغْيِرَ
 خُلُقَكَ وَإِلَّا فَلْيَسْعَكَ مِنْ أَخْلَاقِنَا مَا ضَاقَ بِهِ ذَرْعُكَ...

صعوبة تغيير الطباع والمتخاق يرجع إلى شيمته

قالوا في ذلك: تأتي الطباع على الناقل؛ و: العادة طبيعة ثانية، و:

ظَلَمْتُ امْرَأَةً كَلَّفْتَهُ غَيْرَ خُلُقِهِ وَهَلْ كَانَتْ الْأَخْلَاقُ إِلَّا غَرَارِزًا

و: كُلُّ إِنَاءٍ بِمَا فِيهِ يَرُشَّحُ

(١) نكشر في وجوه قوم: أي فبسم في وجوههم وأصل الكشر: بدو الاسنان

يكون ذلك في الضحك وغيره؛ وتقليم: نبغضهم

و : * إِنَّ الْخَلْقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ *

وقال ذو الإصبع العذواني :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ خِيَمِ نَفْسِهِ يَدْعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خِيَمُهَا

« الخيم : السجية والطبيعة والأصل » وقال زهير بن أبي سُلي :

وَهُمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تَعَلِّمُ

وقال أبو تمام :

وَالسِّيفُ مَالِمٌ يُلْفَ فِيهِ صَقِيلٌ مِنْ سِنِيخِهِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالِ

« السنخ : الأصل ، والصقال : الجلاء » وقال المتنبي :

وَكُلُّ يَرَى طُرُقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَلَكِنْ طَبَعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَائِدٌ

وقال :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَقَى أَكَانَ سَخَاءً مَا أُنِيَ أَمْ تَسَاخِيَا

مداراة الناس

قال النّظام^(١) : مَا يَسُرُّنِي تَرْكُ الْمُدَارَاةِ وَلِي حُمْرُ النَّعَمِ ، فَقِيلَ لَهُ : وَلِمَ ؟

قال : لِأَنَّ الْأَمْرَ إِذَا غَشِيكَ فَشَخَّصْتَ لَهُ أُرْدَاكَ ، وَإِذَا طَاطَأَتْ لَهُ

تَخَطَّأَكَ ... وقال شاعر :

وَأَنْزَلَنِي طُولُ النَّوَى دَارَ غُرْبَةٍ إِذَا شِئْتَ لَا قَيْتُ امْرَأَةَ الْأَشَاكِلَةِ

خَامَمَتُهُ حَتَّى يَقَالَ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلِ لَكُنْتُ أَعَاقِلُهُ

وقال بشار بن برد :

وَمَا أَنَا إِلَّا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَّأَ صَحَوْتُ وَإِنْ مَاقَ الزَّمَانُ أَمُوقُ

« ماق يموق موقا وموقا وُوقا واستماق ، كل أولئك : حُوق في

(١) هو إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ وأحد كبار المعتزلة .

غباوة، ويقال: فلان أحمق مائق: والعرب تقول: أنت تئق وأنا متق، أى أنت تمتلئ غضبا وأنا سيئ الخلق، فلا تئق، وقال معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه: لو كان بينى وبين الناس شجرة ما انقطعت، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها، وإذا أرسلوها جذبتها، وهكذا كان معاوية نبي الحلم والأناة والكياسة والرياسة والسياسة.

من حسن خلقه وخلقه ومن اختلف خلقه وخلقه

قال ابن الرومي:

كل الحلال التي فيكم محاسنكم تشابهت فيكم الأخلاق والخلق

كانكم شجر الأترج طاب معاً حملاً ونوراً وطاب العود والورق

« الأترج والشترج: ثمر من فصيلة الليمون ويسميه أهل الشام الكبداء،

والحل بفتح الحاء - والكسر لغة - ثمر الشجرة؛ ومن دقئق هذه اللغة الكريمة

أنها تفرق بين الحمل الذي يحمل على ظهر أو رأس، وبين الحمل الذي يحمل

في البطن من الأولاد في جميع الحيوانات، فالأول يكسرون حاءه، والآخر

يفتحون حاءه، قائلين: ما كان لازماً للشئ فهو حمل وما كان بائناً فهو حمل

وأما حمل الشجرة فلما كان شديداً بحمل المرأة لاتصاله فتحوا حاءه ولم يكن

يشبه حمل الشئ على الرأس لبروزه من جهة ولأنه ليس مستبطناً كحمل المرأة

من جهة أخرى كسروا حاءه؛ والنور بفتح النون: الزهر، وفي الأثر:

ما أحسن الله سخاق أحد وخلقه فأطعمه النار... ووصف بعضهم رجلاً فقال:

يقرى العين جمالا والأذن بيانا^(١)... وقال قتادة: ^(٢) ما بعث الله نبياً إلا حسن

(١) يقرى يريد: يطعم، ولك أن تضع مكان يقرى: يفترق، من قولهم في الحسناء إنما

تفترق العين أى لاتدعها تنظر إلى غيرها جمالا (٢) هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة

الخُلُقِ حَسَنَ الْوَجْهِ ... وقال الفلاسفة: قَلَّ صُورَةُ حَسَنَةٍ تَدْبَعُهَا نَفْسٌ رَدِيئَةٌ.
وقال جالينوس: ينبغي الرجل أن يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِهِ فِي الْمِرْآةِ، فَإِنْ كَانَ
حَسَنَ الْوَجْهِ جَعَلَ عَنَابَتَهُ أَنْ يُضَمَّ إِلَى جَمَالِ وَجْهِهِ كَمَا لَخُلُقِهِ وَكَمَا لِنَفْسِهِ،
وَإِنْ رَأَى صُورَةَ سَمِيحَةٍ تَحَرَّزَ مِنْ أَنْ يَكُونَ دَمِيمَ الْخُلُقِ ذَمِيمَ الْخُلُقِ ...
ونظر فيلسوف إلى غلام حَسَنِ الْوَجْهِ يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ فَقَالَ: أَحْسَنْتَ، إِذْ قَرَنْتَ
بِحُسْنِ خُلُقِكَ حُسْنَ خُلُقِكَ ... ونظر فيلسوف إلى رجل حسن الوجه خبيث
النفس فقال: بَيْتٌ حَسَنٌ وَفِيهِ سَاكِنٌ نَذَلٌ ... ورأى آخرُ شاباً جميلاً فقال:
سَلَبْتَ حَمَاسِينَ وَوَجْهَكَ فَمَنْ نَائِلَ نَفْسِكَ ... وقالوا:

فَلَا تَجْمَلِ الْحُسْنَ الدَّلِيلَ عَلَى الْفِتَى فَمَا كُلُّ مُصْقُولِ الْحَدِيدِ يَمَانِ
و: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْلُفُ طَعْمَهُ

وَإِنْ كَانَ لَوْنُ الْمَاءِ فِي الْعَيْنِ صَافِيًا ^(١)

واستعرض المأمون الجُندَ فَرَّ بِهِ رَجُلٌ دَمِيمٌ، فَاسْتَنْطَقَهُ، فَرَأَاهُ أَلْسَكَنَ،
فَأَمَرَ بِإِسْقَاطِهِ وَقَالَ: إِنْ أَرُوحَ إِذَا كَانَتْ ظَاهِرَةً كَانَتْ وَسَامَةً، وَإِذَا كَانَتْ بَاطِنَةً
كَانَتْ فَصَاحَةً، وَأَرَاهُ لَا ظَاهَرَ لَهُ وَلَا بَاطِنَ ...

«وبعد» فسيمرُّ بك كثير من عبقرياتهم فيما يتصل بهذه المعاني ويمتُّ إليها بسبب
واصل، في باب الطبائع ... وباب الصداقة والصديق ... وباب عبقرياتهم
في معاني شتى ...

التقوى

وهالك اللون الأخير من ألوان البرِّ، ولقد أسمعتك فيما أسلفنا أن التقوى

(١) الأكمة كان من كبار علماء التابعين ولد سنة ٦٠ وتوفي سنة ١١٨ هـ

(١) خلف الماء واللبن والطعام من باب دخل: إذا تغير طعمه أو ريحه

هي عماد البر وقوامه، على جميع ألوانه، أى أنه مادام هناك تقوى بمعناها الصحيح كان هناك صلّة الرّحم، وكان هناك الإحسان، وكان هناك مكارم الأخلاق، وكان هناك الخير كله والبر في جميع ما يشتمل عليه وينتظمه، ولنورد عليك بادئ ذى بدء قولهم في التقوى والمراد بها، ثم نردف ذلك بعقرياتهم في التقوى وما يتأشب إليها... ويجرى منها على عرق...

معنى التقوى

التقوى في اللغة من الاتقاء، بمعنى اتخاذ الوقاية، وفي اصطلاحهم: صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك، وقال أبو البقاء في كلياته: التقوى - على ما قاله على رضى الله عنه - ترك المعصية وترك الاعتراض بالطاعة، وهى التى يحصل بها الوقاية من النار والفوز بدار القرار، وغاية النقي البراءة من كل شىء سوى الله، ومبدؤها اتقاء الشرك، وأوسطها اتقاء الحرام، وغايتها منتهى الطاعات، قال: وقد تُسمى التقوى خوفاً وخشية... أقول:

فإن لا يَكُنْها أو تَكُنْه فإنه أخوها غَدَّتْهُ أُمُّهُ بِلَبانِها^(١)

وقد عقّد الإمام أبو حامد الغزالي للخوف كتاباً في كتابه الإحياء جاء فيه: إن التقوى والورع أسامٍ اشتقت من معانٍ شرطها الخوف، فإن خات من الخوف لم تُسمَ بهذه الأسماء... أقول: ومن أروع ما قيل في الخوف قوله تعالى: إنما يخشى الله من عباده العلماء... أقول: وإذن يكون: كلما ازداد المرء علماً بالله سبحانه ازداد منه خوفاً، كما جاء في الأثر: أعلمكم بالله أشدكم له

(١) لأبي الأسود الدؤلى فى نبيذ التمر، واللبن بكسر اللام، يقال: هو أخوه بلبان أمه ولا يقال بلبن أمه، إنما اللبن: الذى يشرب من ناقة أو شاة أو غيرهما من البهائم

خشية... ومن كان من العلماء لا يخشى الله ولا يرأبُهُ في سائر أحواله ، فليس من العلم بالله في كثير ولا قليل... وما أجل ما يقول عبد الله بن همام السلولي^(١) في وصف هذا الصنف من العلماء :

إِذَا نَقَبُوا لِلْقَوْلِ قَالُوا فَأَحْسَنُوا وَلَكِنْ حُسْنَ الْقَوْلِ خَالَفَهُ الْفِعْلُ
وَذُوُوا النَّاسِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا أَفَارِيقٌ حَتَّى مَا يَدِرُّ لَهَا تُعْلُ
« قوله : إذا نصبوا الخ يريد : إذا نصبوا أنفسهم للقول وأعدوها له ،
والأصل في النَّصَب : أن يقوم رافعاً رأسه ؛ ورضع يرضع كضرب يضرب
في لغة قيس ، وكسمع يسمع في لغة أهل الحجاز ، وقوله : يرضعونها : تقرأ

(١) من التابعين ، وعداده في أهل الكوفة ، وبيناه المذكوران من آيات له قالها
للنعمان بن بشير الأنصاري عامل معاوية على الكوفة ، وكان معاوية أمر لاهل
الكوفة بزيادة عشرة دنانير في أعطياتهم فأبى النعمان أن ينفذها لم فقال عبداه :

زِيَادَتُنَا نِعْمَانُ لَا تَحْمِرُنَنَا خِيفَ اللَّهُ فِينَا وَالْكِتَابَ الَّذِي تَتْلُو
فِيكَ قَدْ حُمِلَتْ مِنَّا أَمَانَةٌ بِمَا عَجَّزَتْ عَنْهُ الصَّلَاحَةُ الْبُزْلُ
وَإِنْ يَكُ بَابُ الشَّرِّ تُحْسِنُ فَتَحَهُ فَلَا يَكُ بَابُ الْخَيْرِ مِنْكَ لَهُ قُفْلُ
فَقَدْ زَلَّتْ سُلْطَانًا عَظِيمًا فَلَا يَكُنْ لِغَيْرِكَ حِمَاتُ النَّدَى وَاللَّكُ الْبُخْلُ
وَأَنْتَ أَمْرٌ حُلُوُ الْأَسَانِ بَلِيغُهُ فَمَا بَالُهُ عِنْدَ الزِّيَادَةِ لَا يَجْلُو
وَقَبْلَكَ قَدْ كَانُوا عَلَيْنَا أُمَّةً بِسُوءِهِمْ تَقْوِيمُنَا وَهُمْ عُصْلُ

والصلاخه : الصلاب المسانعة وفي الحديث : عرضت الامانة على الجبال الصم الصلاخيم
وأصل الصلخيم : البعير الجسم الشديد الماضي ، والبزل : جمع بازل ، ويقال رجل بازل
على التشبيه بالبعير ، يعنون بذلك كمال عقله وتجربته واستكمال قوته . وجات : كثيرات ،
وقوله : كانوا علينا أمة فائمة فاعل كانوا وهذا على لغة أكلوني البراغيث وإذا أرجعت
الضمير في كانوا إلى المذكورين في البيت الثاني فتكون أمة خبر كانوا ، وعصل : فالعصل
الاعوجاج وكل معوج فيه صلابه : أعصل .

بكسر الضاد وبفتحها؛ وأفارق جمع أفراق جمع فيقه بكسر الفاء ، وهو اسم
للبن الذي يجتمع بين الحلبتين ، يريد : أنهم يرضعونها ثم يتركونها مقدر
ما يجتمع اللبن فيرضعونها ، وهكذا ، والشعل بضم الشاء وفتحها : خِلف زائد
صغير من أخلاف الناقة وضرع الشاة لايدرُ من اللبن شيئاً ، يصفهُم بأنهم
أحرص الناس على طلب المال يستنزفونه من خزائنه حتى لم يبق منه شيء ،
وإنما ذكر النعل للبالغة في الارتضاع ، والشعل لايدرُ ، وهي مبالغة حسنة في
معنى الاستفصال والتفاد ،



ومما جاء في الخوف أيضاً قوله سبحانه : وأما من خاف مقام ربه ونهى
النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ، وقوله جل شأنه : وخافون إن
كنتم مؤمنين ، وقوله : وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، وقوله تعالى :
إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته
زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون
أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ؛
وقال عز وتقدس : واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه... قال سفيان بن
عيينة : لولم يُنزل الله تعالى علينا إلا هذه الآية لكان قد أعذر ، أعذر :
بلغ أقصى الغاية في العذر ، أى صار معذوراً عندك إذ حذرك أن لا تحذره
وهو يعلم ما في أنفسنا ؛ ومن هذا المثل : من أنذر فقد أعذر ،
ومما يؤثر في باب الخوف قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله .

الحكمة

وهذا الحديث الشريف - على وضوحه وجماله وإشراقه وإنارته، وعلى أنه مما كنا نستظهره إبانَ الحدائث، إذ يلقنونا إياه أوائل التعليم في المكاتب لا بدّ من التبسط في القول عليه . قال صاحب القاموس : الحكمة تأتي بمعنى العدل ^(١) والعلم ^(٢) والحلم ^(٣) والنُبُوَّة والقرآن والإنجيل ^(٤) ووضع الشيء في موضعه وصواب الأمر وسداده ، وقال أبو البقاء في كلياته - بعد أن أورد ما قال صاحب القاموس - : والحكمة في عرف العلماء : استكمال النفس الإنسانية ، باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة النامة على الأفعال الفاضلة قدرَ طاقتها ، قال : وقال بعضهم : الحكمة هي : معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة ، وهي العلم النافع المُعَبَّرُ عنه بمعرفة مالها وما عليها ، المُشار إليه بقوله تعالى : ومن يُؤت الحكمة فقد أُوتى خيرا كثيرا . وإنراطها التجرُّبة ^(٥) وهي استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالمتشابهات ^(٦) ، وعلى وجه لا ينبغي كمنخالفة

(١) ضد الجور ، فلا يميل بصاحبه الهوى حتى يجور في الحكم

(٢) أى العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها

(٣) هو ضبط النفس عندهيجان الغضب (٤) فالحكمة في قوله تعالى : ويعلمه الكتاب والحكمة وقوله : وآتاه الله الملك والحكمة وقوله : وآتيناها الحكمة : بمعنى النبوة والرسالة ، كما أنها تأتي بمعنى القرآن والإنجيل ، لتضمن كل منهما الحكمة في لونها - العلمية والعملية .

(٥) يقال في اللغة : رجلٌ جربز : خب خداع خبيث منكر والظاهر أن الجربزة

والجربز والقربز معزبات (٦) قال صاحب اللسان - بعد أن أورد كلاما كثيرا في

معنى المتشابه من القرآن وفي الحديث - في صفة القرآن : آمنوا بمتشابهه واعملوا بحكمه :

الشرائع؛ وتفرُّبُها: الخباوة التي هي: تعطيل القوة الفكرية والوقوف عن اكتساب العلم... انتهى .

«وبعد» إن المُسْتَقْصَى لكل ما أوردوه من معاني هذه الكلمة - الحكمة - يرجع إلى إحكام الشيء ، أي إتقانه ، كيلا يتسرب إليه خللٌ أو فسادٌ ، وكى يبلغ ذُرُوةَ الكمالِ جُهْدَ الاستطاعة ، حتى قيل لكل من يُحسن دقائق الصناعات ويُتقِنُها: حكيم ، ومن ثم يقال للعالم العامل بعلمه : حكيم ، والمرجل العاقل المُهْتَدِبُ المُوَفَّقُ : حكيم ، وللقاضي العادل في أحكامه : حكيم ، وللرجل المجرَّب الذي حنَّكته التجارب ووثَّقته حتى لا يصدر عنه إلا كلُّ ما هو سَدَادٌ : حكيم ، ويقال للمواعظ والأمثال التي ينتفع الناس بها : حكمة ، ولكل كلام نافع يمنع من الجهل والسَّفَه : حكمة ، ومن ذا تسمية القرآن والإنجيل وسائر الكتب المنزلة ، وكل ما يحدو على حدوها ، مما يتضمن مراعات وآداباً وأخلاقاً فاضلة : حكمة ، إذ كل أولئك يرتدُّ إلى معنى الإتقان والتوثيق والإصابة والسداد ... وإذن يكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : رأس الحكمة مخافة الله : أس الحكمة وقواها : الخرف منه سبحانه ، لأن الحكمة من شأنها أن تمتنع النفس عن كل ما نهينا عنه ، ولا يحدو المرء على العمل بها إلا الخوف منه ، عز وتقدس ، ومتى كان هذا الخوف شعارَه حاسب نفسه على كل خطرة ونظرة ولذة ؛ وبذلك تكون مخافة الله آكد أسباب النجاة ولا تتم الحكمة إلا بها ...



المتشابه : ما لم يتلق معناه من لفظه ، وهو على ضربين : أحدهما إذا رُدَّ إلى المحكم عرف معناه الآخر ، مالا سبيل إلى معرفة حقيقته ، فالمتنع له متنع للتمتة لأنه لا يكاد ينتهي إلى شيء تسكن نفسه إليه وراجع اللسان مادة شبه ،

هذا، ويُعجبنى من الشعر في باب الخوف من الله قول محمود النوراني^(١) :
 يَا نَاطِرًا يَرْنُو بَعِيْنِي رَافِدٍ وَمُشَاهِدًا لِأَمْرٍ غَيْرِ مُشَاهِدٍ^(٢)
 مَنِيْتَتَ نَفْسِكَ ضَلَّةً وَأَبْحَثَهَا طُرُقَ الرَّجَاءِ وَهَنَّ غَيْرُ قَوَاصِدٍ^(٣)
 تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي دَرَكَ الْجِنَانِ بِهَا وَفُوزَ الْعَابِدِ^(٤)
 وَنَسِيْتِ أَنْ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا مِنْهَا إِلَى الدُّنْيَا بِذَنْبٍ وَاحِدٍ

وقال الحسن البصرى : إن خوفك حتى تلقى الأمن ، خير من أمنك حتى تلقى الخوف ... وقال : ينبغي أن يكون الخوف أغلب على الرجاء ، فإن الرجاء إذا غلب الخوف فسد القلب ... وقال بعضهم : قلت لسفيان : بلغنى في قول الله تعالى : (إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) أنه الذى يلقى ربه وليس فيه أحد غيره ، فبكى وقال : مسمعت منذ ثلاثين سنة أحسن من هذا التفسير ... وقالوا : من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء ... وقال الفضيل بن عياض : إني لأستحي من الله أن أقول توكلت على الله ، ولو توكلت عليه حق التوكل ، ما خفت ولا رجوت غيره .

د وأما بعد ، فهو معلوم من الدين بالضرورة أن الله سبحانه خلق الإنسان وهو يعلم ما تؤسوس به نفسه ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد^(٥) ما يأنف من قول إلا لديه رقيب عتيد^(٦) ، وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين

(١) هو محمود بن الحسن الوزاق البغدادي مولى بنى زهرة يكنى أبا حسن ، شاعر كثير الشعر جيدة ، وواقته في الحكم والمواعظ والزهد ؛ ترجم له صاحب فوات الوفيات .

(٢) يرنو : ينظر (٣) غير قواصد ، يريد : وهى حائرة غير مستقيمة

(٤) درك : اسم من الإدراك

(٥) حبل الوريد : عرق في العنق (٦) عتيد : حاضر

يعلون ما تفعلون^(١) :

إِنْ مَنْ يَرْكَبُ الْفَوَاحِشَ سِرًّا حِينَ يَخْلُو بِسِرِّهِ غَيْرُ خَالٍ
كَيْفَ يَخْلُو وَعِنْدَهُ كَاتِبَاهُ شَاهِدَاهُ، وَرَبُّهُ ذُو الْجَلَالِ^(٢)

وكذلك هو معلوم ، أن الناس قَوَارِي الله في أرضه^(٣) ، أى أن الناس ولا سيما الصالحون منهم - سُهَوِدُ الله في أرضه - لأنهم يتَّبَعُ بعضهم أحوال بعض ، فإذا شَهِدُوا لإنسان بخير أو بِشِرٍّ فقد أَوْجَبَ^(٤) ... وبعبارة أخرى : إن على كلِّ إنسانٍ رُقْبَاءَ هُمْ لَهُ بِالْمِرْصَادِ ، يُزَوِّتُونَ عَلَيْهِ^(٥) ، وَيَجْعَلُونَ بِالْهَمِّ إِلَيْهِ ، ولا تكاد تخفى عليهم خَلِيقَةُ لَدَيْهِ :

وَهُمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ ، تَعْلَمُ
أَلَيْسَ فِي نَفْسِ كُلِّ إِنْسَانٍ قَبَسٌ مِنْ نَوْرِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ نَوْرُ السَّمَرَاتِ
وَالْأَرْضِ ؟ وَالنَّاسُ بِهَذَا النُّورِ - وَلا سِوَا الصَّالِحِينَ مِنْهُمْ ، أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَبْدُو
فِيهِمْ هَذَا النُّورُ خَالِصاً غَيْرَ شَوْبِ بَرِّينٍ وَطَبَعِ غَيْمٍ - يَرَوْنَ بَعْضُهُمْ مِنْ
بَعْضٍ مَا قَدْ يَتَوَقَّهَ الْجَاهِلُونَ أَنَّهُ لَا يُرَى ، فَكَأَنَّ النَّاسَ لِذَلِكَ سُهَوِدُ اللَّهِ فِي

(١) كل هذه آيات كريمة مقتبسة من القرآن الكريم (٢) هذان اليتان لنا بعة بنى شيان واسمه عبد الله بن المخارق بن سليمان ، شاعر بدوى كان يفد إلى ملوك بني أمية بالشام وأكثر من مدح منهم الوليد بن يزيد (٣) حديث شريف ، وقوارى : أخذ من أن الناس يقرون الناس ، أى يتبعونهم فيظرون إلى أعمالهم ، وقال الزخشرى : المسلمون قوارى الله فى الأرض ، أى أمناؤه وشهداؤه الميامين ، شبهوا بالقوارى من الطائر وهى الخضرة التى يتيمينون بها

(٤) يقال : أوجب الرجل : إذا عمل عملاً يوجب له الجنة أو النار ، والموجبة : الكلمة أو الفعلة توجب لقائلها الجنة أو النار

(٥) زناً عليه : إذا ضيق عليه ، وعامة المصريين يستعملون اليوم هذا الحرف بمعناه الصحيح

الأرض ، فإذا شهدوا لإنسان بخير أو بشر ، فلكل نفس ما كتبت وعليها ما كتبت ، وكلُّ مَجْرِيٍّ بعمله ، إن خيراً بخير وإن شراً فشر ، وهذا كله حنٌّ لاسبيل إلى الإلحاد فيه ... وشيء آخر ، وهو أن من كان شعاره خوف الله في السرِّ والعلن وحسنت سيرته ، رشداً وحسنت سيرته ، ومن عراه الله من هذا الشعار وساءت سيرته ، غيَّ وساءت سيرته . وجملته القول : أن خوف الله وما يستتبعه من قلة الأكثراث لما سواه من الخلق في سبيل الحق ، مما يورث صاحبه ما يطلقون عليه اليوم « الشجاعة الأدبية » فضلاً عن الجرأة والإقدام وسائر الخلال الكريمة النبيلة . فخرف الله كما ترى أس من أسس الأخلاق ، وهذا مصداق الحديث الشريف ، رأس الحكمة مخافة الله ، ...

هذا ، وقد يظنُّ ظان أن مخافة الله مغزاهما الخوف من عقابه والطمع في ثوابه ، فمن عمل صالحاً فـ«كفى» يثاب ويجزى الجزاء الأوفى ، ومن أتلف فلـ«كفى» ينجو من عذاب النار ، وهذا كالمسمى ، وإن عدَّ خوفاً ، بيد أنه أدنى درجات الخوف ، وهو خوف العامة وأشبه العامة . قال بعض الحكماء : إنى لأستحي من ربي أن أعبيده رجاء الجنة بأكون كالأجير ، أو خوف النار فأكون كعبيد السوء ، إن خاف عميل وإن لم يخف لم يعمل ، لكن يستخرج من حب ربي ما لا يستخرجه غيره .. وقال بعضهم : من عبد الله بعوض فهو لثيم . وقال بعض الصوفية : لو لم يكن لله ثواب يُرجى ولا عقاب يُخشى لكان أهلاً أن لا يعصى ، ويُذكر فلا يُذمى ، بلا رغب في ثواب ولا رهب من عقاب ، لكن لِحبه ، وهو أعلى الدرجات ، أما تسمع قول موسى عليه السلام : وَجَعَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِرَضَى ، أقول : . إذن فأفضل الأعمال . ما كان

للحقِّ والخير والجمال والمثل الأعلى في ذات الله العليّ الأندس الذي له
الاسماء الحسنى (١).

وَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الْجَمِيلَ لِأَنَّهُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ لِلْأَجْلِ ثَوَابِهَا (٢)
أما الثواب والعقاب فإله سبحانه وما يُعِدُّ لعبده من ذلك، وحقيق بالعبد أن
يُحسِن ظنه بربه ويرجو لديه رحمة التي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وليكن كما قال محمد بن
وهيب:

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظنِّ ما الله صانع
وسيمرُّ عليك تريبا طرْف من قولهم في الرجاء.
عقربياتهم في التقوى

ولناخذ الآن في عقربياتهم في التقوى: قال الله سبحانه: «إن أكرمكم عند
الله أتقاكم»، قال الإمام البيضاوي في تفسيره: فإن التقوى بها تكمل النفوس
وتفاضل الأشخاص، فمن أراد شرفاً فليلتزمه فيها، كما قال عليه الصلاة والسلام:
«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَقْوَامٌ فَلْيَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَغْنَى النَّاسِ فَلْيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ
بِمَا فِي يَدَيْهِ...» أقول: هذا كلامٌ علويٌّ معرَّق له في الصدق والحق والجمال
والمثل الأعلى.

(١) الحسنى: تأنيث الاحسن يقال: الاسم الاحسن والاسماء الحسنى. والاسماء
الحسنى معروفة وهي ٩٩ اسماً، انظر نهاية الأرب ج ٥ ص ٢٢٦، ومرادنا بقولنا
«الله الاسماء الحسنى»: الصفات، وهي الوحدانية والقدرة الى آخر مسميات هذه الاسماء
الحسنى... وقد جاء في القرآن الكريم: «الله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذنوب»
يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون» سورة الاعراف،
(٢) للمعري، وقد تقدم هذا البيت صدر باب البر والتقوى.

كَلِمَةٌ فِي التَّوَكُّلِ

« وبعده » فلتناسبة ذكر التوكل وإقترانه بالتقوى فيما أوردنا عليك من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وإشادة الإسلام به، والحث على أن يكون شعار المؤمن في كل أسبابه، رأينا أن نُنِيلَ به وبحقيقته إماماً . فنقول : التوكل : كلمة يراد بها أمران ، لا يُعَدُّ التوكل توكلًا على الحقيقة إلا إذا تحقَّقا معاً . فأما أول الأمرين فهو : الاعتقاد بأن الله عزَّ وتقدَّس هو وحده الذي بيده كلُّ شيء ، وأنه لا سواه الذي له مقاليد السموات والأرض ، وأنَّ جميع الخلق فقراء كلُّ الفقير إلى عونه سبحانه ، وأنه :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ اللَّهِ لَلْفَتَى فَأُولَ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ
وكل هذا مما لا يخفاء بأنه مما تقتضيه عقيدة التوحيد التي قام عليها الإسلام ؛
وأما الأمر الآخر فهو : أن لا يكون المرءُ وُكَلَّةً ، فلا يعتمد بعد الله إلا على نفسه ،
وهذا الأمر الثاني يكاد يكون ضَرْبَ قولهم اليوم « الاعتماد على النفس » أو
قول الطغرائي :

وَإِنَّمَا رَجُلٌ الدُّنْيَا وَوَأَحَدُهَا مَنْ لَا يُعَوَّلُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ
والشطر الأول ، يقتضى الاعتقادَ بالقَدَرِ خيره وشره ، والشطر الآخر
يقتضى السعى والاحتياط لأمره ، ولاننا فرَّ بينهما أَلْبَتَّةً ، وإنما هما ، لدى إتمام
النظر ، شيء واحد يُعَبَّرُ عنه بالتوكل ...

جاء رجل إلى سيدنا رسول الله فقال له : إني أرسلُ نَاقِي وأتوكل ؛ فقال صلوات
الله عليه : بل أعقلها وتوكل ... ومراً الشَّعْبِيَّ يابل قدفشا فيها الجرب ، فقال لصاحبها :
أَمَا تُدَاوِي إِبْلَكَ ؟ فقال : إن لنا مجوزاً نتكل على دعائها فقال : اجعل مع دعائها

شيئا من القَطْران ... وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر رضى الله عنه حين كرهه طواعين الشام ورجع إلى المدينة : أَتَفِرُّ من قَدَرِ الله ؟ قال : نعم ، إلى قدر الله ... فقال له أينفع الحَذْرُ من القَدَرِ ؟ فقال : لسنا مما هناك فى شيء « تأمل » إنَّ الله لا يأمر بما لا ينفَع ولا يَنْهَى عما لا يَضُرُّ « أَلَيْ بِالكِ » وقد قال تعالى : ولا تُلقُوا بأيديكم إلى التَّهْلُكَةِ ، وقال تعالى : خذوا حِذْرَكُمْ ... وفى كتاب كَلِيْلَة : لا يَمْنَعُ العاقلَ يَقِينُهُ بالقَدَرِ مِنَ تَوَقُّى الخَوْفِ ، بل ليجمع تصديقا بالقَدَرِ وأخذاً بالحَزْمِ ، وقال شاعر :

والمراء تَلْقَاهُ مِضْياعاً لِفُرْصَتِهِ حتى إذا فاتَ أمرٌ دابَّ القَدَرُ
وقال آخر :

إذا عُيروا قالوا مَقاديرٌ قَدَرْتُ وما العارُ إلا ما تَجسَّرُ المَقاديرُ
وقال آخر :

وأولُّ عَجْزِ انقِومٍ عَمَّا يَنوبُهُم تَدافُعُهُم عنه وطولُ التَّواكُلِ
وقالوا فى المثل : مِنَ العَجْزِ الإِحالَة على المَقاديرِ ...

وإليك ما قاله الإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى فى شرحه على صحيح البخارى المسمى فتح البارى ^(١) تأييداً لهذا الذى قلنا فى التوكل : والمراد بالتوكل : اعتقاد مادلت عليه الآية : وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، وليس المراد به ترك التَّسَبُّبِ ، والاعتماد على ما يأتى من المخلوقين ، لأن ذلك قد يجرُّ إلى ضِدِّ ما يُراد من التوكل ، وقد سُئِلَ أحمد - بن حنبل - عن رجلٍ جلس فى بيته أو فى المسجد وقال : لا أَعْمَلُ شيئاً حتى يأتينى رزقى ، فقال : هذا رجلٌ جَهِلٌ العِلْمِ « تأمل » فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله جعل رزقى تحت ظِلِّ رُجْحِي ،

وقال: لو توكلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يُرزق الطير تغدو خفافاً وتروح بطاناً^(١)، فذكر أنها تغدو وروح في طلب الرزق؛ قال: وكان الصحابة يتجرون ويعملون في نخلهم، والقُدوة بهم... انتهى. «وبعد، فإن التوكل كما ترى وعلى ضوء هذا الذي قلنا: أُس من أُسس الأخلاق، إذ أنه يَكسِبُ صاحبه الجُرأة والإقدام والشجاعة الأدبية، وأن لا يخشى في الحقّ لومة لائم، ويُنقِى عنه الجُبْنَ والتخاذل والخوف من الموت والجزع لدى نزول المصائب وما يجرى هذا المجرى؛ ويَكسِبُ صاحبه كذلك خُلُقَ الاعتماد على النفس وأن لا يتسكّل بعد الله إلا على نفسه. ومصدّق هذا كله قوله صلى الله عليه وسلم: من سرّه أن يكون أعزّ الناس فليكن بما في يدِ الله أوثق منه بما في يده، ومن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله».

عود إلى عبقرياتهم في التقوى

وقال سبحانه: ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً «مخرجاً: مخلصاً من مضائق الدهر، وقوله سبحانه: من حيث لا يحتسب، أى من وجه لا يخطر بباله ولا يقع في حسابه، وبالغ أمره: يبلغ ما يريد ولا يفوته مراد ولا يُعجزه مطلوب، وجعل لكل شيء قدراً: أى تقديراً وتوقيتاً، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقديره وتوقيته لم يبق إلا التسليم للقدر والتوكل، ولا معنى للسخط وعدم الرضا، وعنه صلى الله عليه وسلم: إني لأعلم

(١) أى تغدو بكرة وهى جياح وتروح عشاء وهى ممتلئة الاجواف.

آيةً لو أخذ الناس بها لكفّتهم: ومن يتق الله... الآية . وقال سبحانه: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون . «حق تقاته أي حق تقواه، وهو است فراغ الوضع في القيام بما أمر الله به واجتباب ما نهى الله عنه، ومثله: فاتقوا الله ما استطعتم، يريد: باليقوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع شيئاً، وعن عبد الله بن مسعود: هو أن يطاع فلا يعصى ويُشكر فلا يُكفر ويذكر فلا يُنسى، وقيل: هو أن تُنزّه الطاعات عن الالتفات إليها، وعن تَوْعع المجازاة عليها، وقيل: هو أن لا تأخذَه في الله لونه لائم وأن يقوم بالقسط - العدل - ولو على نفسه أو ابنه أو أبيه، وقال سبحانه: إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون «محسنون: أي في أعمالهم، من أحسن الشيء: أتقنه»... وقال بزرجهر: من قوی فليقو على طاعة الله، ومن ضُف فليضعف عن مصية الله... قال ابن المقفع: ليحرص البناء أن يزيدوا على هذه الكلمة - كلمة بزرجهر - حرفاً، «يريد: أنها كلمة جامعة، وقال عبد الملك بن مروان لنيه في مَرَضه: أوصيكم بتقوى الله، فإنها أزين حُلّة وأحسن كَهْف، فقال مسلمة بن عبد الملك - وكان حاضراً - وأترب إلى الصواب، وأنفع في الدآب: فقال عبد الملك: هاتان لا إلا وليان... والحلّة: كل ثوبٍ جديد، ولا يقال له حُلّة إلا إذا اجتمع معه ثوب آخر وعمامة والكهف: الملجأ، وأصله كالبيت المتقور في الجبل، وقال الخطيب:

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنِ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ

وتقوى الله خيرُ الرَادِ ذُخْرًا وعند الله للأنبيّ مزيدُ

وما لا بُدَّ أن يأتي : قَرِيبٌ وَلَكِنِ الَّذِي يَمْضِي بَعِيدٌ

وقال الأعشى في أبياته التي مدح بها سيدنا رسول الله :

أَجِدُّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيَّ الْإِلَهِ حَيْثُ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرَحَّلْ بَزَادٍ مِنَ الثُّنْيِ وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَد تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ مَكَانَهُ فَتُرْصِدَ لِلْمَوْتِ الَّذِي كَانَ أَرْصَدَا

« قوله : أجدك قال سيديويه : هو مصدر كأنه قل . أجداً منك ، ولكنه لا يستعمل إلا مضافاً ، وقال الأصمعي : أجدك ، معناه : أجد هذا منك ونصها بطرح الباء ، وقال الليث : من قال : أجدك بكسر الجيم فإنه يستحلفه بجده وحقيقته ، وإذا فتح الجيم استحلفه بجده ، وهو بجنه تقول : أجدك لاتفعل كرا ، وأجدك لاتفعل كذا . وأرصد : أعد ، وقال لبيد :

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفَلٌ وَيَأْذَنُ اللَّهُ رَبِّي وَعَجَلٌ
أَحْمَدُ اللَّهِ فَلَا نَدَّ لَهُ وَيَدِيهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلٌ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُّ

« الذنل : الغنيمة والجمع أنمال ، ثم قال لبيد : ويأذن الله وتسميله رَبِّي ، أي بطئي ، وعجل : أي سرعتي ، فحذف ياء الإضافة للوزن : يقول ، إن الحركة والسكون بيد الله ، ولا ندَّ له : لا مثل له ، ويديه الخير : أي بقدرته التي هي كالألة في أفعاله تعالى ، كاليد في أفعالنا ، وثنية اليد للبالغة في التشبيه ، وما شاء فعل : أي ما أَرَادَهُ فعله وبين ذلك بالبيت الثالث ، ... وقال أبو نؤاس :

أَخِي مَا بَالُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَنْتَقِي كَأَنَّكَ لَا تَنْظُنُّ الْمَوْتَ حَقًّا
أَلَا يَا بَنَ الَّذِينَ فُتُوا وَبَادُوا أَمَا وَاللَّهِ مَا ذَهَبُوا لِتَبْتِي
وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَحْظَى وَمَا أَحَدٌ بَزَادِكَ مِنْكَ أَشْقَى
وَلَا لَكَ غَيْرَ تَقْوَى اللَّهِ زَادٌ إِذَا جَعَلْتَ إِلَى الْآهْوَاتِ رَقِي

« جعلت : يريد النفس أو الروح وإن لم يتقدم لذلك ذكر ، واللّهوات جمع لهاة وهى : لحمه حمراء فى الحنك معاقمة على عكدة اللسان ، وقال أبو المتاهية :

أَطْعِ اللَّهَ بِجُهِدِكَ عَامِداً أَوْ دُونَ جُهِدِكَ
أَعْطِ مَوْلَاكَ كَمَا تَطْلُبُ مِنْ طَاعَةِ عَيْدِكَ

وقال بعض المتصوفة : من كان مع الله فقد هلك ، وإنما نجاح من كان الله معه ، وقال رجل للشبلى : متى يقربُ العبد من ربه ؟ فزعم ثم أنشد :

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْوَصَالِ أَهْلًا فَكَلِّ إِحْسَانِهِ ذُنُوبَ

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى ابنه عبد الله فى غيبة غابها : أما بعد ، فإنه من اتقى الله وآاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكره زاده ، ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى جلاء بصرك ، وعماد ظهرك ، فإنه لا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا حسنة له ، ولا جديد لمن لا خلق له ... « قوله : ومن شكره زاده : فسيمر عليك قريباً معنى الشكر ، وقوله : ومن أقرضه جزاه ، فالقرض فى الأصل : ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه ، ولما كان الله سبحانه لا يستقرض من عوز فقد قالوا فى مثل قوله تعالى : وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، و : من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له : إن القرض معناه الفعل الحسن من اتباع أمر الله وطاعته ، والعرب تقول لكل من فعل إليه خيراً : قد أحسنت قرضى وقد أقرضتني قرضاً حسناً ، وفى الحديث : أقرض من عرضك ليوم فقرك ... يقول صلوات الله عليه : إذا نال عرضك رجل فلا تجازه ، ولكن استبق أجره مؤمراً لك قرضاً فى ذمته لتأخذه منه يوم حاجتك إليه ، ... وقال عمر بن عبد العزيز : ليست التقوى قيام الليل ولا صيام النهار والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن التقوى ترك

عما حَرَّمَ اللهُ وأداء ما افترض اللهُ، فمن رُزق خيراً بعد ذلك فهو خيرٌ ... وقال رجل لحكيم: أَوْصِنِي، فقال: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تُسِيءَ إِلَى مَنْ يُحِبُّ فافْعَلْ، فقال: وهل يُسِيءُ المرءُ إِلَى مَنْ يُحِبُّ؟ قال: نعم؛ نَفْسِكَ إِنْ عَصَيْتَ اللهُ.

التقوى مع الجهل

قال الحسن البصري: أدركتُ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون: مَنْ عَمِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُهُ ... وقال أيضاً: قَصَمَ ظَهْرِي عَالِمٌ لِأَزْهَدَ مَعَهُ، وَزَاهَدٌ لِأَعْلَمَ مَعَهُ، هَذَا يَدْعُو إِلَى جَهْلِهِ بِزُهْدِهِ، وَهَذَا يُتَّقَرُّ عَنْ عِلْمِهِ بِحِرْصِهِ. وقيل لأنوشروان: أَى النَّاسِ أَوْلَاهُمْ بِالسَّعَادَةِ؟ فقال: أَقْلَهُمْ ذُنُوباً، قِيلَ: وَمَنْ أَقْلَهُمْ ذُنُوباً؟ قَالَ: أَكْمَلُهُمْ عَقْلاً ... وَسَيِّدَ الْكَلَامِ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ آتِياً. وَفِي الْأَثَرِ: يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قُرَاءَةُ فَسَقَةٍ وَعُبَادَةٌ جَهْلَةً، وَرَكْعَةٌ مِنْ عَالِمٍ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ رَكْعَةً مِنْ عَابِدٍ لِأَعْلَمَ مَعَهُ.

التماوت والإفراط في الخشوع

والأصل في هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لرجلٍ جَدَّ في العبادة حتى غارت عيناه: إِنْ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ رَبِّكَ، فَإِنَّ الْمُتَنَبِّتَ لِأَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى، وَلَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ... «متين: أى شديد، من متن تئانه: اشتد وقوى، قال تعالى: وَأُمَلِّ لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مُتِينٌ، وَقَوْلُهُ: فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ: أَى ادْخُلْ، وَأَصْلُ الْإِيغَالِ: الْإِمْعَانُ فِي السَّيْرِ وَالْإِبْعَادُ فِيهِ يَقُولُ: يَسِرُّ فِي الدِّينِ بِرَفْقٍ وَلَا تَحْمِلُ

على نفسك فنكفها مالا تطيق فتعجز وتترك الدمى ، والمنبت : الذى أتعب
 دَابَّتُهُ حَتَّى عَطِبَ ظَهْرُهُ فَبَقِيَ مُنْقَطِعاً بِهِ ، من الانبتات وهو الانقطاع ...
 ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً مُطَأْطِئاً رَأْسَهُ ، فقال له : ارفع
 رَأْسَكَ ، فإن الإسلام ليس بمريض ... ونظر يوماً إلى رجلٍ مُظْهِرِ النَّسْكِ
 مُتَمَامٍ ^(١) خَفَقَهُ بِالرِّدَّةِ وَقَالَ : لَا تُمِتْ عَلَيْنَا دِينَنَا أَمَا تَكُ اللَّهُ ... ونظرت
 السيدة عائشة رضى الله عنها إلى رجلٍ كَادِمٍ مَوْتٍ تَحَافُنًا ^(٢) فقالت : ما لهذا ؟
 فقالوا : أحدُ القُرَاءِ ، فقالت : قد كان عمر بن الخطاب سَيِّدَ القُرَاءِ ، فكان إذا
 قال أسمع ، وإذا شئى أَسْرَعَ ، وإذا ضرب أَوْجَعَ ... وقال صلى الله عليه وسلم :-
 إن الله بعثنى بالحنيفية السمحة ولم يبعثنى بالرهبانية ، فمن رغب عن سُنتى
 فليس منى ...

قوله اليقين فى الناس

قال الشعبي : لم يقسم الله بين الناس أقل من اليقين ... وقال ابن الرومى من
 همزيتة البارعة التى يعاتب فيها أبا القاسم الشطرنجى - ونذكر من أبياتها المختارة
 ما يصح أن يذكر هنا ، كما يصح أن يذكر فى باب القناعة قال :
 مرحباً بالكفافِ يأتى هيناً وعلى المتعبدات ذيلُ العفاء ^(٣)
 ضلّة لا مربي يُشمرُ فى الجُمعِ لعيشٍ مُشمرٍ للفناء ^(٤)

(١) المتماوت : الذى يظهر من نفسه الضعف من العبادة والزهد والصوم

(٢) التخافت : تكلم الخفوت ، وهو : الضعف والسكون

(٣) الكفاف من الرزق : القوت وما كفى عن الناس أى أغنى عنهم ، والمتعبدات :-

الأمور التى تعبد صاحبها فى تحصيلها ، والعفاء : الدروس واحياء الأثر

(٤) ضل من يكبد فى جمع المال لعيش يسرع فى الزواج

دَائِباً يَكُونُ الْقَنَاظِيرَ لِلْوَا رِثِ وَالْعُمُرُ دَائِبٌ فِي انْقِضَاءِ (١)
حَبْنَذَا كَثْرَةُ الْقَنَاظِيرِ لَوْكََا نَت لِرَبِّ السَّكُونِ كَمَنْزَ بَقَاءِ
إلى أن قال :

حَسْبُ ذِي إِرْبِيهِ وَرَأْيِي جَلِيَّ نَظَرْتُ عَيْنُهُ بِلَا غُلُوَاءِ (٢)
صِحَّةُ الدِّينِ وَالْجَوَارِيحِ وَالْعِرُّ ضِ وَإِحْرَازُ مُسْكِهِ الْحَوْبَاءِ (٣)
تِلْكَ خَيْرٌ لِعَارِفِ الْخَيْرِ مِمَّا يَجْمَعُ النَّاسُ مِنْ فُضُولِ الشَّرَاءِ
وَلَهَا مِنْ ذَوِي الْأَصَالَةِ عُشَا قُ وَلَيْسُوا بِتَابِعِي الْأَهْوَاءِ
لَيْسَ لِلْمُكْبِرِ الْمُنْعَصِ عَيْشُ إِنَّمَا عَيْشُ عَائِشٍ بِالْهِنَاءِ
إلى أن قال :

طُفِلْتُ حَاجَتِي فَلَاذَتْ بِحَقْوَرٍ يَكُ فَاسَلْتَهَا لِكَفِّ الْقَحْطَاءِ (٤)
وَقِضَاءُ الْإِلَهِ أَحْوِطٌ لِلنَّاسِ سِ مِنْ الْأَمَّهَاتِ وَالْآبَاءِ (٥)
غَيْرَ أَنْ الْيَقِينَ أَخْضَى مَرِيضاً مَرَضاً بَاطِئاً شَدِيدَ الْخَفَاءِ
مَا وَجَدْتُ أَمْرًا يُرَى أَنَّهُ يُؤْ قِنُ إِلَّا وَفِيهِ شَوْبُ أَمْتَرَاءِ (٦)
لَوْ يَصِحُّ الْيَقِينُ مَا رَعِبَ الرَّأ غِبُ إِلَّا إِلَى مَلِيكَ السَّمَاءِ
وَعَسِيرٌ بُلُوغٌ هَاتِيكَ جَدَا تِلْكَ عُيَا مَرَاتِبِ الْأَنْبِيَاءِ

- (١) دأباً من دأب في عمله : مضى فيه بجد وتعب ، ويكنز من باب ضرب ونصر :
يحرز الأموال ، والقناظير : يعني من الذهب والفضة وما إليهما
(٢) الإربة : الدهاء ، والغلواء : الغلوا (٣) أي والحصول على ما يمسك الأبدان
من الغذاء والشراب ، والحوباء : النفس (٤) لاذت : لجأت واحتضنت ، والحقو
بفتح الحاء وكسرهما : الإزار أو معقده يقول : فتعلقت بأهدابك أي التجات إليك
فسلتها وتركتها للفضاء (٥) أحوط : أعظم حفظاً وصيانة (٦) يقول : لم أجد
أحداً يظن أن عنده بقينا بالله إلا وفي نفسه شوب من الشك

وقال حكيم : من الدلالة على قلة اليقين ، أنك تخير يوماً عن خير الدنيا بالنسيئة : طمعاً في الربح ، طفيف ربح مع ما فيه من الخطر ، وتأبى أن تُقرض الله درهماً بثمانمائة ، مع زعمك وقولك إن مُستقرضه ملىء وفى هكذا وردت هذه الكلمة في محاضرات الأدباء ، ويظهر أنها إما محرقة وإما أنها معاطلة^(١) وهى على الرغم من ذلك تكاد تكون مفهومة ، فالظاهر أن قائلها يريد أن يقول : إن ما يدل على قلة اليقين أنك لو خيرت بين ربح كثير أجل نسيئة عند الله ، بأن تُقرضه مثلاً درهماً بثمانمائة ، وبين ربح طفيف عاجل في الدنيا قد حُف بالخطر ، لاخترت الثاني على الأول ، مع زعمك بأن من تقرضه - وهو الله عز وجل - مضطلع بمضاعفة القرض وتوفيتك حقك وإعطائك إياه وافياً ...

إصلاح الضمير

دخل حميد الطويل على سليمان بن علي وإلى البصرة فقال له : عطني ، فقال حميد : لئن كنت حين عصيت ربك ظننت أنه يراك فقد اجترأت على الله ، ولئن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت ... وقالوا : إذا فسدت التية وقعت البلية ، وقال رجل لسيدنا رسول الله : لقد سمعناك يارسول الله تقول : شيبتني هود^(٢) ، فما الذي شيبك منها ؟ قال : قوله تعالى : فاستقم كما أمرت ... ورووا أن السيد المسيح صلوات الله عليه قال : يارب ، من أشرف الناس ؟ قال : من إذا خلا علم أني ثانيه فأجل قدرى عن أن يظهرني على معاصيه ... ومراً

(١) معاطلة : أى عاظلها قائلها : أى عقدها عجزاً عن الإفصاح أو قصداً

(٢) هود : أى سورة هود وفيها يقول الله جل شأنه لسيدنا رسول الله : فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ، ولما كان العمل بمضمون هذه الآية الكريمة في غاية العسر قال سيدنا رسول الله : شيبتني هود

عمر رضى الله عنه بمملوك يرعى غنما، فقال: أتدبغنى منها شاة؟ قال: ليست لى، قال: فأين العِللُ؟ قال: فأين الله: فاشتراه عمر وأعتقه، فقال المملوك: اللهم قد رزقتنى العِتق الأصغر فارزقنى العِتق الأكبر، أعوذ بك من قلب غائب عنك... وقال السرى السقطى^(١): بتصحيح الضمائر تُغتفر الكبائر؛ وفي الأثر: تعرّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة « أى تعرّف إليه فى الرخاء بالشكر وذكّر الآلاء يعرفك فى الشدة بالعصمة... » وقال بعض المتصوفة: إن الله لا يشغله عنك شيء فإن استطعت أن لا يشغلك عنه شيء فافعل... »

احتمال المكاره فى العاجل رجاء المسارّ فى الآجل

ورمن جوامع الكلم فى ذلك قول سيدنا رسول الله: حُفَّتِ الجنة بالمكارة وحُفَّتِ النارُ بالشهواتِ « حُفَّتْ: أحيطت، والمكارة جمع مكرّدة وهى: ما يكرهه المرء ويشق عليه، والشهوات: كل ما يوافق النفس وتصبو إليه. قال الإمام القرطبى: أصل الحَفّ: الدائر بالشىء المحيط به الذى لا يتوصّل إليه إلا بعد أن يُتخطى، فمثل المصطفى المكارة والشهواتِ بذاك، فالجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكارة والصبر عليها، والنار لا يُتجنى منها إلا بقطم النفس عن مطلوباتها، وقال ابن حجر: هذا من جوامع كلم المصطفى وبديع بلاغته فى ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس، والحث على الطاعات وإن كرهتها وشقت عليها « ولما تاب بعض الصوفية كان لا يتهمّأ بطعام ولا شراب فقالت له أمه: أرفق بنفسك، فقال: الرّيق أطلب لها... وهذا كقول الربيع بن خثيم وقد صلى طول ليلته حتى أصبح وقال له رجل: أتعبت نفسك فقال: راحتها أطلب... »

(١) أحد رجال الطريقة وخال أبى القاسم الجنيد، ترجم له ابن خلكان

ومثل هذا - وإن كان من بآية أخرى - قول العباس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبَ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا^(١)

وقول الآخر :

تَقُولُ سُلَيْمَى لَوْ أَقَّتْ بِأَرْضِنَا وَلَمْ تَدْرِ أَنِي لِلْمَقَامِ أَطُوفُ

مرعاة الدين والدنيا معاً

قال تعالى : وَلَا تَدَسَّ نَصِيْبِكَ مِنَ الدُّنْيَا ... وقال سيدنا رسول الله : ليس بخيركم من ترك دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، وَلَا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ ، حَتَّى يُصِيبَ مِنْهُمَا جَمِيعًا ، فَإِنَّ الدُّنْيَا بِلَاغٍ إِلَى الْآخِرَةِ ، وَلَا تَكُونُوا كَلَاءً عَلَى النَّاسِ ... « كَلَاءٌ : عِيَالًا وَثِقَلًا » ، وكان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس يقول : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى الدُّنْيَا بِالْغَنَى ، وَعَلَى الْآخِرَةِ بِالتَّقْوَى . وقال مروان بن أبي حفصة لعمارة بن حمزة^(٢) : أَنْشَدْتُ الْمَأْمُونَ قَوْلِي :

أَنْحَى إِمَامُ الْهُدَى الْمَأْمُونَ مُشْتَعِلًا بِالْدِّينِ وَالنَّاسِ بِالدُّنْيَا مَشَاغِلُ
فَلَمْ يَهْتَمَّ لِذَلِكَ إِفْقَالِ عِمَارَةٍ : مَا زِدْتَ عَلَى أَنْ صَيْرْتَهُ عَجُوزًا مُعْتَكِفَةً فِي مِحْرَابِهَا ،

(١) كنى بالجوهر عن السرور ... وللنقاد في هذه الكناية كلام حسن انظره إذا

شدت في شرحنا على النخيص

(٢) شخصية ضخمة ، كان أديبا وكان كاتباً وكان جواداً كريماً وكان من سروات الناس وكان تياها معجباً معتاداً بنفسه وكان في زمن السفاح والمنصور وبقى الى زمن المأمون وتولى الولايات العظيمة في أيامهم وكان من شدة اعتداده بنفسه إذا أخطأ يمضى على خطائه ويأنف من الرجوع ويقول : نقض أبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ، انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت وهي زاخرة بكل ما يطرب ويعجب من سيرة هذا عمارة بن حمزة ،

فَمَنْ لَأَمُورِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلًا قَلتَ كَمَا قَالَ جَرِيرٌ :

فَلَا هُوَ فِي الدُّنْيَا مُضِيعٌ نَصِيْبُهُ

وَلَا غَرَضٌ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ شَاغِلُهُ !

والمشهور في هذا المعنى قول الفاروق رضي الله عنه : أَعْمَلْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ

أَبَدًا وَأَعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا... وقال الشاعر :

وَلِلَّهِ مِنِّي جَانِبٌ لِأَضْيَعُهُ وَلِلَّهِ مِنِّي وَالْخَلَاةُ جَانِبٌ

وسيمر بك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى، في مواضع أخرى من

هذا الكتاب .

الرجاء والجمع بينه وبين الخوف من الله

قال تعالى : فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ : يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، وقال حكيم :

أَرْجُ إِذَا خِفْتُ وَخَفْتُ إِذَا رَجَوْتُ ، وَكُنْ كَالْمَرْأَةِ الْحَامِلِ لَيْسَ رَجَاؤُهَا أَنْ تَلِدَ

وَلِدَاءُ ذِكْرًا بِأَكْثَرِ مِنْ خَوْفِهَا أَنْ تَلِدَ أَثْمًا . وقريب من هذا قول رجل لابنه :

خَفِ اللهُ خَوْفًا لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الرَّجَاءِ ، وَارْجُهُ رَجَاءً لَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخَوْفِ ، فإلْمؤمن

بِه قَلْبَانِ : يَرْجُوهُ أَحَدُهُمَا وَيَخَافُ ، الْآخَرُ وَقَالَ :

أَنَا بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ وَاقِفٌ بَيْنَ وَعْدِهِ وَالْوَعْدِ

وقال أبو نُوَاسٍ :

لَا تَحْظُرُ الْعَفْوُ إِن كُنْتَ أَمْرًا أَحْرَجًا فَإِنِ حَظَرَكَ بِالْدِينِ إِزْرَاءُ

وقال أيضا :

يَا كَثِيرَ الذَّنْبِ عَفْوِ اللهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْثَرُ

وقال :

تَبَسَّطْنَا عَلَى الْآثَامِ لَمَّا رَأَيْنَا الْعَفْوَ مِنْ مُمْرِ الذَّنُوبِ

وقال :

تَكْتُمُوا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنَ الْخَطَايَا فَإِنَّكَ بِالِسَّخْرِ رَبًّا غَفُورًا
سَتُبْصِرُ إِنْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ عَفْوًا وَتَلْقَى سَيِّدًا مَلِكًا كَبِيرًا
تَعُوضُ نَدَامَةً كَقَفِيكَ مِمَّا تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّارِ السُّرُورًا

وفي الأثر : مَا أَحْبَبَ أَنْ لِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ
أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ
هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ... وقال ابن عباس لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما :
أى آية أَرْجَى ؟ قال : إن الله لا يغفر أن يَشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ ، فقال : إن هذه لِمَرْجُوءَةٌ ، وَأَرْجَى مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّ اللَّهَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ
عَلَى ظُلْمِهِمْ ... وقال أعرابي لابن عباس : مَنْ يَحْسَبُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قال :
يَحْسَبُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى قُلُوبًا نَجُونًا وَرَبَّ الْكَعْبَةِ ، فقال : كَيْفَ ! قال : إِنْ
الْكَرِيمُ إِذَا قَدَرَ غَفَرَ ... وسمع أعرابيُّ عبدَ الله بن عباس يقرأ قول الله
تعالى : وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، فقال : وَاللَّهِ مَا أَنْقَذَنَا مِنْهَا
وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يُبَلِّغَنَا فِيهَا ! فقال ابن عباس : خذوه من غير قبيح ...

العبادة لاطلبا للثواب ولا خوفا من العقاب

وقد تقدم لنا آثافا قول في ذلك وتزيد فذور دطر فانا من عبقر باتهم في هذا
المعنى : قال الشَّيْبَلِيُّ : مَنْ عَبَدَهُ رَجَاءَ الْجَنَّةِ فَهُوَ عَبْدُهَا ، أَوْ خَوْفَ النَّارِ ، فَهُوَ
عَبْدُهَا ، لِأَنَّ مَنْ خَافَ شَيْئًا أَوْ رَجَاهُ فَهُوَ مَعْبُودُهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَنْ عَبَدَ

الله بَعْوِضٍ فَهُوَ لَيْثِيمٌ ، وَقَالَ آخِرُ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّي أَعْبُدُكَ خَوْفًا مِنْ نَارِكَ فَأَحْرِقْنِي ، أَوْ طَمَعًا فِي جَنَّتِكَ فَأَحْرِقْنِيهَا ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّي أَعْبُدُكَ حُبًّا لَكَ وَشَوْقًا إِلَى لِقَائِكَ فَأَجْنِبْنِيهِ ... وَقِيلَ لِرَابِعَةِ الْعَدُوِيَّةِ : مَا لَكَ لِاتِّسَالِينِ اللَّهُ الْجَنَّةَ فِي دُعَائِكَ ؟ فَقَالَتْ : الْجَارُ ثُمَّ الدَّارُ ... « تَعْنِي بِالْجَارِ : ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وَقَدْ أوردنا بيتَ المَعْرَى :

ولتفعل النفسُ الجميلَ لآلِهه خَيْرٌ وأحسنُ لآلِجَلِ ثوابها

غير مرة فيما أسلفنا، وقال بعضهم في قوله صلى الله عليه وسلم : أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَهُ ، قال : لآلِههم فِي شُغْلِ فَكَيْهون ، شَغَلَهُمُ النَّعِيمُ عَنِ الْمُنْعَمِ ، وَهَنَ رِضَى بِالْجَنَّةِ عَنِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْلَه . أقول : حديث : أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلَهُ : حديث ضعيف « انظر شرح الجامع الصغير للناوي » وعلى أنه ضعيف فقد أولوه تأريلاً حسناً : فقال الأزهري : الأبله : الذي طبع على الخير ، فهو غافلٌ عن الشرِّ لا يعرفه - أقول : أو يعرفه ولكن يتجنبه - وقال النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ : الأبله : الميتُ الداءُ ، أى أن شره ميت لا ينبته له . والمرأة باهاء ، قال الشاعر :

ولقد هَوَتْ بِطِفْلةٍ مَيَّالَةٍ بِلَهَاءِ تُطْلِعُنِي عَلَى أَسْرَارِهَا

أراد : أنها غر لا دهاء لها فهي تخبرني بأسرارها ولا تفطن لما في ذلك عليها . وقال الزبير قان بن بدر : خيرُ أولادنا الأبلهُ المقول ، يعنى : أنه لشدَّةِ حياته كالأبله وهو عقول «مبالغة من العقل» وقال الزمخشري في صفة الصُّلَحَاءِ : هَيِّنُونَ كَيْنُونَ ، غير أن لاهوادة في الحق ولا دهانة ، بُلَهٌ ، غَوْضُهُمْ عَلَى الْحَقَائِقِ يَعْمُرُ الْآلِبَابَ وَالْأَذْهَانَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ أَعْمَلُوا أَمْرَ دُنْيَاهُمْ فَجَهِلُوا حِذْقَ التَّصَرُّفِ فِيهَا فَأَقْبَلُوا عَلَى آخِرَتِهِمْ فَشَغِلُوا بِهَا فَاسْتَحَقُّوا أَنْ يَكُونُوا أَكْثَرَ أَهْلِهَا ،

الرياء

الرياء : ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه ؛ ومن عقوباتهم فيه : قال سيدنا رسول الله : إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية . وقالوا : أعظم الرياء حب المَحَمَّدة . وقالوا إذا عمل الرجل العمل وكتمه وأحب إعلام الناس أنه كتمه ، فذلك أقيح الرياء ، وقال أبو نواس :

وإذا تزعت عن الغواية فليكن لله ذلك النزغ لالناس
وقال لقمان لابنه : اتق الله ولا تُرى الناس أنك تخشاه ليُكرِموك ...
وقال بعضهم : كان الناس يُراؤن بما يفعلون فصاروا يُراؤن بما لا يفعلون .
وقالوا : ما الدخان بأدلّ على النار من ظاهر أمر الرجل على باطنه ... وقالوا
في وصف المرأى : له سمّتُ أبي ذرّ على قلب أبي جهل ^(٢) وقال صلى الله
عليه وسلم فيمن تنسك طمعا في عرض الدنيا : أكثرُ منافقِي هذه الأمة
قراؤها قال ابن الأثير : أي أنهم يحفظون القرآن نفيًا للآئمة عن أنفسهم
وهم مُعتقدون تضييعه ^(٣) ، وكان المنافقون في عصر النبي بهذه الصفة . وقال

(١) إذا أردت التوسع في القول على الرياء وحقيقته وأنواعه وعلاجه فمليك بإحياء علوم الدين للغزالي

(٢) أبو ذر الغفاري هو الصحابي الخليل الزاهد الورع الصادق للهجة الذي قال فيه سيدنا رسول الله : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء . أصدق لهجة من أبي ذرّ وقال فيه سيدنا علي : أبو ذرّ وعاء مليّ علمًا ثم أوكى عليه ، أوكى عليه أي شدّ بالوكا . وهو الخيط يشد به فم القربة ، توفي سنة ٣١ هـ أما أبو جهل فهو عمرو بن هشام أعدى أعداء سيدنا رسول الله قتل في غزوة بدر (٣) أي مضمرون عدم العمل به

الزخشرى : أراد بالنفاق الرياء ، لأن كلا منهما إرادة مافی الظاهر خلاف مافی الباطن . وقال الغزالي : آخذ من خصال القراء الأربعة : الأمل والعجلة والكبر والحسد ، قال : وهي عللٌ تعترى سائر الناس عموماً والقراء خصوصاً ، ترى القارئ يطول الأمل فيوقعه في الكسل ، وراه يستعجل الخير فيقطع عنه ، وراه يحسد نظراءه على ما آتاهم الله من فضله فر بما يباغ به مبالغاً يحمله على فضائح وقبايح لا يُقدِّم عليها فاسق ولا فاجر . وقال الفضيل بن عياض لابنه : اشترُوا داراً بعيدة عن القراء ، مالى والقوم إن ظهرت مني زلة تملونى ، وإن ظهرت على حسنة حسدونى ، ولذلك ترى الواحد منهم يتكبر على الناس ويستخف بهم مُعَبِّساً وجهه كأنما يمنُّ على الناس بما يُصَلِّي زيادة ركعتين ، أو كأنما جاءه من الله منشورٌ بالجنة والبراءة من النار ، أو كأنه استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس ، ثم دو مع ذلك يلبس لباس المتواضعين ويتماوت ، وهذا لا يليق بالكبر والترفع ولا يلائمه لكن الأعمى لا يُبصر ... أقول : كل ما قالوه فى القراء مما يصح أن يقال فى علماء الدين وفى المُتَسَكِّين ، لأنه يقال تقرأ فلان أى تَعَمَّق ، ويقال : تقرأ : أى تَسَكُّ ، قال زيد بن تركي الزبيدي ، وقال القراء : أنشدنى أبو صدقة الديبى :

ولقد عَجِبْتُ لكَاعِبٍ مَوْدُونَةٍ أطرافها بالحنلى والحناء
بيضاء تضطاد القوي وتَسْتَبِي بالحسن قلب المسلم القراء

« مودونة : مُلَيَّنَةٌ وأطرافها نائب فاعل مودونة ، ورووا أن بلال بن أبى بردة وفد على عمر بن عبد العزيز فجعل يُدِيمُ الصلاة فقال عمر : ذلك التصنع ، فقال له العلاء : أنا آتيتك بخبره ، فجاءه وهو يُصَلِّي فقال له : مالى عندك إن بعثت أمير المؤمنين على توليتك العراق ؟ قال عمالتي سنة أى وظيفتى ومُرَّتْ بى - وكان مبلغه عشرين

ألف درهم ، فقال : اكتبْ به خَطَّكَ ، فكتب إليه ، لجاء الملاء إلى عمر فأخبره ،
فقال : أراد أن يُغرِّنا بالله ... ودخل على أبي جعفر المنصور رجلٌ بين عينيهِ
كركبة البعير - وذلك يكون من أثر السجود - يريد القضاء ، فقال المنصور :
إن كنت أبررت الله بهذا فما ينبغي أن تشعلك عنه ، وإن كنت أردت خداعتنا
فما ينبغي أن نتمدِّع لك . وقال شاعر :

لا تصحَّ - بن صحابة حلقوا الشوارب للطعم
يكي وجلسُ بكانه ما للفريسة لا تقع

وقال آخر :

عمرَّوا ووضِعَ التصحُّحُ منهمُ ومكانُ الصلاحِ منهم خرابٌ
ويروى هذا البيت على وجه آخر ...

وروا أن بعض الناس كان يدعُ زكاته من الفقير ويسترجعها منه بدرهم أو
درهمين . ويروى أغربُ من ذلك وأقعدُ في باب الجليل الشرعية المحرمة ، وذلك
أن أحد مشيختنا الذين تولوا مشيخة الإسلام والإفتاء في الجليل الغابر بمصر
- وكان غنياً ثرياً - كان يحتال في زكاة المال بأن يضع قيمة ما يجب عليه أن يزكاه
عن ماله في العياب ، الزكائب ، المملوءة قبحاً ثم يفهم الفقراء أن هذه هي زكاتهم
ثم يشتريها منهم بثمانٍ مُغرٍ ، وبذلك يظن أنه قد قام بفرضة الزكاة ويخادعون
الله وهو خادعهم ،

التوبة

التَّوبَةُ : الرجوع عن الذنب ، يقال : تاب إلى الله يتوبُ توبةً وتوباً وتتاباً :
أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة ، وتاب الله عليه : وقفه إلى التوبة أو

عاد عليه بالمغفرة ، وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : التوبة على أربعة دعائم : أستغفار باللسان ونية بالقلب وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود .
 وفي الحديث : من تاب قبل موته بفواقٍ ناقة حرم الله وجهه على النار .
 « الفواق : أن يُحَاب الناقة ثم تُنرِكَ لحظة يرَضِعُها الفصيل لتدِرَ ثم تحلب »
 وقال عز وجل : يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً . التوبة النصوح : الخالصة التي لا يعاود بعدها الذنب ، وقال تعالى : إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموتُ قال إني تبتُ الآن . يقول سبحانه : إنما قبول التوبة كالمحتوم على الله لمن أذنب بجهالة وسفه . فإن ارتكاب الذنب سَفَهٌ وتجاهل ، ومن ثم قيل : من عصى الله فهو جاهلٌ حتى ينزع عن جهالة . ثم يتوبون قبل الموت قال عليه السلام : إن الله يقبل توبة عبده ما لم يُغرغر ، قال المفسرون : وسماه قريباً لأن أمد الحياة قريب ، أو قبل أن يُشرب في قلوبهم حُبّه فيتعدّر عليهم الرجوع ،

المبادرة إلى التوبة

وقد حثوا مع ذلك على المبادرة بالتوبة والإفلاع عن المعاصي فرووا أنه قيل لرجل : أَوْص ، فقال : أَحذِرْكُمْ ، وسوف ، وقال شاعر :

والمرءُ مُرْتَمَنٌ بِسَوْفٍ وَلَيْمَتِي . وهلاكه في سَوْفِهِ وَاللَيْتِ

وقال آخر :

أَسَوْفُ تَوْبَتِي خَمْسِينَ عَامًا . وَظَنِّي أَنِّ مِثْلِي لَا يَتُوبُ

وقال بعضهم : نحن لانزيد أن نموت حتى نتوب ولا نتوب حتى نموت ...
وقال بعضهم لرجل : عِظِي ، فقال : قد قَطَعْتَ عَامَةَ سَفَرِكَ ، فإن استطعت
ألا تَضِلَّ في آخره فافعل ... وقال مُصْعَب بن الزبير : ادفع سَطْوَةَ اللَّهِ
بسرعة التَّزْوُع ، وحسن الرجوع ، فَيُوشِكُ أن المُنَايَا تَسْمِقُ الوصايا ، وقالوا في
قوله تعالى : بل يُريد الإنسان لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : يُكْثِرُ الذنوب ويؤخر التوبة
أو يُسَوِّف بالتوبة ويقدم الأعمال السيئة ، وقال مُورِّج السدوسي ^(١) : فَجَرَ :
إذا ركب رأسه ، فمضى غير مُكْتَثِرٍ ، وقوله : لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : لِيَمِضَ أَمَامَهُ رَاكِبًا
رَأْسَهُ ... وقال سيدنا رسول الله لرجل وهو يَعِظُهُ : اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ :
حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَفَرَاعَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَشَبَابَكَ
قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ . « اغتَمِ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ : اغتَمِ مَا تَأْتِي
نَفَعَهُ ، وَثَوَابَهُ بَعْدَ مَوْتِكَ . وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ : اغتَمِ الْعَمَلَ حَالِ الصَّحَّةِ
فَقَدْ يَمْنَعُ مَانِعَ كَالْمَرَضِ فَيُنْقَدِمُ بِهِ زَادُ . وَفَرَاعَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ : اغتَمِ فَرَاعَكَ
فِي هَذِهِ الدَّارِ قَبْلَ شُغْلِكَ بِأَهْوَالِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، أَيْ اغتَمِ فُرْصَةَ الْإِمْكَانِ
لِعَالِكَ تَسْلَمَ مِنَ الْهَوَانِ . وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ : اغتَمِ الطَّاعَةَ وَفِعْلَ الْخَيْرِ حَالِ
قُدْرَتِكَ قَبْلَ هَيْجُومِ عِجْزِ الْكِبَرِ عَلَيْكَ فَتَنْتَدِمَ عَلَى مَا فَرَّطْتَ فِي جَنْبِ اللَّهِ .
وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ : اغتَمِ الْإِحْسَانَ وَالتَّصَدُقَ بِفَضُولِ مَالِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ
جَائِحَةٌ تُفْقِرُكَ . وَلكَ أَنْ تَقُولَ : إن هَذِهِ الوصية الكريمة مَمْزَاها عَامٌّ شَامِلٌ
يراد بها المبادرة إلى العمل وانتهاز الفُرْصِ قَبْلَ فَوَاتِهَا ، وقال الشاعر .

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزْرَعْ وَأَبْصُرْتَ حَاصِدًا نَدَيْتَ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ الْبَدْرِ
وقال أبو العتاهية :

فَواعِبًا كَيْفَ يُعْصَى الْمَلِيكَ أَمْ كَيْفَ يَجْتَدُهُ الْجَاهِدُ

(١) نحوى بصرى ، أخذ عن الخليل ؛ توفي هو وأبو نواس في يوم واحد سنة ١٩٥

وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكِهٖ وَتَسْكِينَةٍ فِي الْوَرَى شَاهِدٌ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهٗ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وقال الآخر:

تَرَجُّو النَّاجَةَ وَلَمْ تَسْأَلْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَدَيْنِ
وجاء حبيب بن الحارث إلى سيدنا رسول الله فقال: إني مُقَارِفٌ للذنوب،
فقال: تُبُّ، فقال: إني أتوب ثم أعود، فقال: كلما أذنبت ذنباً قُتِبْتُ، فَمَقُوفٌ
الله أكبر من ذنوبك. وفي الحديث: إن الرجل لِيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ،
فَقِيلَ: وَكَيْفَ يَرْسُولُ اللهُ؟ قال: يَكُونُ نُصَبَ عَيْنِهِ خَائِفاً مِنْهُ حَتَّى يَدْخُلَ
الْجَنَّةَ... واجتمع ثلاثة من الحكماء عند كِسْرَى فتذاكروا في شَرِّ الْأَشْيَاءِ فقال
أحدهم: الهمُّ يَقْتَرِنُ بِالْمُدْمِ - الْفَقْرُ - وقال الثاني: سَقَمُ الْبَدَنِ وَدَوَامُ الْحُزَنِ،
وقال الثالث: دُنُوُّ أَجَلٍ وَسُوءُ عَمَلٍ... فَخُحِّمُوا لِهَذَا... ودعا بعض الصالحين
فقال: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ وُقُوعِ الْعَنِيَّةِ وَلِمَا أَبْغَى الْأُمْنِيَّةِ... وقال حكيم:
الْأَيَّامُ صَحَائِفُ أَجَالِكُمْ فَأَوْدِعُوهَا أَجَلَ أَفْعَالِكُمْ... وقال علي بن الحسين رضي الله
عنهما: عَجِبْتُ لِمَنْ يَحْتَمِي عَنِ الطَّعَامِ لَمْ يَضُرَّهٖ وَلَا يَحْتَمِي عَنِ الذَّنْبِ لَمْ يَمُرَّهٖ!
وقال بعضهم حضرت مجلس الشُّبْلِيِّ^(١) فقام إليه رجل من أصحابه وقال له:
أَوْصِنِي، فقال له: لقد أوصاك الشاعر بقوله:

قَالُوا تَوَقَّ دِيَارَ الْحَيِّ إِنْ لَمْ يَمُتْ
عَيْنًا عَلَيْكَ إِذَا مَا نِمْتَ لَمْ تَمُتْ

(١) الشبلي - وقد تكرر ذكره في هذا الكتاب - هو أبو بكر دلف بن جحدر، والشبلي:
نسبة إلى شبلة، بلدة من بلاد ما وراء النهر - سمرقند وبخارى وما إليها - كان في مبدأ
أمره واليا لإحدى الولايات ثم تاب وتصفى وبلغ المباحث في ذلك، كان جليل القدر
مالكي المذهب وصحب الشيخ أبا القاسم الجنيد ومن في عصره من الصالحين توفي سنة
٣٣٤ هـ ببغداد وعمره سبع وثمانون سنة

وقال يحيى بن معاذ : اجتناب السيئات أشد من اكتساب الحسنات ...
وسمع الحسن البصريُّ رجلاً يقول : اللهم اجعلنا منك على حذر ، فقال : إنه فعَل
ذلك ، أليس قد سترَ عنك أجلك ، فليستَ من حياةٍ ساعةٍ على يقين !

الاستغفار

قال علي بن أبي طالب : العَجْبُ لمن يَقْطُطْ ومعه النجاة : الاستغفار ... وقالوا
لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . وقال حكيم : أيها السلاطين ،
لا بدَّ لكم من المعاصي الكبار فافعلوا بإزائها طاعاتٍ عظيمةً ، أيها الأوساط ،
يُمْسِكُكم الطاعات العظيمة ، كالمصالح التي لا يَقْدِرُ عليها إلا الساطان ، فلا تركبوا
المعاصي الكبيرة ... وقال بعضهم : سمعني راهبٌ أقول : أستغفر الله ، فقال :
يا فتى ، سرِّعة اللسان بالاستغفار توبة الكذَّابين ... ويدل على ما قاله قوله صلى
الله عليه وسلم : المستغفر باللسان المُصِرُّ على الذنب كالمُسْتَهْزِئِ بربه . وقال
الربيع بن خثيم : لا يقولنَّ أحدكم : أستغفر الله وأتوبُ إليه فيكون ذنباً
جديداً إذا لم يفعل ، ولكن ليقل : اللهم ، تَبَّ عَلَيَّ وَاغْفِرْ لِي ، فقيل : ولم ؟
فقال : أنته عمّا ينهك عنه فإنه يغفر لك ... وقال عمر رضی الله عنه : لم أرَ
أشدَّ طلباً وأسرعَ دَرَكَاً من حسنةٍ حديثةٍ لذنْبٍ قديم . « دركا بسكون الراء
وتحتها : الحافوا إدراكا » ... وسُئِلَ بعضُ المُجَّانِ : كيف أنت في دينك ؟ قال : أخرِّقه
بالمعاصي وأرْتَعُهُ بالاستغفار ...

« وأما بعد ، فلو يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَاتَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا
مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ^(١) .

(١) آية كريمة والآية : ولو يؤاخذ الله الناس... الآية

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبُعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ
وَيَرَى عُرُوقَ نِيَابِطِهَا فِي نَجْوَاهَا وَالْمَخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النَّجْلِ
أَغْفَرَ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ قَرْطَاتِهِ مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ (١)

عبقریات شتی

فی الخوف والتقوى

ورد في الحديث الصحيح : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، ولما ساء لكم الطعام ولا الشراب ، لضحكتم قليلا : أي لم تضحكوا ألبتة إذ القلب ههنا بمعنى العدم ... وجاء في خطبة سيدنا رسول الله : أيها الناس ، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين : أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه ، وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الممات ، فوالذي نفس محمد بيده ، ما بعد الموت من مستعجب ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار ... معالم جمع معصم ، وهو ما جعل علامة للطرق والحدود ، ضربه مثلا لأحكام الله وحدوده

(١) هذه الآيات لجار الله الزمخشري أنشدها في الكشف عند تفسير قوله تعالى : إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، ونسبها إلى بعضهم ، وكان قد أوصى أن تكتب على لوح قبره ، يقول : يا الله ، يا مبصر الخفيات حتى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل ، اغفر لي الخ والبهيم : المظلم ، لانهايم الأشياء فيه ، والليل أفضل من الليل وإن كان جامدا ، للبالغة في الظلمة ، والنياط : عرق غليظ منوط بالقلب تتصل به عروق دقيقة . والنجر : أسفل العنق ، والمخ : ما في وسط العظام ، والنحل : جمع ناحل أي دقيق ، والفراط : ذنوبه التي قرطت منه ، وما كان : مفعول اغفر ، والزمان الأول : زمن الشباب ، وقد تمثل المؤلف بهذه الآيات كما تمثل الزمخشري

« ومن يتعدَّ حدودَ الله فقد ظلم نفسه »، ومستعتب: مصدره يمي معناه طلب الرضا، تقول: استعبت فلانا: إذا طلبت منه العتي، وهي الرضا، يريد: ليس بعدالموت من استرضاء، لأن الأعمال بطلت وانقضت زمانها، وما بعدالموت دار جزاء لا دار عمل،

وقال أبو العتاهية:

يا عجباً للناس لو فكروا وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها فإنما الدنيا لهم مغبر
الخير مما ليس يخفى هو المعروف والشر ذو المنكر
والوعد الموت وما بعده الحشر فذاك الموعد الأكبر
لا تنخر إلا نخر أهل الثقي غدا إذا صمهم المحشر
ليعلن الناس أن الثقي والبر كانا خيراً ما يذخر
عجبت الإنسان في فخيره وهو غدا في قبره يقبر
مابال من أوله نظفة وجيفة آخره يفخر
أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره في كل ما يقضى وما يقدر

« أما قوله: يا عجباً للناس لو فكروا... البيت، فأخوذ من قولهم: الفكرة مرآة تريك حسنك من قبيحك؛ ومن قول لقمان لابنه: يا بني، لا ينبغي لعاقل أن يُحِبِّي نفسه من أربعة أوقات، فرقت منها يناجي فيه ربه، ووقت يُحاسب فيه نفسه، ووقت يكسب فيه لمعاشه، ووقت يُحَلِّي فيه بين نفسه وبين لذتها ليمتعين بذلك على سائر الأوقات. وقوله: وعبروا الدنيا إلى غيرها... البيت، مأخوذ من قول الحسن البصري: اجعل الدنيا كالقنطرة تجوز عليها ولا تعمرها.

وقوله: الخير مما ليس يخفى ... ألبيت ، مأخوذ من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله ، كيف بك إذا بقيت في حُثالة من الناس ^(١) مَرَّجَتُ عُهُودَهُمْ وَأَمَانَاتِهِمْ ^(٢) وصارَ الناسُ هكذا ، وشَبَّكَ بين أصابعِهِ ؟ فقلتُ : مُرَّتِي ، يا رسول الله ، فقال : خُذْ مَا عَرَفْتَ وَدَعْ مَا أَنْكَرْتَ وَعَلَيْكَ بِخُوبِصَةِ نَفْسِكَ وَإِيَّاكَ وَعَوَامَهَا ^(٣) ... وقوله : لِيَعْلَمَنَّ النَّاسُ ... ألبيت ، مأخوذ من حديث أبي هريرة : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا حُشِرَ الناسُ في صعيدٍ واحدٍ نادى مُنادٍ من قِبَلِ العَرَشِ : لِيَعْلَمَنَّ أَهْلُ المَوْقِفِ مَنْ أَهْلُ الكَرَمِ اليَوْمِ ؟ : لِيَتَّقِمَ المَتَّقُونَ ، ثم تلا رسول الله : إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وقد تقدم صدرَ باب البر أن الأخطل سَبَقَ أبا العتاهية في هذا بقوله :

وإذا افْتَقَرْتَ إلى الذخائر لم تجد ذخراً يَكُونُ كصالحِ الأعمال
وقوله : ما بال من أوله نطفة ... ألبيت ، مأخوذ من قول علي رضي الله عنه : وما ابن آدم والفخر وإنما أوله نطفة وآخره جيفة ، لا يَرِزُقُ نَفْسَهُ ، ولا يَدْفَعُ حَتْفَهُ ، وكان عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه يقول : أيها الناس إنما خُلِقْتُم المأبَدَ ، واسكنكم تُنْقَاوَنَ من دارٍ إلى دارٍ ... وقال مالك بن دينار ^(٤) :

- (١) أصل الحثالة : ما يبقى في الإناث من ردى الطعام ، وحثالة النمر : أردؤه وما لا خير فيه ، ضربه رسول الله لرجال الناس وشرارهم
(٢) مَرَّجَتُ عُهُودَهُمْ : اختلطت وذهبت بهم كل مذهب ، ومرج : كطرب ، أما مرج الماء بمعنى سال فلم يكن له مانع ، فبابه نصر .
(٣) خوبصة : تصغير خاصة ، بأمره صلى الله عليه وسلم بمجاهدة نفسه ويجزده مشاركة العامة في أعمالها (٤) كان عالماً زاهداً لا يأكل إلا من عمل يده مات سنة إحدى وثلاثين بالبصرة .

جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم... وقال علي رضي الله عنه : مَنْ سَرَهُ
 الْغَنَى بِلَا مَالٍ ، وَالْعِزُّ بِلَا سُلْطَانٍ ، وَالكَثْرَةُ بِلَا عَشِيرَةٍ ، فَلْيَتَخَرَّجْ مِنْ ذَلِكَ
 بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ ، فَإِنَّهُ وَاجِدٌ ذَلِكَ كُلَّهُ ... وقال يزيد بن الصَّقِيلِ الْعَقِيلِيُّ -
 وَكَانَ يَسْرِقُ الْإِبِلَ فِي عَهْدِ بَنِي أُمَيَّةٍ ثُمَّ تَابَ وَوُقِّتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ - :

أَلَا قُلْ لِأَرْبَابِ الْخَائِضِ أَهْمِلُوا فَقَدْ تَابَ يَمَّا تَعْلَمُونَ يَزِيدُ
 وَإِنَّ أَمْرًا يَنْجُو مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا تَزَوَّدَ مِنْ أَعْمَالِهَا لَسَعِيدُ

« الخائض جمع مخاض - ومخاض واحد خِلْفَةٌ - الناقة استبان حملها - فمخاض
 جمع الجمع ، ومخاض ! جمع على غير واحد ، كما تقول : امرأة ونساء ، وقوله : أهملوا :
 أى أسرحوا إبلكم - ، وفي هذا الشعر :

إِذَا مَا الْمَنَائِيَا أَخْطَأَتْكَ وَصَادَفَتْ حَمِيمَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهَا سَتَعُودُ

وفي معنى هذا البيت ما يروى عن محمد بن الحنفية - ابن الإمام علي - أنه
 كان يقول - إذا مات له جارٌ أو حميم - : أَوْلَى لِي ، كِدْتُ وَاللَّهِ أَكُونُ
 السَّوَادَ الْمُخْسَرَمَ ... « أولى لي ، مثله : أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ، وهى
 كلمة تهديد ووعيد ، معناها : قاربك ماتكراه ، أو الشرُّ أقرب إليك ، والسوادُ :
 شخص الإنسان وكلُّ شيءٍ من متاعٍ وغيره ، وفي الحديث : إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ سَوَادًا
 بَلِيلٌ فَلَا يَكُنْ أَجْبَنَ السَّوَادِينَ ، فإنه يخافُك كما تخافُه ، والمخترم - من اخترمته
 المنية : أخذته من بين أصحابه ... »

وقال أبو نواس :

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغَوَاةِ بَدَلُوهُمْ وَأَسْمَتْ سُرْحَ اللَّهِ وَحَيْثُ أَسَامُوا
 وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ أَمْرُؤُ بَشَابَهُ فَإِذَا عُصَارَةٌ كُلُّ ذَلِكَ أَقَامُ

« أثم كسّلام : عقاب الإثم وجزاؤه ، ونهزت بدلّوهم يقال : نهزت بالدلو في البئر : إذا حركتها لتملئ ... وهو هنا على المثل ... يقول أبو نواس : لقد غويتُ زماناً مع العَوَاةِ وهَوَتُ كما هَوَا وخلعتُ عِذارِي كما خلَعُوا عِذارَهُم وبلّغتُ شبابِي المِباحِ ، من اللهو والبغى والفساد ، وأنلتهُ أقصَى ما يَشتهى من شهوات الحياة الدنيا ، فوجدتُ كلَّ ذلك ضلالاً في ضلال وعبثاً في عبث وظلمات بعضها فوق بعض ، وما جنّيتُ من ورائه إلا المرءَ والحنظل ، من الأدواء والأسقام والبُعد عن ملكوت الله وقُدسيّته ، وكلَّ ما تُورثُه المعاصي من الدنس والطبع والرّين ، وإنّ في ذلك لِعِبْرَةٌ لمن اعتبر »

وقال هشامُ بنُ عبد الملك - وهو من الآيات المنفردة القائمة بنفسها - :

إذا أنتَ لم تَعِصِ الهوى قَادَكَ الهوى

إلى بعض ما فيه عليك مقال

وهذا بكلام الملوك أشبه ، ومن كلبة للسيدة عائشة رضي الله عنها : مَنْ أَرْضَى الله بِاسْخَاطِ الناس ، كفأه اللهُ ما بينه وبين الناس ، وَمَنْ أَرْضَى الناس بِاسْخَاطِ الله ، وكأه اللهُ إلى الناس ، وَمَنْ أَصْلَحَ سريرته ، أَصْلَحَ اللهُ علائقته . وفي حديث الدعاء : لا تَكُنْ إلى نفسِي طَرْفَةً عين فأهلك ... توّلانا اللهُ برعايته الصّمدانية إنه سميع الدعاء ...

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

وهذا بابُ الشكر بابٌ له مكاتته فيما خلفوه لنا من آدابٍ وذخائرٍ، وإنَّ بينه وبين البر على جميع ألوانه لرحماً ماسَّةً وقرابةً قرييةً، ومن ثمَّ جعلناه ردِّقأله، وأفردنا له هذا الباب.

معنى الشكر

والشكر: مُقَابَلَةُ النعمة بالقول والفعل والنِّية، فَيُنْفِي المُنعمُ عَلَيْهِ على المُنعم بِلِسَانِهِ، وَيُذِيبُ نَفْسَهُ فِي طَاعَتِهِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُوَالِيهَا؛ وَهُوَ مِنْ شَكَرَتِ الْإِبِلَ تَشْكُرُ: إِذَا أَصَابَتْ مَرَعَى فَسَمِنَتْ عَلَيْهِ. وَإِذْنُ يَكُونُ مَعْنَى شَكَرَ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ: أَنْ يَجْهَدَ الْعَبْدُ جُهْدَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَيُؤَدِّي مَا وَظَّفَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ وَلِيُّ نِعْمَتِهِ، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ عَزَّ وَتَقَدَّسَ... وَقَدْ جَاءَ الشُّكُورُ وَصَفَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَزْكُرُ عِنْدَهُ الْقَلِيلُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فَيُضَاعِفُ لَهُمُ الْجَزَاءَ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَاهُ: الْمَغْفِرَةُ... هَذَا؛ وَإِنْ فُرِّقَ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ، فَالشُّكْرُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنِ يَدٍ، وَالْحَمْدُ عَنِ يَدٍ وَعَنْ غَيْرِ يَدٍ وَأُنشِدُوا لِأَبِي نُخَيْلَةَ (١):

(١) شاعر إسلامي، وكان أسود، والرجز أغلب عليه من الشعر، وسمى أبا نخيلة لأن أمه ولدته تحت نخلة فهو اسمه، ويمدح بهذا الشعر مسلمة بن عبد الملك يقول في أولها:
أَمْسَلَمَ إِنِّي يَا أَبْنَ كُلِّ خَلِيفَةٍ وَيَا فَارِسَ الْهَيْجَا وَيَا قَمَرَ الْأَرْضِ
وقوله: فنبهت من ذكرى وما كان خاملاً: أخذه أبو تمام فكشف معناه وحسنه بالصناعة

شَكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ مِنَ الثَّقَى وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِي
فَبَهَّتَ مِنْ ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَائِلًا وَلَكِنْ بَعْضُ الذِّكْرِ أَنْبَاءُ مِنْ بَعْضٍ
قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشُّكْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنِ يَدٍ ، أَلَا
تَرَاهُ يَقُولُ : وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِي ؟ أَي لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً
يَشْكُرُكَ عَلَيْهَا... وَيُقَالُ : شَكَرَهُ وَشَكَرَ لَهُ ، وَبِاللَّامِ أَفْصَحُ ، وَتَقُولُ : شَكَرْتُ
نِعْمَةَ اللَّهِ ، وَلِنِعْمَتِهِ ، وَتَشَكَرَ لَهُ بِلَاءَهُ ، كَشَكَرَهُ ، وَتَشَكَرَ لَهُ مِثْلُ شَكَرَ لَهُ ،
هَذَا خِلَاصَةٌ مِمَّا قَالَهُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ . وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ فِيهَا قَالَ ، إِذَا طَالَ : الشُّكْرُ :
عِرْفَانُ الْإِحْسَانِ ، وَمِنْ اللَّهِ الْمَجَازَاةُ ، وَأَصْلُ الشُّكْرِ : تَصَوُّرُ النِّعْمَةِ وَإِظْهَارُهَا
وْحَقِيقَتُهُ : الْعِجْزُ عَنِ الشُّكْرِ ، إِلَى أَنْ قَالَ : وَالشُّكْرُ الْعُرْفِيُّ : صَرْفُ الْعَبْدِ
جَمِيعَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصْرِ وَالْكَلَامِ وَغَيْرِهَا ، إِلَى مَا خَلَقَ لَهُ
وَأَعْطَاهُ لِأَجْلِهِ ، كَصَرْفِ النَّظَرِ إِلَى مَصْنُوعَاتِهِ ، وَالسَّمْعِ إِلَى تَلْقَى إِنْذَارَاتِهِ ،
وَالذَّهْنِ إِلَى فَهْمِ مَعَانِيهَا ، وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ :
وَتَوْفِيَةٌ شَكَرَ اللَّهُ صَعْبٌ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُسْتَنْ بِالشُّكْرِ مِنْ أَوْلِيَانِهِ إِلَّا عَلَى إِبْرَاهِيمَ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، إِذْ قَالَ سُبْحَانَهُ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ
يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؛ وَعَلَى

فَقَالَ مِنْ آيَاتِ يَمْدَحِهَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الرِّيَّاتُ :

لَقَدْ زِدْتُ أَوْضَاحِي امْتِدَادًا وَلَمْ أَكُنْ

بِهِمَا وَلَا أَرْضِي مِنَ الْأَرْضِ بِجَهْلًا

وَلَكِنْ أَيْدِي صَادَفْتَنِي جِسَامُهَا أَعْرَّ فَأَوْفَتْ بِي أَعْرَّ مُحْجَلًا

• الأوضح جمع وضح وهو البياض، والبهيم: الأسود، والمجمل: أرض بلا أعلام

وهذا على المثل ،

نوح عليه السلام إذ قال: إنه كان عبداً شكوراً... ونزيد هذا تأكيداً وتبييناً
 ليُراد كلمة الراغب في الذريعة، قال الراغب - مع شيء من التصرف - :
 الشكر تصوُّرُ المنعمِ عليه النعمة، وإظهارُها، وبضادَه الكفُّرُ، وهو - أى الكفر -
 من كَفَرَ الشيءَ : غَطَّاهُ ، ودأبُّه شكور : أى مُظهِرَةٌ بِسْمَنِهَا إِسْدَاءَ صَاحِبِهَا
 إِلَيْهَا ؛ وقيل : أصله من عينٌ شَكَرَى : أى مُتَمَلِّئَةٌ ، فالشكر هو : الامتلاء من
 ذكر المنعمِ عليه المُنعمِ ، ومن هذا الوجه قيل : هو أبلغُ من الحمد، لأن الحمد
 ذِكْرُ الشيءِ بصفاته، والشكر : ذكر الشيءِ بصفاته وبنعمه ، فالشكر على ثلاثة
 أَضْرِبٍ : شَكَرْتُ بِالْقَلْبِ ، وهو تصوُّرُ النعمة ، وشَكَرْتُ بِاللِّسَانِ ، وهو الثناء على المنعمِ ،
 وشَكَرْتُ بِسَائِرِ الْجَوَارِحِ ، وهو مكافأته بقدر استحقاقه ؛ وهو أيضاً باعتبار الشاكر
 والمشكور : ثلاثة أَضْرِبٍ : شَكَرَ الْإِنْسَانُ لِمَنْ هُوَ فَوْقَهُ ، وذلك يكونُ بِالْحِدْمَةِ
 وَالثَّنَاءِ وَالدُّعَاءِ ، وشَكَرْتُ لِنَظِيرِهِ ، وهو بالمكافأة ، وشَكَرَ لِمَنْ هُوَ دُونَهُ ، وهو
 بِالثَّوَابِ وَالْإِفْضَالِ . وشَكَرْتُ الْعَبْدُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ هُوَ : مَعْرِفَةُ نِعْمَتِهِ وَحِفْظُ جَوَارِحِهِ
 بِمَنْعِهَا مِنْ اسْتِعْمَالِ مَا لَا يَنْبَغِي . ثم قال : وشَكَرُ الْمُنْعِمِ فِي الْجُمْلَةِ وَاجِبٌ بِالْعَقْلِ ،
 كما هو بالشرع ، - وهذه مسألة كلامية انظرها في كليات أبي البقاء ، - وأوجِبُهَا
 شَكَرُ الْبَارِي تَعَالَى ، ثم شَكَرُ مَنْ جَعَلَهُ سَبِيلاً لَوْصُولِ خَيْرٍ إِلَيْكَ عَلَى يَدِهِ ، ولهذا
 قال عليه الصلاة والسلام : لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ ؛ قال : وقال
 بعضهم : كُلُّ نِعْمَةٍ يُمَكِّنُ شَكَرُهَا إِلَّا نِعْمَةَ اللَّهِ ، فَإِنْ شَكَرَ نِعْمَتَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ ،
 فيحتاج العبد أن يَشْكُرَ نِعْمَةَ الشكر ، كما شَكَرَ أَصْلَ النعمة ، وهكذا حتى يُؤدَّى
 ذلك إلى ما لا يتناهى ، ومن هذا أخذ الشاعر الذي يقول :

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً علىَّ له في مثلها يجب الشكرُ
 فكيف بلوغ الشكر إلا بفضيله وإن طالَّتْ الأيَّامُ واتَّصلَ العمرُ

ولهذا قيل: غايةُ شكر الله تعالى الاعترافُ بالعمَجِرِ عنه، بل قد قال الله تعالى: وإن تُعدُّوا نعمة الله لا تحصوها، وأيضا فكلُّ ما يفعلُ الله بعبده فهو نعمة منه، وإن كان بعض ذلك يُعدُّ بليَّةً، ولهذا قال بعض الصالحين: ياتن منعه عطاءً وبلاؤه نعاء^(١)... ولأجل صعوبة شكر الله قال عز وجل: وقليل من عبادي الشكور...

عقبرياتهم في الشكر

حثُّهم على الشكر

قال حكيم: إذا قُصرت يدك عن المكافأة فليطل لسائتك بالشكر؛ وقالوا: النعم إذا شكرت قرَّت وإذا كُفرت فرت. والأصل في هذا قوله تعالى: وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم وائن كفرتم إن عذابي لشديد... وقالوا: النعم وحشية فاشكروها بالشكر، يقال: شكك الدابة يشكها: شدت قوائمها بجبل، واسم ذلك الجبل: الشكال، وقال ابن المقفع: استوثقوا عرسي النعم بالشكر. «العرى جمع عروة، والعروة في الأصل تقال لعروذ الدلو والكوز ونحوه، أي مقبضه. وأعروة المازدة أي أذنها. وعروة القميص: مدخل زرته، ولعروة النبات: ما بقي له خضرة في الشتاء ترعاها الإبل إذا أجذب الناس، ومن

(١) هذا كلام بعيد الغور غاية في النفاة، وقد بما قرأت كلاما لا أذكر لفظه بيدان معناه لا يزال عالقا بذهني، وهو أن الإنسان قد يظن أن حرمانه الجاه أو المال أو ما إليها، شرونة، ولكنه في الحقيقة نعمة، إذ لو أعطى ما يشتهي من المال أو الجاه لساءت حاله وكان هذا المال أو الجاه بما يفسده لئما يصلحه ومن ثم حثوا على أن يرضى الإنسان بما أعطى ويعتد ذلك مدرجة إلى صلاحه وحسن حاله وأن ما أعطاه الله إياه مهما كان قليلا هو الخير كل الخير في الواقع ولا خير في غيره ولا صلاح...

هذا استعاروا العروة لكل ما يلجأ إليه ويُعَوَّل عليه ويوثق به ويُتَمَسَّك؛ فيقال لقادة الجيش: العُرى، والصحابة رضوان الله عليهم: عُرى الإسلام، وقوله تعالى: فقد آتَمَسَكَ بالعروة الوثقى لانفصام لها؛ شَبَّه ما يُعْتَصَم به من الدين بالعروة التي يُتَمَسَّك بها ويلجأ إليها، والوُثْقَى: المُحْكَمَة، فقول ابن المقفع: استوثقوا: أى أحكموها، وقال البحترى:

يزيد تفضلاً وأزيد سُكراً وذلك دأبهُ أبداً ودأبي

وقال عمرو بن مَسْعَدَة: لا تَصْحَب من يكون استمتاعه بمالكٍ وجاهك أكثرَ من إمتاعه لك بشكر لسانه وفرائد عمليه. وقال يحيى بن أكرم: كنت عند المأمون فأنى برجل تُرْعَد فرائضه، فلما تَمَثَّلَ بين يديه قال المأمون: كَفَرْتَ نعمتى ولم تشكر معروفى! فقال: يا أمير المؤمنين، وأين يقع سُكْرِى فى جنب ما نعم الله بك على أقال يحيى: فنظر إلى المأمون وقال مُتَمَثِّلاً:

ولو كان يَسْتغنى عن الشكر ماجدٍ لرفقه نَدْرٍ أو عُلُوٍّ مـكانٍ
لما أَمَرَ اللهُ العبادَ بِشُكْرِه فقال: أشكروا لى أيها الثَقَلانِ
ثم التفت إلى الرجل وقال: هَلَّا قلت كما قال أضرَمُ بن حميد:

مَلِكْتَ حَمِيدى حتى إننى رَجَلٌ كُلِّى بكلِّ ثناء فىكَ مُسْتَعِيلٌ
خَوَّلْتَ سُكْرِى لِمَا خَوَّلْتَ من نِعَمٍ فُحِرْتُ سُكْرِى لِمَا خَوَّلْتَنى خَدَمٌ
وقريب من هذا قول أبى الفتح البُستى:

إن عَجَزْتَ عن شكر بَرِّكَ فُوتى وأقوى الوَرَى عن شكر بَرِّكَ عاجزٌ
إنَّ ثَنائى واعتقادى وطائِقى لآفلاكِ ما أوايتَها مراكزُ
ومن أبرع ما قيل فى الشكر قول البُحترى:

فَلو كان للشُكْرِ شَخْصٌ يَبِينُ إذا ما تَأَمَّلَهُ الناظِرُ

لَبَيْتُهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ فَذَلِمَ أُنَى أَمْرُو شَاكِرٍ
وَلَكِنَّه سَاكِنٌ فِي الضَّمِيرِ يُحَرِّكُهُ السَّكِيمُ السَّائِرُ

وقال عبد الله بن الزبير الأَسَدِي في عمرو بن عثمان بن عفان - لما زاره فَنَظَرَ
عمرو فرأى تحت ثيابه ثوباً رثياً، فدعا وكيله وقال: اقترض لنا مالاً، فقال: هيات
ما يُعطينا التُّجَّارَ شيئاً، قال: فأرجمهم ماشأوا: فاقترض له عشرة آلاف فوجه
بها إليه مع تَخْتِ ثياب «التخت: وعاء تصان فيه الثياب» - :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا مَا تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي أَيْادِي لَمْ تُمْنَنَّ وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ
قَتَى غَيْرُ مَحْجُوبِ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ وَلَا مُظْهِرِ الشُّكُوفِ إِذَا النُّعْلُ زَلَّتْ
رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يُخْفَى مَكَانُهَا فَكَانَتْ قَدَى عَيْنِيهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

«قوله: سأشكر: فالعرب تستعمل السين إذا أرادت تكرار الفعل
وتأكيده ولا تريد التنفيس فيه. ولم تمنن: لم يتبعها من، وإذا النعل زلت:
يريد: إذا زلت قدمه في مزالق الدهر فلا يجد مركباً يقيه مصرع السوء
ولا متكأ يعتمد عليه في نهضته، والخلة: الحاجة، وقوله من حيث يخفي
مكانها: أي من حيث لا يدركها لحاظ غيره، وفكانت قدى عينيه: أبرع كلمة
في معنى الاهتمام بالحاجة»...

وقال ابن عَنقَاء الفَزَارِيُّ فِي عُمَيْلَةِ الفَزَارِيِّ - وَكَانَ قَدْ وَصَلَهُ بِنِصْفِ مَا!

لَمَّا رَأَى مِنْ رِثَاةِ حَالِهِ ، وَكَانَ عُمَيْلَةً غَلَامًا جَمِيلًا - :

رَأَى عَلَى مَابِي عُمَيْلَةً فَاشْتَكَى إِلَى مَالِهِ حَالِي أَسْرًا كَمَا جَهَرَ
دَعَايَ فَأَسَانَى وَلَوْ ضَنَّ لَمْ أَلْمُ عَلَى حِينٍ لَا بَدْوٌ يُرْجَى وَلَا حَضْرُ
غُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ يَا فَعَا لَهُ سِيمِيَاءُ لَا تَشْقُ عَلَى الْبَصْرِ
كَأَنَّ الشَّرِيَاءَ عُلِقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي خَدِّهِ الشُّعْرَى وَفِي وَجْهِهِ الْقَمَرُ

إِذَا قِيلَتِ الْعُورَاءُ أَعْضَى كَأَنَّهُ ذَلِيلٌ بِإِلَاءِ ذُلِّهِ وَلَوْ شَاءَ لَا تَنْصُرُ
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدَ اسْتَعِيرَتْ ثِيَابَهُ تَرَدَّى رِدَاءَ وَاسِعِ الذَّلِيلِ وَأُتْرِرَ
فَقَلَّتْ لَهُ خَيْرًا وَأُثْنِيَتْ فِعْلُهُ وَأَوْفَاكَ مَا أَسَدَيْتَ مَنَ ذَمًّا أَوْ شَكَرًا

« السياما والسيما والسيما والسيما : العلامة يُعرف بها الخير والشر ،
وقوله : لا تشقُّ على البصر يريد : لا تؤذيه بل يُسرُّها ، والثرَيَّا : من الكواكب
كثيرة الأنجم مع صغر مرآتها ، والشعري يريد بها الشعري العبور ، وهو كوكب
نير خلف الجوزاء يطلع في صميم الحر . والعوراء : الكلمة القبيحة ،
وأعصى : أطبق أجفانه حياءً ونبلاً ؛ واستعيرت ثيابه : كنى بذلك عن
قلة الأجداد »

العجز عن الشكر

قال بعضهم :

أَيَادِي لَا أَسْطَبِعُ كُنَّةَ صِفَاتِهَا وَلَوْ أَنَّ أَعْضَاءِي جَمِيعًا تَكَلَّمُوا

وقال آخر :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ نَمِيَّةٍ شَعْرَةٌ لِسَانًا يَبُثُّ الشُّكْرَ فِيكَ لَقَصَّرَا

وقال بعضهم : شكري لا يقع من نعمة الظاهرة : موقع النقطة من الدائرة .

وقال أبو نواس :

قَدْ قَلْتُ لِلْعَبَاسِ مُعْتَذِرًا عَنْ ضَعْفِ شُكْرِيهِ وَمُعْتَرِفًا

أَنْتَ أَمْرٌؤُ جَلَلْتَنِي نِعْمًا أَوْهَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفَا

فَالْيَكِ مِنِّي الْيَوْمَ تَقْدِيمَةً تَلَقَّاكَ بِالتَّضَرُّجِ مُنْكَشِفًا

لَا تُسَدِّدِينَ إِلَيَّ عَارِيَةً حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرٍ مَا سَلَفَا

«شكريه : شكري إياه» وقال المتنبي :

ولم تَمَلِّ تَفْقَهُدَكَ الْمَوَالِي ولم نَذُمَّ أَيَادِيكَ الْجِسَامَا
ولكنَّ الْغِيُوثَ إِذَا تَوَالَتْ بأَرْضِ مُسَافِرٍ كَرِهَ الْمُقَامَا

الموالي جمع، ولي : العبد، وتروى الموالى : أى الذى يلى بعضه بعضاً، والآيدى النعم، والجسام : العظام، وقوله ولكن الغيوث ... البيت، فالغيوث جمع غيث : المطر، وتوالت : تابعت، والمقام : الإقامة؛ يقول : إن المسافر إذا كثر عليه المطر ملّ إقامته واحتباسه، لأجل المطر، كذلك نحن، عطايك تتوالى علينا وأنت قيدتنا يا حسناك وأنا مسافر أريد الارتحال ولولا هذا لم أتمل نعمتك، والمطر يسأله كل أحد إلا المسافر... وقال البُحترى وأبدع :

أَحْجَلْتَنِي بِنَدَى يَدَيْكَ فَسَوَّدَتْ ما بيننا تلكَ اليَدُ البِيضَاءُ
وقَطَعْتَنِي بِالْجُودِ حَتَّى لَمِنِّي مُتَخَوِّفٌ أَنْ لَا يَكُونَ لِقَاءُ
صِلَّةٌ عَدَدَتْ فِي النَّاسِ وَهِيَ قَطِيعَةٌ عَجَبٌ، وَرِيحٌ رَاحَ وَهَوَّ جَفَاءُ
وقال أيضاً :

إِيهًا بِالْفَضْلِ شُكْرِي مِنْكَ فِي نَصَبٍ أَقْصِرُ فَمَا لِي فِي جَدْوَاكَ مِنْ أَرْبٍ
لَا أَقْبَلُ الدَّهْرَ نَيْلًا لَا يَقُومُ بِهِ شُكْرِي وَلَوْ كَانَ مُسْدِيهِ إِلَى أَبِي

ومن أفاضهم في ذلك : سُكْرُهُ شَاوٍ بَعِيدٌ لَا تَبْلُغُهُ أَشْوَاطِي، وَلَا أَتْلَفُ فِي
التفريط فيه يافراطى «الأشواط جمع شوط : الجرى مرّة إلى غاية تقول : عدا
- جَرَى - شوطاً، أى طَلَقاً» وعندى له تبارُّعٌ عجزنى شكرها، كما عوزنى حصرها
«مبارج جمع مبرة» وقال بعض الشعراء فى الصاحب بن عباد :

وَقَدْنَا لِنَشْكُرَ كَافِيَ الْكُفَاةِ وَنَسْأَلُهُ الْكَفَّ عَنْ بَرِّنَا

فقال بعض الحاضرين : قد كُفيت، فإن الصاحب صار لا يُعطى شيئاً...

من لا تخفى أياديته

قال نَصِيبٌ (١) :

فَعَا جُوا فَاتُّوْا بِالذِّي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ
وقال بعضهم :

وَكَيْفَ بِكَفْرَانِي صَنَائِعُهُ الَّتِي إِذَا جُحِدَتْ يَوْمًا أَقْرَبَهَا جِلْدِي
ومثله :

وَإِذَا سَكَتُ فَإِنَّ أَنْطَاقَ مِنِّ فِي عَنِّي يَدُ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ

وقالوا في أمثالهم : لسانُ الحال أفضح من لسانِ الشكر ... ومن كلمة
للجاءظ : نحنُ نُزَخِرُفُ بِاللِّسَانِ ، وَالنَّاسُ يَقْضُونَ بِالْعِيَانِ ، وَفِي أَمْرِنَا أَثْرٌ
يَنْطَاقُ عَنَا ، وَيَتَكَلَّمُ إِذَا سَكَتْنَا ...

الشكر بقدر الاستحقاق

وَعَتَبُهُمْ مَن شَكَرُوهُ وَمَا يَسْتَوْجِبُ

قال علي بن أبي طالب : انشاء من غير الاستحقاق مَلَقٌ ، والتقصير عن

(١) هو نصيب بن رباح من أهل ودان وكان عبداً لرجل من كنانة هو وأهل
بيته ، وكان أهل البادية يدعونه «النصيب» تفخيماً له وكانت أمه أمة سوداء وكان شاعراً
فحلاً فصيحاً مقدماً في النسيب والمدح وكان أثيراً عند الملوك ، وهذا البيت من أبيات له
في سليمان بن عبد الملك وأول الأبيات :

أَقُولُ لِرَكْبٍ صَادِرِينَ لَقَيْتُهُمْ تَقَاذَاتِ أَوْشَالٍ وَمِرْلَاكٍ قَارِبُ

قَفُّوا خَبْرُوتِي عَنِ سُلَيْمَانَ إِنِّي لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَانَ طَالِبُ

فَعَا جُوا البيت

وتقا : أي خلف والعرب تقول : لقيت فلانا تقفا العتبة أو الثانية : أي خلفها ، وميرلاك
يخاطب سليمان ويريد بالمولى نفسه ولعله يريد بذات أوشال : موضعاً بعينه ، والقارب
في الأصل : طالب الماء ليلاً ،

الاستحقاق عبي وحسدٌ، وقال رجل لابن الأعرابي: إن نُضيباً - الشاعر الذي تقدم ذكره - يقول: إنما تُمدح الرجال على قدر ثوابها، فقال: إن العرب تقول: على قدر رِيحِكُمُ تَمَطُّرون... وقال الصاحب بن عباد:

وإذا الصديقُ أدامَ سُكْرِي لَلَّتِي لم آتِها إلا على التقدير
أَيَقْنْتُ أَنَّ العَتَبَ باطِنُ أمرِهِ فَسَكَّتْ مُحْتَشِمًا على التَّقْصِيرِ

من لم يرَ دَعَهْ خوْفَه عن الشكر

بعث أبو جعفر المنصور إلى شيخ من بطانته هشام بن عبد الملك، فاستحضره وسأله عن تدبير هشام وأحواله، فأقبل الشيخ يقول: فقل رحمه الله، وقال يوم كذا رحمه الله، فقال المنصور: قم لعنك الله، أتعطأ بساطي وترحم على عدوي! فقال الشيخ: إن نعمة عدوك لقلادة في عنق لا ينزعها إلا غاسلي، فقال المنصور: أرجع إلى حديثك، فإني أشهد أنك غرّس شريف وابن حرة... ولما قتل مسلة بن عبد الملك يزيد بن المهلب أمر بأن يحضر الشعراء ليقولوا في ذلك، فلم يألوا أن ذكروه بأقبح ما قدروا عليه، ما خلا رجلاً من بني دارم فإنه قال: لا أذم رجلاً إلا أملك ريعاً ولا مالا ولا أثاثاً إلا منه ولو قُطعت إرباً إرباً^(١)، ولقد رثيته بأحسن ما يرثي به رجلٌ - وأنشد أبياتاً رائعة - فجراه مسلة خيراً وقال: إذا اضْطَبِعَ فليُصْطَبِعْ مثْلُ هذا... أقول: لا أدري: أبعوقف هؤلاء البررة الأوفياء الشجعان الصرحاء يُعجِبُ المرء، أم بأولئك الملوك الذي يقدرون هذا الوفاء ويطربون له ولو كان في جانب أعدائهم أفله دَرُّ أولئك الناس الذين شرفوا الإنسانية بهذه الخلائق الكريمة النبيلة، بينما غيرهم من أهل النفاق والجن والذالة قد كَلَمُوا^(٢) الإنسانية

(٢) كَلَمُوا: جرحوا

(١) إرباً إرباً: عضواً عضواً

وهَوَّأَ بِهَا إِلَى الْحُضِيِّضِ الْإَوْهَدِ ...

شكر من هَمَّ بِإِحْسَانٍ وَلَمْ يَفْعَلْ

وقالوا : من لم يَشْكُرْ عَلَى حُسْنِ النِّيَّةِ ، لم يَشْكُرْ عَلَى إِسْدَاءِ الْعَطِيَّةِ .
وقال شاعر :

لِاشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَّتَ بِهِ إِنَّ اهْتِمَاتِكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفٌ
وَلَا أَذْمُكَ إِنْ لَمْ يُمَضِّهِ قَدْرُهُ فَالشَّيْءُ بِالْقَدْرِ الْمُحْتَرَمِ مَصْرُوفٌ

ثَقُلُ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ

وقال أبو تمام في ثقل الشكر والحمد من آيات له في الحسن بن وهب :

وَالْحَمْدُ شَهْدٌ لَا تَرَى مُشْتَارَهُ يَجْنِيهِ إِلَّا مِنْ نَقِيعِ الْخَنْظَلِ ^(١)

عُلٌّ لِحَامِلِهِ وَيَجْسِبُهُ الَّذِي لَمْ يُؤْهِ عَاتِقَهُ خَفِيفَ الْحَمْلِ ^(٢)

وقيل لبعض الصالحين : مالك لا تطلب الدنيا ؟ فقال : من خاف السؤال

عن الشكر طابت نفسه عن المال ...

وقال أبو العتاهية :

مَا فَاتَنِي خَيْرُ أَمْرٍ وَضَعْتُ عَنِّي يَدَاهُ مَوْوِنَةَ الشُّكْرِ

ترغيبهم في الثناء ووصفهم إياه بالبقاء

وتفضيلهم إياه على المال والعتاء

قال عمر بن الخطاب لابنة هريم بن سنان ممدوح زهير بن أبي سلمى :

(١) المشتار : مستخرج العسل ، والشهد : بفتح الشين وضمها : العسل في شمعها

(٢) الغل : القيد ، والحمل : الحمل

ما وهب أبوك لزهير؟ فنالت: أموالا فنيدت وأثوابا بليت وأشياء انتسيت، فقال الفاروق: لكن ما أعطاكوه زهير لا يقنى ولا يقنى ... وكتب أرسطو إلى الإسكندر المقدوني: إن كل عقيلة^(١) يأتي عليها الدهر، فيخلق أثرها ويميت ذكرها، إلا ما رسخ في القلوب، من الذكر الحسن يتوارثه الألقاب. وقالوا: في الثناء الباقي على الدهر، خلف من نفاذ العمر. قال الشاعر:

وإني أحب الخلد لو أستطيعه وكالخلد عندي أن أبيت ولم ألم
وقيل لبزر جهم حين كان يقتل: تكلم بكلام نذره، فقال: الكلام
كثير، ولكن إن أمكنتك أن تكون حديثا حسنا فافعل.

ولما رضع الوزير محمد بن عبد الملك الزيات في الثور قال له خاتمته:
ياسيدي، قد صرت إلى ما صرت وليس لك حامد أقال: وما تفع البرامكة
من صنعهم، قال: ذكرك لهم الساعة، فقال: صدقت... وقال شاعر:

لئن طببت نفسا عن ثنائي فإنني لأطيب نفسا عن نذائك على عسرى
فأست إلى جدواك أعظم حاجة على شدة الإعسار منك إلى شكري
وقال أبو تمام:

ومحجب حارثته فوجدته نجما عن الركب العفاة شوعا
أعدمته - لما عدمت نواله - شكري فرحنا معدمين جميعا
وقال عوف بن محم الشيباني:

فتي يتقى أن يخدش الذم عرضه ولا يتقى حد الشبوف البواتر

(١) العقيلة في الأصل: المرأة الكريمة النفيسة ثم استعمل في الكريم من كل شيء في الذوات والمعاني. وعقائل الإنسان: كرائم أمواله، وهو المراد هنا

وقال حكيم: من أحبَّ الثناء، فليصبر على بَذْلِ العطاء، ولْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ
على الحقوق المُرَّة، وعلى احتمال المؤنة... وقال الشاعر في هذا المعنى:
ما أعلم الناس أن الجودَ مكسبةٌ للحمْدِ اكْتَنَهُ يَأْتِي عَلَى النَّسْبِ

تسهيل القول على الشاكرين

بتوافر ما يشكر عليه وعكس ذلك

قيل للفرزدق: أحسن الكَيْتُ في الهاشميات، فقال: وَجَدَ آجُرًا وَجِصًّا
فَبَنَى... وقال شاعر:

مَا لَقِينَا مِنْ جُودِ فَضْلِ بْنِ يَحْيَى تَرَكَ النَّاسَ كَالهَمِّ شُعْرَاءَ
وقال ابن الرومي:

كُرِّمَتْمْ بَجَاشِ الْمُفْحَمُونَ لِمَدْحِكُمْ إِذَا رَجَزُوا فِيكُمْ أَبِيئْتُمْ فَقَصَدُوا
كَمَا أَزْهَرَتْ جَنَاتُ عَدْنٍ وَأَثْمَرَتْ فَأَضْحَتْ وَعُجِمَ الطَّيْرِ فِيهَا تُغَرَّدُ
ومما كتبه بعضهم: فَتَحَتْ شَيْئُهُ عَلَى الْمُدَّاحِ مُسْتَغْلَقَاتِ الْكَلَامِ ...

وقال أبو تمام:

مَلِكٌ إِذَا مَا الشُّعْرُ حَارَ بِيْلِدَةٍ كَانَ الطَّرِيقَ لِطَرْفِهِ الْمُتَحِيرِ

وقال المتنبي:

يَا أَيُّهَا الْمُحْسِنُ الْمَشْكُورُ مِنْ جِهَتِي وَالشُّكْرُ مِنْ قِبَلِ الْإِحْسَانِ لَا قَبْلِي

وقال ابن طباطبا^(١) فيمن يُستفاد منه ما يُمدح به:

(١) ابن طباطبا: هو أبو القاسم أحمد الشريف الحسيني المصري نقيب الطالبيين
بمصر، ترجم له ابن خلكان، وطباطبا: لقب جده إبراهيم، وذكره الثعالبي في النونية توفي

لَا تُنْكِرُنْ إِهْدَاءَنَا لَكَ هَنْطِقًا مِنْكَ اسْتَفَدْنَا حُسْنَهُ وَنِظَامَهُ
فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَشْكُرُ فِعْلَ مَنْ يَتَلَوُ عَلَيْهِ وَحِيَهُ وَكَلَامَهُ
وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (١) فيمن يليق به مدحه :
وَأَرَى الْمَدِيحَ إِذَا عَدَاكَ نَقِيصَةً فَأَعَافَهُ وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَاتِمِ
فَإِذَا امْتَدَحْتَ سِوَاكَ قَالَ الشُّعْرَى لَمْ تَرَعِ حَقِّي إِذْ أَبْحَثَ مَحَارِمِي
ووصف أعرابي رجلاً مجمعاً على مدحه : كَأَنَّ الْأَلْسَانَ وَالْقُلُوبَ رِيضَتْ
لَهُ ، فَمَا تُعَقِّدُ إِلَّا عَلَى وَدِّهِ ، وَلَا تَنْطِقُ إِلَّا بِحَمْدِهِ . وقال البحرى :
وَأَرَى الْخَلْقَ مُجْمَعِينَ عَلَى فَضْلِهِ مِنْ بَيْنِ سَيِّدٍ وَمَسْوُودٍ
عَرَفَ الْجَاهِلُونَ فَضْلَكَ بِالْعِزِّ لَمْ وَقَالَ الْجُهَّالُ بِالْإِقْلَامِ
وقال ابن الرومي :

يَأْمَنُ إِذَا قَاتُ فِيهِ صَالِحَةٌ عِنْدَ عَدُوِّ أَقْرَبٍ وَاعْتَرَفَا

وقال البحرى فى المُسْتَعْنَى عَنِ الْمَدْحِ لِكثْرَةِ فَضْلِهِ :

جَلَّ عَنِ مَذْهَبِ الْمَدِيحِ فَقَدْ كَادَ يَكُونُ الْمَدِيحُ فِيهِ هِجَاءً

وقال المتنبي :

تَجَاوَزَ قَدْرَ الْمَدْحِ حَتَّى كَانَهُ بِأَكْثَرِ مَا يُنْتَقَى عَلَيْهِ يُعَابُ

حَبُّ الْمُنْعِمِ أَنْ يُرَى أَثْرُ إِعْنَامِهِ

قال سيدنا رسول الله صلوات الله عليه : إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثْرُ

(١) هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الأديب الشاعر صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه وصاحب الأبيات المشهورة التي أولها :

يقولون لى فيك أنقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ ... قَالَ الْإِمَامُ الْمَنَارِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى الْجَامِعِ الصَّغِيرِ :
 قِيلَ مَعْنَى يُرَى : مَزِيدَ الشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى ، بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالشَّاءِ وَالذِّكْرِ لَهُ بِمَا
 هُوَ أَهْلُهُ ، وَالْعَطْفُ وَالتَّرْحُمُ ، وَالْإِنْفَاقُ مِنْ فَضْلِ مَا عِنْدَهُ ، وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ
 اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَالْحَلِيقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّهُمْ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ ، فَيُرَى أَثْرُ
 الْجِدَّةِ عَلَيْهِ زِيَاً وَإِنْفَاقاً وَشُكْرًا ، إِلَى آخِرِ مَا قَالُ ، وَهَكَذَا يُحِبُّ النَّاسُ أَنْ
 يُرَى أَثْرَ إِنْعَائِهِمْ عَلَى مَنْ يُنْعِمُونَ عَلَيْهِمْ ، رَوَى أَبُو هِلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ عَنْ
 الْعَتَبِيِّ مَا يَلِي : أَرَادَ جَمْعُ بْنُ يُحْيَى حَاجَةً كَانَ طَرِيقُهُ إِلَيْهَا عَلَى بَابِ الْأَصْمَعِيِّ
 وَبَدَفَعَ إِلَى خَادِمٍ لَهُ كَيْسًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ وَقَالَ : إِنِّي سَأَعْرِجُ فِي رَجْعَتِي عَلَى
 الْأَصْمَعِيِّ ، ثُمَّ سَيَحْدُثُنِي وَيُضْحِكُنِي ، فَإِذَا ضَحِكْتُ فَضَعِرَ الْكَيْسُ بَيْنَ يَدَيْهِ ،
 فَلَمَّا رَجَعَ وَدَخَلَ إِلَيْهِ رَأَى جُبًّا مَكْسُورًا^(١) الرَّأْسِ وَجِرَّةً مَكْسُورَةَ الْعُنُقِ ،
 وَقَضَعَةً مُشَعَّبَةً ، وَجَفَنَةً أَعْشَارًا ، وَرَأَى عَلَى مُصَلًى بِالِ عَلَيْهِ بَرْنَكَانَ^(٢)
 أَجْرُدًا ، فَمَمَّرَ عَلَامَتَهُ أَنْ لَا يَضَعُ الْكَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمْ يَدْعِ الْأَصْمَعِي شَيْئًا
 مِمَّا يُضْحِكُ النَّكْلَانَ وَالنُّضْبَانَ إِلَّا أَوْرَدَهُ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَتَبَسَّمْ ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ
 لِرَجُلٍ يُسَاطِرُهُ : مَنْ اسْتَرَعَى الذُّبَّ ظَلَمَ ، وَمَنْ زَرَعَ السِّبْخَةَ^(٣) حَصَدَ الْفَقْرَ ،
 إِنِّي وَاللَّهِ لَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا يَكْتُمُ الْمَعْرُوفَ بِالْفِعْلِ مَا حَفِلْتُ بِنُشْرِهِ
 لَهُ بِاللِّسَانِ ، وَأَيْنَ يَقَعُ مَدِيحُ اللِّسَانِ مِنْ آثَارِ الْعِيَانِ إِنْ اللِّسَانَ قَدْ
 يَكْذِبُ ، وَالْحَالُ لَا تَكْذِبُ ، وَاللَّهُ دَرُّ نُصَيْبٍ حَيْثُ يَقُولُ :

فَعَاجُوا فَأَنْتَوْنَا بِالذِّي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكْتُوا أَثْنْتُ عَلَيْكَ الْحَقَائِبَ

ثُمَّ قَالَ : أَعْلِمْتُ أَنَّ نَاوُوسَ أَبْرِيْزَ أَمْدَحُ لَأَبْرُوِيْزَ مِنْ زَهْرٍ لَّالِ سِنَانٍ !

(١) الحب : الخاية ، فارسي معرب (٢) برنكان على وزن زعفران :

ضرب من الاكسبة . (٣) أرض سبخة : ذات ملح ونز

وقالت الحكماء : لسان الحال أصدق من لسان الشكر : وقد أجاد ابن الرومي في هذا المعنى فقال :

حالي تبوح بما أوليت من حسن فكُل ما تدعيه غير مردود
كلّي هجاءٌ وقتلي لا يحل لكم فما يداويكم مني سوى الجود
وقالوا : شهادات الأحوال أعدل من شهادات الرجال

لا يمدحون إلا إذا أعطوا

واعتذارهم عن ذلك

قالت بنو تميم لسلامة بن جندل : مجدنا بشعرك ، فقال : افعلوا حتى أثنى ، ونحوه قول عمر بن ممد بكرب :

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت
وأجرت : قطعت ، يقول : لو قاتل قومي أو أبوا لذكرت ذلك ونفرت
به ، ولكن رماحهم أجرتني : أي قطعت لساني عن الكلام بفرارهم ، أراد
أنهم لم يقاتلوا

وقال بعض الأكاير لأبي هفان ^(١) : مالك لا تمدحني ؟ فقال :

لسان الشكر نطقه العطايا ويخرس عند منقطع النوال
وعاتب يوماً محمد بن عبد الملك الزيات الوزير أبا تمام على مدحه سواء
فاعتذر إليه بأبيات يقول فيها :

أما القوافي فقد حصلت عذرتها فما يصاب دم منها ولا سلب

(١) أبو هفان : هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزبي العبدي ، راوية عالم بالشعر والغريب ، وشعره جيد إلا أنه مقل وهو من شعراء الدولة الهاشمية .

مَتَّعَتَ إِلَّا مِنْ الْأَكْفَاءِ نَاكِحَهَا وَكَانَ مِنْكَ عَلَيْهَا الْعَطْفُ وَالْحَدَبُ
 لَوْ عَصَلَتْ عَنِ الْأَكْفَاءِ أَيْمَهَا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِي أَظْهَارِهَا أَرْبُ
 كَانَتْ بَنَاتٍ نُصِيبُ حِينَ ضَنَّ بِهَا عَلَى الْمَوَالِي وَلَمْ تَحْفَلِ بِهَا الْعَرَبُ

« العذرة : البكارة ، والحَدَبُ : الإشفاق ، وعَصَلُ الْإَيْتِمِ : فالإيم : التي
 لأزواج لها بكرا كانت أو ثيبا والجمع : أيتامى وأيايم ، وعَصَلُ الرَّجُلُ أَيْمَهُ
 يَعْضُلُهَا وَيَعْضُلُهَا عَضَلًا : مَنَعَهَا الزَّوْجَ طُلْمًا قَالَ تَعَالَى : فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ
 يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ، نَزَلَتْ فِي مَعْقِلِ بْنِ مَعْقِلِ بْنِ إِسَارِ الْمَزَنِيِّ - وَكَانَ زَوْجَ أُخْتِهِ
 رَجُلًا فَطَلَّقَهَا ، فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا خَطَبَهَا ، فَأَلَى أَنْ لَا يُزَوِّجَهُ إِبَاهَا وَرَغِبَتْ
 فِيهِ أُخْتُهُ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ ... وَكَانَ نُصِيبُ الشَّاعِرِ الْأَسْوَدُ لَهُ بَنَاتٌ وَكَانَ يَرَعُبُ
 عَنْ أَنْ يُزَوِّجَهُنَّ مِنَ الْمَوَالِي ، وَالْعَرَبُ لَا تَرَعُبُ فِيهِنَّ ، فَيَقِينُ بِلَا زَوْجٍ ،
 قِيلَ لَهُ يَوْمًا : مَا حَالُ بَنَاتِكَ ؟ فَقَالَ : صَبَبْتُ عَلَيْهِنَّ مِنْ جِلْدِي فَكَسَدْنَ عَلَيَّ ... ،
 وَكَتَبَ هَذَا الْوَزِيرُ الزِّيَاتُ إِلَى أَبِي تَمَامٍ يَوْمًا يَحْتَجُّ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ يَمْدَحُ غَيْرَهُ وَأَنَّهُ
 لَوْ اقْتَصَرَ عَلَيْهِ لِأَغْنَاهُ وَأَنْ كَثُرَةَ مَدْحُهُ النَّاسَ زَهَدَتَهُ فِيهِ :

رَأَيْتُكَ سَمِحَ الْبَيْعِ سَهْلًا وَإِنَّمَا يُغَالِي إِذَا مَاضَنَّ بِالشَّيْءِ بَائِعُهُ
 هُوَ الْمَاءُ إِنْ أَجْمَعْتَهُ طَابَ وَرُدُّهُ وَيَفْسُدُ مِنْهُ مَا تَبَاحَ شَرَائِعُهُ
 فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَبُو تَمَامٍ :

أَبَا جَعْفَرٍ إِنْ كُنْتَ أَصْبَحْتَ شَاعِرًا أَسْأهِلُ فِي بَيْعِي لَهُ مَنْ أَبَايَهُ
 فَتَدَ كُنْتَ قَبْلِي شَاعِرًا ذَارِوِيَّةً نَسْأهِلُ مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ بَضَائِعُهُ
 وَصِرْتَ وَزِيرًا وَالْوِزَارَةُ مَشْرَبٌ يَغْصُ بِهِ بَعْدَ الْأَذَاذَةِ كَارِعُهُ
 وَكَمْ مِنْ وَزِيرٍ قَدْ رَأَيْنَا مُسَلِّطًا رَأَيْنَاهُ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ مَطَالِعُهُ
 وَلِلَّهِ قَوْسٌ لَا تَطِيشُ سِهَابُهَا وَلِلَّهِ سَيْفٌ لَا تُقْلُ مَقَامُهُ

« يقول : إن سبَّه الله مصيبةً لا تُخطئُ وسيِّفه لا يثلم ألبتَّةَ ، فهو الذي جعلك
وزيرا ولو شاء لأنزلك عن دستك »

حشهم على الشكر ولو لمن ليس على دينهم

قال رجلٌ لسعيد بن جبَّير : المجوسىُّ يُولِينى خيرا فأشكره ، ويُسَلِّمُ علىَّ فأردُّ عليه ؟ فقال سعيد : سألتُ ابنَ عباسٍ عن نحوِ هذا ، فقال لى : لو قال لى فرعونُ خيرا لردَّدت عليه ... وسلَّم نصرانىُّ على الشَّعبىِّ ، فقال الشعبىُّ : وعليك السلام ورحمةُ الله ، فقال له رجلٌ : سبحان الله ، تقول لهذا النصرانىِّ ورحمةُ الله ! فقال الشَّعبىُّ : أليس فى رحمةِ الله يعيشُ ؟ قال : بلى ، قال : فما وجهُ الإنكارِ علىَّ عافاك الله ورحمنا وإياك برحمته ؟

استحياءُهم من المدح

ولا سيما إذا كان مُتكلفا أو مُبالغا فيه

سمع سيدنا رسول الله رجلا يُثنى على آخر ، فقال : قَطَعْتَ مَظَاهِ ، لو سمع ما أفلح « المطا : الظهر » وقالوا : استحياءُ الكريم من المدح أكثرُ من استحياء اللئيم من الذم ... وأثنى رجلٌ على هشام بن عبد الملك ، فقال : إنا نكفره المدح ، فقال : لستُ أمدحك ولكنى أحمدُ الله فىك ... وكان أبو بكر الصديق رضوان الله عليه يقول إذا مُدِح : اللهم ، أنت أعلم مِنى بنفسى منهم ، اللهم ، اجعلنى خيرا مما يحسبون ، واغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ... وكان رجلٌ يُكثِرُ الثناء علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعيِّلم من قلبه خلافَ قوله ، فقال له : أنا دونَ ما تقول ، وفوق ما فى نفسك ؛ وقال الجاحظ : شرُّ الشكر ، ثناءُ المُواجهِ لك المُسرِّفِ فى مدحك ،

وخَيْرُهُ، ثناء الغائب عنك ، المقتصد في وَصْفِكَ . وقالوا : كُنْ مِنْ أَفْرَطِ فِي
تَرْكِيمَتِكَ أَحَدَرَ مِنْ أَفْرَطِ فِي الزَّرَايَةِ بِكَ . وقالوا : مَنْ مَدَحَ الرَّجُلَ بِمَا لَيْسَ
فِيهِ فَقَدْ بَالَعَ فِي ذِمَّتِهِ . وقال أبو فراس الحمداني :

وَلَا تَقْبَلَنَّ الْقَوْلَ مِنْ كُلِّ قَائِلٍ سَأُرْضِيكَ مَرَأًى لَسْتُ أَرْضِيكَ مَسْمَعًا

وقال الفضيل بن عياض : لَوْ شِئْتُمْ رَائِحَةَ الذُّنُوبِ مِنِّي مَا قَرِبْتُمُونِي ...
وَأُنِّيَ عَلَى زَاهِدٍ ، فقال : لَوْ عَرَفْتَ مِنِّي مَا عَرَفْتَ مِنْ نَفْسِي لَأَبْغَضْتَنِي .
وقال المتنبي :

يُحَدِّثُ عَنْ فَضِيلِهِ مُكْرَهًا كَأَنَّ لَهُ مِنْهُ قَلْبًا حَسُودًا

من يمدح نفسه

خطب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه خُطْبَةً حَسَنَةً ، فقال : هل من
خَلِيلٍ ؟ فقال رجل من عُرُضِ النَّاسِ : خَلِيلُ الْمُخْتَلِ ، فاستدعاه وقال :
مَا ذَاكَ الْخَلِيلِ ؟ قال : إِعْجَابُكَ بِهِ وَمَدْحُكَ لَهُ ... وقيل للحكيم : مَا الَّذِي لَا يَحْسُنُ
وَإِنْ كَانَ حَقًّا ؟ قال : مَدْحُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ ... وقال معاوية لرجلٍ : مَنْ سَيِّدُ
قَوْمِكَ ؟ فقال : أَنَا ، فقال له : لَوْ كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ تَقُلْهُ ... ومن طُرْفِهِمْ
فِي ذَلِكَ مَا رَوَى عَنْ بَعْضِ الشُّعْرَاءِ أَنَّهُ سُئِلَ : كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟ فقال : أَصْبَحْتُ
وَاللَّهِ أَظْرَفَ النَّاسِ وَأَشْعَرَ النَّاسِ وَأَدَبَ النَّاسِ ، فقال السائل : أَسَكْتَ حَتَّى
يَقُولَ النَّاسُ ذَلِكَ ، فقال : أَنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَتَنْظُرُ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ وَلَيْسُوا
يَقُولُونَ ... وَمَدَحَ أَعْرَابِيٌّ نَفْسَهُ فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ ، فقال : أَأَكَلَهُ إِلَيْكُمْ الْإِذْنَ وَاللَّهِ
لَا تَقُولُوا أَبَدًا ...

عذر من يُضطرّ إلى مدح نفسه

قال ابن الرومي في ذلك :

وعَزِيزٌ عَلَيَّ مَدْحِي لِنَفْسِي غَيْرَ أَنِّي جُشِّمْتُهُ الدَّلَالَةَ
وَهُوَ عَيْبٌ يَكَادُ يَسْقُطُ فِيهِ كُلُّ حُرٍّ يُرِيدُ يُظْهِرُ حَالَهُ

ووصف لأبي جعفر المنصور بعض الأفاضل ، فأمر بإشخاصه إليه ؛ فلما دخل قال له : أعالمٌ أنت ؟ فقال : أكره أن أقول : نعم ، وفيه مافيه ، أو أقول : لا ، فأكون جاهلاً . فأعجب المنصور بجوابه وألزمه المهدي

نهيهم عن المدح قبل الاختبار

قالوا : لا تعرف قبل أن تعرف «أى لا تمدح قبل التجربة، وأصل الهرف : الهديان قال الأزهرى : الهرف : شبه الهديان من الإعجاب بالشيء يقال : هو يهرف بفلانٍ نهاره كله هرفاً ، وقالوا : لا تمدح أمةً عامٍ شرايها ، ولا حرةً قبل بنائها «قبل الدخول بها»... وقال رجل لعمر رضى الله عنه : إن فلاناً رجلٌ صدق ، فقال : هل سافرت معه ، أو ائتمنته ؟ قال : لا ، فقال : إذن لا تمدحه ، فلا علم لك به ، لعلك رأيته يرفع رأسه ويخفضه في المسجد

ختام الباب

عقريات شتى في الشكر

قال أبو ذرّ : قلتُ للنبيّ صلى الله عليه وسلم : الرجل يعمل العمل ويحبه الناس ؟ قال : تلك عاجلٌ بُشِّرَى المؤمن ... وقال صلوات الله عليه : إذا أردتُم أن تعملوا مالمالعبد عند الله فانظروا ماذا يتبعه من الشاء ...

وقال شاعر :

عُثْمَانُ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَمْدَ ذُو مِثْلِ لَكِنَّهُ يَشْتَهِي حَمْدًا بِمِجَانٍ
وَالنَّاسُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَحْمَدُوا رَجُلًا

حتى يَرَوْا قَبْلَهُ آثَارَ إِحْسَانٍ

وقال معاوية بن أبي سفيان يُعَارِبُ قُرَيْشًا :

إِذَا أَنَا أُعْطِيتُ الْقَلِيلَ شَكَوْتُمْ وَإِن أَنَا أُعْطِيتُ الْكَثِيرَ فَلَا تُشْكُرُونَ

وَمَا لُمْتُ نَفْسِي فِي قَضَاءِ حُقُوقِكُمْ وَقَدْ كَانَ لِي فِيهَا اعْتَدَرْتُ بِهِ عُذْرٌ

وَأَمْنَحُكُمْ مَالِي وَتُكْتَمِرُ نِعْمَتِي وَتَشْتِمُ عَرَضِي فِي مَجَالِهَا فَهَرُ (١)

إِذَا الْعُذْرُ لَمْ يُقْبَلْ وَلَمْ يَنْفَعِ الْآسَى وَضَاقَتْ قُلُوبُ مَنْهُمْ حَشُوهَا الْغَمْرُ (٢)

فَكَيْفَ أَدَاوِي دَاءَكُمْ وَدَوَاؤُكُمْ يَزِيدُكُمْ غَيْبًا ! فَقَدْ عَظُمَ الْأَمْرُ (٣)

سَاحِرِ مُكُمْ حَتَّى يَذِلَّ صِعَابُكُمْ وَأَبَاحُ شَيْءٍ فِي صَلَاحِكُمْ الْفَقْرُ (٤)

وقال ابن الرومي :

كَمْ مِنْ يَدٍ بَيْضَاءَ قَدْ أَسَدَيْتَهَا تَنَنِي إِلَيْكَ عِنَانٌ كُلٌّ وَدَادِ

شَكَرَ إِلَاهُ صَنَائِعًا أَوْلَيْتَهَا سَلَكَتْ مَعَ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ

وقال الشريف الرضي :

أَلْبَسْتَنِي نِعْمًا عَلَى نِعْمٍ وَرَفَعْتَ لِي عِلْمًا عَلَى عِلْمٍ

وَعَلَوْتَ بِي حَتَّى تَمَشَيْتُ عَلَى بُسْطٍ مِنَ الْأَعْتَاقِ وَالْقِمَمِ

فَلَا شُكْرَ نَبْدِيكَ مَا شُكْرَتُ خُضِرُ الرِّيَاضِ مَصَانِعِ الدِّيمِ

(١) فهر : هو فهر بن غالب بن النضر بن كنانة ثم سمي به القبيلة وقريش كلهم ينسبون إليه

(٢) الآسى : العلاج والدواء والإصلاح والعدل ، والغمر : الحقد

(٣) الغي : الضلال (٤) يذل : ينقاد

فالحمدُ يُقْبَى ذِكْرُ كُلِّ قَتِيٍّ وَبَيْنُ قَدَرِهِ وَوَأَقِعِ الْكَرِيمِ
وَالشُّكْرُ مَهْرٌ لِلصَّنِيعَةِ إِنْ طُلِبَتْ مَهْوَرُ عَقَائِلِ النَّعَمِ.

« القم جمع قمة : أعلى الرأس وأعلى كل شيء ، والديم جمع ديمة : المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق يدوم ثلث نهار أو ثلث ليل فأكثر ، والصنعة : ما أسديت من معروف ، والعقائل : كرائم الأموال ، وقال رجل لبعض ذوى السلطان : المواجهته بالشكر ضرب من الملق ، منسوب من عُرف به إلى التَخَاتِي ، وأنت تمنعني من ذلك ، وترفع الحال بيننا عنه ، ولذلك تَرَكَتُ إِقَاءَكَ بِهِ ، غيرَ أَنِي مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِمَعْرِفِكَ ، وَنَشَرِ مَا تُطْوِي مِنْهُ ، وَالْإِشَادَةِ بِذِكْرِهِ عِنْدَ إِخْوَانِكَ ، وَالْإِنْتِسَابِ إِلَى التَّقْصِيرِ مَعَ الْإِطْنَابِ فِي وَصْفِهِ ، عَلَى مَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ بَلَغْتُ بِهِ حَالَ الْمُحْتَمَلِ لِلصَّنِيعَةِ النَّاهِيضِ بِحَقِّ النَّعْمَةِ . وَقَالَ أَبُو يَعْقُوبَ الْخُرَيْمِيُّ :

زَادَ مَعْرِوْفَكَ عِنْدِي عِظْمًا أَنَّهُ عِنْدَكَ مَحْقُورٌ صَغِيرُ
تَنَاسَاهُ كَأَن لَمْ تَأْتِهِ وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرُ
وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا تَتَّقِ بِشُكْرٍ مِنْ تُعْطِيهِ حَتَّى تَمْنَعَهُ ، فَإِنَّ الصَّابِرَ هُوَ
الشَّاكِرُ ، وَالْجَازِعُ هُوَ الْكَافِرُ ... وَقَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا أَنَا لَمْ أَشْكُرْ عَلَى الْخَيْرِ أَهْلُهُ وَلَمْ أَذُمَّ الْجَبْسَ اللَّيِّمَ الْمُدَمَّمَا (١)
فَقِيمَ عَرَفْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِاسْمِهِ وَشَقَّ لِي اللَّهُ الْمَسَاعِغَ وَالْفَمَا
وَقَالَ ابْنُ التَّوَعَمِ (٢) : كُلُّ مَنْ كَانَ ، جَوْدُهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَوْلَا رُجُوعُهُ
إِلَيْهِ لَمَا جَادَ عِيَالِكَ ، وَلَوْ تَمَيَّأَ لَهُ ذَلِكَ الْمَعْنَى فِي سِرْوَاكِ لَمَا قَصَدَ إِلَيْكَ ،
فَلَيْسَ يَجِبُ لَهُ عَلَيْكَ شُكْرٌ ، وَإِنَّمَا يُوصَفُ بِالْجُودِ فِي الْحَقِيقَةِ وَيُشْكَرُ عَلَى

(١) الجبس : النذل الذم . (٢) هو عتبة بن التوعم من رجال الحديث

النَّعْفِ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ ، الذِّي إِنْ جَادَ عَلَيْكَ فَلَمَّا جَادَ ، وَنَفَعَكَ أَرَادَ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ جُودُهُ بِشَيْءٍ مِنَ النَّفْعِ عَلَى جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لِأَشْرِيكَ لَهُ ، فَإِنْ شَكَرْنَا النَّاسَ عَلَى بَعْضِ مَا جَرَى لَنَا عَلَى أَيْدِيهِمْ ، فَلِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا التَّعَبُّدُ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْظِيمِ الْوَالِدِينَ وَإِنْ كَانَا شَيْطَانَيْنِ ، وَتَعْظِيمِهِمْ مِنْهُ وَأَسْنُ مِنْهَا وَإِنْ كُنَّا أَفْضَلَ مِنْهُ . وَالْآخَرُ : لِأَنَّ النَّفْسَ مَا لَا تُحْصَلُ الْأُمُورَ وَتُمَيِّزُ الْمَعَانِيَ ، فَالسَّابِقُ إِلَيْهَا حُبٌّ ، مَنْ جَرَى لَهَا عَلَى يَدَيْهِ التَّخِيرُ وَإِنْ كَانَ لَمْ يُرْزَها وَلَمْ يَقْصِدْ إِلَيْهَا . أَلَا تَرَى أَنَّ عَطِيَّةَ الرَّجُلِ صَاحِبَهُ لِتَخْلُوَ أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ أَوْ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ فَتَوَابَهُ عَلَى اللَّهِ ، وَكَيْفَ يَجِبُ فِي حُجَّةِ الْعَقْلِ شُكْرُهُ وَهُوَ لَوْ صَادَفَ ابْنَ سَبِيلٍ غَيْرِي لَمَا أُعْطَانِي ، وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ لِلذِّكْرِ ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّمَا جَعَلَنِي سُلْمًا إِلَى حَاجَتِهِ وَسِبْأً إِلَى بُغْيَتِهِ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ إِيَّايَ طَلِبًا لِلْمُكَافَأَةِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ تِجَارَةٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِخَرِيفِ يَدِي أَوْ لِسَانِي أَوْ اجْتِرَارِ مَعُونَتِي وَنُصْرَتِي ، وَسَبِيلٌ هَذَا مَعْرُوفٌ ، أَوْ يَكُونَ إِعْطَاؤُهُ لِلرَّحْمَةِ وَالرَّفَقَةِ وَلِمَا يَجِدُ فِي فَوَادِهِ مِنَ انْتِصَرِ وَالْأَلَمِ ، فَإِنَّمَا دَاوَى بِتِلْكَ الْعَطِيَّةِ مِنْ دَائِهِ ، وَرَفَقَهُ مِنْ خِنَاةِهِ ... وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

أُنْثِي عَلَيْكَ وَلى حَالٌ تُكْذِّبُنِي فِيمَا أَقُولُ فَاسْتَجِي مِنَ النَّاسِ

قَدَقْتُ إِنْ أَبَاحَ حَفِصٌ لِأَكْرَمٍ مِنْ بَشِي نِخَاصِنِي فِي ذَلِكَ إِفْلَاسِي

وَكَانَتْ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مِنْ أُنْثَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

وَقَالُوا : خَمْسَةُ أَشْيَاءَ ضَائِعَةٌ : سِرَاجٌ يُوقَدُ فِي شَمْسٍ ، وَهَطْرٌ جَوْدٌ فِي

سَخِيَّةٍ ، وَحَسَنَاءُ تُزْفُ إِلَى عَنِينٍ ، وَطَعَامٌ اسْتُجِيدَ وَوُدٌّ إِلَى سَكْرَانٍ ،

وَمَعْرُوفٌ صُنِعَ إِلَى مَنْ لَا شُكْرَ لَهُ ...

الباب الثالث

في الصبر وعبرياتهم فيه ، وفي الدنيا وأكدارها ، وفي هادم اللذات
ماذا يُراد بالصبر في هذا الباب ؟

قال علماء اللغة : الصبرُ : نقيضُ الجزعِ ، أو حبسُ النفس عند الجزع ،
يقال : صبرَ فلانٌ عند المصيبة يَصْبِرُ صَبْرًا ، وصَبْرُهُ أَنَا : حبسُهُ ، والتَّصَبُّرُ :
تكلفُ الصبرِ ، قال عمر رضی الله عنه : أفضلُ الصبرِ : التَّصَبُّرُ ... وقال الراغب
الأصفهاني في الذريعة : الصبرُ ضربانٍ : جِسْمِيٌّ ونَفْسِيٌّ ، فالجِسْمِيٌّ : هو تحمُّلُ
المشاقِّ بقدر القوَّة البدنية ، وأكثرُها لذوى الجسوم الحُشِنَةِ ، وليس ذلك
لفضيلة تامَّة ، وذلك في الفعل كالمشى ورفع الحجر ، وفي الانفعال كالصبر
على المرض ، والنفسِيُّ - وبه تُسَلَّقُ الفضيلة - ضربانٌ : صبرٌ عن تناول
مُشْتَهَى ، ويقال له : العِفَّةُ ؛ وصبرٌ على تحمل مكرهه أو مُحْبُوبٍ ، وهذا
تختلف أسماؤه بحسب اختلاف مواقفه ، فإذا كان في نزول مُصِيبَةٍ فإنه مما
استبَدَّ به اسم الصبر ، وضده الجزع والملع والحزن ، وإن كان في احتمال
عَنَى فقد سُمِّيَ ضبط النفس وِيضَاؤُهُ الدَّقْعُ والبَطْرُ ، ^(١) وإن كان في محاربة
سُمِّيَ شجاعة وِيضَاؤُهُ : الجبن ، وإن كان في إمساك النفس عن قضاء وطر
الغضب سُمِّيَ حِلْمًا ، وِيضَاؤُهُ : التذمُّرُ ^(٢) ، وإن كان في نائبةٍ مُضْجِرَةٍ سُمِّيَ
سَعَةُ الصدر ؛ وِيضَاؤُهُ ضيق الصدر والضجر والتبرُّم ، وإن كان في إمساك كلام

(١) الدقع : الرضا بالدون من المعيشة وسوء احتمال الفقر ، والبطر : الطغيان في النعمة

(٢) التذمر : الغضب ومنه : فلان حامى الذمار وهو كل ما يلزمك حفظه وحياطته .

وحمايته وما يجب على أهله التذمر له والغضب من أن ينال منه

في الضمير سُمِّي كتمان سرّاً، ويزادُه: الإفشاء، وإن كان في الإمساك عن فضولات العيش سمي قناعة وزهداً، وهذا يصادُه: الحرص والشرّة...
«وبعد» فها أنت ذا ترى بما أوردنا عليك من كلام الراغب: أن الصبر ألوانٌ، ومن أخص ألوانه: الصبر على المصائب، ذلك الذي يصادُه الجزع وهذا اللون هو الذي سوف تصدّي له في هذا الباب، أمّا سائر الألوان فإن لكل منها باباً لقد عقدناه فيما يلي هذا الباب من الأبواب.

عقرياتهم في الصبر

قال الراغب في فصل عنوانه «مداواة الغم وإزالة الخوف» مع شيء من التصرف: خَلِيقٌ بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الدُّنْيَا جَمَّةٌ الْمَصَابِ رَنْقَةٌ الْمَشَارِبُ تُشْمِرُ لِلْبَرِيَّةِ أضعافُ الْبَلِيَّةِ^(١)، فيها مع كلُّ لُقْمَةٍ عَصَّةٌ^(٢)، ومع كلِّ جُرْعَةٍ شَرْقَةٌ^(٣)، فهي عَدْوَةٌ وَمَحْبُوبَةٌ كما قال أبو نواس:

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لِبَيْبٍ تَكشَفَتْ لَهُ عَنْ عَدْوٍ فِي نِيَابِ صَدِيقٍ

وكما روى عن الحسن البصري أنه قال: ما مثلنا مع الدنيا إلا كما قال كثير:

أَسِيْبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لِأَمَلُومَةٍ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتِ^(٤)

(١) البرية: الخلق، وأضعاف البلية يريد البلية مضاعفة والبلية: المحنة

(٢) العصّة: الشجى - ما ينشب في الخلق من عظم وغيره

(٣) الجرعة من الماء: حسوة منه، والشرقة: الغصة وليكنه بالماء والريق ونحوهما

قال عدى بن زيد:

لَوْ بَغَيْرِ الْمَاءِ حَلَقِي شَرِيقٌ كُنْتُ كَالنَّصَانِ بِالْمَاءِ اعْتِصَارِي

(٤) مقليّة: مكروهة، وهتات بحذف إحدى التامين وتقلب الشيء: تبغض، خاطب

كثيرهم غائب

فما أحدٌ فيها إلا وهو في كلِّ حالته غَرَضٌ لِلسَّاهِمِها :

تُناضِلُهُ الآفاتُ مِنْ كُلِّ جانبٍ فُتُخِطُّهُ يوماً ويوماً تَصِيبُهُ ^(١)

وقال بعض الحكماء : أسباب الحزن فقدُ محبوبٍ أو فوتُ مطلوبٍ ، ولا يَسَلِّمُ منهما إنسان ، لأن الثبات والدوام معدومان في عالم الكون والفساد . فمن أحبَّ أن يعيش هو وأهله وأحبابه سالمين فهوَ غيرُ عاقل ، لأنه يريدُ أن يَمْلِكَ ما لا يُملِكُ ، ويوجد له ما لا يوجد ، فحقيقٌ بالمرء أن لا يُخْلِ قلبه من الاعتبار بما يَرى ، من ارتجاع لودائنها من أربابها ، وحلول لنوائبها بأصحابها .

ثم من حقّه أن يقلل من اقتناء ما يُورِثُه الحزن ، فقد قيل للحكيم : لم لا نغتم ؟ فقال : لأنى لم أقتن ما يُغْمِي فقدُه ، أخذُه الشاعر فقال :

فمن سره أن لا يرى مايسوؤه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وقيل للحكيم : هل الإنسان أن يعيش آمناً ؟ قال : نعم ، إذا احترس من الخطيئة ، وقنع بحلاله ، ولم يجزن لما هو واقع به لاحالة . واعلم أن الجزع على ما فات لا يعلم ما تشعث ولا يُبرم ما انتكت ؛ فأما غمه على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة أوجه : إما في شيء ممتنع كونه ، أو واجب كونه ، أو ممكن ، فإن كان على ما هو ممتنع كونه فليس ذلك من شأن العقلاء ، وكذلك إذا كان من قبيل الواجب كونه ، كالموت الذى هو حتمٌ في رقاب العباد ، وإن كان ممكناً كونه فإن كان من الممكن الذى لا سبيل إلى دفعه كما كان الموت قبل الهرم فالحزن له جهل ، واستجلابٌ غمٍ ، وإن كان من الممكن الذى يصح دفعه فالوجه أن يحتال إلى دفعه بفعلٍ غير مشوبٍ بجزن ، فإن دفعه وإلا

(١) ناضله مناظلة فضله : باراه فى الرى نغله

تلقاه بصبرٍ، وليتحقق قوله عز وجل: ما أصاب من مُصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسكم، فمن عَلِمَ أنَّ ما جَرَى في حكمه، وسَبَقَ في عِلْمِهِ لاسبيل إلى أن لا يكون، هانت عليه الثُّوبُ، واعلم أن الذي يَغُرُّ النَّاسَ هو حسنُ ظَنِّهم باغترارِ الآفاتِ، واغترارُهم حالة بعد حالة بصفاء الأوقات، ولو تأملوها لتحقَّتوا أنها كما قال عليُّ رضي اللهُ تعالى عنه: ما قال الناسُ لقرمِ طوبى لکم إلا وقد خبأَ الدهرُ لهم يومَ سوءٍ:

إنَّ اللياليَ لم تُحسِنِ إلى أحدٍ إلا أساءتْ إليه بمدَّ إحسانٍ

انتهى كلام الراغب، ومن أبدع ما قيل في الصبر والجزع قول ابن الرومي:

أرى الصبرَ محموداً وعنه مذاهبٌ فكيف إذا لم يكنْ عنه مذهبٌ^(١)
هناك يَحِقُّ الصبرُ والصبرُ واجبٌ وما كان منه كالضرورةٍ أوْجبٌ^(٢)
فشدَّ امرؤُ بالصبرِ ككفاً فإنه له عِصمةٌ أسبابها لا تَقْضُبُ^(٣)
هو المَهْرَبُ المُنْجِي لمنْ أهدقتْ به مَكَارِهِ دهرٍ ليس منهنَّ مَهْرَبٌ^(٤)
أعدُّ خِلالاً فيه ليس لعاقِلٍ

من الناس - إن أنصفن - عنهن مرغب^(٥)

لبؤس جمال، جُنَّةٌ من شماتةٍ شفاء أسي يُثني به ويثوب^(٦)

(٢٠١) يقول: إن صبر الإنسان على ما يناله من مكروه أو عما يريد نيله من

محبوب: محمود، ولو أنه يجد طرقاً كثيرة يتخلص بها من المكروه أو يحصل بها على الرغائب، فكيف إذا لم يجد وسيلة إلى إزالة المكروه أو إدراك المرغوب؟ لا شك

أن الصبر إذن واجب وما كان منه أشبه بالضرورة أعظم وجوباً

(٤٠٣) فشدَّ امرؤ بالصبر ككفاً يقول: خُلق بالمرء أن يستظهر بالصبر على تحمل

المكروه، إذ أن الصبر عصمة وثيقة لا تنقطع حبالها فنعَم الملاجأ هو لمن أحاطت به

نوائب الدهر التي لا محيص عنها

(٦٠٥) يقول: إن في الصبر خِلالاً لا يلبق بعاقل أن يتركها إذا كان هناك إصناف

فِيَا عَجَبًا لِلشَّيْءِ هَدَى خِلَالَهُ وَتَارَكَ مَا فِيهِ مِنَ الْحِظِّ أَعْجَبُ
 وَقَدْ يَتَّظَى النَّاسُ أَنْ أَسَاهُمْ وَصَبْرَهُمْ فِيهِمْ؛ طِبَاعُ مُرَكَّبٍ (١)
 وَأَنْهُمَا لَيْسَا كَشَيْءٍ مُصَرَّفٍ يُصَرِّفُهُ ذُو نَكْبَةٍ حِينَ يُنْكَبُ
 فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَأْتِيَ أَطَاعَ لَهُ الْآسَى وَإِنْ شَاءَ صَبْرًا جَاءَهُ الصَّبْرُ يُجَابُ
 وَلَكِنْ ضَرُورِيَانِ كَالشَّيْءِ يُبْتَلَى بِهِ الْمَرْءُ مَغْلُوبًا وَكَالشَّيْءِ يَذْهَبُ
 وَأَيْسَا كَمَا ظَنُّوهُمَا ، بَلْ كِلَاهُمَا لِكُلِّ لَيْبٍ مُسْتَطَاعٌ مُسَبَّبٌ (٢)
 يُصَرِّفُهُ الْمُخْتَارُ مِنْهَا ، فَتَارَةً يُرَادُ فِيهَا أَيْ أَوْ يُدَادُ فَيَذْهَبُ (٣)

ومعدلة، وهذه الخلال هي: أن الصبر لبوس جمال، أي أنه زينة وحلية جميلة، وأنه جنة من شمانة، أي وقاية من فرح الأعداء بما يصاب به المرء:

وَتَجَلِّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ أَنِّي لَرَيْبٍ الدَّهْرَ لَا أَتَضَعُّعُ
 وَأَنَّهُ شَفَاءُ أَسَى ، أَى مَذْهَبٌ لِلْحَزَنِ ، وَأَنَّهُ يَثْبِي بِهِ ، أَى أَنَّهُ مَدْرَجَةٌ لِلْحَصُولِ عَلَى
 النَّشَاءِ ، وَأَنَّهُ يَثُوبُ ، أَى يَجَازِي عَلَيْهِ

(١) يتظنى أصلها: يتظن، أي يعملون الظن، أي يذهبون مع ظنهم، والآسى: الحزن، وطباع: أي طبع، يقول: وقد يظن الناس أن الحزن والصبر طبع، لا حيلة لمن طبعه الحزن في أن يصبر، ولا لمن طبعه الصبر أن يحزن، ثم قال في البيت التالي: وأن كلا الحزن والصبر ليسا من الأشياء التي يمكن تحويلها من حال إلى حال حتى يحولها المنكوب المصاب فإذا أراد الحزن أطاعه الحزن وإن أراد الصبر والتجلد جلبا إليه - وهذا معنى قوله فإن شاء... البيت، ثم قال: ولكن يظن الناس أن كلا من الآسى والصبر ضروريان كأن الحزن شيء يملك على الإنسان أمره لا حيلة له في التخلي عنه وكذلك الصبر ترى الإنسان يصبر كما لو ضاع منه شيء لا بد أن يتحمل فقدسه أي يصبر على ضياعه ثم فند هذا بقوله: وليسا كما ظنوهما... الآيات

(٢) يقول: وليس الحزن والصبر كما يظنهما الناس وإنماهما بما يقدر عليه ومن المستطاع التصرف فيهما والتنسب لتحويل كل منهما وتركه إلى الآخر

(٣) المختار: ذو الإرادة، ويداد: يدفع ويبعد

إذا احتجَّ مُحْتَجٌّ عَلَى النَّفْسِ لَمْ تَكْذُ عَلَى قَدَرٍ يُعْنِي لَهَا تَتَعَبُّ (١)
 وساعدها الصبرُ الجميلُ فأقبلتُ إليهما له طوعاً جَنَائِبُ يُجْنَبُ (٢)
 وإن هو مَنَّاها الأباطيلَ لم تزلْ تُقَارِلُ بِالْعَتَبِ القِضَاءُ وَتُغْلِبُ (٣)
 فتُضِحِي جَزوعاً إنْ أَصَابَتْ مُصِيبَةٌ وَتُسَبِّحِي هَلوعاً إنْ تَعَذَّرَ مَطْلَبُ (٤)
 فلا يَعِدِرَنَّ التَّارِكُ الصَّبْرَ نَفْسَهُ بَأْنَ قِيلَ: إنَّ الصَّبْرَ لَا يُتَكَسَّبُ (٥)

وقال الأصمعيُّ: أحسنُ ما قيلَ في الصبرِ مع الشرحِ قولُ أبي ذؤيبِ الهذليِّ:

وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ
 حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ بِصَفَا المُشَقَّرِ كُلِّ يَوْمٍ تُفْرَعُ

ولا أتضعع: لا أذلُّ ولا أخضع، وريب الدهر: صرْفُهُ، والمرؤة واحدة

المرؤ وهى: حجارة بيض براقه يقدر منها النار: ومرؤة المسمى التى تذكر مع

الصفاء فى الحج- وهى أحد رأسيه اللذين ينتهى السعى إليهما- سميت بذلك، وبصفا

(١) يعنى: يقدر يقول: إذا أقمت للنفس الدليل على أن الصبر اختيارى مكتسب

ثم ألمت بها المصائب فإنها تقتع ولا تعتب على القضاء والقدر

(٢) الجنائب جمع جنيب وهو الفرس يجنب إلى الفرس حتى إذا فتر المركوب ركب

المجنوب، وله متعاقب بجنائب أى جنائب للصبر، يقول: متى اطمأنت النفس إلى الدليل

على أن الصبر مكتسب وتركت عتاب القدر ساعدها على تحمل مصائبها صبر جميل

يواتها مسعفا

(٣) يقول: أما إذا تركت النفس تذهب مع الأوهام والأباطيل فإنها لا تزال فى

عتب على القضاء والقدر مما أصابها ولا تزال آتت عتبا وبلا فائدة حتى تقهر وتغلب

(٤) الهلوع: الجزوع جزعا شديدا يقول: فيشتد جزعها إذا أصابها مصيبة ويشتد

أكثر إذا فاتها مطلب من مطالبها

(٥) يقول: لا عذر لمن يترك الصبر اغترارا بقول القائل: إن الصبر طبع غير

مكتسب إذ ظهر أن هذا القول باطل وأن الحق أن الصبر اكتسابى

المشقر يروى : بصفا المشرق ، أما المشقر فهو : موضع أو حصن بالبحرين قديم بناه كسرى ، والمشرق فهو : جبل يسوق الطائف ، والصفاء : جمع صفاة : صخرة ملساء وبه سمي أحد جبلي المسعى ؛ وهذان البيتان من قصيدة أبي ذؤيب ^(١) التي يرثي بها بنيه الخمسة وقدماتوا في عام واحد ، وأولها :

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرَبِيهِ تَوَجَّعُ وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَن يَجْزَعُ ^(٢)
 قَالَتْ أُمَامَةٌ : مَا لِجِسْمِكَ شَاحِبًا مُنْذُ ابْتُلَيْتَ وَمِثْلَ مَا لِكَ يَنْفَعُ ^(٣)
 أَمْ مَا لِجِسْمِكَ لَا يَلَامُ مَضْجَعًا إِلَّا أَقْضَ عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ ^(٤)

يروى أن عبد الله بن عباس رضى الله عنه استأذن على معاوية في مرض موته ليعودته ، فأدهن واكتحل - أى معاوية - وأمر أن يقعد ويسند وقال : إندنوا له ، وأيسلم قائما ولينصرف ، فلما سلم عليه وولى ، أنشد معاوية قول أبي ذؤيب : وتجلدى للشامتين ... أليت : فاجابه ابن عباس على الفور :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
 ثم ماخرج من داره حتى سمع نعيه ... وقال ضابط بن الحارث البرجمي من أبيات قالها في سجن عثمان بن عفان رضى الله عنه :

وَرُبَّ أُمُورٍ لَا تَصِيرُكَ ضَيْرَةً وَلِلْقَلْبِ مِنْ مَخْشَاتِهِنَّ وَجِيبُ
 وَلَا خَيْرَ فِي مَنْ لَا يُوْطِنُ نَفْسَهُ عَلَى نَائِبَاتِ الذَّهْرِ حِينَ تَنْوِبُ

- (١) أبو ذؤيب الهذلي : شاعر مخضرم أدرك الإسلام وأسلم
 (٢) المنون هنا : الدهر فلذلك ذكره ، ومن أراد به المنية أتمته ، معتب : مزيل عتبة ، أى مريض
 (٣) ومثل مالك ينفع ، يقول : ما لجسمك شاحبا ومثل مالك لا يكون معه هزال ولا شحوب لأنه واسع مبذول
 (٤) إلا أقض عليك ذاك المضجع : أى تجده كأن فيه قضة وهي : الحصا الصغار

« قوله : لا تضيرك ضيرة ، فالعرب تقول : ضارُهُ يضيرُهُ ضيراً و ضيرةً -
 المرّة من الضير - ولا ضيرٌ عليك ، وضره يضره ولا ضررَ عليه ، والخشاة :
 مصدر خشية يخشاه خشية و خشاة و مخشية : خافه ، وفي معنى هذا البيت يقول
 أبو العتاهية :

وقد يهلك الإنسان من بابٍ أُنه وينجو بإذن الله من حيث يُحذرُ
 والأصل في هذا قوله عز وجل : وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله
 فيه خيراً كثيراً ، وقوله : ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... البيت : نظيره
 قول كثير عزة :

أقول لها : يا عَزْ ، كلُّ مُصيبة إذا وُطِنَتْ يوماً لها النفسُ ذات

قال عبد الملك : لو قال كثير هذا البيت في صفة الحرب لكان أشعر الناس ،
 وفي الأثر : للمحن أوقاتٌ ولها غايات ، واجتهاد العبد في محنته قبل إزالة الله لها ،
 زيادة فيها قال تعالى : إن أرادني الله بضرٍ هل هُنَّ كاشفاتُ ضره أو أرادني
 برحمة هل هُنَّ مُمسِكَاتُ رحمته ، قلُ حسيبَ الله عليه يتوكلُ المتوكلون ...
 وقولوا : الممتحنُ كالمُختنقِ كلما ازدادَ اضطراباً ازدادَ اختناقاً ... وحكى عن
 بعض الصالحين : أزا بنا له مات فلم يرَ به جزعٌ ، فقيل له في ذلك فقال : هذا أمرٌ
 كنا توقعه ، فلما وقع لم نُنكره ... وقالوا : من أراد طولَ البقاء فليوطن نفسه
 على المصائب ؛ وقالوا : المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان ، وقال أكرم بن
 صَيْفِي : حيلةٌ من لا حيلةَ له : الصبر . وسيد الكلام في الصبر قول المصطفى
 صلوات الله عليه : لو كان الصبرُ رجلاً لكان رجلاً كريماً الكريم ضد اللئيم ،

عود إلى أسباب الحزن

وقال الفيلسوف أبو يعقوب الكِنْدِيُّ: أسباب الحزن: فَقَدْ محبوب ، أر
توت مطلوب ، ولا يَسْلُمُ منهما إنسانٌ ، لأن الثباتَ والدوامَ معدومان في
عالم الكونِ والفساد ؛ وقال الحسن البصرى : الدنيا دارُ غمومٍ ، فمن عُوِجَلَ
فُجِعَ بنفسه ، ومن أُجِّلَ فُجِعَ بأجابه ؛ وقال بعض الفلاسفة : مَنْ أراد أن
لا يُصابَ بِمُصِيبَةٍ ، فقد أرادَ ما لا يكون ، لأن المصائب في عالم الكون والفساد
طبع بالطبع ؛ فيدبغى أن يكون منا على بال : أن جميع الأشياء التي تَصِلُ إلينا
كانت قَبْلَنا لغيرنا ، فانتقلت إلينا على شريطة ما كان لمن قَبْلنا... وقيل لُسُقراطُ :
مالك لا تجرُع ؟ قال : لأنى لا أقتنى ما يحزُنُنِي فَقَدَهُ ... وقال ابن الرومى في
هذا المعنى :

وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ لَا يَرَى مَا يَسُوؤُهُ فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقَدًا
أقول : يريدون بذلك : أنه لا بُدَّ في هذه الدنيا من المصائب مادام ، هناك
قُنْيَةٌ من مال وولد وما إليهما من كل ما هو مُسْتَهْدَفٌ لِسَهَامِ الأيام ، ومن
أراد أن لا يصابَ فلا يَقْتَنِى ما يسوؤُهُ فَقَدَهُ - والقُنْيَةُ لا بُدَّ منها في هذه الحياة
الدنيا ، وإذ لا بد من توطين النفس وإعدادها لتلقَى المصائب ... وإذا كان
هناك مَنْ يترامى بمثل هذا الكلام إلى الحثِّ على الزهد ، فهذا مَرَمَى آخرُ ،
منهم مَنْ يفرغُ إليه لمثل هذا الغرض - تَوَقَّى المصائب ما أمكن - ولأغراض
أخرى تراها بعدُ ... وقالوا : الجزعُ مَنقَصَةٌ للحياة ، ومن أعان على نُقصانِ
حياته ، فقد عَظُمَت خَطِيئَتُهُ ... وقالوا : التأسف على الفائت تضييع وقتٍ
ثانٍ ، إن كنتَ جازِعًا لما أَفَلَّتْ منك فاجزَعْ على ما لم يَصِلْ إليك ؛ وقال

على كرم الله وجهه : الصبر مطية لا تكبو ، والقناعة سيف لا يذبو . وقال
 عمر رضى الله عنه : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما بايت أئهمار كبت ؛
 وقيل : الصبر يناضل الحدّان ، والجزع من أعوان الزمان ، وما فى الشكوى
 إلا أن تحزن صديقك وتشمّت عدوك ؛ وقيل : اجعل صبرك على النوائب
 كفاءة شكرك على المواهب ، الصبر عند النقم ، والشكر عند النعم ، وقال
 حكيم : جميع مكاره الدنيا تنقسم قسمين ، ضرب فيه حيلة ، فالاضطراب^(١)
 دوائه ، وضرب لا حيلة فيه ، فالصبر شفؤه ، وقالت الفرس : كلمتان
 يقولهما العاقل عند نائتيه : إحداهما : هذه الحال خير مما هو شر منها ،
 والأخرى : لعل الله أن يجعل فى هذا المكروه خيرا وكلمتان يقولهما الجاهل :
 لعل ما أصابنى يدعو إلى شر منه ! والأخرى : لو كان بدّل كذا كذا من
 المصيبة ا وقالوا : الصبر على مرارة العاجل ، يفضى إلى حلوة الآجل ،
 إنك لا تنال قليل ما تحب إلا بالصبر على كثير ما تكره ، وقالوا : لكل شيء
 ثمرة ، وثمره الصبر الظفر ، والصبر كاسميه ، وعاقبته العسل ، . والصبر على
 المصيبة مصيبة على الشامت . وقال على : إن صبرت فأنت مأجور ، وإن جزعت
 جرى عليك المقدور .

حشهم على تصوّر المصائب

والاستعداد لها كفى تخيف وطأتها

وقالوا فى ذلك : من كان متوقفا ، لم يلبث متوجعا ، وقال بعضهم

(١) الاضطراب : يريد : الحركة والاحتياال فى دفعه

- قيل لابن الرومي، ولم أرها في ديوانه، وإن كانت أشبه بمنه بذهب ابن الرومي - :

أَلَمْ تَرَ رُزْءَ الدَّهْرِ مِنْ قَبْلِ كَوْنِهِ كِفَاحًا إِذَا فَكَّرْتَ فِي الْخَلَوَاتِ
فَمَا لَكَ كَالرَّمِيِّ فِي مَأْمَنِ لَهُ يَبْتَلِ أُمَّتَهُ غَيْرَ مُرْتَقِبَاتِ
فَإِنْ قُلْتَ مَكْرُوهٌ أَنَانِي فُجَاءَةٌ فَمَا فُوجِئَتْ نَفْسٌ مَعَ الْخَطَرَاتِ
وَلَا عُوقِبَتْ نَفْسٌ بِيَلْوَى وَقَدْرَاتِ عِظَاتٍ مِنَ الْإِيَامِ بَعْدَ عِظَاتِ
إِذَا بُعِثَتْ أَشْيَاءٌ قَدْ كَانَ مِثْلُهَا قَدِيمًا فَلَا تَعْتَدُهَا بَغَاتِ
وهذه الآيات من الوضوح والإنارة بحيث لا يعوزها شرح ، وقالوا :
ما أمتع الدهر إلا ليمع ، ولا أعطى إلا ليستر ، ولولا اغترار الجاهل
بعوائده ، خللت النفوس من الحسرة على نواتبه ، وقالوا : لا تُخِلْ فِكْرَكَ
مِنْ عَوَارِضِ الْفِكْرِ وَخَوَاطِرِ الذِّكْرِ فِيمَا تَعْرُوكَ بِهِ الْإِيَامُ ، من ارتجاع
ودائرها ، وحلول وقائدها ، - وهذا ما قاله ابن الرومي آنفا ،

الغمّ يورث السقم والهَرَمَ

قال المتنبي :

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَهَرَمَ
« يخترم : يستأصل ويقطع ، والجسيم : العظيم الجسم ، والنحافة : الهزال ،
والناصية : شعر مقدم الرأس ، يقول : إن الحزن إذا استولى على
المرء أذهب جسمَ التَّظْمِ الْجَسَدِ وَهَزَلَهُ حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْهَزَالِ ، ويشيب
الصَّبِيَّ قَبْلَ الْإِيَامِ حَتَّى يَصِيرَ كَالْهَرَمِ مِنَ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ » ... وسئل عبد الله
ابن عباس عن الحزن والغضب فقال : أصلاهما واحد ، وذلك وقوع الأمر

على خلاف المحبة ، فأما فرعاها فمخالفان ، فالمكروهُ مَنَّ فوقك يذبح حزنا
ومَنَّ دونك يُنتسجُ غضبا

هـ فحزنٌ كلُّ أخى حُزنٍ أخو الغضبِ (١) *

الحزن يبلى بتقادم العهد

وقالوا فى الحزن يبلى بعد انقضاء مدة : الحُزنُ يتضو عن ابن آدم كما
يتضو الصبغُ عن الثوب (٢) ولو بقى لقتله .

وقال المتنبي :

إذا استقبلت نفس الكريم مصابها بخبت ثلت فاستدبرته بطيب
وللواجد المكروب من زفراته سكون عزاء أو سكون لغوب

« قوله : إذا استقبلت ... أبيت ، فالمصاب مصدر بمعنى الإصابة ، والخبث
هنا : الجزع ، والطيب هنا : الصبر وترك الجزع ، وثنت : صرفه - أى الجزع -
النفس ، يقول : إذا جزع الكريم - ضد اللثيم - فى أول نزول المصيبة ،
وراجع أمره ، عاد إلى الصبر والتسليم ، ومن لم يُوطن نفسه على المصيبة فى
أول الأمر صعّب عليه عند وقوعها . وقوله : وللواجد المكروب ... أبيت

(١) للمتنبي فى مرثيته التى يرى بها أخت سيف الدولة وأوله :

جزاك ربك بالأحزان مغفرة حزن كل أخى حزن أخو الغضب
يقول : غفر الله لك أحزانك إذا الحزن بما يستغفر منه ، لأن الحزن كالغضب من هو دونك إذا
أصابك بما تكرهه والحزن من هو فوقك ، والإنسان إذا حزن على مصيبة تصيبه فكأنه يغضب
على القدر حيث لم يجر بمراده ، والغضب على المقدور مما يستغفر منه

(٢) يقال : نضا الخضاب ونضوا : ذهب لونه ونصل

يقول : لا بُدُّ للهِجْرَانِ مِنَ السُّكُونِ ، إِمَّا أَنْ يَسْكُنَ عَزَاءً ، أَوْ يَسْكُنَ إِعْيَاءً ،
وَإِذَنْ فَحَقِيقٌ بِالْعَاقِلِ أَنْ يَسْكُنَ تَعَزُّيًّا ، كَمَا قَالَ مَجْمُودُ الْوَرَّاقِ :
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَسَلْ أَصْطَبَارًا وَحِسْبَةً سَلَوْتَ عَلَى الْإَيَّامِ مِثْلَ الْبَهَائِمِ -
وَكَأَنَّ أَبَا تَمَّامٍ :

أَتَصْبِرُ لِلْبَسَلَوَى عَزَاءً أَوْ حِسْبَةً فَتُوجِرَ أُمَّ تَسْلُوا سُلُوَ الْبَهَائِمِ -
« الحسبة : طلب الأجر والثواب ،

وَمَنْ أَحْسَنَ مَا قِيلَ مِنَ الشَّعْرِ الْقَدِيمِ ، فِي أَنَّ الْحَزْنَ يَبْلِي إِذَا تَقَادَمَ عَهْدُهُ
قَوْلُ أَبِي خِرَاشٍ الْهَنْدَلِيِّ - شَاعِرٍ مَخْضَرَمٍ أَسْلَمَ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، يَوْمَ حَنْزِينِ - :
عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو السُّكُومُ ، وَإِنَّمَا نُتَوَكَّلُ بِالْأَذْنِ وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي
وَقَبْلَ هَذَا الْبَيْتِ :

حَمِدْتُ إِلَهِي بَعْدَ عُرْوَةَ إِذْ نَجَا خِرَاشٌ ، وَبَعْضُ الشَّرَّاهُونَ مِنْ بَعْضِ
فَوَاللهِ : مَا أَنْسَى قَبِيلًا رُزْنَتَهُ بِجَانِبِ قَوْسِي مَا مَشَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ
عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو الْكَلَامُ ... الْبَيْتِ

وَلَمْ أَذِرْ مَنْ أَلْتَقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ مَا جَدَّ مَحْضٍ
وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ هَذَا الشَّعْرِ ، أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ مَرْثَدَةَ أَخَا أَبِي خِرَاشٍ ، وَخِرَاشُ
ابْنُ أَبِي خِرَاشٍ ، أَصْطَحَبَا فِي مُتَصَرِّفٍ لهُمَا : فَأَسْرَمَا بَطْنَانَ مِنْ
ثَمَالَةَ : بَنُو رَازِمٍ وَبَنُو بِلَالٍ - وَكَانَا مَوْتُورَيْنِ - فَاخْتَلَفُوا فِي الْإِبْقَاءِ
عَلَيْهِمَا وَقَتْلَهُمَا ، فَال بَنُو بِلَالٍ إِلَى قَتْلِهِمَا ، وَتَفَاقَمَ الْأَمْرُ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ ، إِلَى
أَنْ صَارَ يُودَى إِلَى الْمَقَاتِلَةِ ، فَتَفَرَّدَ أَوْلَاكَ بَعْرُوتَهُ قَتْلَهُ ، وَتَفَرَّدَ دَوْلَاءُ بَخْرَاشٍ
خِلَافَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ : مُنْتَهِزًا لِلْفُرْصَةِ فِي الْإِسْدَاءِ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ دَلِيلَاكَ ؟
فَقَالَ : قِطَاةٌ ، فَأَلْتَقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ وَقَالَ : أَنْجُو ، فَمَرَّ لِطَيْبَتِهِ ، فَلَمَّا انْحَرَفُوا لِلنَّظَرِ

في أمره قال لهم مُسِكُهُ إِنَّهُ أَفَاتَ ، فطردوه - أي تَبِعُوا خِرَاشًا - فَأَعْيَاهُمْ ، فلما وصل خِرَاش إلى أبيه وَخَبَرَهُ بِمَا جَرَى عَلَى عُرْوَةٍ وَبِمَا آتَفَقَ مِنْ صَاحِبِهِ فِي بَابِهِ ، ائْتَصَّ قِصَّتَهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ... وَقَوْسِي اسْمَ مَكَانٍ ، وَقَوْلُهُ : عَلَى أَنَّهَا تَعْفُو الْكَلَامَ ... أَلَيْتُ فَإِنَّ هَذَا يَجْرِي مَجْرَى الْإِعْتِدَالِ مِنْهُ وَالِاسْتِدْرَاكِ عَلَى نَفْسِهِ فِيمَا أَطْلَقَهُ مِنْ قَوْلِهِ : «لَا أُنْسِي قَتِيلًا رُزِئْتَهُ مَا مَشِيَتْ عَلَى الْأَرْضِ ، أَى مَدَّة حَيَاتِي ؛ وَالضَّمِيرُ فِي أَنَّهَا : لِلْقِصَّةِ ، وَخَبَرُ أَنْ : الْجُمْلَةُ بَعْدَهَا ؛ وَالْعَفَاءُ : الدَّرُوسُ وَالذَّهَابُ ؛ وَالْكَلُومُ جَمْعُ كَلِمٍ ؛ وَبِعَنِي بِهِ : الْحَزُّ عِنْدَ ابْتِدَاءِ الْفَجِيعَةِ ، وَجَلَّ : عَظُمَ ؛ يَقُولُ : لَا أُنْسَاهُ وَلَوْ طَالَ عَهْدُهُ وَعَفَتْ آثَارُهُ ؛ وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُؤَكَّلُ بِالْجَزَعِ الْمَصِيبَةِ الْقَرِيبَةِ الْعَهْدِ ؛ فَأَمَّا الْمَتَقَادِمُ مِنَ الْأَرْزَاءِ فَإِنَّ مُضَى الزَّمَنِ يُعْنِيهِ . وَقَوْلُهُ : وَلَمْ أَدْرُ ... أَلَيْتُ ؛ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ وَأَبُو عُبَيْدَةَ لَا نَعْرِفُ مَنْ مَدَحَ مِنْ لَا يَعْرِفُهُ غَيْرَ أَبِي خِرَاشٍ ،

التأسي بمن مصابه كمصاب المصاب أو يُرَبِّي عليه

وقولهم في عكس ذلك

أما قولهم في عكس ذلك فأحسن ما قيل فيه قول ابن الرومي :

ليس تأسو كلوم غيري كلومي مابه مابه وماي وماي

«تأسو: تُداوي، والكُوم: الجروح، وقبل هذا البيت - وهي آيات يندبُ

بها الشباب - :

ياشبابي ! وأين مني شبابي؟ أذنتي حباله بانقضاب

لُفَّ نَفْسِي عَلَى نَعِيمِي وَهَوِي تَحْتَ أَفْنَانِهِ اللَّدَانِ الرَّطَابِ

وَمَعَزَّ عَنِ الشَّبَابِ مُوسَى بِمَشِيْبِ اللَّدَاتِ وَالْأْتْرَابِ

قلت - لما اتتحي بعدُ أسأه من مُصابٍ شبابه فمُصاب :
 ليس نأسوكلوم غيرى كلومى أليت
 وأما قولهم فى التأسى بن مصيبته كمصاب المصاب أو تُربى عليه فمن ذلك
 قول أفلاطون لرجل رآه مغموماً : لو أحضرت قلبك ما فيه الناس من
 المصائب ، لقلَّ همك ... « انظر مقالة الكاتب أديسون آخر هذا الباب » ...
 وقالت الخنساء :

ولولا كثرةُ الباكين حولى على إخوانهم لقتلتُ نفسى
 وما يبسكون مثل أخى ولكن أسألى النفسَ عنه بالتأسى
 وقال حريث بن سلة بن مرارة بن مُحفص ، أحد بنى خزاعى بن مازن -
 شاعر جاهلى - :

ولولا الأتسى ما عشتُ فى الناس بعده ولكن إذا ما شئتُ جاؤ بنى مثلى

« عروة بن الزبير »

« مثل أعلى للصبر والتأسى »

كان عروة بن الزبير ، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وابن الزبير بن العوام
 - أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وابنِ صفيّة عمّة سيدنا رسول الله - وشقيق
 عبد الله بن الزبير - الذى ولى الخلافة فى الحجاز حينما من الدهر أزمان بنى أمية
 والذى تولى قتله الحجاج - وأم عروة أسماء بنت أبى بكر الصديق - وهى ذات
 النطاقين ^(١) ، وغالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وكان عالماً صالحاً ،

(١) النطاق : شقة أو ثوب تلبسه المرأة ثم تشد وسطها بجبل ثم ترسل الأعلى على
 الأسفل إلى الركبة عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها ، وكان لاسماء نطاقان تلبس

أقول : كان عروةُ هذا من قوة الإيمان والتسليم والرضا بالقدر خيرِهِ وشرِّهِ ورجحانِ العقل ، بحيث يُعَدُّ مثلاً أعلى للصبر والتسلي ، وذلك أنه وقد من المديتهِ على الوليد بن عبد الملك بِدِمَشَقَ - عاصمةِ الأمويين - وكان معه ابنه محمد - وكان من أجمل الناس ، فيقال : إن الوليد عانَه - أصابه بعينه - فدخل محمد دارَ الدوابِّ ، فضربته دابةٌ فخرَّ مَيِّتاً ، ووقعت في رجلِ عروة الأَكَلَّة - داء في العضو يأتكل منه - ولم يدعِ وِرْدَه تلك الليلة ، فقال له الوليد : أَنْطَعُهَا وإلا أفسدت عليك جسدك ، فلما دُعِيَ الجزار لِيَقْطَعُهَا قال له : نَسْقِيكَ الخِرَّ حتى لا تجحد لذلك ألماً ، فقال : لأستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية ، قالوا : نَسْقِيكَ المُرْقِدَ « دواء يُرْقِدُ شاربَهُ كالأفيون » قال : ما أحبُّ أن أَسْلَبَ عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألمَ ذلك فأحتسبه « أحتسبه : أطلب به الأجر » . ودخل عليه قومٌ أنكرهم فقال : ما هؤلاء؟ قالوا : يُمَسِّكونك فإن الألم رُبَّمَا يعزُبُ معه الصبر « يعزُب : يبعُد » قال : أرجو أن أكْفِيَكُمْ ذلك من نفسي ، فُقِطَّتْ كَعْبُهُ بالسكين ، حتى إذا بلغ العظمَ وُضِعَ عليها المِشْيارُ ، فُقِطَّتْ وهو يُهْلَلُ وَيُكَبَّرُ « يهَلل : يقول : لا إله إلا الله ، ويكبر : يقول : الله أكبر » ثم إنه أُغْلِيَ له الزيت في مغارف الحديد ، فُحِمْمَ به ، فُقِشِيَ عليه ، فأفاق وهو يَمْسُحُ العرقَ عن وجهه ، ولما رأى القدمَ بأيديهم دعاها فقلَّبها

أحدهما وتحمل في الآخر الزاد إلى سيدنا رسول الله وأبي بكر وهما في الغار ، فلذلك سميت ذات النطاقين ، وروى عائشة : أن النبي صلوات الله عليه لما خرج مع أبي بكر مهاجرين صنعنا لهما سفرة طعام المسافر ، في جراب ووعاء من جلد ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر من نطاقها وأوكت به الجراب وشدته بالوكاء : الحبل الذي يشد الوعاء ، فلذلك كانت تسمى ذات النطاقين

في يده ، ثم قال : أما والذي حَمَلَنِي عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنِّي مَأْمُونَةٌ بِكَ إِلَى حَرَامٍ ، ولما دخل ابْنُهُ إِصْطَبِيلَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَقَتَلْتَهُ الدَّابَّةَ كَمَا تَقَدَّمَ لَمْ يُسْمِعْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا قَوْلَهُ « لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ، وَلَمَّا قُطِعَتْ رِجْلُهُ قَالَ : اللَّهُمَّ ، إِنَّهُ كَانَ لِي أَطْرَافٌ أَرْبَعَةٌ فَأَخَذْتُ وَاحِدًا وَأَبْقَيْتُ لِي ثَلَاثَةً ، فَذَكَرَ الْحَمْدَ ، وَأَيُّمُ اللَّهِ ، لَئِنْ أَخَذْتُ لَقَدْ أَبْقَيْتُ ، وَلَئِنْ أَبْتَلَيْتَ لَقَدْ عَافَيْتُ ... وَلَمَّا مَاتَ ابْنُهُ وَقُطِعَتْ رِجْلُهُ ، وَقَدَّ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ عَلَى الْوَلِيدِ قَوْمٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ فِيهِمْ رَجُلٌ ضَرِيرٌ ، فَسَأَلَهُ الْوَلِيدُ عَنْ عَيْنِيهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَتُّ لَيْلَةً فِي بَطْنِ وَاِدٍ وَلَا أَعْلَمُ عَبْسِيًّا يَزِيدُ مَالَهُ عَلَى مَالِي ، فَطَرَقْنَا سَبِيلُ فَذَهَبَ بِمَا كَانَ لِي مِنْ أَهْلِ وَوَلَدٍ وَمَالٍ ، غَيْرَ بَعِيرٍ وَصَبِيٍّ مَوْلُودٍ ، وَكَانَ الْبَعِيرُ صَعْبًا ، فَندَّ ، فَوَضَعْتُ الصَّبِيَّ وَاتَّبَعْتُ الْبَعِيرَ نَلْمُ أَجَاوِزٍ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى سَمِعْتُ صَيْحَةَ ابْنِي وَرَأْسَهُ فِي فَمِ الذَّنْبِ وَهُوَ يَأْكُلُهُ ، فَاحْتَقَّتْ الْبَعِيرُ لِأَحْبِسَهُ فَفَنَفَخَنِي بِرِجْلِهِ « ضَرْبَهُ بِحَدِّ حُفَيْهِ » عَلَى وَجْهِهِ ، فَخَطَمَهُ وَذَهَبَ بَعِينِي ؛ فَأَصْبَحْتُ لَا مَالَ لِي وَلَا أَهْلًا وَلَا وُلْدًا وَلَا بَصَرَ ؛ فَقَالَ الْوَلِيدُ : انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى عُرْوَةَ لِيَعْلَمَ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ بِلَاءً ...

وَمِنْ عَزَى عُرْوَةَ : اِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَاهِرَةَ قَالَ لَهُ : وَاللَّهِ مَا بَكَ حَاجَةٌ إِلَى الْمَشَى وَلَا أَرَبٌ فِي السَّمَى ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَكَ عِضْوٌ مِنْ أَعْضَانِكَ وَإِنْ مِنْ أَبْنَانِكَ ؛ إِلَى الْجَنَّةِ ؛ وَالْكُلُّ تَبِعُ لِلْبَعْضِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَقَدْ أَبَقَ اللَّهُ لِنَامِكَ مَا كُنَّا إِلَيْهِ فَقَرَاءً ؛ وَعَنْهُ غَيْرُ أَغْنِيَاءَ ، مِنْ عَمَلِكَ وَرَأْيِكَ ؛ نَفَعَكَ اللَّهُ وَإِيَانًا بِهِ وَاللَّهُ وَلِيُّ ثَوَابِكَ ؛ وَالضَّمِينُ بِحَسَابِكَ ...

مطرح الهموم

وهذه كلمة طريفة في معنى ما نحن بصدده، كتبها الكاتب «أديسون» ونقلها المرحوم محمد السباعي إلى مجلة البيان التي كان يقوم بإخراجها مؤلف هذا الكتاب، قال أديسون :

«ما يؤثرُ عن الحكيم سُقْرَاطُ أنه قال : إذا جُمِعَتْ مَصَائِبُ البَشَرِ كُلِّهَا في وِعَاءٍ ، ثم قُسمَتْ على جميع الناس بالسواء لأصبح من كان يَحْسِبُ نفسه أشقى الناس وأخسَرَهُمْ يُفَضَّلُ أولى الحالتين على الثانية ، وجاء بعد سُقْرَاطُ الشاعرُ الرومانيُّ «هوراس» فعدّل هذا المعنى فقال : إن ما يُكابدُ أحدنا من المصائب أخفُّ عليه من مصائب أَى إنسان آخر إذا وقع بين الرُجُلَيْنِ تبادلٌ... فينا أنا ذات يوم مُتَّكِنٌ في خَلْوَتِي أفكّرُ في هاتَيْنِ الحِكْمَتَيْنِ وقد أخذتني سِنَةٌ من النوم إذ نُحِيلُ إلى أَنَّهُ بأمرِ إلهِ الآلهةِ قد نودِيَ في الناس : أن يحملَ كلُّ امرئٍ مَصَائِبَهُ فيأتواها جميعاً فيَطْرَحُوها بعضها فوق بعضٍ ، في سَهْلٍ فسيحٍ ، فوقفمت وَسَطَ ذلك السهل ، وسرتني أن أرى الناس طُرّاً يأتون واحداً بعد واحدٍ يُلْقون أثقالهم العديدة ، حتى ارتفع من مجموعها جبل طالت^(١) ذُؤابته السحاب .

وكان هنالك امرأةٌ نحيلةٌ خفيفةٌ قد شَمَرَتْ عن ساعدِ الجِدِّ وَسَطَ هذه

(١) سمت فوق السحاب قال :

إنَّ الفرزدقَ صَخْرَةٌ عادِيَةٌ طالت - فليس تنالها - الأجيالا

فليس تنالها جملة معترضة والأجيالا مفعول طالت والتقدير : طالت الأجيالا

فليس تنالها الأجيال .

الخلائق، تحمِل في إحدى يديها مجَهْرًا، وعليها ثوبٌ تفضفاضٌ هفهافٌ سابغٌ
الذيلُ مؤمّىٌ بعددٍ عديدٍ من تصاورير الجان والعفاريت، كلما ضربت الريح
الجلبابَ تلوّنتُ وتشكّلت تلك التهاويلُ أشكالًا وألوانًا؛ وكان في عينها وآهٌ
وتلهّفٌ وحيرةٌ، وكان اسمُها « الوهم » وهي التي كانت تسوقُ كلَّ فردٍ من
البشر إلى المكان المعين بعد إغاثتها إياه على ربط حُزْمَتِهِ وحَبْكِيهَا وإلقائها على
عائقه، فأذاب قلبِي رُؤْيَهُ إِخْوَتِي وأبناءِ أُمِّي وأبي ينوونَ بأحلامهم. ويذنون
تحت أثقالمهم؛ وفَتَّتَ كَيْدِي أَنْ أَبْصَرَ ذَلِكَ الْجَبَلَ الْبَاذِخَ الَّذِي مِنْ أَحْزَانِهِمْ
تسكّونَ، ومن آلامهم تألّف، على أَنَّهُ أَلْهَانِي عِنْدَ ذَلِكَ، وَسَلَّانِي هُنَاكَ:
عِدَّةٌ مِنَ الْقَوْمِ، لَغْرِيبِ أَحْوَالِهِمْ وَعَجِيبِ هَيْئَاتِهِمْ؛ فَمِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ رَجُلٌ فِي
حُلَّةٍ مُطْرَزَةٍ أَقْبَلَ يَسْعَى حَتَّى جَاءَ الْمَكَانَ، فَأَخْرَجَ مِنْ تَحْتِ حُلَّتِهِ الْمَوْشَاةَ
الْمَرْكَشَةَ حِمْلًا، فَأَلْقَاهُ فَحَدَّجَتْ بِيَصْرِي أَتْبَيْنُهُ، فَإِذَا هُوَ: الْفَقْرُ؛ وَأَقْبَلَ
آخِرُ يَرْزُحٌ تَحْتِ ثِقَلِهِ، وَبَعْدَ كَثِيرٍ مِنَ التَّنْفُسِ وَالزَّفِيرِ أَلْقَى حِمْلَهُ؛
فَنظَرْتُ؛ فَإِذَا هُوَ؛ زَوْجَتُهُ؛ وَرَأَيْتُ عِدْدًا عَدِيدًا مِنَ الْعُشَّاقِ عَلَى كِوَاهِهِمْ
أُنْقَالَ عَجِيبَةٍ مِنْ سِهَامٍ وَسُعَلٍ؛ وَلَكِنْ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ بَرَّغَمَ مَا رَأَيْتُهُ يَكَادُ
يُمَزَّقُ فُلُوبَهُمْ مِنْ غُلُوءِ الْوَجْدِ وَبُرْحَاءِ الْكَمَدِ؛ وَبَرَّغَمَ زَفْرَةَ لَهْمٍ تَرَقَّى؛
وَعَبْرَةَ لَاتَرَقَا^(١) كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ مَطَاوَعَةَ عَقُولِهِمْ عَلَى إِقَاءِ تِلْكَ الْأَثْقَالِ
عِنْدَ مَا بَلَّغُوا الْكَثِيبَ؛ وَلَكِنَّهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْمَحَاوَلَةِ - مَحَاوَلَةِ الْمُنْتَاقِلِ
الْمُنْتَكِرِهِ - هَزُّوا رُؤْسَهُمْ وَرَجَعُوا بِأَثْقَالِهِمْ أَشَدَّ نِقْلًا وَأَفْدَحَ
حِمْلًا، وَأَبْصَرْتُ كَثِيرًا مِنَ الْعَجَائِزِ يُلْقِينَ تَعَاضِينَ وَجُوهِينَ

(١) أى: لا تفيض ولا تجف وأصل ترقا: ترقا فخفف، وترقى الأولى: ترتفع

وكثيرا من الفتيات يُلقين سُمرَ جلودهن . ورأيت كوماً^(١) من أنوف حمراء
وأَسنانٍ قَلحاء^(٢) وشِفاهٍ قَلحاء^(٣) . والعَجَبُ العُجَابُ أني رأيت معظمَ الجبلِ
مؤلفاً من غاماتٍ بدنية . وآفاتٍ جسدية ، ثم لمحتُ من بعيد رجلاً على ظهره
جملٌ لم أرَ في سائر الاحمالِ ما يُدانيه عِظماً ، فأنعمتُ النظرَ فإذا هي حَدَبَةٌ ،
فألقاها - فرحاً بذلك - بين سائر البلايا الآدمية . ورأيت كذلك عَمَلًا وأمراضاً
من كلِّ صَربٍ وصَريفٍ ، غير أني رأيت الوهميَّ من ذلك أكثرَ من الحقيقيِّ
وشاهدتُ بين هذه أنواعاً قد أُلِّفَ من جميع الأمراضِ والعِللِ يَحْمِلُهُ في الأَكْفِ
عَدَدٌ عَظِيمٌ من ذَوِي النعمةِ والرِّفاهيةِ ، واسمُ هذا الداءِ : المَمَلُّ ، وأعظمُ
عَجبي وحيرتي أني لم أرَ أحداً قَطُّ أَلقى بين هذه الآفاتِ والمصائبِ شيئاً مما
أَبْلَيْتُ به نفوسَ البشرِ من الرذائلِ والحماقاتِ والأضاليلِ والنقائصِ والسخافاتِ
والأباطيلِ ، فأدهشني ذلك أيّما دَهَشٍ ، إذ كنتُ قد ظننتُ أنها فرصةٌ لا يدعُها
أحدٌ حتى يَطَهَّرَ نفسَه من أدرانِ الأهواءِ والشهواتِ . ويُخَلِّصَ طَبْعَه من
أكدارِ العيوبِ والعوراتِ . ورأيت في الجماعة رجلاً فاسقاً لم أشكَّ في أنه جاء
مُثَقلاً بأوزارِهِ وآثامِهِ : فلما أقبَلتُ على مارمائه أفتشته أَلقيتُ أنه لم يَرِمِ شيئاً
من تلك الذنوبِ والآثامِ وإنما رَمَى ذا كرتَه ، وتبعه رجلٌ سائطٌ جاهلٌ ،
فظنرته فإذا هو قد نبذَ حياةَ لا جَهْلَه ... ولما فرغَ الناسُ من طَرَجِ أُنْقاهم
وفرغتِ الجَنِيَّةُ النَجيلةُ الخفيفةُ^(٤) من عَمَلِها ، وكانت قد رأت مني رجلاً ينظرُ

(١) جمع كومة ، يقال : كَومَ كومةً بالضم : إذا جمعَ قطعةً من ترابٍ ورفعَ رأسها

ونظيره : الصبرة من الطعام

(٢) القلح : صفرة في الأسنان

(٣) فلحاء : مشقوقة

(٤) الروم كما يذكر التماري

ولا يعمل، دنت مني، فلم يرعني إلا رفعها المجهر إزاء عيني، وكنت أعرف في وجهي القصر، فإذا هو قد تناهى قصر أحتى عاد أبشع شيء، فساء في منظره، فألقيته كما يلقي القناع. وكنت قبل ذلك ببرهة أبصرت رجلا رمي بوجهه لفرط طوله، وكان أطول وجه حتى لذقته وحدها تطول^(١) وجهي بأكمليه، فاستراح من مصيبته واسترحت، واستراح الخلق طرا؛ وأطلق لكل امرئ أن يستبدل ببلواه محنة غيره.

على أنه لم يبق في الجمع إلا متعجب من هذه المحن كيف عدها أهلها محنا وكيف كان قد غرّبها وحُدع فيها، فحسبها نعمة وفوائد، وبيننا نحن تتأمل خليط المصائب، ومزيج النوائب، صدر أمر الإله الأكبر أن يستبدل كل امرئ بمصائبه ويرجع إلى مثواه بحظه الجديد، عند ذلك تحركت «الوهم»، وقسمت الكتيب في أخف نشاط وأكمل سرعة، فأعطت كلاً نصيبه، وكان بالبراع يعجز أن ينعت ما حدث إذ ذاك من هرج ومرج^(٢)، ثم كانت أمور كثيرة أذكر الآن بعضها:

رمي شيخ كبير على كتيب المصائب علة كانت في بطنه، وكان عاقرا، يتمنى ولداً يكون عماد شيخوخته ووارث ثروته، فمدّ يده ليتعاض من دائه الذي طرحه فاخطف ولداً فاجراً عاقراً، كان آفة أب له، وكان ذلك الأب قد نبذته في النبأ^(٣) يريد به بديلاً، وقد أخذ بدله مرض البطن الذي رمي به الرجل الأول. فلم تمض إلا برهة حتى رأيت ذلك الغلام قد ناز بالشيخ الكبير فأخذ بليحيته وناصيته، وهم أن يفلق رأسه. فما هو إلا أن أبصر الأب

(١) زيد عليه طولاً (٢) اختلاط (٣) المنبذات، أي: الأشياء المنبوذة
يعني بها الآفات التي كان الناس يرمونها تخلصاً منها وليتقاضوا بدلها

الأصلي، وكان يسعى نحوَه مَسْكَ بِحِشَاهِ مِنْ وَجَعِ المَعِدَةِ حَتَّى صَاحَ بِهِ :
 يَرْحُمُكَ اللهُ وَإِيَانَا، خُذْ وَلَدَكَ بَارَكَ اللهُ فِيهِ وَأَعْطِنِي عِلْمِي، وَلَكِنْ قُضِيَ
 الأَمْرُ، وَكَانَ مَا لَا يَكُونُ تَبْدِيلَهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ تَحْوِيلَهُ ...

يَا ابْنَ بُورَانَ لَا مَفْرَجَ مِنَ اللهِ وَلَا مِنْ قَضَائِهِ المَحْتَمِ

ورأيت أسيراً مقيداً خُلعَ قيده، وقُلعَ صفده، فاعتاض منه النِقْرَسَ (١)
 ولكن أبدى من التَّأَوُّهِ وَالتَّأَقُّفِ وَالتَّلَوِّيِ وَالتَّنَزِّيِ مَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ
 فِي تِجَارَتِهِ تِلْكَ بِالرَّاجِحِ الصَّفَقَةِ .

ولقد كان من المُمْتَحِ اللَّادِّ أَنْ تُبَصِّرَ مَا وَقَعَ إِذْ ذَاكَ مِنَ المَبَادِلَاتِ
 وَالمَقَابِضَاتِ، مِنْ عِلَّةٍ بِخَلَّةٍ (٢) وَجُوعٍ بِفِقْدَانِ شَهْوَةٍ، وَهَمٍّ وَتَسْهِيدٍ، بِأَسْرِ
 وَتَقْيِيدٍ . أَمَا النِّسَاءُ فَكُنَّ مِنْ تَبَادُلِ الأَعْضَاءِ - أَعْضَاءِ الوَجْهِ وَالجِسْمِ - فِي
 شُغْلِ شَاغِلٍ، فوَاحِدَةٌ تَسْتَعِيضُ لِمَتَّةٍ شَمَطَاءٍ، مِنْ جِلْدَةٍ سَمْرَاءٍ، وَثَانِيَةٌ تَأْخُذُ
 عِنَقًا قَصِيرًا، وَتُعْطَى أَنْفًا كَبِيرًا، وَثَالِثَةٌ تَرْمِي عِرْضًا مَفْضُوحًا . وَتَلْتَقِطُ وَجْهًا
 مَقْبُوحًا، وَمَا مِنْهُنَّ إِلَّا مِنْ تُدْرِكُ فِي الحَالِ أَنَّهُا اعْتَاضَتْ مِنْ سَيِّئِ أَسْوَأِ،
 وَمِنْ رَدِيءٍ أَرْدَأِ، وَكَذَلِكَ حَالُ سَائِرِ الجَمْعِ فِي كُلِّ بَلِيَّةٍ وَآفَةٍ، لَعَلَّهُ لِأَنَّ
 مَا أَصَابَنَا بِهِ اللهُ مَنَاسِبٌ لِمَقْدَارِ صَبْرِنَا وَاحْتِمَالِنَا، أَوْ لِأَنَّ كُلَّ مَصِيبَةٍ تَدُلُّهَا
 العَادَةُ ...

فقلت لها : يَا عَزُّ، كُلِّ مَصِيبَةٍ إِذَا وَطَّئَتْ يَوْمًا لَهَا النَفْسُ ذَلَّتْ
 وَلقد رَحِمْتُ مِنْ صَمِيمٍ مُهْجَتِي ذَلِكَ الأَحْدَبَ الأَنْفِ الذَّكْرَ، إِذْ رَاحَ مَعْتَدِلٌ
 القَامَةِ وَانْفِ الشَّطَاطِ، لَكِنْ يَدَاءُ فِي كُلاهُ؛ وَعِلَّةٌ فِي حَشَاهُ، كَمَا رَحِمْتُ مُعَاقِدَهُ
 وَمُبَايَعَهُ الَّذِي رَاحَ مُحْدَوِّبَ الظَّهْرِ يَطَّاعٌ وَسَطِرِبٌ مِنَ الفَتِيَّاتِ كُنَّ قَبْلَ بِهِ مُوَلَّعَاتٌ

(١) من مرض بفقر (٢) داء في الرجلين يمنعهما من الحركة .

وفيه هائمات . ولست ناسياً ذِكرَ شأني وشأنِ ذِي الوجهِ الطويلِ ، فإن ذلك الرفيقَ ما كادَ يأخذُ وجهي القصيرَ حتى أضحى فيه أعجوبةَ الأعاجيبِ ، فاستلقيتُ ضاحِكاً من وجهي حتى أخرجتُ وجهي ، وأدركَ الرجلُ المسكينُ خطيئته وعرفَ غَلَطَته ، ففجّلَ واستخجني ، غيرَ أني ما لبثتُ أن فثتُ^(١) إلى نفسي فعملتُ أنه ليس لي أن أزهى وأختالَ وأسخّرَ من الغيرِ وأنا سُخْرَةٌ ، وأضحكُ منهم وأنا ضُحْكَةٌ^(٢) ، وإن لي في غرابةِ هيتي لسُغْلًا عن اللهو بهيناتِ الناسِ ومدوْحَةٍ ، وذلك ، أيها القارئُ ، أني رفعتُ يدي أريدُ جَبْهتي فلم تقعِ لِطولِ وجهي إلا على الشَّفَةِ العُلْيَا ، وكذلك بينا أنا أُجِيلُ يدي في وجهي أريدُ إحدى عينيَّ صكَّتُ يدي أنفي ، لِبروزِهِ وضامتهِ ، مراراً .

ثم نظرتُ ناحيةً مني فأبصرتُ رجُلين في مثلِ حالِنَا من السُخْرِيَةِ قد أحدثَا تبادلًا في زوجين من الأرجلِ ، زوج غليظِ أعوجِ قصيرِ ، وزوج طويلِ نحيلِ ، فكان صاحبُ الرجلينِ النحيلينِ كأنما قد رُفِعَ في الهواءِ على عمودي بيتِ ، فهائمتهُ تدورُ مع الرِّيحِ حينما دارتِ ، وأما صاحبُ الرجلينِ العُوجاوينِ القَصيرينِ فكُلُّهُما حاولَ السَّيرَ دارَ في مكانِهِ لا يَبْرُحُهُ . ولما رأيتُ على نُحْيَاهِ سِيما الجِلْمِ وَالظَّرْفِ والفكاهةِ أقبلتُ عليه أَمَازِجُهُ فقلتُ له : سأجعلُ لك كذا وكذا إنِ استطعتَ أن تَبْلُغَ هذا ، ورسمتُ له خَطًّا على مسافةِ ذِرَاعَيْنِ من مُرْسِي قَدَمِيهِ ، في مُدَّةِ نصفِ ساعةِ .

وأخيراً تمَّ توزيعُ كَثِيبِ المِحَنِ والآفاتِ على أهلِهَا ، من ذِكرٍ وأنثى .

(١) رجعت (٢) يقال : فلان سُخْرَةٌ كسفرة : يسخر منه ، وسُخْرَةٌ كهجرة :

يسخر من الناسِ ، وضحكةٌ بسكونِ الحاءِ : يضحكُ منه ويفتحها : كثير الضحك

وأقبلوا جميعاً تحت أثقابها الجديدة رُزحاً حَسْرَى . وُلها حَيْرَى . وقد مَأْوَأ
السَّهْلَ والحَزْنَ صَجَّةً وَأَيْنَا . وَرَنَةً وَحَيْنَا . ثم أدركتهم رحمة الله ، فأمرهم
بَطْرَحِ أثقابهم كَرَّةً أُخْرَى ، فألقواها فَرِحِينَ بالقائما مسرورين . وأمره الوهم ،
تلك الشيطانة التي غَرَّرَتْ بهم وضَلَّتْهم ، أن تنصرف ، فانصرفت ، وأرسل
الإلهُ بَدَلَهَا ملكاً كريماً ، جِدَّ مُخَالَفٍ لها هيئته وشكلا . مُبَايِناً لها خَلْقاً وَخُلُقاً ،
رزينَ الحركة ثابتَ الجَنَانِ ، قد جَمَعَ في هيئته بين الطلاقة والجِدِّ والوقارِ والبِشْرِ ،
لا يَنفَكُ من حينٍ إلى آخرٍ يَرْفَعُ نحو السماء طرفه ، ويسمو إلى عرشِ الله
بَأْسِلِهِ ؛ وأسمُ هذا الملك . الصَّبْرُ ، وأعجِبُ ما رأيتُ أن هذا الملك ماقام بجانب
جبلِ الآلامِ إلا وأخذ الجبلُ يَهْبِطُ ويضوُّلُ حتى لم يَبْقَ منه أكثرُ من رُبْعِهِ ،
ثم أعاد ملكُ الصبرِ إلى كلِّ حَظَّةِ الأول ، وألهمه الصبرَ الجميلَ ، وأشعرَ قلبه
قُوَّةَ الجَلْدِ ونورَ اليقين ، فراح مُغْتَبِطاً سعيداً يحمَدُ الله على كلِّ ما أعطاه ، تائباً بما
اقترفه من الجهلِ وجناه .

فَمَا أَفَدْتُ من هذه العظات والعبرِ أني لستُ حقيقاً أن أتبرم بشيءٍ منّا
بُصِيْبِي به الله أو أَنفَسَ على امرئٍ هِبَةً أو نِعْمَةً ، إذ كان مُستحيلاً على امرئٍ
أن يعلمَ حقيقةَ جاره ويعرفَ سرَّ صاحبه ويقفَ على مباحِ أحرانه وأشجانِه
وكربه ، ونوبه ، وبلاياه ، ورزاياه ، فكلُّ لُكْلِ سرٍّ غائِضٍ وخِزَانَةٍ مُقْفَلَةٍ
وسِفرٍ مُطْبَقٍ . ولكنِّي آليتُ على نفسي أن آخذَ نفسي بثلاث : كتمان العلة ،
وكتمان الفاقة ، وكتمان المصيبة ، مع الصبر عليها جميعاً ، وأن لا أحسدَ امرأً على
شيءٍ ، وأن أكوز أبدأ حاضراً الصفح للناس ، واسِعَ العفو ، إذ كان أعقلُ
الناسِ أَعذَرَهُم للناسِ ...

عقرياتهم في الدنيا

وأنها دار محن وأكدار

ولأن الدنيا التي أسماها سيدنا رسول الله : أمّ دفر - والدفر ، النتن ، دفرًا دار فرألهذه الدنيا - أقول : لما كانت هذه الدنيا دار مصائب ومحن وأكدار ، وحسبك بهاديم اللذات - الموت - الذي فصح هذه الدنيا وبديها أيما فضيحة والذي هو نهاية كل حي ، من مصيبة أي مصيبة - لأجل هذا قال الأوائل والأواخر في هذه الدنيا وأبدعوا وافتنوا كل الافتنان ؛ ونحن فسوف نورد عليك أطيب ما قالوا في ذلك ، لما بينه وبين الصبر من واشجة الرحم ، ولأنه كلام خالد ، لأنه حق وصدق ، لا يليق بعاقل أن لا يكثر له ، وإنما الواجب أن يجعله دائما نصب عينيه ، وأن ينظر إليه نظرة رجل ثاقب الرأي بعيد أفق الفكر . لانظرة رجل أحق ممتلئ العقل أعمته بأبطال هذه الحياة وألهة التكاز وبهرجها عن كنهها فارتطم في أوحالها وصار يملخ في لذاتها تملخاً ، لاهيا عن المنهاة المؤسفة التي تنتظرنا جميعاً ، جالباً بنفسه على نفسه ما يضاعف آلامها ، لا ما يخفف أحزانها ويهون ما أمكن شدائدها وأكدارها . ونحن إذ نورد في هذا الكتاب ما قالوا في الدنيا فإننا لاندعو إلى الزهد فيها وفي تعمیرها - كما سيمر عليك في هذا الفصل - ولكن مادام كتابنا في عقريات الأوائل والأواخر ، في كل شيء ، كان واجبا علينا أن نورد عقرياتهم في الدنيا ، وفي الموت ، كما نورد عقرياتهم في سائر المعاني التي يعالجها الناس ويتداولونها فيما بينهم ، على أنهم إذ ذموا الدنيا إنما يترامون بذلك وأولاً ، إلى أن يصدتوا بالحقيقة فقهى أن الدنيا في الواقع دار أحزان وأكدار ، ووثانيه ، إلى حث الناس على الإجمال في الإقبال عليها ، والتعقل في

التهافت على شهواتها، والاعتبار بعبرها، والتزود فيها لما بعدها، ومن يُنكر أن ذلك جميل ونافع! ذم رجل الدنيا بحضرة علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال علي: آسكت، إنا الدنيا دارُ صديق لمن صدقها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مهبط وحى الله، ومتهجر أوليائه... إلى آخر ما قال. ومن كلامه أيضا رضوان الله عليه: الناس أبناء الدنيا ولا يُلام المرء على حُب أمه... وسيمر عليك كثير من أمثال هذا...

أسماء الدنيا

الدنيا: اسم لهذه الحياة، وتُكنى الدنيا: أم دفر، أسماها بذلك - كما أسلفنا - سيدنا رسول الله، والدفر: اللبن، وتُكنى كذلك: أم شملة، أنشد ابن الأعرابي:

مِنْ أُمَّ شَمْلَةَ تَرْمِينَا بِذَانِفِهَا عَرَارَةٌ زَيْتٌ مِنْهَا التَّهَاقِيلُ

وكذلك تُكنى: أم شملة. قال أبو عمرو بن العلاء: إنما سُميت الدنيا

والخر بذلك - كما سلفنا بذلك - لأنهما يشتملان على عقل الإنسان فيغيباهن...

أقول: ومن يُنكر أن أبناء الدنيا، من شدة تعلقهم بها وتكالبهم عليها، وضراوتهم

بشهواتها، وافتنانهم بزيتها وخوضهم غمراتها، بحيث يعدون كأنهم مُنزفون

مُستلبو العقول حتى إذا رماهم هاذم اللذات بسهامه تحووا وأفاقوا... وصدق

سيدنا رسول الله إذ يقول صلوات الله عليه: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا...

أما الدهر - وهو اسم لزمان متصل، والزمان اسم لدهر منفصل - فقد سمّوه

أبا العجب قال: * وما الدهر في فعله إلا أبو العجب *

والنسبة إلى الدنيا: دناوى، ويقال: دُنَيْبِي ودُنَيْبِي - وجمها دُنَى، وإنما

سميت دنيا: لِذُنُوهَا، لِأَنَّهَا دَنَتْ وَقُرُبَتْ، وتأخرت الآخرة، أما الدهر فالنسبة إليه دُهْرِيٌّ بضم الدال تقول: رجل دُهْرِيٌّ: أى قديم مُسِنٍّ، أما رجل دَهْرِيٌّ بفتح الدال فمعناه: ملحد لا يؤمن بالآخرة يقول ببقاء الدهر، وقوله صلى الله عليه وسلم: لَا تُسْبِرُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ، فمعناه: أن العرب كان من شأنها أن تَدُمَّ الدهرَ وتُسَبِّهه عند الحوادث والنوازل تنزل بهم من موتٍ أو هَرَمٍ فيقولون: أصابهم توارحُ الدهرِ وحوادثه وأبادهم الدهرُ، فيجدلون الدهر الذى يفعلُ ذلك فيُدُّونه، وقد أخبر الله بذلك فى كتابه العزيز ثم كذَّبهم فقال: وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، ثم قال الله: وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون، وجمع الدهر أدهر ودهور، أما الدهارير فهى تصاريف الدهر، وقيل جمع للدهر على غير قياس، قال الشاعر القديم (١):

فاسْتَقْدِرِ اللَّهَ خَيْرًا وَأَرْضَيْنَ بِهِ فبينما العُسرُ إذ دارت مياسيرُ
وبينما المرءُ فى الأحياءِ مُغْتَبِطٌ إذا هو الرَّمْسُ تغفوهُ الأعاصيرُ
يبسكى عليه غريبٌ ليس يَعْرِفُهُ وذو قرابته فى الحى مشرورُ
حتى كأن لم يكن إلا تَدَكَّرُهُ والدهر أيتنا حين دهاريرُ

« قوله: فاستقدر الله خيراً: أى اطلب منه أن يقدر لك خيراً، وقوله:

بينما العسر؛ فالعسر مبتدأ خبره محذوف تقديره فبينما العسر كائن أو حاضر، إذ دارت مياسير: أى حدثت وحلت، والمياسير جمع ميسور، ومغتبط أى فى غبطة: أى مسرة وحسن حال، والرَّمْس: القبر، وتغفوه: تدرسه وتمحو أثره،

(١) قال أبو عمرو بن العلاء: لرجل من أهل نجد. وقال ابن برى: لعشير بن لبيد

العذرى، قال: وقيل لحريث بن جبلة العذرى

والأعاصير جمع إعصار وهي: الريحُ تهبُ بشدةٍ، وقوله؛ كأن لم يكن إلا تذكره فيمكن تاءة وإلا تذكره فاعل بها واسم كأن مضممر تقديره كأنه لم يكن إلا تذكره والهاء في تذكره عائدة على الهاء المقدرّة، والدرم مبتدأ ودهارير خبره وأيتما حال ظرف زمان والعامل فيه ما في دهارير من معنى الشدة، والدهارير قال الزمخشري: تصاريف الدر ونوائبه، مشتق من لفظ الدر ليس له واحد من لفظه كعبايرد

قِلة لبث الإنسان في الدنيا

قال المصطفى صلوات الله عليه: فِيمَ أَنَا مِنَ الدُّنْيَا؟ وَمَالِي وَلَهَا ۖ وَإِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُهَا كِرَاكِبٍ سَارٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَرُفِعَتْ لَهُ شَجَرَةٌ فَقَالَ تَحْتَهَا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا ۖ قَالَ: مِنَ الْقِيلُولَةِ وَهِيَ الْإِسْتِرَاحَةُ نِصْفَ النَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِمَّا نَوْمٌ، يُقَالُ: قَالَ يَقِيلُ قِيلُولَةً فَهُوَ قَائِلٌ،

وقال علي بن أبي طالب: الدُّنْيَا دَارٌ مَرَّةً لَا دَارٌ مَقَرٌّ وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا «أوبقها: أهلكها بسبب تهاوته على الدنيا وإعراضه عن الآخرة، وابتاع: اشترى، وأعتقها أي من النار، بتجنبه المعاصي وشهوات الدنيا» وقيل لنوح عليه السلام - وهو الذي عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً - كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان دخلتُ من أحدهما وخرجتُ من الآخر

قِلة متاع الدنيا

قال الله تعالى: «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى» «قليل: سريع النقص» وقال سبحانه: «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ

السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ
الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَانَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادُونَ عَلَيْهَا أَمْرًا لَيْلًا
أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ،

« قوله سبحانه: إنما مثل الحياة الدنيا، أي في سرعة تفتتها وذهاب نعيمها
بعد إقبالها واعتزاز الناس بها، وزخرفها: حسنها وبهجتها، وقادرون عليها: أي
متمكنون من حصيدها، وأنها أمرنا، أي نزل بزرعها ما يحتاجه فجعلها الله
كأنها حصدت من أصلها فصار زرعها كأنه لم يكن، وقال أبو جعفر المنصور
حين حضرته الوفاة: يعبنا الآخرة بتومة... وقال شاعر:

أراها وإن كانت تُحِبُّ فإنها سحابة صيفٍ عن قليلٍ تَقْشَعُ
وقال أعرابي: ما كانت الدنيا على بني فلان إلا طيفاً لما انتبهوا وإلى
عندهم، وقال آخر:

مَرَزْتُ بِدُورِ بَنِي مُضْعَبٍ بِدُورِ السَّرُورِ وَدُورِ الْفَرَحِ
فَشَبَّهْتُ سُرْعَةَ أَيَّامِهِمْ بِسُرْعَةِ قَوَيْسٍ يُسَمَّى فُرْحَ
تَلَوْنَ مُعْتَرِضًا فِي السَّمَاءِ فَلَمَّا تَمَكَّنَ مِنْهَا نَزَحَ

الماضي والحاضر والمستقبل

قال الحسن البصري: أمس أجل، واليوم عمل، وغدا أمل...، وقال
حكيم: بيني وبين الملوك يومٌ واحد؛ أما أمس فلا يجدون لذته ولا أجد شدته
وأما غد فإني وإياهم منه على خطر، وما هو إلا اليوم، فما عسى أن يكون!

تحذيرهم من تضييع الأيام

قال حكيم: الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما

وقال الحسن البصري: ما وَعَظَنِي شَيْءٌ مِثْلُ ما وَعَظَنِي كَلَامُ الْحِجَاجِ فِي حُطْبَتِهِ: إِنَّ امْرَأَةً أَتَتْ عَلَيْهِ سَاعَةً مِنْ عُمْرِهِ لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا رَبَّهُ أَوْ يَسْتَغْفِرَ مِنْ ذَنْبِهِ أَوْ يُفَكِّرَ فِي مَعَادِهِ ، لَجْدِيرٌ أَنْ تَطُولَ حَسْرَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... وكان الحجاج بليغاً ومن مصاقع الخطباء، ومن كلماته التي تشبه كلمات الحسن البصري ، وهي ما قاله على ذؤابة المنبر : أيها الناس ؛ ائذعوا هذه الأنفُسَ ، فإنها أسألُ شَيْءٍ إِذَا أُعْطِيَتْ ، وَأَمْنَعُ شَيْءٍ إِذَا سُئِلَتْ ، فَارْحَمَ اللهُ امْرَأَةً جَعَلَ لِنَفْسِهِ خِطَامًا وَزِمَامًا ، فَقَادَهَا بِخِطَائِهَا فِي اللهِ ، وَعَظَّفَهَا بِزِمَامِهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِهِ ... « ائذعوا : أى ائمتوا ، والخطام : حبل من ليف أو شعر أو كتان يُثْنَى طَرَفُهُ عَلَى مِحْطَمِ البعير ليقادَ بِهِ ، والزمام : حبلٌ دقيقٌ يُجْعَلُ فِي أَنْفِهِ »

الأيام تهدم الحياة

قال حكيم : مَنْ كَانَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَطِيئَةً ، سَارَا بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ ، أَخَذَهُ الشَّاعِرُ فَقَالَ :

رَأَيْتُ أَخَا الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ خَائِضًا أَخَا سَفَرٍ يُسْرَى بِهِ وَهُوَ لَا يَدْرِي
« خائضاً : يريد مقبها في خفض ودعة »

وقالوا : أنفاس المرء خطاه إلى أجله ، وأمله خادعه عن عمله :

وقال الشاعر :

مَا رَتَدَ طَرَفُ امْرِئٍ بِلَحْظَتِهِ إِلَّا وَشَيْءٌ يَمُوتُ مِنْ جَسَدِهِ
وقال أبو العتاهية :

تَطَلُّ تَفْرُحُ بِالْأَيَّامِ تَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجْلِ

وقال عمرو بن قيسة - شاعر قديم في الجاهلية - :

كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً خَلَعْتُ بِهَا عَنِّي عِذَارَ لَجَامِي
عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا أَنْوَاءُ ثَلَاثًا بَعْدَهُنَّ قِيَامِي
رَمَتْنِي بِنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَى فَكَيْفَ بَمَنْ يُرْمَى وَلَيْسَ بِرَامٍ
فَلَوْ أَنَّهَا تَبْسَلُ إِذْنًا لَا تَقِيئُهَا وَالكَتْنَى أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامٍ

د قوله : خلعت بها عنى عذار لجامى : فالعرب تقول : خلع فلان العذار يريد : خلع الحياء ، مثل للشاب المنمك فى غيئه كما يخلع الفرس العذار فيجمع ويطمح لأن اللجام يمسكه ، والعذار : الذى يضم حبل الخظام إلى رأس البعير والناقة وعلى ذلك يكون معنى قوله : أنه أسام سرح اللهور حيث أسام الغواة فى هذا العمر المديد ، ولعله يريد بذلك عدم التماسك كما بينه فى البيت الثانى ، وقوله : « أنوء ثلاثا يعنى : أنه ينهض ثلاث مرات بانحناء ثم يستقيم ، وبنات الدهر : نوبه »

البقاء فى الدنيا سبب الفناء

قال سيدنا رسول الله : لو لم يكسب ابن آدم إلا الصحة والسلامة لكانى بهما داء « لأن السلامة تُسلبه إلى الهرم وما يستتبعه من الهم والسقم » وقيل لأعرابى : كيف حالك ؟ فقال : ما حال من يفنى ببقائه ، ويسقم بسلامته ، ويؤتى من أمته ! وقال حميد بن ثور الهلالى - وهو شاعر إسلامى ترجم له أبو الفرج فى الجزء الرابع من أغانيه - :

أَرَى بَصْرَى قَدْ رَابَتْ بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا
وَلَا يَلْبَثُ الْعَصْرَانُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَمَا تَيْمَمَا

وقال أبو حَيَّةَ التَّمِيمِيُّ - من شعراء الدولتين - :

أَلَا حَتَّى مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا لَبِسْنَ اللَّيْلِيَّ مِمَّا لَبَسْنَ اللَّيَالِيَا
إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا

وقال بعض شعراء الجاهلية - وقيل : القائل عبدالرحمن بن سُويدِ العُمِّيِّ -

كَانَتْ قَنَاتِي لَا تَلِينُ لِغَازِمٍ فَالآنَهَا الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ
وَدَعَوْتُ رَبِّي فِي السَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصِحِّحَنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ

« كانت قناتي لا تلين لغازمٍ : من الغمز ، وهو العُضْرُ باليد وهو مَثَلٌ يريد : أنه كان صُلبَ العُودِ شديد القوة على من يشتد ويجتري عليه » وقال النَّمِرُ بن تَوَلَّبٍ - شاعر جاهلي إسلامي ، وقد على سيدنا رسول الله وحسن إسلامه ، ومن قوله : صوم شهر الصبر ، وصوم ثلاثة أيام يُذهِبَنَّ كثيراً من وَحَرِ الصَّدْرِ - قال :

تَدَارَكَ مَا قَبْلَ الشَّبَابِ وَبَعْدَهُ حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَمَرُّ وَأَغْفُلُ
يَسُرُّ الْفَتَى طَوْلُ السَّلَامَةِ وَالْبَقَا فَكَيْفَ يَرَى طَوْلَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ
يَرُدُّ النَّفْسَ بَعْدَ اعْتِدَالِ وَصِحَّةِ يَنْوُءُ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُحْمَلُ
« والبقاء مقصورٌ لضرورة الشعر وتروى : والغنى » ... وقال الصَّلْتَانُ

العَبْدِيُّ - شاعر إسلامي كان في زمن جرير والفرزدق - :

إِذَا لَيْلَةٌ هَرَمَتْ يَوْمَهَا أَنَّى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمٌ قَتَى
وهذا البيت من أبيات جميلة للصلتان اختارها أبو تمام في حماسه

يقول فيها :

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِ بِرَكَرِ الْغَدَاةِ وَمُرِّ الْعَشِي

إِذَا لَيْلَةٌ ... الْبَيْتِ

نرُوحُ وَنَعْدُو لِحَاجَاتِنَا وَحَاجَةُ مَنْ عَاشَ لَا تَنْقِضِي
تَمُوتُ مَعَ الْمَرَّةِ حَاجَاتُهُ وَتَبْقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

فرح الدنيا مشوب بالترح مُعَقَّبٌ بِالْهُمُومِ

نَظَرَ كِسْرَى أَبُو شُرَّانَ إِلَى مُلْكِهِ يَوْمًا فَأَعْجَبَهُ فَقَالَ : هَذَا مُلْكٌ إِلَّا أَنَّهُ
هُلْكَ ، وَنَعِيمٌ إِلَّا أَنَّهُ عَدِيمٌ ، وَغَنَاءٌ لَوْلَا أَنَّهُ عَنَاءٌ ، وَسُرُورٌ لَوْلَا أَنَّهُ سُورُورٌ ،
وَيَوْمٌ لَوْ كَانَ يُوثِقُ لَهُ بَعْدُ... وَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ حَبْنَاءَ - هُوَ وَأَخْرَاهُ صَخْرٌ وَيَزِيدٌ
كَانُوا شِعْرَاءَ ، وَكَانَ الْمُغِيرَةُ مِنْ رِجَالِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ تُوْفِيَ سَنَةَ ٩١ هـ :
وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ مَا تَمُّهُ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُرْسِهِ

الدنيا هموم وغموم

سَمِعَ حَكِيمٌ رَجُلًا يَقُولُ لِأَخْرَ : لَا أَرَاكَ اللَّهُ مَكْرُوهًا ، فَقَالَ : دَعَوْتُ
عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ ، مَنْ عَاشَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَكْرُوهٍ ، وَقِيلَ لِلنَّظَامِ - إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ
الْمَعْتَزَلِي - وَفِي يَدِهِ قَدْحُ دَوَاءٍ - : كَيْفَ حَالُكَ ؟ فَقَالَ :

أَصْبَحْتُ فِي دَارِ بَلِيَّاتٍ أَدْفَعُ آفَاتِ بِلَافَاتِ

وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّهْمِيُّ الْمَتْرُوفِيُّ سَنَةَ ٤١٦ هـ يَصِفُ الدُّنْيَا - :

طَبِيعَتِ عَلٍ كَدَّرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَفْدَائِ وَالْأَكْدَارِ
وَمُكَلَّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جُذُودَ نَارِ
وَإِذَا رَجَّوْتَ الْمُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا تَبْنِي الرِّجَاءَ عَلَى شَفِيرِ هَارِ

«الجدوة: الجرة، والشفير: ناحية الوادى من أعلاه، وهار: يقال: هار الجرف والبناء: انهار وانهدم»

وقال شاعر:

أَمَرَ الزَّمانُ لَنَا طَعْمَهُ فما إن تَرى ساعَةَ عَذْبِهِ

وقال آخر:

أَفَ من الدنيا وأسبابها فإنها للْحُزنِ مَحْلُوقَةٌ
هُمُّمُها ما تَنْقِضِي ساعَةَ عن مَلِكٍ فيها ولا سُوْقَه

وقال آخر:

تَأْتى المكارِهِ حين تَأْتى جُمْلَةٌ وترى الشُّرورَ يَجىءُ فى الفَلتاتِ
وقال ابنُ نُباتَةَ السَّعدى:

وما خَيْرُ عَيْنٍ نَصَفَهُ سِنَّةُ الكَرى ونَصَفَ به نَعَمْتُ أو تَنوَّجِعُ
مع الوَقْتِ يَمِضى بُوْسُه ونَعيمُه كأن لم يَكُنِ والوَقْتُ عَمْرُكُ أَجْمَعُ
وقال الشَّريف الرضى:

يا آمِنَ الأقدارِ بادِرِ صَرَفِها واعلَمَ بأنَّ الطَّالِبِينَ حِثَّاتُ
حُذِّمِ من ثَرائِكَ ما اسْتَطَعْتَ فإِنما شُرَكَائِكَ الأيَّامُ والوَرِثاتُ
لَمْ يَقْضِ حَقَّ المَاليِ إلا مَعشَرُ وَجَدوا الزَّمانَ يَعيثُ فيه فَعائِوا
تَحْشُو على عَيْبِ الغَنيِّ يَدُ الغَنيِّ والفقيرِ عن عَيْبِ الفَقيِّ بَحَّاتُ
المالُ مالُ المرءِ ما بَلَغَتْ به الشَّدُّ هَواتُ أو دَفَعَتْ به الأَحداثُ
ما كان مِنْه فاضِلاً عَنِ قُوَّتِهِ فَلْيَعَلِّمْ بِأنَّهُ مِيراثُ
مالي إلى الدنيا الغرورةِ حاجَةٌ فليخزِ سَاحِرُ كَيْدِها النِّفَّاتُ
سَكَنَها مَحذُورَةٌ وَعُهودُها مَنقُوضَةٌ وَجِبالُها أنْكَاثُ

أَمْ الْمَصَائِبِ لَا يَزَالُ يَرُوعُنَا مِنْهَا ذُكُورُ نَوَائِبِ وَإِنَّا
 إِنِّي لَا عَجَبٌ مِنْ رِجَالٍ أَمْسَكُوا بِجَبَائِلِ الدُّنْيَا وَهُمْ رِثَاثُ
 كَنَزُوا السُّكُورَ وَأَغْلَوْا شَهْوَاهِمُ فَالْأَرْضُ تَشْبَعُ وَالْبُطُونُ غِرَاثُ
 «صرفها: حَدَّثَانَهَا ونَوَائِبُهَا، وَحِثَاثُ: سِرَاعٌ، وَحِثَا التُّرَابُ: صَبَّهُ، يَقُولُ
 فِي هَذَا الْبَيْتِ: إِنَّ الْغِنَى يَغْطِي عِيُوبَ الْأَغْنِيَاءِ أَمَا الْفَقْرُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى أَنْ
 يَفْتَشُوا عَنْ عِيُوبِ الْفُقَرَاءِ وَيَلْصِقُوا بِهِمُ الْعِيُوبَ الْإِصْطَاةَ. وَنَكْتُ الْحَبْلِ:
 نَقْضُهُ، وَرِثَاثُ جَمْعُ رِثٍ: بَالٍ، وَغِرَاثُ: جَائِعَاتُ...»

النقصان بعد التمام

قالوا: مَنْ بَلَغَ غَايَةَ مَا يُحِبُّ فَلْيَتَوَقَّعْ غَايَةَ مَا يَكْرَهُ... وَقَالَ الْإِصْحَمِيُّ:
 وَجَدْتُ لِبَعْضِ الْعَرَبِ بَيَّتَيْنِ كَأَنَّهُمَا أُخِذَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَتَّى إِذَا فَرِحُوا
 بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَا هُمْ بِغَتَّةٍ، وَهِيَ:

أَحْدَثَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُدْتَ وَلَمْ تَخَفْ غِيبَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
 وَسَأَلْتَكِ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزَتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ السُّكْدَرُ
 وَمِنْ دُعَاءِ بَعْضِهِمْ: صَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ آفَاتِ التَّمَامِ...

وَالْبَيْتُ الْمَشْهُورُ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَأَ نَقْضُهُ تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: عَرَضُ الدُّنْيَا عَارِيَّةٌ، وَمَنْ فِيهَا ضَيْفٌ،
 وَالْعَارِيَّةُ مُؤَدَّاةٌ، وَالضَيْفُ مُرْتَحِلٌ «العارية: مَا تَسْتَعِيرُهُ مِنْ قَرِيْبِكَ أَوْ صَدِيقِكَ
 أَوْ جَارِكَ لِتَنْتَفِعَ بِهِ حِينَئِذٍ تَرُدُّهُ إِلَى صَاحِبِهِ، وَعَرَضُ الدُّنْيَا: مَا نَزَلَ مِنْهَا
 مِنْ مَتَاعِهَا وَحُطَايَاهَا»

وقال حكيم : الدنيا تُطعمُ أولادها ، وتأكلُ أولادها . وقال الشاعر :
وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ ولا بُدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ
وقال المتنبي :

أبدأ تَسْتَرِدُّ مَاتَهُبُ الدنِيا فِيا لَيْتَ جُودِها كانَ بِمُخْلا
فَكَفَّتْ كَوْنَ فَرِحَةٍ تُورِثُ الغَمَّ وَخِلَ يُغادِرُ الوَجدَ خِلا
ويقول المتنبي : شيمة الدنيا أن تستردَّ ماتَهُبُ وتعطى ، فليتها بخلت وما
جادت إذ لو بخلت ولم تعط لسكرتنا الفرح بوجود شيء يعقب لنقده الغم ،
والفرح بوجود خليل يؤنس بقربه ثم تخترمه المنية فيغادرُهم خليلاً للحازن
عليه ، وفي هذه القصيدة يقول المتنبي :

ولذيذِ الحِياةِ أنْفُسُ في النَفِّ سَ وَأشْهَى من أنْ يُمَلَّ وأُحَلَّى
وَإِذا الشَيْخُ قالَ أَفِ فِما مَلَّ حِياةِ وإِنما الضَّعْفَ مَلَّ
آةُ العَيْشِ سِحَّةٌ وشِبابٌ فَإِذا وَآيا عَنِ المَرِّ وَلى

الدنيا لا يدوم فيها فرح ولا ترح

قال شاعر :

هل الدهر إلا ساعةٌ ثم تنقضى بما كان فيها من بلاءٍ ومن خفيضٍ
فهو نك لا تحفلُ إِساءةَ عارِضٍ ولا فرحةً تأتي فِكِلتاُهما تَمْضى
والحفِضُ : الدَّعةُ ولينُ العيشِ وَسَعَتُهُ ، والهُونُ مُصدرُ الهَيْئِ في معنى
السكينة والتثبُّتِ والوقارِ والرفقِ قال :

فَهُوَ نَكْماً لا يَرُدُّ الدَّهْرُ ما فانا لا تَهْلِكُ أَسفا في إثرِ مَنْ ما نا

وقال آخر :

وما اکتأبت نفس فدام اکتأبها ولا ابتهجت نفس فدام ابتهأبها
 ودخل أعرابي عُمر مائة وعشرين سنة على معاوية رضى الله عنه ، فقال له :
 صِف لنا الدنيا ، فقال : سُذَيَاتُ بِلَاءٍ وَسُذَيَاتُ رِخَاءٍ ، يولدُ مولودٌ وبهلكُ هالكُ
 ولولا المولودُ بادَ الخلقُ ، ولولا الهالكُ ضاقت الأرض .

الدنيا غزارة

قال بعضهم : هذه الدنيا قَحْبَةٌ يومًا عند عطار ، ويومًا عند بيطار ...
 وقال المتنبي :

فَدَى الدارُ أَخونُ من مومسٍ وأخذُعُ من كَفَّةِ الحائِلِ
 تَفانى الرجالُ على حُبِّها وما يَحْصُلونَ على طائِلِ

« الحائِلُ : الصائدُ ذو الجبالة ، وهى الشَّرَك ، والطائِلُ : ما كان له قدر .
 يقول المتنبي : إن هذه الدنيا فاجرة خَوانة لبنيها كالومس مُخْلِفٌ مَنْ وثِقَ بها ،
 وهى كذلك أخذُعُ من جبالة الصائد تصرعُ من اطمان اليها ، ثم قال فى البيت
 الثانى : تفانى الناس على حُبِّها ومع ذلك لم يحصُلوا من أمرها على طائِلِ لأنها
 تسترِدُ ما تعطيه وتهدِمُ ما تبنيه ، وتمرُّ بعد حلاوتها وتعوج بعد استقامتها .
 وقالوا : مَثَلُ الدنيا مَثَلُ الحيةِ أَيْنُ مَشَّها وفي جَوفِها السُّمُّ الناقع ، يَهوى اليها
 الصبىُّ الجاهل ، ويحذَرها الحازمُ العاقل . « يهوى إليها : يُسرِعُ وذلك كما تقول
 رأيت فلانا يهوى نحوك ، معناه : يريدك ، قال تعالى : فاجعل أفئدةً من الناس
 تهوى إليهم : أى تريدهم وتسرع » وقال أبو عمرو بن العلاء : كُنْتُ أُدورُ فى
 ضَيْعَتِي فى شِدَّةِ الحر فسمعتُها تَفأ يقول :

وإنَّ امرأَ دُنْياهُ أَكْبَرُهمِ لَمَسَّمِيسِكُ منها بِجَبَلِ عُرورِ

فَنَقَشْتُ ذَٰلِكَ عَلَى خَاتَمِي . وَقَالَ الشَّاعِرُ :
وَمَنْ عَرَفَ الْآيَاتِ لَمْ يَرْخَفْضَهَا نَعِيمًا وَلَمْ يَعُدُّ تَصَرُّفَهَا بَلْوَى

حب الدنيا على الرغم من عيوبها

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه - وقد ذُكِرَ له توَمُّ يُحِبُّونَ الدُّنْيَا - :
هُمُ أَبْنَاؤُهَا ، أَفِيلَامُ الرَّجُلِ عَلَى حُبِّ وَالدِّيَةِ ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : مَا أَعْلَمُ لَنَا وَالدُّنْيَا
كَقَوْلِ كَثِيرٍ عَزَّةً :

أَسِيْبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ أَتَقَلَّتْ
« وقد تقدم » ، وقال شاعر :

يَذُمُّونَ دُنْيَا لَا يُرِيحُونَ دَرَّهَا وَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا يُذَمُّ وَيُحْلَبُ
« لا يريحون درها فالدرُّ : اللبن يقول : إنهم مع ذمهم إياها يُلْحُونَ فِي
الإقبال عليها ويكلبون ويشرِّهون حتى ما يتركون درها يستريح ، وهذا على
المثل . . » ...

وقال أبو العتاهية :

كُنَّا يُكْثِرُ الْمَذَمَّةَ لِلدُّنْيَا وَكُلَّ بِحُبِّهَا مَفْتُونُ

الدنيا تضر محبيها

قالوا في ذلك : الدُّنْيَا تُضَرُّ مُحِبِّيهَا ، وَمَا كَرُمَتْ عَلَى أَحَدٍ نَفْسُهُ إِلَّا هَانَتْ
عَلَيْهِ الدُّنْيَا ، وَقَالُوا : أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الدُّنْيَا : أَنْ آخِذِي مَنْ إِيْجَفَاكِ وَاسْتَخِذِي
مَنْ يَهْوَاكِ « وهذا تمثيلٌ جميلٌ وَحَقٌّ ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : الدُّنْيَا
لَا تُضَرُّ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهَا وَلَا تَنْفَعُ إِلَّا مَنْ حَذَرَهَا . وَقَالَ الْفَارُوقُ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ : مَا كَانَتْ الدُّنْيَا بِهَمِّ امْرِئٍ إِلَّا لَزِمَ قَلْبَهُ خِصَالُ أَرْبَعٍ : فَقَرُّهُ لَا يَدْرُكُ

غناه، وهم لا ينقضى مداه، وشغل لا ينفد أولاه، وأمل لا يدرك منتهاه .
وقال الشاعر :

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذاباً كلما كثرت لديه
تمين المكرمين لها بصغر وتكريم كل من هانت عليه
« الصغر : الصغار، أى الذل والضميم ،

وقال المتنبي :

ومن لم يعشق الدنيا قديماً ؟ ولكن لاسبيل إلى الوصال

« من : استهامية ، يقول المتنبي : من ذا الذى لم يعشق الدنيا من قديم
الدهر ؟ كل أحد يهوى الدنيا ولكن لاسبيل إلى دوام وصالها ، أى أن
كثيراً من عشاقها واصلها وواصلته ولكن لاسبيل إلى دوام الوصال فإن
وصالها يعقبه الهجر وسرورها يعقبه الحزن وأيادها تنتهى بالموت »

بنو الدنيا أغراض لضروب المحن

قيل للحسن البصرى : كيف أصبحت ؟ فقال : كيف يصبح من دو
غرض لثلاثة أسهم : سهم رزية ، وسهم بلية ، وسهم منية . وقالوا : من
أخطأه سهم المنية لم يخطئه سهم الرزية ، وقال ابن المعتز :
الدهر يطرف بالعنا والناس بين جفونه

« يقال : طرف بصره يطرفه طرفاً : إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر ؛

والعنا هو العناء أى النصب » وقال أبو العتاهية :

أف لدنيا تلاعبت بي تلاعب الموج بالغريريق

الأيام تمضى فى تراذلها

سَمِعَ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ امْرَأَةً تَقُولُ : اللَّهُمَّ اعْزِلْ عَنَّا زِيَادًا ، فَقَالَ : زَيْدِي
فِي دَعَائِكَ : وَأَبْدِلْنَا خَيْرًا مِنْهُ ، فَإِنَّ الْآخِرَ أَبْدَأُ شَرًّا ... وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ (١) :
مَعْرُوفٌ زَمَانِنَا مُنْكَرٌ زَمَانٍ قَدَفَاتٍ ، وَمُنْكَرُهُ مَعْرُوفٌ زَمَانٍ لَمْ يَأْتِ ،

حمدهم ماضى الزمان وذمهم حاضره

كَانَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَثِيرًا مَا تُنْشِدُ قَوْلَ لَبِيدٍ :
ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجَلْدِ الْأَجْرَبِ
وَتَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ كَبِيدًا ، كَيْفَ لَوْعَاشٌ إِلَى زَمَانِنَا ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
الزَّيْبِرِ يُنْشِدُ هَذَا الْبَيْتَ وَيَقُولُ : رَحِمَ اللَّهُ عَائِشَةَ ، كَيْفَ لَوْعَاشَتْ إِلَى
زَمَانِنَا ، وَمِنْ كَلَامِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : كَانَ النَّاسُ وَرَقًا بِلَا شَوْكٍ فَصَارُوا شَوْكًا
بِلَا وَرَقٍ ... وَقَالُوا :

رُبَّ يَوْمٍ بَكَيْتُ فِيهِ فَلَمَّا صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيْتُ عَلَيْهِ
وَهُنَاكَ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ مَاضِيَ الزَّمَانِ كَحَاضِرِهِ ، لَا يُفْضَلُ قَدِيمُ الزَّمَانِ
حَدِيثَهُ ، وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ كُلُّهَا ، أَوِ النَّاسُ جَمِيعًا ، قُدَامَاهُمْ وَمُحَدَّثُوهُمْ وَأَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ
سَوَاسِيَّةٌ فِي أَنْهَمُ خَلْفُ كَجَلْدِ الْأَجْرَبِ ، وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ تِلْكَ
السُّكْرَةُ الَّتِي كَتَبَهَا بَدِيعُ الزَّمَانِ الْهَمْدَانِيُّ فِي رِسَالَةٍ لَهُ إِلَى أَسْتَاذِهِ أَبِي الْحَسَنِ
ابْنِ فَارَسٍ صَاحِبِ الْمَجْمَلِ فِي اللُّغَةِ ، جَوَابًا عَلَى رِسَالَةِ كَتَبَهَا ابْنُ فَارَسٍ إِلَى الْبَدِيعِ

(١) هُوَ عُوَيْمِرُ بْنُ قَيْسِ بْنِ زَيْدِ الْأَنْصَارِيِّ ، الصَّحَابِيُّ الْمَشْهُورُ ، شَهِدَ مَعَ سَيِّدِنَا
رَسُولِ اللَّهِ وَقَعَةَ أَحَدٍ وَمَا بَعْدَهَا وَتَوَفَّى فِي آخِرِ خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ

في ذمّ الزمان^(١)، قال البديع: نعم أطالَ اللهُ بقاءَ الشيخ الإمام، إنه الخَمُّ
المَسْنُونُ^(٢)، وإن طُنَّتِ الظُّنون، والناسُ لآدم، وإن كان العهدُ قد تقدّم،
وارتبكت الأضداد، واختلط الميلاد؛ والشيخ يقول: فَسَدَ الزَّمان، أفلا
يقول: متى كان صالحاً؟ أفي الدولة العباسية وقد رأينا آخِرَها وسَمِعنا أوَّلَها؛
أم المُدَّة المَرَوَانِيَّة وفي أخبارها « لا تَكْتَسِعِ الشَّوْلُ بِأَغْبَارِها »^(٣)... أم
السَّنين الحَرَبِيَّة^(٤):

وَالسَّيْفُ يُعْمَلُ فِي الطَّلِي وَالرَّمْحُ يُرَكَّزُ فِي السَّكَلِي^(٥)

(١) قيل: ذكر الهمذاني في مجلس ابن فارس فقال مامعناه: إن البديع قد نسي حق
تعليمنا إياه، وعمتنا وشمخ بأنفه عنا، فالحمد لله على فساد الزمان، وتغير نوع الإنسان،
فبلغ ذلك، البديع، فكتب إلى ابن فارس هذه الرسالة.
(٢) الحما: الطين الأسود. والمسنون: المتغير المتن.
(٣) هذا من قول الحارث بن حلزة:

لَا تَكْتَسِعِ الشَّوْلُ بِأَغْبَارِها إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَنِ النَّاتِجُ
وَاحْلُبْ لِأَضْيَافِكَ أَلْبَانِها فَإِنَّ شَرَّ اللَّسَنِ الْوَالِجُ

والكسع: ترك بقية من اللبن في خلف الناقة يراد بذلك تغزيرها، وهو أشد لها
والشول من النوق: مامضى على حملها أو وضعها سبعة أشهر فقلّ لبنها وخف ضرعها
والأغبار: جمع الغبر وهو بقية اللبن في الضرع، والوالج: الذي يالج في ظهورها من
اللبن المكسوع يقول الحارث: لا تغزّر إبلك تطلب بذلك قوة نسلها واحلبها لأضيافك
فاعل عدوا يغير عليها فيكون نتاجها له دونك. ولعل البديع يشير بهذا إلى بخل بني
مروان وقلة الخير في أيامهم

(٤) الحربية: نسبة إلى حرب بن أمية بن عبد شمس، يريد بذلك خلافة معاوية ويزيد ابنة
(٥) الطلي: الاعتاق واحده طلية بضم الطاء، وركز الرمح. دفعه وأثبتته والسكلى:
جمع كلية وكلاوة، والكليتان أو الكلوتان معروفتان

وَمَبِيتُ حُجْرٍ فِي الْفَلَا وَالْحَرَّتَانِ وَكَرْبَلَا (١)

أم البيعة الهاشمية وعلى يقول: لبيت العشرة منكم برأس، من بني فراس؛
أم الأيام الأموية (٢) والنفير إلى الحجاز، والعيون إلى الأعجاز؛ أم الإمارة
العدوية (٣) وصاحبها يقول: وهل بعد البزول إلا النزول؛ (٤) أم الخلافة التيمية (٥)
وهو يقول: طوبى لمن مات في نأنة الإسلام (٦) أم على عهد الرسالة
ويوم الفتح قيل: أسكني يا فلانة، فقد ذهب الأمانة؛ أم في الجاهلية
وليد يقول:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كِلْدِ الْأَجْرِبِ

(١) حجر: هو حجر بن عدى الكندي من أهل العراق وقد قتله معاوية بن أبي
سفيان سنة إحدى وخمسين لإظهاره التشيع إلى علي ولعنه معاوية وأصحابه والبراءة
منهم، وكان يجتمع عليه كل من وافقه في هذا الرأي من أهل المصريين حتى ولي زياد
على العراق فكتب إلى معاوية في أمر حجر وأكثر فأمر معاوية زياداً أن يبعث به
إليه مشدوداً بالحديد، ففعل، فلما قدم عليه أمر به معاوية فضربت عنقه، وكان
حجر من أشرف العراق وخياره، انظر تاريخ الطبري في حوادث سنة إحدى
وخمسين، ويشير بقوله والحرتان إلى وقعة الحرة التي كانت بين جنود يزيد بن معاوية
وأهل المدينة سنة ثلاث وستين وكانت هذه الوقعة في حرة واقم وهي شرقي المدينة
وقد قتل فيها من أهل المدينة خلق كثير، وكربلاء موضع في طرف البرية عند الكوفة
وهو الذي قتل فيه الحسين بن علي رضي الله عنه في خلافة يزيد بن معاوية

(٢) يريد خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه لأن أمية رهطه

(٣) يريد خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والعدوية نسبة إلى عدى بن كعب

ابن لؤي، وهم رهط عمر

(٤) البزول: تشقق ناب البعير، وذلك في السنة التاسعة، يريد بهذا: وهل بعد

الوصول إلى الغاية إلا الأخذ في النقصان؟ (٥) يريد خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

والتيمية: نسبة إلى تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، وهم رهط أبي بكر

(٦) النأنة: أول الإسلام قال الزمخشري: ومعناها: الضعف قبل أن يقوى ويعز

أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَأَخُو عَادٍ يَقُولُ :
 بِلَادُهَا كُنَّا وَكُنَّا نَحِبُّهَا إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانُ
 أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَيُرْوَى لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
 تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا فَوَجَّهُ الْأَرْضِ مُعَبَّرٌ قَبِيحٌ
 أَمْ قَبْلَ ذَلِكَ وَالْمَلَائِكَةُ تَقُولُ لِبَارِيهَا : أَنْتَجَعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ
 الدِّمَاءَ ، ؛ (١) مَا فَتَسِدُ النَّاسُ ، وَلَكِنْ أَطْرَدَ الْقِيَاسُ ؛ وَلَا أَظَلَمَتِ الْأَيَّامُ ،
 وَإِنَّمَا امْتَدَّ الْإِظْلَامُ ؛ وَهَلْ يَفْسُدُ الشَّيْءُ إِلَّا عَنِ صِلَاحٍ ، وَيُمْسِي الْمَرْءُ إِلَّا
 عَنْ صَبَاحٍ !

إنكار ذم الدهر

رَوَى النَّاعِنُ سَيِّدَنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا تُسَبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللَّهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ :
 فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ ، يَقُولُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : إِنْ مَا أَصَابَكَ مِنَ الدَّهْرِ فَأِنَّهُ
 فَاعِلُهُ لَيْسَ الدَّهْرُ ، فَإِذَا شَتَمْتَ الدَّهْرَ فَكَأَنَّكَ أَرَدْتَ بِهِ اللَّهَ : وَكَانَ مِنْ شَأْنِ
 الْعَرَبِ أَنْ تَذُمَّ الدَّهْرَ وَتَسْبَهُ عِنْدَ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ تَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ مَوْتٍ
 أَوْ هَرَمٍ وَيَقُولُونَ : أَبَادَهُمُ الدَّهْرُ وَأَصَابَتْهُمْ قَوَارِعُ الدَّهْرِ وَحَوَادِثُهُ ، فَيَجْمَعُونَ
 الدَّهْرَ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ فَيُذَمُّونَهُ ، وَقَدْ ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ وَأَخْبَرَ اللَّهُ
 تَعَالَى عَنْهُمْ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ثُمَّ كَذَّبَهُمْ فَقَالَ : وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
 الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَمَا لَهُمْ

(١) قَالَ الشَّيْخُ صِلَاحُ الدِّينِ الصَّفْدِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى لَامِيَةِ الْعَجْمِ لِلطُّغْرَانِيِّ : اسْتَدَلَّ
 بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ خَلَقَ آخِرَ فِي الْأَرْضِ وَأَنَّهُمْ
 أَفْسَدُوا فِيهَا وَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ : أَنْتَجَعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا !

بذلك من علم إن هم إلا يظنون ، والدهر : الزمان الطويل ومدة الحياة الدنيا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تسبوا الدهر ، على تأويل : لا تسبوا الذى يفعل بكم هذه الأشياء فإنكم إذا سببتم فاعلها فإمّا يقع السب على الله تعالى لأنه الفاعل لها لا الدهر... « وقد تقدم ذلك »

وقال أبو بكر الخوارزمي تريبا من هذا المعنى الذى نعالجه :

وكم نكني وكم نهجو الليالي وليس نخصمنا إلا القضاء^(١)

وقال رجل للأصمعي : قد الزمان ، فقال :

إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس^(٢)

والبيت المشهور في هذا هو قول بعضهم :

نعيب زماننا والعيب فينا ولو نطق الزمان بنا هجانا

وقال المتنبي :

ألا لأرى الأحداث حمدا ولا ذما فإبطشها جهلا ولا كفها حلما^(٣)

وقال بعض الصالحين لأبي العتاهية : أى خلق الله أصغر عنده ؟ قال :

الدنيا ، لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، قال : أصغر منها مجيها ...

المسرة من حيث تخشى المضرة

قال أبو عمرو بن العلاء : طلب الحجاج بن يوسف الثقفي أبي ، فخرج

(١) يقال . كنى عن الامر بغيره يكنى كناية وهو : أن تتكلم بشيء وتريد غيره

(٢) الجديدان : الليل والنهار وذلك لانهما لا يلبيان أبدا

(٣) يقول المتنبي ، لأحمد الحوادث السارة ولا أدم الضارة فإنها إذا بطشت بنا

أو آذتنا لم يكن ذلك جهلا منها وإذا كفت عن البطش والضرر لم يكن ذلك حلما ،

يعنى : أن الفعل في جميع ذلك ليس لها

منه هاربا إلى اليمن ، فإننا لدسير بصحراء اليمن إذ لحقنا لاحق يُنشدُ :
 رُبَّمَا تَكَرَّرَهُ النُّفُوسُ مِنَ الْأُمْرِ لَهُ فَرَجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ
 فقال أبي : ما الخبر ؟ قال : مات الحجاج ، قال أبو عمرو . فانا بقوله :
 له فَرَجَةٌ أَشَدُّ سُرُورًا مِنِّي بِمَوْتِ الْحِجَّاجِ ، قال : فقال أبي : أَصْرِفْ رِكَابَنَا
 إِلَى الْبَصْرَةِ ، قال : وكنت يومئذ قد خَنَقْتُ بِضْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً ... « ربما
 تكره النفوس ... ألبيت هو لآمئة بن أبي الصلت وقبله :

لَا تَضِيقَنَّ فِي الْأَدْوَرِ فَقَدْ تُكْشَفُ عَمَّاؤُهَا بِغَيْرِ احْتِيَالٍ
 ومن بديع هذه اللغة العربية الكريمة أنها تَفَرِّقُ بَيْنَ فَرَجَةٍ « بفتح الفاء ،
 وبينها بالضم ، فالأولى : التَّفَقُّصُ مِنَ الْهَمِّ ، وَالْآخِرَى ، أَى الْفُرْجَةُ بِالضَّمِّ : كُلُّ
 مَنْفَرَجٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ وَنَحْوَهُمَا . وَالغَمَاءُ : الْكَرْبُ ، وَقَالُوا : خَفَّ الْمَضَارُّ مِنَ
 خَلَلِ الْمَسَارِ ^(١) ، وَارْجُ التَّنْفَعِ مِنْ مَوْضِعِ الْمَنْعِ ، فَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي الْأَمْنُ مِنْ
 مَحَلِّ الْفَرْعِ ؛ وَقَالُوا : أَعْنَاقُ الْأُمُورِ تَنْشَابُهُ ، فَرُبَّ مَحْبُوبٍ فِي مَكْرُوهٍ وَمَكْرُوهٍ
 فِي مَحْبُوبٍ وَمَغْبُوطٌ بِنِعْمَةٍ هِيَ دَائِهِ وَمَرْحُومٌ مِنْ دَاءٍ فِيهِ شِفَاؤُهُ ... وَقَالُوا :
 رُبَّ سَلَامَةٍ تَكُونُ لِلتَّلْفِ سَبَابًا ، وَمَكْرُوهٍ يَكُونُ لِلنَّجَاةِ مِفْتَاحًا :

وقد يَأْسَفُ الْمَرْءُ مِنْ قُوْتِ مَا لَعَلَّ السَّلَامَةَ فِي قُوْتِهِ
 وقال حكيم : اللَّهُ مَصَالِحُ فِي مَكَارِهِ عِبَادِهِ ، وَقَالُوا : الْعَاقِلُ لَا يَجْزَعُ
 لِأَوَّلِ نَكْبَةٍ وَلَا يَفْرَحُ بِأَوَّلِ نِعْمَةٍ فَرُبَّمَا أَقْلَعَ الْمَحْبُوبُ عَمَّا يُضَرُّ وَأَسْفَرَ
 الْمَكْرُوهَ عَمَّا يُبْسَرُ ... وقال سيدنا رسولُ الله « اشْتَدَّى أَرْزَمَةُ تَنْفَرِجِي ،
 « الْأَرْزَمَةُ : الشَّدَّةُ وَالْفَحْطُ » وَيُقَالُ فِي ذَلِكَ : إِنْ الشَّدَّةُ إِذَا تَابَعْتَ أَنْفَرَجْتَ
 وَإِذَا تَوَالَّتْ تَوَالَّتْ ... وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ « فَتَمْسَى
 أَنْ تَكَرَّهَ وَاشِئْنَا وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا »

(١) من خلل المسار : أى من خلاها .

الفرج بعد الشدة

أَتَى يَزِيدُ بِمَخَارِجِي، فَهَمَّ بِقَتْلِهِ فَقَالَ الْخَارِجِيُّ:
 عَسَى فَرَجٌ يَأْتِي بِهِ اللَّهُ إِنَّهُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي خَلِيقَتِهِ أَمْرٌ
 فقال يزيد : والله ، لأضربنَّ عُنُقَكَ ، أقتلوه ، فدخل الهيثمُ بن الأسود
 النَّخَعِيُّ ، فقال : أَمْسِكُوهُ قَلِيلًا ، فذنا منه فقال : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَبْ
 بُجْرِمَ قَوْمٍ لَوْ أَدِيمُ ، فقال : هو لك ، فخرج الخارِجِيُّ وهو يقول : تَأْتِي عَلَى
 اللَّهِ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يُكْذِبَهُ وَغَالِبَهُ فَأَبَى إِلَّا أَنْ يَغْلِبَهُ ... وَأُحْضِرَ رَجُلٌ
 أَمَامَ بَعْضِ الْمُلُوكِ ، فدعا بطعام فأخذ يأكلُ ويضحك ، فقيل له : تضحكُ
 وَأَنْتَ مَقْتُولٌ ؟ فقال : مِنْ السَّاعَةِ إِلَى السَّاعَةِ فَارْج ، فَسَمِعَتْ صَيْحَةَ قَقِيلٍ :
 مات الملك ، فخلَّوا الرجل ... وَشَدَّ بَعْضُ الْعُمَّالِ - الْوَلَاةِ - رُجُلًا إِلَى أَسْطُوَانَةٍ
 - عَمُودٍ - يُرِيدُ ضَرْبَهُ ، فقال حُلَّتِي مِنْ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ ، فاحلَّه إلا وقد
 عَزَلَ وَشَدَّ إِلَى الْأَسْطُوَانَةِ - بَعِينَهَا ...

من زال كربه فَنَسِيَ صُنْعَ اللَّهِ

قالوا : ما صاحب البلاء الذي طال بلاؤه بأحقَّ بالدعاء من المعاني . وقيل :
 مَنْ سَبَّحَ فِي النَّهْرِ الَّذِي فِيهِ التَّمَسَّاحُ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَكَةِ . وشكا يوسف
 عليه السلامُ طُولَ الْحَبْسِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : أَنْتَ حَبَسْتَ نَفْسَكَ
 حَيْثُ قَاتَ : السَّجْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ . وقال الله عزَّ وتقدَّس « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ
 الضُّرُّ دَعَا نَا لِحَبْنِهِ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا
 إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ... وقال سبحانه :
 قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَنْ أُنْجِيَنَّكُمْ

من هذه لتكوننَّ من الشاكرين ، قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كَلَّ كَرْبٌ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ .

لَا تُعْرِفُ النِّعْمَةَ إِلَّا عِنْدَ فَقْدِهَا

قالوا : كم من نعمة عرفت ببلية نزلت ، ونعمة جهلت بسلامة لبثت .
وقالوا : شيئا لا يعرف فاضلها إلا من فقدتها : الغنى والعافية ... وقال
الشاعر - :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصَّبْحِ مُبَيِّضٌ وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسَوِّدٌ
ضِدَّانٍ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حُسْنًا وَالضُّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضُّدِّ

وقال المتنبي :

• وبضدها تتبين الأشياء •

وقال أبو تمام :

وَلَيْسَ يَعْرِفُ طَيْبَ الْوَصْلِ صَاحِبُهُ حَتَّى يُصَابَ بِنَأْيٍ أَوْ بِهِجْرَانٍ

وقال المتنبي :

ولولا أيادي الدهر في الجمع بيننا غفلنا فلم نشعر له بذنوب
« يقول المتنبي : إن الدهر تارة يُحَسِّنُ وتارة يسيء فلولم يحسن إلينا
بالجمع بيننا لما شعرنا بذنوبه في تمريقنا ، فإحسانه عرفنا وإساءته »

فَضْلُ الْعَافِيَةِ وَسَلَامَةِ الدِّينِ

قال سيدنا رسول الله « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافَى فِي بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوَّةٌ
يَوْمَهُ فَكَأَنَّمَا حَبِرَتْ لَهُ الدُّنْيَا »

« قال ابن هري : قال جماعة من أهل اللغة : السُّرْبُ : النفس قال : وأنكر

ابنُ دَرَسْتَوِيَهُ قولَ من قال في نَفْسِه قال : وإنما المعنى : آمِنٌ في أهله وماله وولده ، ولو آمن على نفسه وحدها دون أهله وماله وولده لم يُقَلْ هو آمِنٌ في سِرْبِه ، وإنما السَّرْبُ هُهنا : مال الرجل من أهل ومالٍ ، ولذلك سمي قطع البقر والظباء والقطا والنساء سِرْبًا ، وكان الأصلُ في ذلك أن يكون الراعي آمنًا في سِرْبِه والفحلُ آمنًا في سِرْبِه ، ثم استُعْمِلَ في غير الرعاة استعارةً فيما شَبَّه به . وحيزت : جُمِعَتْ وُضِّمَتْ ، وبجذافيرها : بأسرها »
وقال ابن الرومي :

إذا ما كساك الله سِرْبًا لِحَمَّةٍ ولم تخُلْ من قوتِ يَحِلِّ وَيَعْدُبُ
فلا تَغِيظَنَّ الْمُتَرَفِينَ فَإِنَّهُمْ على حَسْبِ مَا يُعْطِيهِمُ الدَّهْرُ يَسْأُبُ
«السربال : القميص ، وحلٌّ : من الحلال مقابل الحرام ، والغبطة : أن تمنى مثل حال المغبوط - الحسن الحال - من غير أن تريد زوالها ، وعلى حسب : على قدر وعدد ، وقالوا : مَنْ أوتِيَ العافيةَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أوتِيَ أَكْثَرَ منه فَقَدَّ قَلَّلَ كثيرًا وكَثُرَ قَلِيلًا » كثر قليلًا ، لأن ما عدا العافية فهو قليل بالإضافة إليها ، ...

عقريات شتى في الدنيا

قال أبو حازم : وما الدنيا ! أما ما ضي فَحَلْمٌ وأما ما بقي فأما نِي . وقال بكر بن عبد الله : المُسْتَغْنَى عن الدنيا بالدنيا كالمُطْفَعِ النَّارِ بِالتَّبَنِ . وقال ابن مسعود : الدنيا كُلُّها غموم ، فما كان فيها من سرور فهو رَيْج . وقال بعض الحكماء : مثلُ الدنيا والآخرة مثلُ رجلٍ له ضَرَّتَانِ إن أَرْضَى إحداهما أَسَخَطَ الأُخْرَى ... وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : تَرَكَ المُلُوكُ لِمِ الحِكْمَةِ فَاثْرُ كَوَالِهمُ الدنيا . وقال يحيى بنُ خالد البرمكي : دَخَلْنَا في الدنيا دُخُولًا

أخرَجنا منها . وكان الحسن البصري كثيرا ما يتمثل كلما جرى ذكر الدنيا - :

اليومَ عندك دَلمَا وحديثُها وغداً لغيرك كَفْها والمعصم
وهذا البيت كذلك يقال في غدر المرأة ونلة وفاتها . وكان إبراهيم بن آدم
العجلي يقول :

نُرَقِعُ دُنْيَانَا بتمزيقِ ديننا فلا دِيننا يَبْقَى ولا ما نُرَقِعُ
وقال السيد المسيح : أنا الذي كفأت الدنيا على وجهها ، فليست لي زوجة
تموت ولا بيتٌ يَحْرَبُ . وقيل لمحمد بن واسع : إنك لترضى بالدون فقال :
إنما رَضِيَ بالدون مَنْ رَضِيَ بالدنيا ... وقالت امرأة لزوجها ورأته مهوماً :
مِمَّ هَمُّكَ ؟ أبالدنيا فند قرغ الله منها أم بالآخرة فزادك الله همًّا ؟ وقال السيد
المسيح : حُبُّ الدنيا أصلُ كلِّ خطيئة والمالُ فيها داءٌ كثير ، قيل : ما دأؤه ؟
قال : لا يَسْلَمُ صاحبه من الفخر والكبر ، قيل : وإن سَلِمَ ؟ قال : يَشغله
إصلاحه عن ذِكرِ الله . وقال سيدنا رسول الله : مَنْ أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ
وسَدَمَهُ ^(١) نزعَ اللهُ الغنى من قلبه ، وصَيَّرَ الْفَقْرَ بين عينيه ولم يأتِهِ من الدنيا
إلا ما كَتَبَ له ؛ وَمَنْ أَصْبَحَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ وسَدَمَهُ نزعَ اللهُ الْفَقْرَ من قلبه
وصَيَّرَ الْغِنَى بين عينيه وأتته الدنيا وهي رَاغِمَةٌ ... وقال سيدنا رسول الله
للضحَّاك بن سُفيان : ما طَعَامُكَ ؟ قال : اللحمُ واللبنُ قال : ثم يَصِيرُ إلى
ماذا ؟ قال : ثم يَصِيرُ إلى ما قَد عَلِمْتَ ، قال : فَإِنَّ اللهَ ضَرَبَ ما يَخْرُجُ من
ابنِ آدَمَ مثلاً للدنيا ... وكان بشرُ بنُ كعبٍ يقول لأصحابه إذا قرغ من
حديثه : انطَلِقُوا حَتَّى أُرِيَكُمْ الدُّنْيَا ، فيجىءُ فيقفُ بهم على السُّوقِ ، وهي
يومئذ مَزْبَلَةٌ ، فيقول : انظروا إلى عَسَلِهِمْ وسَمِّهِمْ وإلى دَجَاجِهِمْ وبَطْنِهِمْ

(١) السدم : الولوج بالشيء .

صارَ إلى ما ترون...

وقال محمد بن وهيب: (١)

نُزاعٌ لِيذِكرِ الموتِ ساعةَ ذِكرِهِ وتَعَرِّضُ الدنْيا فتلْهُو وتَلْعَبُ
ونحنُ بنو الدنْيا حُلِقْنَا لِغَيْرِها وما كُنْتَ مِنْهُ فهُوَ شَيْءٌ مُحَبَّبٌ (٢)
يَقِينُ كَأَنَّ الشَّكَّ غَالِبُ أَمْرِهِ عَلَيْهِ وَعِرْفَانٌ إِلَى الْجَهْلِ يُنْسَبُ
أقول: لعله ينظر إلى قول جرير:

تُرَوِّعُنَا الْجَنائِزُ مُقْبِلَاتٍ فتلْهُو حينَ تَذْهَبُ مُدْبِرَاتِ
كَرْوَعَةٍ ثَلَاثَةٍ لِمُغَارِ ذَنْبٍ فلما غابَ عادتُ راتِعَاتِ (٣)
قال أبو عمرو بن العلاء: جلستُ إلى جرير وهو يُملي:

• ودَعِ أَمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَجِيلُ •

ثم طلعت جنازة فأمسك وقال: شَيَّبَتْنِي هَذِهِ الْجَنَائِزُ، قلتُ: فليَمِ تَسَابُ
النَّاسِ! قال: يبدؤونني ثم لا أعفو وأعتدى ولا أبتدى، ثم قال هـذين
البيتين... وقول محمد بن وهيب: يقين كأن الشك أغلب أمره... ألبت
فأخوذ من قول الحسن البصري: ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيه أشبهَ بِشِكِّ
لا يقين فيه، إلا الموت...

(١) شاعر بصرى من أهل بغداد مدح المأمون والمعتمد وبعث وسطاً في طبقة
دعبل وأبي سعيد الخزومي، وكان يتشيع ويستمخ الناس بشعره، انظر ترجمته في
معاهد التنصيص

(٢) يقول: إننا أبناء الدنيا وما دنا كذلك كانت الدنيا محبوبة لنا.

(٣) الثلاثة: بفتح الثاء. جماعة الغنم، أما الثلاثة بضم الثاء فالجماعة من الناس، وهذا
من غرائب هذه اللغة الكريمة.

وقال أحد الظرفاء: إن الدنيا قد استودقت وأنعظ الناس: «استودقت يقال: ودقت الفرس تدق ودقاً واستودقت: إذا طلبت الفحل» وقال حكيم: من أراد الدنيا فليتهيأ للذل. ومن كلمة لعلي بن أبي طالب: أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام.. ومن كلامه رضى الله عنه - وقد قال له رجل وهو فى خطبة: يا أمير المؤمنين، صف لنا الدنيا فقال: ما أصف من دار أو لها عناء وآخرها فناء، فى حلالها حساب وفى حرابها عقاب، من صح فيها ما آمن، ومن مرض ندم ومن استغنى فتن، ومن افقر فيها حزن! وقال أيضاً: إنما المرء فى الدنيا عرّض تلتضل فيه المنايا، ونهب للصاب، ومع كل جرعة شرق، وفى كل أكلة غصص، ولا ينال العبد فيها نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله، فنحن أعوان الخوف، وأنفسنا تسوقنا إلى الفناء، فمن أين نرجو البقاء! وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً إلا أسرع السكره فى هدم ما بنا، وتفريق ما جمعنا، فاطلبوا الخير وأهله، واعلموا أن خيراً من الخير معطيه، وشراً من الشر فاعله... «الغرض: الهدف، والنهب: المال المنهوب غنيمةً والجمع نهب وقد تقدم شرح الجرعة والشرق والغصص، وقوله: فنحن أعوان الخوف فالخوف: الموت، ومعنى أننا أعوان الموت: أنا نأكل ونشرب ونجامع ونركب الخيل والسفن والطائرات ونحوها ونتصرف فى أسبابنا وحاجتنا وما ربنا، والموت إنما يكون بأحد هذه الأمور إما من أخلاط تُحدثها الماء كل والمشارب، أو من سقطة يسقط الإنسان من دابة هو راكبها أو من ضعف يلحقه من الجماع المفرط أو مصادمات واصطكاكات تصيبه عند تصرفه فى مآربه وحركته وسعيه ونحو ذلك،

فكأننا نحن أعنا الموت على أنفسنا»

وقال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم : مالك من عيشك إلا لذة تزدلفُ بك إلى حمامك وتقرُّبك من يومك ، فأيةُ أكلة ليس معها غصص أو شربة ليس معها شرق ! فنأمل أمرك فكأنك قد صرّت الحبيبَ المفقودَ والخيالَ المحترمَ ، أهلُ الدنيا أهلُ سفر لا يحلون عقدَ رحلهم إلا في غيرها « قوله : تزدلفُ بك إلى حمامك : أى تُقرِّبك إلى موتك ، والمحترم المستاصل والمقتطع » .

وقال حكيم : من ذا الذى يبني على موج البحر داراً ! تلکم الدنيا ، فلا تتخذوها قراراً ... وقيل لبعض الرهبان : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخلق الأبدان ، ويُجدد الآمال ، ويُقرَّبُ المنية ، ويُبعد الأمنية ، قيل : فما حال أهله ؟ قال : من ظفّر به تعب ، ومن فاته الكتاب ، وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

ومن يحمّد الدنيا لِعَيْشِ يُسْرُهُ فسوف لِعَمْرِى عن قليل يَلُوهُما
إذا أدبرت كانت على المرءِ حَسْرَةً وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

قال حكيم : من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق ، إما أن تزيد له وإما أن تنقص ... وقال أبو العتاهية :

تعالى الله يا سلمُ بن عمرو أذلَّ الحِرْصُ أعتاقَ الرجال
هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أليس مصيرُ ذلك إلى الزَّوَالِ
وما دُنْيَاكَ إلا مِثْلُ نِيءٍ أَظْلَكَ ثُمَّ آذَنَ بَاتِقَالِ
ولنجزئ هذا المقدار فَعَبَقْرِيَاتِهِمْ فى الدنيا لا يكاد يبلغها الإحصاء .

عبقرياتهم في الموت

أسماء الموت ووصفه

الموت: ضد الحياة، ويقال: مات يموتُ ويماتُ - لغة طائية - وقالوا: موتت يموت؛ قال ابن سيده؛ ولا نظير لها من المعتل، ورجلٌ ميّت وميّت، وقيل: الميّت: الذى مات، والميّت والمائت: الذى لم يمّت بعد، يقال: هو ميّتٌ غدا ومائتٌ ولا يقال: ميّتٌ، قالوا: وهذا خطأ، وإنما ميّت يصلح لما قد مات ولما سيموت، وقد جمع بين اللغتين عدى بن الرعلاء الغساني - والرعاء أمه - فقال:

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميّتُ ميّتُ الأحياءِ
إنما الميّتُ من يعيش كثيراً كاسفاً بأله قليل الرجاء
فأناسٌ يمّصون نيماداً^(١) وأناسٌ حلوقهم في الماء

فجعل الميّت كالميّت... ويقال للموت: الهميّع، وقيل: الهميّع: الموت المعجل: أقول: ولعله سُمي كذلك لأن الروح تمّتع: أى تسيل، من همّع الدمع والماء: سال. ومن أسماء الموت أيضاً: النيّط، روى عن علي رضي الله عنه أنه قال: لو دّ معاوية أنه مابق من بني هاشم نافخ ضربة إلا طعن في نيّطه^(٢)، معناه: لإلامات، قال ابن الأثير: والقياس: النوط، لأنه من ناط ينوط: إذا علّق، وقيل: النيّط: نياط القلب، وهو: العرق الذى يتماعق به القلب... ومن أسماء الموت: الرمدُ قال أبو وجرة السعديّ:

صيّبتُ عليكم حاصبي فركتكم كأصرامٍ عادٍ حين جَلَلها الرمدُ

«الحاصب: العذاب يكون بالريح الشديدة تحمل الحصباء، والأصرام: الجماعات

(١) الثباد: الماء القليل الذى لامادة له (٢) الضربة بتحريك الميم: الجرة أو النار نفسها، ويقال ما بالدار نافخ ضربة: أى ما بها أحد.

من الناس ، والرّمادة : الهلاك ؛ ومنه قيل : عام الرّمادة ؛ لأنّ الناس والأموال هلكت فيه كثيرا^(١) ومن أسمائه : أمّ قشعَم ، قال أبو عبيد : أمّ قشعَم : المنيّة ، ويقال للشيخ الكبير والمسنّ من النّسور والرّخَم : قشعَم ، لِطول عمره . وأمّ قشعَم في قول زهير في معلقته :

فَشَدَّ وَلَمْ يُفْرِغْ يُبِوتَا كَثِيرَةً لَدَى حَيْثُ أَلَقْتُ رَحْلَهَا أُمّ قَشَعَمِ

قيل : الحرب ، وقيل : المنيّة ، وقيل : الضُّبُع ، وقيل : العنكبوت ، وقيل : الذبلة ... ومن أسمائه : أمّ اللّهِم . قال الخليل بن أحمد : أمّ اللّهِم : المنيّة ، لأنها تلتهم كل شيء . ومن أسمائه : شُعُوبُ ، قال ابن السكيت : شعُوبُ : اسم المنيّة ، مؤنثة مَعْرُفَةٌ لاتصرف وأنشد :

❖ وَمَنْ تَدُوعُ يَوْمًا شُعُوبٌ يُجِبُّهَا ❖

قال : وإنما سميت المنيّة شعُوبَ لأنها أشعَبُ — أى تُفَرِّقُ — يقال : شَعَبَ وَأَشَعَبَ وَأَنْشَعَبَ : هَلَكَ . . ومن أسمائه : الفَوْدُ ، فَاذُ يَفُودُ فَوْدًا : مات ، قال لبيد بن ربيعة يذُكُرُ الحارث بن أبي شمر الغَسَّانِي ، وكان كلُّ ملكٍ منهم كلما مضت عليه سنةٌ زَادَ في تاجِهِ خَرَزَةٌ ، يُرَادُ بذلك أن يُعْلَمَ عَدَدُ السنين التي ملكها ، فأراد أنه عمَّرَ حتى صارَ في تاجِهِ خَرَزَاتٌ كَثِيرَةٌ :

رَعَى خَرَزَاتِ الْمُلْكِ سِتِّينَ حِجَّةً وَعِشْرِينَ حَتَّى فَاذَ وَالشَيْبُ شَامِلُ
ومن أسمائه : الحِجَامُ . يقال نَزَلَ بِهِ حِمَامُهُ : أى مَوْتُهُ وَقَدْرُهُ ، مِنْ حُمِّ كَذَا
أى قَدْرَ أَنْشَدَ ابْنُ بَرِّى لِحَبَابِ بْنِ عُزَيٍّ :

(١) عام الرّمادة كان سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة من الهجرة أيام أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

وَأَرْجَى بِنَفْسِي فِي فُرُوجٍ كَثِيرَةٍ وَلَيْسَ لِأَمْرِ حَمَّةَ اللَّهِ صَارِفٍ
 وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمُنُونُ ، قِيلَ : الْمُنُونُ تَكُونُ وَاحِدًا وَجَمْعًا ، قَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ
 الْهَذَلِيُّ ...

✽ أَمِنَ الْمُنُونِ وَرَزِيهِ تَتَوَجَّعُ ✽

وَمِنْ جَمْعِهِ قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدِ الْعِبَادِيِّ :
 مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونَ خَلَدَنَّ أُمَّ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
 وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : الْمُنُونُ وَاحِدٌ لِاجْتِمَاعِ لَهُ ، فَأَمَّا قَوْلُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ فَعَلِيَ
 مَعْنَى الْعُمُومِ وَالكَثْرَةِ فِي الْمَوْتِ ، إِذْ كَانَ أَدْمَى الدَّوَاهِي ؛ وَقَالَ ابْنُ جَنِّي : مَنْ
 أَنْتَ الْمُنُونُ ذَهَبَ إِلَى مَعْنَى الْمَنِيَّةِ وَمَنْ ذَكَرَ أَرَادَ الدَّهْرَ ، وَسُمِّيَ الدَّهْرُ مَنُونًا
 لِأَنَّهُ يَذْهَبُ بِمَنَّةِ الْإِنْسَانِ : أَيُ قُوَّتِهِ ... وَمِنْ أَسْمَائِهِ : الْمَوْتَانُ وَالْمَوْتَانُ ، قَالَ
 صَاحِبُ اللِّسَانِ : الْمَوْتَانُ وَالْمَوْتَانُ وَالْمَوَاتُ كُلُّهُ : الْمَوْتُ ؛ وَفِي الْحَدِيثِ :
 يَكُونُ فِي النَّاسِ مَوْتَانٌ كَقُعَاصِ النَّعْمِ ، فَالْمَوْتَانُ : الْمَوْتُ الْكَثِيرُ الْوَقُوعِ .

✽ ✽ ✽

وَمِنْ صِفَاتِ الْمَوْتِ : مَوْتُ زَوَامٍ : أَيُ كَرِيهِ ، وَقِيلَ : عَاجِلٌ ، وَقِيلَ :
 سَرِيعٌ مُجْهِزٌ ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ هُوَ الْأَصَحُّ ؛ وَمِنْ أَوْصَافِهِ أَيْضًا : مَوْتُ زُعَافٍ
 وَذُعَافٍ وَزُوَافٍ وَجُحَافٍ ، وَجُحَافٌ : شَدِيدٌ يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ يُقَالُ : سَبِلَ
 جُحَافٌ وَجُرَافٌ : يَذْهَبُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَزُعَافٌ وَذُوَافٌ وَذُعَافٌ : سَرِيعٌ
 وَجَيٌّ ، وَقِيلَ : شَدِيدٌ ، وَمِنْهَا : مَاتَ قَعَصًا : أَيُ مَوْتًا وَحِيًّا ، وَيُقَالُ لِمَنْ مَاتَ
 فُجَاءَةً : فَمَقَسَ يَفْقَسُ فُقُوسًا ، وَفَقَاسَ يَفْقِطُسُ فُقُوسًا ، وَيُقَالُ لَعَقَى إِصْبَعَهُ
 وَطَانَ وَتَلَبَّلَ : أَيُ مَاتَ ، وَيُقَالُ أَطْلَى الرَّجُلُ : أَيُ مَالَتْ عُنُقُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ ،
 وَيُقَالُ : جَرِحَ بِرَيْقِهِ ، وَأَصْلُ الْجَرِحِ : الْغَضَّةُ ، وَالْمُرَادُ : عَانَى غَضَصَ الْمَوْتِ

ومن ذا المثلُ : حالَ الجريضِ دونَ القريضِ ، قاله عبيد بن الأبرص للمنذر حين أراد قتله وقال له : أنشدني من قولك ، فقال عند ذلك : حال الجريض دون القريض ، «الجريض : العَصُصُ واختلاف الفكّين عند الموت ، والقريض : الجِرّة»^(١) - لأنه إذا عُصَّ لم يقدر على قريضِ جِرّته ، والقريض أيضاً : الشَّعر ، ويقال استأثر الله به ، وانحلَّ تركيبه ، وبخِصَّ لما خُلِقَ له ، وأناه ما كان يحذر ، وأكل الدهرُ عليهم وشرب ، وهذا مقلوب ، وإنما هو : أكلوا على الدهر وشربوا ؛ وصَفِرَ وطابه ، ومعناه : أن جسّمه خلا من روحه ؛ وأجود وصف للوت قول سيدنا رسول الله : أَكثِرُوا من ذكرها ذِمَّ اللذاتِ^(٢) ... ولنجتزئ بهذا المقدار^(٣)

تعظيم أمر الموت

قال الحسن البصري : إنَّ الموتَ قد فَصَحَ الدنيا ...
وكان كثيراً ما يقول : عند الموت يأتيك الخبر ... وقال له رجل يوماً
إنَّ عِشْتَ تر مالم تره ، فقال : إنَّ مِتَّ تر مالم تره ... وفي الأثر : ما رأيتُ
منظراً فظيماً إلا والموتُ أعظم منه ...

(١) الجرة : ما يخرج البعير وكل ذي كرش ليضعه ثم يياحه

(٢) قرأ هادم بالذال المهملة وبالذال المعجمة ومعناها مزيل الشيء من أصله والرواية

بالمعجمة .

(٣) إذا أردت التوسع في أوصاف الموت وأسمائه فإلى الجزء السادس من

المختص لابن سيده

حتمهم على تصور الموت

كان الحسنُ البصرىُّ إذا خَوَّفَ من الموت يقولُ للشَّيْخِ : الزرعُ إذا
بانغ ما يُصنَعُ به؟ قالوا: يُحصَدُ ، ويقول: للشَّبانِ : يامعشرَ الشَّبانِ كم
من زرعٍ لم يبلغْ أدركته الآفة !

وقال بعضُ الخلفاء لابن السَّمَكِ^(١) : عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، فقال : اعلمْ أنك أوَّلُ
خليفة تموت ؛ وهذا كما سأل أردشيرُ بعضَ الحكماء عن دار بناها وقال : هل
ترى فيها عيباً؟ قال الحكيم : نعم ، عيباً لا يمكنك إصلاحه ، فقال وما هو؟
قال : لك منها خُرْجة لا عود بعدها أردخلةٌ لا خروج بعدها ... وقالوا :
من ضاق به أمرٌ فليذكُر الموت فإنه يتسعُ عليه ... ونحوه : مَنْ أَحْسَبَ أَنَّهُ
يموتُ فليس يفنى أن يغتمَ لأمْرِ صَعْبٍ ينزلُ به .

وشكا رجلٌ إلى سيدنا رسول الله قسارة قلبه فقال صلوات الله عليه :
أكثرُ من ذكرِ هاذم اللذات ، فإنه ما ذكره أحدٌ في ضيقٍ إلا وسَّعَهُ عليه
ولا في سَعَةٍ إلا ضيَّقها عليه ... وقال بعضُ الصالحين : نِعْمَ نصيحةُ القلبِ
ذِكْرُ الموتِ ، بطرْدُ فضول الأملِ ، وَيُكْفِكِفُ غَرْبَ العُنَى وَيَهْوِنُ المصائبِ ، ويحول
بين القلبِ وبين الطغيانِ ... وقال الحسنُ البصرى - وقد قعد عند رأسِ
مَيِّتٍ : إن أمراً هذا آخره لأهلٌ أن يُزهدَ فيما قبَله ، وإن أمراً هذا أوله
لأهلٌ أن يُحذرَ ما بعده ، ونظر الحسنُ إلى صبيّةٍ بين جنازةٍ أبيها تقول :
يا أبتِ مثليَ يومك لم أره ، فضمَّها الحسنُ وقال : أىُّ بُليّةٍ ، وأبوكِ مثلَ
هذا اليوم لم يره ؛ فبكى الناسُ ... ومر على بن أبي طالب رضى الله عنه بقابر

(١) هو أبو العباس محمد بن صباح العابد المحدث المتوفى سنة ١٨٣

الكوفة فقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المفقرة، أتم لنا
سلف ونحن لكم تبع، أما الأزواج فقد نكحت، وأما الديار فقد سكنت،
وأما الأموال فقد قسمت؛ هذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟ ثم انفت
إلى أصحابه فقال: أما إنهم لو تكلموا لقالوا: إنا وجدنا خير الزاد التقوى.

استدلال الإنسان

على موته بمن مات من أهله

قال أبو نواس من آيات قد أوردناها عليك في باب التقوى:
أيا يا ابنَ الذين فنوا وماتوا أما والله ما ماتوا لتبقى
وقال بعض الصالحين: إن أمراً ما بينه وبين آدم أب إلا ميت لمعرق في
الموت ... وقال لييد:

فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب لملك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان باقيا ودون معدي فلتزعك العواذل
وهذان البيتان من قصيدة يرثي بها النعمان بن المنذر ملك الحيرة وأولها:
ألا تسألان المرء ماذا يجاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل
وفيها يقول:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعم لا تحالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهمته تصفر منها الأنامل
وقوله: فإن أنت لم تصدقك ... ألبيت يقول: إن لم تصدقك نفسك عن
هذه الأخبار، بل كذبتك، فانتسب: أي قل: أين فلان بن فلان، فإنك
لا ترى أحداً بقي، ولعلك تهديك القرون وتريشذك، وقوله: فإن لم تجد... ألبيت

فزعك : تكفك ، والعواذل هنا : حوادث الدهر وزواجره ، وقال
بعض الشراح : العواذل : النساء ، يقول : لم يبق لك أبٌ حتى إلى عدنان
فكف عن الطمع في الحياة ، ومعنى البيتين : إن غاية كلٍّ حتى الموت ، فينبغي
للإنسان أن يتعظ : بأن يَلْسَبَ نفسه إلى عدنان ، فإن لم يجد من بينه وبينه
من الآباء باقياً فليعلم أنه يصير إلى مصيرهم ، فينبغي له أن ينزع عما هو عليه «
ومثله قول امرئ القيس :

فبعض اللوم عاذلتني فإني سيكفني التجارب وانتسابي
إلى عرق السرى وشجت عروقي وهذا الموت يسلبني سبابي
« وشجت » : اشتبكت ، وقال أبو تمام في قصيدة له يمدح مالك بن طويق
ويعزيه عن أخيه القاسم :

تأمل رويداً هل تعدن سالماً إلى آدم أم هل تعدن ابن سالم
متى ترغ هذا الموت عيناً بصيرة تجد عادلاً منه شبيهاً بظالم
« قوله : متى ترغ أبيت يقول : متى أنعمت النظر وأفكرت في أمر الموت
وجدت منه عادلاً أشبه بظالم ، وذلك أنه قد يخترم من يكون اختراؤه أصحاح
له لدى العزيز الحكيم الذي يعلم مصالح خلقه وقد يخفى عليك وجه الحكمة
فتظن العدل جوراً ،

وقال البحتري

وما أهل المنازل غير ركب منابهم رواح وابتكار
لنا في الدهر آمال طوال تزجها وأعمار قصار
والبيت الثاني مثله قول ابن هانئ الأندلسي من أبيات يرتي بها والده
يحيى وجعفر ابني علي صاحب الميلة بالمغرب ، وهذه هي الأبيات :

صَدَقَ الْفَنَاءُ وَكَذَّبَ الْعُمُرُ وَجَلَّ الْعِظَاتِ وَبَالَغَ النَّذْرُ
 إِنَّا ، وَفِي آمَالِ أَنْفُسِنَا طُولٌ وَفِي أَعْمَارِنَا قِصْرُ
 لَنَرَى بِأَعْيُنِنَا مَصَارِعَنَا لَوْ كَانَتِ الْأَلْبَابُ تَعْتَبِرُ
 مِمَّا دَهَانَا أَنْ حَاضِرَنَا أَجْفَانُنَا ، وَالغَائِبُ الْفَسْكَرُ
 وَإِذَا تَدَبَّرْنَا جَوَارِحِنَا فَأَكْثَرُ الْعَيْنِ وَالنَّظَرُ
 لَوْ كَانَتِ الْأَلْبَابُ تُنْتَحَنُ مَا عُدَّ مِنْهَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ (١)
 أَى الْحَيَاةِ الَّتِي عَيْشَتَهَا مِنْ بَعْدِ عَلْمِي أَنِّي بَشَرُ
 حَرِسْتُ لَعَمْرُ اللَّهِ أَلْسُنَا لَمَّا تَكَلَّمْ فَوْقَنَا الْقَدَرُ

الاعتبار بمن مات من الكبار

قال عدي بن زيد العبادي :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعِيرُ بِالذَّهْرِ رَأَيْتَ الْمُهَيَّرَ الْمُؤَفَّرُ (٢)
 أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَائِقُ مِنَ الْآيَا بِمِ بَلْ أَنْتَ جَاعِلٌ مَغْرُورُ
 مَنْ رَأَيْتَ الْمَذُونِ خَلْدُنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ (٣)
 ابْنَ كَسْرَى كَسْرَى الْمَلُوكِ أَنْوَشَرُ وَإِنْ أَمِنْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ (٤)
 وَبَنُو الْأَضْفَرِ الْكِرَامُ مَلُوكُ الرُّو بِمِ لَمْ يَيْقَ مِنْهُمْ مَذْكَورُ

(١) أى ما عد من המתحنتات : السمع والبصر ، لأن السمع يسمع المواعظ فلا

يتعظ والبصر يبصر العبر فلا ينزجر

(٢) المؤففر : يريد الذى لم تصبه نوائب الدهر

(٣) المذون : المنية أو الدهر كما تقدم

(٤) هناك سابور الجنود وهو ابن أردشير ، وسابور ذو الاكتاف وهو سابور

ابن هرمز وكلاهما من ملوك العجم قبل كسرى أنوشروان

وأخو الحضِرِ إذ بناه وإذ دَجَّ لهُ مُجْبِي إِلَيْهِ وَالخَابُورُ (١)
 شَادَهُ مَرَمْرًا وَجَلَّاهُ كِأَنَّ سَاءَ فَلَّطِيرٍ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ (٢)
 لَمْ يَهَبْهُ رَبُّ الْمَذُونِ فَبَادَ الـ مُلْكُ عَنْهُ فَبَابَهُ مَهْجُورُ
 وَتَذَكَّرَ رَبَّ الْخَوْرِ تَقِي إِذَا أَصْبَحَ بوما وَلِلْهَدَى تَفْكِيرُ (٣)
 سِرَّهُ حَالَهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْدُ لَكَ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسِّدِيرُ (٤)
 فَارْعَوَى قَلْبَهُ فَقَالَ : وَمَا غَيْبُ طُهُ حَيَّ إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
 ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالنَّعْمَةِ مِةٍ وَأَزْتَهُمْ هُنَاكَ الْقُبُورُ
 ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌّ بَجَفَّ فَأَلَوْتُ بِهِ الصَّبَا وَالذَّبُورُ (٥)

وما كان يصح أن يذكر في هذا الباب مرثية الوزير الشاعر الأندلسي عبد المجيد ابن عبدون التي يرثي بها بني الألفطس - من ملوك الطوائف بالأندلس - وذكر فيها عدة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته، ووثب عليهم الزمن فاوْجَدُوا جَنَّةً تَقِيهِمْ مِنْ وَثْبَاتِهِ، ودبت عليهم الأيام بصروفها، وسفقتهم

(١) الحضِر : قصر كان بجبال تكريت بين دجلة والفرات ، وأخو الحضِر كان صاحب تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة : وله حديث طريف انظره في الأغانى ج ٢ في ترجمة عدى بن زيد طبع دار الكتب ، والخابور . اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة

(٢) الكلس : الصاروج أى النورة وأخلاطها تطلّى بها المنازل وغيرها، وذراه : أعاليه ، والوكور : جمع وكر : العش

(٣) صاحب الخورنق - وهو القصر الذى بناه سنار - هو النعمان بن امرئ القيس عامل يزدجرد بن سابور على أرض العرب وله قصة انظرها في الأغانى وهو الذى سأل على وجهه فلم يعرف له خبر

(٤) معروض بمعنى متسع ومنه أعرض الثوب أى اتسع وعرض ، والسدير : نهر

(٥) ألوت به : ذهب به

العينية بكأس حُتوفها، ومطلعها :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالشُّوَرِ
 بيدُ أَنَا لَطَوَلُهَا رَأَيْنَا أَنْ نُضْرِبَ عَنْ إِرَادِهَا هُنَا صَفْحًا، وَرَاهَا فِي الْمَجْلَدِ
 الخامس من نهاية الأرب للنويرى الذى قامت بطبعه دار الكتب المصرية...
 وقد شرحها ابن بدرون، ومن أبياتها :

فَمَا صِنَاعَةُ عَيْنِهَا سِوَى السَّهْرِ فَلَا تَغُرُّكَ مِنْ دُنْيَاكَ نَوْمَتُهَا
 مِنَ اللَّيَالِي وَخَاتَمَتُهَا يَدُ الْغَيْرِ مَا لِلْيَالِي - أَقَالَ اللَّهُ عَشْرَتَنَا
 مَنَاجِرَاحٍ وَإِنْ زَاغَتْ عَنِ الْبَصْرِ فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ
 كَالْأَيْمِ^(١) نَارًا إِلَى الْجَانِي مِنَ الشَّمْرِ تَسْرُ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَيْ تَغُرَّ بِهِ
 وقال المتنبي :

أَبْنَى أَيْنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلِ أَبَدًا غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِنُ
 تَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرِ جَمَعْتَهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَنْفَرُوا
 أَيْنَ الْإِكْبَارَةِ الْجَبَابِرَةُ الْأَتْلَى كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِيْنَ وَلَا بَقُوا
 مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ حَتَّى تَمُوتَ فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ
 حُرْسٍ إِذَا تُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُطْلَقُ
 وَالْمَوْتُ آتٍ وَالنَّفُوسُ نَفَائِسُ وَالْمُسْتَغْرُ بِمَا لَدَيْهِ الْأَحْمَقُ
 وَالْمَرْءُ يَأْمُلُ، وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةُ وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ، وَالشَّيْبَةُ أَنْزَقُ

« أبنى أيننا : يا إخوتنا ، يابنى آدم ، وأراد بغراب البين : داعى الموت
 يقول : نحن نازلون فى منازل يتفرق عنها أهلها بالموت ، فقوله : تبكى على

(١) الأيم : الأفعى .

الدنيا... ألبت مثله قول جرير يرثى امرأته :

لا يَلْبَثُ الْقُرْنَاةُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا لَيْلٌ يُكْرِعُهُمْ وَنَهَارٌ

وثوى - بالمثلثة : أقام في القبر؛ وبالمنثاة : هلك ، وهذا البيت من قول أشجع :

وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقٌ وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا تَضِيقُ الصَّحَاصِحَ

« الصحاصح جمع صحصح : وأصله ما استوى من الأرض وكان أجرد »

والمستغر : المغرور ، يقول في هذا البيت : النفوس يأتي عليها الموت وإن

كانت عزيزة نفيسة لا يمنع ذلك من أخذها ، والاحمق هو المغرور بالدنيا

وبما يجمعه فيها ، أما العاقل فإنه لا يغير بما جمعه لعله أنه لا يبقى هو ولا ما جمعه ،

وقوله : والمرء يأمل ... ألبت يقول : المرء يرجو الحياة لطيبها لديه ،

والشيب أكثر له وقاراً من الشباب ، يعنى : أن المرء يكره الشيب ويحب

الشباب والشيب خير له ، لأنه يكسبه الحلم والأناة والوقار ، والشباب شر

له ، لأنه يحمله على الطيش والنزق والحمق ، وقال الشاعر :

رُبَّ قَوْمٍ عَبَرُوا مِنْ عَيْشِهِمْ فِي نَعِيمٍ وَسُرُورٍ وَغَدَقَ

سَكَتَ الدَّهْرِ زَمَانًا عَنْهُمْ ثُمَّ أَبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَظَنُّ

« الغدق المراد به الخصب والسعة » ، وقال مالك بن دينار :

أَتَيْتُ الْقُبُورَ فَنَادَيْتُهُنَّ أَيْنَ الْمَعْظَمِ وَالْمُحْتَقِرِ

وَأَيْنَ الْمُدِيلِ بِسُلْطَانِهِ وَأَيْنَ الْمُرَكِّي إِذَا مَا فَتَخِرُ

قال : فتوديت من بينها ولا أرى أحدا :

تَفَاتَرُوا جَمِيعًا فَمَا نُخْبِرُ وَمَاتُوا جَمِيعًا وَمَاتَ الْخَبِرُ

تَرُوحُ وَتَعْدُو بَنَاتُ الثَّرَى وَتَمْحُو مَحَايِنَ تِلْكَ الصُّورُ

فِي سَائِلِي عَنْ أَنَايَسٍ مَضَوْا أَمَا لَكَ فِيهَا تَرَى مُعْتَبَرًا

« بنات الثرى : الدود » ...

ونزل النعمان بن المنذر ومعه عدى بن زيد العبادى فى ظل شجرة عظيمة
ليلهوا ، فقال له عدى : أتدرى ما تقول هذه الشجرة ؟ قال : لا ،
قال : تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا يَمْزُجُونَ الخمرَ بالماءِ الزلالِ
نَمَّ أَضْحَوْا عَصَفَ الدهرُ بهم وكذلك الدهرُ حالًا بعد حالِ

ونظرت امرأة إلى جعفر بن يحيى البرمكى وزير الرشيد ، وهو مصلوب
فقلت : لئن كنت فى الحياة غايبة فلقد صرت فى الممات آية ... ولما مات
الإسكندر المقدونى وقف عليه أرسطو الفيلسوف فقال : طالما كان هذا
الشخص واعظا بليغا ، وما وعظ بموعظة فى حياته أبلغ من عظته فى مماته ،
أخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال :

وكانت فى حياتك لى عظاتٌ وأنت اليومَ أو عظ منك حيا

من مات فقد تنهى فى البعدِ

قال النابغة الذبياني :

حَسْبُ الخالينِ نأى الأرضِ بينهما هذا عليها وهذا تحتها بالي
وقال أبو حية النميرى :

فلا غائبٌ من كان يُرجى إياهُ ولكنه من ضمن اللحدِ غائبٌ



غفلة الناس عن الموت

قال أبو العتاهية :

الناسُ في غَفَلَاتِهِمْ وَرَحَى الْمَنِيَّةِ تَطْحَنُ
 وقال الحسن البصرى : مارأيتُ بَقِينًا لَأَشَكَّ فِيهِ أَشْبَهَ بِشَكِّ لَابِقِينَ فِيهِ
 مثلَ المَوْتِ ، وقد تقدم ، وقال عمرُ بنُ عبد العزيز في خطبته له : ما هذا
 التَغَافُلُ عَمَّا أَمْرُهُمْ بِهِ ، والتسرعُ إلى ما نُهَيْتُمْ عَنْهُ ، إن كنتم على يقين فأتتم
 حَقِّقِي ، وإن كنتم على شكٍ فأتتم هَلِكِي ...

وقال شاعر :

وَنَامِلٌ مِنْ وَعْدِ الْمُنَى غَيْرَ صَادِقٍ وَنَأْمَنُ مِنْ وَعْدِ الْمُنَى غَيْرَ كَاذِبٍ
 نُزَاعٌ إِذَا مَا شِئِكَ لِأَخْمَصٍ بَعْضِنَا وَأَقْدَامُنَا مَا بَيْنَ شَوْكِ الْعَقَارِبِ
 « الْمُنَى : جَمْعُ الْمُنْيَةِ وَهُوَ مَا يَتَمَنَّاهُ الْمَرْءُ ، وَالْمُنَى : الْمَوْتُ ، وَأَصْلُهُ الْقَدَرُ
 تَقُولُ : مَنَى اللَّهُ لَكَ مَا يَسُرُّكَ : أَي قَدَرَ اللَّهُ لَكَ مَا يَسُرُّكَ وَيَسْمَى الْمَوْتُ بِالْمُنَى
 لِأَنَّهُ قَدَّرَ عَلَيْنَا ، وَقِيلَ : مَنْ لَمْ يَرْتَدِّعْ بِالْمَوْتِ وَبِالْقُرْآنِ ثُمَّ تَنَاوَحَتْ الْجِبَالُ
 بَيْنَ يَدَيْهِ لَمْ يَرْتَدِّعْ .

لا ينجو من الموت أحد

قيل : مَنْ لَمْ يَمُتْ عَاجِلًا مَاتَ آجِلًا ؛ وَقَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ :
 مَنْ لَمْ يَمُتْ عَبْطَةً يَمُتْ هَرَمًا لِلْمَوْتِ كَأْسُ الْمَرْءِ ذَائِقُهَا
 مَا لَذَةُ النَّفْسِ فِي الْحَيَاةِ وَإِنْ عَاشَتْ قَلِيلًا فَالْمَوْتُ لِأَحْقُهَا
 يَقُودُهَا قَائِدٌ إِلَيْهِ وَيَحْدُوها حَاشِيئًا إِلَيْهِ سَائِقُهَا

« يقال : مات فلانُ عِبْطَةً : أى شاباً ، وقيل : شاباً صحيحاً ، وأصل العيبط من اللحم : ما كان سليماً من الآفات ويقال : عَبَطَ الشاة والناقة وكلَّ دَابَّةً : نَحَرَهَا أو ذَبَحَهَا من غير داءٍ وهى فِتْيَةٌ ،

وقيل لابن المقفّع : قد كنت نُعِيتَ لنا ا فقال : ما بعدُ كأن ولا قُربَ بآن ... وقال ابن المعتز :

ألا إنما جِسمي لِروحِي مَطيَّةٌ ولا بُدُّ يوماً أن يُعَرِّيَ مِنَ الرَّحْلِ

« الرجل : المنزل ، والسرج يوضع على ظهر الدابة ، وعُرِّيَ منه نُزِعَ عنه وهذا على المثل ، وقال محمود الوراق :

وما صاحِبُ السَّبْعينَ والعشْرِ بعدها بأقربَ مَن حَنَنَكُمُ للقوايلُ

ولَكِنَّ آمالاً يُومَلُها الفَتَى وفينَ للراجينَ حَتَّى وباطِلُ

« التوابل جمع قابلة : المرأة تتلقى الولد لدى الولادة « المولدة » وحننكته

فالتحنينك : أن تمضغ التمر ثم تدلكه بحنك الصبي داخل فيه ، ...

وقال المتنبي :

وأوفى حَيَاةِ الغايرينَ لصاحبِ حَيَاةِ امرئِ خانتهُ بعد مَشيبِ

« يريد المتنبي : أن الحياة وإن طالت فهي إلى انقضاء ، يقول : أوفى عمر

أن يبق حتى المشيب ثم يخونهُ عُمرُهُ بعد ذلك ، وتصارُهُ الموت ، أو تقول : إذا

عاش المرء إلى بلوغ المشيب ثم خانته حياته يومئذ فقد تناهت في الوفاء »

ومرَّ شيخ من العرب بـغلام فقال له الغلام : أَحصدتَ يا عمَّاه ، فقال : يا بُني ،

وَأُحَصَّرُونَ « أَحصدت : آن لك أن تُحصَدَ ، وتُحَصَّرُونَ : تموتون حُضْرًا في

شبابكم ،

الموت لا يتحرز منه بشيء ولو كان الطَّبَّ

قال المتنبي :

يموتُ راعي الضأنِ في جَهْلِهِ مَوْتَهُ جالينوس في طِبِّهِ
ورُبَّمَا زَادَ على عُمْرِهِ وزاد في الأَمْنِ على سِرِّهِ (١)
وقبل هذين البيتين :

لا بُدَّ لِلإِنسَانِ مِنْ ضَجْمَةٍ لا تَقْلِبُ المُضْجَعِ عن جَنْبِهِ (٢)
يَلْتَسِي بها ما كان مِنْ عُنْجِهِ وما أذاقَ المَوْتَ مِنْ كَرْبِهِ (٣)
نَحْنُ بنو المَوْتِ فما بَأَنا نَعافُ ما لا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ (٤)
تَبَخَّلُ أيدينا بأرواحنا على زَمانٍ هيَ مِنْ كَسْبِهِ (٥)
فهذه الأرواحُ مِنْ جَوْهٍ وهذه الأَجسامُ مِنْ تُرْبِهِ (٦)

(١) السرب : النفس (٢) لا بد للإنسان من اضطجاع في القبر يبقى بتلك الضجعة لا يقلبه ذلك الاضطجاع إلى يوم البعث .

(٣) إذ انزل القبر نسي الإعجاب وما ذاق من شدة الموت ، وهكذا الميت .

(٤) نحن بنو الأموات والموت كأس مدارة علينا ولا بد لنا من شربها فما بالنا نكرها ! فكما مات أبائنا فنحن على آثارهم . كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أصحابه يعزیه في أبيه : أما بعد ، فإيا أمان من أهل الآخرة سكننا في الدنيا ، أموات ، آباء أموات ، أبناء أموات ، فالعجب لميت يكتب إلى ميت يعزیه عن ميت ...

(٥) تبخل أيدينا بأرواحنا وتمسك بها بخلاها على الزمان والأرواح مما أكسبه الزمان اقال حكيم : إذا كان تناكض الأرواح من كرور الأيام فما لنا نعاف رجوعها إلى أماكنها !

(٦) الإنسان مركب : من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، فالأرواح من الجوّ والهواء ، والأجسام من التراب ، وكل عنصر عائد إلى عنصره

لَوْ فَكَّرَ العَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ (١)
لَمْ يُرَ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي شَرْقِهِ فَشَكَّتِ الأَنْفُسُ فِي غَرْبِهِ (٢)
إلى أن قال بعد البيتين المذكورين آنفا:

وَعَايَةُ المُفْرِطِ فِي سِلْمِهِ كَعَايَةُ المُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ (٣)
فَلَا قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فَوَادُهُ يَخْفِقُ مِنْ رُغْبِهِ (٤)

وقيل للربيع بن حُثَيْمٍ في مَرَضِهِ: أَلَا نَدْعُو لَكَ طَبِيبًا؟ قَالَ: أَنْظِرُونِي،
ثُمَّ فَكَّرَ فَقَالَ: وَعَادَا وَتَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا، لَقَدْ
كَانَ فِيهِمْ أَطِبَّاءُ، فَأَرَى المُدَاوِي بَقِيَ وَلَا المُدَاوِي صَلُحَ....
وَدَخَلَ الفَرَزْدَقُ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ فَسَمِعَهُ يَطْلُبُ طَبِيبًا فَقَالَ:

يَا طَالِبَ الطَّبِّ مِنْ دَاءِ نَخْوَنَهُ إِنَّ الطَّبِيبَ الذِي أَهْلَكَ بِالدَّاءِ
هُوَ الطَّبِيبُ الذِي يُرْجَى لِعَاقِبَتِهِ لَأَمِنْ يَدُوفٍ لَكَ التَّرْيَاقَ بِالدَّاءِ

« الذِي أَبْلَى المَرِيضَ بِالدَّاءِ وَالذِي يَرْجَى لِعَاقِبَتِهِ: هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .
وَيَدُوفٌ: يَخْلُطُ . وَنَخْوَنَهُ: غَيْرُ حَالِهِ إِلَى أَسْوَأِهَا، وَيُرْوَى: نَخْوَنَهُ وَالتَّرْيَاقُ:
الدَّوَاءُ هُنَا، وَأَهْلَاهُ: صَنَعَ بِهِ مَا يَمْتَحِنُ بِهِ وَيَخْتَبِرُ

(١) العاشق للشئ المستهام به لو أفكر في منتهى حسن المعشوق وأنه يصير إلى
زوال لم يعيشه ولم يملك عشقه إياه عليه أمره . وهذا يطرد في كل شئ .
(٢) لا بد من الفناء فالشمس من رأها طالعة علم أنها غاربة لاحالة، كذلك كل شئ .
مصيره إلى الزوال .

(٣) إن الذي أفرط وجاوز الحد في السلم كالذي أفرط وجاوز الحد في الحرب ،
الكل إلى فناء وإذن لا عذر لمن يجرع قال حكيم : آخر إفراط التوق أول موارد
الحتوف (٤) من خاف الموت لا أدرك حاجته ، يدعو المتني على الجبان - لأنه
إذا كان الهلاك متيقناً فلم يخاف الإنسان من الموت ويجزع فرعاً منه !

وقال ابن الرومي :

عَظَطَ الطَّيْبُ عَلَى غَلْطَةٍ مُورِدٍ عَجَزَتْ مَوَارِدُهُ عَنِ الْإِصْدَارِ
وَالنَّاسُ يَلْحُونُ الطَّيْبَ وَإِنَّمَا عَظَطَ الطَّيْبُ لِإِصَابَةِ الْمِقْدَارِ (١)

وقال أبو ذؤيب الهذلي :

وَإِذَا الْمَيْيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْفَيْتَ كُلَّ تَيْمَمَةٍ لَا تَنْفَعُ
وقال علي بن الجهم :

كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرَّدَى فَتَجَا وَمَاتَ طَبِيبُهُ وَالْعُودُ
وقد أخذ هذا من قول عدى بن زيد :

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ثُمَّ عَادَتْ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَمُودُ
بَيْنَمَا هُمْ عَلَى الْأَيْسِرَةِ وَالْأَنْزِ مَا طِ أَوْضَتْ إِلَى الشُّرَابِ الْخَدُودُ
ثُمَّ لَمْ يَنْقُضِ الْحَدِيثُ وَلَكِنْ بَعْدَ ذَا الْوَعْدِ كُكَلُهُ وَالْوَعِيدُ
وَأَطْبَاءُ بَعْدَهُمْ لِحِقْوِهِمْ ضَلَّ عَنْهُمْ سَعُوطُهُمْ وَاللَّدُودُ
وَصَحِيحٌ أَضْحَى يَعُودُ مَرِيضًا وَهُوَ أَذَى لِلدَّوْتِ يَمِّنُ يَعُودُ

« السعوط: الدواء الذي يؤخذ من الأنف، واللدود: ما يؤخذ من
الدواء بالمسقط ويصَّب في أحدِ شِقَى الفم، ويروى: أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ
هَرَبَ مِنَ الطَّاعُونَ، فَرَكِبَ لَيْلًا وَأَخْرَجَ غَلَامًا مَعَهُ؛ وَكَانَ يَنَامُ عَلَى دَابَّتِهِ،
فَقَالَ لِلْغَلَامِ: حَدِّثْنِي، فَاقْلُ وَمَنْ أَنَا حَتَّى أُحَدِّثَكَ؟ فَقَالَ: عَلَى كُلِّ حَالٍ حَدِّثْ
حَدِيثًا سَمِعْتَهُ، فَقَالَ: بَلْغَنِي: أَنَّ ثَمَلِيًّا يَخْدُمُ أَسَدًا لِيَحْمِيَهُ وَيَمْنَعُهُ مِمَّنْ يُرِيدُهُ
فَكَانَ يَحْمِيهِ، فَرَأَى الثَّمَلِيَّ عُقَابًا، فَجَاءَ إِلَى الْأَسَدِ، فَأَقْعَدَهُ عَلَى ظَهْرِهِ، فَانْقَضَ
الْعُقَابُ وَاسْتَلْسَهُ، فَصَاحَ الثَّمَلِيُّ: يَا أَبَا الْحَارِثِ، أَغَشِنِي وَادْكُرْ عَهْدَكَ لِي

(١) يلحون: يلومون، والمقدار: القدر

فقال الأسد: إنما أقدر على منعك من أهل الأرض، وأما أهل السماء فلا
سبيل لي إليهم، فقال عبدُ الملك: وَعَظَّتَنِي وَأَحْسَنَتْ، انصرفَ ورَضِيَ
بالقضاء...

ولمناسبة الحرب من الطاعون نورد هنا ما أوردنا نظيره في قولنا على التوكل،
وهو أن عُمرَ بنَ الخطابِ رضوانُ الله عليه لما بلغه أن الطاعونَ وقعَ بالشامِ
فانصرفَ بالناس: قال له أبو عبيدة بنُ الجراح: أفراراً من قدر الله يا أميرَ
المؤمنين؟ فقال عمر: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عبيدة! نعمَ تَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى
قدرِ الله؛ أَرَأَيْتَ لو أَنَّ لَكَ إبْلا هَبَطَتْ بِهَا وادياً له جِهَتانِ إحداها خَصِيبةٌ
والأخرى جَدِيبةٌ، أَلَيْسَ لو رَعَيْتَ في الخَصِيبةِ رَعِيَّتَها بقَدْرِ الله، ولو رَعَيْتَ
الجَدِيبةِ رَعِيَّتَها بقَدْرِ الله؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فأقبل، فقال:
عندي في هذا عِلْمٌ سَمِعْتُهُ من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، قال: إذا سَمِعْتُمْ
به - بالطاعون - في أرض فلا تَقْدَمُوا عليها، وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا
تخرجوا فِراراً منه، فحَمِدَ اللهُ عُمرُ ثم انصرفَ بالناس...

وقال المتنبي:

نُعِدُّ المَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِيَّ وَتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلا قِتالِ
وَنَرْتَبُطُ السَّوَابِقِ مُقَرَّبَاتِ وَمَا يُنْجِيَنَّ من حَبِّ اللَّيالي
وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيماً؟ وَلَكِنْ لاسَبِيلَ إلى الوصالِ

«المشرقية: السيوف - والعوالى: الرماح، والمنون: الموت، والسوابق جمع

سابق وسابقة، والمقربات من الخيل هي الكرام التي ترتبط لكرامتها على أصحابها
أو لفرط الحاجة إليها والخب: عدو ولا يستفرغ الجهد؛ يقول المتنبي: نحن
نُعِدُّ السُّيُوفَ والرماحَ لِمَنازِلَةِ الأعداءِ ومُدافعةِ الأقرانِ: والموتُ يَخْتَرِمُ نَفوسنا

دُونِ قِتَالٍ أَوْ نِزَالٍ ، لَا يُمَكِّنُنَا حِذَارُهُ وَلَا يَتِيأُ لَنَا دِفَاعُهُ ، ثُمَّ قَالَ فِي الْبَيْتِ
الثَّانِي : وَنَزَبْتُ الْخِيُولَ الْكَرِيمَةَ وَمَعَ هَذَا لَا تُنَجِّنُنَا مِنْ طَلْبِ الدَّهْرِ لِإِيَانَا
وَتَحَبَّبَ لِيَالِيهِ فِي آثَارِنَا :

كَأَنَّنا فِي حُرُوبٍ مِنْ حَوَادِثِهِ فَنَحْنُ مِنْ بَيْنِ مَجْرُوحٍ وَمَطْعُونٍ
وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْبَيْتِ الثَّلَاثِ .

موت الفجاءة والصحيح يموت

قِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : مَاتَ فُلَانٌ أَصَحَّ مَا كَانَ ، فَقَالَ : أَوْ صَحِيحٌ مَنِ الْمَوْتُ
فِي عُنُقِهِ ، وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ فِي دُعَايِهِ : اللَّهُمَّ أَجْرُنِي مِنْ أَنْ أَكُونَ
مُخْتَلِسًا ، أَيْ يُخْتَلِسُهُ الْمَوْتُ عَلَى غَفْلَةٍ ، وَفِي الْحَدِيثِ : بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ مَرَضًا
حَابِسًا أَوْ مَوْتًا خَالِسًا ، وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ : كَيْفَ مَاتَ أَبُوكَ ؟ قَالَ : مَاتَ سِرًّا
« أَيْ بَخَاءً » ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

رُبَّمَا عُوفِصَ ذُو غِرَّةٍ أَصَحَّ مَا كَانَ وَلَمْ يَسْلَمْ
« يُقَالُ : غَافِصَ الرَّجُلُ مُغَافِصَةً وَغِفَافًا . أَخَذَهُ عَلَى غِرَّةٍ فَرَكِبَهُ بِمَسَاءَةٍ »
وَقِيلَ لِرَجُلٍ : مَا كَانَ سَبَبُ مَوْتِ فُلَانٍ ؟ قَالَ : كَوْنُهُ « أَيْ وَجُودُهُ » ، وَالْبَيْتُ
الْمَشْهُورُ فِي هَذَا :

مَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بغيرِهِ تَنَوَّعَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ

كل إنسان معرض لموته أو موت أحبته

قَالَ حَكِيمٌ : مَنْ طَالَ عُمُرُهُ رَأَى الْمَصَائِبَ فِي إِخْوَانِهِ وَجِيرَانِهِ ، وَمَنْ قَصُرَ
عُمُرُهُ كَانَتْ مَصِيبَتُهُ فِي نَفْسِهِ ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

فَمُوجَلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي أَهْلِهِ وَمُعْجَلٌ يَلْقَى الرَّدَى فِي نَفْسِهِ
وقال يزيد بن الحكم النقيضي :

كُلُّ امْرَأَةٍ سَتَيْتُمْ مِنْهُ الْعِرْسُ أَوْ مِنْهَا يَتِيمٌ
« العرس : الزوجة ، وآمت المرأة من زوجها تَتِيمٌ وتَأَيَّمَتْ مات عنها
زوجها أو قَتِلَ وأقامت لا تزوج ، وكذلك الرجل ، »

جهل الإنسان بوقت موته

قال الله جل شأنه : وما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ... وقيل لجعفر بن محمد بن علي رضي الله عنهم :
كيف يأتي الموت من وجهه شتى ، على أحوال شتى ؟ فقال : إن الله أراد أن
لا يُؤْمَنَ فِي حَالٍ ... وقالوا : أمرٌ لا تَدْرِي مَتَى يَغْشَاكَ إِلَّا تَسْتَعِدُّ لَهُ قَبْلَ
أَنْ يَفْجَأَكَ ! وقال ديك الجن ^(١)

وَالنَّاسُ قَدْ عَلِمُوا أَنْ لَا بَقَاءَ لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِمِقْدَارِ مَا عَلَيْهِمْ

الموت يسوي بين الأفاضل والأراذل

قال المتنبي في رثائه أبا شجاع فاتكا :

(١) هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان الملقب بديك الجن من شعراء الدولة
العباسية ولد سنة ١٦١ هـ وتوفي سنة ٢٣٦ هـ ومن قوله في الخمر وقد أعجب به
أبو نواس :

ظَلَّلْنَا بِأَيْدِينَا نُنْتَبِعُ رُوحَهَا فَتَأْخُذُ مِنِ أَقْدَامِنَا الرَّاحَ ثَارَهَا
مُورَدَةٌ مِنْ كَفِّ ظَبْيٍ كَأَنَّمَا تَنَاوَلَهَا مِنْ خَدِّهِ فَأَادَارَهَا

وَصَلَتْ إِلَيْكَ يَدٌ سِوَاهُ عِنْدَهَا أَلْبَازُ الْأَشْهَبُ وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ
 «الباز الأشهب: الذي غلب عليه البياض، والأبقع: الذي في صدره
 بياض يقول المتنبي: وصلت إليك يدٌ - يريد المنية - الشريف والوضيع لديها
 سواء، فعلمها مع الباز الأشهب مع كرمه كعلمها بالغراب الأبقع مع قبحه
 ودمايته، وهذا على المثل» ... وَيُرْوَى أَنَّ الْإِسْكَندَرَ الْمَقْدُونِيَّ مَرَّ بِمَدِينَةٍ
 قَدْ مَلَكَهَا غَيْرُهُ مِنَ الْمُلُوكِ؛ فَقَالَ: انظروا هل بقي بها أحدٌ من نَسْلِ
 ملوكها؟ فقالوا: رَجُلٌ يَسْكُنُ الْمَقَابِرَ، فَأَحْضَرَهُ وَسَأَلَهُ عَنِ إِقَامَتِهِ هَذِهِ؛
 فَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أُمَيِّزَ عِظَامَ الْمُلُوكِ مِنْ عِظَامِ عِبِيدِهِمْ فَوَجَدْتُهَا سِوَاءً،
 فَقَالَ: هَلْ تَتَّبِعُنِي فَأُحْيِي لَكَ شَرَفَكَ إِنْ كَانَ لَكَ هِمَّةٌ؟ فَقَالَ: هِمَّتِي عَظِيمَةٌ
 إِنْ أَنْتَبَيْتَنِيهَا، فَقَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: حَيَاةٌ لَا مَوْتَ مَعَهَا، وَشَبَابٌ لَا هَرَمَ مَعَهُ،
 وَغِنَىٌ لَا فَقْرَ مَعَهُ، وَسُرُورٌ لَا مَكْرُوهَ فِيهِ، فَقَالَ: لَيْسَ عِنْدِي هَذَا، فَقَالَ:
 دَعْنِي أَلْتَمِسَهُ مِمَّنْ هُوَ عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ حَكِيمًا؛ ... وَقَالَ مَالِكُ بْنُ
 دِينَارٍ: قَدِمَ عَلَيْنَا بَشْرُ بْنُ مَرْوَانَ أَخُو الْخَافِقَةِ - عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ -
 فَطَعَنَ - أَصَابَهُ الطَّاعُونَ - فَمَاتَ فَأُخْرِجْنَاهُ إِلَى الْقَبْرِ، فَلَمَّا صِرْنَا إِلَى الْجَبَانِ
 - الْجَبَانَةِ - إِذَا نَحْنُ بِسُودَانٍ يَحْمِلُونَ صَاحِبًا لَهِمْ إِلَى الْقَبْرِ، فَدَفَنَاهُ وَدَفَنُوا
 صَاحِبَهُمْ، فَعُدْتُ قَبْلَ الْأَسْبُوعِ فَلَمْ أَعْرِفْ قَبْرَ الْأَسْوَدِ مِنْ قَبْرِهِ؛ وَفِي هَذَا
 يَقُولُ الشَّاعِرُ:

ولقد مررتُ على القبورِ فما ميزتُ بين العبيدِ والمولى

وقال صالح بن عبد القدوس:

فيامنزلًا سوى البلى بين أهله فلم يستبين فيه الملوك من السوق

انقضاء ناس بعد ناس

ورجوعهم إلى الموت

قال عليّ كرم الله وجهه : إنَّ لله في كلِّ يومٍ ثلاثَ عساكرَ : عسكْرٌ ينزلُ من الأضلابِ إلى الأرحامِ ، وعسكْرٌ ينزلُ من الأرحامِ إلى الأرضِ ، وعسكْرٌ ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة ؛ ^(١) وقال الشاعرُ :

وما نحنُ إلا رُفقاءُ غيرِ أتنا أقمنا قليلاً بعدهم ونزوحُ

وقال آخر :

إذا زُرْتُ أرضاً بعد طولِ اجتنابِها فقَدْتُ صديقاً والبلادُ كما هيّا

وقال : * أرى الأرضَ تَبَيُّ والأخلاءُ تَذَهَبُ *
وقيلَ للبهلولِ ^(٢) - وقد أقبلَ من الجَبانِ - : من أينَ ؟ فقال :

من عسكِرِ الموتى ، فقيلَ ما قلتَ وما قالوا ؟ فقال : سألتُهُم : متى يرحلونَ ؟ فقالوا : ننتَظرُ قدرَ مَكمِ ثم نرتجِلُ ... ورَوَوْا : أن رَاهِبِينَ دخَلَا البَصْرَةَ من ناحيةِ الشامِ فنظرا إلى الحسنِ البصرى ، فقال أحدهما : ميلُ بنا إلى هذا الذى كانَ سَمَّتَهُ المَسيحُ ، فعدَّلا إليه ، فألقياهُ مُقتَرِشا بِدَقْنِهِ ظاهِرَ كَفِّهِ وهو يقولُ : يا عجباً ^(٣) لقومٍ قد أَمَرُوا بالزادِ وأذِنُوا بالرحيلِ ، وأقام

(١) العسكِر : الجماعة من كلِّ شيءٍ يقال : عسكِر من رجالٍ ومن خيلٍ

(٢) كان البهلُولُ هذا مجنوناً يمرورا وكان ظريفاً وكان يتشيع ، قال له قائل : اشتمِ فاطمةَ وأعطيكِ درهمًا فقال . بل أشتمُ عائشةَ وأعطني نصفَ درهمٍ أو مرَّ به بعضهم وهو يأكلُ خبيصاً ، فقال له : أطمعني ، فقال : ليس هو لي ، إنما هو لعاتكةَ بنتِ الخليفةِ بعتهِ إلى لآكله لها ...

(٣) يا عجباً : لك أن تقرأه بالتَّوِينِ وبدونه أما بدونه فإنه يريد : يا عجبى فقلبِ يا المتكلمِ

أولهم على آخرهم ، فليْتَ شِعْرَى ماذا ينتظرون ! وفي رواية أخرى هذه
الزيادة بعد قوله : وأقام أولهم على آخرهم : وآخِرُهُم قُعود يلعبون « قوله :
أُسروا بالزاد يعنى زاد الآخرة ، وهو العمل الصالح ، وقوله : وأذنوا
بالرحيل : أذنوا : أعلِمُوا ، والرحيل يريد به الموت ، وقوله : وأقام أولهم
على آخرهم : أعلمه يريد : أن أولهم يرضى فعمل آخرهم فلم يُنكَرْ عليه ، ولعله
يريد أن موت أولهم كان يجب أن يكون عبرة لآخرهم ، ومن المشهور في
هذا آيات قُسِّ بن ساعدة الايادى :

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا يَمْضَى الْأَصَاغِرُ وَالْأَكَابِرُ
لَا يَرْجِعُ الْمَاضِي إِلَى وَلَا مِنَ الْبَاقِينَ غَائِرُ
أَبْقَيْتُ أَنِي لِأَحْمَا لَهْ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

« في الزاهبين : متعلق ببصائر في آخر البيت ، وبصائر : عبرة ، والقرون جمع
قرن والقرن من الناس : أهل كل زمان ، قال :

إِذَا ذَهَبَ الْقَرْنُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمْ وَحُلُفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبُ
ولعله مأخوذ من الاقتران ، فكأنه المقدر الذي يقترن فيه أهل ذلك
الزمان في أعمارهم وأحوالهم ، ومن هنا اختلفوا في تحديد القرن من الزمان
فقيل : أربعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل مائة سنة ، والموارد جمع مورد وهو :

ألفا وأما بالتونين فلك أن تجعل عجباً نادى منكراً ، ولك أن تجعل دياً ، حرف تنبيه وعجبا
مصدر منصوب بفعل محذوف أى تعجبوا عجباً وأن تجعل دياً ، حرف نداء والمنادى
محذوف أى يا قوم ، وعجبا كذلك ...

محلُّ الورد ، أى الاتيان ، والمصادر جمع مصدر ، وهو : موضع الصدور ،
أى الانصراف والرجوع ، وغابر اسم فاعل من غَبَرَ بمعنى : مكثَ وبقي ،
وبمعنى : مضى أيضا ، فهو من الأضداد ،

من يخاف الموت ولا يستعد له

وحثهم على تعاطى ما بهون أمر الموت

جاء رجلٌ إلى سيدنا رسول الله فقال : يا نبيَّ الله ، ما لى لأحِبُّ الموت؟
فقال له : هل لك مالٌ؟ قال : نعم ؛ قال : قدَّمه بين يديك ؛ قال : لأطيقُ
ذلك ، فقال سيدنا رسول الله : إنَّ المرءَ مع ماله إنَّ قدَّمه أحبَّ أن يَلْحَقَ به
وإنَّ آخرَه أحبَّ أن يتخلَّفَ معه ... وقال الحسن البصرىُّ شَيْخٌ فى جنازة :^(١)
أُتْرِى هذا الميتَ لورجع إلى الدنيا أكان يعملَ صالحا ؟ قال : نعم ، قال :
إن لم يكن ذاك فكن أنت ذاك ... وقال القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز
المرجاني :

إذا قلت لم يباغِ بِى السَّنُّ مَبْلِغًا وَوَعِظْتُ بِطِفْلِ صَارَ قَبْلِى إِلَى التُّرْبِ
وقال على رضى الله عنه لرجل : كيف أُنْتَم ؟ قال : نرجو ونخاف ، قال :
من رَجَا شَيْئًا طَلَبَهُ وَمَنْ خَافَ شَيْئًا هَرَبَ مِنْهُ ... وقال أبو الدرداء : العجبُ

(١) قال علماء اللغة : الجنازة بكسر الجيم : السرير محمولا عليه الميت : أما بفتح
الجيم فالميت قال أبو على الفارسي : لا يسمى جنازة - بالكسر - حتى يكون عليه ميت وإلا
فهو نعش أو سرير قال الليث : وقد جرى فى أفواه الناس جنازة بالفتح والتخارير
ينكرونه ، وقال بعضهم إن اللفظ نبطى وقال آخرون : إنه مشتق من جنز الشيء
يجنزه جنزا ستره وذكروا أن النوار امرأة الفرزدق لما احتضرت أوصت أن
يصلى عليها الحسن البصرى فقبل له فى ذلك فقال : إذا جنزتموها فأذنونى

لمن يَكْرَهُ الموت لِإِسَاءَتِهِ وَلَا يَكْرَهُ الْإِسَاءَةَ فِي حَيَاتِهِ ... وَقَالَ رَجُلٌ
لِأَبِي الدَّرْدَاءِ : مَا بَانَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ قَالَ : لِأَنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ آخِرَ نَفْسِكُمْ وَعَمَّرْتُمْ
دُنْيَاكُمْ فَكْرِهْتُمْ أَنْ تُتَقَلَّوْا مِنَ الْعُمُرَانِ إِلَى الْخِرَابِ ... وَقَالَ أَبُو حَازِمٍ : كُلُّ
عَمَلٍ تَكْرَهُ الْمَوْتَ لِأَجْلِهِ فَدَعُهُ كَيْلًا تَخَافُ مِنْهُ مَتَى أَتَاكَ ...

من أمر ذويه بالبكاء عليه

رَوَى عَنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ : إِنْ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ... قَالَ
الْعُلَمَاءُ : أَرَادَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِذَا وَصَّى الْمَيِّتُ بِذَلِكَ وَأَمَرَ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ
يَفْعَلُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ، كَقَوْلِ طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَلَى الْجَيْبِ يَا ابْنَةَ مَعْبُدٍ^(١)
وقول الفرزدق :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ فَكُلُّ جَمِيلٍ قُلْتِ فِي مَصَدَّقٍ
وقول ابن المعتز :

إِذَا مِتَ فَانْعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَلَا تَذْخِرِي دَمْعًا إِذَا قَامَ نَائِحٌ
وَقَوْلِي : تَوَى طُودُ الْمَكَارِمِ وَالْعَلَى وَعُطِّلَ مِيزَانٌ مِنَ الْجِلْمِ رَاجِحٌ
« تَوَى : هَلَكَ ، وَتَقَرَأَ : تَوَى وَالطُّودُ : الْجَبَلُ الْعَظِيمُ ، وَالْحِلْمُ : الْأَنَاءَةُ وَالْعَقْلُ ،
وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْأُولَى : أَنْ يُقَالَ فِي تَأْوِيلِ الْحَدِيثِ : بِسَمَاعِ صَوْتِ الْبِكَاءِ
هُوَ نَفْسُ الْعَذَابِ ، كَمَا أَنَّا نَعَذَّبُ بِبِكَاءِ الْأَطْفَالِ ، فَالْحَدِيثُ عَلَى ظَاهِرِهِ »

(١) من معلقة طرفة، ومعبود أخوه يوصى ابنة أخيه بأن تشيع خبر هلاكه إذا هو
مات - بالنساء الذي يستحقه وشق جيبتها عليه وبعد البيت :

وَلَا تَجْعَلِينِي كَأَمْرِئِي لَيْسَ هَمُّهُ كَهَمِّي وَلَا يُغْنِي عَنَّا نِي وَهَشْمَدِي
وَالْحَمُّ : الْهَمَّةُ وَالطُّمُوحُ إِلَى الْعَلَاءِ ، وَالغَنَاءُ : الْكِفَايَةُ . وَالْمَشْهَدُ : الشُّهُودُ أَيْ مَلَابِسَةُ

من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه

لَمَّا احْتَضَرَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ جَعَلَ يَدُهُ فِي وَضْعِ الْغُلِّ «القيد» مِنْ عُنُقِهِ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنَا قَرَّطْنَا ، وَنَهَيْتَنَا فَرَكَيْنَا ، اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَسْعُنَا إِلَّا رَحْمَتُكَ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ هَجِيرَاهُ حَتَّى قُبِضَ ... وَقِيلَ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ حِينَ احْتَضَرَ : مَا حَالُكَ ؟ فَقَالَ : مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلا زَادٍ ، وَيَنْزِلُ حُفْرَةً مِنَ الْأَرْضِ مُوَحِّشَةً بِلا مُؤْنِسٍ ، وَيَقْدَمُ عَلَى مَلِكٍ جَبَّارٍ قَدَّمَ إِلَيْهِ الْعُذْرَ بِلا حِجَّةٍ ا وَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ عِنْدَ مَوْتِهِ : وَدِدْتُ أَنْيَّ كُنْتُ غَسَّالًا آكُلُ كُلَّ يَوْمٍ كَسْبَ يَوْمِي لَا يَفْضُلُ عَنِّي ... فَقِيلَ ذَلِكَ لِأَبِي حَازِمٍ فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا بِحَيْثُ يَتَمَنَّى الْمُلُوكُ حَالَتَنَا عِنْدَ الْمَوْتِ وَلَا تَتَمَنَّى حَالَهُمْ ... وَلَمَّا أَدْنَفَ^(١) الْمَسَامُونَ بِنَ الرَّشِيدِ أَمْرًا أَنْ يُفَرَّشَ لَهُ جِلٌّ - بِسَاطٌ - فُجِعَ يَتَمَرَّغُ فِيهِ وَيَقُولُ :

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ فِي رُؤْيُ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُعُولَا^(٢)
وَأُنْعِمِي عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَقُولُ :

لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَيْتَنِي
هَذَا إِذَا لَدَيْتُمَا

اللَّهُمَّ لَا بَرِيءٌ فَأَعْتَذِرُ وَلَا قَوِيٌّ فَأَتَصِرُ

ثُمَّ أَنْعِمِي عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ :

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدِكَ لَا أَلْمَا^(٣)

الحروب والوقائع (١) أدنف المريض : نقل مرضه ودنا من الموت .

(٢) الشعر لامية بن أبي الصلت . والوعول : جمع وعل : تيس الجبل

(٣) لامية بن أبي الصلت كذلك وألم الرجل من اللعم وهو مادون الكبار من

الذنوب قال سبحانه : الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللعم وقيل : اللعم :

أن يلم المرء بالمعصية ولم يصر عليها

وقال أبو جعفر المنصور عند موته : اللهم إن كنت تعلم أني قد ارتكبتُ
الأمور العظام جرأةً مني عليك ؛ فإنك تعلم أني قد أظمتك في أحب الأشياء
إليك : شهادة إن لا إله إلا أنت ، منّا منك لامناً عليك ... وكان سبب إحرامه
من الحضراء أنه كان يوماً نائماً فأتاه آت في منامه فقال :

كَانِي بِهَذَا الْفَصْرِ قَدْ بَادَ أَهْلُهُ وَعُرِّيَ مِنْهُ أَهْلُهُ وَمَنَازِلُهُ
وَصَارَ عَمِيدُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْدِ نِعْمَةٍ إِلَى جَدَّتْ تُشْتَى عَلَيْهِ جَنَادِلُهُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا رَشْمُهُ وَحَدِيثُهُ تُبْكِي عَلَيْهِ مَعُولَاتٍ حَلَالَتُهُ^(١)
فاستيقظ مرعوباً ثم نام فأتاه الآتي فقال :

أبا جعفرٍ حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمرُ الله لا بدّ واقعُ
فهل كاهنٌ أعددتَهُ أو منجمٌ أبا جعفر عنك المنية دافعُ
فقال : ياربيع اتنى بطهورى ، فقام واغتسل وصلى ولجى وتجهز للحج ،
فلما صارَ في الثلث الأولِ اشتدَّت عاتهُ ، فجعل يقول : ياربيع ألقني في حرم
الله ، فمات بيثر ميمون^(٢) ... وقالوا : لقن ميثك - أى لا إله إلا الله - فإذا
فألها فدعته يتكلم بغيرها من أمر الدنيا ولا تُضجره .

من امتنع من التوبة عند موته

اعتلَّ أعزباني ، فقيل له : لو تُبّت ، فقال : لستُ ممن يُعطى على الذلِّ ،

(١) تبكى - بالتشديد - مثل تبكى بالتخفيف ، وحلالتها : زوجاته ، ومعولات : رافعات
أصواتهن بالبكاء .

(٢) بيثر ميمون : بمكة منسوب إلى ميمون بن خالد بن عامر الحضرمى .

إن عافاني الله تُبِتْ وإلا مِت هكذا ... وقيل للحجاج : ألا تتوب ؟ فقال :
 إن كنتُ مسيئاً فليستْ هذه ساعة التَّوبَة ، وإن كنتُ مُحسناً فليستْ ساعة الفِرْع
 « الفِرْع : الاستغائة والاستصراخ ، ولعله يريد : أن وقت الموت ليس وقت
 الحساب والمجازاة وإنما ذلك يوم الفِرْع الأكبر - يوم البعث - ولعل المعنى :
 مادمت محسناً فليس تَمِت دافع للخوف ،

من يحبون الموت

قال عبد الله بن مسعود : ما من نفسٍ حيَّةٍ إلا والموتُ خيرٌ لها ، إن كان
 برا فإن الله تعالى يقول : وما عند الله خيرٌ للأبرار ، وإن كان فاجراً فإن الله
 تعالى يقول : ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملى
 لهم ليزدادوا إثماً ، ولهم عذابٌ مُهين ^(١) وحضر أحد الصالحين الموت ، ففرح
 فقيل له : تستبشِرُ بالموت ؟ فقال : أنجملون قدومي على خالقٍ أرجوه كقماي
 على مخلوقٍ أخافه ! وسُئِلَ حكيمٌ عن الموتِ ، فقال : هو فرْعُ الأغنياء وشهوةُ
 الفقراء ... وقال بعضهم : لا يكون الحكيم حكيماً حتى يعلم أن الحياة تُسْرِثُهُ
 والموت يُعْتِقُهُ .. وقال المتنبي :

تُعْرُ حَلَاوَاتُ النُّفُوسِ قُلُوبَنَا فَمَتَخَتَّارُ بَعْضِ العَيْشِ وَهُوَ حِمَامٌ
 « يقول المتنبي : حُبُّ الحياة يغرُّ القلب حتى يختار عيشاً فيه ذل :

(١) قرئ : ولا تحسبن على أنه خطاب للرسول عليه السلام وقرئ ولا يحسبن
 فالذين فاعل ومافى إنما نملى لهم مصدرية وكان حقها أن تفصل في الخط ولكنها وقعت
 متصلة في الإمام - المصحف العثماني - فاتبع ، والإملاء : الإمهال وإطالة العمر : وقيل .
 تخليتهم وشأنهم من أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء ، واللام
 في قوله سبحانه ليزدادوا إثماً لام الإرادة وعند المعتزلة لام العاقبة

وَشَرُّ الْحَامِينَ الزَّوَامِينِ عَيْشَةً
يَذُلُّ الذِي يَخْتَارَهَا وَيَضَامُ ،
وقال أيضا :

وما الدهرُ أهلٌ أن تؤمَلَ عندهُ حياةٌ وأن يُشْتاقَ فيه إلى البَسَلِ
« وقد تقدم » وفي هذه القصيدة يقول المتنبي :

نُبِّكِي مِوتَانَا عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ تَفُوتُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا مَوْهَبٍ جَزَلِ
إِذَا مَا تَأَمَّلْتَ الزَّمَانَ وَصَرَفَهُ تَيَقَّنْتَ أَنَّ الْمَوْتَ ضَرَبٌ مِنَ الْقَتْلِ

« يقول : نحن نبكى على موتانا ونحزن لهم ونأسف لفراقهم ونحن على يقين من أنهم لا يفوتهم من الدنيا ما يُرغَبُ في مثله ولا يتمتعون منها بما يصح أن يتنافس في نيله ؛ ثم قال في البيت التالي : وأنت إذا ماتت وأنعمت النظر في تصاريف الدهر وخطوبه تيقنت أن الموت المحتوم على المرء كالذي يتوقعه من القتل وإذن لا داعي للجبن والذعر ولا موجب لحب الحياة والتهافت عليها قال عنبرة :

فأجبتُها : إِنَّ الْمَيِّتَةَ مَنهَلٌ لَا بُدَّ أَنْ أَسْقَى بِذَلِكَ التَّمهَلِ

فأقنَى حياءك لأبالك وأعلبي أنني امرؤٌ سأموتُ إن لم أقتل

« فأقنَى خباءك : فالزيمه واحفظيه واتخذيه قنينة ، وقال الإمام الجنيدي : من كان حياته بنفسه يكون تَماته بذهاب روجه ، فتصعبُ عليه ، ومن كان حياته بربه فإنه يبتقلُ من حياة الطبع إلى حياة الأصل ، وهي الحياة الحقيقية .

تمنى الموت

قال أعرابيٌّ : خيرٌ من الحياة ما إذا فقدته أبعثتَ لفقدِهِ الحياة ، وشَرُّ

من الموت ما إذا نزل بك أحببت لنزوله الموت ... وقال المتنبى :
 كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكنّ أمانياً
 تمنيتها ما تمتت أن ترى صديقا فأعيا أو عدواً مُداجياً
 وقال المهلبى الوزير (١) :

ألا موتٌ يُباعُ فأشتره فهذا العيش مالا خيراً فيه
 ألا موتٌ لذبذ الطعم يأتى يُخلّصنى من العيش الكريه
 إذا أبصرتُ قبراً من بعيد وددت لو أنّى مما يابيه
 ألا رَحِمَ المُهَيِّمُ نفسَ حُرٍّ تصدّقَ بالوفاةِ على أخيه
 واعتلّ السبلى ثم برأ ، فقال له بعض أصحابه كيف أنت : فقال :
 كلما قلتُ : قد دنا حلّ قيدي قدّمونى وأوثقوا المساراً

الحياة لاتمل

قال حكيم : الحياة وإن طالّت لا تُتملّ ، وإنما يتملّ المرء تكاليف الحياة ،

(١) كان وزير معز الدولة البويهى ، وكان أديباً فاضلاً محباً لاهله وكان قبل اتصاله بمعز الدولة فى ضيق شديد وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره مشقة عظيمة واشتهى اللحم فلم يقدر عليه فقال هذه الايات ارتجالاً ، وكان معه رفيق يسمى عبدالله الصوفى فلما سمع الايات اشترى له بدرهم لحماً وطبخه وأطعمه وضرب الدرهم من ضرباته وافترقا حتى تولى المهلبى الوزارة وضافت الاحوال برفيقه هذا فقصده وكتب إليه :

ألا قلّ للوزير فدته نفسى مقالة مذكر ماقد نسيه
 أتذكر إذ تقول لضعك عيش ألا موتٌ يباع فأشتره

فلما وقف على ذلك هزته أريحية الكرم وأمر له فى الحال بسبعمائة درهم ووقع فى رقعة : مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ، ثم دعا به فخلع عليه وقلده عملاً يرتفق به

ولهذا فُضِّلَ قولُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ :
 سَيِّمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَالَكَ يَسَامًا
 عَلَى قَوْلِ لَيْدٍ :

ولقد سَيِّمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطَوَّلَهَا وَسُؤَالَ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَيْدٌ
 « تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ : مَشَاقِفَهَا وَشِدَائِدَهَا ، أَمَا لَيْدٌ فَإِنَّهُ يَكَادُ يَكُونُ مَعْذُورًا إِذَا
 هُوَ مَلََّ الْحَيَاةَ نَفْسَهَا وَلَمْ لَا وَقَدْ عَمَّرَ حَتَّى يَبْلُغَ ثَلَاثِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ ؟ » وَقَالَ الْمُنَبِّيُّ :
 وَلِذِيذِ الْحَيَاةِ أَنْفُسٌ فِي النَّفْسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُبْمَلَ وَأَحْلَى
 وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفِي فَمَاءِ لِي حَيَاةٌ وَإِنَّمَا الضُّعْفُ مَلَأَ
 آلَةَ الْعَيْشِ صِحَّةً وَشَبَابُ فَإِذَا وَلَّيْنَا عَنِ الْمَرِيءِ وَتَلَّى
 « وَقَدْ تَقَدَّمَتْ » وَدَخَلَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مَسْجِدَ دِمَشْقَ ، فَرَأَى
 شَيْخًا ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ، أَيُسْرَكَ أَنْ تَمُوتَ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، قَالَ : وَلِمَ وَقَدْ
 بَلَغْتَ مِنَ السَّنِّ مَا أَرَى إِقَالَ : مَضَى الشَّبَابُ وَشُرَّهُ ، وَبَقِيَ الشَّيْبُ وَخَيْرُهُ ،
 فَأَنَا إِذَا قَعَدْتُ ذَكَرْتُ اللَّهَ ، وَإِذَا قَمْتُ حَمِدْتُ اللَّهَ ، فَأُحِبُّ أَنْ تَدُومَ لِي
 هَاتَانِ الْحَالَتَانِ ...

تسلي الناس عن مآت

قالوا : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْظَرَ النَّاسَ مِنْ بَعْدِكَ فَانظُرْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ مَنْ مَاتَ
 قَبْلَكَ ... وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :
 سَيُعْرَضُ عَنْ ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلْخَلِيلِ خَلِيلُ
 وَقَالَ مَنْصُورُ الْفَقِيهِ : (١)

(١) هو أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي الفقيه المصري الشافعي

كلُّ مذکورٍ من النَّاسِ إِذَا مَا فَقَدُوهُ
صَارَ فِي حُكْمِ حَدِيثِ حَفِظُوهُ فَلَسُّوهُ

وقال آخر :

هَالُوا عَلَيْهِ التُّرْبَ ثُمَّ انْتَنَوْا عَنْهُ وَحَلَّوْهُ وَأَعْمَالَهُ
لَمْ يَنْقُضِ النَّوْحُ مِنْ دَارِهِ عَلَيْهِ حَتَّى انْقَسَمُوا مَالَهُ
سَهْمَ الْمَنَايَا بِالذَّخَائِرِ مَوْلَعٌ

قال أبو تمام (١)

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَقَفَا فَإِنِّي رَأَيْتُ الْكَرِيمَ الْحُرَّ لَيْسَ لَهُ عُمُرٌ
وقال من أبيات يرثى بنى حميد أيضا :

إِنْ يَنْتَحِلْ حَدَثَانُ الْمَوْتِ أَنْفَسَكُمْ وَيَسْلُمُ النَّاسُ بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْعَطَنِ
فَالْمَاءُ لَيْسَ عَجِيْبًا أَنْ أَعَذَبَهُ يَفْنَى وَيَمْتَدُّ عُمُرُ الْآجِنِ الْآسِنِ
وقال ابن النبية المِصْرِي من أبيات مختارة نوردها عليك :

النَّاسُ لِلْمَوْتِ كَحَيْلِ الطَّرَاذِ فَالسَّابِقُ السَّابِقُ مِنْهَا الْجَوَادُ

الضرير، كان فقيهاً شافعيًا وكان أديبا شاعرا امتقنا توفى بمصر سنة ٤٣٠٦ هـ ومن شعره السائر:

لِي حَيْسَلَةٌ فِيمَنْ يَنْمُو وَلَيْسَ فِي الْكُذَّابِ حَيْلُهُ
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَائَةً وَوَلَّ خَيْلِي فِيهِ قَلِيلُهُ
ومنه : إِذَا تَخَلَّفْتَ عَنْ صَدِيقٍ وَلَمْ يُعَانِبْكَ فِي التَّخَلُّفِ
فَلَا تُعَذِّبْ بَعْدَهَا إِلَيْهِ فَإِنَّمَا وَدُّهُ تَكَلَّفُ

(١) من مرثيته التي يرثى بها محمد بن حميد الطوسي وأولها :

كَذَا فَلَئِنَّ جِلَّ الْخَطْبِ وَلِيَقْدَحِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُدْرُ

والله لا يدعوا إلى داره إلا من استصاح من ذى العباد
 والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد
 والمزء كالظل ، ولا بد أن يزول ذلك الظل بعد امتداد
 لا تصالح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجساد هذا الفساد
 أرغمت يا موت أنوف القنا ودنت أعناق السيوف الحداد
 وقال شاعر :

فلا تجزعبن من موته وهو نائبي ولا ينكرن هذا من جرب الدهرا
 فكل طويل المجد يقصر عمره كذاك سباع الطير أقصرها عمرا

إنكارهم الشماتة في الموت

قال عدى بن زيد العبادي :

أيها الشامت المعير بالدهر ر أنت المبرأ الموفور
 أم لذيك العهد الوثيق من الأيا م بل أنت جاهل مغرور
 « وقد تقدمت هذه الآيات ... » وقال شاعر :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
 ولما مات الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما دخل عبد الله
 ابن عباس على معاوية ، فقال له معاوية : يا ابن عباس ، مات الحسن بن علي ؟
 قال : نعم ، وقد بلغت مجودك ، أما والله : ما سد جثمانه حفرتك ، ولا زاد

== وقول أبي تمام : إن ينحل البيت . فينحل : يأخذ النفوس نحلة أى عطية ، ولك
 أن تقرأها ينتحل ، والعطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والآجن : الماء المتغير الطعم
 واللون ومثله الآسن

انقضاء أجله في عُمرِكَ ، قال : أَحَسْبُهُ تَرَكَ صِغَارًا وَلَمْ يَتْرُكْ عَلَيْهِمْ
كثِيرَ مَعَاشٍ ؟ فقال : إن الذي وكلهم إليه غيرُكَ ، ... وقال الفرزدق :

قُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيؤُوا سِيلَقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

وحكى المبرد عن بعضهم : أنه شهد رجلاً على قبرٍ وهو يُكثِرُ البكاءَ ،
فقلت : أَعَلَى قَرِيبٍ أَوْ عَلَى صَدِيقٍ ؟ فقال : أَخْصُ مِنْهُمَا ، قَدْ كَانَ لِي عَدُوًّا ،
فخرج إلى الصَّيْدِ ، فرأى ظبياً فتبعه ، فعدَّ بِالسَّهْمِ ، فخرَّ هو والظبي ميتين ،
فدُفِنَ ، فانتهيتُ إلى قبره شامِتاً به ، فإذا عليه مكتوبٌ :

وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُهُمْ غَيْرَ أَنَا أَقْمَنَا قَلِيلاً بَعْدَهُمْ وَتَرَحَّلُوا

فها أنا ذا واقفٌ أبكى على نفسي ... ولما مات الفرزدق بكى عليه جريروثرثاه ،
ف قيل له : أَبَعَدَ تِلْكَ الْعِدَاةُ ؟ فقال : لَمْ أَرَأْتَيْنِ بَلِغَا الْغَايَةَ وَمَاتَ أَحَدُهُمَا إِلَّا وَلِحَقِّهِ
الآخَرَ عَنْ كَتَبٍ ، فَكَانَ كَذَلِكَ ... وقال سيدنا رسول الله : لا تُظهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ
فِي مَا فِيهِ اللَّهُ وَيُبْتَلِيكَ - أقول : يبدو أن الشماتة - وهي أن تفرح بالبلية تنزل بمن
يُعاديك - من الغرائز الإنسانية اللئيمة ، ومن ثم لم ينه سيدنا رسول الله عن
كونها - وجودها - وإنما نهى عن إظهارها ، لأن ذلك هو الذي في استطاعة المرء ،
مثلها مثل الحسد والظن والطيرة ، ولذلك ورد في الأثر أيضاً : إِذَا ظَنَنْتُمْ فَلَا
تَحْقِقُوا ، وَإِذَا حَسَدْتُمْ فَلَا تَبْغُوا ، وَإِذَا تَطَيَّرْتُمْ فَأُضُوا ، وَعَلَى اللَّهِ فَمَوَكُّوْا ..
يقول صلوات الله عليه : إِذَا حَسَدْتُمْ : أَى تَنِيْتُمْ زَوَالَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى مَنْ
أَنعمَ عَلَيْهِ فَلَا تَتَعَدَّوْا وَتَفْعَلُوا مَا يَقْضِيهِ هَذَا الْخَاطِئُ الذَّمِيمُ ، وَإِذَا ظَنَنْتُمْ سُوءَ
بِمَنْ لَيْسَ مَحَلًّا لِسُوءِ الظَّنِّ بِهِ فَلَا تَحْقِقُوا ذَلِكَ بِاتِّبَاعِ وَارِدِهِ وَالْعَمَلِ عَلَى
مَقْتَضَاهُ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ،
وَالظَّنُّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ : ومن أساء الظن في غير موضعه دلَّ على عدم

استقامته في نفسه كما قال النبي :

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظَنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَبْتَاعُهُ مِنْ تَوَهُّمِهِ
أَمَّا مَنْ كَانَ مَظَنَّةً لِلظَّنِّ، بَانَ كَانَ رَجُلًا شَرِيرًا فَالْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ
وَالاحْتِرَاسُ وَالْحَذَرُ، ثُمَّ قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : وَإِذَا تَشَاءَ مَتَمَّ بِشَيْءٍ فَأَمْضُوا
طَبَائِعَكُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ خَاطِرُكُمْ لِذَلِكَ وَسَيَمُرُ عَلَيْكُمْ كُلُّ هَوْلَاءٍ فِي دِكْتَابِ
طَبَائِعِ الْمَذْمُومَةِ ، ... وَمَا يَتَّصِلُ بِمَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الشَّهَادَةِ بِالْمَيِّتِ مَا يُرَوَى :
أَنَّهُ لَمَّا أَتَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ خَبْرَ قَتْلِ مُصْعَبِ أَخِيهِ احْتَجَبَ أَيَّامًا، فَخَبَّرَ
بِمَجِيءِ قَوْمٍ لِلتَّعْزِيَةِ، فَقَالَ : أَسْكِرْهُ وَجُوهًا تُعْزِي أَسِنَتِهَا وَتَشْمَتُ قُلُوبُهَا .

لا عار بالموت

قالت ليلي الأخيلية :

لِعَمْرُكَ مَا بِالْمَوْتِ عَارٌ عَلَى امْرِئٍ إِذَا لَمْ تُصِبهْ فِي الْحَيَاةِ الْمَعَارِ
« المعار : المعايير والمسائب يقال : عارَه : إذا عابه ، وتعاير القوم : عَيرَ
بعضهم بعضاً »

الموت نهاية كل حي

قال أبو بكر العنبري : كُنْتُ قَاعِدًا فِي الْجَامِعِ فَمَرَّ بِي مَعْتُوهُ فَأَقْبَلَ
عَلَيَّ وَقَالَ :

فَهَبْكَ مَلَكَتْ هَذَا النَّاسَ طُرَا وَدَانَ لَكَ الْعِبَادُ فَكَانَ مَاذَا
أَلَسْتَ تَصِيرُ فِي لَحْدٍ وَيَحْوِي تُرَائِكَ عَنْكَ هَذَا نِمْ هَذَا
وقال الشاعر :

هَبْكَ قَدْ نَلْتَ كُلَّ مَا تَحْمِلُ الْأَرْضُ ضُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا الْعَيْنِيَّةُ

وقال القائل:

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابٍ (١)

وصية الميت

قالوا: كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ وَلَا تَجْعَلِ الرَّجَالَ أَوْصِيَاءَكَ، وَأَعْلَمْ صَدَقَ

(١) جاء في الحزارة للإمام البغدادي ما خلاصته: هذا المصراع - لدوا للموت وابنوا للخراب - هو من أبيات في الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب وهي:

عَجِبْتُ لِمَجَازِعِ بَاكِ مُصَابٍ بِأَهْلِ أَوْ حَبِيبِ ذِي الْكِتَابِ

شَقِيقِ الْجَيْبِ دَاعِيَ الْوَيْلِ جَهْلًا كَأَنَّ الْمَوْتَ كَالشَّيْءِ الْعُجَابِ

وَسَوَى اللَّهِ فِيهِ الْخَلْقَ حَتَّى نَسِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يُحَابِ

لَهُ مَلِكٌ يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ لِدُوا لِلْمَوْتِ وَأَبْنُوا لِلْخَرَابِ

و نسي الله: مفعول مقدم ليحباب بمعنى يخص، قال: ورأيت في جمهرة أشعار العرب أنه قد روى أن بعض الملائكة قال - وأورد البيت الذي أوردناه، ثم قال: ولسابق البربري في هذا المعنى:

فَلِلْمَوْتِ تَعْتَدُو الْوَالِدَاتِ سِخَالَهَا كَمَا لِلْخَرَابِ الدَّارُ تُبْنَى الْمَسَاكِينَ

هذا: وأما اللام في قولهم للموت فقد سماها الكوفيون لام العاقبة، مثلها مثل قوله تعالى: فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا، وأنكر البصريون لام العاقبة قال الزمخشري: والتحقيق أنها لام العلة وأن التعليل فيها وارد على طريق المجاز وذلك أنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا بل المحبة والتبني غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفعل لاجله واللام مستعارة لما يشبه التعليل كما استعير الأسد لمن يشبه الأسد. انتهى... وسابق البربري: هو أبو سعيد سابق بن عبد الله من موالى بني أمية، سكن الرقة ووفد على عمر بن عبد العزيز، وله أشعار حسنة في الزهد وليس منسوبا إلى البربري وإنما البربري لقب له، والسخال في بيته المذكور: جمع سخلة وهي ولد الشاة من الضأن والمعز، وقد أقام الظاهر مقام الضمير في المصراع الثاني إلا أنه باللفظ المراد إذ الأصل: كما تبني المساكن لخرابها.

الذى يقول :

ولا يغررك من توصى إليه فقصر وصية المرء الضياع
 « قصره وقصاره أن يفعل كذا : أى آخر أمره وغاية جهده هو أن يفعل
 كذا » ... وقال مالك بن ضيفم : لما احتضر أبى قلنا له : ألا توصى ؟ قال :
 بلى ، أوصيكم بما أوصى به إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ : « يا بنيَّ إن الله اصطفى
 لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون ، وأوصيكم بصلةِ الرحمِ وحسن
 الجوار وفيل ما استطعتم من المعروف ، وأذفوني مع المساكين ...
 وقيل لهرم بنِ حبان : أوص ، فقال : قد صدقتنى نفسى فى الحياة ، ما لى
 شىء أوصى فيه ، ولكن أوصيكم بخواتيم سورة النحل ^(١) ...

إنكارهم وصية الميت بما ليس له

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : جاء النبى صلى الله عليه
 وسلم يعوذنى وأنا بمكة ، وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها ،
 قال : يرحم الله ابنَ عَفْرَاءَ ^(٢) ، قلتُ : يا رسول الله : أوصى بمالى كله ؟ قال :
 لا ، قلتُ : فالكسْبُ طُرٌّ ؟ قال : لا ، قلتُ : التُّلْكُ ؟ قال : فالتك ، والتك
 كثير ، إنك أن تدعَ ورثتكَ أغنياءَ خيرٌ من أن تدعهم عالةً يتكففون فى
 أيديهم ، وإنك مهما أنفقتَ من نفقة فإنها صدقةٌ ، حتى اللقمة ترفعها إلى فى
 امرأتك ، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناسٌ ويضرب بك آخرون ،

(١) راجع سورة النحل ، ومن آياتها الكريمة ، الآية الأخيرة : إن الله مع الذين اتقوا

والذين هم محسنون .

(٢) هو سعد بن خولة وعفراء أمه ، ويلاحظ أن قول سعد : وهو يكره الخ

التفات من التكلم إلى الغيبة كما سيمر عليك

ولم يكن له يومئذ إلا ابنةٌ . . . رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم
« وإليك شرح هذا الحديث الشريف : لما كان سيدنا رسول الله بمكة في
حجة الوداع ذهب إلى سعد بن أبي وقاص - وهو الصحابي الجليل الذي
هاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وقد شهد
بدرًا والمشاهد كلها ، وبشره الرسول بالجنة ، وهو أحد رجال الثورى الستة
الذين رشحهم الفاروق للخلافة : وهو قائد جيوش عمر في فتح العراق ،
ثم مات بقصره في العقيق على مقربة من المدينة سنة ٥٥ هـ بعد أن كفَّ بصره
رضى الله عنه - أقول : لما كان الرسول بمكة ذهب إلى سعد يعود له لمرض
اشتدَّ به حتى أشقَى على الموت ، وكان سعد يكره أن يموت بالأرض التي
هاجر منها - مكة - كما مات سعد بن خولة ^(١) فلما سمع الرسول اسم سعد
ابن خولة من ابن أبي وقاص ترحم عليه ، وكان لسعد بن أبي وقاص إذ ذاك
ابنةٌ واحدة ^(٢) ثم قال سعد لسيدنا رسول الله - كما جاء في بعض الروايات -
إنه قد بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال ، ولى ابنةٌ واحدةٌ ، أنا وصى
بمالي كله ؟ قال الرسول : لا ، قال : فأوصى بالنصف ؟ قال : لا ، قال :
أفأوصى بالثلث ؟ قال : فالثلثُ توصى به ، والثلث كثير ، ثم قال الرسول :
- مُبِينًا عن الحكمة في ترك الوصية بالكثير إلى الوصية بالقليل : إنَّ تركَ
ورثتك أغنياء خيرٌ من تركهم فقراء يمدُّون أكتفهم إلى الناس مُسْتَجِدِّين . .

(١) من المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرًا وقد توفى بمكة في حجة الوداع
وأمه عفرات كما تقدم

(٢) أما بعد أن برئ من هذا المرض بفضل دعوة الرسول فقد عاش كثيرًا كما
قلنا ورزقه الله من الذرية بضعة عشر ابنًا واثنتا عشرة بنتًا

ثم بين الرسول أن كل ما يُنفقه على زوجته أو ولده أو أقاربه أو خَدَمه صدقةٌ ولو كان قليلاً، حتى اللقمة يرفعها إلى فم امرأته، يريد صلوات الله عليه: أن المرء إن استقل أمر الوصية بالثالث أو مادونه فليستكثره بالإنفاق، والأقربون أولى بالمعروف، فإن امتدت به الحياة فليستك هذا الطريق، ثم رجح له الرسول أن يبرأ وتطول حياته ويرتفع شأنه حتى ينتفع به أناس. ويستضر به آخرون، وقد تحقق هذا كله حتى عز به الإسلام. هذا الوصية بالثالث فأقل قد استقر عليه الإجماع إذا كان هناك ورثة واختلفوا فيمن ليس له وارث «راجع كتب الفقه»... وعن أبي هريرة: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال: أن تصدق وأنت صحيحٌ حريصٌ ناملُ الغنى وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا... وفي الأثر أيضاً: مثل الذي يعتق ويتصدق عند موته، مثل الذي يهدي إذا شبع... وقال بعض الصالحين عن بعض المترفين: يعصون الله في أموالهم مرتين، يبخلون بها وهي في أيديهم - يعني في الحياة - ويسرفون فيها إذا خرجت من أيديهم - يعني بعد الموت.

من أوصى بشراً وكان قاسياً

لما حضرت الحطيئة الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا: يا أبا مليكة: أوص؛ فقال: وَيْلٌ للشعر من راوية السوء؛ قالوا: أوص رحمك الله يا حطيئة قال: من الذي يقول:

إذا أنبض^(١) الرامون عنها ترنمت ترثم تكلى أو جمعتها الجنائز؟

(١) أنبض القوس وأنضها: جذب وترها لتصوت

قالوا : الشَّهَاحُ ؛ قال : أبلغوا عَظْمَانِ أَنَّهُ أَشْعَرُ الْعَرَبِ ؛ قالوا : وَيَحْكُ أَهْذَهُ وَصِيَّةَ أَرِصٍ بِمَا يَنْفَعُكَ ؛ قال : أبلغوا أَهْلَ ضَابِيٍّ ^(١) أَنَّهُ شَاعِرٌ حَيْثُ يَقُولُ :

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَدَّةٌ غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيذٍ
قالوا : أَرِصٌ وَيَحْكُ بِمَا يَنْفَعُكَ ؛ قال : أبلغوا أَهْلَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ أَنَّهُ أَشْعَرُ الْعَرَبِ حَيْثُ يَقُولُ :

فِي اللَّيْلِ مَنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْمَتَهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْقَتْلُ سُدَّتْ بِيذْبُلٍ ^(٢)
قالوا : اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ عَنكَ هَذَا ؛ قال : أبلغوا الْأَنْصَارَ أَنَّ صَاحِبَهُمْ ^(٣) أَشْعَرُ الْعَرَبِ حَيْثُ يَقُولُ :

يُغَشَّوْنَ حَتَّى مَاتَهُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
قالوا : هَذَا لَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ، فَقُلْ غَيْرَ مَا أَنْتَ فِيهِ ؛ فقال :
الشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُدَّتْهُ إِذَا آرَتْ فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ
زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ يَرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ ^(٤)
قالوا : هَذَا مِثْلُ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ ؛ فقال :

قَدْ كُنْتُ أَحْيَانًا شَدِيدَ الْمُعْتَمَدِ وَكُنْتُ ذَا عَرَبٍ ^(٥) عَلَى النَّخْصِ أَلَدِ

(١) هو ضابئ بن الحارثي البرجمي الشاعر من بني تميم

(٢) من معلقةه ، ومغار القتل : محكمه ، وهو اسم مفعول من أغار الحبل

إغارة : شد قتله ، ويذبل : جبل

(٣) هو حسان بن ثابت الأنصاري شاعر سيدنا رسول الله وقد تقدم شرح هذا البيت

(٤) الفاء هنا للاستئناف ، والمعنى : فإذا هو يعجمه ولا يصح نصبه عطفا على

قوله « يعربه »

(٥) الغرب : الحد ومنه غرب السيف : حده

لأحدُ الأُمِّ من حُطِيَّةٍ هجا بيديه وهجا المرِيَّةِ
* من لُؤْمِهِ ماتَ على فُرْيَةٍ *

« المرية: تصغير مرّة - امرأة - يريد: زوجته ، والفربة يريد الفراء
أى الحمار »

نهيهم عن الإفراط في البكاء وإظهار الجزع

دخلت أعرابية الحَضَرَ فسمعت بُكاءً من دار فقالت: ما هذا أراهم من
ربهم يَستغيثون، ومن استرجاعه يَتَضَجرون، ومن جزيل ثوابه يَتَبَرَّون...
وقال أبو سعيد البلخي: مَنْ أَصَابَتْهُ مَصِيبَةٌ فَأَكْثَرَ النِّعَمَ جَعَلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ
غَمًّا مِثْلَهُ ، قال الله تعالى: فَأَنَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ لَكِيلًا تَحْزَنُوا... الآية...
وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه
وسلم: ليس مِنَّا مَنْ لَطَمَ الحُدُودَ ، وَشَقَّ الجُيُوبَ ، ودعا بدعوى الجاهلية...
« ودعا بدعوى الجاهلية: أى من نحو قولهم: والآباء، والأمه، واولداه،
وامصيتاه، ونحو ذلك من ضروب النياحة والتذبة... ، أما البكاء والجزع
دون إفراط فَرَحَّضُ فيه، حدث أنس بن مالك قال: دَخَلْنَا على أَبِي سَيِّفِ
القَيْنِ ^(١) - وكان ظَنُرًا لإبراهيم عليه السلام ^(٢) ، فأخذ رسولُ الله صلى
الله عليه وسلم إبراهيمَ ، فقبَّله وشَمَّه ، ثم دَخَلْنَا عليه بعد ذلك وإبراهيم
يُجُودُ بنفسه ، فجمَلتَ عينا رسول الله تَذَرِفَانِ فقال له عبدُ الرحمن بن عوف

(١) هو البراء بن أوس زوج أم بردة خولة بنت المنذر مرضع إبراهيم بن سيدنا
رسول الله . والقين: الحداد

(٢) الظنر: المرضع وأطلق عليه ذلك لأنه كان زوج المرضعة

✽ فَوَرَدَتْ نَفْسِي وَمَا كَادَتْ تَرِدُ (١) ✽

قالوا : يا أبا مُلَيْكَةَ ، أَلَيْكَ حَاجَةٌ ؟ قال : لا والله ، ولكن أجزع على المدبح الجيّد يُمدّح به من ليس له أهلاً . قالوا : فَمَنْ أشعر الناس ؟ فأوماً بيده إلى فيه وقال : هذا الجَحِيرُ إذا طَمِعَ في خير (يعنى فَمَه) وآسَعَبَرَ با كيا ؛ فقالوا له : قل لا إله إلا الله ؛ فقال :

قالت وفيها حَيِّدَةٌ وَذُعْرُ عَوْذُ رَبِّي مِنْكُمْ وَحُجْرُ (٢)

فقالوا له : ما تقول في عبيدك وإمائك ؟ فقال : هم عبيدٌ قنّ ماعاقبَ الليلُ النهارَ ؛ قالوا : فأوصِ للفقراءِ بشيء ، قال : أوصيهم بالإلحاح في المسئلة فإنها تجارةٌ لا تبورُ ، وآستُ المسئولُ أضيقُ (٣) . قالوا : فما تقول في مالك ؟ قال : للأثني من ولدي مثل حظ الذكر . قالوا ليس هكذا قضى الله جَلَّ وعزَّ لهنَّ ، قال : لكنني هكذا قَضَيْتُ . قالوا فما توصي لليتامي ؟ قال : كُلُوا أموالهم وانكحوا أمهاتهم ؛ قالوا : فهل شيءٌ تعهدُ فيه غيرُ هذا ؟ قال : نعم ، تحمّلوني على أتانٍ وتبركونني راكبها حتى أموت ، فإن الكريم لا يوتُ على فراشه ، والأتانُ مَرَكَبٌ لم يمتُ عليه كريمٌ قطُّ ؛ ففعلوه على أتانٍ وجعلوا يذهبون به ويمجثون عليها حتى مات وهو يقول :

(١) وردت : أشرفت ، يقال : ورد فلان بلد كذا إذا أشرف عليه وإن لم يدخله

ولعله يريد من الورد : الإشراف على الموت

(٢) حيدة : من حاد عن الشيء إذا صد عنه أو تغير خوفامته ، وحجر : أى دفع

ومنع ، والعرب تقول عند الأمر تنكره : حجراً له ، (بالضم) : أى دفعا

(٣) هذا كناية عن العجز ، يقال للرجل يستضعف : استنك أضيق من أن تفعل

كذا ، ويقال للجماعة أتم أضيق أستاذها من أن تفعلوا كذا .

رضى الله عنه: وأنت يا رسول الله! فقال: يا ابن عوف، إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى - أي أتبع الدمعة الأولى بأخرى - وقال صلوات الله عليه: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى الله، وإننا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون... قوله صلوات الله عليه: ولا نقول إلا ما يرضى الله وفي رواية: ولا نقول ما يسخط الرب: أي من النياحة والصراخ وما إلى ذلك مما يوجب سُخْطَ الله عز وجل، وقيل لأعرابي: اصبر فالصبر أجر، فقال: أعلى الله أتجلد، والله: للجزع أحب إليه، لأن الجزع استكانة والصبر قسوة... وقيل لفيلسوف: أخرج الحزن من قلبك فقال: لم يدخله يا ذني فأخرجه يا ذني... وأقرط امرأة في الجزع على آبنها، فموتت في ذلك، فقالت: إذا وقع حكم الضروريات لم يقع عليها حكم المكتسبات، فأما جزعي فليس في الطاقة صرفه، ولا في القدرة منعه، ولي عذراً للضرورة، فإن الله تعالى يقول: فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه...

في البكاء تخفيف من الحزن

قال ابن عباس رضي الله عنه: كنت إذا أصابني مصيبة وأنا شاب لا أبكي، وكان يؤذيني ذلك، حتى سمعت أعرابياً يبشُد: لعلَّ اندارَ الدمعِ يُعقبُ راحةً من الوجدِ أو يشفي شجيَّ البلايل فسألته لئن الشعر؟ فقال: لذي الرمة، فكنت إذا أصبت بكيت، فاسترحت....

ضعف بذية الإنسان

سئل جالينوس عن الانسان فقال: سراج ضعيف، وكيف يدوم ضوءه

بين أربع رياح ا « يعنى بالسراج : رُوْحَه ، وبالرياح الأربع : طبائعه ^(١) ، وقال الشاعر كلبيد :

وما المرء إلا كالشهابِ وصَوْتِهِ يحورُ رَمَاداً بعد إذ هو ساطِعُ
كل شيءٍ تغَيَّرَ من حالٍ إلى حالٍ فقد حارَ يحور حورا ، وقال أفلاطون :
إذا كانت الطينة فاسدةً والبنية ضعيفةً ، والطبائع مُتَنَافِيةً ، والعمرُ يسيراً ،
والمَنيَّةُ صادقةً ، فالثِقَّةُ باطلةٌ ...
استنكافهم من أن يموت المرء حتف أنفه

قال خالد بن الوليد : لقد لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدى
موضعُ شبرٍ إلا وفيه طائنةٌ أو ضربةٌ أو رميةٌ ثم ها أنا ذا أموتُ على فراشى
حَتَفَ أني ، فلا نامت أعينُ الجبناء . وقال الشنفرى :

(١) قال وهب بن منبه : قرأت في التوراة : أن الله عز وجل حين خلق آدم ركب جسده من أربعة أشياء ، ثم جعلها وراثته في ولده ، تنمى في أجسادهم وينمون عليها إلى يوم القيامة : رطب ، ويابس ، وسخن ، وبارد ، قال : وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلقه من تراب وماء ، وجعل فيه نفساً وروحاً ، فيبوسة كل جسد من قبل التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النفس ، وبرودته من قبل الروح ، ثم خلق للجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع أخرى ملاك الجسد لا يقوم الجسد إلا بهن ، ولا تقوم واحدة منهن إلا بالآخرى : المرة السوداء ، والمرة الصفراء ، والدم الرطب الحار ، والبلغم البارد ، ثم أسكن بعض هذا الخلق في بعض ، فجعل مسكن اليبوسة في المرة السوداء ، ومسكن الرطوبة في الدم ، ومسكن البرودة في البلغم ، ومسكن الحرارة في المرة الصفراء ، فأما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع وكانت كل واحدة فيه وقفاً لا تزيد ولا تنقص ، كملت صحته واعتدلت بيته . فإن زادت واحدة منهن غلبت وقهرت من ومالت بهن ، دخل على أخواتها السقم من ناحيتها بقدر ما زادت وإن كانت ناقصة عنهن . ملن بها وعلونها ودخلن عليها السقم من نواحيهن : لفتها عنهن حتى تضعف عن طاقتهن وتعجز عن مقاومتهم .

ولا تَقْبِرُونِي إِنْ قَبِرِي مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أُبَشِّرِي أُمَّ عَامِرٍ^(١)
وقال السموأل أو غيره :

وما مات منا سيد حَتَفَ أنفه ولا طُلَّ مِنَّا - حيث كان - قَتِيل
تسيل على حد السيوف نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل
«طُلَّ»: أهدردمه، وقيل: أن لا يُثَارَ به وتقبل؛ ديته وقال أبو تمام:
لولم يمت تحت أسياف العدا كراماً لمات - إذ لم يمت - من شدة الحزن
وقال آخر:

إِنَّ مَوْتَ الْفِرَاشِ ذُلٌّ وَعَارٌ وَهُوَ تَحْتَ السَّيْفِ فَضْلٌ شَرِيفٌ
وقال:

وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى، في «باب الشجاعة»

تم الجزء الأول

من الذخائر والعبقریات

(٢) أم عامر وأم عمرو: كنية الضبع، قال الراجز:

يَا أُمَّ عَمْرٍو أُبَشِّرِي بِالْبُشْرَى مَوْتُ ذَرِيعٌ وَجَرَادٌ عَظْلَى
وهم يزعمون أن الضبع من أحق الدواب: لأنهم إذا أرادوا صيدها يحجى الرجل
إلى وجارها فيسد فيه بعد ما تدخله لثلا ترى الضوء فتحمل الضبع عليه فيقول لها:
أبشري يا أم عامر بجراد عظلي وكر رجال قتلي. فتدل له حتى يلقهها ثم يجرها
ويخرجها جراد عظلي: ركب بعضها بعضا كثرة؛ وأصل العظام: الملازمة في
السفاد من الكلاب والسباع والجراد، وقولهم وكر رجال قتلي، فإنهم يزعمون أن
الضبع إذا وجدت قتيلًا قد انتفخ غرموله ألقته على قفاه ثم ركبته قال عباس بن مرداس:
ولومات منهم من جرحنا لأصبحت ضباع بأعلى الرقنين عرائسا

فهرس

الجزء الأول من الذخائر والعقريات

المقدمة

الكتاب الأول

في الفضائل وصالح الأخلاق والمثل العليا

الباب الأول في البر والتقوى

البر وألوانه

معنى البر - عبقرياتهم في البر مطلقا - من صفحة ٢ - ١٤

بر الوالدين وصلة الرحم وعبقرياتهم في الآباء والأبناء

والأقارب - من بابات شتى

بر الوالدين ١٤ - ١٨ - من أخبا البررة ١٨ - العقوق وأحوال

العققة ١٨ - من أقوالهم في الأولاد المتخلفين ٢٥ - حق الولد على الوالد ٢٥ -

احتجاج بعض العققة لعقوقهم ٢٦ - ذم الولد وقلة جدواه ٢٩ - الإشفاق

على الأولاد ٣٠ - صلة الرحم ٣٦ - معاملة الخلفاء الراشدين لذوى قرباهم

في التولية ٣٧ - حث الأقارب على التعاون ٣٨ - العطف على القريب

والحياله ٤٢ - الشكوى من الأقارب ٤٣ - مظاهره الاجنبى على القريب ٤٦ -

علاج العدا. الذى بين الأقارب ٤٧ - كلامهم فى الإخوة ٤٧ و ٤٨ - قطيعة

الإخوة ٤٩ - الناس تجاه البنات ٤٩ - ٥٢ - الحال والخثولة ٥٢ -

مدعو القرابة البعيدة ٥٤ - تفاخرهم بالحسب وكرم المحتد ٥٥ - من يشبه أباه

فى علا. ابتناه ٥٦ - لا اعتداد بمن شرف أصله إذالم يشرف بنفسه ٥٧ - اعتذار

المتخلفين الأندان عن تخلفهم عن آبائهم الأشراف ٥٨ - ذم من قصر عن

آبائه ٥٨ - من لا يعتد بأبيه ٥٩ - الابن يجارى أباه ٥٩ - الإسلام يعد

الشرف والحسب بالتقى ٦٠ - الدعوة - أى ادعاء الولد الدعى غير أبيه ٦٠ -

الولد ينسل من الأقارب فيخرج ضاويا ضعيفاً ٦٢ - الرضاة ٦٣

الإحسان

وعبقرياتهم في الجود واصطناع المعروف وقرى الأضياف

وذم البخل والسؤال

- تحفي الاسلام بالإحسان ٦٤ - الناس مجبولون على البخل ٦٥ - مدح الجود
 وذم البخل ٦٨ - طرفة لجندی مع معن بن زائدة ٧٦ - حثهم على الجود حتى
 في حالة العسر ٧٨ - واجبات ذوى الجاه ٨١ - عبقرية أحمد بن أبي دواد في
 اصطناع المعروف ٨٥ - رسالة للجاحظ ينضح فيها عن الجود ٩٥ - كلمة علوية
 لسيدنا رسول الله في الحث على الإحسان ١٠٦ - هيات أن أبيت مبطاناً: لسيدنا
 على ١٠٩ - كان الخلفاء الراشدون مثلاً علياً في الرغبة عن شهوات الحياة
 الدنيا ١١٠ - عظمة الفاروق في زهده وتقواه ١١٢ - عبقرياتهم في الجود من
 بابات شتى ١١٣ - قرى الأضياف ١١٨ - وصية بخيل لابنه ١٢٤ - بخيل
 يبيع القرى ١٢٨ - عبقرياتهم في قرى الأضياف ١٢٩ - محادثة الضيف
 والحديث على الطعام ١٣٢

السؤال وعبقرياتهم فيه من جميع نواحيه

- ذم السؤال ١٣٥ - عبقرياتهم في آداب السؤال واستدجاج الحوائج ١٣٩ - المسئول
 تجاه السائل ١٤٥ - طلب الكثير والرضا بالقليل ١٤٨ - من يسأل حاجة
 يزعمها صغيرة ١٤٨ - الحث على الصبر والأناة في طلب الحاجات ١٤٨ -
 العطية لا تجدى في غير وقتها ١٤٩ - التأسف على الحرمان ١٥٠ - تعريضهم بمن
 خبيهم ١٥٠ - الهدايا والرشي مدرجة للنجاح ١٥٠ - قطع العادة ١٥١ -
 شكوى العافين من تفضيل بعضهم على بعض ١٥٢ - بلاغة المكدين ١٥٢ -

حسن الخلق

- حسن الخلق ١٥٤ - نهيهم عن سوء الخلق ١٥٧ - صعوبة تفيير الطباع ١٥٨ -
 مداراة الناس ١٥٩

التقوى

- التقوى ١٦١ - معنى التقوى ١٦٢ - الحكمة ١٦٥ - عبقرياتهم
 في التقوى ١٧٠ - كريمة في التوكل ١٧١ - التقوى مع الجهل ١٧٧ -
 التماوت والإفراط في الخشوع ١٧٧ - قلة اليقين في الناس ١٧٨ - إصلاح
 الضمير ١٨٠ - احتمال المكاره في العاجل رجاء المسار في الآجل ١٨١ -
 مراعاة الدين والدنيا معاً ١٨٢ - الجمع بين الرجاء والخوف ١٨٣ - العبادة
 لاطلباً للثواب ولا خوفاً من العقاب ١٨٤ - الرياء ١٨٦ - التوبة ١٨٨ -
 الاستغفار ١٩٢ - عبقریات شتى في الخوف والتقوى ١٩٣

الباب الثاني

في الشكر والحمد والثناء

- معنى الشكر ١٩٨ - حثهم على الشكر ٢٠١ - العجز عن الشكر ٢٠٤ -
 من لا تخفى أباديه ٢٠٦ - الشكر بقدر الاستحقاق ٢٠٦ - من لم يردعه خوفه
 عن الشكر ٢٠٧ - شكر من هم بإحسان ولم يفعل ٢٠٨ - نقل الشكر
 والحمد ٢٠٨ - تفضيلهم الثناء على العطاء ٢٠٨ - تسهيل القول على الشاكرين
 بتوافر ما يشكر عليه ٢١٠ - حب المنعم أن يرى أثر إنعامه ٢١١ - لا يمدحون
 إلا إذا أعطوا ٢١٣ - حثهم على الشكر ولو لمن ليس على دينهم ٢١٥ -
 استحيائهم من المدح ٢١٥ - من يمدح نفسه ٢١٦ - نهيم عن المدح قبل
 الاختبار ٢١٧ - عبقریات شتى في الشكر ٢١٧

الباب الثالث

في الصبر وعبقرياتهم فيه وفي الدنيا وفي المرض وفي هازم اللذات

- ماذا يراد بالصبر في هذا الباب ٢٢١ - عبقرياتهم في الصبر ٢٢٢ - عود
 إلى أسباب الحزن ٢٢٩ - حثهم على الاستعداد للصائب كي نخف وطأها ٢٣٠ -
 الغم يورث السقم والحرم ٢٣١ - الحزن يبلى بتقادم العهد ٢٣٢ - التأسي بمن

مصابه كصاب المصاب وعكس ذلك ٢٣٤ - عروة بن الزبير مثل أعلى للصبر ٢٣٥
 مطرح الموم ٢٣٨ - عبقرياتهم في الدنيا وأنها دار محن ٢٤٥ - أسماء
 الدنيا ٢٤٦ - قلة لبث الإنسان في الدنيا ٢٤٨ - قلة متاع الدنيا ٢٤٨ - الماضي
 والحاضر والمستقبل ٢٤٩ - تحذيرهم من تضييع الأيام ٢٤٩ - الأيام تهدم
 الحياة ٢٥٠ - البقاء في الدنيا سبب الفناء ٢٥١ - فرح الدنيا مشوب بالترح ٢٥٢
 الدنيا هموم وغوم ٢٥٢ - نقصان بعد التمام ٢٥٥ - الدنيا لا يدوم فيها فرح
 ولا ترح ٢٥٦ - الدنيا غزارة ٢٥٧ - حب الدنيا على الرغم من عيوبها ٢٥٨ -
 الدنيا تضر محبها ٢٥٨ - بنو الدنيا أغراض لضروب المحن ٢٥٩ - الأيام تضي
 في تراذلها ٢٦٥ - حدم ماضي الزمان وذتهم حاضره ٢٦٥ - إنكار ذم
 الدهر ٢٦٢ - المسرة من حيث تخشى المضرة ٢٦٤ - الفرج بعد الشدة ٢٦٦
 - من زال كربته فنى صنع الله ٢٦٦ - لا تعرف النعمة إلا عند
 فقدها ٢٦٧ - فضل العافية وسلامة الدين ٢٦٧ - عبقریات شتى في
 الدنيا ٢٦٨ - عبقریاتهم في الموت ٢٧٣ - أسماء الموت ووصفه ٢٧٣ - تعظيم أمر
 الموت ٢٧٦ - حثهم على تصور الموت ٢٧٧ - استدلال الانسان على موته
 بمن مات قبله ٢٧٨ - الاعتبار بمن مات من الكبار ٢٨٠ - من مات فقد تنهى
 في البعد ٢٨٤ - غفلة الناس عن الموت ٢٨٥ - لا ينجو من الموت أحد ٢٨٥ -
 الموت لا يجرز منه بشئ ٢٨٧ - موت المفاجأة والصحيح يموت ٢٩١ - كل
 إنسان معرض لموته أو موت أحبته ٢٩١ - جهل الانسان بوقت موته ٢٩٢
 الموت يسترى بين الأفاضل والأراذل ٢٩٢ - انقضاء ناس بعد ناس ورجوعهم
 إلى الموت ٢٩٤ - من يخاف الموت ولا يستعد له ٢٩٦ - من أمر ذويه بالبكاء
 عليه ٢٩٧ - من أظهر الندم عند الموت على ما فرط منه ٢٩٨ - من امتنع من
 التوبة عند موته ٢٩٩ - من يحبون الموت ٣٠٠ - تمنى الموت ٣٠١ - الحياة
 لا تمل ٣٠٢ - تسلى الناس عن مات ٣٠٣ - سهم المنايا بالذخائر مولع ٣٠٤
 إنكارهم الشهادة في الموت ٣٠٥ - لا عار بالموت ٣٠٧ - الموت نهاية كل
 حى ٣٠٧ - وصية الميت ٣٠٩ - إنكارهم وصية الميت بما ليس له ٣٠٩ -
 من أوصى بشروكان قاسياً حين احتضاره ٣١٢ - نهيمهم عن الإفراط في البكاء
 وإظهار الجزع على الاموات ٣١٤ - ضعف بنية الانسان ٣١٥ - استكافهم
 من أن يموت المرء حتف أنفه ٣١٥

تصحیحات واستدراكات

نرجو القارئ الكريم أن يبادر إلى تصحيح هذه الأخطاء

المطبعية التي ننبه إليها هنا

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٢٠	٤	فأها	فأها
٢٣	٣	إلا قول خالد لأبي ذؤيب « أنظر الأغاني فقد جاء فيها	«ج ٦ ص ٢٧٥» أن البيت لأبي ذؤيب وهناك بقية
		الآيات وهي قصيدة جميلة	
١	٣٣	مع الوضم	على الوضم
٥	٤٢	فزع	فزع
٤٩٣	٤٣	وقوله ولم تك منهم الخ	وقوله لست منهم يروى
		* إذا كنت في قوم عدى ولم تك منهم *	
٥	٤٣	فأما قوم عدى	فأما قوم عدى بمعنى أعداء
٦	٦٠	في الغبار	من الغبار
١١	٧٠	وقال آخر	وقال بشار بن برد
١٢	٧٠	وتهلم	وتفرق
٢	٧١	يئس	يئس
١٢	٧٤	مع غير	مع غير
١٤	٧٨	بعض الشعراء	عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
١٥	٧٨	وأنفق إذا أنفقت	وأنفق إذا أسرت غير مُقتر

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٧٨	١٦	سقط في هذه الصفحة شرح لقول الشاعر سطر ١٦ :	
		على ماخيلت ، وهذا هو الشرح : على ماخيلت : أى	
		شَبَّهت ولونت ، يريد : على أى حال ،	
٦	٨٤	والجودَ	والجورد
١٥	١١٩	تهدده	تُهدد
			« أى تصوت كما يهدد البعير ويهدر ،
٢١	١٤٧	عذرتها	عذرت
٧	١٥٩	صقيل	صَيْقِلُ
٥	١٩٥	بِخْوَيْصَةٍ	بِخْوَيْصَةٍ « ويوضع بعد كلمة تصغير
			خاصة في الشرح هذه الزيادة :
			قال الزمخشري : الخويصة
			تصغير خاعة بسكون الياء
			لأن ياء التصغير لا تكون إلا
			ساكنة وجوز التقاء الساكنين
			فيها أن الأول حرف لين
			والثاني مدغم ،
١٥	١٩٦	وكل شيء	وكل شيء
١٩	٢٠٢	مأوليتها	مأوليتها
٢٠	٢٠٠	قول البحترى قول إبراهيم بن العباس الثمولى	
١٩	٢٠٤	مُنكشِفًا	مُنكشِفًا

خطأ	صواب	صفحة	سطر
وفي هادم اللذات	وفي هادم اللذات وفي المرض	٢٢١	٢
ونضوا	ونضوا ونضوا	٢٢٢	٢٠
مُسْتَهْدَفٌ	مُسْتَهْدَفٌ	٢٢٩	١٣
والضيف مُرْتَحِلٌ	والضيف مُرْتَحِلٌ	٢٥٥	١٨
ثم ترده	ثم ترده	٢٥٥	١٩
أقول لعله	قوله نراع... أبيت لعله	٢٧٠	٦
لا يلبثُ القرناء	لا يلبثُ القرناء	٢٨٣	٢
ويروى تخونه	ويروى: تخوفه	٢٨٨	١٣
خباهك	خباهك	٣٠١	١٥



عبد الرحمن البرنوقى

الذخائر والعقبات

مُعْجَمٌ مُتَقَاتِفٌ مُجَامِعٌ

الجزء الثانى

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَضَى سُبْحَانَهُ فَتَسْمَعُ الْعَوْدَةَ وَالتَّوْبَةَ

فَهُوَ الْمُسَدَّدُ إِلَى سِوَاهِ الطَّرِيقِ

«وبعد» فَإِنَّا نَفْتَحُ هَذَا الْجُزْءَ الثَّانِيَّ مِنْ «الذَّخَائِرِ وَالْعَبَقِيَّاتِ» بِصَدِّ
مِنْ عَبَقِيَّاتِهِمْ فِي أَكْثَرِ الْمَعَانِي الَّتِي أوردنا مَا أوردنا مِنْ عَبَقِيَّاتِهِمْ فِيهَا ، فِي
أَبْوَابِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ ، وَكَانَ الْمُتَوَقَّعُ أَنْ نَفْتَحَ هَذَا الْجُزْءَ بِسَائِرِ عَبَقِيَّاتِهِمْ
فِي التَّعَاذِي ، وَفِي الْمَرَضِ ، يَبْدَأُ أَنَا قَدْ اسْتَحْسَنَّا أَنْ نُصَدِّرَ هَذَا الْجُزْءَ الثَّانِيَّ
بِطَائِفَةٍ مِنْ عَبَقِيَّاتِهِمْ فِي مَعَانِي شَيْءٍ تَنْدَرِجُ فِي الْأَبْوَابِ السَّابِقَةِ ، وَذَلِكَ
لِأَمْرَيْنِ : أَمَّا أَوْلَاهُمَا فَلَأَنَّ فِي هَذَا الصَّنِيعِ مُبَادَرَةً بِاسْتِدْرَاكِ مَا قَدْ كَانَ يَصْحُحُ
إِبْرَادُهُ هُنَاكَ ، وَأَمَّا الْآخَرُ : فَذَلِكَ لِأَنَّا لَمْ نَسْتَحْسِنْ أَنْ نَفْجَأَ الْمُتَصَفِّحَ لِهَذَا
الْجُزْءِ بِمَا عَسَى أَنْ يُفْرِغَهُ وَيَنْفِرَ مِنْهُ ، وَتَنْقَبِضَ نَفْسُهُ عَنْهُ ، عَلَى أَنْ هَذِهِ
الْعَبَقِيَّاتِ وَإِنْ جَاءَتْ فِي الْبَيْنِ وَتَصَلَّتْ بَيْنَ عَبَقِيَّاتِ الْبَابِ الثَّالِثِ غَيْرِ
أَنَّهَا جَاءَتْ كَالدُّرَّةِ الْفَرِيدَةِ تَفْصِلُ بَيْنَ ذَهَبِ الْقِلَادَةِ ؛ إِلَى مَا فِي ذَلِكَ مِنْ
اسْتِرَاحَةٍ لِلْقَارِئِ وَتَنْقُلُ بِهِ مِنْ مَعَانٍ قَدْ تَكَثَّرْنَا مِنْهَا إِلَى مَعَانٍ أُخْرَى قَدْ
يَسْتَرِيحُ إِلَى جِدَّتِهَا ؛ وَبَعْدَ أَنْ نَفْرُغَ مِنْ هَذِهِ الْعَبَقِيَّاتِ نَعْطِفُ عَلَى عَبَقِيَّاتِهِمْ
فِي التَّعَاذِي ، وَفِي الْمَرَضِ ، وَقَانَا اللَّهُ جَمِيعًا بِحُجَّتِهِ ، وَخَفَّفَ - إِذَا هُوَ قُدِّرَ
عَلَيْنَا - وَطَأَّتَهُ .

غـبـقـريـات شـتـى

تندرج في الأبواب السابقة

سمو أخلاق الخلفاء الراشدين

ومما يُؤثر في باب حسن الخلق ما حدّث به العُتبيّ^(١) في إسناد ذكره قال: دعا طلحةُ بنُ عبيد الله أبا بكر وعمر وعثمانَ رَحْمَةَ الله عليهم، فأبطأ الغلامُ - الخادم - عنه بشيءٍ أراده، فقال طلحةُ: يا غلام، فقال الغلامُ: كَيْبِكَ، فقال طلحةُ: لا لَيْبِكَ؛ فقال أبو بكر: ما يسُرني أني قُلْتُها وأن لي الدنيا وما فيها، وقال عمر: ما يسُرني أني قُلْتُها وأن لي نِصْفَ الدنيا، وقال عثمان: ما يسُرني أني قُلْتُها وأن لي حُمْرَ النَّعَمِ^(٢)؛ قال العُتبيّ: وصمّتَ عليها أبو محمد - هو طلحة - فلما خَرَجوا من عنْدِهِ باع ضَيْعَةً بِخَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَتَصَدَّقَ بِثَمَنِها ... فهل رأيتَ أو سَمِعتَ بمثل هذا الأدب العُلويّ الرَبانيّ! وأنت إذا نظرت إلى هذا الحديث من أيّ أقطاره رأيتَ أدباً باسِقاً وخُلُقاً سامياً! فهذا الصّدِّيقُ رضِيَ اللهُ عنه يُنكر في كِياسَة وأدب قَوْلَهُ

(١) هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله ... بن عتبة بن أبي سفيان: شاعر أديب راوية للأخبار والأدب ... تتابعت عليه مصائب في أولاده الذكور الستة في الطاعون الذي كان بالبصرة سنة ٢٢٩ هـ فرائم بمرات كثيرة منها قوله:

كَلَّ لسانِي عن وصف ما أجد وذقت نُكْلاً ما ذاقه أحد

ما عالج الحزنَ والحرارة في الاحشاء من لم يميت له ولد

وله من الأبيات السائرة:

قلت عهدتك مجنوناً فقلت لها إن الشباب جنون بُرؤه الكبر

(٢) النعم: الإبل خاصة والعرب تقول: خير الإبل حرها وصمها؛ لأن الحرأ

أصبر على المواجر، والصباء أحسن حين ينظر إليها

أبي محمد لغلامه : لا ليك ، ثم يحيى بعده عمر فينكر هو الآخر إنكاراً لا يحظ فيه التأدب مع الخليفة أبي بكر ، وكذلك فعل عثمان مع عمر ، وأخيراً يكفر أبو محمد عن هذه البادرة بخمسة عشر ألف درهم ... لا جرم لقد أدبهم المصطفى صلوات الله عليه ، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه .

طلحة بن عبيد الله

وهذا طلحة بن عبيد الله هو الصحابي الجليل أحد العشرة المبشرين بالجنة^(١) وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلوا على يد أبي بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى^(٢) وأحد أغنياء الصحابة ، وأحد أجواد قريش ، بل كان نبي الجود ، إن كان للجود نبي ... وقد كان يقال له : طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخير ، يقال إنه فرق في يوم سبعمائة ألف ، باع أرضاً له من عثمان بن عفان بسبعمائة فحملها إليه ، فبات ورؤسله تختلف بها في سكك المدينة حتى أسحر^(٣) وما عنده منها درهم واحد ويروى أنه وصل أعرابياً من أقاربه بثمانمائة ألف درهم ؛ وكان لا يدع أحداً من بني تميم عابلاً إلا كفاه ، ووثقه عياله وزوج أيامهم^(٤) وأخدم عائلهم وقضى دين غارهم ، وكان يرسل إلى السيدة عائشة إذا جاءت غلته كل

(١) وقال له سيدنا رسول الله يوم أحد : إنه قد أوجب : أي أتى بما أوجب

له الجنة .

(٢) أي الذين عهد إليهم الفاروق رضى الله عنه أن يتشاوروا ويختاروا من بينهم

خليفة بعده .

(٣) أسحر : صار في السحر ، والسحر : ما قبل انصداع الفجر

(٤) الأياح جمع أيم والأيم من النساء : التي لازوج لها بكر أو ثيباً

ومن الرجال : الذي لا امرأة له

سنة بعشرة آلاف ... إلى آخر أنباء جوده وكرمه ؛ ولما انقضى يوم
الجمال^(١) خرج علي بن أبي طالب في ليلة ذلك اليوم ومعه قَنَسِيرٌ^(٢) ، وفي
يده مَشْعَلَةٌ من نار يتَصَفَّحُ القتلى ، حتى وقف على طاححة فقال : أَعَزُّهُ عَلِيٌّ
أَبَا مُحَمَّدٍ أَنْ أَرَاكَ مُعَفَّرًا^(٣) تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية : شَفِيَتْ

نَفْسِي وَقَتَلْتُ مَعْشِرِي ۖ إِلَى اللَّهِ أَشْكُو عُجْرِي وَبُجْرِي^(٤) ثم تمثل^(٥)

قَتِي كَانَ يُدْنِيهِ الْغَنَى مِنْ صَدِيقِهِ إِذَا مَا هُوَ اسْتَعْنَى وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ

قَتِي لَا يَعُدُّ الْمَالَ رَبًّا وَلَا تُرَى بِهِ جَفْوَةٌ إِنْ نَالَ مَالًا وَلَا كِبَرُ

قَتِي كَانَ يُهَيِّطِي السِّيفَ فِي الرَّوْعِ حَقَّهُ

إِذَا تَوَبَّ الدَّاعِي وَتَشَقَّى بِهِ الْجُزُرُ^(٦)

وَهَوَّنَ وَجْدِي أَنِّي سَوْفَ أُغْتَدِي عَلَى إِثْرِهِ يَوْمًا وَإِنْ نَفَسَ الْعُمُرُ

وقوله قتي كان يدنيه الغنى من صديقه ... البيت : هو معنى جميل مطروق

وفيه يقول إبراهيم بن العباس الصولي في محمد بن عبد الملك الزيات :

(١) هو تلك الواقعة التي نشبت بين علي وبين عائشة ومن معها ، وكانت عائشة

تمتطي جملا فسمى ذلك اليوم يوم الجمال

(٢) هو خادم علي

(٣) معفراً : أي ملصق الوجه بالتراب ويقال للتراب : العفر . والعفر

(٤) أي ما ظهر من أمرى وما بطن ، وأصل العجر : العروق المنعقدة في الظهر

والبجر : العروق المنعقدة في البطن ، وقال الاصمعي : هو قول سائر في أمثال العرب

يقال : لقي فلان فلانا فأبته عجره وبجره

(٥) هذه الأبيات لسلسلة بن يزيد بن مشجعة الجهمي أحد الصحابة يرثي أخاه لأمه

(٦) توب الداعي ، فالثوب : التلويح بالثوب مع صوت فيه استغاثة وقال عمرو

ابن العلاء : الثوب : الترجيع من ناب يثوب إذا رجع يريد : إذا رجع الداعي دعاه

بعد دعاه ، يصفه بإجابة الصريخ وقوله : وتشقى به الجزر ، يصفه بكرم الضيافة

أَسَدٌ ضَارٍ إِذَا مَا نَعْتَهُ وَأَبٌ بَرٌّ إِذَا مَا قَدَّرَا
يَعْرِفُ الْأَبْعَدَ إِنْ أَتْرَى وَلَا
يَعْرِفُ الْأَدْنَى إِذَا مَا افْتَقَرَا

ويقول الأديب أبو بكر الخوارزمي :

رَأَيْتُكَ إِنْ أَيْسَّرْتَ خَيْمَتَ عِنْدَنَا لِنَامًا وَإِنْ أَعْسَرْتَ زُرْتَ لِمَامَا
فَمَا أَنْتَ إِلَّا الْبَدْرُ إِنْ قَلَّ ضَوْؤُهُ أَغْبَى وَإِنْ زَادَ الضِّيَاءُ أَقَامَا
وقد تقدمت أبيات لعبد الله بن الزبير الأسدی فی هذا المعنى؛ وما أبرع
أبياتا لابن المعتز يقول فيها :

إِذَا مَا أَرَادَ الْحَاسِدُونَ أَنْ هِدَامَهُ بِنَاهُ إِلَهُ غَالِبِ الْعِزِّ قَاهِرُهُ
وَمَاذَا يَرِيدُ الْحَاسِدُونَ مِنْ أَمْرِي تَزِينُهُمْ أَخْلَاقُهُ وَمَا بَرُهُ
إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى اهْتَدَى لَافْتِقَارِهِمْ

ولاتهتدى يوماً إليهم مفاقرُهُ^(١)

وكانوا كزرايم كوكباً ببصافه فَرَدَّ عَلَيْهِمْ وَبَلَّهْ وَمَوَاطِرُهُ^(٢)

حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة

والحياء والنبل

تحدَّثَ رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ قَالَ : نَزَلْتُ بِرَجُلٍ مِنْ طَيْمٍ ، فَتَحَرَّ لِي نَافَةٌ

(١) المفاقر : وجوه الفقر ، أو جمع فقر على غير قياس كاللمايح والمشابه

(٢) هذا البيت كما قال بعض العرب :

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئًا وَمَنْ جَالِ الطَّوِيِّ رَمَانِي
وَالجَالِ وَالجَوَالِ : الناحية ، والطوى : البئر ، يريد : رماني بما عاد عليه ،

فَأَكَلْتُ مِنْهَا ، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ نَحَرَ أُخْرَى فَقُلْتُ : إِنَّ عِنْدَكَ مِنَ اللَّحْمِ مَا يُغْنِي عَنِّي وَيَكْفِي ، فَقَالَ : إِنْ وَاللَّهِ لَا أُطْعِمُ ضَيْفِي إِلَّا لِحْمًا عَبِيطًا ، قَالَ : وَنَعَلَ ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ آكُلُ شَيْئًا وَيَأْكُلُ الطَّائِفُ أَكْلَ جَمَاعَةٍ ، ثُمَّ نُوتِي بِاللَّبَنِ فَأَشْرَبُ شَيْئًا وَيَشْرَبُ عَامَّةَ الْوَطْبِ ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ ارْتَقَيْتُ غَفْلَتَهُ ، فَاضْطَجَعْتُ ، فَلَمَّا امْتَسَلًا نَوْمًا اسْتَقْتُ قَطِيعًا مِنْ إِبْرِيلِهِ ، فَأَقْبَلْتُهُ الْفَجَّ ، فَانْتَبَهَ ، وَاخْتَصَرَ عَلَيَّ الطَّرِيقَ حَتَّى وَقَفَ لِي فِي مَضِيبِي مِنْهُ ، فَأَلْقَمَ وَتَرَهُ فَوْقَ سَهْمِهِ ، ثُمَّ نَادَى بِي : لِتَطْبُ نَفْسُكَ عَنْهَا ، قُلْتُ : أَرِنِي آيَةً ، فَقَالَ : انْظُرْ إِلَى ذَلِكَ الصَّبِّ ، فَإِنِّي وَاضِعُ سَهْمِي فِي مَغْرَزِ ذَنْبِهِ ، فَرَمَاهُ ، فَأَنْدَرُ ذَنْبَهُ ، فَقُلْتُ : زِدْنِي ، فَقَالَ : انْظُرْ إِلَى أَعْلَى فَقَارِهِ ، فَرَمَاهُ ، فَأَنْبَتُ سَهْمَهُ فِي الْمَوْضِعِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : الثَّلَاثَةُ وَاللَّهُ فِي كَيْدِكَ ، فَقُلْتُ : شَأْنُكَ يَا بَيْتُكَ ، فَقَالَ : كَلَّا ، حَتَّى تَسْوِقَهَا إِلَى حَيْثُ كَانَتْ ، قَالَ : فَلَمَّا انْتَهَيْتُ بِهَا قَالَ : فَكَّرْتُ فِيكَ فَلَمْ أَجِدْ لِي عِنْدَكَ رِزَّةً تُطَالِبُنِي بِهَا ، وَمَا أَحْسِبُ الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى أَخْذِي لِي إِلَّا الْحَاجَةَ ، قَالَ : قُلْتُ : هُوَ وَاللَّهُ ذَاكَ ، قَالَ : فَاعْمِدْ إِلَى عَشْرِينَ مِنْ خِيَارِهَا فَخُذْهَا ، فَقُلْتُ : إِذْنًا وَاللَّهُ لَا أَقْسَلُ حَتَّى تَسْمَعَ مَدْحَكَ ، وَاللَّهُ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَكْرَمَ ضِيَاةً وَلَا أَهْدَى لِسَابِيلٍ وَلَا أَرْمَى كَفَا وَلَا أَوْسَعَ صَدْرًا وَلَا أَرْغَبُ جَوْفًا وَلَا أَكْرَمَ عَفْوًا ، مِنْكَ ، قَالَ : فَاسْتَحْيَا فَصَرَفَ وَجْهَهُ عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : أَنْصِرْفِ بِالْقَطِيعِ مُبَارَكًا لَكَ فِيهِ ...

• قوله : عَبِيطًا : يُقَالُ : عَبَطَ فُلَانٌ نَاقَتَهُ : إِذَا نَحَرَهَا مِنْ غَيْرِ دَاءٍ وَلَا كَسِيرٍ وَهِيَ شَابَةٌ سَمِيئَةٌ ، وَالْعَبِيطُ أَيْضًا : اللَّحْمُ الطَّرِيفِيُّ غَيْرِ النَّضِيجِ ، وَالْوَطْبُ : سِقَاءُ اللَّبَنِ خَاصَّةٌ مِنَ الْجِلْدِ ، وَالْفَجَّ : الطَّرِيقَ الْوَاسِعَ بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، وَالْجَمْعُ : جَفَاجٌ ؛ وَاخْتَصَرَ الطَّرِيقَ : سَلَكَ أَقْرَبَهُ ، وَفَوْقَ السَّهْمِ : مَشَقُّ رَأْسِهِ حَيْثُ

يقع الوتر ، وقوله : فَأَنْدَرَ ذَنْبَهُ : أى أَسْقَطَهُ ، وقد نَدَرَ الشَّيْءُ يَنْدُرُ نَدُورًا : سقط أو سقط من جوفِ شيءٍ أو من بين أشياء فظهر ، ومنه نوادرُ الكلام وهي ما شذت وخرجت عن جمهوره فظهرت . وقوله : ولا أرغب جوفًا : من الرُّغْب وهو : سَعَةُ البَطْنِ وكثرة الأكل ،

حلم وأدب وسمو خلق

رَوَى المُبَرِّدُ : أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ قَالَ : دَخَلْتُ الْمَدِينَةَ ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا رَاكِبًا عَلَى بَعْلَةٍ لَمْ أَرَ أَحْسَنَ وَجْهًا وَلَا سَمْتًا وَلَا ثَوْبًا وَلَا دَابَّةً ، مِنْهُ إِذَا قَالَ قَلْبِي إِلَيْهِ ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ لِي : هَذَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَاْمْتَلَأْ قَلْبِي لَهُ بُغْضًا ^(١) وَحَسَدًا عَالِيًا أَنْ يَكُونَ لَهُ ابْنٌ مِثْلُهُ إِذْ فَصِرْتُ إِلَيْهِ ^(٢) ، فَقُلْتُ لَهُ : أَنْتَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟ فَقَالَ : أَنَا ابْنُ ابْنِهِ ، فَقُلْتُ : فَبِكِ وَيَأْبِيكَ أُسْبُهُمَا ، فَلَمَّا انْقَضَى كَلَامِي قَالَ لِي : أَحْسَبُكَ غَرِيبًا أَقَلْتُ : أَجَلُ قَالَ : فَبِلْ بِنَا فَإِنْ احْتَجَجْتَ إِلَى مَنْزِلِ أَنْزَلْنَاكَ ، أَوْ إِلَى مَالِ آسِنَاكَ ، أَوْ إِلَى حَاجَةِ عَاوَنَاكَ ، قَالَ : فَانصَرَفْتُ عَنْهُ وَوَاللَّهِ مَا عَلَى الْأَرْضِ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ ... وَقَالَ رَجُلٌ لِرَجُلٍ مِنْ قَرِيشٍ : إِنِّي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ مِنْ قَرِيشٍ يَشْتَمُونَكَ شَتْمًا رَحِيتُكَ مِنْهُ إِذَا قَالَ الْقَرَشِيُّ : أَفَسَمِعْتَنِي أَقُولُ إِلَّا خَيْرًا ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : لِإِبَاهِمُ فَارْحَمَ ... وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : إِنْ الرَّجُلَ كَيْتَظِلُّنِي فَارْحَمْهُ إِذَا قَالَ رَجُلٌ لِلشَّعْبِيِّ كَلَامًا أَقْدَعَ لَهُ فِيهِ ، فَقَالَ لَهُ الشَّعْبِيُّ : إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَعَفِرَ اللَّهُ لِي ، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَعَفِرَ اللَّهُ لَكَ ... وَيُرْوَى أَنَّهُ أَتَى مَسْجِدًا ، فَصَادَفَ فِيهِ قَوْمًا يَغْتَابُونَ ، فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي الْبَابِ ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ كَثِيرِ عَزَّةَ :

(١) لأن الرجل من أشياخ معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه (٢) توجهت إليه

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَائٍ مُخَامِرٍ لِعِزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
وقال محمود الوراق :

إِنِّي شَكَرْتُ لِظَالِمِي ظُلْمِي وَغَفَرْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَى عِلْمِي
وَرَأَيْتُهُ أَسَدَى إِلَى يَدَا لَمَّا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حِلْمِي
رَجَعْتُ إِسَاءَتُهُ عَلَيْهِ وَإِحْسَانِي فِعَادَ مُضَاعَفَ الْجُرْمِ
وَعَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ وَمَحْمَدَةَ وَعَدَا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالْإِسْمِ
فَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ وَأَنَا الْمِسِيُّ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ
مَازَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحَمُهُ حَتَّى بَكَيتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

خير ما يرزقه العبد

قال بعض الملوك لبعض وزرائه - وأراد محنته - : ما خير ما يرزقه
العبد ؟ قال : عقلٌ يعيش به ، قال : فإن عديمه ؟ قال : فادبٌ يتجلى به ،
قال : فإن عديمه ؟ قال : فمالٌ يسُتره ، قال : فإن عديمه ؟ قال : فصاعقةٌ تُريحُ
منه العبادَ والبلادَ ...

لاتزال العرب عربا

ما حافظت على زيتها

كان الأحنف بن قيس يقول : لاتزال العربُ عرباً ما لبست العمام ،
وتقلدت السيوف ، ولم تعدد الحِلْمَ ذُلاً ، ولا التواهُبَ فيما بينها ضعةً ...
« قوله : ما لبست العمام ، يريد : ما حافظت على زيتها ، وقوله : وتقلدت
السيوف ، يريد : الامتناع من الضيم ، وقوله : ولم تعدد الحِلْمَ ذُلاً ، يقول :
ما عرفت موضع الحِلْمِ ، وذلك أن الرجل إذا أغضى للسلطان ، أو أغضى

عن الجواب وهو مأثور لم يُقَلْ: حَلَمَ ، وإنما يقال : حَلُمَ ، إذا تَرَكَ أن يقول الشيء لصاحبه مُنتصرا ولا يخاف عاقبةً يَكْرَهُها . فهذا الحَلْمُ المحض ، فإذا لم يفعل ذلك ورأى أن تَرَكَ الحَلْمَ ذُلٌّ فهو خطأً وسَفَهَةٌ ؛ وقوله : ولم تَرَ التواهبَ بينها ضَعْفَةٌ ، نحو من هذا ، وهو : أن يَهَبَ الرجل من حَقَّةٍ مالا يُسْتَكْرَهُ عليه ... وكان يقال : أَحْيُوا المعروف بإماتته ، ومعنى ذلك : أن الرجل إذا امْتَنَّ بمعرفه كَدَّرَه ؛ وقيل : المِنَّةُ تَهْدِمُ الصنِيعَةَ ، وقد قال قيسُ بن عاصِمِ المِنْقَرِي : يا بَنِي تَمِيمَ ، اصْحَبُوا مَنْ يَذْكُرُ إِحْسَانَكُمْ إِلَيْهِ وَيَلْسَى أَيْادِيَهُ إِلَيْكُمْ ...»

توقير العالم والشريف والكبير

والترفع عن الوضع

كان زياد بن أبيه يقول : أوصيكم بثلاثة : بالعالم ، والشريف - يعني العظيم القدر - والشيخ - يريد : الذي تقدمت به السن - فوالله لأوثق بوضع سب شريفا ، أو شابٍ وَثَبَ بشيخ ، أو جاهلٍ امْتَهَنَ عالما ، إلا عاقبتُ وبالغتُ ... وقال عُمارة بن عَقِيل بن بلال بن جرير لبني أسد ابن خزيمة :

يا أيها السائل عمداً لِأُخْبِرَهُ بذاتِ نفسِي وأيدِي اللهُ فوقَ يدي
 إنْ تَسْتَقِمُّ أَسَدُ تَرَشِدُوا إنْ شَقَّيْتُمْ فلا يَلْمُ لائِمٌ إلا بَنِي أَسَدِ
 إني رأيتكم يُعَصَى كَبِيرِكُمْ وَتَكْتَعُونَ إلى ذِي الفَجْرَةِ التَّنْكِدِ^(١)

(١) تكتعون : تخضعون ، من كنع يكنع - بالفتح فهما - كنوعا : خضع ، والفجرة اسم لكل قبيح ، من فجر الرجل يندجر فجرا وفجورا : انبعث في المعاصي ، والتنكد : اللئيم ، من التكد - بالتحريك - وهو الشؤم واللؤم

فَبَاعِدِ اللَّهُ كُلَّ الْبُعْدِ دَارَكُمْ وَلَا شَفَاكُمْ مِنَ الْأَضْغَانِ وَالْحَسَدِ
 فرأى عصيانهم الكبير من أفتح العيب وأدله على ضغن بعضهم لبعض
 وحسد بعضهم بعضا ، والوضيع ينقلب إلى الشريف لأنه يرى مُقاولته غفرا ،
 والاجترأ عليه ربجا ، كما أن مقاولَةَ الشريف للثيم ذُلُّ وضعة قال الشاعر :
 إِذَا أَنْتِ قَاوَلْتِ اللَّثِيمَ فَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَيْكَ الْعَتَبُ حِينَ تُقَاوَلُهُ
 وَلَسْتَ كَمَنْ يَرْضَى بِمَا غَيْرُهُ الرِّضَا وَيَمْسَحُ رَأْسَ الذَّنْبِ وَالذَّنْبُ آكَلُهُ
 قال المبرد : وفي هذا الشعر بيتان يقدمان في باب الفتك - وفي باب الغرم
 والشجاعة والإقدام - وهما :

فَلَا تَقْرَنْ أَمْرَ الصَّرِيمَةِ بِأَمْرِي إِذَا رَامَ أَمْرًا عَوَّقْتَهُ عَوَاذِلُهُ (١)
 وَقُلْ لِلْفُؤَادِ إِنِّ نَزَابِكَ نَزْوَةٌ مِنَ الرَّوْعِ : أَفْرِخْ أَكْثَرَ الرَّوْعِ بِاطِلُهُ (٢)

قال المبرد : وقد امتنع قوم من الجواب - أي من مقاولَةِ اللثيم - تبلا
 - يريد ترفعا - وواضعهم تُنْبِي عن ذلك - أي أن مراكزم تدل على
 أن امتناعهم ترفع - وامتنع قوم عيبا بلا اعتلال - يريد دون أن يبدوا علة لهذا
 الإعراض عن اللثام - وامتنع قوم عجزوا واعتلوا بكراهة السفه ، وبعضهم
 معتل برفعة نفسه عن خصمه ، وبعضهم كان يُسبُّ الرجل الركيك من
 العشيرة ، فيعرض ويُسبب سيده قومه ، وكانت الجاهلية ربما فعلته في الذحول

(١) فلا تقرن : من قرنت الشيء بالشيء : شده إليه ، وكذلك قرنته إليه ،
 والصريمة : العزيمة

(٢) إن نزابك نزوة : فالنزوة : المرة من النزو وهو الوثوب إلى فوق ، يريد :
 إن تسلط عليه الفزع والرعب فاضطرب ، وأفرخ يريد : أفرخ روعك ، ومعناه : ليخرج
 عنك رعبك ويذهب فزعك كما تفرخ البيضة إذا انفلقت عن الفرخ فخرج منها وقوله :
 أكثر الروع باطله ، يريد : ليس الأمر على ما تحاذر

- جمع دُحُل وهو: الثَّار - قال الراجز:

إِن بَجِيلاً كَلِمَا هَجَانِي مِلْتُ عَلَى الْأَعْطَاشِ أَوْ أَبَانِي
أَوْ طَلْحَةَ الْخَيْرِ قَتَى الْفِتْيَانِ أَوْلَاكَ قَوْمٌ شَأْنُهُمْ كَشَانِي
مَا نِلْتُ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ كَفَانِي وَإِنْ سَكَتُ عَرَفُوا إِحْسَانِي
وقال أحد المحدثين :

إِنِّي إِذَا هَرَّ كَلْبٌ الْحَيَّ قَلْتُ لَهُ إِسْلَمَ وَرَبُّكَ مَخْنُوقٌ عَلَى الْجِرَرِ (١)
وفي مثل اختيار النبل لتكافأ الأعراض قول الأخطل :

شَفَى النَّفْسَ قَتَلَى مِنْ سُلَيْمٍ وَعَاسِرٍ وَلَمْ يَشْفِهَا قَتَلَى غَتَى وَلَا جَمِيرٍ
وَلَا جُشْمٍ شَرَّ الْقَبَائِلِ لِنَهَا كَبِيضِ الْقَطَا لَيْسُوا بِسُودٍ وَلَا حُمْرٍ
وَلَوْ بَنَى ذِيانَةَ بُلْتُ رِمَاحُنَا انْقَرَّتْ بِهِمْ عَيْنِي وَبَاءَ بِهِمْ وَتَرَى
وقال رجل من المحدثين وهو حمدان بن أبان اللاحقي :

أَلَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ أَنْ وَغَدَاً لَّالٍ مَعْدَلٍ يَهْجُو سَدُوسَا
هَجَا عِرْضاً لَهُمْ غَضْناً جَدِيداً وَأَهْدَفَ عِرْضَ وَالِدِهِ اللَّيْسَا (٢)
وقال آخر :

اللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ وَاللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وُلِدَا
قَوْمٌ إِذَا جَرَّ جَانِي قَوْمَهُمْ أَمِنُوا مِنْ أَوْمٍ أَحْسَا بِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوْدَا
اللُّؤْمُ دَاءٌ لَوْ بَرٍ يُقْتَلُونَ بِهِ لَا يُقْتَلُونَ بِدَاءٍ غَيْرِهِ أَبَدَا
وقال أحد المحدثين هو - دَعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخَزَاعِي - :

(١) الجرر: جمع جزة وهي: الجذب كالجز والاجرار

(٢) يريد: جعله هدفا يرمى، والليس: مستعار من قولهم ثوب ليس إذا كثر

لبسه فأخلق

أما الهجاءُ فَدَقَّ عِرْضَكَ دونه والمدحُ غنك كما عَلِمْتَ جليلُ
فأذهبُ فأنتَ عتيقُ عِرْضِكَ إنه عِرْضُ عَزَزْتَ به وأنتَ ذليلُ
وقال آخرُ :

نُبِّئْتُ كَلْبًا هَابَ رَمِي لَهُ يَبْجَحِي مِنْ مَوْضِعِ نَائِي (١)
لو كنتَ من شيءٍ هجوناك أو لو بَدَتَ لِلسَّامِعِ وَالرَّائِي (٢)
فَعَدَّ عَن شَتْمِي فَإِنِّي أَمْرُؤُ حَلَمْنِي قَلَّةٌ أَكْفَائِي
وقال دعبلُ أيضاً :

فلو أَنِي بُبِّئْتُ بِهَاسِمِي خُوْلْتُهُ بَنُو عِبِدِ الْمَدَانِ
صَبَرْتُ عَلَى عَدَاوَتِهِ وَلَكِن تَعَالَى فَأَنْظِرِي بَيْنَ ابْتِلَانِي

ووقف رجلٌ عليه مُمَقَطَعَاتُ عَلَى الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسِ يُسْبُهُ ، وكان عمرو
ابن الأَهمم جعلَ له ألفَ دِرْهَمٍ عَلَى أَنْ يُسْفَهُ الْأَحْنَفُ ، فجعل لا يألو أن
يُسْبَهُ سَبًّا يُغْضِبُ ، وَالْأَحْنَفُ مُطَرِّقُ صَامِتٌ ، فلما رآه لا يكلمه أقبل
الرجلُ يَعْضُ إِبْهَامِيهِ وَيَقُولُ : يَا سَوْأَتَاهُ ، وَاللَّهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنْ جَوَابِي إِلَّا هَوَانِي
عليه ... وفعل ذلك آخِرُ فَأَمْسَكَ عَنْهُ الْأَحْنَفُ ، فَأَكْثَرَ الرَّجُلُ ، إِلَى أَنْ
أَرَادَ الْأَحْنَفُ الْقِيَامَ لِلغَدَاءِ فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ فَقَالَ : يَا هَذَا ، إِنَّ غَدَاءَنَا قَدْ
حَضَرَ فَانْهَضْ بِنَائِيهِ إِنَّ شَتَّتَ فَإِنَّكَ مُدَّ الْيَوْمَ تَحْدُو بِجَمَلٍ نَقَالَ. (٣)

عِبْرَةٌ

قال المنصورُ لعمرو بن عُبيدٍ : عِظْنِي قَالَ : بِمَا رَأَيْتُ أَوْ بِمَا سَمِعْتُ ؟

(١) بـجحى : يريد تلحقنى شتائمى على سنبل المجاز

(٢) يريد : لو أحس بك الأعمى والبصير

(٣) الثفال من الإبل : البطيء الثقيل الذى لا يكاد ينبعث ...

قال : بما رأيت ، قال : مات عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَخَلَّفَ أَحَدَ عَشَرَ ابْنًا وَبَلَغَتْ تَرِكَتُهُ سَبْعَةَ عَشَرَ دِينَارًا ، كَفَّنَ مِنْهَا بِخَمْسَةِ ، وَاشْتَرَى مَوْضِعًا لِقَبْرِهِ بِدِينَارَيْنِ ، وَأَصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ قِيرَاطًا مِنْ دِينَارٍ ... وَمَاتَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ تَخَلَّفَ أَحَدَ عَشَرَ ابْنًا أَصَابَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَادِهِ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَدْ حَمَلَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ عَلَى مِائَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ هِشَامِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ يَسْأَلُ الصَّدَقَةَ ...

لا تشكُّ إلى غير الله

حَدَّثَ بَعْضُهُمْ قَالَ : سَمِعْتُ شُرَيْحَ الْقَاضِي وَأَنَا أَشْكُو بَعْضَ حَالِي إِلَى صَدِيقٍ لِي ، فَأَخَذَ يَدِي وَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي ، يَاكَ وَالشُّكُورَى إِلَى غَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، الصَّدِيقُ يُخْزِنُهُ ، وَالْعَدُوُّ تُشْمِتُهُ ؛ انْظُرْ إِلَى عَيْنِي هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى إِحْدَى عَيْنَيْهِ - وَقَالَ : وَاللَّهِ ، مَا أَبْصَرْتُ بِهَا شَخْصًا وَلَا طَرِيقًا مُنْذُ خَمْسِ عَشْرَةِ سَنَةٍ ، وَمَا أَخْبَرْتُ بِهَا أَحَدًا إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ سِوَاكَ ...

نبالة ومروءة

حَدَّثَ الْعَسْجَدِيُّ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي إِسْحَاقَ الْكِسَائِيِّ لِيَلَّا فَقَالَ : مَا جَاءَ بِكَ ؟ قَالَ : رَكِبْتُ دَيْنُ ، فَقَالَ : كَمْ هُوَ ؟ قَالَ : أَرْبَعُمِائَةِ دَرْهَمٍ ، فَأَخْرَجَ كَيْسًا فَأَعْطَاهُ ، فَلَمَّا رَجَعَ عَنْهُ بَكَى ، فَقَالَ لَهُ أَهْلُهُ : مَا يَبْكُوكَ ؟ فَقَالَ : بُكَائِي أَنْ لَمْ أَبْحَثْ عَنْ حَالِهِ وَأَلْجَأْتَهُ إِلَى الذَّلِّ ...

دعوة الله

قال أعرابي :

وإني لأُغضِي مُقَلَّتِي عَلَى القَدَى وَأَلْبَسُ ثَوْبَ الصَّبْرِ أَيْضًا أبلِجًا
 وإني لأدعو الله والأمر ضيقٌ عَلَيَّ فما يَنْفِكُكَ أَنْ يَنْفَرَجَا
 وكم من قَتِي ضَاعَتْ عَلَيْهِ وجوهُهُ أَصاب لها في دَعْوَةِ اللَّهِ مَخْرَجَا

* * *

كلمات في السؤال

قال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول : فَوْتُ الحَاجَةِ خَيْرٌ مِنْ طَلِبِهَا مِنْ
 غَيْرِ أَهْلِهَا... قال : وسمعت آخر يقول : عِزُّ النِّزَاهَةِ أَشْرَفُ مِنْ سُرُورِ العَائِدَةِ
 قال : وسمعت آخر يقول : حَمَلُ المِنَنِ أَثْقَلُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى العَدَمِ ... وفي
 الحديث الشريف : والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ ثُمَّ يَدْخُلَ إِلَى
 الجبلِ فيحْتَطِبُ فيبيعُ فَيَأْكُلُ وَيَتَصَدَّقُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فيعْطِيهِ
 أَوْ يَمْنَعَهُ .

كانوا يَرَوْنَ أَنَّ المُلُوكَ لَا يُسْتَحَى مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ

ولمناسبة السؤال نورد عليك مايلي : كان كبيد بن ربيعة الشاعر المخضرم
 شريفًا في الجاهلية والاسلام ، وكان نَذَرَ أَنْ لَا تَهَبَّ الصَّبَا (١) إِلَّا نَحَرَ
 وَأَطْعَمَ حَتَّى تَنْقُضِي ، فَهَبَّتْ بِالاسلام وهو بالكوفة (٢) مُقْتِرٌ مُمْلِقٌ ،

(١) الصبا : الريح التي تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار وتسمى
 القبول لأنها تستقبل الكعبة

(٢) يقال : إنه أقام بالكوفة في عهد عمر بن الخطاب ولم يزل بها حتى مات في
 آخر خلافة معاوية عن خمس وأربعين ومائة سنة ، رحمه الله

فَعَلِمَ بِذَلِكَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ - وَكَانَ وَالِيهَا لِعِمَّانَ بْنِ عَفَّانَ - وَكَانَ أَخَاهُ لِأُمِّهِ - فَخَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ : إِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ نَذْرَ أَبِي عَقِيلٍ وَمَا وَكَّدَ عَلَيَّ نَفْسِي ، فَأَعِينُوا أَحَاكِمَ ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَبِعِثَ إِلَيْهِ بِمِائَةِ نَاقَةٍ وَأَيَّاتٍ يَقُولُ فِيهَا :

أَرَى الْجَزَارَ بِشَحْدُ شَفَرَتَيْهِ إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ ^(١)

أَشْمُ الْأَنْفِ أَصَيْدُ عَامِرِي طَوِيلُ الْبَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ ^(٢)

وَقَى ابْنُ الْجَعْفَرِيِّ بِمَا نَوَاهُ عَلَى الْعَلَاتِ وَالْمَسَالِ الْقَلِيلِ ^(٣)

بِنَجْرِ السُّكُومِ إِذْ سُجِبَتْ عَلَيْهِ ذُيُولُ صَبَابِجَاوَبُ بِالْأَصِيلِ ^(٤)

فَلَمَّا أَتَتْهُ قَالَ : جَزَى اللَّهُ الْأَمِيرَ خَيْرًا ، قَدْ عَرَفَ الْأَمِيرَ أَنِّي لَا أَقُولُ شِعْرًا ^(٥) وَلَسْكَنَ أَخْرُجِي يَا بُلَيْتِي ، فَخَرَجْتَ خُمَاسِيَّةً ^(٦) فَقَالَ لَهَا : أَجِيبِي الْأَمِيرَ ، فَأَقْبَلْتَ وَأَذْبَرْتَ ، وَبِعِثَ النَّاسُ ، فَقَضَى نَذْرَهُ ، فَبِي ذَلِكَ تَقُولُ ابْنَةُ لَيْدٍ :

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ دَعَوْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا

طَوِيلَ الْبَاعِ أَيْضَ عَبْشَمِيًّا أَعَانَ عَلَى مُرُوءَتِهِ لَيْدَا ^(٧)

(١) الشفرة: السكين، والشحد: التحديد بالمشحد «بكسر الميم، وهو المسن

(٢) الأصيد: الذي يرفع رأسه كبرا لا يلتفت يمينا ولا شمالا

(٣) على العلات: على كل حال أو على ما فيه من الحالات والثنون

(٤) الكوم: العظام الاسنة واحدها كوما

(٥) لانه حزم على نفسه قول الشعر منذ أسلم

(٦) خماسية: طولها خمسة أشبار، وكذلك غلام خماسي ولا يقال إذا بلغ ستة

أشبار أو سبعة: سداسي ولا سباعي

(٧) أبيض: إذا قالت العرب: فلان أبيض فالعنى: نقاء العرض من الدنس والعيوب

لا يريدون بياض، اللون وهذا كثير في شعرهم. وعبشمي: من بنى عبدشمس بن عبدمناف

بأمثالِ الهضاب ، كأن ركباً عليها من بنى حامٍ قعوداً ^(١)
 أبا وهب جزاك الله خيراً نحرناها وأطعنا الثريدا
 قعد إن الكريم له معادٌ وظنى ببنٍ أروى أن يعودا
 فقال لها لييد : أحسنت يا بليتى لولا أنك سألت ا فقالت : إن الملوك
 لا يستحى من مسألتهم ا ولو كان سُوقة لم أفعل ... فقال لها : وأنتِ في
 هذا أشعرا

مثل في الرياء

عن وهب بن منبه قال : نصّب رجلٌ من بنى إسرائيل خفياً ، فجاءت
 عصفورةٌ فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراك منحنيا ؟ قال : لكثرة صلاتى
 انحيت ا قالت : فمالى أراك باديةً عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت
 عظامى ا قالت فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتى فى الدنيا ليست
 الصوف ا قالت : فما هذه التصا عندك ؟ قال : أتوكأ عليها وأفضى حوائجى ،
 قالت : فما هذه الحبّة فى يدك ؟ قال : قربانٌ إن سرتى بى مسكين ناولته
 إياه ، قالت : فإنى مسكينة ا قال : فخذها ، فدانت فقبضت على الحبّة ،
 فاذا الفئخ فى عنقها ، فجملت تقول : قعى قعى ا تفسيره : لأعزنى ناسكٌ مرأه
 بعدك أبدا ...

(١) بأمثال الهضاب : جمع هضبة بسكون الضاد وهو كل جبل خلق من صخرة
 واحدة أو هي كل صخرة ضخمة ، تصف ضخامة الإبل ، وقولها : كأن ركباً الخ تصف
 اسمتها السود ، وحام : أحد أولاد نبي الله نوح عليه السلام وهو فيما زعموا أبو السودان

الهم نصف الهرم

من كلمة سيدنا علي بن أبي طالب : والهمُّ نصف الهرم ، وقال حكيم :
الهمُّ يُشيبُ القلب ، ويُعمِّقُ العقل ، فلا يتولد معه رأيٌ ، ولا تصدُقُ معه
رؤية ، وقال أبو تمام :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرأى يس إلا من فضل شيب الفؤاد
وكذاك القلوبُ في كلِّ بُؤس ونعيم طلائعُ الاجساد
وقال أبو نواس :

وما إنْ سبتُ من ركبٍ ولكن لقيتُ من الحوادث ما أشابا
وقد تقدم قول المتنبي :

والهمُّ يخترم الجسمَ نحافةً ويُشيبُ ناصيةَ الصبيِّ ويهرمُ

مثل الدنيا وآفاتها

والخوف من نهايتها

جاء في كتاب كليلة وديمثة : وَجَدْتُ مَثَلَ الدُّنْيَا وَالْمَغْرُورِ بِهَا ، مع امتلاء :
بالآفات ، مثل رجلٍ أجهَّ خوفٌ فيلِ هائجٍ إلى بئرٍ ، فتدلَّى فيها وتعلَّزَّ
بُغصنَيْنِ نابتَيْنِ على شفيرِ البئرِ ، فوقمت رجلاه على شيءٍ في طيِّ البئرِ ، فنظَرَ
فإذا بحياتٍ أربعٍ قد أطلعنَ رؤوسهنَّ من جُحورهنَّ ، ونظر إلى أسفلِ
البئرِ فإذا بتنينٍ ^(١) فاغرفاه نحوه ، مُلتظِّرٍ له ليقعَ فيأخذه ، فرفعَ بصره

(١) التنين : ضرب من الحيات

إلى العُصَيْنِ فإذا في أصلهما جَرْدَانُ أَسْوَدُ وَأَبْيَضُ ، وهما يَقْرِيضَانِ العُصَيْنِ
 دَائِبِينَ لَا يَفْتُرَانِ ، فبينما هو في النظرِ لأمره والاهتمام لنفسه ، إذ أَبْصَرَ
 قريباً منه كَوَارَةَ فيها عَسَلٌ نُحْلٍ ^(١) ؛ فذاق العَسَلَ ؛ فَشَعَلَتْهُ حَلَاوَتُهُ وَأَلْهَتْهُ
 لَذَّتُهُ عن الفِكرَةِ في شيءٍ من أمرِهِ ، وأن يَلْتَمِسَ الخِلاصَ لنفسِهِ ؛ ولم
 يَذْكَرْ أَنَّ رِجْلَيْهِ على حَيَاتٍ أَرْبَعٍ لَا يَدْرِي متى يَقَعُ عليهنَّ ، ولم يَذْكَرْ
 أَنَّ الجُرْذِينَ دَائِبَانِ في قِطْعِ العُصَيْنِ ؛ ومتى انْقَطَعَا رَقَعَ على التَّنِينِ . فلم يزل لاهياً
 غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سَقَطَ في قَمِّ التَّنِينِ فَهَلَكَ . فَسَبَّهْتُ
 بالبئرِ الدُّنْيَا المملوءة آفاتٍ وُسُوراً ، وَخَافَاتٍ وَعَاهَاتٍ ، وَسَبَّهْتُ بالحَيَاتِ
 الأربَعِ الأَخْلَاطِ الأربعة التي في البَدَنِ ؛ فإنها متى هاجتْ أو أحدها كانت
 كَحَمَةِ ^(٢) الأفاعي والسَّمِّ المُمِيتِ ، وَسَبَّهْتُ بالعُصَيْنِ الأَجَلَ الذي لا بُدَّ
 من انْقِطَاعِهِ ؛ وَسَبَّهْتُ بالجُرْذِينَ الأَسْوَدِ والأَبْيَضِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ اللذين هما
 دَائِبَانِ في إِفْنَاءِ الأَجْلِ ؛ وَسَبَّهْتُ بالتَّنِينِ المَصِيرَ الذي لا بُدَّ منه ؛ وَسَبَّهْتُ
 بالعَسَلَ هذه الحلاوة القليلة التي ينالُ منها الإنسانُ فيَطْعَمُ وَيَسْمَعُ وَيَشْمُ
 وَيَلْمَسُ ، ويتشَاغَلُ عن نفسه ، ويلهو عن شأنِهِ ، وَيُصَدُّ عن سبيلِ قَصْدِهِ ...

عمرو بن العاص يصف حاله في احتضاره

قال عبد الله بن عباس : دخلتُ على عمرو بن العاص وقد احتضِرَ ،
 فدخل عليه ابنُه عبد الله فقال له : يا عبدَ الله ، خُذْ ذلك الصُّدُوقَ ، فقال :
 لا حاجة لي فيه ، قال : إنه مملوءٌ مالا ، قال : لا حاجة لي به ، فقال عمرو :

(١) الكوارة : خلية الحبل

(٢) الحمة : أرة النحلة ونحوها

لَيْتَهُ مَمْلُوءٌ بَعْرًا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَقُلْتُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّكَ كُنْتَ تَقُولُ :
 أَشْتَهِي أَنْ أَرَى عَاقِلًا يَمُوتُ حَتَّى أَسْأَلَهُ : كَيْفَ يَجِدُ ، فَكَيْفَ تَجِدُكَ ؟
 قَالَ : أَجِدُ السَّمَاءَ كَأَنَّهَا مُطَبَّقَةٌ عَلَى الْأَرْضِ وَأَنَا بَيْنَهُمَا ، وَأَرَانِي كَأَنَّمَا أُنْتَفَسُ
 مِنْ خَرْتِ إِبْرَةِ أُمَّ قَالِ : اللَّهُمَّ ، خُذْ مِنِّي حَتَّى تَرْضَى ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ :
 اللَّهُمَّ ، أَمَرْتُ فَعَصَيْتَا ، وَتَمَيْتُ فَرَكَبْنَا ، فَلَا بَرِيءٌ فَأَعْتَذِرُ وَلَا قَوِيٌّ فَأَنْتَصِرُ
 وَلَكِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - ثَلَاثًا - ثُمَّ قَاظَ ... د قَوْلُهُ : مِنْ خَرْتِ إِبْرَةِ يَعْنِي :
 مِنْ نَقَبِ إِبْرَةِ ، وَقَوْلُهُ : قَاظَ : أَي مَاتَ ،

ماذا قال عبد الله بن الزبير

حين أتاه خبر مقتل أخيه المصعب^(١)

لَمَّا أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ خَطَبَ النَّاسَ
 فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ أَتَانَا خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ فُسِرُّرْنَا بِهِ وَاكْتَابْنَا
 لَهُ ، فَأَمَّا السَّرُورُ : فَلَيْبًا قُدِّرَ لَهُ مِنَ الشَّهَادَةِ وَحِيزَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ ، وَأَمَّا الْكُتَابَةُ
 فَلَوْعَةٌ يَجِدُهَا الْحَمِيمُ عِنْدَ فِرَاقِ حَمِيمِهِ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَانُوتٌ حَبِيبًا كَيْتَةَ آلِ
 أَبِي الْعَاصِيِّ ، إِنَّمَا نَمُوتُ وَاللَّهُ قَتْلًا بِالرَّمَاحِ وَقَعْصًا تَحْتَ ظِلَالِ السِّيُوفِ ، فَإِنْ
 يَهْلِكِ الْمُصْعَبُ فَإِنَّ فِي آلِ الزُّبَيْرِ مِنْهُ خَلْفًا ... د الْحَبِيجُ : أَنْ يَأْكُلَ الْبَعِيرُ
 لِحَاءَ الْعَرْفَجِ فَيَتَكَبَّبُ فِي بَطْنِهِ وَيَضِيقُ مَبْعَرُهُ عَنْهُ فَلَا يَخْرُجُ مِنْ جَوْفِهِ
 فَيَهْلِكُ ، يُعْرِضُ بَنِي مَرْوَانَ وَيَنْعَى عَلَيْهِمْ كَثْرَةَ أَكْلِهِمْ وَإِسْرَافَهُمْ فِي مَلَاذِ
 الشُّهُوتِ وَأَنَّهُمْ يَمُوتُونَ بِاللُّخْمَةِ . وَاللَّوْعَةُ : الْحَرَقَةُ ، وَالقَعْصُ : الْقَتْلُ الْمَعْجَلُ
 وَقَدْ قَعْصَهُ : إِذَا ضَرَبَهُ أَوْ رَمَاهُ فَمَاتَ مَكَانَهُ ، وَأَقْعَصَهُ كَذَلِكَ وَالْمَقْعَصُ : الْمَقْتُولُ ،

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام هو خليفة الحجاز ومصعب أخوه

إذا ضيقت شيئاً ضاق جداً

وما يؤثر في باب الصبر قول الشاعر :

إذا ضيقت شيئاً ضاق جداً وإن هونت ما قد عزّ هانا
فلا تترك لشيء فات بأساً فكم أمر تصعب ثم لانا
سأصبر عن رقيق إن جفاني على كل الأذى إلا الهوانا
فإن المرء يجزع في خلاء وإن حضر الجماعة أن يهاناً
« بأساً مردود إلى قوله تترك يقول : لاتهلك بأساً . وقوله : فإن المرء...
البيت يقول : إن المرء يجزع أن يهان كان وحده أو في جماعة »

لا تلهفن على ما فاتك

ونورد هنا هذا المثل البديع وإن كانت شهرته قد كادت تبذله ... رَوَى
الشعبي : أن رجلاً من بني إسرائيل صاد قبرة ، فقالت : ما تريد أن تصنع
بي ؟ قال : أذبحك فأكلك ! قالت : والله ما أشفي من قرم ولا أغني من
من جوع ، أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلني : أما الواحدة فأعلمكها
وأنا في يدك ، والثانية إذا صرت على هذه الشجرة ، والثالثة إذا صرت على الجبل ،
فقال : هاتي ! قالت : لا تلهفن على ما فاتك ، شغلي عنها ، فلما صارت فوق الشجرة
قال : هاتي الثانية ، قالت : لا تصدق بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت
على الجبل ، فقالت : يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درة فيها زنة
عشرين مثقالاً ! قال : فعض على شفتيه وتلهف ؛ ثم قال : هاتي الثالثة ،
قالت له : أنت قد نسيت الآنتين ، فكيف أعلمك الثالثة ! ألم أقل لك
لا تلهفن على ما فاتك ؟ فقد تلهفت على إذ فُتك ، وقلت لك لا تصدقن بما

لا يكون أنه يكون افضدقت انا وعظي ورشي لأزى عشرين مثقالا ،
فكيف يكون في حوصاتي ما يزنها ا

ومن قولهم في الحث على التعزى

وبما قيل في الحث على الصبر والتعزى قولُ صالح بن عبد القدوس ^(١)
إن يكن ما أصبتُ به جليلا فذهب العزاء فيه أجلُّ
كلُّ آتٍ لآسك آتٍ وذو الجَهِّ لِ مَعْنَى والغَمِّ والحزنُ فضلُ ^(٢)
وقال عبدُ الله بن محمد بن أبي عيَّنة بن المهلب بن أبي صُفرة لظاهر
ابن الحسين: ^(٣)

لَمَّا رَأَيْتُكَ قَاعِدًا مُسْتَقِيمًا أَتَيْتُكَ أَنْكَ لِلْهَمِيمِ قَرِينُ
فَارْفُضْ بِهَا وَتَعَرَّ مِنْ أَثْوَابِهَا إِنْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْقَضَاءِ يَقِينُ ^(٤)
مَا لَا يَكُونُ فَلَا يَكُونُ بِجَمِيلَةٍ أَبَدًا وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
بَسَعَى الذُّكْيُ فَلَا يَنَالُ بِسَعِيهِ حَظًّا وَيَحْظَى عَاجِزٌ وَمَهِينُ
وَكَانَ ابْنُ شَبْرَمَةَ ^(٥) إِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةٌ يَقُولُ : سَجَابَةٌ ثُمَّ تَنْتَشِعُ ^(٦) وَكَانَ

(١) كان متها بالزندقة ومن ثم قتله المهدي الخليفة العباسي إذ ضربه بالسيف
فقد نصفين وعلقه ببغداد

(٢) فضل يريد : زيادة ، أى لا يليق بالعاقل ، إذ لا جدوى من ورائه

(٣) أكبر أعوان المأمون بن الرشيد على أخيه الأمين

(٤) فرفض بها : من رفض الشيء يرفضه (بالكسر والضم) رفضا : تركه ،
والباء زائدة

(٥) هو عبد الله بن شبرمة بن الطفيل بن المنذر من بنى سعد بن ضبة بن أذ ، ولى

القضاء لطارق بن زياد خليفة خالد بن عبد الله القسرى لما أقام بواسط

(٦) تنتشع : تجلى

يقال : أربعٌ من كنوز الجنة : كتمانُ المصيبةِ ، وكتمانُ الصدقةِ ، وكتمانُ
الفاقةِ ، وكتمانُ الوجعِ ...

لكل غد طعام

قال أوس بن حجر :

ولستُ بخابئٍ أبداً طعاماً حذارَ غدٍ لكلِّ غدٍ طعامٌ
وقبل هذا البيت :

وليس بطارقِ الجيرانِ مني ذبابٌ لا يُنمِ ولا ينامُ^(١)
ولستُ بأطلسِ الثوبينِ يُصبي حليلته إذا هدأ النيامُ^(٢)

ومن كلام سيدنا علي : يا ابن آدم ، لا تحمل هم يومك الذي لم يأتِ على
يومك الذي أنت فيه ، فإنه إن يُعلم أنه من أجلك يأت فيه رزقك ، واعلم
أنك لا تكسب من المال شيئاً فوق قوتك إلا كنت خازناً لغيرك فيه ...
والأصل المقدم في هذا المعنى قول سيدنا رسول الله : من كان آمناً في
سربه^(٣) ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه ، كان كمن حيزت له الدنيا
بمخذافيها ... وقد تقدم

(١) كنى بالذباب عن الشر والأذى

(٢) حليلته : لا يريد امرأته ولكن أراد جارته التي تحال له في حلقه ، وكنى بأطلس
الثوبين عن رميه بالقيح من قولهم : رجل أطلس الثوب : وسخه ، والطلسة : الغبرة
تميل إلى السواد

(٣) المراد بالسرب دهنا : ما للرجل من أهل وولد ومال

اللثام مؤعون

يايذاء الكرام

من أحسن ما قيل في شقاء الكرام باللثام والاختيار بالأشرار قول
الشاعر الطرّماح بن حكيم - شاعر إسلامي ، قال بعض العلماء :
لو تقدمت أيامه قليلاً لفضل على الفرزدق وجري - انظر ترجمته في
الأغانى - قال :

لقد زادني حُباً لنفسيَ أنى بغيض إلى كلِّ امرئٍ غيرِ طائل
وأنى شقيّ باللثامِ ولا ترى شقياً بهم إلا كريمَ الشَّمائلِ
إذا ما آنى قَطَعَ الطَّرْفَ بينَهُ وبينى ففعلَ العارِفِ المتجاهلِ
ملاّت عليه الأرضُ حتى كأنّها من الضيقِ في عَيْنِهِ كِفَّةُ حابلِ
أكلُّ امرئٍ أنى أباه مُقَصِّراً مُعادٍ لاهلِ المسكراتِ الأوائلِ
إذا ذُكرتْ مَسْعاةُ والده اضْطأى ولا يضطأني من شَمَمِ أهلِ الفضائلِ

« قوله : لقد زادني ... ألبيت يقول : لقد زادني أنى بغيض إلى كل
رجل لا فضل فيه ولا خير عنده حُباً لنفسي ، لأن التمايز بينى وبينه هو
الذى أداه إلى بُغْضِي ، ولو كان بيننا تشاكلٌ لما كان كذلك ، فازدوتُ
بذلك حُباً لنفسي ، لأنى لو كنت مثله لأحبنى ؛ وغير طائل قال الخليل بن
أحمد : يقال للشئء الدون : هذا غيرُ طائل ... وقوله : وأنى شقى باللثام ...
ألبيت يقول : وزادني حُباً لنفسي أيضاً شقوتى باللثام حتى تنقصونى وأصغوا
إنانى واغتابونى ؛ ثم قال : ولا ترى أحداً يشقى بهم إلا وهو كريمُ الأخلاق
وقوله : إذا ما آنى ... ألبيت يقول : إذا أبصرنى آرتد طرفه عنى وقطع

انظره ، فَمَلَّ من يعرف الشيء ويتكأف جهله ؛ ويقال : ملأت عليه الأرض إذا ضيقتها عليه ، أما إذا قلت : ملأت منه الأرض فمعناه : أنك قتت واعدت بذكريه ؛ والحابل : ناصب الحباله وهى التى يُصادُ بها ، وكفّة الحابل : حبالته التى بها يصيد ، وكل ما استدار فهو كِفّة : يقول فى هذا البيت : قد ضاقت به الأرض من عداوتى فكأننى مَلَأْتُها عليه ، ويجوز أن يكون المراد : أنه يخافنى فى كل مسلك يسلكه ... وفى معنى هذا البيت قول القائل :

كَانَ جِجَاجَ الْأَرْضِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ

على الخائف المطلوب كِفَّةُ حَابِلٍ

وقوله : إذا ذُكِرَتْ ... ألبيت فالمسعاة : السعى ، وهو العمل ، واضطنى : افتعل من الضنى ، يقال : ضنى يضنى : إذا دق وصغر جسمه ، ومن ثم سَمِيَ المرض ضنى ، لما يُورثُ من الهزال ، يقول : إنه يضنى إذا ذكر صنيع والده ، لقبّحه ، ومع هذا يشتم أهل الفضائل ولا يضنى من ذلك ، بصفه بالقبحة .

أبيات فى الصبر والشجاعة والكرم

قال عبدالعزیز بن زرارۃ السکلبی - وقد کان فى الجيش الذى بعثه معاوية بن أبى سفيان لغزو بلاد الروم سنة ٤٩ هـ فارغوا فيها حتى بلغوا القسطنطينية ، فاقتل المسلمون والروم قتالا شديدا ، ولم يزل عبدالعزیز هذا يتعرض للشهادة وهو يقول هذه الأبيات ، ثم حمل على من يليه تقتل خلقا كثيرا وانفوس بينهم فشجره الروم برهاهم فقتلوه ؛ والأبيات :

قَدِ عَشِمْتُ فِي الدَّهْرِ أَوَانًا عَلَى طُرُقِ سَيْئَةٍ وَقَاسَيْتُ فِيهَا اللَّيْنَ وَالْفَطَمَا

كَلَّا بَلَوْتُ فَلَا نَعْمَاءُ تُبَطِّرُنِي وَلَا تَخَشَّعْتُ مِنْ لَأَوَائِهَا جَزَعًا
 لَا يَمْلَأُ الْهَوْلُ صُدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلَا أُضِيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا
 «على طرق يروى: على خاق، والفظع: مصدر فُظِع الأمر فظاعة: اشتد
 وشُئِع وجاوز المقدار، وتبطرنى: تَحْمِلُنِي على البطار، وهو: الطغيان في
 النعمة، والأواء: الشدة والمشقة وضيق العيش، وقوله: لا يملأ الهول...
 أبيت: من أحسن ما قيل في الشجاعة، وقال الخطيب من أبيات يمدح بها بعض
 الأجراد:

فَتَى غَيْرُ مِفْرَاحٍ إِذَا الْخَيْرُ مَسَّهُ وَمِنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ غَيْرُ جَزْوَعٍ
 وَذَلِكَ فَتَى إِنْ تَأْتَيْهِ فِي صَنِيعَةٍ إِلَى مَالِهِ لَا تَأْتِيهِ بِشَفِيعٍ
 «الصنعة: اسم لكل ما تُسديه من إحسان يد وصلة معروف،
 وأنشدوا: (١)»

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
 وَأَوْطَنْتِ الْمَسْكَارُهُ وَاطْمَأَنَّتْ وَأَرَسَتْ فِي مَكَامِنِهَا الْخَطُوبُ
 وَلَمْ تَرَ لَانْكَشَافِ الضَّرِّ وَجْهًا وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الْآرِيبُ
 أَنَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ عَوْتُ يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ
 وَكُلَّ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ فَمَقْرُونٌ بِهَا الْفَرَجُ الْقَرِيبُ

أبيات حكيمة

وإليك أبياتاً حكيمةً لشاعر جاهلي قديم يسمى: الأضبط بن قريع بن
 عوف بن كعب بن سعد، رهط الزبيرقان بن بدر، وهو الذي أساء قومه

(١) رواها أبو بكر بن دريد عن أبي حاتم راوية الأصمعي

مُجَاوَرَتَهُ ، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا مثل ذلك ، فقال : « إِنَّمَا أَوْجَحُ أُنْتِ سَعْدًا »^(١) وقال : « بِكُلِّ وَادٍ بَنُو سَعْدٍ ، وَإِلَيْكَ هَذِهِ الْآيَاتِ :

لِكُلِّ ضَيْقٍ مِنَ الْهَمومِ سَعَةٌ وَالْمُسَى وَالصَّبِيحُ لَافْلَاحَ مَعَهُ
 مَابَالُ مَنْ غَيْبُهُ مُصِيبُكَ لَوْ يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ وَزَعَهُ
 أَذُودٌ عَنْ حَوْضِهِ وَيَدْفَعُنِي يَأْقومُ مَنْ عَادِرِي مِنَ الْخُدَعَةِ
 حَتَّى إِذَا مَا نَجَلْتَ عَمَائِتَهُ أَقْبَلَ يَلْحَى وَغَيْهِ فَجَعَهُ
 قَدْ يَرَقُّ الثَّوبَ غَيْرُ لَابِسِهِ وَيَلْبَسُ الثَّوبَ غَيْرُ مَنْ رَقَعَهُ
 فَأَقْبَلَ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ
 وَصَلَّ جِبَالَ الْبَعِيدِ إِنْ وَصَلَ الْحَبْلُ بَلْ وَأَقْصِ الْقَرِيبِ إِنْ قَطَعَهُ
 وَلَا تَهَيِّنِ الْفَقِيرَ عَلَّكَ أَنْ تَرْكَعَ يَوْمًا وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

« المسى : اسم من الإسماء ، والصبح : اسم من الإصباح ، والفلاح هنا :

البقاء والعيش قال عبيد بن الأبرص :

أَفْلِحَ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُدْ رَكَ بِالضَّعْفِ وَقَدْ يُخَدِّعُ الْأَرِيبُ

يقول : لابقاء مع كرا الليل والنهار . والفلاح أيضا : الفوز ومنه قولهم في

الأذان : حتى على الفلاح ، والغنى : الخيبة والحرمات قال المرقيش الأكبر :

فَنَ يَلْقُ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ وَمَنْ يَقُولَا يَعْدَمُ عَلَى الْغَنَى لَائِمًا

وجملة : لو يملك ؛ حالة ، ووزعه : نعه وكفه ، يقول : مابال من تتألم

لخبته وسوء حاله فإذا وجد شيئا من الخير كفه عنك ، وبروى هذا البيت

على وجه آخر ، وقوله أذود عن حوضه : هو مثل للحماية ودفع المكروه عنه ،

والخدعة : قوم من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم

(١) يريد : أفر من الأذى إلى مثله

والعماية : الشدة التي تلتبس منها الأمور ، يقال : عَمِيَ عليه الأمر : إذا التبس ، وأقبل : شرع ، ويلجى : يلوم ، وغيه : ضلاله ، وجمعه : أصابه بمكروه وصل جبال البعيد ... أبيت يعني : تقرب إلى البعيد للنسب إذا طلب قربك واهجر القريب النسب إذا هجرك ، أخذه الأعشى فقال :

ولا تُذْنِ وضلاً من أخٍ متباعد ولا تنأ عن ذى بغضة إن تقرباً
فإن القريب من يُقرب نفسه كعمرُ أبيك الخيرِ لا من تنسباً

وقوله ولا تهين الفقير الخ فالإهانة : الإيقاع في الهون (بضم الهاء) والهوان وهما بمعنى الذل والحقارة ، وعلّ : لغة في لعل وهي هنا بمعنى عسى ، والركوع : أراد به الانحطاط في المرتبة والسقوط في المنزلة ، ومثل هذا البيت في المعنى قول القائل :

عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إن منعتَه في اليوم سُؤلاً أن يكون له غدٌ
وهذا البيت يستشهد به النحاة على أن نون التوكيد الخفيفة تحذف لالتقاء الساكنين والأصل تُهَيِّنُ بالنون الخفيفة ، ويروى : ولا تعاد ، ويروى لا تحقرن الفقير فلا شاهد فيه ؛ وفي معنى هذا البيت أيضا يقول عباد بن عباد بن حبيب بن المهلب :

إذا خَلَّتْ نَابَتْ صديقَكَ فَاغْتَنِمِمْ مَرَمَّتْهَا فَالدهرُ بالناسِ قُلبُ
وبادرٌ بمَعْرُوفٍ إذا كنتَ قَادِراً زوالَ اقْتِدَارِ أو غِنَى عَنكَ يُعْقِبُ
« الخلة : الحاجة والفقرو في المثل « الخلة تدعو إلى السلة ، والسلة : السرفة وممرتها : إصلاح ما فسد منها ، وناب : كثير القلب من حال إلى حال ، وزوال : مفعول لبادر ، وعنك : متعلق بزوال ، ويعقب : صفة له ، يقول : يأتي الزوال عقب الاقتدار والغنى ، ويقول تميم بن مقبل :

فَأَخْلَفَ وَأَتْلَفَ إِنَّمَا الْمَالُ عَارَةٌ فَكَلَّمَهُ مَعَ الدَّهْرِ الَّذِي هُوَ آكِلُهُ
فَأَهْوَنُ مَفْقُودٍ وَأَيْسَرُ هَالِكٍ عَلَى الْحَيِّ مَنْ لَمْ يَبْلُغِ الْحَيَّ نَائِلُهُ
«وأخلف: يريد استفذَّ خَلَفَ ما أتلفت، وقد أخلف فلان لنفسه: إذا ذهب
له شيء فجعل مكانه آخر، وعارة: معار، والعارة والعارية: ما يتداول بين
الناس، ويقول جرير:

وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَخِي أَنْ أَرَى لَهُ عَلَى مَنْ الْحَقَّ الَّذِي لَا يَرَى لِيَا
«يقول جرير: إني لأستحجي أخي أن يكون له على فضل ولا يكون لي عليه فضل
ومنى إليه مكافأة، فأستحجي أن أرى له على حقا لما فعل لي ولا أفعل إليه ما يكون
لي به عليه حق، قال المبرد: وهذا من مذاهب الكرام ومما تأخذ به أنفسها»

أبيات من لم يروها فلا مروءة له

وهذه أبيات كانوا يقولون: إنه من لم يروها فلا مروءة له. وهي لشاعر
يسمى أَيْمَنَ بنِ حُرَيْمِ بنِ فَاتِكِ الأَسَدِيِّ، شاعر شريف فارس، وكان
يتشيع، وأبوه خريم له صحبة، وهو ممن اعتزل الجبل وصَفَّينَ وما بعدهما من
الأحداث، وقيل: إن هذه الأبيات للأقيشر، وهو شاعر إسلامي، قال:

وَصَهْبَاءَ جُرْجَانِيَّةٍ لَمْ يَطْفُ بِهَا	خَنِيفٌ لَمْ تَنْفَرْ بِهَا سَاعَةً قَدْرُ
وَلَمْ يَحْضِرِ الْقَسَّ الْمَهَيْمِ نَارَهَا	طُرُوقًا وَلَمْ يَشْهَدْ عَلَى طَبِيخِهَا حَبْرُ
أَتَانِي بِهَا يَحْيَى وَقَدْ نَمَتُ نَوْمَةً	وَقَدْ غَابَتِ الشَّعْرَى وَقَدْ طَلَعَ النَّسْرُ
فَقَلْتُ: آغْتَبِقْهَا أَوْ لَغَيْرِي فَاسْقِهَا	فَمَا أَنَا بَعْدَ الشَّيْبِ وَبَيْكَ وَالخُرُ
تَعَفَّفْتُ عَنْهَا فِي الْعُصُورِ الَّتِي خَلَّتْ	فَكَيْفَ التَّصَابِي بَعْدَ مَا كَلَّ الْعَمْرُ
إِذَا الْمَرْءُ وَتَى الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ	لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءٌ وَلَا سِتْرُ

فدَعَهُ وَلَا تَنْفَسَ عَلَيْهِ الَّذِي ارْتَأَى وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ الدَّهْرُ
 «الصهباء: الخمر، سميت بذلك لونها - والصبغة من الألوان: الشقرة - قيل:
 الصهباء هي الخمر التي عُصِرَتْ مِنْ عِنَبٍ أَيْضَ، وقيل: هي التي تكون من
 العنب ومن غيره إذا ضَرَبَتْ إِلَى الْبَيَاضِ، وقال أبو حنيفة الدِّيَنَوْرِيُّ: الصهباء
 اسم للخمر كالعَلَمِ. وجرجانية: نسبة إلى جرجان، وكانت مشهورة بنوع من الخمر
 والحنيفة: المسلم، ونفرت القدر: غَلَت، والمهيم: الذي يقرأ بصوت خفي غير
 يَبِينُ لَا يَفْهَمُ، والطروق: الحضور ليلاً، والخبر واحد الأحبار: رئيس من
 رؤساء الدين المسيحي، ورئيس الكهنة عند اليهود، وقوله: وقد غابت الشعرى...
 قال البكري شارح الأمايلى: هذه الرواية الصحيحة، أما رواية: وقد غابت الشعرى
 وقد جَنَحَ النسر، فهي خطأ، قال: لأن الشعرى العبور إذا كانت في أفق
 المغرب كان النسر الواقع طالماً من أفق المشرق على نحو سبع درجات، وكان النسر
 الطائر لم يَطْلُعْ، وإذا كانت الشعرى الغميصاء في أفق المغرب كان النسر الواقع
 حينئذ غير «كَبِدٍ - كَبِدُ النجم السماء: توسطها - فكيف أن يكون جانحاً؟
 وكان النسر الطائر حينئذ في أفق المشرق طالماً على نحو سبع درجات أيضاً
 قال الشاعر:

وَإِنِّي وَعِبَدَ اللَّهِ بَعْدَ اجْتِمَاعِنَا لِكَالنَسْرِ وَالشَّعْرَى بِشَرْقٍ وَمَغْرِبٍ
 يُلُوحٌ - إِذَا غَابَتْ مِنَ الشَّرْقِ - شَخْصُهُ وَإِنْ تَلَدَّحَ الشَّعْرَى لَهُ يَتَغَيَّبُ
 وقال أبو نواس:

وَحَمَارَةٌ نَبَّهَتْهَا بَعْدَ هَجْرَةٍ وَقَدْ لَاحَتْ الْجُوزَاءُ وَأَنْعَمَسَ النَّسْرُ
 فَقَالَتْ: مَنِ الطَّرَاقُ؟ قُلْتُ: عَصَابَةٌ خِيفُفُ الْإِدَاوَى يُبْتَغَى لَهَا الْخَمْرُ
 وَالشَّعْرَى سَابِقَةٌ فِي الطَّلُوعِ لِلْجُوزَاءِ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ كَلْبَ الْجَبَّارِ، وَالْجَبَّارُ

اسم للجوزاء... والاعتباق : شُرِب العشى ، وويك : وويلك ، وكلا : انتهى إلى آخره وأقصاه ، ويقال : بلغ الله بك أكلأ العمر : أى آخره ، ولا تنفس : لاتحسد ، وارتأى : افعل من رأى . وفي هذا المعنى يقول الأعور الشنئى :
 إذا ما المرء - قصَرَ ثم مرَّت عليه الأربعون - من الرجال
 ولم يلحق بصالحهم فدعه فليس بلاحي أُخرى الليالى

حكم ومواعظ

قال عبد الله بن عباس : كتب إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه بموعظة مأسرت بموعظة سُرورى بها ! أما بعد ، فإن المرء يسره دَرَكُ مالم يكن ليقوته ، ويسوءه فَوْتُ مالم يكن ليدركه ، فما نالك من دُنْيَاك فلا تُكسِرْ به قرحا ، وما فاتك منها فلا تُتبعه أسفا ، فليكن سرورك بما قدّمت ، وأسفك على ما خلفت ، وهمك فيما بعد الموت ... « يقول علي : إن كل شيء يُصيب الإنسان فى الدنيا من نفعٍ وصَرٍ فيقضاء من الله تعالى وقدره ، غير أن الناس لا ينظرون حقَّ النظر فى ذلك ، فيسُرُّ الواحد منهم بما يُصيبه من النفع ، ويُساء بقوت ما يفوته منه ، غير عالم بأن ذلك النفع الذى أصابه كان لا بُدَّ أن يُصيبه ، وأن ما فاتته منه كان لا بُدَّ أن يفوته ، ولو عرَفَ ذلك حق المعرفة لم يفرح ولم يحزن ، وإنما الأخلق بالعافل أن يأسف على ما فاتته ويسرَّ بما قدّمه ، من الخير والعمل الصالح الذى يُجدى عليه فى العالم الباقى - الآخرة »

ومن كلمة للحسن البصرى : تلقى أحدهم أبيض بضاً يملأ فى الباطل ملأنا ، ينفض مذرّوبه ، ويضرب أصدريه ، يقول : هاأناذا فاعرفونى ! قد عرّفناك فمقتك الله ومقتك الصالحون ... « قوله : أبيض بضاً

فالبض : الرقيق اللون الصافي الذي يؤثر فيه كل شيء ، ويروون : أن معاوية بن سفيان قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الشام وهو أبيض الناس - أرفهم لونا وأحسنهم بشرة - فضرب عمر يده على عضده ، وقال : هذا ، والله ، لتشأ غلك بالحمامات وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حشرات على بابك... وقوله : يملخ في الباطل مانخا : أى يكتر تردده في الباطل ، أو يمر فيه مراً سهلاً ، وقوله : ينفض مذرويه ويضرب أصدريه فينفض ويضرب : يحرك ، ومذرواه : جانباه ، وقيل : فرعا الآلتين ، وقيل : طرفا كل شيء ، وأراد الحسن : فرعى المنسكين . ولا واحد لهما ، وهو الصحيح ، والأصدران : عرقان يضربان تحت الصدغين ، لا يفرد لهما واحد كذلك ، ويريد الحسن : منكبيه أيضاً ، والعرب تقول : جاء فلان يضرب أصدريه وينفض مذرويه يريدون : جاء مختالاً ، وقد يريدون : جاء باغياً يهدد كما قال عنزة :

أحولى تنفض استك مذرويهما لتقتلى فهما أنا ذا عمارا

« عمارا يريد : يا عمارا »

وقال بعضهم : شهدت الحسن البصرى في جنازة أبو رجاء العطاردي وهو على بغلة والفرزدق يسايره على نجيب ، وكنت على حمار لي ، فذوت منهما ، فسمعت الفرزدق يقول للحسن : يا أبا سعيد ، أتدري ما يقول أهل الجنازة ؟ قال : وما يقولون ؟ قال : يقولون : هذا خير شيخ بالبصرة ، وهذا شر شيخ بالبصرة ، قال : إذن يكذبوا يا أبا فراس أرب شيخ بالبصرة ، شرك بالله ، فذلك شر من أبي فراس ، ورب شيخ بالبصرة ذى طمرين لا يؤبه

له لو أقمم على الله لأبره^(١) ، فذلك خير من الحسن يا أبا فراس ...
ولهذا الحديث تمة ولكننا نتجزأ بهذا الشطر منه لتكون المعانى متصلة
بعضها ببعض .

ونختتم هذا المعنى بأبيات مشهورة ولكنها لا تزال جديدة لأنها بعيدة
الغور موفية على الغاية فى الصدق والسداد ، وهى أبيات اختارها أبو تمام
فى حماسته ونسبها لعباس بن مرداس الصحابى الشاعر ، وقال أبو رياش : إنها
لمعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب معود الحكماء^(٢) وهذه هى الأبيات كما
رواها أبو على القالى فى الأمالى :

ترى الرجلَ النّحيفَ فتزّديه وفى أتوايه أسدٌ هصُورٌ^(٣)
ويُعجِبُكَ الطّيرُ فتبتليه فيُخلفُ ظَنكَ الرجلِ الطّيرِ^(٤)
بغاثِ الطيرِ أطولها رِقاباً ولم تَطُلُ السُّبْرَةَ ولا الصُّقُورُ^(٥)

(١) الطمر : الثوب الخلق البالى . وهذه كلمة الحسن من الحديث : رب ذى طمرين
لا يؤبه له لو أقمم على الله لأبره ، يقول : رب ذى خلقين أطاع الله حتى لو سأل
الله تعالى أجابه

(٢) سعى معود الحكماء بقوله :

سأعقلها وتحملها غني
أعود مثاها الحكمة بعدى إذا ما عَضِلُ الحَدَثانِ نابا

(٣) هصور يروى : مزير ، والهصور : الأسد الشديد الذى يفترس ويكسر
والمزير : الشديد القلب القوى الناقد ومن معانيه : العاقل الحازم

(٤) الطير : ذو الرواء والمنظر والجمال والهيئة الحسنة

(٥) البغات بفتح الباء رضمها : كل طائر ليس من جوارح الطير ، أى لا يصيد ، ويضرب
بها المثل فى اللزوم والشّر ، وفى الضعف ، قالوا : إن البغات بأرضنا يستنسر ، يضرب
مثلا للثيم يرتفع أمره

خَشَّاشُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاحًا وَأُمُّ الصَّقْرِ مَقْلَاتُ نَزْوَرُ^(١)
 ضِعَافُ الْأَسَدِ أَكْثَرُهَا زَهْرًا وَأَصْرَمُهَا اللَّوَاتِي لَا تَزِيرُ
 وَقَدْ عَظَّمَ الْبَعِيرُ بَغِيرَ لُبِّ فَلَمْ يَسْتَعْنِ بِالْعِظَمِ الْبَعِيرُ
 يُنَوِّخُ ثُمَّ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي فَلَا عُرْفٌ لَدَيْهِ وَلَا تَكْبِيرُ^(٢)
 يُقَوِّدُهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ أَرْضٍ وَيَنْحَرُهُ عَلَى الثَّرَبِ الصَّغِيرِ
 فَمَا عَظَّمَ الرَّجَالِ لِهَمِّ بَزِينِ وَلَكِنْ زَيْنُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرُ^(٣)

في الموت

قال المتنبي في الموت :

وما المَوْتُ إِلَّا سَارِقٌ دَقَّ شِئْضُهُ يَصُولُ بِلَا كَيْفٍ وَيَسْعَى بِلَا رَجَلِ
 ومن غريب ما قيل في مدح الموت قول ابن الرومي :

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأكثروا للموت ألف فضيلة لا يعرف
 فيها أمانٌ إلقائه بلقائه وفراق كلِّ معاشرٍ لا ينصّبُ

أقول : لعل ابن الرومي يريد أن يقول : إن للموت مزايا لا تحصى ،
 وقل من يعرفها ، ولو لم يكن فيها إلا أننا بلقاء الموت نظنم بلقاء
 المرئي - وناهيك بفضائله - وبفراق غيره من المعاشرين القليل الإنصاف لكان
 في ذلك الفضل كله للموت ، وقال المتنبي :

(١) خَشَّاشُ الطَّيْرِ : شرارها وما لا يصيد منها ، كالبعثات ، والمقليات : التي تلد
 واحداً ثم لاتلد بعد ذلك وقيل : التي لا يعيش لها ولد ، والقلت : الهلاك تقول :
 أقلت المرأة : إذا هلك ولدها ، والنزور : القليلة الأولاد

(٢) ينوخ : يبرك ، نوخ الجمل وأناخه : فاستناخ : أبركه فبرك

(٣) الخير : الكرم ، وهو أيضاً : الشرف

وقد فارقَ النَّاسُ الأَحْبَةَ قبلنا وأعيا دواءُ الموت كلَّ طيب
سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها مُنعنا بها من جيئةٍ ودُهب
تمسكها الآتى تملك سائب وفارقها الماضى فراق سليب
ولا فضلَ فيها للشجاعةِ والتدبى وصبرِ الفتى لولا إلقاء شعوب

« يقول فى البيت الرابع : لولا الموت لما كان لهذه المعانى فضل ، وذلك أن الناس لو أمِنوا الموت لما كان للشجاع فضل على الجبان ، لأنه قد أيقن بالخلود ، وكذلك لو أمِنوا الموت لاستوى الكريم والبخيل والصابر والجازع ، وكذلك كلُّ الأشياء ، وقال أيضاً :

إلْفُ هذا الهواءِ أوقعَ فى الألف سِ أن الحِمامَ مرُّ المذاقِ
والآتى قبلَ فرقةِ الرُّوحِ عجزُ والأسى لا يكونُ بعدَ الفراقِ

قال أبو العلاء المعرى : إن هذين البيتين يفضلان كذب الفلاسفة لأنهما متناهيان فى الصدق وحسن النظام ، ولولم يقل شاعرهما سواهما لكان له شرفٌ منهما وجمال ...

يقول المتنبي : إن خوف الموت من أكاذيب النفس ، ومن إلفنا هذا الهواء ، وإلا فقد علم أن الحزن على فراق الروح قبل فراقه عجز ، وعلم أيضاً أن الحزن على المفارقة لا يكون بعد الموت ، فلماذا يحزن الإنسان ؟

طائفة من عبقرياتهم في التعازي

ولذمطف الآن على الباب الثالث « عبقرياتهم في الصبر والدنيا والموت
والمرض » فلنسير فيه ولنورد عليك سائر عبقرياتهم في التعازي ثم نختم
الباب بعبقرياتهم في المرض وما يتصل به .

التسليية بعد وقوع المحذور

قالوا: كل شيء يبدو صغيراً ثم يعظم، إلا المصيبة، فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر
واشتكى ابن لِعَمْرَ بن عبد العزيز رضى الله عنه فجزع عليه، ثم مات،
فَرَوَى مُتَسَلِّياً، فقيل له في ذلك؟ فقال: إنما كان جَزَعِي رِقَّةً له ورحمةً،
فلما وقع المصائب زال المحذور... ومَرِضَ ابن لبعض السلف فجزع، ثم
مات فلم يجزع، فقيل له فقال: أما بعد وقوع الأمر فلم يبق إلا الرضا
والتسليم... وقال البحترى:

صُعُوبَةُ الرِّزْقِ تُتَلَقَّى فِي تَوَقُّعِهِ مُسْتَقْبَلًا وَاِنْقِضَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَبْقَا
وَقَبْلَهُ قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجَّارٍ:

أَيَّتَهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحَذَّرُ قَدْ وَقَعَا

ومما يتصل بهذا المعنى قول أبي نواس يرثي المأمون:

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتِ وَحَدَهَ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحْذَرُ

وقال بعضهم: نزلت بامرأة ذات أولاد وثروة، فلما أردت الارتحال

قالت: لا تخلني إذا وردت هذا الصقع، ثم آتيتها بعد أعوام، فوجدتها

قد آتقرت ونكلت أولادها، وهي ضاحكة مسرورة، فسألتها؟ فقالت:

لأن كنت ذات ثروة وجاه، وكانت لي أحزان، فعلمت أن ذلك لِقَلَّةِ الشكر،

وأنا اليوم بهذه الحالة أضحك شكرا لله تعالى على ما أعطاني من الصبر ...
وقيل: إذا استأثر الله بشيء فآله عنه « آله عنه: أتركه وأسئل »

من دواعي التسلي قرب للقوق بالميت

كتب بعضهم: فيم الجزع ونحن على مدرجة الموتى | « المدرجة: الطريق
والمسلك، ... دخل أحدهم على آخر وقد توفى له أخ فاشتد جزعه عليه،
فقال: اذكر مصيبتك في نفسك تُنسك فقد غيرك، واذكر قول الله تعالى:
إنك ميت وإنهم ميتون، وخذ بقول الشاعر:

وهون ما لقي من الموت أن ما أصابك منه يا بني مصيبي
وقال إبراهيم بن المهدي:

وإني وإن قدّمتَ قبلي لعالمٌ باني وإن أبطأتُ عنك قريبُ

وقال آخر:

وهونٌ وجدى أنى سوف أغتدى على إثره يوماً وإن نفس العمر

من تعازي الملوك

وتسلّمهم بأن الناس جميعاً مُصابون

لما حضرت الإسكندر المقدوني الوفاة كتب إلى أمه: أن اصنعى
طعاماً يحضره الناس، ثم تقدّمى إليهم: أن لا يأكل منه محزون، ففعلت،
فلم يبسط أحدٌ إليه يده، فقالت: مالك لا تأكلون؟ فقالوا: إنك تقدمتِ
إلينا أن لا يأكل منه محزون، وليس منّا إلا من قد أصيب بحميم أو قريب
فقال: مات - والله - أبى أو ما أوصى إلى بهذا إلا ليُعزّينى به ...

التسلي بأنه معزى

لامعزى به

قال أبو فراس الحمداني في أبياتٍ يُعزّي بها سيف الدولة بأخته :
 هيهات ما في الناس من خالد لا بدّ من فؤدٍ ومن فؤدٍ
 كُنّ المعزّي لا المعزّي به إذ كان لا بدّ من الواحدِ
 وقال المتنبي من أبيات يمدح سيف الدولة ويرثي ابن عمه أبا وائل :
 مَهْمَا يُعزّي الفتي الأميرَ به . فلا يأنفداه ولا الجود^(١)
 وَمِنْ مَنَانَا بَقَاؤُهُ أَبَدَا حَتَّى يُعزّي بِكُلِّ مَوْلودِ^(٢)

التسلي عن مضي بمن بقي

قيلَ لرجل ماتت امرأته نُفْسَاءُ^(٣) : عَظَّمَ اللهُ أَجْرَكَ فِيمَا أَبَادَ وَبَارَكَ
 فِيمَا أَفَادَ ... وقال المتنبي في مرثية يعزى سيف الدولة بأخته الصغرى
 ويسلّيه بالكبرى :

قَاسِمَتِكَ الْمَنُونُ شَخْصِينَ جَوْرًا جَمَلَ الْقِسْمَ نَفْسَهُ فَيْكَ عَدَلًا^(٤)

(١) يقول : إذا عراه معز بهذا الميت فلا عراه بجوده ولا شجاعته ، أى لا عدهما
 (٢) يقول : أمنتنا التي تمنّاها هي بقاؤه أبداً حتى يعزى بكل من ولد ، يتقدمونه
 ويبقى هو فيعزى بهم

(٣) النفاس : ولادة المرأة إذا وضعت ، والوالدة نفساء

(٤) يقول : قاسمك الموت شخصين فذهب بإحدهما وترك الأخرى ، فكانت
 هذه المقاسمة جوراً لأنه كان من حَقِّك أن يتركهما ولكن هذا الجور عدل فيك
 حيث تركك حياً وكانت المقاسمة في الأختين ، يعنى : إذا كنت أنت الباقي فالجور
 عدل ؛ وهذا إذا نصبت القسم وجعلت الفعل للجور ، أما من رفع القسم فيكون
 المعنى : أن القسم جعل نفسه عدلاً في الجور لأنه وإن أخذ الصغرى فقد أبى الكبرى

فَإِذَا قِسْتَ مَا أَخَذْتَ بِمَا أَغَى دَرْنَ سَرَى عَنِ الْفَوَادِ وَسَلَى (١)
ولمّا ماتت الأخت الكبرى بعد ذلك رثاها فقال :

قد كان قاسمك الشخصين دهرهما وعاش دُرهما المقدى بالذهب (٢)
وعاد في طاب المتروك تاركه إِنَّا لَنَغْفُلُ وَالْأَيَّامُ فِي الطَّابِ
ما كان أقصر وقتا كان بينهما كأنه الوقت بين الورد والقرب (٣)

وفي هذه المراثية الثانية هذان البيتان البديعان :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فرغت فيه بأمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا شرت بالدمع حتى كاد يشرق بي

من تسلى بماله من الثواب

وبعض تعازيمهم

دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك - وكان قد أصابه الطاعون -
فقال : دعنى أمس قرحتك ، - وكان يقال : إذا كان القرح لينا يرجى ،
وإن كان خشنا لا يرجى - فامتنع عبد الملك من أن يمسه ، فعلم عمر لم
متعه ! فقال : دعنى أمسه ، فوالله لأن أقدّمك فتكون في ميزانى أحب إلى
من أن أكون في ميزانك ! فقال : والله ، لأن يكون ما تريد أحب إلى

(١) أغدرن : مثل غادرن أى تركن وأبقين ، وسرى : أذهب ، وسلى : عزى وهذا
البيت يؤيد رواية رفع القسم

(٢) يريد بالشخصين : أخته الكبرى والصغرى وجعل الكبرى كالدر لنفاسته
وجعل الصغرى ذهباً ، وجعل الكبرى كدر فدى بالذهب

(٣) من عاده القوم أنهم يرعون الإبل وهم في ذلك يسرون نحو المساء فإذا بقي بينهم وبين
الماء عشية فتلك الليلة ليلة القرب يقول : ما كان أقصر ما كان بينها من الزمان فكانه
ما بين القرب إلى الورد ، وهو ليلة

من أن يكون مأريداً فلمسها ، فقال : يا عبد الملك ، الحق من ربك فلا تكونن من المُستترين ... فقال : ستجدني إن شاء الله من الصابرين ...
ولما مات عبد الملك عزى أباه الحسن البصري بهذا البيت :
وَعُوِضَتْ أَجْرًا مِنْ فَقِيدٍ فَلَا يَكُنْ فَمَيِّدُكَ لَا يَأْتِي رَأْجُكَ يَذْهَبُ
وروى : أن رجلا جزع على ابن له ، فشكى ذلك إلى الحسن ، فقال له :
هل كان ابنك يغيب عنك ؟ فقال : نعم ، كان مغيبه عنى أكثر من حضوره
قال : فاتركه غائبا ، فإنه لم يغيب عنك غيبة الأجر لك فيها أعظم مثل هذه
الغيبة ... وقال أعرابي : وقد مات له ثلاثة بنين في يوم واحد ، فدفعهم
وعاد إلى مجلسه ، فجعل يتحدث كأن لم يفقد واحدا ، فليم على ذلك ، فقال :
ليسوا في الموت بيدع ، ولا أنا في المصيبة بأوحد ، ولا جدوى للجزع ،
فعلام تلو مؤننى !

من مات له كثير من أهله

فصير

نظر رجل بالبصرة إلى امرأة فقال : ما رأيت مثل هذه النظارة وما ذاك
إلا من قلة الحزن ! فقالت : ما حزن كحزنى اذبح زوجى شاة ، ولى صبيان
يلعبان ، فقال أحدهما للآخر : تعال أريك كيف ذبح أبو الشاة ، فذبحه ،
ثم خاف فهرب إلى الجبل ، فرهقه ذئب ، فافتترسه ، وخرج زوجى فى
طأبه ، فاشتد عابه الحر فمات عطشا ا فقبل لها : كيف صبرت ؟ فقالت :
لو وجدت فى الحزن دركا ما اخترت عليه ... « رهقه : غشيه ، ودركا :
تريد مداركة لما فات »

ومن أدعيتهم لذوى المصيبة

ومن قولهم فى الدعاء لذوى المصيبة : وَهَبَ اللهُ لَكَ عُمْرًا طَوِيلًا وَأَجْرًا جَزِيلًا وَعُسْرًا جَمِيلًا ؛ لَقَاكَ اللهُ الصَّبْرَ وَوَقَاكَ مَا يُحْبِطُ الْأَجْرَ . وقال رجل لابن عمر : عَظَّمَ اللهُ أَجْرَكَ ، فقال : بل جعل اللهُ لِي العَافِيَةَ ... « وذلك أن تعظيمَ الأجر فى تعظيم ما يُوَجِّرُ عليه من المصيبة ، وقالوا : التعزية بعد ثلاث تجيّدُ للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاث استخفافٌ بالمؤدّة ... »



« وبعد ، فأما عقرياتهم فى المرائى فإنَّ لها موضعا آخر فى هذا الكتاب كما أن عقرياتهم فى المدح والثناء تراها فى باب قد أفردناه لها .

عقرياتهم فى الطب والمرض وعيادة المرضى

معنى الطب

كلُّ حَاقِيقٍ بَعْمَلِهِ : طَيِّبٌ عِنْدَ الْعَرَبِ ، وَرَجُلٌ طَبَّ بِكَذَا : أَى عَامِلٌ بِهِ ثُمَّ صَارَ الطَّيِّبُ اسْمًا لِلْعَالِمِ بِمَدَاوِةِ أَبْدَانِ النَّاسِ ، وَقَالُوا : حَدُّ الطَّبِّ : مَعْرِفَةُ الدَّاءِ وَتَقْيِيهِ بِالدَّوَاءِ ، أَوْ هُوَ : اسْتِدَامَةُ الصَّحَّةِ وَمَرَمَةُ السَّقَمِ .

وصف طيب حاذق

قال لسرى الرفاء فى طيب حاذق :

أَوْضَحَ نَهْجَ الطَّبِّ فِي مَعْتَبِرٍ مَازَالَ فِيهِمْ دَارِسَ الرَّسْمِ (١)
كَأَنَّهُ مِنْ لُطْفِ أَفْكَارِهِ يَجُولُ بَيْنَ الدَّمِّ وَاللَّحْمِ

(١) ارسـم : الاثر ، ودرس الرسم : عفا

لَوْ غَضِبْتَ رُوحٌ عَلَى جِسْمِهَا أَصْلَحَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجِسْمِ
وقال أيضاً :

يَبْدُو لَهُ الدَّاءُ الْخَبِيثُ كَمَا بَدَأَ لِلدَّيْنِ رَضْرَاضُ الْعَدْبِ الصَّافِي (١)

الطيب الجاهل

رأى فيلسوف طيباً جاهلاً فقال : هذا مُسْتَحْتَلٌ لِلْمَوْتِ ... وقال الشاعر
المعروف بالخبز أُرْزِي (٢) في طيب اسمه نُعْمَانُ :

أَقُولُ لِنُعْمَانَ وَقَدْ سَاقَ طِبُّهُ نَفُوساً نَفِيسَاتٍ عَلَى سَاكِنِي الْأَرْضِ
« أبا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِي بَعْضَنَا حِنَاتِيكَ بَعْضَ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ »
« أَقُولُ : إِنْ الْبَيْتَ الثَّانِي لَطَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ » صَمَّتهُ الْخَبْزُ أُرْزِي شِعْرُهُ «
وقال آخر في طيب :

لَمْ يَأْتِ فِي الْأَرْبَعَا عَلِيلاً إِلَّا دَفَنَاهُ فِي الْخَنِيْسِ

وكان رجل يجتري التصوير ثم تركه وتطبب ، فقبل له في ذلك ؟ فقال :
الخطأ في التصوير تُدرِكُه العيون ، وخطأ الطيب تُوارِيه القبور ...

مدح الحمية وذمها

قال قائل للحارث بن كَلْدَةَ - وكان طيبَ العرب - : مَا الطَّبُّ فَقَالَ :
هُوَ الْأَزْمُ ... وَمَرَادُهُ بِالْأَزْمِ : الْحِمِيَّةُ وَالْإِمْسَاكُ عَنِ الْاسْتِكْتَارِ مِنَ
الطَّعَامِ ... وَقِيلَ لَجَالِيئِنِّي أَوْ لَا بُقْرَاطَ : إِنَّكَ تُقَلُّ مِنَ الطَّعَامِ قَالَ :
غَرَضِي مِنَ الطَّعَامِ أَنْ آكُلَ لِأَحْيَا ، وَغَرَضِي غَيْرِي مِنَ الطَّعَامِ أَنْ يَحْيَا

(١) الرضراض : مَادِقٌ مِنَ الْحَصَى

(٢) اسمه نصر وكان شاعراً أمياً وكان يجز خبز الأرز ، ترجم له ابن خلكان وياقوت

ليأكل ... وقالوا: لا تأكل ما تشتهي فَيُصِيرُكَ إِلَى مَا لَا تَشْتَهُى ... وفي الحديث:
 لَا تُكْرِهُوا مَرْضَاكُمْ عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ اللَّهَ يُطْعِمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ ...
 وقالوا: الحِمِيَّةُ للصَّحِيحِ ضَارَّةٌ ، كما أَنَّهَا لِلْعَلِيلِ نَافِعَةٌ ... وقال الرَّشِيدُ لِلْفَضْلِ:
 مَا أَطِيبُ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ؟ فَقَالَ : رَفُضَ الْحِشْمَةِ وَتَرَكَ عِلْمَ الطَّبِّ ، فَلَا
 عَيْشَ لِمُحْتَشِمٍ وَلَا لَذَّةَ لِمُحْتَمٍ ... وقالوا : مَنْ عَرَفَ مَا يُضُرُّهُ مِمَّا يَنْفَعُهُ
 فَهُوَ مَرِيضٌ ... وقال أَفْلَاطُونُ : المَوْتُ مَوْتَانِ : طَبِيعِي وَإِرَادِي : فَالطَّبِيعِيُّ
 مَفَارِقَةُ الرُّوحِ لِلبَدَنِ ، وَالإِرَادِيُّ تُنْمَعُ الأَبْدَانُ مِنَ الشَّهَوَاتِ ... وقالوا:
 الأَبْدَانُ الَّتِي اعْتَادَتِ الحِمِيَّةَ أَفْنُهَا التَّخْلِيطُ ، وَالأَبْدَانُ الَّتِي اعْتَادَتِ التَّخْلِيطَ
 أَفْنُهَا الحِمِيَّةُ ...

شرب الدواء

قال سيدنا رسول الله : مَنْ اسْتَقَلَّ بَدَانَهُ فَلَا يَتَدَاوَنَ ، فَإِنَّهُ رَبَّ دَوَاءٍ
 يُورِثُ الدَّاءَ ... وَكَانَتِ الحِكْمَاءُ تَقُولُ : إِذَاكَ وَشُرْبَ الدَّوَاءِ مَا حَمَلَتْ صِحَّتَكَ
 دَاءَكَ ... وقالوا : مَثَلُ شُرْبِ الدَّوَاءِ مَثَلُ الصَّابُونِ لِلشُّوبِ ، يُنْقِيهِ وَلَكِنْ
 يُخْلِقُهُ وَيُبْلِيهِ ... وَقَالَ أَهْرَاطُ : الدَّوَاءُ مِنْ فَوْقَ ، وَالدَّوَاءُ مِنْ تَحْتِ ،
 وَالدَّوَاءُ لِأَفْوَقٍ وَلَا تَحْتِ ، وَفَسَّرَ ذَلِكَ مُفَسَّرُوهُ فَقَالُوا : مَنْ كَانَ دَاوَهُ فِي
 بَطْنِهِ فَوْقَ سُرْتِهِ سُقِيَ الدَّوَاءَ ، وَمَنْ كَانَ دَاوَهُ تَحْتِ سُرْتِهِ حُقِنَ ، وَمَنْ لَمْ
 يَكُنْ بِهِ دَاءٌ لَمْ يَكُنْ فَوْقَ وَلَا مِنْ تَحْتِ لَمْ يُسَقَ الدَّوَاءُ ، فَإِنَّ الدَّوَاءَ إِذَا لَمْ يَجِدْ
 دَاءً يَعْمَلُ فِيهِ وَجَدَ الصَّحَّةَ فَعَمِلَ فِيهَا ...

سياسة الأبدان

بما يصلحها من الطعام وغيره

قال الحجاج بن يوسف الثقفي لتيأذوق مُتَطَبِّيه^(١) : صِف لي صِفَةً آخَذَهَا
ولا أعدوها ، قال تِيأذوق : لا تزوج من النساء إلا شَابَةً ، ولا تأكل من
اللحم إلا فَتِيًّا ، ولا تأكله حتى يُنْعَمَ طَبْخُهُ ، ولا تُشْرَبَنَّ دِرَاءً إلا من
عِلَّةٍ ، ولا تأكل من الفاكهة إلا نَضِيحَهَا ، ولا تأكل طعاما إلا أُجِدَّتْ
مَضْغَةً ، وكل ما أَحْبَبْتَ من الطعام واثْرَبْ عليه ، وإذا شَرِبْتَ فلا تأكل
عليه شيئا ، ولا تحبِسِ الغازط والبُول ، وإذا أَكَلْتَ بالناهِرِ فَنَمْ ، وإذا أَكَلْتَ
بالليل فتمَشَّ ولو خمسين خُطوة ... فقال له بعض مَنْ حَضَرَ : إذا كان الأمر
كما تقول فإلِمَ هَلِكَ أبقرات ولمْ هلك جالينوس وغيرهما ولم يَبْقَ أحد
منهم ؟ قال : يَأْتِي ، قد احتَجَجْتَ فَاسْتَمِعْ : إن القوم دَبَرُوا أَنفُسَهُمْ بما
يملكون ، وغالبهم مالا يملكون - يعنى الموت وما يَرُدُّ من خارج ، كالحرِّ
والبرد والوقوعِ والغرقِ والغمِّ وما أشبه ذلك - ... وقال تِيأذوق أيضاً
للحجاج : أربعةٌ تهْدِمُ العَمْرَ وَرُبَّمَا قَتَلْنَ : دُخُولُ الحَمَامِ على بَطْنَةٍ ، والمِجَامَةُ
على الامْتِلاءِ ؛ وأكل القَدِيدِ الجافِ^(٢) ، وشَرْبُ المِساءِ الباردِ على الرِّيقِ ؛
وما مِجَامَةُ العَجُوزِ ببيعِدةٍ مِنْهُنَّ ... وَوَجَدَ الحِجَاجُ في رَأْسِهِ صُدَاعًا فَبَعَثَ
إلى تِيأذوقٍ وَأَحْضَرَهُ ، فقال : آغْسِلِ رِجْلَيْكَ بِمِاءِ حَارٍّ وَاذْهَنْهُمَا ، وَخَصِيْ
لِلحِجَاجِ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ ، فقال الخِصِيُّ : والله ، ما رأيتُ طَبِيبًا أَقَلَّ مَعْرِفَةً

(١) ترجم له ابن أبي أصيبعة في طبقات الاطباء

(٢) القديد : اللحم المجفف

بالطَّب منك ا شكى الاميرُ الصُّداع في رأسِه فتِصِف له دواءً في رِجلِه ا
فقال له : أما إنَّ علامَةَ ماألتُ فيكَ بَيِّنَةٌ ! قال الحِصِيُّ : وما هي ؟ قال :
نَزَعَت حُصِيَّتاك فَذَهَبَ شَعْرُ الحِيتِكَ ! فَضَحِكَ الحِجَّاجُ وَمَن حَضَرَ ...

وقال عبد الملك بن مروان لأعرابيَّ : إنَّكَ حَسَنُ الكِدْبَةِ ا قال : إني
أُذِفِي رِجْلِي في الشتاء ، وَأُغْفِلُ غاشيةَ النِّمِّ ، وآكلُ عند الشهوة ...
ويقال : ثلاثة أشياء تُورِثُ الهُزالَ : شربُ المِاءِ على الرِّيقِ ، والنومُ على
غيرِ وِطاءٍ ، وكثرةُ الكلامِ برفعِ الصوتِ ... وقالوا : الدواءُ الذي لاداءٍ معه :
أن تجلِسَ على الطعَامِ وأنْتَ تشتهيه وتقومَ عنه وأنْتَ تشتهيه .

وقال أرسطوطاليس : المَطْعُمُ والمَشْرَبُ إذا كَثُرَا على المَعِدَةِ أظفَأَ
نارَها تَبَجرت الأغذية في البَدَنِ غيرَ نَضِيجَةٍ ، فَصارَ ذلكُ نُقصانًا للبَدَنِ يورِثُ
الفِترَةَ ^(١) ، كالشجرة ، إذا كَثُرَ ماؤها عَفِنَتْ وإنْ قَلَّ جَفَّتْ ، وكالسرَّاجِ ، إذا
قَلَّ دُهْنُه أو كَثُرَ انظفَأَ ... وقال بعضهم : مَنْ تَعَدَّى وتَعَثَّى ولم يأكل
فيما بيدهما ، سَلِمَ من الأوجاعِ ، لِقولِ الله عز وجل : ولهم رِزقُهُم فيها بُكرةً
وعَشِيًّا ... وقال بعضُ الأطباءِ : أَحَبُّ الناسِ إلينا : الرِّغيبُ البَطْنُ ، لكثرةِ
حاجاتهم إلينا . . . وأخبرَ بعضُ الأمراءِ بشيخٍ قد أتتْ عليه مائةٌ وخمسون
سنةً في اعتدالِ جسمِهم ونضارةِ لونِهم ، فاستدعاه وسأله فقال : إنَّ كانَ لِما تَرى
من هذه المَوْهبةِ الجميلةِ سَبَبٌ بعدَ تَقديرِ الله تعالى فما أَصِفُه : ما حَتمَلْتُ مِهمًا
تَبُعدُ عني مُدافَعَتُه ، ولا رأيتُ من زوجةٍ مَكروها ، ولا اجتمعَ في بَطْنِي
طعامانِ ، وإذا شَرِبْتُ شرابًا تناوَلتُه رقيقًا طيبًا لا أثمَلُ منه ^(٢) ، ولا أستدعي

(١) الفِترَةُ : الضعفُ والانكسارُ (٢) ثَمَلُ يثْمَلُ : أخذ منه الشرابَ والسكرَ

الطبيعة من غير عارض ، وما استدعيتُ للباه^(١) حركة إلا أن يهيج بالطبيعة على القلب ، وإذا فعلتُ ذلك أقلتُ الحركة بقية يومى . . . وقالوا : أضر الأشياء للبدن : الفسكُ والسهر ، وأنتكُ الأشياء للبدن : الخوف . وقال المأمون : قد أصبتُ دواء يمرئى ولا يؤكلُ ولا يُشربُ اققيل : ماهو ؟ قال : النومُ إثر الغداء . . . وقالوا : إذا أكلت فاضطجع على جنبك الأيسر ، فإن الكبد يقع على المعدة فينضج الطعام فيهضمه . . . وقالوا : غشيانُ المرأة المولية يضعف الثوة ويُسقمُ البدن ، لأنها كالشنن البالى^(٢) ، ماؤها سم قاتل ، تأخذ منك ولا تعطيك . . .

من تناول طعاما

وتحقق تولد علة منه

اجتاز رجلٌ بصديق له محموم فسأله عن سببِ عِلته ؟ فقال : أكلتُ فى هذا الصيف فراخا وعسلا وشربتُ خمرأُ صلبا - شديدة - ونمتُ فى الشمس فقال له : على كلِّ يمين ، لو كانت الحمى من حملة الشمس ورأتك بهذه الحالة اتركتُ عملها وواقفك . . . ونظر طبيبٌ إلى دهقان^(٣) يغرُسُ شجرة مشمش فقال له : ما تصنعُ ؟ قال : أعملُ لى ولك ادىعنى أن الطيب ينتفع بالمشمش ، لسوء أثره على آكله ، وحاجتهم إلى الطيب ، لما يتولدُ فيهم من الادواء لا كل الطرى منه ، وفى هذا المعنى يقول ابن الرومى :

إدما رأيت الدهرُ بستانِ مِشمش فأيقن بحقِّ أنه إطبيب
يُغِلُّ له مالا يُغِلُّ لربه يُغِلُّ مريضا حَمْلُ كلِّ قِصِبِ

(٢) الشنن : القرية الخلق

(١) الباه والباهة والباه والباهة : الجماع

(٣) رئيس القرية

« يُغَلَّ له : أى يعطى الطيبَ من الغَلَّةِ - وهى الدَّخْلُ - مالا يُعطيه لصاحبه ،
وذلك أن حَمَلَ الغصنِ الواحد من كل شجرة مشمش من أشجار ذلك البُستان
إذا أكله إنسان فإنه ينقلب مريضاً فيلجأ إلى الطيب ،

الحمى

قال المتنبى :

وزائرَتى كأنَّ بها حياءً	فليس تزورُ إلا فى الظلامِ
بَدَلتُ لها المطارِفَ والحشايا	فعاقتها وباتتْ فى عظامى
يَضيقُ الجِلدُ عن نَفسى وعنها	فَتوسِعُه بأنواعِ السَّقامِ
إذا ما فارَقَتْنى غَسَلتْنى	كأننا عاكفانِ على حرامِ
كأنَّ الصُّبحَ يطرُدُها فتَجرى	مَدامعُها بأربعةِ سِجامِ
أراقِبُ وقتها من غيرِ شوقِ	مُراقِبَةَ المَشوقِ المُستَهامِ
ويَصُدقُ وعُدوها والصدقُ شرٌّ	إذا ألقاكِ فى الكُربِ العِظامِ

« وقوله : وزائرَتى ... البيت يقول : إن الحمى التى كانت تأتية ليلا ،
كأنها حَيِّيةٌ فليست تزور إلا فى الليل ... والمطارِف فى البيت الثانى : جمع
مُطرَف وهى : أُرْدِيَةٌ مُرْبَعَةٌ من خَزٍّ فى جنبها عَمَلانِ ، والحشايا
جمع حَشِيَّة : ما حِشَى من الفرش مما يُجلس عليه ، يقول . إن هذه الزائرة
- الحمى - لا تبيت فى الفراش وإنما تبيت فى عظامى . وقوله : يضيق الجلد .
البيت يقول : يضيق جلده فلا يَسْمُها ولا يَسعُ أنفاسى التى أتَنفُسُها ، وهى
مع ذلك تذهب بلحمى فتوسِع جلدى بما تورد عليه من ضروب السقم ،
وقوله : إذا ما فارَقَتْنى غَسَلتْنى ... يقول : إنه يَعرَقُ عند فراقِها ، فكأنه

تغسله لُكُوفهما على ما يوجب الغُسل ، وإنما خَصَّ الحرام لأنه جعلها
 زائرة غريبة ولم يجعلها زوجةً ولا مملوكة... وقوله : كأن الصبح... البيت
 يقول : إنها تفارقه عند الصبح فكان الصُّبح يطردُها ، وأنها إذا فارقتَه
 تجرى مدامعُها من أربعة سِجَام ، يريد : كثرة العرق - عَرَق الحُمى - فكانتِها
 تبسكي عند فراقه لِحُبِّها إياه ، وأراد بالأربعة : اللَّحَاظِينَ والمُوقِنِينَ للعَيْنِينَ .
 وقوله : أراقب وقتها الخ يقول : أنتظر وقت تجيئها كما ينتظر المَشُوق مجيء
 حبيبته ، وذلك أن المريض يجزع لورود الحمى ، فهو يراقب وقتها خوفاً
 لا شوقاً . ثم قال : ويصدق وعدُّها ، يقول : إنها صادقة الوعد في الورد
 وذلك الصدق شرٌّ من الكذب ، لأنه صدق بضر ولا ينفع كمن أوعده ثم صدق
 في وعيد... »

وقال المتنبي أيضاً :

ومنازلُ الحمى الجسومُ فقلْ لنا ما عذرها في تركها خيراتها
 أعجبتُها شرفاً فطال وقوفُها لتأمل الأعضاء لا لأذاتها
 « يقول المتنبي لهذا الممدوح - وكان مُصاباً بالحمى - إنَّ جِسْمَكَ خَيْرُ
 الأجسام فلا عذرَ للحمى في تركه ، لأن محلَّها الأجسام اثم قال : إن الحمى
 لما رأتك في المحل الأرفع من الشرف والكرم والنبل أعجبتُها فأقانت
 في بدنك لتأمل أعضائك التي اشتملت على تلك المحامد ، لأنها تريد أن
 تؤذيك... » وقال الشاعر أبو الفتح كُشاجم^(١) في علي بن سليمان الأخفش :
 وانفذ أخطأ قومٌ زعموا أنها من فضلِ برْدٍ في العصب

(١) هو محمود بن الحسين بن السندی بن شامك ، وشاعك أمه

هو ذاك الذهن أذكى نارهُ والمزاجُ المُفْرِطُ الحَرَّ التَّهَبُ
 ودخل بختيشوع^(١) على يحيى بن خالد بن برمكٍ بعقب حمى فقال
 له : تَوَقَّ فَإِنِ حَمَى لَيْلَةً يَبْقَى فِي الْبَدَنِ تَأْمِيرَهَا سَنَةٌ — وعنده وكيع فقال :
 صدق ، فقال يحيى : مَا أَقْرَبَ تَصْدِيقَكَ إِيَّاهُ قَالَ : لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ . حَمَى لَيْلَةً كَفَّازَةٌ سَنَةٌ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا مِنْ ذَلِكَ ...

الرمد

مَا يُسْتَحْسَنُ فِي عَيْنِ مَحْبُوبٍ رَمْدَاءُ قَوْلُ ابْنِ الْمُعْتَزِّ :
 قَالُوا : اشْتَكَّتْ عَيْنُهُ نَقَاتَ لَمْ : مِنْ شِدَّةِ الْفَنَكِ نَالَهَا الْوَصْبُ^(٢)
 حَمْرُهَا مِنْ دِمَائِهِ مَن تَلَّتْ وَالدَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبٌ^(٣)
 وَفِي مَعْنَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :
 قَالُوا : الْحَبِيبُ شَكَا جُعِلَتْ فِدَائِهِ رَمْدًا أَضْرَّ بَعِينَهُ كَالْعَنْدَمِ^(٤)
 فَأَجِبْتُهُمْ : مَا زَالَ يَفْتِكُ لَحْظُهُ فِي مُهَجَّتِي حَتَّى تَلَطَّخَ بِالْدَمِ

(١) بختيشوع بن جورجس هو طيب يوناني الاصل ، اتصل بهرون الرشيد
 وخدمه وكانت له منزلة عنده ، وكان أبوه جورجس طيب أبي جعفر المصور ،
 وابنه يدعى جبرائيل بن بختيشوع ؛ كان من أمهر الأطباء اتخذه جعفر بن يحيى البرمكي
 طبيبه الخاص وحظي عند الخلفاء ونال منهم أموالا لم ينالها أحد غيره منهم
 (٢) الفنك يروى : القتل ، والفتك أحسن ، والوصب : المرض والوجع الدائم
 وقد يطلق على التعب

(٣) النصل : فصل السهم والسيف والرمح وقد يسمى السيف نصلا

(٤) العندم : صيغ أحمر يختضب به

النقرس (*)

كان أبو الفضل بن العميد يكثر برجله النقرس ، فقيل له : لا تغتم فإن ذلك يؤذِنُ بطولِ العمر ! فقال : طولِ العمرِ هو أنْ مَنْ به النقرسُ يسهرُ ، فيصيرُ ليلتهُ نهاراً ، فكأنما يتضاعفُ عمره ... وقال المبردُ : ذكر أعرابيُّ رجلاً قد أترى فقال : تنقرس ! كأنه سمع أن النقرس يكون مع النعمة ... ومنه قول الأعرابيِّ :

ألا فاعجبوا من مُفلسٍ حلفِ نقرسٍ أما نقرسٌ في مُفلسٍ بعجيبِ
« فلان حلف كذا أي : حليفه وملازمه »

عودٌ إلى عبقرياتهم في التداوى والأدوية

قيل لأبقراط : ما بال إنسان يكون أثورَ ما يكون بدنًا إذا شرب الدواء ؟ فقال : مثل البيت تراه أكثر ما يكون غباراً إذا كُدس ... ومن قولهم : مثل الدواء مثلُ عدوِّ إلى جانبه صديق ، ترمي العدو فلا تأمن أن تُصيب الصديق ... وقالوا : لا تُستعملُ الأدوية فيما تنفع فيه الأغذية .

وفي الحديث الشريف : تداووا فإن الله ما أنزل داءً إلا أنزل له دواءً ، إلا الهرم ...

وقالوا : حق الطيب أن يتأني في المداواة فعثرته لا تقال ... وقالوا المتأني في علاج الداء بعد معرفة الدواء كالمُتأني في إطفاء النار وقد أخذت بحواشي ثيابه

(٥) النقرس : داء معروف يأخذ في الرجل وهو ورم يحدث في مفاصل القدم وفي

إيهاها أكثر

شهوة المريض إلى الطعام

قال أبقراط : المريض الذي يَشْتَهِي أَرْجِي عِنْدِي مِنَ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا يَشْتَهِي ... وَقَالَ الْمُنْبِي :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مَرِيضٍ يَجِدُ مَرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا
 وَقِيلَ لِلْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ فِي عِلَّتِهِ . أَشْتَهَى شَيْئًا ؟ قَالَ : لَا أَوْ بُرْدِي
 أَنْ أَشْتَهَى . وَقِيلَ ذَلِكَ لِآخِرِ قَتَالٍ : أَشْتَهَى أَنْ لَا أَمُوتَ .

شكوى العلة

وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ لَا يَرَى بَأْسًا فِي شَكْوَى عِلَّتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ
 فَمِنْ شَكَا عِلَّتَهُ أَبُو نَوَاسٍ إِذْ يَقُولُ :

دَبَّ فِي السَّقَامِ سُفْلًا وَعُلوًا وَأَرَانِي أَمُوتُ عِضْوًا فَعِضْوًا
 لَيْسَ يَمِضِي مِنْ سَاعَةٍ بِي إِلَّا نَقَّصْتَنِي بِعَرَّهَا بِي جُزْوًا
 لَهْفَ نَفْسِي عَلَى لَيْالٍ وَأَيَّامٍ تَمْتَعْتُهُنَّ لِعِبَابًا وَلَهْوًا
 وَقَالُوا : * وَلَا بَدَّ مِنْ شَكْوَى إِذَا لَمْ يَكُنْ صَبْرًا *

وَلَمَّا مَرَضَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ وَعَادَهُ النَّاسُ قَالُوا لَهُ : كَيْفَ تَجِدُكَ ؟
 قَالَ : بِشَرِّ ، قَالُوا : هَذَا كَلَامٌ مِثْلَ ذَلِكَ قَالَ : أَجَلٌ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ :
 « وَنَبِّئُوهُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » فَالْخَيْرِ الصَّحَّةُ ، وَالشَّرُّ الْمَرَضُ

وَقَالُوا : الشَّكْوَى تُخَفِّفُ الْهَمَّ وَتُنْزِلُ الْإِلَامَ ...

وَلَمَّا وَجَّهَ الْمُتَوَكِّلُ فِي السَّنَةِ الَّتِي قُتِلَ فِيهَا أَنْ يُحْمَلَ إِلَيْهِ الْجَاحِظُ مِنَ
 الْبَصْرَةِ قَالَ لِمَنْ أَرَادَ حَمَلَهُ : وَمَا يَصْنَعُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَمْرِي لَيْسَ بِطَائِلٍ ،
 ذِي شِقِّ مَائِلٍ ، وَلُعَابِ سَائِلٍ ، وَفَرْجِ بَائِلٍ ، وَعَقْلِ حَائِلٍ « حَائِلٌ : مُتَغَيِّرٌ ،

وحدّث المُبرّدُ قال : دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوجٌ لو حُزَّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر مُنقرَسٌ^(١) أو طار الذباب بقُربِه لآلامه ، وأشدُّ من ذلك ستُّ وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كذبتك نفسك ، ايسَ ثوبٌ دَريسٌ كالجديد من الثيابِ
« دريس : بال »

وقيل لآخر : ما تشكو ؟ فقال : تمامُ العِدّةِ وانقضاءُ المُدّةِ ... وقال بعضهم لمن يشكو : أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ! وقيل لسعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص وهو مريض : إن المريض يتفرجُ إلى الأنيب وإلى أن يصف مابه إلى الطبيب ، فقال : أما الأنيب فوالله إنه لجزع ولا يسمعُ الله مني أينما فأكونَ عنده جزوعا ، وأما الطبيب فوالله لا يحكم غير الله في نفسي ، فإن شاء قبضها إليه وإن شاء منَّ بها عليّ ...

فضل الصحة والعافية

قالوا : شيان لا يعرفُ فضلُهُما إلا من فقدَهُما : الشَّبابُ والعافية .
وقالوا : لا يعرفُ طعمَ العافيةِ إلا من نالته يدُ العيلةِ ، ولا طعمَ الرِّخاءِ إلا من مسَّته يدُ البلاءِ .

(١) منقرس : مصاب بالنقرس وهو ورم أو وجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين وفي إبهامهما أكثر

نفع المرض

اعتلَّ الفضلُ بن سَهْلٍ بخراسانَ ، ثم برأ ، فجلس للناس فهتأوه بالعافية
وتصرَّفوا في فنون الكلام ، فلما فرغوا أقبل على الناس فقال : إن في العلل
ينها يدبغى للعافل أن يعرفها : تمحيصُ الذنب ، والتعرضُ للشواب ، والإيقاظُ
من الغفلة ، والإذكارُ بالنَّعمة في حال الصَّحة ، والاستدعاءُ للآوبة ، والحضُّ
على الصدقة ، وفي قضاءِ الله وقدره الخيار ...

واعتل بعضهم فقال : اللهمَّ أجمله أدباً لا عَضْباً ... وفي الحديث الشريف :
إن المريض تتحاتُّ عنه خطاياهُ كما يتحاتُّ ورقُ الشجر (١) ... وذُكرت
الأدواءُ عند أبي الدرِّدَاء فقال رجلٌ : ما اشتكيتُ قطُّ ، فقال لا جرم أن
ذنوبك لم تحطَّ عنك ...

وصف العلة بأنها تنال الأماثل

قال أبو تمام من أبيات في مرض الياس بن أسد :

فإن يكنَّ وصبَّ عاينتَ سورته فالوردُ حلفٌ لليث الغاية الأضم
إن الرباح إذا ما أعصفتُ فصمتُ عيِّدان تجد ولا يعبان بالرتم
بناتُ نعشٍ ونعشٍ لا كسوف لها والشمسُ والبدرُ منها الدهر في الرقم
قد يُنعمُ اللهُ بالباوى وإن عظمتُ ويبتلى اللهُ بعضَ القوم بالنعم

« الوصب هنا : المرض ، وسورته : شدته ، والورد : الحمى ، والأضم :

الغضبان : وعيِّدان (بالفتح) جمع عيْدانة وهي : النخلة الطويلة والشجرة

(١) تحات الشيء : تناثر ، وتحات الورق : سقط عن الغصن

السُّبُلَةُ القَدِيمَةُ . والرَّحْمُ : نبات من أدق الشجر، ونبات تُعْش كبرى وهي سبعة كواكب أربعة منها نَعَشٌ وثلاث بنات؛ وِصْغَرَى : وهي مثلها، ومنها نَأَى من دونها، والرِّقْمُ : السواد، ويضئ به الخفاء للكسوف والخسوف « وقال البحرى :

وما الكلبُ محوماً وإن طالَ عُمرُهُ ألا إنما الحمى على الأسدِ الوَرْدِ
 « قيل للأسد وَرْدٌ لأن لونه أحمر يضرب إلى صُفْرَةٍ ، وفي الحديث الشريف : مثلُ المؤمنِ مثلُ الحامَةِ من الزرع ، تُفِيئُها الريحُ مرةً وتَعْدِلُها مرةً ، ومثلُ الكافرِ مثلُ الأرزَةِ لا تزالُ حتى يكونَ انجِفافُها مرةً واحدة .
 « الحامَةُ : الزرع أول ما ينبت على ساقٍ واحدة ، وقيل : السُّبُلَةُ ، وقيل : الطاقة الغضة من الزرع ، وقيل : الشجرة الغضة الطرية . وَتُفِيئُها : تحركها وتُمَيِّها يَمِيناً وشَمالاً ، والأرزَةُ : واحدة الأرز : شجر معتدل صلب لا يحرکه هبوب الريح يقال له الأرزة معروف بلُبنان ، وقيل : شجر الصنوبر والجمع أرز ، وانجفافها : انقلاعها . ومعنى الحديث : أن المؤمن يلغى له أن يتلقى المكاره صابراً راجياً الخير من ورائها ، وأن يُعَدَّ نفسه كأوائل الزرع تُمَيِّله الرياح يَمِينَةً وَيَسْرَةً ، فهو في الدنيا هَدْفٌ تَنْتَضِلُ فيه الرزايا ، فليس له إلا أن يَعْتَصِمَ بالصبر والرضا ، وأن يَعْلَمَ علماً ليس بالظن أن كل ما يُرْزُوه من فُقدان مال وولد وما إليهما ، وما يصيبه من مَرَضٍ ووَصَبٍ ، إنما هو مكفَّرٌ لتساياته رافع لدرجاته ؛ أما الكافر ، أما العِفرِيَّة النَّفْريَّة ، فإن كل همٍّ أن يَسْتَمْتِعَ بشهوات الدنيا ولذاتها ، فإذا رُزِيَ في ماله وولده ونفسه تَسَخَطَ ولم يَنْذِرْ لنفسه ما يَنْفَعُهُ في آجله ومن ثمَّ يموت إذ يموت كما تَمَجِّفُ شجرةُ الأرزَةِ وَتُجْتَثُّ من أصلها فَيَلْقَى اللهُ بذنوبه حائِثَةً . هذا ، ولك أن

تقول: إن المعنى بسبيل من قولهم: المؤمن مُصَابٌ، ومعنى هذا أن المؤمن. لأنه يتقى الله في سائر أسبابه ولا يُقَدِّم على ما حَرَّمَ الله، لا توائيه الدنيا كما تواتى من لا يتقى الله فيعيش من كان هذا شأنه مُرَزَّأً وإن كان في آخرته من الفائزين. وهذا في الغالب، وإلا فهناك من المؤمنين الصادقين من كان إيمانهم مَدْرَجَةً إلى أن يعيشوا عيشة راضية يُحسدون عليها. وعلى أية حال فإن المراد بمثل هذا الحديث هو تعزية المصابين في الدنيا من المؤمنين بأن الآخرة خيرٌ وأبقى...

عيادة المريض

وجوب عيادة المريض

ورد في الحديث الشريف: حَقُّ المسلم على المسلم ثلاثٌ: عيادةُ المريض وتشميتُ العاطِسِ، وتشيعُ الجنازة؛ وفي الحديث أيضاً: من عاد مريضاً لم يزل في حُرْفَةِ الجنة حتى يرجع... «الحُرْفَةُ» (بضم الحاء وفتحها): ما يُخْتَرَفُ أى يُجْتَنَى من الثمر، أى لم يزل في بستانٍ يَجْتَنَى منه الثمر، شبه صلوات الله عليه ما يحوزُه من يعودُ المريض من الثوابِ بما يحوزُه المُخْتَرَفُ من الثمر.

أدب عيادة المريض

قالوا: سوءُ العيادةِ تَلْقِيحٌ لِلْعِلَّةِ... وقال الفضلُ بنُ الربيع: لا تقولوا: كيف حال أمير المؤمنين، ولا تسألوه عن حاله فتكفوه الجواب، ولعله يثقلُ عليه الكلام، ولكن اجعلوا مسألتكم الدعاء له وقولوا بدل كيف يَجِدُ أميرُ المؤمنين نفسه: أنزل الله عليه الشفاء والرحمة... ودخل قومٌ على

السَّيرَى السَّقَطَى رَحِمَهُ اللهُ وَهُوَ عَمَلٌ فَاطَالُوا الْجُلُوسَ وَقَالُوا : ادْعُ لَنَا ،
 فَقَالَ : ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ وَقُولُوا : اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِّنْ عَالَمَتِهِمْ عِيَادَةَ الْمُرْضَى ...
 ودخل قومٌ على مريض فاطالوا الجلوس ثم قالوا : أوصنا ، فقال : أوصيكم
 ألا تطيلوا الجلوس عند المريض إذا عدتُوه ... ودخل ثقيلٌ على مريض
 فأطال الجلوس ثم قال : ما تشكى ؟ قال : قعودك عندي ...

شكاية من لا يعود إخوانه

قال : جحظة البرمكي^(٥) :

مَرِضْتُ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ حُرٌّ يُشْرِقُنِي بِبَيْرٍ أَوْ سَلَامٍ
 وَصَبَّوْا بِالْعِيَادَةِ وَهِيَ أَجْرٌ كَأَنَّ عِيَادَتِي بَذَلُ الطَّعَامِ

الاعتذار عن ترك العيادة

قال شاعر :

إِنْ كُنْتُ فِي تَرْكِ الْعِيَادَةِ تَارِكًا حَظِي فَإِنَّ فِي الدَّعَاءِ لِحَاوِدُ
 وَلَوْ بَتَّمَا تَرَكَ الْعِيَادَةَ مُشْفِقٌ وَأَتَى عَلَى غِلِّ الضَّمِيرِ الْحَاوِدُ

من عاده ممرضه

قال العوام بن كعب بن زهير في ليلي العطفانية :

وَحُبْرَتُ كَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةٌ فَأَقْبَلْتُ مِنْ أَهْلِ بَمَصْرَ أُعْوِدُهَا

(٥) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، فهو من ذرية البرامكة كما ترى وكان من ظرفاء عصره وكان أديباً شاعراً صاحب فنون وأخبار ونوادير ومنادمة ، وجحظة لقب لقبه به عبد الله بن المعتز توفي سنة ٣٢٦ ، انظر ترجمته في معجم البلدان لياقوت ووفيات الاعيان لابن خلكان ،

فوالله ما أدرى إذا أنا عدتها أأبرئها من داتها أم أزيدها

مريض عاد صحيحا

قال العباس بن الأحنف :

قالت : مَرِضْتُ فَعُدَّتْهَا فَتَبَرَّمْتُ وَهِيَ الصَّحِيحَةُ وَالْمَرِيضُ الْعَائِدُ

والله : لو أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا مَارَقَ لِلوَالِدِ الضَّعِيفِ الوَالِدُ

وقال آخر :

إِذَا مَرَضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتُذُنُونَ فَنَاتِيكُمْ وَنَعْتَذِرُ

حشهم العائد على تنشيط المريض

قال بعض الأطباء القدامى : بَشَرُوا المَرِيضَ بالبُرءِ ، وَنَشَطَرُوهُ لِشُرْبِ الدَوَاءِ ، وَلَا تُصَعَّبُوا عَلَيْهِ العِلَّةُ ، فَتَخَافَ نَفْسُهُ ، وَيَمُوتَ حِشَّهُ ، وَقَالَ : أَبُقْرَاطُ : حَدَّثُوا المَرِيضَ بِجَالٍ مَن كَانَ فِي أَصْعَبِ مَن عِلَّتِهِ فَبَرَأَ ، وَلَا تَحَدِّثُوهُ عَمَّنْ كَانَ فِي مِثْلِ عِلَّتِهِ فَمَاتَ ...

حشهم على تخويفه ليتجنب المضار

قالوا : خَوَّفُوا المَرِيضَ لِيَتَجَنَّبَ المَضَارَّ ، فَمَنْ خَوَّفَكَ لِتَأْتِيَ الأَمَنَ خَيْرٌ لَكَ مِمَّنْ أَمَّنَكَ لِتَأْتِيَ الخَوْفَ ... وَقَالُوا : مَن أَوْجَرَكَ المَرءُ لِتَبْرَأَ خَيْرٌ مِمَّنْ أَوْجَرَكَ الحُلُوَ لِتَسْقَمَ .

تغير اللون

قال الصولي : لَمْ يُسْمَعْ أَحْسَنُ مَن قَوْلِ البُحْتَرِيِّ فِي صُفْرَةِ اللَوْنِ : بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ ، إِنْ حَمَدَهُمْ مِمَّنْ أَلَدَرُّ مَا أَصْفَرَتْ نَوَاحِيهِ فِي العِقْدِ

وقال أبو تمام :

لَمْ تَشْنُ وَوَجْهَهُ الْهَيْجَ وَلَكِنْ جَعَلَتْ وَرْدَ وَجَنَّتِيهِ بَهَارًا
والبهار : نبت برى طيب الرائحة له فُقَّاحَةٌ - زهرة - صَفْرَاءُ يَنْبُتُ

أَيَّامَ الرَّبِيعِ ، يُقَالُ لَهُ : الْغَرَارُ وَعَيْنُ الْبَقْرِ .. ،

تَهْنِئَةٌ مِنْ بَرَأٍ مِنَ الْمَرَضِ

قال أبو تمام :

سُقِّمْتُ أُتِيحَ لَهُ بُرءٌ فزَعَزَعَهُ وَالرُّوحُ يَنَادُ طَوْرًا ثُمَّ يَعْتَدِلُ
قَدْ حَالَ لَوْ أَنَّ فَردَ اللهُ نَضْرَتَهُ وَالنَّجْمُ يَحْمُدُ حِينًا ثُمَّ يَشْتَعِلُ

يقال : زعزع الشيء : حَرَكَهُ لِيَقْلَعَهُ ، والمراد هنا : دفعه وأزاحه ، ويناد :

يَعِيلُ ، وَحَالَ لَوْ أَنَّ : تَغَيَّرَ ، وَالتَّضَرُّعُ : الْحَسَنُ وَالْجَمَالُ ،

وقال أشجع بن عمرو السُّلَمِيُّ : ^(١)

لَنْ جَرَحْتَ شَكَائِكَ كُلَّ قَلْبٍ لَقَدْ قَوَّرْتَ بِصِحَّتِكَ الْعْيُونَ
وقيل لأعرابي برأ من علته : الحمد لله الذى سلك ، فقال : أَوْيَسْلُمُ مَنْ
الْمَوْتُ فِي عُنُقِهِ ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ

وقال المتنبي :

لِلْمَجْدِ عُوفِي إِذْ عُوِفِيَتِ وَالسَّكْرُمُ وَزَالَ عَنْكَ إِلَى أَعْدَائِكَ الْإِلْمُ
صَحَّتْ بِصِحَّتِكَ الْغَارَاتُ وَابْتَهَجَتْ بِهَا الْمَكَارِمُ وَأَنْهَلَتْ بِهَا الدِّيمُ

(١) كان شاعرا فحلا ولد في اليمامة ونشأ في البصرة ومدح البرامكة وانقطع إلى

جعفر بن يحيى فخره من الرشيد ومن أبياته السائرة قوله فيه :

وعلى عدوك يا ابن عمِّ محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبه رُغْبَتَهُ وَإِذَا غَفَا سَلَتْ عَلَيْهِ سِيوَاكَ الْأَحْلَامُ

وراجع الشمس نوراً كان فارَقها كأنما فَعَدُّه في جِسْمِها سَقَمٌ
 قوله : وزال عنك إلى أعدائك الألم : إنما هو خبرٌ وليس دُعاءً ، يريد :
 أن أعداءَه نُؤَلِّمُهُم عَافِيَتَه لعوده بعد ذلك إلى غزوهم ، كما أشار إلى ذلك
 في البيت التالي . وانهايت : سالت ، والديم جمع ديمة وهي : المطر الدائم في
 سكون . يقول : كانت الغارات على بلاد الروم قد انقطعت فلما شَفِيَ وصح
 اتصلت الغارات عليها ، فكان الغارات كانت عليلة بعائته ثم صحت بصحته ،
 وَسُرَّتْ المكارمُ بصحته لأنه صاحبها ، وكانت الأمطارُ مُنْقَطِعَةً فلما شَفِيَ
 صادف اتصالها شفاءه ، ويقول في البيت الثالث : إن الشمس فقدت بهجتها
 في عيون أوليائه لاغتمامهم لعائته فلما شفي عاد إليها حُسْنُها »

تفدية المريض

قال البُحْتَرِيُّ :

بأنفِيسنا لا بالطوارف والتُّلْدِ

نَقِيكَ الَّذِي نُخْفِي مِنَ الشُّكْرِ أَوْ تُبْدِي

بِنَا مَعشَرَ العَافِينَ ما بَكَ مِنْ أذى

فَإِنْ أَشْفَقُوا بِمَا أَقُولُ فِي وَحْدِي

« الطوارف : جمع طارقة مؤنث طارف وهو المال المستحدث وعكسه التُّلْدِ

وهو المال القديم ، والشكو مصدر شكا كالشكوى والشكاة ، والعافى طالب

المعروف ، وأشفقوا : خافوا ،

وقال آخر :

بِأَيْتِ عِلْتَهُ بِي غَيْرِ أَنْ لَهُ أَجَرَ العَلِيلِ وَأَنْ غَيْرُ ما جُورِ

عقريات شتى

في الطب والمرض والعيادة

قال جالينوس : المرض هَرَمَ عارض ، والهرم مرض طبيعي ؛ وله : مجالسةُ
الثقيل حَمَى الروح .

وقال ثابت بن قُرَّةَ : ليس شيء أضر بالشيخ من أن تكون له جاريةُ
حسنة ، وطباخ حاذق ؛ لأنه يُكثر من الطعام فيسقم ، ومن الجماع فيهرم :
وقال آخر : ليس لثلاث حيلة : فقرٌ يخالطه كسل ، وخصومة يخامرُها
حسد ، ومرض يمازجه هَرَمٌ ...

وقالوا : ثلاثة يُعذرون على سوء الخلق : المريض ، والمسافر ، والصائم ...
وقالوا : فرط الغمِّ والسرور يقتلان ، أما الغم فإنه يُجمد الدم . والسرور
يُلهبه حتى تعلو حرارته على الحرارة الغريزية ... وقال كسرى لوزيريه يوماً :
أى الفراش أذ ؟ فقال أحدهما : أذُّ الفراش الخبزُ محشواً ، وقال الآخر :
أذُّ الفراش الحرير محشواً — وكان بين يديه غلام من الحجاب فقال : أيها
الملك ، أأذن لي في الكلام ؟ فقال : نعم ، قال : أذُّ الفراش الأمانُ ، قال :
صدقت ، قال : فما أذ الطعام ؟ قال : ما لا يهيج على طبيعة علة ، ولا يعقد
في عنق آكله منة ، فقال : أحسنت ، فما أذ الشراب ؟ فقال : ما لا يُزيلُ
عقلًا عن محله ولا يهيج على طبيعة شيئاً من علة ؛ قال : أحسنت ، فما أذ
الريحان ؛ قال : الولد السارُّ ريحانُ أبيه في حياته وخلف له بعد وفاته ؛ فرفع
محله وألقه بأكبر حشمة ...

ونالت أبا الطيب المتنبى وهو بمصر علة ، فكان بعض إخوانه المصريين

يكثر الإمام به ، فلما أبلّ قطعته ، فكتب إليه : وصلنتى — أعزك الله —
معتلاً ، وقطعتنى مُبِلاً ، فإن رأيت أن تُكدر الصحة على ، وتُحَبِّب العلة
إلى ، فعلت ...

وقال شاعر :

إن الجهولَ تضُرني أخلاقه ضررَ السعالِ لِنَ به استسقاء^(١)
وقال البُستى^(٢)

أنا كالورْدِ فيه راحةُ قَوْمٍ ثم فيه لآخرينَ زُكأم^(٣)

(١) الاستسقاء لدى الاطباء : تجمع سوائل مصلية في تجويف أو أكثر من
تجاويف الجسد أو في خلاياه .

(٢) هو أبو الفتح على بن محمد البستى الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٤٠٠ هـ
من شعره :

وقد يلبس المرءُ خزَّ الثيابِ ومن دونها حالةٌ مُضنيّة
كمن يكتسى خدهُ حُمْرَةَ وعِلتها ورمٌ في الرية
وله :

تحمّل أخاك على ما به فإني استقامته مطمع
وأنى له خفاقٌ واحدٌ وفيه طبائعه الأربع

ومن ألفاظه : من أصاح فاسده أرغم حاسده . من أطاع غضبه
أضاع أدبه . الفهم شعاع العقل . المنية تضحك من الأمانة . حد العفاف
الرضا بالكفاف

(٣) قبله :

لا يغرنك أنى لئن المسّ فعزى إذا اتضيت حسام

وقال المتنبّي :

لعلّ عَتْبِكَ محمودٌ عواقِبُهُ ورُبّما صَحَّتِ الاجسامُ بِاللِئَالِ

وقال :

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمه ورُمُ
وقيل لبعض الأطباء وقد نهكته العلة : ألا تتعالج ؟ فقال : إذا كان
الداء من السماء ، بطل الدواء ، وإذا قدرَ الربُّ بطل حذرُ المربوب ، ونعم الدواء
الامل ، وبس الداء الاجل .

ومن أدعيتهم : أغناك الله عن الطّبِّ والأطباء ، بالسلامة والشفاء ، وجعل
علك تمحيصاً لا تنفيصاً ، وتذكيراً لا تنكيراً ، وأدباً لا غضباً .



الباب الرابع

في

كتمان السر وإفشائه

وعبقرياتهم في ذلك وفيما يجري هذا المجرى
من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والأناة والعجلة

وهذا كتمان السر هو الآخر لَوْنٌ من ألوان الصبر الذي أسلفنا القول عليه في الباب الثالث ، وهو معنى من المعاني الخُلُقِيَّة التي عُنِيَ بالقول عليها والحث على الاستمسك بعروتها سائر عقلاء الناس في كل جيل من حنكهم التجارب ، ذاهبين إلى أن إفشاء السر - كان ما كان لونه - آيةٌ من آيات الضعف ودليل على أن في عقل صاحبه عُهُدَةٌ تُغْتَمَزُ فيه ، وأنه ناشئ من قلة الصبر وضيق الصدر ، وأنه من خلائق ضَعْفَةِ الرجال والنساء والصبيان .

ومن السر ما يعد كتماناً من الحزم والاحتياط . وهذا أخص ما يكون بالملوك والساسة ومن إليهم ، وهذا اللون من السر قد يؤدي إفشائه إلى سفك الدماء وضياع الممالك والدول والدمار وخراب الديار . . . ومن السر ما يحدث من الإنسان مما تستقبح إشاعته ويشنعُ سماعه . وإلى هذا اللون يشير سيدنا رسول الله بقوله صلوات الله عليه : من آتى منكم من دنه القاذورات بشيء فليستر بستر الله . . .

وبعد فإياك إياك يا أخى أن يتخذَكَ عن سرِكَ مثل قول القائل :

❖ وَأَكْتُمُ السِّرَ فِيهِ ضَرْبَةٌ الْعُنُقِ ❖

وقول الآخر :

وَيْكَاتِمُ الْأَسْرَارَ حَتَّىٰ إِنَّهُ لِيَصُونَهَا عَنْ أَنْ تَمُرَّ بِيَالِهِ
فَذَلِكَ قَوْلٌ مِنْ يَسْتَنْزِلُكَ عَمَّا فِي نَفْسِكَ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَقْصَىٰ مَا عِنْدَكَ لَمْ
يَبْرَعْ فِيهِ حَقَّكَ ، وَقَدْ قَالُوا : إِنْ الصَّبْرَ عَلَى الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ أَيْسَرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى
كَيْفَانِ السَّرِّ ...

حفظ اللسان

من قديم ما قيل في حفظ اللسان قولُ امرئ القيس :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَحْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانُهُ فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخِزَانٍ
« لَمْ يَحْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانُهُ : لَمْ يُحْرِزْ لِسَانَهُ فَيَجْعَلْهُ فِي خِزَانَةِ قَلْبِهِ ، قَالَ صَاحِبُ
اللسان : وَخِزَانَةُ الْإِنْسَانِ قَلْبُهُ ، وَخِزَانَتُهُ : لِسَانُهُ ، وَقَالَ الْقَهْمَانُ الْحَكِيمُ لِابْنَتِهِ :
إِذَا كَانَ خِزَانَتُكَ حَفِيظًا وَخِزَانَتُكَ أَمِينَةً رَشِدَتْ فِي أَمْرِيكَ : ذُنُوبُكَ
وَأَخْرَجْتَكَ ، يَعْنِي : اللسان والقلب ،

وقالوا : من ضاق قلبه اتسع لسانه ...

وقال أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصرى : لسان العاقل من وراء
قلبه . فإن عرض له القول نظر فإن كان له أن يقول قال ، وإن كان عليه
القول أمسك ، ولسان الاحق أمام قلبه ، فإذا عرض له القول قال ، كان عليه
أو له ... وقالوا : مقتل الرجل بين فكَّيه .

ومن كلامهم : قِ فَاكِ مَا يَقْرَعُ فَفَاكِ « قِ : فعل أمر من الرقاية ، ومنه :

إن لم تملك فضل لسانك ، مَلَسْتَ الشيطان فضل عنانك .

وفي اللسان ومكانته يقول زهير :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم

منع إظهار السر قبل تمامه

قال سيدنا رسول الله : استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كلَّ ذى نعمةٍ محسود ... « يقول صلوات الله عليه : إنكم إن أظهرتم الناس على حوائجكم حسدوكم فعارضوكم فيما تترامون إلى تضائه ووقفوا في سبيل تحقيقه »

وقالوا : من وهى الأمر لإعلانه قبل إحكامه ؛ وقالوا : من حصن سره فله من تحصينه إياه خلتان : إما الظفر بما يريد ، وإما السلامة من العيب والضرر إن أخطأه الظفر ...

حشم على حفظ السر

قال الشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم :

إذا ما جاوزَ الإثنين سرِّي فإنه بِذِكِّ وإفشاءِ الحديثِ قهينُ (١)

وإن ضيَّعَ الإخوانُ سرًّا فإنني كَرُومٌ لأمرارِ العشيرِ أمينُ

يكونُ له عندي إذا ما ضَمَمْتُهُ بَقَرٌ بسوداءِ الفؤادِ كنينُ

رووا : أن ابن المقفع لما سمع هذا البيت قال : أراد بالإنسين الشفتين

كأنه يقول : لا تُفشِ سرَّك إلى أحد ... وهذا لعمري بديع من ابن المقفع

(١) هو معلوم أن الألف في اثنين ألف وصل فإذا جاءت متطوعة في الشعر كما

في هذا البيت فإنما ذلك ضرورة شعرية ، والتث : نشر الحديث الذي كتبه أحق

من نشره ، وقهين : خليق وجدير ، وبنت متعلق بقهين

وكان عليُّ ابنُ أبي طالب رضى الله عنه كثيراً ما يَتَمَثَّلُ بهذين البيتين :

فلا تُفشِ سِرَّكَ إلا اليك فإن لكل نصيحاً نصيحاً
ولمَّنى رأيتُ عُقَاةَ الرجا ل لا يتركون أديماً صحيحاً

وقال الصلَّتانُ العبدِيُّ من أبيات أوردَها أبو تمام في حماسته :

أشابَ الصغيرَ وأقى الكبيرَ كَرَّ الغداةِ ومَرَّ العيشِ
إذا ليلةٌ هَرَمَتْ يومها أتى بعد ذلك يومٌ فتى
زوحٌ ونغدو لحاجاتنا وحاجته من عاش لا تنقضى
تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجة ما يبقى
بُنَى بَدَا حَبَّ نَجوى الرجال فكنْ عند سِرِّكَ حَبَّ النَّجى^(١)
وسِرِّكَ ما كان عند امرئٍ وسرُّ الثلاثةِ غيرُ الخفى
كما الصمَّتْ أُذُنَى لبعضِ الرشا د فَبِعْضُ التَّكلمِ أُذُنَى لِنَى

وهن قولهم : سِرِّكَ مِنْ دِمِكِ « يعنون : أنه ربما كان فى إفشاء السِّرِّ

سَفْكَ الدَّمِ ، وقال آخر لآخر له وحَدَّثَهُ بِحَدِيثِ : آجَعَلُ هَذَا فى وَعَاهِ غَيْرِ

سَرِبِ « السَّرِبِ : السائل ،

من يُكره أطلاعه على السر

قيل : لا تُظَلِّعُوا النِّساءَ على سِرِّكُمْ تَصَّاحُ أُمُورُكُمْ ، وقالوا : ما كَتَمْتَهُ

عَدُوَّكَ فِلا تُظَلِّعْ عاِيه صَدِيقَكَ

(١) الحب بكسر الخاء : المكر وبفتحتها : المكار ، والنجوى مصدر ، وهو مستعمل

فما يتحدث فيه اثنان على طريق الدروالكتان ، يقول : إذا ناجيت صاحبك فكن

خبيا فبما تودعه من سرِّك فإن نجوى الرجال إذا بدا خبا عادت وبالا

المفتخر بحفظ السر

قال المتنبي :

وللسرِّ منيَّ ووضعٌ لا يناله نديمٌ ولا يُفِضِي إليه شرابٌ
وقال مسكين الدارميُّ :

وفتيانٍ صدقٍ لستُ مُطَّلِعٌ بعضهم على سرِّ بعضٍ غيرَ أني جماعها (١)
لكلِّ أمرئٍ شِعبٌ من القلبِ فارغٌ وموضعٌ نجوى لا يرأَمُ أطلأعها (٢)
يظَّلون شئى في البلادِ وسرُّهم إلى صخرةٍ أعياءِ الرجالِ انصدأعها

الممدوح بحفظ السر

قال الأحرص - شاعر إسلامي ترجم له صاحب الأغاني في

الجزء الرابع - :

كريمٌ يُميتُ السرَّ حتى كأنه عمٌ بنواحي أمره وهو خايرُ
وقال قيسُ بن الخطيم :

(١) أضاف الفتيان إلى الصدق كما يقال : فتيان خير ، والمعنى : أنهم يصدقون في الود ولا يخونون ؛ والجماع : اسم لما يجمع به الشيء كما أن النظام اسم لما ينظم به الشيء ، والضمير في جماعها : لك أن ترجمه إلى الفتيان أو إلى ما دل عليه الكلام من ذكر الأسرار يقول : رب فتيان هكذا استناموا إليّ واستودعوني أسرارهم فكنت أنا نظامها لا يفوتني من خبيات صدورهم شيء ثم أفردت كلا منهم بالوفاة وكتبان ما أودعني من سره

(٢) يقول : لكل رجل منهم جانب من القلب فرغ له وخص بموضع سره ، والشعب في الأصل : الطريق في الجبل وجمعه شعاب أراد به مكانه من قلبه ، والنجوى اسم للسر ، واطلأعها : علمها يقال : اطلع الشيء واطلع عليه : علمه ، وأنت الضمير العائد على الموضوع لتأنيث المضاف إليه

كُتُومٌ لِأَسْرَارِ الْخَلِيلِ أَمِينُهَا يَرَى أَنْ بَثَّ السَّرَّ قَاصِمَةُ الظَّهِيرِ
وقال كشاجم :

وَيُسْكَتُمُ الْأَسْرَارَ حَتَّى إِنَّهُ لَيَصُونُهَا عَنْ أَنْ تَمُرَّ بِبَالِهِ
« وقد تقدم آنفاً »

ودخل ابنُ أبي مِحْجَنَ التَّمَقِّي ^(١) على مُعَاوِيَةَ ، فقال له مُعَاوِيَةُ : أُبُوكَ
الَّذِي يَقُولُ :

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَى أَصْلِ كَرْمَةٍ تُرَوِّى عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقُهَا
وَلَا تَدْفِنِّي فِي الْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ وَرَاءَ الْمَوْتِ أَنْ لَا أَدْرِقُهَا
فقال ابنُ أبي مِحْجَنَ : لو شِئْتَ ذَكَرْتَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا مِنْ شِعْرِهِ !
فقال مُعَاوِيَةُ : وما ذاك ؟ قال : قوله :

(١) أبو محجن التمقي هو الصحابي الشاعر المشهور بقصته مع سعد بن أبي وقاص
في يوم القادسية وذلك أنه أتى به إليه وهو سكران - وكان صاحب شراب - فأمر به
فقيد ، وكان بسعد جراحة فاستعمل غيره ، وصعد سعد فوق البيت لينظر ما يصنعه
الناس فجعل أبو محجن يتمثل :

كُنِيَ حَزَنًا أَنْ تَرْتَدِي الْخَيْلُ بَانَقَنَا وَأَتَرَكَ مَشْدُودًا عَلِيًّا وَثَاقِيَا
ثم قال لامرأة سعد : ويلك خيليني ولك علي إن سلبت أن أرجع فأضع رجلي
في القيد وإن قتلت استرحتم مني ؛ فخلفته ووثب علي فرس لسعد يقال لها البلقاء ، ثم
أخذ الرمح وانطلق حتى أتى الناس فجعل لا يحمل في ناحية إلا هزم الناس ، فجعل الناس
يقولون : هذا ملك ، وسعد ينظر فجعل يقول : الضبر ضبر البلقاء ^(١) والظفر ظفر أبي
محجن وأبو محجن في القيد ، فلما هزم العدو رجع أبو محجن فوضع رجله في القيد ،
فأخبرت امرأة سعد سعد بالذي كان فقال : لا والله لأأخذ اليوم رجلاً أبلى الله المسلمين
علي يديه ما أبلاهم ، فخلى سبيله فقال أبو محجن : لقد كنت أشربها إذ كان يقام علي
الحد أظهر منها فأما إذ بهر جنتي فوالله لأأشربها أبداً

(١) الضبر : عن الفرس

لا تسأل القومَ ما مالى وما حسبي وسألت القومَ ما حزمى وما خلنى
 ألقومُ أعلمُ أنى من سرايم إذا تطيشُ يدُ الرَّعْدِ بَدَةِ الفَرِيقِ
 أعطى السَّنانَ غداةَ الرَّوْعِ حصته وعاملَ الرُّيحِ أرويه من الغلَقِ^(١)
 قد أظعنُ الطَّعنةَ النَّجلاءَ عن عُرض وأكتمُ السَّرَّ فيه ضربةُ العُنُقِ
 فقال معاويةُ: إن كنا أسانا الذولَ لنُحسِنَنَّ الفِعلَ، وأجزَلَ صلته ..

صعوبة حفظ السرِّ

قالوا: أصبرُ الناس من صبر على كتمان سرِّه فلم يبده لصديق فيوشك
 أن يصيرَ عدواً فيذيقه

وقالوا: الصبرُ على لَهَبِ النارِ أهونُ من الصبرِ على كتمانِ السَّرِّ ...

من لا يحفظ سره ويستحفظه غيره

قال الشاعر:

فلا تُودِعَنَّ الدَّهْرَ بِسِرِّكَ أَحْمَقاً فإنك إن أودعته منه أحمق
 إذا ضاق صدرُ المرءِ عن كتمِ سرِّه فصدرُ الذى يُستودعُ السَّرَّ أضيقُ

وقال بشار:

تبوحُ بِسِرِّكَ ضيقاً به وتَحسبُ كلَّ أخٍ بِكتمِ
 وكتبانك السَّرَّ ممن تخافُ ومن لا تخافه أحمزُ
 إذا ذاع سِرُّكَ من نُخبِر فأنت متى أمته ألومُ

ذم من يفشى السر

يقولون: فلانُ أضيعُ الأسرارَ من الغِزْبِ بالِ اللبائِ، وقال الحطيئة:

أَغْرِبَالًا إِذَا اسْتُودِعَتْ سِرًّا وَكَأَنُونا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ

« الكانون : الثقل من الناس ، وقيل : الكانون : الذي يجلس حتى

يَتَحَصَّى الْأَخْبَارَ وَالْأَحَادِيثَ لِيَنْقَأَهَا ، قَالَ أَبُو دَهْبَلٍ :

وَقَدْ قَطَعَ الرَّاشِدُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَنَحْنُ إِلَى أَنْ يُوصَلَ الْحَبْلُ أَحْوَجُ

فَلَيْتَ كَوَانِينَا مِنْ أَهْلِ وَأَهْلِهَا بِأَجْمَعِهِمْ فِي جُلَّةِ الْبَحْرِ لَجَّوْا ،

وَقَالُوا : فَلانُ أَمُّهُ مِنَ النَّسِيمِ عَلَى الرِّيَاضِ . وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ :

كَانَ سِرِّي فِي أَحْسَانِهِ لَهَبٌ فَمَا تُطِيقُ لَهُ طَيِّبًا حَوَاشِيهَا

الأحوال التي يفسد فيها السرّ

قالوا : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُنْزِلَ الرَّجُلَ عَنْ سِرِّهِ فَتَوَصَّلْ إِلَيْهِ فِي حَالِ

سُكْرِهِ * فَالْشُّكْرُ يُظْهِرُ سِرَّهُ الْمَكْنُونَا *

المسازرة في المحافل

قال سيدنا رسولُ الله : إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّلَاثِ .

وكان مالكُ بنُ مِسْمَعٍ إِذَا سَارَدَ إِنْسَانٌ يَقُولُ : أَظْهَرُهُ فَلَوْ كَانَ خَيْرًا لَمْ

يَكُنْ مَكْتُومًا ، وَهَذَا مِنْ قَوْلِ زَهْرِبِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ :

وَالسُّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَلَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرٍ

« يقول : إِنَّ بَيْنَ الْمَمْدُوحِ وَبَيْنَ الْفَاحِشَاتِ سِتْرًا مِنَ الْحَيَاءِ وَالثُّبْتُ ، وَلَا

سِتْرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَيْرِ يَحْجُبُهُ عَنْهُ »

وَقَالَ الْخُبَيْرِيُّ أَرْزِي :

إِذَا أَنْتِ سَارَرْتِ فِي مَجْلِسٍ فَإِنَّكَ فِي أَهْلِهِ مُتَّهَمَةٌ

فَهَذَا يَقُولُ : قَدْ آغْتَابَنِي وَذَا يَسْتَرِبُ وَذَا يَتَّهَمُ

المتبجح بإظهار أسرار أصدقائه

قال أعرابي:

ولا أكنتم الأسرارَ لكن أنتمها ولا أدع الأمرارَ تغلي على قلبي
وإنَّ قليلَ العقلِ من بات ليلته نُقلبه الأسرارُ جنباً إلى جنبٍ
وقال آخر:

ولا تُودع الأسرارَ قلبي فإنما تُصبِن ماءً في إناءٍ مُسلمٍ
وقال رجل لصديق له: أريدُ أن أفشيَ إليك سرّاً تحفظه، فقال: كلا
لستُ أشغلُ قلبي بنجواك، ولا أجعلُ صدري خزانة شكواك، إنِّي لقلبي
ما ألقاك، ويُورِّقني ما أرقك، فتديتَ بإفشائه مُستريحاً، وبيتَ قلبي يحزّه
جريحاً... ولعمري ما أصدق هذا وأكثره انطباقاً على الواقع اوفى الحق
أن هذا وأمثاله يجب أن يكون عظةً لمن لا يطيقون كتان أسرارهم

الرخصة في إفشاء السر إلى الصديق

قال بعض الشعراء:

وأبذتُ عمراً بعض ما في جوانحي وجرعته من مرٍّ ما أنجرح
فلا بد من شكوى إلى ذي حفيظة^(١) إذا جعلت أسرارُ نفسي تطلع

(١) الحفيظة: إما يراد بها: حفظ الأسرار، وإما أن يراد بها: الغضب لحرمة
نتهك من حرمانك أوجار ذي قرابة يظلم من ذوبك أو عهد ينسك قال الخطيئة:
يسوسون أحلاماً بعيداً أنانها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجُد
والمحفظات: الأمور التي تحفظ الرجل أي تفضبه إذا وتر في حيمه أو جيرانه
قال الفطامي:

أخوك الذي لا تملك الحس نفسه وترفض عند المحفظات الكتاب =

وقال أبو تمام :

شَكَوتُ وما الشُّكوى لِثَلِي عَادَةٌ ولكن تَفِيضُ الكَأْسِ عِنْدَ امْتِلائِها
وقالوا : لا يزالُ المرءُ في كُربَةٍ ووَحْشَةٍ ما لم يجدْ من يشكو إليه
يتصل بهذا أن يُخَيِّرَ المريضُ طَبيبَهُ بِكُنْهٍ دائِه .
وقال محمود الوراق :

إذا كَتَمَ الصَّدِيقُ أخاهُ سَراً فما نُضِلُّ الصَّدِيقَ عَلى العَدُوِّ

عقريات شتى في كتمان السر

قال المهلب بن أبي صفرة : أذنى أخلاق الشريف كتمان السر ، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه .

ويروى أن معاوية بن أبي سفيان أسر إلى ابن أخيه عثمان بن عتبة بن أبي سفيان حديثاً ، قال عثمان : جئت إلى أبي فقلت : إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثاً أفأحدثك به ؟ قال : لا ، إنه من كتم حديثه كان الخيار إليه ومن أظهره كان الخيار عليه ، فلا تجعل نفسك مملوكاً بعد أن كنت مالكا ، فقلت له : أويدخل هذا بين الرجل وأبيه ؟ فقال : لا ، ولكني أكره أن تذلل لساتك بأفناء السر . قال : فرجعت إلى معاوية فذكرت ذلك له ، فقال معاوية : أعنقك أخي من رِقِّ الخطأ

وكان معاوية يقول : أعنتُ على عليِّ رحمه الله بأربعٍ : كنتُ رجلاً

== الكنائف : جمع كنيفة وهي السخيمة والحقد والعداوة يقول الفطامي : إذا استوحش الرجل من ذي قرابته فاضطغن عليه سخيمة لإساءة كانت منه إليه فأوحشته ثم رآه يضام زال عن قلبه ما احتقده عليه وأغضب له فنصره وانتصر له من ظلمه ،

أَكْتُمُ سِرِّي، وكان رجلاً ظَهْرَةً^(١) وكنت في أطْوَعِ جُنْدٍ وَأَصْلِحِهِ، وكان في أَخْبَتِ جُنْدٍ وَأَعْمَاهُ، وتركتُهُ وَأَصْحَابَ الْجَمَلِ وقلت: إِنَّ ظَفِيرًا بِهِ كَانُوا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْهُ، وَإِنْ ظَفِيرَ بِهِمْ اعْتَدَدْتُ بِهَا عَلَيْهِ فِي دِينِهِ، وكنتُ أَحَبُّ إِلَى قَرِيضٍ مِنْهُ ...

«وجاء رجلٌ إلى القاضي مُرَبِّحٍ فكلَّمه بشيءٍ وأخفاه، فلما خرج قال له رجلٌ: يَا أَبَا أُمَيَّةَ، مَا قَالَ لَكَ؟ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، أَوْ مَا رَأَيْتَهُ سَأَلْتَهُ عَنْكَ!»

وَأَسْرَ رَجُلٌ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ حَدِيثًا فَلَمَّا اسْتَفْصَاهُ قَالَ: أَفْهَمْتَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ نَسِيتُ ..

وقال عبيدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ عُتْبَةَ بنِ مَسْعُودِ الْفَقِيهِ:

إِذَا كَانَ لِي سِرٌّ فَحَدِّثْتُهُ الْعِدَا وَضَاقَ بِهِ صَدْرِي فَلِلنَّاسِ أَعْذُرُ
هُوَ السِّرُّ مَا اسْتَوْدَعْتَهُ وَكَتَمْتَهُ وَإِيسَ بَسِيرٍ حِينَ يَفْشُو وَيَظْهَرُ
وَيَقَالُ: إِذَا اتَّهَى السِّرُّ مِنَ الْجَنَانِ إِلَى عَذَابِ اللِّسَانِ فَالِإِذَاعَةُ مُسْتَوَائِيَّةٌ عَلَيْهِ ..

وقال عمر بن عبد العزيز: القلوبُ أوعيةُ الأسرارِ، والشِّفَاهُ أبقاها والآلسُنُ مفايِجُها، فليَحْفَظْ كُلُّ امْرِئٍ مِفْتَاحَ سِرِّهِ ..
وقال شاعر:

صَنِ السَّرِّ عَنْ كُلِّ مُسْتَعْبِرٍ . وَحَازِرٌ فَمَا الْحَزْمُ إِلَّا الْحَدْرُ
أَسِيرُكَ سِرُّكَ إِنْ صُلَّتْهُ . وَأَنْتَ أَسِيرٌ لَهُ إِنْ ظَهَرَ
وقال جميل بن مَعْمَرٍ:

(١) ظهرة بضم ففتح: يظهر أمره للناس

أَمُوتُ وَالْقَى اللهُ يَا بَشْنُ لَمْ أَبْحِ بِسِرِّكَ وَالْمُسْتَخْبِرُونَ كَثِيرُ

وقال عمر بن أبي ربيعة :

ولما تَلَقَيْنَا عَرَفْتُ الَّذِي هِيَ كَمِثْلِ الَّذِي بِي حَذْوِكَ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ
فَقَالَتْ وَأَرْخَتْ جَانِبَ السَّيْرِ إِنَّمَا مَعِيَ فَتَكَلَّمُ غَيْرَ ذِي رِقْبَةٍ أَهْلِي
فَقُلْتُ لَهَا مَا بِي لَهْمٌ مِنْ تَرْقُبٍ وَلَكِنَّ سِرِّي لَيْسَ يَحْمِلُهُ مِثْلِي
يريد : أنه ليس يحمله أحدٌ مثلي في صيانته وسيره ، أى فلا يُبديهِ لأحد ،

وقال شاعر :

أخْفِضِ الصَّوْتِ إِنْ نَطَقْتَ بَلِيلٍ وَالتَّفِيتِ بِالنَّهَارِ قَبْلَ الْكَلَامِ

وقال مسلم بن الوليد صرَّبعُ الغواني في الكتاب يَأْتِيكَ فِيهِ السَّر :

الْحَزْمُ تَخْرِبُكُهُ إِنْ كُنْتَ ذَا حَذَرٍ وَإِنَّمَا الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
إِذَا أَنَاكَ وَقَدْ أَدَى أَمَاتَتَهُ فَاجْعَلْ صِيَانَتَهُ فِي بَطْنِ أَرْمَاسٍ
« أرماس جمع رَمَس وهو القبر ، والمراد إخفاؤه وتَعْفِيفُهُ حَتَّى لَا يَبْقَى

له أثر ،

وقال المعرِّي :

فُظُنَّ بِسَارِّ الإِخْوَانِ شَرًّا وَلَا تَأْمَنُ عَلَى سِرِّ نَوَادِ

وقبله :

نَلُومٌ عَلَى تَبَلْدِهَا قُلُوبًا تُكَايِدُ مِنْ مَعِيشَتِهَا جِهَادًا
إِذَا مَا النَّارُ لَمْ تُطْعَمْ وَقُودًا فَأَوْشِكُ أَنْ تَمُرَّ بِهَا رَمَادًا
فُظُنَّ

وبعده :

فَلَوْ خَبَّرْتَهُمُ الْجُوزَاءُ خُبْرِي ... لَمَا طَلَعَتْ مَخَافَةٌ أَنْ تُكَلِّدَا

عقرياتهم في المشورة

والاستبداد بالرأى

المشورة مُشتقة من : سُرت الدابة : إذا أجزيتها لتعرف قوتها، وهي : استنباط المرء رأى غيره فيما يعرض له من الأمور المعضلة . حتى يثبت له حاق الأمر . . ونعمت العدة هي إذا كان المستشار صديقاً مجرباً حازماً ناصحاً رابط الجأش غير مُعجب بنفسه ولا مُتأثر في رأيه ولا كاذب في مقاله - فإن من كذب لسانه كذب رأيه - فارغ البال حين استشارته :

فأنفع من شاورت من كان ناصحاً شقيقاً فأبصر بعدها من تُشاور
وليس بشافيك الشفيق ورأيه عزيز ولا ذو الرأى والصدر واغبر^(١)

* * *

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه وما كل مؤت نصحه بليب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب^(٢)

مدح المشورة

أمر الله عز وجل نبيه صلوات الله عليه بمشاورة من هو دونه من أصحابه فقال سبحانه : (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله) ذهب المفسرون إلى أن الله تعالى لم يأمر نبيه بمشاورة أصحابه لحاجة منه إلى رأيهم ولكن ليُعلم ما في المشاورة من البركة والثماء ، وقيل : أمره

(١) عزيز : بعيد غائب

(٢) لابي الاسود الدؤلى وقوله : فحق له من طاعة بنصيب ، يريد : فهو اذن وفي

هذه الحالة جدبر بأن يطاع وينتصح بنصحه

بذلك تألفاً لهم وتطيباً لنفوسهم ، وقيل : لبستنّ بذلك المسلمون ... وقال سبحانه : وأمرهم شورى بينهم

وفي الأثر : والمشاورة حصنٌ من الندامة وأمنٌ من الملامة وقالوا : ما هلك أمرؤ عن مشورة

وقال عمر بن الخطاب : الرأي الفرد كالخيط السجيل ، والرأيان كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مِرارٌ لا يكادُ يُنتقض ...

« السجيل : الخيط غير المفتول ، والمرار : الحبل الذي أُجيدَ فقتله ، وقالوا : نصنُ رأيك مع أخيك فاستشره ...

حُثم على مشاورة الحازم اللبيب

قال بشار بن بُرد :

إذا بلغَ الرأي المشورة فاستعين	بعزم نصيحٍ أو بتأييد حازم
ولا تجعلِ الشورى عليك غصاصةً	مكان الخوافي نافعٌ للقوادم ^(١)
وخلّ الهوينى للضعيف ولا تكن	تؤوماً فإن الحزم ليس بناهم ^(٢)
وما خيرُ كفٍ أمسك الغلُّ أختها	وما خيرُ سيفٍ لم يُؤيد بقائم ^(٣)
وأدين من القربى المقرب نفسه	ولا تُشهد الشورى أمراً غير كاتم
فإنك لا تستطردُ بهمّ بالمنى	ولا تبلغُ العُليا بغير المسكارم ^(٤)

(١) الخوافي : ريشات صغار من الجناح إذا ضم الطائر جناحيه خفيت ، والقوادم :

الريشات الكبار التي في مقدم الجناح يقول : إن الضعيف قد عمد الفوى بالمعونة

(٢) الهوينى : تصغير الهوني والهوني تأنيك الالهون يقال : إنك لتعمد للهويننا

من أمرك : أى لاهونه

(٣) الغل : واحد الاغلال طوق من حديد أو جلد يجعل في اليد أو في العنق

(٤) الهم : ما يهم به الرجل أو أجال فكره فيه ليفعله

إذا كنتَ قَرْدًا هَرَكَ النَّاسُ مُقْبِلًا وَإِنْ كُنْتَ أَدْنَى لَمْ تَفْرَ بِالْعَزَائِمِ (١)
 وَمَا قَرَعَ الْأَقْوَامَ مِثْلُ دُشَيْعٍ أَرِيبٍ وَلَا جَلَى الْعَمَى مِثْلُ عَالِمٍ (٢)
 قال الأصمى : قلت لبشار : إني رأيت رجال الرأي يتمجبون من
 أبحاثك في المشورة ؛ فقال : أما علمت أن المشاور بين إحدى الحُسَيْنَيْنِ :
 بين صواب يفوز بثمرته أو خطأ يُشَارَكُ في مكروهه ؛ فقلت أنت والله
 أشعرُ في هذا الكلام منك في الشعر .

استشارة الكبار والصغار

ومن يُعتمد على مشورته ورويته

كانت الربُّ تَحْمَدُ آراءَ الشيوخ ؛ لتقدّمها في السن ، ولما مرَّ عليها
 من التجارب التي عرفت بها عواقب الأمور حتى كأنها تنظرُها عيانًا ،
 وطراً عليها من الحوادث التي أَوْصَحَتْ لها طريق الصواب وبيّنته تبيانًا ،
 ولما مُنَحَّتْهُ من أصالة رأيها ، واستفادته بجميل سعيها ، قال علي بن
 أبي طالب رضي الله عنه : رأى الشيخ خيرٌ من مشهَدِ الغلام . ومن أمثالهم
 «زاجِمٌ يَعودُ أو دَع» (٣)

وقال بعض الحكماء : عليك بمشورة من حلب أشطرَ دهره ، ومررت عليه

(١) يقال : فلان هزه الناس إذا كرهوا ناحيته ، والعزائم : الحاجات التي
 يعتمز المرء فعلها يقول : إذا انفردت برأى نفسك ولم تستعن بآراء ذوى التجارب
 باعدك الناس وأصغروا من شأنك وإن كنت أدنى القوم شأنًا لم تفز بجاجاتك التي
 اعتمزت عليها .

(٢) المشيع : الشجاع كأنه قد شيع قلبه بما يركب من الأهوال أو بقوة قلبه

(٣) العود : المسن من الإبل أى لا تستعن إلا بأهل السن والتجربة في الأمور

ضروبٌ خيره وشره ، وباع من العمرِ أشده ، وأورت التجربة زنده ،
واستشارَ زيادُ بن أبيه رجلاً ، فقال الرجل : حقُّ المستشار أن يكون
ذا عقلٍ وافر ، واختبارٍ مُتَظَاهِر ، ولا أراني كذلك .

وقال ابن الرومي يمدح يحيى بن علي المنجم :

أَلَمَعِي يَرَى بِأَوَّلِ ظَنِّ آخِرَ الْأَمْرِ مِنْ وَرَاءِ الْمَغِيبِ
لَا يُرَوِّى وَلَا يُقَبِّبُ كَفًّا وَأَكُفُّ الرِّجَالِ فِي تَقْلِيْبِ

وقال :

تَرَاهُ عَنِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِمَعْزِلِ وَأَرَاؤُهُ فِيهَا وَإِنْ غَابَ سُهْدُ
كَمَا احْتَجَبَ الْمَقْدَارَ وَالْحَكْمَ حُكْمَهُ عَلَى الْخَلْقِ طُرًّا أَلَيْسَ عَنْهُ مُعَرَّدٌ (١)

وقال إبراهيم بن العباس الصولي في الفضل بن سهل :

يُمِضِي الْأُمُورَ عَلَى بَدِيهِتِهِ وَتُرِيهِ فَكْرَتَهُ عَوَاقِبَهَا
فَيَظَلُّ يُصَدِّرُهَا وَيُورِدُهَا فَيَعْمُ حَاضِرَهَا وَغَائِبَهَا
وَإِذَا الْحُرُوبُ غَلَّتْ بَعَثَتْ لَهَا رَأْيًا تَقُلُّ بِهِ كِتَابَهَا
رَأْيًا إِذَا نَبَتِ السِّيُوفُ مَضَى عَزَمٌ بِهَا فَشَفَى مَضَارِبَهَا
وَإِذَا الْخُطُوبُ تَأَثَّلَتْ وَرَسَتْ هَدَّتْ فَوَاصِلَهُ نَوَائِبَهَا
وَإِذَا جَرَّتْ بِضَمِيرِهِ يَدُهُ أَبَدَتْ بِهِ الدُّنْيَا مَنَاقِبَهَا

وقبلهما قول أوس بن حجر :

الْأَلَمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّ نَّ كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

وقال علي بن أبي طالب في عبد الله بن عباس : إنه ليمتظر إلى الغيب من

سِتْرِ رَقِيقٍ

(١) ليس عنه معرّد : ليس عنه مهزّب

وقال الشاعر:

بِصِيرٍ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يَرَى بِصَوَابِ الرَّأْيِ مَا هُوَ وَاِقْعُ

وقال الآخر في مثله:

عَلِيمٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ بِرَأْيِهِ كَأَنَّ لَهُ فِي الْيَوْمِ عَيْنًا عَلَى الْعَدِ

وقال:

بِصِيرٍ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يَخَاطِبُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ

وَأَيْنَ مَقَرُّ الْحَزْمِ مِنْهُ وَإِنَّمَا مَرَاتِي الْأُمُورِ الْمُشْكِلَاتِ تَجَارِبُهُ

ولقد بالغوا في الحثِّ على مُشاوَرَةِ ذَوِي الرَّأْيِ وَالتَّجْرِبَةِ حَتَّى وَلَوْ كَانُوا

أَعْدَاءً، قَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ فِي كَلِيلَةِ وَدِئْمَنَةِ: لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتْرَكَ اسْتِشَارَةَ

عَدُوِّهِ ذِي الرَّأْيِ فِيمَا يَشْرِكُهُ ذَلِكَ الْعَدُوُّ فِي نَفْعِهِ وَضَرِّهِ ...

وقالوا: اسْتَشِيرْ عَدُوَّكَ تَعْرِفْ مَقْدَارَ عِدَاوَتِهِ ...

وقد رأى قومٌ خِلافَ ذَلِكَ وَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ رَأْيَ الشَّبَابِ هُوَ الرَّأْيُ

الصَّائِبُ، وَفَهَمَهُمْ هُوَ الْفَهْمُ الثَّاقِبُ، إِذْ أَنْ عَقُولَهُمْ سَلِيمَةٌ مِنَ الْعَوَارِضِ،

وَأَرَاءُهُمْ خَصِيرَةٌ نَضْرَةٌ لَمْ يَهْتَصِرْ غُضُنُهَا هَرَمٌ^(١)، وَلَا أَذْرَى زَهْرَتِهَا قَدَمٌ

وَلَا حَبَابٌ مِنْ ذِكَايَها يَطُولُ الْمُدَّةَ ضَرَمٌ. قالوا: إِنَّ رَأْيَ الشَّيْخِ كَالزَّائِدِ قَدِ انْتَلَمَ،

أَمَّا رَأْيُ الشَّبَابِ فَكَالزَّائِدِ الصَّحِيحِ الَّذِي يُورِي بِأَيْسَرٍ اقْتِدَاحٌ

وقال الشاعر:

رَأَيْتُ الْعَقْلَ لَمْ يَكُنْ أَتْيَهَابًا وَلَمْ يُقَسِّمْ عَلَى عَدَدِ السَّنِينَا

وَلَوْ أَنَّ السَّنِينَ تَقَسَّمَتْ حَرَى الْآبَاءِ أَنْصَبَةَ الْبَلِينَا

(١) يهتصر الغصن: يقطعه ويكسره من غير انفصال

من يجب أن تجتنب استشارته

قال قُتُس بن ساعدة الإيادي لابنه : لا تُشاوِرْ مشغولاً وإن كان حازِماً
ولا جائِماً وإن كان فهِماً ، ولا مَدْعوراً وإن كان ناصِحاً ، ولا مَهْموماً وإن
كان عاقلاً ، فالهَمُّ يَعْقِلُ العقلُ فلا يَتَوَلَّدُ منه رأْيٌ ولا تَصْدُقُ به رَويَةٌ ...
وقالوا : لا تُدْخِلْ في مَشُورَتِكَ بَخِيلاً فَيَقْصِرَ بَعْلِكَ ، ولا جَباناً فَيُخَوِّفَكَ ،
ولا حَرِيصاً فَيَعِدَّكَ ما لا يُرْجَى ، وإن البُخْلَ والجُبْنَ والحِرْصَ طَبِيعَةٌ
واحدةٌ يَجْمَعُها سُوءُ الظنِّ بالله ...

وقالوا : لا تُشاوِرْ مَنْ لَيْسَ في بَيْتِهِ دَقِيقٌ ...

وكان كسرى إذا أراد أن يستشير إنساناً بَعَثَ إليه بنفقة سنة ثم
يستشيرهُ .

وقال عليٌّ رضي الله عنه : إياكَ ومُشاوَرَةَ النِّساءِ قَرَأَيْهِنَّ إلى أُنْفٍ
وعَزَمَهُنَّ إلى وَهْنٍ ^(١) ... وورد في الأثر : شاوِروهُنَّ وخالفوهنَّ ...

وجوب نصيحة مستشيرك

قال سيدنا رسول الله : المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ ...

وقال صلوات الله عليه : الدِّينُ النِّصِيحَةُ ، قالوا : لِمَنْ يارسولَ الله ؟

قال : لله ولكتابه ولسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ...

« قال ابن الأثير في النهاية : النصيحة كلمة تُعبرُّ عن جملة هي : إزادة الخير
للنصوح له ، وايست كلمة تُعبرُّ عن هذا المعنى سواها ، وأصل النصح في
اللغة . الخُلوص ، يقال : نَصَحْتُهُ وَنَصَحْتُ لَهُ .. هذا : والنصيحة لله : الإِيمانُ به

(١) الألف : النقص ، ورجل مأفون : نانس العقل ، والوهن : الضعف

وطاعة أمره واجتناب نهيه، وهو الألة من أطاعه، ومُعَادَاة من عصاه وما إلى ذلك مما ترجع عائده في الحقيقة إلى العبد، فهي نصيحة إلى نفسه وكسب خير لها؛ والنصيحة لكتابه: الإيمان بأنه من عند الله، وتحليل ما حله وتحريم ما حرّمه، والاهتداء بما فيه، إلى أمثال ذلك؛ والنصيحة للرسول: تصديقه والاستئنان بسنته، إلى آخره؛ والنصيحة لأئمة المسلمين - والمراد بهم أولوا الأمر - إعانتهم على الحق ونصحهم في رفق وعدل، إلى آخره، والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة. وقال حكيم: لا تُشِيرَنَّ على عدوك وصدقك إلا بالنصيحة، فالصديق تقضى بذلك حقه والعدو يهابك إذا رأى صواب رأيك ...

وقال آخر: إذا استشارك عدوك فخرّد له النصيحة، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى موالاتك ..

ويروى: أن زياد بن أبيه كتب إلى معاوية: يا أمير المؤمنين، قد ضبّطت لك العراق بشمال وقرّعت يميني لطاعتك، فولّني الحجاز، فبأن ذلك الرجل الصالح عبد الله بن عمر رضي الله عنه، - وكان مقبلاً بمكة - فقال: اللهم اشغلّ عنا يمين زياد، فأصابه الطاعون في يمينه، فجمع الأطباء واستشارهم، فأشاروا عليه بقطعها، فاستدعى القاضي شريحاً وعرض عليه ما أشار به الأطباء، فقال: لك رزق معلوم، وأجل محتوم، وإنى أكره إن كانت لك مدة أن تعيش في الدنيا بلا يمين، وإن كان قد دنا أجلك أن تلقى ربك مقطوع اليد، فإذا سألك لم تقطعها قلت: بُغضاً في لفائك، وفراراً من قضائك؛ فمات زياد من يومه، فلام الناس شريحاً على منعه من القطع، لبغضهم زياداً، فقال: إنه استشارني والمستشار مؤمن ... ولولا

الامانة في المشورة لوددت أن تقطع يده يوماً ورجله يوماً وسائر
جسده يوماً يوماً ...

الحث على قبول النصيحة وإن كان مُراً

قالوا: مَنْ أَحَبَّكَ نَهَاكَ ، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَغْرَاكَ
وقال بعض الحكماء: مَنْ أَوْجَرَكَ الْمُرَّ لَتَبَرَّأَ أَشْفَقُ عَلَيْكَ مِنْ أَوْجَرَكَ
الْحُلْوُ لَتَسْقَمَ . . . يقال: أَوْجَرَهُ الدَّوَاءُ: سَقَاهُ إِيَّاهُ . وَالْوَجُورُ: الدَّوَاءُ الَّذِي
يَصَبُّ فِي الْفَمِ ،

عتاب من لم يقبل النصيحة

قالوا: مَنْ لَمْ يَقْبَلْ رَأْيَ أَصْحَابِهِ وَإِنْ أَحْزَنُوهُ عَادَ ضَرُّهُ عَلَيْهِ ، كَالْمَرِيضِ
الَّذِي يَتْرَكُ مَا يَصِفُّ لَهُ الطَّيِّبُ وَيَعْتَمِدُ إِلَى مَا يَشْتَبِهُهُ فَيَهْلِكُ . وَقَالَ اللَّهُ
تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ صَالِحٍ : « لَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ رَسُولًا مِنْ بَنِيكُمْ أَنْذَرَكُمْ نَارَ الْعَذَابِ الَّتِي
لَأَنْتُمْ بِهَا مُتَّبَعُونَ ، وَلَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَنْ يَقُولُوا إِذْ
سَأَلْنَاهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْتَدَوْا ، ثُمَّ نَحْنُ بِمُتَّبِعِيهِمْ
كَالْعَجْرِيِّ (١) »

عَرَضْتُ نَصِيحَةً مِنْي لِيَجِيءُ فَقَالَ: غَشَشْتَنِي وَالنُّصْحُ مُرٌّ

ضياح النصيحة لمن لا يقبله

قال الشاعر: * وما خيرُ نُصْحٍ قِيلَ لَا يُتَقَبَّلُ *
* * *

(١) هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، سمي العرجي
لأنه ولد بالعرج في الطائف وقيل : بل كان له فيه مال فكان يكثر الاختلاف إليه
فشهر به ، شاعر مطبوع في الغزل والنسيب ، ترجم له صاحب الاغانى (ج - ١)

وقال غيره :

إن كان حمدي ضاع في نُصْحِكُمْ فَإِنَّ أجزى ليس بالضائع
وقيل : أخذ رجلٌ ذئباً فجعل يعِظُه ويقول له : إياك وأخذَ أغنامَ
الناس فباعَ بك الله ، والذئب يقول : خفف واخترصر فقد أمتى قطعُ
من الغنم لثلا يفوتني ...

معاينة من يستنصح الناس

ويستغش الناصح

قال عبد الله بن همام السأولي :^(١)

وقد يستغش المرء من لا يعشيه ويأمن بالغيبِ امرأةً غيرَ ناصح

وقال أيضا :

ألا ربَّ من تعشيه لك ناصحٌ ومؤمنٍ بالغيبِ غيرُ أمين

« تعشيه : تعده غاشياً لك »

وقال غيره :

نصحتُ فلم أفليح وغشوا فأفجروا فأزلى نصحي بشرٌ مكان

(١) هو القائل :

وأنتِ أمرؤٌ إما ائتمنتك خاليا فحنت وإما قلتِ قولاً بلا علم

فأنتِ من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الحياة والموت

وكان قد وشى به واش إلى زياد بن أبيه وقال له : انه هجاك ، فقال : أجمع

بينك وبينه ؟ قال : نعم ، فبعث زياد إلى ابن همام فأتى به وأدخل الرجل بيتاً فقال

زياد : يا ابن همام ، بلغني أنك هجرتني ، فقال : كلا . أصلحك الله ما فعلت ولا أنت

لذلك أهل ، فقال : إن هذا الرجل أخبرني وأخرج الرجل ، فأطرق ابن همام هنيهة

ثم أتبل على الرجل وقال هذين البيتين :

وقال يزيد بن الحكم الثقفى ^(١) من قصيدة جيدة في بابها ^(٢) يُعَاتِبُ ابْنَ
عمه عبد الرحمن بن عثمان بن العاص وأولها :

تُكَاشِرُنِي كُرْهًا كَأَنَّكَ نَاصِحٌ

وَعَيْنُكَ تُبْدِي أَنَّ صَدْرَكَ لِي دَوِي ^(٣)

لِسَانُكَ لِي أَرَى وَغَيْبُكَ عَلِمْتُ ^(٤) وَشُرْكَ مَبْسُوطٍ وَخَيْرُكَ مُنْطَوِي ^(٥)

تُصَافِحُ مَنْ لَاقَيْتَ لِي ذَا عَدَاوَةٍ صِفَاحًا وَغَيْبِي بَيْنَ عَيْنَيْكَ مُزَوِي ^(٥)

تُفَارِضُ مَنْ أَطْوَى طَوَى السَّكْشَحِ دُونَهُ ^(٦) وَبَيْنَ دُونِ مَنْ صَافَيْتَهُ أَنْتَ مُنْطَوِي ^(٦)

الناصح منهم

من أمثالهم : المبالغة في النصيحة تهجمُ بك على عظيم الظنة . « الظنة :
الثَّهْمَةُ ، وقال أكنم بن صيفي : إياكم وكثرة التَّنصُحِ فإنه يورثُ الثَّهْمَةَ .
« التَّنصُحِ : كثرة النصح ، وقال قائلهم :

❖ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظَّنَّةُ الْمُتَنصِّحُ ❖

(١) شاعر إسلامي فحل ، ترجم له صاحب الأغانى ج ١١ ساسي

(٢) انظرها في الأمالى والخزانة

(٣) يقال : كاشر الرجل الرجل إذا كشر كل واحد منهم لصاحبه ، وهو أن يبدى
له أسنانه عند التبسم ، وكرهاً : بضم الكاف وفتحها مصدر وضع موضع الحال ،
والدوى وصف من الدوى بالفتح : المرض ودوى صدره : ضعف

(٤) الأرى : العسل ، والعلقم : الحنظل

(٥) وغبي يروي وحتمدي ، وزوى ما بين عينيه : قبضها

(٦) فاوضه : أظهر له أمره . وأطوى ضد أنشر ، والطوى : الجوع يقول : تظهر

أمرك لمن أخفى عنه جوعى أى تبسط في الكلام عند عدولى لا أظهره على شيء من
أموري ، وتقبض عن أصدقائي ولا تظهرهم على شيء من أمرك نكابة في .

وشاور المأمونَ يحيى بن أكرمٍ، فكان الرأي مخالفاً لهوى المأمون، فقال يحيى: ما أحدٌ بالغ في نصيحة الملوكِ إلا استغشوه، قال: ولم يحيى؟ قال: لصرفه لهم عما يُحبون إلى ما لعلمهم يتكروهون في الوقتِ والهوى إلهٌ معبودٌ!

وصف غاش في نصحه

من أمثالهم في الذي ينصح القوم وهو غاش: « أنت شولة الناصحة » قال ابن السكيت: كانت شولة أمة رعاء تنصح لوالها فتعود نصيحتهما وبالا عليهم، لحمقها.

وقال معاوية يوماً لعمر بن العاص: هل غششتني منذ استنصحتك؟ قال: لا، فقال: ولا يوم أشرت عليّ بمبارزة عليّ وأنت تعلم من هو؟ فقال: كيف وقد دعاك رجلٌ عظيمُ الخطر كنت من مبارزته إلى إحدى الحسينين! إن قتلته فزت بالملكِ وازددت شرفاً إلى شرف، وإن قتلك تعجلت من الله تعالى ملاقة الشهداء والصديقين! فقال: وهذه أشدُّ من الأولى! فقال: أو كنت من جهادك في شك؟ فقال: دعني من هذا

وقال شاعر:

أعاذل إن نصحك لي عناءٌ فحسبك قد سمعتُ وقد عصيتُ

الاستبداد وكرهه المشورة

ومن الناس من آثر الاستبداد برأيه وكره أن يستشير، قال المهلب ابن أبي صفرة: لو لم يكن في الاستبداد بالرأى إلا صوتُ السرِّ وتوفيرُ

العقل لوجب التَّمَسُّكُ به ... وقال عبد الملك بن صالح ؛ ما اسْتَشَرْتُ أحداً
 قَطُّ إلا تَكَبَّرَ عَلَيَّ وتَصَاغَرْتُ له ، ودَخَلَتْهُ العِزَّةُ ودَخَلَتْني الذُّلَّةُ ؛ فعليك
 بالاستبدادِ ، فإن صاحبه جليلٌ في العيون ، مهيبٌ في الصدور ؛ واعلم
 أنك متى استشرت تَضَعُ شَأْنَكَ ، وَرَجَفَتْ بك أركانك ؛ وما عَزَّ سلطانٌ
 لم يُغْنِه عَقْلُه عن عقولِ وُزرائِه ، وآراءِ نصحائِه ؛ فإياك والمشورة وإن
 ضاقتُ عليك المذاهب ، واشتهتْ لديك المسالك .

ورَوَوْا : أن أبا جعفر المنصور كان يَسْتَشِيرُ أهلَ بيته حتى مدحا
 ابن هَرَمَةَ ^(١) بقوله :

يُزِنُ امرأً لا يُصْلِحُ القومُ امره

ولا يَنْتَجِي الأذنينَ فيما يُجَاوِلُ ^(٢)

فاستوى جالساً وقال : أصبتَ والله ! واستعاده ، وما استشار بعدها .
 وقال بعضُ جلساءِ هارونَ الرشيد . أنا قتلْتُ جعفرَ بن يحيى البرمكي
 وذلك أني رأيت الرشيد يوماً وقد تنفَّسَ تنفَّساً مُنْكَراً فأنشدت في إثر
 نفسه :

واستبدت مرةً واحدةً إنما العاجِزُ من لا يستبد ^(٣)

فأضغى إليه واستعاده ، ثم قتل جعفرأ ...

- (١) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة ، من متقدمي الشعراء ، وعن أدرك
 الدولتين الاموية والهاشمية ترجم له صاحب الاغانى د ج ٤ ،
 (٢) انتباه : إذا أفضى إليه بسره وخصه به
 (٣) لعمر بن أبي ربيعة وقوله :

ليت هينداً أنجزتنا ما تعيدُ وشفّتْ أنفسنا مما نجدُ

وكانت الفرس والروم مختلفين في الاستشارة؛ فقلت الروم: نحن لا نملك من يحتاج إلى أن يستشير، وقالت الفرس: ونحن لا نملك من يستغنى عن المشاورة؛ وقد فضل الفرس لقوله تعالى « وشاورهم في الأمر » .

المتفادى من أن يستشار

ومن الناس من يكره أن يشير:

استشار عبد الله بن عليّ عبد الله بن المقفع فيما كان بينه وبين أبي جعفر المنصور، فقال ابن المقفع: لست أقود جيشاً، ولا أتقلدُ حرباً، ولا أشير بسفك دم، وعترة الحرب لا تستمال، وغيرى أولى بالمشورة في هذا المكان ...

واجتمع رؤساء بني سعد إلى أكنم بن صينيّ يستشيرونه فيما دهمهم يوم الكلاب، فقال: إنّ وهنّ الكبر قد فشا في بدني، وليس معي من حدة الذهن ما أبتدئ به الرأي، ولكن اجتمعوا وقولوا، فإنني إذا مرّ بي الصواب عرفته .

الأنانة والروية والعجلة

مدح الأنانة والروية وذم العجلة

وكانوا يمدحون الأنانة في الرأي وإجالة الفكرة فيه وعدم التسرع . كان عبد الله بن وهب الراسبي يقول: إياي والرأي الفطير ا وكان يستعبد بالله من الرأي الدبري .

« الفطير: كل ما أعجل عن إدراكه، تقول: نظرت العجين، وهو

أَنْ تَدْعِيَهُ ثُمَّ تَحْتَبِرُهُ مِنْ سَاعَتِهِ . وَالدَّبْرِيُّ : الَّذِي يَسْنَحُ بَعْدَ الْفَوْتِ
يُقَالُ : شَرُّ الرَّأْيِ الدَّبْرِيُّ ، وَهُوَ الَّذِي يُسْنَحُ آخِرًا عِنْدَ فَوْتِ الْحَاجَةِ ،
أَيُّ أَنْ شَرَّهُ إِذَا أَدْبَرَ الْأَمْرُ وَفَاتَ ، وَهِيَ ذَا قَوْلِهِمْ : عَرَفَ الْأَمْرَ تَدْبِيرًا ،
أَيُّ بِأَخْرَجَةِ قَالَ جَرِيرٌ :

وَلَا تَتَّقِرْنَ الشَّرَّ حَتَّى يَصِيبَكُمْ وَلَا تَعْرِفُونَ الْأَمْرَ إِلَّا تَدْبِيرًا
وَيُقَالُ : إِنْ فُلَانًا لَوْ اسْتَقْبَلَ مِنْ أَمْرِهِ مَا اسْتَدْبَرَهُ لَهَدَى لِيُوجِهَهُ
أَمْرِهِ ، أَيُّ لَوْ عَلِمَ فِي بَدْيِ أَمْرِهِ مَا عَمِلَهُ فِي آخِرِهِ لَاسْتَرْشَدَ لِأَمْرِهِ «
وَكَانَ عَامِرُ بْنُ الظَّرِبِ حَكِيمٌ الْعَرَبُ يَقُولُ : دَعُوا الرَّأْيَ يَغِيبُ حَتَّى
يَخْتَمِرَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالرَّأْيَ الْفَطِيرُ ! يَرِيدُ الْإِنَاءَةَ فِي الرَّأْيِ وَالتَّثْبِتَ فِيهِ
وَقَالَ الشَّعْبِيُّ — عَامِرُ بْنُ شَرَّاحِيلَ — : أَصَابَ مُتَأَمِّلٌ أَوْكَادًا ، وَأَخْطَأَ
مُسْتَعِجِلٌ أَوْكَادَ « الْمُتَأَمِّلُ : الْمُتَثَبِّتُ يَقُولُ : تَأَمَّلْ فُلَانٌ : إِذَا تَثَبَّتْ وَنَظَرَ
فِي الْأَمْرِ »

وقال شاعر :

تَأَنَّ وَشَاوِرْ فَإِنَّ الْأَمْرَ رَمِنَا مُضِيٌّ وَمُسْتَعْمِضٌ
فَرَأْيَانٍ أَنْضَلُ مِنْ وَاحِدٍ وَرَأْيُ الثَّلَاثَةِ لَا يُنْقِضُ

وقال المتنبي :

الرَّأْيُ قَبْلَ شِجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوْلُّ وَهْيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي
فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مُرَّةٍ بَلَغَتْ مِنَ الْعَلْيَاءِ كُلِّ مَكَانٍ (١)
وَلَرَّبَّمَا طَعَنَ الْفَتَى أَقْرَانَهُ بِالرَّأْيِ قَبْلَ تَطَاعَنِ الْأَقْرَانِ

(١) لنفس مرة: من المرارة، وتروى مرة بكسر الميم: القوة والشدة، وأصل المرة
لإحكام الفتل يقال: أمر الحبل لمرارا، وتروى: حرة

لولا العقول لكان أدنى ضيغمٍ أدنى إلى شرف من الإنسان^(١)
ولما تفاضلت العقول ودبرت أيدي الكماة عوالي المران^(٢)
وفي الأثر: ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا الحرق إلا شانه.
وقال القطامي:

قد يذكرك المتأني بعص حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
وقال:

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه أتباعا^(٣)
وقبله:

ومعصية الشفيق عليك بما يزيدك مرة منه استماعا^(٤)

مدح العجلة وانتهاز الفرص

وهناك من الخطوب ما تمدح فيه العجلة:

قيل لأبي التيناء: لا تعجل فالعجلة من الشيطان ا فقال: لو كان ذلك
كذلك لما قال نبي الله موسى «وعجلت إليك رب استرضى»
وقال معاوية: ما من شيء يعدل الثبوت ا فقال الأحنف بن قيس: إلا
أن تبادر بالعمل الصالح أجلك ...

(٢٠١) الضيغم: الأسد والمراد بأدنى ضيغم: أدون وأخس، وأدنى إلى شرف:
أقرب، والعوالي: صدور الرماح، والمزان: الرماح اللينة، والسكاة جمع كمي وهو
البطل المشتمل بالسلاح

(٣) يقول: خير الأمر ما قد تدبرت أوله فعرفت إلام تول عاقبته، وشره
ماترك النظر في أوله، وتتبع أو آخره بالنظر

(٤) يقول: إذا عصيت الشفيق عليك الحريص على رشدك تبينت في عواقب
أمرك الزلل فزادك حرصاً على أن تقبل نصحه.

وقالوا: المتأني في علاج الداء، بعد أن عرف الدواء، كالمتأني في إطعام النار وقد أخذت بحواشي ثيابه ...

وسأل أبو علي البصيرُ بعضَ الأمراءِ حاجة: فقال له: رُح إلى وقتِ العَصْرِ، بجاء وقتَ الظُّهر، فقال: ألمِ أَعِدْكَ وقتَ العَصْرِ؟ فقال: نعم، ولكن رأيتُ الإفراطَ في الاستظهارِ أحمدَ من الاستظهارِ في التواني ...
«والاستظهار هنا معناه: الاحتياط والاستيثاق»

ومن قولهم في انتهاز الفرص: الهَيْبَةُ خَيْبَةٌ والْفُرْصَةُ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ...
وقالوا: انتَهَزَ الفُرْصَةَ قبل أن تَعُودَ غُصَّةٌ. وقالوا: الافتراض اقتِنَاصٌ ...

عقريات شتى في المشورة

قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب - شاعر ضخم أدرك الدولة العباسية - :

فَأرْسِلْ حَكِيمًا وَلَا تُوصِ	إذا كنتَ في حاجةٍ مُرْسِلاً
فشاوِرْ كَبِيْبًا وَلَا تَعْصِه	وإنْ بابُ أمرٍ عَلَيْكَ التَّوَى
حَدِيثًا إِذَا أَنْتَ لَمْ تُحْصِه	وَلَا تَنْطِقِ الدَّهْرَ فِي بَجَاسِ
فإنَّ الوَثِيقَةَ فِي نَفْسِه (١)	وَنَصَّ الحَدِيثَ إلى أهْلِه
فَلَا تَنْأَ عَنه وَلَا تُفْصِه	وإنْ ناصِحٌ مِنْكَ يَوْمًا دَنَا
وقد تَعَجَّبُ العَيْنُ مِنْ شَخِصِه	وكم مِنْ قَتِيٍّ شاخِصَ عَقْلُه
ويَأْتِيكَ بِالأمْرِ مِنْ فَصِه (٢)	وآخرَ تَحَسُّبُه جَاهِلاً

(١) نص الحديث: رفعه وأسندته؛ والوثيقة في الأمر: إحكامه والأخذ بالثقة

(٢) فص الأمر: أصله وحقه يفته تقول: أنا أتيك بالأمر من فسه، يعني: من

مخرجه الذي قد خرج منه

وقال ابن المقفع: لا يُقَدِّفَنَّ في رُوعِكَ أنك إذا اسْتَدْرَتَ الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأى غيرك فتنتطع بذلك عن المشورة ، فإنك لا تريد الرأى للفخر ولكن للاتضاع به ، ولو أنك أردت الذكر لكان أحسنُ الذكر عند الألباء أن يُقال : لا ينقرُّدُ برأيه دون ذوى الرأى من إخوانه ...

ولما سار سيدنا رسول الله إلى قريش في غزاة بدر نزل صلى الله عليه وسلم أذنى ماءٍ من مياه بدر ، فقال له الحجاب بن المنذر : يا رسول الله ، رأيت هذا المنزل أمزِلُ أمزِلُ أنزلَكَ اللهُ عز وجل ليس لنا أن نتقدّمه ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحربُ والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأى والحربُ والمكيدة » ؛ فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أذنى ماءٍ من مياه القوم فنزله ، ثم نُعَوِّرَ^(١) ما سواه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فتملأه ماءً ، ثم نُقاتِلَ القومَ فنشرب ولا يشربوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أشرتُ بالرأى » وفعل ما أشار به الحجاب .

وفي حديث أبي هريرة : ما رأيتُ أحداً أكثر مشورة لأصحابه من النبي صلى الله عليه وسلم ... « أقول : وإنما كان يشاورهم — كما قال علماؤنا — فيما ليس فيه نص ، وفي أمور الدنيا ، ومن ظنَّ أنه كان يشاورهم في الأحكام فقد غفل غفلةً عظيمةً كما قال الأئمة ، وكذلك إنما كانت المشاورة قبل العزم والتبيين ، فإذا عزم الرسول لم يكن لبشرٍ التقدّم على الله ورسوله ، قال العلماء : فلقد شاورَ النبي أصحابه يوم أُحُدٍ في المقام

(١) عور الركبة : كبتها بالتراب حتى تنسد عيونها

والخروج ، فأوَّاه الخروج ، وكان صلوات الله عليه يرى أن يُقيم
 بالمدينة فيقاتلهم فيها ، فما زالوا برسول الله حتى لبس لأُمَّته ^(١) فلما لبسها
 ندَموا وقالوا : يارسول الله أقيم فالرأى رأيك ، فلم يمل إليهم بعد العزم
 وقال : لا ينبغي لنبي يلبس لأُمَّته أن يضعها حتى يحكم الله ... وكذلك كان
 الخلفاء الراشدون يستشيرون الأُمماء من أهل العلم في الأمور التي لم يكن
 فيها نصُّ بحكم مُعيَّن ليأخذوا بأيسرها ، فإذا وضَح الكتابُ والسنة لم
 يتعدَّوه إلى غيره ، فقد كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ورد عليه أمرٌ نظر
 فإن وجد في كتاب الله أو سنة رسوله ما يقضى به قضى وإلا دعا رؤس
 المسلمين وعلماءهم واستشارهم ، وكذلك كان يفعل الفاروق وسائر الخلفاء
 رضى الله عن الجميع »

قالوا : وكانت الرومُ والفرسُ لا يجمعون وزراءهم على الأمرِ يستشيرون
 فيه ، وإنما كانوا يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به ؛
 وذلك لمعانٍ منها أن لا يقع بين المستشارين منافسةٌ تذهب بأصالة الرأي
 وصحة النظر ، لأن من طباع المشركين في الأمر التناؤس والتعالب والطعن
 من بعضهم على بعض ، وربما أشار أحدهم بالرأى الصواب وسبق إليه
 فحسده الآخرون فتعقبوه بالإعراض والتأويل والتّهجين وكدرهه وأفسدوا
 ومنها أن في اجتماعهم على المشورة تعريض السر للإضاعة والإفشاء والإذاعة
 ولذلك قالت الفرسُ : إنما يراد الاجتماع والكثرة والتأصُّر في الأمور
 التي يُحتاج فيها إلى القوة ، أما الأمورُ الغائضة فإن الاجتماع يُفيدُها ويُولدُ
 فيها التضاعن والتناؤس ...

وجاء في كتاب للهند : أن ملكا استشار وزراء له ، فقال أحدهم :

(١) أداة الحرب من درع وبيضة وغيرهما من السلاح

الملك الحازمُ يزدادُ برأىِ الوزراءِ الحزاةِ كما يزدادُ البحرُ بموادهِ من الأنهارِ
وينالُ بالحزمِ والرأىِ ما لا يناله بالقوةِ والجنودُ ؛ وللأسرارِ منازلُ : منها
ما يدخُلُ الرهطُ فيه ، ومنها ما يُستعانُ فيه بقوم ، ومنها ما يُستغنى فيه بواحد
وفي تحصينِ السرِّ الظفرُ بالحاجةِ والسلامةُ من الخللِ ، والمستشيرُ وإن كان
أفضلَ رأياً من المشيرِ فإنه يزدادُ برأيه رأياً كما تزدادُ النارُ بالسليطِ ضوءاً^(١) ؛
وإن كان الملكُ مُحصناً لسِرِّه بعيداً من أن يُعرفَ ما في نفسه مُتخيراً للوزراءِ
مهيّباً في أنفُسِ العامةِ كافياً بحسنِ البلاءِ لا يخافُهُ البريء ولا يأمنهُ المريبُ
مُقَدِّراً لما يُفيدُ وينفِقُ ، كان خليقاً لبقاءِ مُلكه . ولا يصلحُ لسرنا هذا إلا
لسانان وأربعُ آذانٍ . ثم خلا به ...

(وبعد) فإن دولة الاستبداد قد أُدِيلَ منها في هذه الأجيالِ وشال أمرها في
الميزانِ ، ورجحت كِفَّةُ الشورى ونفقت سُوْقُها ، وخطت في عصرنا هذا
خُطواتٍ رغبةً مَرْفُوقَةً ، وعمت أكثر الأمم التي أعرقت في الحضارة ، وظهر
أن مجالسَ الشورى على عِلاتها هي خَيْرُ ألوانِ الحُكمِ ، ومن الذى يقول
إن الاستبداد أو الحُكمِ المطلق الذى لا رِقْبَةَ عليه هو أفضلُ من الشورى
أباً كان لوئها اللهم إلا رَجُلٌ أحقُّ مافون ليس بثاقبِ الرأى ، وإذا كانت
الشورى لا تعرى من العيوب فأن لا أين الخير نَحْضاً والكمال صرفاً ...

(١) السليط : الزيت والمراد زيت المصباح

عقرياتهم في الوعظ

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومما يتصل بهذا الباب عقرياتهم في الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلنورد لك صدرًا من ذلك إن شاء الله

نهي من لم يتعظ عن الوعظ

قال رجلٌ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : عِظِي وَأَوْجِزِي ، فقال :
تَوَقَّ مَا تَعِيبُ .

وجاء رجل إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقال : إني أريد أن أعظ ، فقال : أَوَبَلَّغْتَ ذَلِكَ إِنْ لَمْ تَخْشَ أَنْ تَفْتَضِحَ بِثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَافْتَلِ ، قال : ماهي ؟ قال : قول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ الْكَبِيرَ مَقْنًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » وقوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » ، وقول العبد الصالح شُعَيْبٍ « مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُم عَنْهُ » أَحْكَمَتْ هَذِهِ الْآيَاتِ ؟ قال : لا ، قال : فابدأ إذن بنفسك .

وقال شاعر :

يا وادِظَّ النَّاسِ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّهِمًا إِذْ عِيبَتْ مِنْهُمْ أُمُورًا أَنْتَ تَأْتِيهَا
كُنْ كَمَا النَّاسُ مِنْ عُرْيٍ وَعَوْرَتُهُ لِلنَّاسِ بَادِيَةٌ مَا إِنْ يُوَارِيهَا

حشهم على الوعظ بالفعال دون المقال

قال بعضهم : ليس الحكيم الذي يُلَقِّنُكَ الْحِكْمَةَ تَلْقِينَا ، إنما الحكيم

الذى يعملُ القتلَ الحكيمَ ففتتدي به .
 وقال آخر ؛ أخذ المرء نفسه بحسنِ الأدب تأديب لأهله .
 ومن هذا يقول محمود الوراق :
 رأيتُ صلاحَ المرءِ يُصلِحُ أهلهُ ويُعديهمُ داءُ الفسادِ إذا قسدُ

التلطف واللين في الوعظ

تصدى رجل للرشيد فقال : إني أريد أن أعظَّ عليك في المقال ،
 فهل أنت مُحتَمِلٌ ؟ قال : لا ؛ لأن الله تعالى أرسل من هو خيرٌ منك إلى
 من كان شرًّا مني ، وأمره باللين ، فقال تعالى : « فقولوا له قولاً ليناً لَعَلَّهُ
 يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ،

وقالوا : واجِبٌ مَنْ يَعْظُ أَنْ لَا يَعْظَفَ ، وَمَنْ يُوعِظُ أَنْ لَا يَأْتَفَ

الحث على الاتعاض

قالوا : السعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ به غيره . وقالوا :
 مَنْ لَمْ يَتَعِظْ بِغَيْرِهِ وَعَظَّ اللَّهُ بِهِ غَيْرَهُ .

وعظ من لا يتعظ

قالوا : لَا يَنْجُحُ الْوَعِظُ فِي الْغُلُوبِ الْقَاسِيَةِ ، كَمَا لَا يَزُكُو الْبَسْدَرُ فِي
 الْأَرْضِ الْجَاسِيَةِ .

وقالوا : صَنَعْتُكَ سَيْفًا لَيْسَ لَهُ سِنٌّ^(١) تَعَبُ ، وَبَذَرْتُكَ أَرْضًا
 سَبِيغَةً نَصَبُ .

(١) السنخ : الأصل من كل شيء . تقول : رجع فلان إلى سنخه الكريم وإلى سنخه الخبيث

وقالوا : من استشقل سماع الحق فهو للعمل به أكثر استثقالا ...

حشهم على قبول وعظ من ليس بمتعظ

قالوا : لا يَمْنَعَنَّكُمْ سُوءُ مَا تَعْمَلُونَ عَنَّا أَنْ تَعْمَلُوا بِأَحْسَنِ

مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا .

وورد في الأثر : مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهِ ، وَأَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ

وَإِنْ لَمْ تَنْتَهُوا عَنْهُ :

وقال الحسنُ البَصْرِيُّ يوماً لبعض الصالحين : عِظْ أَصْحَابَكَ ، فقال له :

لَأِنِّي أَخَافُ أَنْ أَقُولَ مَا لَا أَفْعَلُ ، فقال له : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، وَأَيْنَا يَقُولُ

مَا يَفْعَلُ ! يَوَدُّ الشَّيْطَانُ أَنْهَ ظَفِيرَ بَهْدِهِ مِنْكُمْ فَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ يَنْهَ

عَنْ مُنْكَرٍ ...

النهى عن الاقتداء بذوى الزلات

قال بعض العلماء : إياك والاقتداء بزلات أصحاب النبي صلى الله عليه

وسلم فتقول : فلان شرب النبيذ ، وفلان سمع الغناء ، وفلان ائب بالشطرنج

فيخرج منك فاسق تام ... وقالوا : من أخذ برخصة كل فقيه خرج منه

فاسق ...

الحث على الأمر بالمعروف والحال التي يجوز فيها

قال الله تعالى : « وَتَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ^(١) »

(١) قال الإمام البيضاوي في تفسيره : من في منكم للتبويض لان الامر

وقال سيدنا رسول الله : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكِرًا وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُغَيِّرَهُ
بِيَدِهِ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ
أَضْعَفُ الْإِيمَانِ .

وفى الأثر : إِنْ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِهِ عَمَّهِمُ اللَّهُ
بِعِقَابِهِ .

وأما قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ
إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » فقد قال الإمام البيضاوي : قوله : عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، أى احفظوها
والزموا إصلاحها ، ولا يضركم ... الآية : أى لا يضرُّكم الضلال إذا كنتم
مُهْتَدِينَ ، قال : ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته ، وقال : نزلت
هذه الآية لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم ، وقيل
كان الرجل إذا أسلم قالوا له : سَفَّهْتَ آبَاءَكَ ، فنزلت ،

وقال الراغب الأصهباني : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
صلوات الله عليه : اتنعروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، وإذا رأيت
شُحًا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابَ كُلِّ امْرئٍ بِرَأْيِهِ فليك بِحُؤُوسِ نَفْسِكَ

بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية ، ولأنه لا يصلح له كل أحد
إذ للتصدى له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة ، كالعلم بالاحكام ومراتب
الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها ، خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم
ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً أئمنوا جميعاً ، ولكن يسقط بفعل
بعضهم ، وهكذا كل ما هو فرض كفاية ثم قال : والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى
ما فيه صلاح ديني أو دنيوي ، وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه عطف
الخاص على العام للإيذان بفضله

ودَعَّ أمرَ العوامِ (١) ، ثم قال الراغب : وقال أكثر المتكلمين : لا يجوز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كلِّ موضع ، لكن من علم أو ظن أن قوله يَنفُذُ وأن لا يَنالُه مكروه إذا أمرَ أو نهى فعليه أن يفعل ذلك ، ومتى خاف على نفسه فعليه أن يُنكِرَ المنكر بقلبه دون لسانه ...

(١) خويصة : تصغير خاصة بسكون الياء لأن ياء التصغير لا تكون إلا ساكنة وجوز النقاء الساكنين فيها أن الأول حرف لين والثاني مدغم ، وعليك بخويصة نفسك : جاهد نفسك وانكش في الأعمال الصالحة ، ثم قال : ودع أمر العوام يريد : دع السواد الأعظم فيما هم فيه سادرون

الباب الخامس

في

الحلم وكظم الغيظ

والعفو والغضب والانتقام

وما إلى هذه المعاني

والحلم كذلك لونٌ من ألوان الصبر، أليس هو تجرُّع الغيظ أو إمساك النفس عن ثورة الغضب وهيجته وانبعائه؛ وهو فضيلةٌ عليا ما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم^(١) ومن كلام الثبوة: كادَ الحلم أن يكون نبيًّا. وهو نتاج العقل والآناة، أو قل: إنه هما. قال عزَّ وجلَّ يَذُمُّ الْكُفَّارَ مُتَعَجِّبًا مِنْهُمْ: «أم تأمرهم أحلامهم بهذا»، وسأل عليُّ رضي الله عنه كبيرَ فارسٍ عن الغالبِ كان على كِسْرَى أنوشروان؛ قال: الحلم والآناة، قال: هما توأمان يندبهما علوُّ الهمة وقال الشاعر:

لَنْ يُدْرِكَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا

حَتَّى يَذُلُّوا — وَإِنْ عَزُّوا — لِأَقْوَامٍ

وَيُشْتَمُّوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفِرَةً لاصْفَحْ ذَلِكَ وَلَكِنْ صَفَحْ أَحْلَامَ^(٢)

(١) آية كريمة هي: «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم

(٢) مسفرة: مشرقة مضيئة سرورا

قالوا : ولن يتمَّ حلمُ الإنسانِ إلا بإمساكِ الجوارحِ كُلِّها : اليدِ عن البَطْشِ ، واللسانِ عن الفُحْشِ ، والعينِ عن النَّظَرِ الشَّزْرِ ، وأقربُ لفظٍ يقابلُ الحِلْمَ هو التَّدْمُرُ . وقال أبو هلالِ العسكري : ومِنَ أشرفِ نُعُوتِ الإنسانِ أنْ يُدْعَى حليماً ، لأنه لا يُدْعَاهُ حتى يكونَ عاقلاً وعالمًا ومُضْطَبِّراً وَعَفْواً وصالحاً ومحملاً وكاظماً ، وهذه شرائفُ الأخلاقِ وكراماتُ السجايا والخصال .

والحلمُ : منه ماهو غريزى ، وهو هبةٌ من الله لعبده يَعْفُو عَمَّن ظَلَمَهُ ، وَيَصِلُ مِنْ قِطْعَةٍ ، وَيُحْسِنُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ ، يَصْدُرُ فِي ذَلِكَ عَنْ نِيْزَةِ كَرِيْمَةٍ وغريزةِ سَليمةٍ وصدْرٍ سَليمٍ مِنَ الغَوَائِلِ والأذى ، صَافٍ مِنْ شَوَائِبِ الكَدْرِ والقَدَى ، وهذا هو الحِلْمُ الذى لا يُسْتَطَاعُ تَعْلَمًا وَلَا يُكْتَسَبُ تَحْلَمًا :

وإذا الحِلْمُ لم يكنِ فى طِبَاعِ لم يُحْتَمَ تقادُمُ الميَلاَدِ [المتنبى]
 روى أن سيدنا رسولَ الله قال لأشجَّ عبد القيس : يا أبا المنذر ، إنَّ فيكَ تَحَصُّلَتَيْنِ يَرْضَاهُمَا اللهُ ورسولُهُ : الحِلْمُ والإِنَاءَةُ ، فقال : يارسولَ اللهِ ، أُمُيَّةٌ جَبَلَتْنِي اللهُ عَلَيْهِ أَمْ شَيْءٌ اخْتَرَعْتُهُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِي ؟ قال : « بل شَيْءٌ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِ ، قال : الحمد لله الذى جَبَلَنِي عَلَى خُلُقِي يَرْضَاهُ اللهُ ورسولُهُ . وهناك من يقولُ : إن الحِلْمَ ليس غريزةً ولا طبيعةً بل مُكْتَسَبٌ مستفاد : وأيا كان الحال فليس من يُنْكِرُ أن من الحِلْمِ ماهو غريزى كما قلنا ، كما أن هناك حِلْمًا يُكْتَسَبُ بالتَّحَلُّمِ كما أن العِلْمَ بالتَّعَلُّمِ

قال حاتم :

تَحَلَّمْ عَنِ الأَذْنَيْنِ وَاسْتَبِقِ وَدَّهْمِ فَلَئِنْ تَسْتَطِيعَ الحِلْمَ حَتَّى تَحَلِّمًا
 يُرَوَى أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ جَعْفَرِ الصَّادِقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَبْدٌ سَيِّئُ الخُلُقِ ، فَمَقِيلٌ لَهُ : أَمَا تَأْتَفُ مِثْلَ هَذَا عِنْدَكَ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى الاسْتِبْدَالِ بِهِ ؟ فَقَالَ :

إنما أتركه لآ تعلم عليه الحلم ...

وقال الشاعر :

وليس يتمُّ الحلمُ للدرءِ راضياً إذا هو عند السُّخِطِ لم يَتَحَلَّمْ
 كما لا يَتِيحُ الجُودُ للدرءِ مُوسِراً إذا هو عند القَسْرِ لم يَتَحَشَّمْ
 [يتحشم : يندمُّم وَيَسْتَحِي]

وهناك حلمٌ حادثٌ عن السكبر والعجرفة ، لا يرى المسيء أهلاً أن يجاريه ، كما أن هناك حلمٌ ههاته وذلة وعجز وضعف نفس وصغر همّة

الممدوح بالحلم وتمدحهم به

قال مهبّار الديبلي :

وإذا الإباءُ المرُّ قال لك : انتقم قالت خلائقك الكرامُ : بل أحلم
 شرُّع من العفو انفرَدتَ بدينه وفضيلةُ لسواك لم تتقدّم
 حتى لقد ودَّ البريء لو أنه أدلى إليك بفضلٍ جاء المجرّم
 وقال بعضهم :

فدهره يصفح عن قُدرة ويغفرُ الذنبَ تلى علمه
 كأنه يأتفُّ من أن يرى ذنبَ امرئٍ أعظمَ من حلمه

وقال المتنبي :

وأحلمُ عن خِلِّي وأعلمُ أنه متى أجزه حلماً على الجهلِ يندم
 وقال سالم بن وإبسة^(١) :

(١) شاعر إسلامي تابعي ، وهو صاحب هذه الأبيات : - وهي من أبيات الحماة

أحبّ الفتى ينفى الفواحش سمعه كأن به عن كلِّ فاحشة وقرأ

وَنِيرَبٍ مِنْ مَوَالِي السُّوءِ ذِي حَسَدٍ يَبْتَاتُ لِحُمَى وَمَا يَشْفِيهِ مِنْ قَرَمٍ ^(١)
 دَارَيْتُ صَدْرًا طَوِيلًا غَمْرُهُ حَقْدًا مِنْهُ وَقَلَّمْتُ أَظْفَارًا بِلَا جِلْمٍ ^(٢)
 بِالْحَزْمِ وَالْخَيْرِ أَسْدِيهِ وَالْحِمَّةُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَمَا لَمْ يَرْعَ مِنْ رَحِمٍ ^(٣)
 فَأَصْبَحَتْ قَوْسُهُ دُونِي مُوْتَرَةً تَرْحِي عَدُوِّي جِهَارًا غَيْرَ مُسَكِّتِمٍ ^(٤)
 وَإِنَّ فِي الْحِلْمِ ذُلًّا أَنْتَ عَارِفُهُ وَالْحِلْمُ عَنْ قُدْرَةٍ فَضْلٌ مِنَ الْكَرَمِ
 وَقَالَ بَعْنُ بِنِ أَوْسِ الْمُرَزِيِّ: ^(٥)

وَذِي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضَغْنِيهِ بِحِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ

سَلِيمٌ دَوَاعِي الصَّدْرِ لَا بَاسِطًا أَذَى وَلَا مَانِعًا خَيْرًا وَلَا قَاتِلًا هُجْرًا
 إِذَا شِئْتَ أَنْ تُدْعَى كَرِيمًا مُكْرَمًا أَدِيًّا ظَرِيفًا عَاقِلًا مَاجِدًا حُرًا
 إِذَا مَا أَتَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ فَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالًا لِزَلَّتِهِ عُدْرًا
 غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَنَةٍ فَإِنْ زَادَ شَيْئًا عَادَ ذَلِكَ الْغِنَى فَقْرًا

(١) النيرب: الشر والنقمة، أراد: وذى نيرب، والقرم: شدة الشهوة إلى اللحم
 يقول: رب ذى نيرب حسود من موالى السوء يقتابني ويأكل لحمي ولا يشفيه ذلك
 من قرم، ويقتات: يفتعل من القوت.

(٢) الغمر: الحقد والغل، والجلم: أحد شقي المقرض وإنما هما جلمان يقول:
 صابرة على مداجاته وانطوائه على حقدى فدفعت شره عن نفسى بطول مداراتى.
 وحقدا: أى حاقدا ودأويت صدره: أى مكنون صدره

(٣) بالحزم متعلق بدأويت أو قلت وقوله: تقوى الإله يرجع إلى أسديه، وما
 لم يرع من رحم: يرجع إلى ألجمه

(٤) يقول: ما زلت أنلطف وأصلح الأمر الفاسد بالرفق قليلا قليلا حتى صار
 يقاتل عدوى مجاهرة بعد أن كان يعاديني مكاشرة

(٥) شاعر غزل من مخضرمى الجاهلية والإسلام وأبياته هذه من أبيات له طريفة

يُحَاوِلُ رَغْمِي لَا يُحَاوِلُ غَيْرَهُ وَكَلِمَاتٍ عِنْدِي أَنْ يُحَالَّ بِهِ الرَّغْمُ^(١)
 وَيَسْتَمُّ عَرَضِي فِي الْمَغْيِبِ جَاهِدًا وَلَيْسَ لَهُ عِنْدِي هَوَانٌ وَلَا سْتَمُّ
 إِذَا سُمِّتُهُ وَضَلَّ الْقَرَابَةَ سَامِنِي قَطِيعَتَهَا ، تَلِكِ السَّفَاهَةَ وَالْإِسْتَمُّ
 فَمَا زِلْتُ فِي لَيْسِنِي لَهُ وَتَعْطَانِي عَلَيْهِ كَمَا تَحْتَوُوا عَلَى الْوَلَدِ الْأَثْمُ
 وَصَبْرِي عَلَى أَشْيَاءَ مِنْهُ تَرَبُّبِي

وَكَظَمِي عَلَى غَمِيظِي وَقَدْ يَنْفَعُ الْكَظْمُ^(٢)
 لِأَسْتَلَّ مِنْهُ الضَّغْنَ حَتَّى اسْتَلْتُهُ وَقَدْ كَانَ ذَا ضِغْنٍ يَضِيئُ بِهِ الْحَزْمُ
 فِدَاوَيْتُهُ حَتَّى ارْفَأَنْتَ نِفَارُهُ نُعِدْنَا كَأَنَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا صَرْمُ^(٣)
 وَأَطْفَاتُ نَارِ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَصْبَحَ بَعْدَ الْحَرْبِ وَهُوَ لَنَا سَلْمُ
 وَقَالَ شَاعِرٌ :

لَقَدْ أَسْمَعُ الْقَوْلَ الَّذِي هُوَ كَلِمَا نُنْذِرُ بِهِ النَّفْسَ قَلْبِي يُصَدِّعُ
 فَأَبْدِي لِمَنْ أَبْدَاهُ مِنِّي بِشَاشَةً كَأَنَّ مَسْرُورٌ بِمَا مِنْهُ أَسْمَعُ
 وَمَا ذَاكَ مِنْ عَجْزٍ بِهِ غَيْرَ أَنِّي أَرَى أَنْ تَرَكَ الشَّرَّ لِلشَّرِّ أَدْفَعُ

فضل كظم الغيظ

يقال : كَظَمَ الرَّجُلُ غَيْظَهُ يَكْظِمُهُ كَظْمًا : رَدَّهُ وَحَبَسَهُ وَتَجَرَّعَهُ . قَالَ تَعَالَى :
 « وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ » قَالَ بَعْضُ اللُّغَوِيِّينَ : يَعْنِي أَعَدَّتِ الْجَنَّةَ لِلَّذِينَ جَرَى
 ذِكْرُهُمْ وَلِلَّذِينَ يَكْظِمُونَ الْغَيْظَ ،

(١) الرغم : الذل والقصر

(٢) رابه فلان وأرابه : إذا رأى منه ما يكره

(٣) ارفأنت : سكن مأخوذ من رفا الثوب : لام خرقه وضم بعضه إلى بعض

وفي الحديث : « مامن جُرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجراً من جُرعة غيظ في الله عز وجل ،

وقالوا : الكظمُ يدفعُ محذورَ الندم ، كالماء يُطفئُ حرَّ الضرمِ
وقال بعضهم : كظمٌ يتردد في حلقى أحب إلى من نقصِ أجدته في حُلقي .

وقال : * وأفضلُ حِلْمٍ حِسْبَةٌ حِلْمٌ مُغَضِبٌ *
وقال معاويةُ : ما وجدتُ لذةً هي عندي ألد من غيظِ أتجرعه وسفهٍ بحِلْمِ أقمعه . وقال لابنه يزيد : عليك بالحلم والاحتمال حتى تُمكنك الفرصةُ
بإذا أمكنتك فليكن بالصفح ، فإنه يدفعُ عنك مُعضلات الأمور ، ويقيك مصارعَ المحذور .

الغضب وألوانه

وما يسكن به ثورانه

قال الراغب : مَثَلُ الغضبِ مَثَلُ نارٍ ما يَشْتَعِلُ ، والناس فيه مختلفون ،
فبعضهم كالخلفاء^(١) سريعُ الوُقودِ سريعُ الخُودِ ، وبعضهم كالغصا^(٢) بطيءُ الوُقودِ
بطيءُ الخُودِ ، وبعضهم سريعُ الوُقودِ بطيءُ الخُودِ ، وبعضهم على العكس من ذلك ، وهو أحمدهم ، ما لم يُؤدِّ به ذلك إلى زوال حِمِيته ، وفقدان غِيْرته .
واختلاف الناس في الغضب قد يكون مرده اختلاف الإمزجة ، وقد يكون

(١) الخلفاء : نبت أطرافه محسدة كأنها سعف النخل والخوص : ينبت في مفايض المياه .

(٢) الغصا : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب وجره يبق زماً طويلاً لا ينطفئ الواحدة منه غصاة .

العادة ، إذ من الناس من اعتاد السكون والهدوء من جرّاء إلفه الذلّ والانتقاية والاستخزاء ، ومنهم من تعود الطيش والانزعاج فيحتدّ من أدنى ما يلمّ به ، مثله مثل كلب يسمع صوتاً فيلبح قبل أن يعرف مصدره : وأكثر الناس غضباً الصبيان والنساء ، وأكثرهم ضجرّاً الشيوخ ، وأجل الناس شجاعةً وأفضاهم مجاهدةً وأعظّمهم قوّةً من كظّم الغيظ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ، ومرّ صلوات الله عليه بقوم يرفعون حجراً فقال : (ألا أخبركم بأشدّكم ؟ : من ملك نفسه عند الغضب) واعلم أن نار الغضب متى كانت عيفةً ناججت واضطرت واحتدّت غليان الدم في القلب واتلات الشرايين والدماغ دخاناً مظلماً يسوء منه حال العقل ويضعف فعله ، وكما أن الكهف الضيق إذا امتلأ حريقاً واختنق فيه اللهب والدخان وعلا الأجاج صعب علاجه وإطفائه ، وصار كل ما يذنو منه مادة لقوته ، كذلك النفس إذا اشتعلت غضباً عميت عن الرشيد وصمّت عن الموعظة حتى تصير المواظ مادة لغضبها ، وربما أدى الغضب إلى تلف ، وهو اختناق الحرارة في القلب الأمر الذي قد يكون سبباً لأمراض مستعصية تؤدى إلى التلف ؛ ثم قال وحق من يعتره الغضب أن يفكر ، فإن كان المغضوب عليه تحت يده فلا معنى لاستشاطته ؛ إذ هو متمكّن من الانتقام منه مع سكون الجأش ، وإن كان غضبه على من لا سبيل إليه فلا معنى لتدنيه نفسه في الوقت وإنما الأخلق به أن يصبر حتى يتمكن منه ثم يفعل الواجب ، قال حكيم : سدّ طريق الغضب قبل تلهب ناره في لحك ودمك فإنك إن لم تطفئ نار الغضب

قبل انتشارها صُعب عليك إطفائها بعد أن تنتشر. وقال بعض الملوك للحكيم: كيف لي أن لا أ غضب؟ فقال: بأن تكون كل وقت ذا كراً أنه يجب أن تُطيع لأن تطاع فقط، وأن تُخدَم لا أن تُخدَم فقط، وأن تتحقق أن الله تعالى يراك دائماً، فإذا فدات ذلك لم تغضب وإن غضبت غضبت قليلاً...

وقالوا: من غضب قائماً فعد سَكَنَ غضبه، وإن كان قاعداً فاضطجع سَكَنَ.

وكانت العرب تقول: إن الرَيْثَةَ تَنْفَسُ الغضب: «الرَيْثَةُ: اللبن الحامض يُصَبُّ عليه الحليب، وهو أطيب اللبن، وَتَنْفَسُ الغضب: تُسَكِّنُهُ وَتَكْسِرُ حِدَّتَهُ، وخطب معاوية يوماً فقال له رجل: كذبت، فنزل غضباً، فدخل منزله، ثم خرج دليهم تقطُرُ لحيته ماءً، فصعد المنبر فقال: أيها الناس، إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان من النار، فإذا غضب أحدكم فليطْفئه بالماء؛ ثم أخذ في الموضوع الذي بلغه من خطبته.

وفي الحديث: إن الغضب جَمْرَةٌ تُوقَدُ في جَوْفِ ابنِ آدَمَ، ألم ترَوا إلى حُمْرَةِ عَيْنِيهِ وانتفاخ أوداجه...

من اجتهد في إغضابه فلم

خَاطَرَ رجلٌ آخرٌ^(١) على أن يُغَضِبَ الأَحْمَقَ بنَ قيس، فجاءه فخطب إليه أمه، فقال: لسنا نرُدُّك انتقاماً لحسبك، ولا قِلةَ رَغْبَةٍ في ضَاهِرَتِكَ ولكنها امرأةٌ قد علا سنُّها، وأنت تحتاج إلى امرأةٍ ولودٍ ودودٍ تأخذ من خُلُقِكَ، وتَسْتَمِدُّ من أَدْبِكَ؛ أرجع إلى قومك وأخبرهم أنك لم تُغضِبني.

(١) يقال: خاطره على الأمر: راهنه عليه.

وخطب آخر إلى معاوية أمه : فقال : ما الذى رَغَبَكَ فيها وهى عجوزٌ؟
فقال . إنها عجوز عنائمه العُجْز ! فقال : لعلك خاطرت على أن تُنْضِبَ
سَيِّدَ بنى تميم ؟ قال : نعم ، قال : أَرْجِعْ فليست به .

وَسَمَّ رَجُلٌ الْأَحْنَفَ وَالْحَّ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا فَرَّغَ قَالَ لَهُ : يَا بْنَ أَخِي ، هَلْ
لَكَ فِي الْعَدَاءِ ؟ فَإِنَّكَ مِنْذُ الْيَوْمِ تَحْدُو بِجَمَلٍ فَقَالَ ... « الثِّغَالِ :
الْبَطْلَى الثَّقِيلُ الَّذِي لَا يَنْبَغُ إِلَّا كَرْهًا »

وَرَوَى أَنَّ رَجُلًا خَاطَرَ آخَرَ عَلَى أَنْ يَهْوِمَ إِلَى مُعَاوِيَةَ إِذَا سَجَدَ
فِيصَعَّ يَدَهُ عَلَى كَفْلِهِ وَيَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَشْبَهَ عَجِيزَتَكَ
بِعَجِيزَةِ أُمَّكَ هَذَا ففعل ذلك ، فلما انقضى مُعَاوِيَةَ عَنْ صَلَاتِهِ قَالَ لَهُ :
يَا أَخِي ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ مِنْهَا ؛ فَخَذَ مَا جَعَلُوهُ لَكَ ، فَأَخَذَهُ
ثُمَّ خَاطَرَهُ آخَرٌ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَهْوِمَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ فِي الْخُطْبَةِ فَيَتَوَلَّى : أَيُّهَا الْأَمِيرُ
مَنْ أُمَّكَ ؟ ففعل ؛ فقال زياد : هَذَا يُخْبِرُكَ — وَأَشَارَ إِلَى صَاحِبِ
الشَّرْطَةِ — فَقَدَّمَهُ وَضَرَبَ عُنُقَهُ ، فَلَمَّا بَاغَى ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ قَالَ : مَا قَتَلَهُ
غَيْرِي ، وَلَوْ أَدْبَتُهُ عَلَى الْأَوَّلَى مَا عَادَ إِلَى الثَّانِيَةِ ...

وَقِيلَ لِلْأَحْنَفِ : مِمَّنْ آتَيْتَ الْحِلْمَ ؟ قَالَ : مِنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمِ
الْمِنْقَرِيِّ ، رَأَيْتُهُ قَاعِدًا بِنِزَاءِ دَارِهِ مُحْتَبِيًا بِجَاهِلِ سَيْفِهِ يُحَدِّثُ قَوْمَهُ ، حَتَّى
أَتَى بِمَسْكَوْفٍ وَرَجُلٍ مَقْتُولٍ ، فَقِيلَ لَهُ : هَذَا ابْنُ أَخِيكَ قَتَلَ ابْنَكَ . قَالَ :
فَوَاللَّهِ مَا حَلَّ حُبُّوتَهُ وَلَا تَقَطَعَ كَلَامُهُ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى ابْنِ أَخِيهِ فَقَالَ : يَا ابْنَ
أَخِي أَتَيْتَ بَرِّبِكَ ، وَرَمَيْتَ نَفْسَكَ بِسَهْمِكَ ، وَقَتَلْتَ ابْنَ عَمِّكَ ؛ ثُمَّ قَالَ
لِلابْنِ لَهُ آخِرٌ : قُمْ يَا بَنِي نَوَارٍ أَخَاكَ وَحُلِّ كِتَافِ ابْنِ عَمِّكَ وَسُقِّ إِلَى أُمَّكَ

مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة ، ثم اتكأ على شقه الأيسر وقال :
 إِنِّي أَمْرُؤٌ لَا يَعْتَرِي خُلُقِي دَنْسٌ يُفْنِدُهُ وَلَا أَفْنُ (١)
 مِنْ مَنَقَرٍ فِي بَيْتِ مَكْرَمَةٍ وَالْفَرْعُ يَنْبُتُ فَوْقَهُ الْغُصْنُ
 حُطْبَاءُ حِينَ يَقُولُ قَاتِلَهُمْ بِيضُ الْوَجْهِ أَعْقَةُ لُسنُ
 لَا يَفْطِنُونَ لِعَيْبِ جَارِهِمْ وَهُمْوَا لِحْفَظِ جَوَارِهِ فُطْنُ

وأسمع رجلٌ عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره ، فقال : لا عليك
 إنما أردت أن يستغزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله
 متى غداً ، انصرف إذا شئت ...

وأمر محمد بن سليمان برجل أن يطرح من القصر كان قد غضب
 عليه فقال الرجل : آتق الله ، فقال : تخلوا سبيله ، فإني كرهت أن أكون
 من الذين قال الله فيهم : « وإذا قيل له آتق الله أخذته العزة بالإثم »

حشهم على ترك الغضب

المؤدى إلى الاعتذار

قال حكيم : إياك وعِزَّةَ الغضب فإنها تصيرُ بكِ إلى ذِلَّةِ الاعتذار
 وقال شاعر :

مَتَى تُرِدِ الشَّمَاءَ لِكُلِّ غَيْظٍ تَكُنْ مَا يَغِيظُكَ فِي ازْدِيَادِ

(١) وروى هذا البيت أيضاً هكذا :

إِنِّي أَمْرُؤٌ لَا يَطْبِي حَسْبِي دَنْسٌ يُمَجِّنُهُ وَلَا أَفْنُ

اطباء : دعاه ، والأفن : النقص ، ويفنده : يكدبه

حَثْمٌ عَلَى التَّصَامُمِ عَنِ الْقَبِيحِ

وَتَمْذُحُهُمْ بِذَلِكَ

قال المهلبُ بنُ أبي صفرة: إذا سمع أحدكم العوراءَ فليطأطأ لها
تَتَخَطَّأُ... «العوراء»: الكلمةُ القبيحةُ أو الفعلةُ القبيحة: ويقال للكلمة
القبيحة عوراء، وللکلمة الحسنة عينا، قال الشاعر:

وعوراءَ جاءت من أخٍ فرددتها بسائلة العينين طالبة عذرا
«بسالة العينين»: أى بكلمة حسناء لم تكن عوراء. وعورانُ الكلام:
ما تنفيه الأذن قال:

وعوراء قد قيلت فلم أستمع لها وما السكلمُ العورانُ لي بقول^(١)
وقال حاتم طي:

وأغفر عوراءَ الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرما^(٢)
وقال ابن علقمة الفزاري من أبيات يمدح بها ابن عمه عميلة:
إذا قيلت العوراءُ أغضى كأنه دليلٌ بلا ذلٍ ولو شاء لانتصر
وقد تقدم هذا البيت مع أبيات أخرى له جميلة.

حَثْمٌ عَلَى الْعَفْوِ مطلقاً

قال الله جل شأنه: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفُرُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ،
والله غفور رحيم»، وقال سبحانه: «مَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»،

(١) وصف الكلم بالبوران لانه جمع وأخبر عنه بالقتول وهو واحد لان الكلم
يذكر ويؤنث وكذلك كل جمع لا يفارق واحده إلا بالهاء
(٢) ادخاره: أى لا تخاره

وقال عزّ وتقدّس : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » ، وقال تعالى
لِنَبِيِّهِ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ... « خذ
العفو ، فالعفو : السهل الميسر والمعنى : احتمل أخلاق الناس واقبل منها
ما سهل وتيسر ولا تستقص عليهم فيستقصي الله عليك مع ما فيه من
العداوة والبغضاء ، أقول : ولما حَقَّقَ سيدنا رسول الله ما أدبه الله به قال
سبحانه في حقّه : (وإنك لَعَلَى خُلَافِي عَظِيم) »

وقال الأحنف بن قيس : إياك وحيّة الأوغاد ، قيل : وما حيّيتهم
قال : يرون العفو مغرماً والتحمل مغمماً ... « التحمل ههنا : الغضب وقد
جاء في بعض الروايات بدل التحمل : والبخل »

وقيل لبعضهم : هل لك في الإنصاف أو ما هو خير من الإنصاف ؟
فقال : وما هو خير من الإنصاف ؟ قال : العفو ...

وقالوا : العفو زكاة النفس

وقالوا العفو عن المذنب من واجبات الكرم ...

وقالوا : لذة العفو أطيب من لذة التشنق ؛ لأن لذة العفو يلحها حد
الماتبة ، ولذة التشنق يلحها ذمّ الندم ... وقال الشاعر وقد نظم هذا المعنى :
لَذَّةُ الْعَفْوِ إِنْ نَظَرْتَ بَعَيْنِ الْإِنْسَانِ حَدَلِ أَشَقِيٍّ مِنْ لَذَّةِ الْإِنْتِقَامِ
هَذِهِ تَكْسِبُ الْحَامِدَ وَالْأَجْرَ وَهَذِهِ تَجِيءُ بِالْآثَامِ

التحلم عن الخدم

نظر معاوية إلى ابنه يزيد وهو يضرب غلاماً له ، فقال له : اُنْفِسِدْ

أدبك بأديه ! فلم ير ضارباً غلاماً له بعد ذلك .

وقيل ليجي بن خالد البرمكي : إنك لا تؤدّبُ غلمانك ولا تضربهم !
قال : هم أمناؤنا على أنفسنا فإذا نحن أخفناهم فكيف نأمنهم !

الرحمة ومدح ذويها

قالوا من كَرُمَ أصلُه لان قلبه

وقالوا : من أمارات الكرم : الرحمة ، ومن أمارات اللوم : القسوة

« الكرم نقيض اللوم »

وفي الحديث الشريف « ارحم من في الأرض يرشحك من في السماء
وفيه أيضاً « لا تُنزع الرحمة إلا من قلب شقي »

أما من دَمَ الرحمة ونعاها على أهلها مثل الوزير محمد بن عبد الملك
الزيات إذ يقول : الرحمة حَوْرٌ في الطبيعة ، ومثل غيره من فلاسفة هذا
الجيل كالفيلسوف نيتشه ومن على شاكاته فأوثكك إنما يترامون إلى
أهداف أخرى ، وإلى مدح القوّة في مواضعها ، وهذه سوف تمر عليك
عقربانهم فيها .

ما يستحسن فيه الحلم من الكبار

وما يُستقبح

أغلظ رجلٌ لمعاويةَ فحلّم عنه ، فقليل له : تحلّم عن هذا ! فقال : إني
لأحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا ... وقال
المأمون : يحملُ الحلم بالملك إلا في ثلاثة مواضع ، مُذيعٍ لبيّرٍ ، ومُتعرّضٍ
للحرَم ، وقادح في مُلك ... « حرَم الرجل : عياله ونساؤه وما يحميه »

وقال السفاح: الحِلْمُ يَحْسُنُ إِلَّا مَا أَوْضَعَ الدِّينَ وَالسُّلْطَانَ .

حشهم على درء الحدود

في الحديث الشريف: «أَدْرُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ ، وَأَنْبِلُوا الْكِرَامَ عَثْرَاتِهِمْ ، وَإِنَّ الْإِمَامَ لَأَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ ، «ادْرُوا : ادفعوا ، والحدود جمع حد، وهو لغة، المنع وشرعا : العقوبة التي جعلت لمن يعترف مانهى عنه كحد السارق ، وهو قطع يمينه في ربع دينار فصاعداً ، وحد الزاني البكر وهو جلده مائة وتغريبه عاماً ، وحد المُحْصَن إذا زنى ، وهو الرجم ، سميت حدوداً لأنها تُحَدُّ : أى تمنع من إتيان ما جعلت عقوبات فيها ^(١) ، والشُّبُهَات جمع شبهة وهي الالتباس يقال : تشابهت الأمور واشتبهت ، أى النبست لاشتباه بعضها ببعض ، والعثرات : الزلات والكرام : خيار الناس ووجوههم حسباً ونسباً وعلماً وديناً وصلاحاً ، ومعنى أنبلوا عثراتهم : لا تعاقبهم عليها ولا تؤاخذوهم بها ، إلا في حد من حدود الله فإنه لا تجرز إقالتهم فيه إذا ثبت عند الإمام وخلا عن الشبهة ولم يجد إلى دفعه سبيلاً ، ومعنى ادروا الحدود بالشبهات : اعملوا ما وجدتم السبيل على أن لا تقيموا العقوبة على مسلم إلا بأمرٍ متيقن لا يتطرق إليه التأويل .

حث القادر على العفو

قالت عائشة رضي الله عنها : إِذَا مَلَكَتْ فَاسَّجِحِ « قالت ذلك لعلي

(١) وتطلق الحدود ويراد بها المعاصي قال تعالى : وتلك حدود الله

فلا تقربوها .

ابن أبي طالب رضى الله عنه يومَ الجَمَل حين ظهر على الناس فدنا من هَوْدَجِهَا ثم كلمها بكلام ، فأجابته : ملكت فأَسْجِح ، أى ظَفِرْتَ فَأَحْسِنُ وَقَدَرْتَ فَسَهِّلْ وَأَحْسِنِ العَفْوَ ، فجَهَرها عند ذلك بأحسنِ الجَهازِ إلى المدينة فالإِسْجَاحُ : حُسْنُ العَفْوِ ،

ومن كلمة لعللى رضى الله عنه : إذا قَدَرْتَ على العَدُوِّ فاجعلِ العَفْوَ سُكْرًا قَدَرْتَكَ .

وقالوا : المقْدِرَةُ تُذْهَبُ الحَفِيظَةُ « الحَفِيظَةُ : الغَضْبُ ، وقولهم : إنَّ الحَفَائِظَ تَذْهَبُ الإِحْقَادَ فَمَعْنَاهُ : إذا رأيتَ حَمِيمَكَ يُظْلَمُ حَمِيَّتَ لَهُ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ فِي قَلْبِكَ حِقْدٌ ... وَظَفِرَ الإسْكَندَرُ المَقْدُونِيُّ بِيَعِضِ المُلُوكِ ، فقال له : مَا أَصْنَعُ بِكَ ؟ قال : مَا يَجْمَلُ بِالإِكْرَامِ أَنْ يَصْنَعُوهُ إِذَا ظَفَرُوا ، فخَلَّى سَبِيلَهُ وَرَدَّهُ إِلَى مَمْلَكَتِهِ .

ولما ظَفِرَ أَنُو شِرْوَانَ بِبُزُرُ جُجَهَرَ قال : الحمد لله الذى أَظْفَرَنى بِكَ ، فقال : كَافِيٌّ مِنْ أَعْطَاكَ مَا تُحِبُّ بِمَا يُحِبُّ ...
وقيل لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بَعْفُوكَ عَنْ إِخْوَتِكَ عِنْدَ تَدْرِكَ رُفْعِ قَدْرِكَ ...

ذم المتشفي من الغيظ

قال معاوية رضى الله عنه : العُقُوبَةُ الأَمُّ حَالَاتِ ذِي القُدْرَةِ ...
وقال حكيم : التَّشْفِيُّ طَرْفٌ مِنَ الجُزَعِ ، فَمَنْ رَضِيَ أَنْ لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الظَّالِمِ إِلا سَيْتَرٌ رَقِيْقٌ وَحِجَابٌ ضَعِيفٌ فَلْيَلْتَصِفْ ...

مدح من صفح عن قدرة

قال الاخطل من آيات يمدح بها بنى أمية :

شُئْسُ العداوةِ حتى يُستَقَادَ لهم

وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا (١)

وقال أشجع السلمي :

يعفو عن الذنبِ العظيِّمِ وليس يُعْجِزُهُ انْتِصَارُهُ (٢)

صَفْحًا عن الجاني عَليَّهِ وقد أحاطَ بِهِ انْفِذَارُهُ

وقال المنبجي :

قَتَى لا تَسْلُبُ القَتْلَى يَدَاهُ وَيَسْلُبُ عَفْوَهُ الأَسْرَى الوَثَاقَا

« يقول المنبجي : إذا قتل المدوح قتيلا لم يأخذ سلبه ، ترفعاً عن ذلك

ولكن عفوهُ يسلبُ أسراهُ أغلالهم وقِيودهم ، أي يعفو عنهم ويُطلقهم »

الحث على إقالة من سلم ظاهره

قالوا : لا تَعْتَدَّ بما لم تَسْمَعَهُ أذْناكَ ، فإن السَّيِّدَ إذا حَضَرَ هيب وإذا

غاب أَغْتِيب .

وقال بعض الملوك : إنما تملكُ الأجساد دون النيات ، وتفحصُ

عن الأعمال لآعن السرائر ... وقال البُحْتَرِيُّ :

إذا عَدُوْكَ لَمْ يُظْهِرْ عداوَتَهُ فما يَضُرُّكَ إن عاداك إسراراً

(١) شمس : جمع شمس وهو : الصعب العداوة ، وقوله : حتى يستقاد لهم : أي

حتى يؤخذ حقهم ممن اعتدى عليهم ، من قولهم ، استعدت الأمير من القاتل فأقاد لي

منه أي قتله (٢) الانتصار : الانتصاف والانتقام

وقال العلاء بن الحضرمي^(١) يخاطبُ سيدنا رسول الله :

وإن دَحَسُوا بِالشَّرِّ فَأَعْفُ تَكَرُّمًا

وإن خَنَسُوا عَنكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسَلْ^(٢)

« وإن دحسوا: قال ابن الأثير يريد: إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه.

وخنسوا الحديث يريد: وارزوه وغيبوه وأخروه عنك،

العفو عن سلم باطنه

قد يهفو المرء ونيتة سليمة ، ويَزِلُّ وطريقته مستقيمة .

قال إبراهيم بن المهدي في عَيْنَيْتِهِ لِلأَمُونِ وقد عفا عنه :

قَسَمًا وَمَا أَذِلُّ إِلَيْكَ بِحُجَّةٍ إِلَّا التَّضَرُّعَ مِنْ مُحِبِّ خَاشِعٍ

مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَالغُرَاةُ تَمُدُّنِي أَسْبَابُهَا إِلَّا بَلِيَّةَ طَائِعٍ

وقال الفرزدق :

فَلَسْتَ بِمَأْخُوزٍ بِلُغْوِ تَقْوَلُهُ إِذَا لَمْ تَعْمَدْ عَاقِدَاتُ الْعَزَائِمِ^(٣)

« تعمد : تتعمد »

(١) صحابي جليل استعمله سيدنا رسول الله على البحرين وأقوه أبو بكر ثم عمر

مات سنة ٢١ هـ

(٢) بعده :

فإن الذي يؤذيك منه استأءه وإن الذي قالوا وراءك لم يُقَلْ

(٣) لعل الفرزدق أخذ هذا المعنى من قوله تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو في

أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان .

عتب من يحفظ الذنب بعد تقادمه

قال البُحْتَرِيُّ :

تَنَاسَ ذُنُوبَ قَوْمِكَ إِنْ حَفِظَ الذَّنْبُ نُوْبٍ - إِذَا قَدُمْنَ - مِنْ الذُّنُوبِ

العفو عن المقرِّ المعترف

قال بعضهم :

إِذَا مَا امْرُؤٌ مِنْ ذَنْبِهِ جَاءَ تَانِبًا إِلَيْكَ فَلَمْ تَغْفِرْ لَهُ ، فَلكِ الذَّنْبُ

ومن قولهم : التوبة تغسيل الحوبة ، الحوبة : الخطيئة ،

وقالوا : لا عتَبَ مع إقرار ، ولا ذَنبَ مع استغفار .

وقال بعضهم لصديق له أنكِرَ ذَنْبًا : إما أَنْ تُقِرَّ بِذَنْبِكَ فَيَسْكُونَ

إِقْرَارُكَ حُجَّةً لَنَا فِي الْعَفْوِ ، وَإِلَّا فَطَبُّ نَفْسًا بِالِاتِّصَارِ مِنْكَ ، فَإِنَّ الشَّاعِرَ

يقول :

أَقْرِرْ بِذَنْبِكَ ثُمَّ أَطْلُبْ تَجَاوُزَنَا عَنْهُ فَإِنَّ جُحُودَ الذَّنْبِ ذَنْبَانِ

ومن كلام لابن المعتز : تَجَاوَزَ عَنْ مُذْنِبٍ لَمْ يَسْلُكْ بِالِإِقْرَارِ طَرِيقًا

حَتَّى اتَّخَذَ مِنْ رَجَائِكَ رَفِيقًا .

وقال بعض الأمراء لرجل عاتبه : بَلَغْنِي أَنَّكَ تُبَغِّضُنِي ، فَلَمْ يُسْكَرِ

الرجل وقال : أَنْتِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

فَإِنَّكَ كَالدُّنْيَا نَدُمُ صُرُوفَهَا وَنُوسِعُهَا ذَمًّا وَنَحْنُ عَبِيدُهَا

وقال أبو فراس الحمداني :

إِنْ لَمْ تَجَافِ عَنِ الذَّنُوبِ بِ وَجَدْتَهَا فِينَا كَثِيرَةً (١)
لَكِنَّ عَادَتَكَ الْجَمِيَّةَ لَمْ أَنْ تَغُضَّ عَنِ الْجَرِيرَةِ (٢)

وقال السري الرفاء :

فَإِنْ تَغُفَّ عَنِّي تَغُفَّ عَنْ غَيْرِ جَاحِدٍ

لِمَا كَانَ وَالْإِقْرَارُ بِالذَّنْبِ أَرْوَحُ

وقال آخر:

فَلَسْتُ بِأَوَّلِ عَبْدٍ مَهْمَا وَلَسْتُ بِأَوَّلِ مَوْلَى عَفَا

وقال غيره :

صَفْحًا فَلَوْ شِئْتُ قَلْبِي مِنْ صَحِيْفَتِهِ لَظَلَّ يُقْرَأُ مِنْهُ الْخَوْفُ وَالنَّدْمُ
وَأَنْ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ بِرَجُلٍ أَذْنَبَ . قَال : إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ : فَإِنْ أَخَذْتَ فِي غَيْرِي بِالْعَدْلِ نَخَذْ فِيَّ بِالْإِحْسَانِ ...

حسن العفو عن المصير

سمع حكيمٌ رجلاً يقول : ذَنْبُ الْإِصْرَارِ ، أَوْلَى بِالْإِغْتِمَارِ ؛ قَال :
صَدَقَ وَاللَّهِ ، لَيْسَ فَضْلُ مَنْ عَفَا عَنِ السُّهُوِّ الْقَلِيلِ كَمَنْ عَفَا عَنِ الْعَمْدِ
الْجَلِيلِ ...

استعفاء من خلط إقرارا بإنكار

قال بعضهم في ذلك :

(١) تجاف بحذف إحدى التاءين أي تتجافى وتتجافى عن الذنوب : تتباعد وتغض الطرف عنها
(٢) الجريرة : ما يجره الإنسان من ذنب

هَبْنِي أَسَأْتُ كَمَا ظَنَنْتُ مَتَّ فَإِنَّ عَاقِبَةَ الْأُخْرَةِ
وإِذَا أَسَأْتُ كَمَا أَسَأْتُ فَإِنَّ فَضْلَكَ وَالْمَرْوَةَ

وقال آخر :

وهبني — وما أجرمتُ — أجرمتُ كلَّ ما

أَتَاكَ بِهِ الْوَأَشِي مُجْتَدِّ بِاحْتِمَالِهِ

وقال الشعبي لِبَعْضِ الْوَلَدَةِ — وَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِي قَوْمٍ حَبَسْتَهُمْ — : إِنْ

حَبَسْتَهُمْ بِالْبَاطِلِ فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ ، وَإِنْ حَبَسْتَهُمْ بِحَقِّ فَالْعَفْوُ يَسْعُهُمْ ؛
فَأَمْرٌ بِإِطْلَاقِهِمْ .

معتذر مع إنكار

قال الرشيد لرجل يُرْمَى بِالزُّنْدَانِ : لِأَضْرِبَنَّكَ حَتَّى تُقَرَّ بِالذَّنْبِ ، فَقَالَ :

هَذَا خِلَافٌ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، لِأَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُضْرَبَ النَّاسُ حَتَّى يُقَرُّوا
بِالْإِيمَانِ وَأَنْتَ تُضْرِبُنِي حَتَّى أُقَرَّ بِالْكَفْرِ الْخَجِلِ وَعَفَا عَنْهُ .

وكان الرشيد قد حبس عبد الملك بن صالح ، فلما أخرجه الإهين من

الحبس ، وذكر الرشيد وفعَّلهُ به قال : وَاللَّهِ إِنْ الْمَلِكُ لَشَيْءٌ مَا تَوَيْبْتَهُ

وَلَا تَمَنِّيْتَهُ ، وَلَوْ أَرَدْتَهُ لِمَكَانٍ إِلَى أَسْرَعِ مِنَ الْمَاءِ إِلَى الْحَدُورِ ^(١) ، وَمَنْ

النَّارِ إِلَى يَبِيسِ الْعَرْفَجِ ^(٢) ، وَإِنِّي لِمَأْخُودٌ بِمَا لَمْ أَجِنِ ، وَمَسْئُولٌ عَمَّا

لَا أَعْرِفُ ، وَلَكِنْ لِمَا رَأَيْتُ بِالْمَلِكِ قَيْنَا ، وَإِنْ لَمْ أَتَرَشَّحْ لَهُ فِي سِرِّ

وَلَا جَهْرِ ، وَرَأَى يَحْنُ إِلَى حَنِينِ الْوَالِدَةِ الْوَالِهَةِ ، وَتَمِيلُ مَيْلَ الْهَلُوكِ ^(٣)

(١) الحدور بوزن رسول : المكان الذي ينحدر منه

(٢) العرفج : نبات سهلي

(٣) الهلوك من النساء : الفاجرة الشبقة

عاقبتني عقاب من سهر في طلبه ، فإن كان إنما حسبتني أنني أصلح له ويصلح لي فليس ذلك ذنباً فأثوب منه .

وقال التَّوْحِيّ:

إن كان إقرارى بما لم أجنيه يُرضيك عنى قلتُ لاني ظالمٌ

معتذر بتكذيب نفسه

خرج النعمان بن المنذر في غيب سماء فمرَّ برجلٍ من بني يَشْكُرَ جالساً على عَدير ماءٍ ، فقال له : أتعرفُ النعمانَ ؟ قال اليَشْكُرِيُّ : أليس ابنَ سَلَمَى ؟ قال : نعم ، قال : والله لربِّما أمررتُ يدي على فرجها ، قال له : ويحك ، النعمان بن المنذر ! قال : قد خبرتُك ، فما أنقضى كلامه حتى لحقته الخيل وحيوه بتحيةِ المُلك ، فقال له : كيف قلتُ ؟ قال : أبيتَ اللَّعنَ ^(١) ، إنك والله ما رأيتَ شيئاً أكذبَ ولا ألامَ ولا أوضعَ ولا أعصَّ ببظرِ أمه ^(٢) من شيخ بين يديك ؛ فقال النعمان : دَعُوهُ ، فأنشأ يقول :

تعفو الملوک عن العظیم م من الذنوب لفضليها

واقدم تُعاقِبُ في اليَسِير ر وایس ذاك لجهلها

إلا ليعرف فضأها ويخاف شدة نكلها

وانقطع عبدُ الملك بن مروان عن أصحابه . فأنتهى إلى إعرابيٍّ ، فقال :

(١) كلمة كانت العرب تحي بها ماوكها في الجاهلية ومعناها : أبيت أيها الملك أن

تأتي ما تلعن عليه ، واللعن : الإبعاد والطرده من الخير

(٢) البظر : هنة بين الاسكتين من المرأة لم تخفص - لم تختنن - ومن قولهم في السب :

يا ابن مقطمة البظور : جمع بظر ، يريدون أن أمه خائنة وقد يقولونها في معرض الذم

وإن لم تكن أمه خائنة

أَنعِرْفُ عَبْدِ الْمَلِكِ؟ قَالَ: نَعَمْ، جَارٍ بَائِرٍ، قَالَ: وَيَحِكُ أَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ! قَالَ:
لَا حَيَاكَ اللَّهُ وَلَا بِيَاكَ وَلَا قَرْبَكَ، أَكَلْتَ مَالَ اللَّهِ، وَضَيَّعْتَ حُرْمَتَهُ، قَالَ:
وَيَحِكُ أَنَا أَضْرُ وَأَنْفَعُ، قَالَ: لَا رِزْقِي إِلَّا اللَّهُ تَفَعَّلَكَ وَلَا دَفَعَ عَنِّي ضُرُّكَ؛ فَلَمَّا
وَصَلَتْ خَيْلُهُ عَلَيْهِمْ صِدْقَهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آكَلْتُمْ مَا جَرَى فَالْجَالِسِ
بِالْأَمَانَةِ . . .

استعفاء من زعم أن ذنبه كان خطأ

قَالَ غُلَامٌ هَاشِمِيٌّ أَرَادَ عُمَهُ أَنْ يُجَازِيَهُ بِسَهْوٍ مِنْهُ: يَا عَمُّ، إِنْ قَدَّاسَاتُ
وَلَيْسَ مَعِيَ ثَقَلِي فَلَا تُسَيِّئْ وَمَعَكَ عَقْلُكَ . . .

وَقَالَ الْمُنْبِيُّ:

وَعَيْنُ الْمُخْطِئِينَ هُمْ وَلَيْسُوا بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا فَتَابُوا
وَأَنْتَ حَيَاتِهِمْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ وَهَجَرُ حَيَاتِهِمْ لَهُمْ عِقَابُ
وَمَا جَهَلْتُ أَبَا دِيكَ الْبَوَادِي وَلَكِنْ رَبِّمَا خَفَى الصَّوَابُ^(١)

وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ:

إِنْ يَكُ حُرْمٌ عَنَّا أَوْ تَكُ هَفْوَةٌ عَلَى خَطَايَا مَنِي فَعُذْرِي عَلَى عَمْدٍ
وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمُنْبِيِّ قَوْلُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ: «رُفِعَ عَنَّا أُمَّتِي الْخَطَا
وَالنَّمِيَانُ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ» وَقَالَ تَعَالَى: وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ
بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

(١) أَبَا دِيكَ: نَعْمَكَ، وَالْبَوَادِي: خِلَافُ الْحَوَاضِرِ أَيْ أَهْلُ الْبَوَادِي يَقُولُ:
لَا نَهْمُ لَمْ يَجْهَلُوا بَعْضِيَانِكَ سِوَابِقِ نَعْمِكَ وَلَكِنْ قَدْ يَخْفَى الصَّوَابُ عَلَى الْمَرَّةِ
فِي أَيِّ غَيْرِهِ

مستعفف سأل أن يقوم ويؤدّب

قال أحمد بن أبي فَنَنِ (١) :

أَحِينَ كَثُرَتْ حُسَادِي وَسَاءَهُمْ جَمِيلُ فِعْلِكَ بِي أَشَمَّتْ حُسَادِي !
فَإِنْ تَكُنْ هَفْوَةً أَوْ زَلَّةً سَلَفْتُ فَأَنْتَ أَوْلَى بِتَقْوِيٍّ وَإِرْشَادِي

مستعفف سأل العفو

لفرط خوفه

قال علي بن الجهم من أبيات أرسلها إلى المتوكل وهو محبوس :
وعفوك عن مُذنبٍ خاضِعٍ قَرَنْتَ المَقْسِمَ بِهِ المُقْعِدَا (٢)
إِذَا ادَّرَعَ اللَّيْلَ أَنْضَى بِهِ إِلَى الصَّبْحِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرُقُدَا
أَلَمْ تَرَ عِبْدًا عَدَا طَوْرَهُ وَمَوْلَى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى
وَمُفْسِدًا أَمْرٍ تَلَا فَيْتَهُ فَعَادَ فَأَصْلَحَ مَا أُنْسِدَا
فَلَا عُدْتُ أَعْصِيكَ فِيمَا أَمَرْتَ حَتَّى أَرْوَرَ الثَّرَى مُلْحِدَا
وَالْأَنْفَالُفْتُ رَبَّ السَّمَاءِ وَخُنْتُ الصَّدِيقَ وَعَفْتُ النَّدَى

مستعفف أتكل على سالف حرمة

قال من لا أذكر اسمه :

أَيَذْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَأْتُهُ بِصَالِحِ أَيَّامِي وَخُسْنِ بَلَايَا (٣)

(١) شاعر مجيد من شعراء بغداد شهر بالشعر في أيام المتوكل واستفرغ شعره

في الفتح بن خاقان

(٢) يقال : أخذته المقيم المقعد أى ما يوجب الاضطراب من خوف ونحوه

(٣) أسأته : أسأت فيه

وقال جل شأنه: « إن تحببوا كباراً ما تَهْوُونَ عنه نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » والمراد بالسيئات : الصغائر ، والكبار هن : الذنوب التي رتب الشارع عليها حدوداً أو صرح بالوعيد فيها ،

الاستعفاء لمذنب من قوم محسنين

قال ابراهيم بن العباس الصولي :

أسأوا وفيهم مُحْسِنُونَ فَإِنْ تَتَّبَعَ لِحَسَنِهِمْ أَهْلَ الْإِسَاءَةِ يَصْلِحُوا

متوصل إلى العفو بمراجعة أو حجة

رَوَوْا أَنَّ الْفَارُوقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَعْشُ لَيْلَةً ، فَسَمِعَ غِنَاءَ رَجُلٍ مِنْ بَيْتٍ ، فَتَسَوَّرَ عَلَيْهِ ، فَرَأَاهُ مَعَ امْرَأَةٍ يَشْرَبَانِ الْخَمْرَ ، فَقَالَ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، أَظَنَنْتَ أَنَّ يَسْتُرُكَ اللَّهُ وَأَنْتَ عَلَى مَعْصِيَةٍ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا تَعْجَلْ إِنَّ كُنْتُ عَصَيْتُ اللَّهَ فِي وَاحِدَةٍ فَقَدْ تَصَيَّتُ فِي ثَلَاثٍ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَلَا تَجَسَّسُوا وَقَدْ تَجَسَّسْتَ ، وَقَالَ : وَأَنْتُمْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَقَدْ تَسَوَّرْتَ عَلَيَّ ، وَقَالَ : لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَنَسَأَمُوا عَلَى أَهْلِهَا وَقَدْ دَخَلْتَ بِغَيْرِ سَلَامٍ ، فَقَالَ عُمَرُ : أَسَأْتُ فَهَلْ تَعْفُو ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَعَلَى أَنْ لَا أَعُودَ ... « وَقَدْ أوردنا هذه الأحاديث كما أوردناها الأدباء ، وإن في النفس منها بعد لأشياء . »

مستعف ذكر فرط خوفه من الوعيد

قال سلم الخاسر :

لقد أتتني من المهدي معتبة تظل من خوفها الاحشاء تضطرب
وقال أبو تمام من قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي دؤاد ويعتذر إليه :

أَتَانِي عَائِرُ الْأَنْبَاءِ تَسْرِي عِقَارِبُهُ بِدَاهِيَةِ نَادٍ (١)
فِيَاخْبِرًا كَأَنَّ الْقَلْبَ أَمْسَى يُجْرُّ بِهِ عَلَى شوكِ الْقِتَادِ (٢)
وقال البحرى :

عَذِرِي مِنَ الْإِيَّامِ رَنْقَنَ مَشْرَبِي وَلَقَيْتَنِي نَحْسًا مِنَ الطَّيْرِ أَشْمًا (٣)
وَأَكْسَبْتَنِي سُخْطَ امْرَأَتِي بِتُ مَوْهِنًا أَرَى سُخْطَهُ لَيْلًا مَعَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا (٤)

من استعفى واستوهب معا

أَخَذَ مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْبِرِ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْمُخْتَارِ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ،
فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، مَا أَقْبَحَ بِكَ أَنْ أَقُومَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى صُورَتِكَ هَذِهِ
الْحَسَنَةِ ، وَوَجْهِكَ هَذَا الَّذِي يُسْتَضَاءُ بِهِ ، فَأَتَمَلَّقَ بِأَطْرَافِكَ وَأَقُولُ : أَيُّ
رَبِّ سَلِّ مُصْعَبًا فِيمَ قَتَلْتَنِي ، نَالَ : أَطْلِقُوهُ ، قَالَ : اجْعَلْ مَا وَهَبْتَ لِي مِنْ
حَيَاتِي فِي خَفْضِ ، قَالَ : أَعْطُوهُ مِائَةَ أَلْفٍ ، قَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ،
أَشْهَدُ اللَّهُ أَنْ لَابْنَ قَيْسِ الرَّقِيَّاتِ مِنْهُمَا خَمْسِينَ أَلْفًا ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ :
لِقَوْلِهِ فِيكَ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنْ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلْمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ رَحْمَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ يُخَشَى وَلَا كِبْرِيَاءُ
يَتَّقَى اللَّهُ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْدَى لِمَنْ كَانَ هَمَّهُ الْإِتْقَانُ

(١) عائرٌ : كقولهم : قصيدة عائرُه : أى سائرة ، ويقال : داهية ناد فالناد :
الداهية تحل .

(٢) فيا خبرا : يروى : ثنا خبر ، وثنى الخبر : أذاعه وأفشاه ، والقناد : شجر
صلب له شوك كالإبر

(٣) رنق الماء : كثره ، والمشرب : موضع الشرب ، والماء

(٤) الموهن : نحو من نصف الليل

فضحك مُصْعَب وقال : أرى فيك موضعاً للصديعة ، وأمره بلزومه
وأحسنَ إليه ، فلم يزل معه حتى قتل ...
وقال المتنبى :

فاغفرْ فِدَى لكَ واحِبُّنِي مِن بَعْدِهَا لِنُحْصِنِي بِعَطِيَّةٍ مِنْهَا أَنَا (١)

المتوصل إلى العفو بالثبوت إلى حين التبين

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَدِيًّا فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا
قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ... « قال الإمام البيضاوي :
« فَتَبَيَّنُوا : فتعرفوا وتصفحوا قال : وتنكير الفاسق والنبأ للتعميم ؛ وتعليق
الامر بالتبين على فسق المخبر يقتضى جواز قبول خبر العدل ... وأن
تصيبوا : أى كراهة إصابتكم ،

وغضب الرشيد على رجل ، فقال له جعفر بن يحيى : غضبتَ لله ، فأطاع
الله فى غضبك بالوقوف إلى حال التبين كما غضبتَ له .. وقال الشعبي
لعبد الملك بن مروان : إنك على إيقاع مالم تُوقع أقدرك منك على ردِّ
ما أوقعت ...

نهى العافى عن التريب

رضى بعض الملوك عن رجل ، ثم أخذ يُويِّئُه ، فقال : إن رأيتَ إلا

(١) فاغفر أى فاغفرلى ذنبى ، وفدى خبر عن محذوف أى أنا فدى لك ، وحباه :
أعطاه ، ومن بعدها : أى من بعد هذه المغفرة يقول : إذا عفوت عنى وأعطيتنى
كنت قد خصصتني بعطاء أنا من جلته ، لأنه إذا عفا عنه فقد وهبه نفسه

تَخْدِشَ وَجْهَ رِضَاكَ بِالتَّثْرِيبِ فَافْعَلْ (١)

وقالوا: ما عفا عن الذنب مَنْ قَرَّعَ بِهِ ...

وقال شاعرٌ فِيمَنْ يَمَاقِبُ ثُمَّ يَمَانِبُ :

إِذَا عُرِيبَ الْجَانِي عَلَى قَدْرِ جُرْمِهِ فَتَعْنِيفُهُ بَعْدَ الْعِقَابِ مِنَ الرَّبِّ

نهيهم عن الاعتذار وصعوبته

جاء في الحديث الشريف: إِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ :

وفي حديث آخر: إِيَّاكُمْ وَالْمَعَاذِرَ فَإِنَّهَا مَفَاجِرٌ ...

« ومعنى الحديثين: إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَكَلَّمُوا أَوْ تَفْعَلُوا مَا تَحْتَاجُونَ إِلَى أَنْ

تَعْتَذِرُوا عَنْهُ . »

وقال بعضهم: دَعَّ مَا يَسْبِقُ إِلَى الْقُلُوبِ إِسْكَارُهُ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَكَ

اعْتِدَارُهُ فَلَسْتَ بِمُوسِعٍ عُدْرًا كُلِّ مَنْ أَسْمَعْتَهُ نُكْرًا ...

وكتب الحجاجُ إِلَى بَعْضِ مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ: إِنْ يَسَلَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ

نَيْتِكَ تُكْفَ الْمَقَالَ .

وكتب كاتبٌ: لَسْتُ أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنَ الذَّنْبِ إِلَّا بِالْإِقْلَاعِ عَنْهُ .

وكتب آخرٌ: إِنْ تَرَكْتُ الْاعْتِدَارَ فَلَمَّا قَالَ الشَّاعِرُ — هُوَ مُحَمَّدُ

الْوَرَّاقُ — :

إِذَا كَانَ وَجْهُ الْعُدْرِ لَيْسَ بَيِّنًا فَإِنَّ أَطْرَاحَ الْعُدْرِ خَيْرٌ مِنَ الْعُدْرِ

وقالوا: الْإِغْرَاقُ فِي الْعُدْرِ يَحَقِّقُ التَّهْمَةَ، كَمَا أَنَّ الْإِفْرَاطَ فِي النَّصِيحَةِ

يُوجِبُ الظَّنَّ ...

(١) التثريب: تقييح الفعل والاستقصاء في اللوم

وكتب بعضهم: إن كان ما بَلَغَكَ حقاً فما تُغني المَعاذير، وإن كان كَذِباً
فما تضر الأباطيل .

وقال شاعر:

تعالوا نصطَلح وتَكُونُ مِنَّا مُعاوِدَةً بلا عَدِّ الذنوب
فإن أُحِبِّتُمُ قَلْبَتُمُ وَقَلْنَا فإنَّ القَوْلَ أَشَقِي لِلقلوبِ

وخطب الحجاج يوماً فأطال، فقام رجل فقال: الصلاة، الوقتُ
لا ينتظرُك، والرَبُّ لا يَعْدِرُك، فأمر بحبسِه، فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون
فإن رأى أن يُحَلِّيَ سِدِيلَه ا فقال: إن أقر بالجنون خَلِيَّتَه، فقليل له ذلك، فقال:
معاذ الله، لا أزعُمُ أن الله ابتلاني وقد عافاني، فباع ذلك الحجاج، فعفا
عنه لصدقه ..

تأسف من يعاتب من غير ذنب

من أمثالهم: رَبِّ لَوِمْ لا ذنب له .

وقال البُخْتَرِيُّ:

إذا مَحَّاسِنِي اللانِي أدِلُّ بها كانت ذنوبي قُلُّ لي كيف أعتذر

عبقرياتهم في ذمّ الحلم ومدح العقاب

النهى عن الحلم إذا كان يسبب ذلاً أو ضرراً

قال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن لهُ بوادرٌ تحمي صفوه أن يكدرًا (١)
ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن لهُ حلِيمٌ إذا ما أورد الأمر أصدراً
يُروى أنه لما أنشد هذين البيتين سيدنا رسول الله قال صلوات الله
عليه: أجدت لا يفضض الله فاك؛ فعاش مائة وثمانين سنة لم تنفض له
ثبته ... وأنشد المبرد :

أباحسن ما أقبح الجهل بالفتى وللحلم أحياناً من الجهل أقبحُ
إذا كان حلم المرء عون عدوه عليه فإن الجهل أعنى وأروحُ
« أقول: إن مرادهم بالجهل ههنا ما قابل الحلم »

وقال المتلبي :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم
وقال :

إذا قيل: رفقاً قال: للحلم موضعٌ وحلم الفتى في غير موضعه جهلٌ
وقال أبو يعقوب الخريبي :
أرى الحلم في بعض المراتب ذلةً وفي بعضها عزاً يسود صاحبه

(١) البوادر جمع بادرة: ما ييدر من الرجل في حال الغضب من قول أو فعل

وقال الأحنف بن قيس : لا حِلْمَ لمن لا سَفِيهَ له . وقال : ما قَلَّ
سَفَهَاءُ قوم إلا ذلوا ...

وقال الجاحظ : من قَاتَلَ الإِسَاءَةَ بالإِحْسَانِ فقد خَالَفَ الله في
تَدْيِيرِهِ ، وظن أن رَحْمَةَ الله دون رَحْمَتِهِ ، فإن الله تعالى يقول : « من يَعْمَلْ
سُوءًا يُجْزَ بِهِ » ، وقال : « وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »

وقال الشعبي : يُعْجِبُنِي الرَّجُلُ إِذَا سِيمَ هَوَانًا دَعَمْتَهُ الأَنْفَقَةَ إِلَى المِكَافَأَةِ
وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ؛ وَرُفِعَ كَلَامُهُ إِلَى الحِجَابِ فَقَالَ : اللهُ دَرَهُ أَيُّ رَجُلٍ
بَيْنَ جَنبَيْهِ ا وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَلَا خَيْرَ فِي عَرِضِ أَمْرِي لَا يَصُونُهُ وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمِ أَمْرِي ذَلَّ جَانِبُهُ

دفع الجهل بالجهل

قال محمد بن وهيب :

لَنْ كُنْتُ مُتَحَاجًّا إِلَى الحِلْمِ لِأَنَّي إِلَى الجَهْلِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ أَحْوَجُ
وَلِي قَرَسٌ لِلحِلْمِ بِالحِلْمِ مُلْتَجِمٌ وَلِي فَرَسٌ لِلجَهْلِ بِالجَهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ رَامَ تَقْوِيَّيَ فَإِنِّي مُقَوِّمٌ وَمَنْ رَامَ تَعْوِيَّيَ فَإِنِّي مُعَوِّجُ
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى الجَهْلَ خِدْنًا وَصَاحِبًا وَلَكِنِّي أَرْضَى بِهِ حِينَ أُخْرَجُ
وَإِنْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : فِيهِ سَمَاجَةٌ قَدْ صَدَّقُوا ، وَالدَّلُّ بِالْحَرِّ أَسْمَجُ

وقال إياس بن قتادة - وهو بارع جدا - :

تُعَاقِبُ أَيْدِينَا وَيَحْمِلُ رَأِينَا وَتَنْسِمُ بِالأَفْعَالِ لَا بِالكَلِمِ

وقال أوس بن حنينة - شاعر إسلامي تميمي وحنيناه أمه - :

إِذَا المرءُ أَوْلَاكَ الهَوَانَ فَأُولُهُ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوَّاصِرُهُ^(١)

(١) يقول : إذا سامك إنسان ذلا وهو أونا فأوله من الذل والهوان ما ترذ به =

وإن أنت لم تقدر على أن تهينه فذره إلى اليوم الذي أنت قادرة^(١)
 وقارب إذا ما لم تكن لك حيلة وصمم إذا أيقنت أنك عاقرة^(٢)
 وقالوا: الشر لا يدفعه إلا الشر والحديد بالحديد يفلح^(٣) ...

من نهى عن الاغترار بحلمه

قال المتنبي :

وأطمع عامرَ البقيّا عليها ونزفها احتمالك والوقار^(٤)

وقال آخر :

ولا يغررك طولُ الحلمِ مني فإبدأ تصادفني حلّما

وقال آخر :

أحذر مغايظ أقوام ذوى أنفٍ إن المغيظ جهولُ السيفِ مجنونُ

الحلم مغرٍ وضار مذل

قال الأحف لرجل : ليت طول حلمنا عليك لا يدعوا جهل غيرنا

إليك .

كيدك عنك وتشقى به نفسك وإن كان الذى سامك الحسف يمت إليك بسبب من
 القرابة وقوله قريبا خبر، كان ولم يقل قريبة على حد قوله تعالى : إن رحمة الله قريب
 من المحسنين

(١) قادره : أى قادر فيه

(٢) عاقره : قاتله

(٣) يفلح : يشقى

(٤) منع عامر من الصرف لأنه أراد القبيلة ، والبقيا اسم من الإبقاء يقول :

وأطمعهم فى العصيان إبقائك عليهم وعدوك عن الإيقاع بهم ، وحملهم على الطيش
 حلك عنهم وأمتاعك من الانتقام منهم

وقيل للأخف : ما الحلم ؟ فقال : الرضا بالذلّ ...

وقالوا : الشهرةُ بالملاينةِ والخيرُ شرٌّ من الاشتهارِ بالغِلظةِ والشرُّ ، لأنّ مَنْ عُرِفَ بالخيرِ اجترأ عليه الناس ، وَمَنْ عُرِفَ بالشرِّ هابَهُ الناسُ وتجنّبوه .

وقال معاوية : ما وُلِدَتْ قُرَشِيَّةٌ خيراً إِقْرَشِيٍّ مِنِّي ، فقال رجل كان حاضراً : بل ما وُلِدَتْ شراً لِمَنْكَ ، فقال : كيف ؟ قال : لأنك عَوَدْتَهُمْ عَادَةً يَطْلُبُونَهَا مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُجِيبُونَهُمْ إِلَيْهَا فَيَحْمِلُونَ عَلَيْهِمْ كَحْمَلِهِمْ عَلَيْكَ وَكَأَنِّي بِهِمْ كَالزَّفَاقِ الْمَنْفُوخَةِ عَلَى طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ ...

نهيهم عن إكرام اللئام

قال المتنبي :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
وَوَضِعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعُلَا
هُضِرٌ كَوْضَعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

وقبلهما :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا
وقالوا : استعمالُ الحلمِ مع اللئيمِ أضْرَعُ استعمالُ الجهلِ مع الكريمِ .
وقال يزيد بن معاوية لآبيه : هل ذَمَمْتَ عَاقِبَةَ حِلْمٍ ؟ قال : ما حَلُمْتُ عَنْ
لئيمٍ وَإِنْ كَانَ وَلِيَا إِلَّا أَعَقَبْتِي نَدَمًا ، وَلَا أَقْدَمْتُ عَلَى كَرِيمٍ وَإِنْ كَانَ عَدُوًّا
إِلَّا أَعَقَبْتِي أَسْفَا ...

وقال الشاعر :

مَي تَضَعِ الْكِرَامَةَ فِي لَثِيمٍ فَإِنَّكَ قَدْ أَسَأْتَ إِلَى الْكِرَامَةِ

الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه

قال العباس بن الأحنف :

وَمَنْ يَحْكُمُ وَلَيْسَ لَهُ سَفِيهٌ يُبْلِقِي الْمُعْضَلَاتِ مِنَ الرِّجَالِ
وقال غيره :

وَلَا يَلْبَثُ الْجُهَّالُ أَنْ يَتَضَمَّوْا أَخَا الْحِلْمِ مَا لَمْ يَسْتَعِنَ بِجَهْلٍ
وَيَبْنَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ ،
فَأَطَمَهُ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ نَجَّدَهُ بِهَ الْأَرْضِ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : لَيْسَ بَعِزِّي مِنْ
لَيْسَ فِي قَوْمِهِ سَفِيهٌ ...

حث القادر على العقاب قبل فوته

قد أسلفنا كثيراً من عبرياتهم في هذا المعنى ، وقال أبو أذينة الغساني :
يُحَرِّضُ ابْنَ عَمِّهِ الْأَسْوَدَ بْنَ الْمُنْذِرِ عَلَى قَتْلِ جَمَاعَةٍ مِنْ مَلُوكِ الشَّامِ كَانَ قَدْ
أَسْرَمَ فَأَرَادَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ :

مَا كُلُّ يَوْمٍ يَسْأَلُ الْمَرْءَ مَا طَلَبَا وَلَا يُسَوِّغُهُ الْمَقْدَارُ مَا وَهَبَا
وَأَنْصَفُ النَّاسِ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ مَنْ سَقَى الْأَعَادِيَ بِالْكَأْسِ الَّتِي شَرِبَا
وَلَيْسَ يَظْلِمُهُمْ مَنْ بَاتَ يَضْرِبُهُمْ بِحَدِّ سَيْفٍ بِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ ضَرْبَا
فَالْعَفْوُ إِلَّا عَنِ الْأَعْدَاءِ مَكْرُمَةٌ مَنْ قَالَ غَيْرَ الَّذِي قَدْ قُلْتَهُ كَذْبَا
قَتَلْتَ عَمْرًا وَتَسْتَبْقِي يَزِيدَ لَقَدْ رَأَيْتَ رَأْيًا يَجْرُ الْوَيْلَ وَالْحَرْبَا
لَا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتَتْرُكَهَا إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَاتَّبِعْ رَأْسَهَا الذَّنْبَا^(١)

(١) الشهم : الذكي الغواد المتوقد النجد النافذ في الامور

هم جَرَدُوا السيفَ فَاجْعَلُهُمْ بِهِ جَزْرًا
 هم أوقَدُوا النارَ فَاجْعَلُهُمْ لَهَا حَطْبًا^(١)

ومنها :

لَا عَفْوَ عَنْ مِثْلِهِمْ فِي مِثْلِ مَا طَلَبُوا لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ الْهَلْكَ وَالْعَطْبَا
 عَلامَ تَقْبِيلُ مِنْهُمْ فِدْيَةٌ وَهُمْ لَا فِضَّةَ قَبِلُوا مِنَّا وَلَا ذَهَبًا
 وكتب يحيى بن خالد البرمكى إلى الرشيد من الحبس : إن كان الذنبُ
 خاصًّا . فلا تُعَمَّمْ بالعقوبة ، فمعي سلامة البريء ومودة الولي ؛ فكتب إليه :
 قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ...

وقال بعضهم لأبي جعفر المنصور : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم
 تَسْمَعْ بالعفو ! فقال : لأن بني مروان لم تَبَلَّ رِئْمُهُمْ ، وآلُ أبي طالب لم
 تُعَمَّدْ سُبُوقُهُمْ ، ونحن بين أقوام قد رأونا بالأمن سوقة واليوم خلفاء ،
 فليس تتمهّدُ الهَيْبَةُ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا بِأَطْرَاحِ الْعَفْوِ وَاسْتِعْمَالِ الْعُقُوبَةِ ...

التبجح بقسوة العقاب وقلة الرحمة

كان محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق قد انخَدَ تَنُورًا
 من حديد ، وأطراف مَساميره قائمة مثل رؤس المَسَال ، في أيام وزارته ،
 وكان يعذبُ فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال ، فيجدون
 لذلك أشدَّ الألم ، ولم يَسْبِقْهُ أَحَدٌ إِلَى هَذَا النَّوعِ مِنَ الْعِقَابِ ، وكان إذا قال
 له أَحَدٌ مِنْهُمْ : أَيُّهَا الْوَزِيرُ ، ارْتَحْنِي ، يقول له : الرَّحْمَةُ خَوْرٌ فِي الطَّبِيعَةِ ، فَلِمَا

(١) اجعلهم جزرا : أى قطعاً ومن ذا قولهم : تركهم جزراً للسباع والطير أى
 قتلهم حتى صاروا قطعاً تأكلها السباع والطير

اعتقله المتوكلُ أمرَ يادخاله في التَّنُورِ وَقِيدَهُ بِخَمْسَةِ عَشْرِ رِطْلًا مِنْ
الحديد، فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ارْحَمْنِي، فقال له: الرَّحْمَةُ خَوْرٌ فِي الطَّبِيعَةِ،
كَمَا كَانَ يَقُولُ لِلنَّاسِ . ثُمَّ يَتَمَثَّلُ :

❖ فَلَا تَجْرَعَنَّ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا (١) ❖

وَوَقَّعَ مَرَّةً فِي قِصَّةِ رَجُلٍ : دَعْنِي مِنْ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ وَالْإِشْفَاقِ ، فَمَا هَا
إِلَّا لِلَّسْوَانِ وَالصِّيَّانِ ...

وقال المتنبي :

يَدْخُلُ صَبْرُ الْمَرْءِ فِي مَدْحِهِ وَيَدْخُلُ الْإِشْفَاقُ فِي نَلْبِهِ (٢)

« الثلب : الذم والعاب ، يقول : إن الصبر بما يمدح به الإنسان والإشفاق
بما يعاب به »

أخذ البريء بذنب الجاني

قال الله تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »
وقال الحارث بن حِزْرَةَ الْيَشْكُرِي مِنْ مَعَاقِمَتِهِ الَّتِي ارْتَجَلَهَا بَيْنَ يَدَيْ عَمْرٍو بْنِ هِنْدٍ
مَلِكِ الْحِيرَةِ فِي شَيْءٍ كَانَ بَيْنَ بَكْرِ وَتَغْلِبَ :

عَنَّأَ بَاطِلًا وَظَالِمًا كَمَا تُعَدُّ سِتْرٌ عَنْ حَجْرَةِ الرَّيْبِضِ الظُّبَاءِ
« العنن : الاعتراض يقال : عَنَّ يَعْنُ وَيَعُنُّ عَنَّأَ وَعُنُونًا وَاعْتَنَّ :
عَرَضَ وَاعْتَرَضَ ، وَالاسْمُ الْعَنْنُ ، وَالْحَجْرَةُ : النَّاحِيَةُ ، وَالْجَمْعُ : حَجْرٌ

(١) هذا مثل تقدم القول عليه في الجزء الأول صفحة ٢٣

(٢) من قصيدته التي يعزى بها أبا شجاع عضد الدولة بعتمته وأولها :

آخَرَمَا الْمَلِكُ مُعَزَّى بِهِ هَذَا الَّذِي أَثَّرَ فِي قَلْبِي

وحجرات مثل جَمْرَةٌ وَجَمْرٌ وَجَمْرَاتٌ ، والعترة ، ذبح العتيرة ، وهي ذبيحةٌ كانت تذبح للأصنام في رجب ، والرييض : الغنم الرابضة في مَرَبِضِهَا ، وقد كان الرجلُ في الجاهلية ينذر : إن بَلَغَ اللهُ عَمَمَهُ مائةَ ذبِحٍ منها واحدةٌ للأصنام ، ثم رُبَّمَا صَنَعَتْ نَفْسُهُ بِهَا فَأَخَذَ ظِيماً وَذَبَحَهُ مَكَانَ الشاةِ الواجبةِ عليه يقول :
الزَّمْتُمونا ذنَبَ غيرنا عَنناً باطلا كما يُذبح الظَّبِيُّ حَقِي وَجِبَ في الغنم ،

وقال النابغة الذياني من أبياته العينية التي يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر
أَتَانِي آيَاتُ اللَّعْنِ أَنْكَ لُمْتَنِي وتلك التي تَسْتَأْكَ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قَلَّتْ : سَوْفَ أَنَا لَهُ وذلك من تَلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ
أَتُوْعِدُ عَبْدًا لَمْ يَخُنْكَ أَمَانَةٌ وتتركُ عبداً ظالماً وهو ظالِعُ
وَحَمَلْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذَى العُرِّ يُكْوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَائِعُ
وذلك امرئٌ لم أكن لِأَقُولُهُ ولو كُيِّبْتُ في سَاعِدَيَّ الْجَوَامِعُ
أَتَاكَ بِقَوْلٍ لَهْلَهَ الدَّسَخِ كاذباً ولم يأتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ ناصِعُ
لَعْمَرِي وَمَا عَمَرِي عَلَى بَهَيْنٍ لقد نَطَقْتُ بُطْلًا عَلَى الْأَقَارِعُ
ومنها :

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَنَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ
فَيْتُ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْلَةٌ من الرَّقِيشِ فِي أُنْيَابِهَا السُّمُّ نَائِعُ
يُسَهِّدُ فِي لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلِيِّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ
تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سَوْءِ سُمَّهَا تُطَلِّقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ
ومنها :

حَافَتْ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً وَهَلْ يَأْتُمِّنُ ذُو إِمَّةٍ وَهُوَ طَائِعُ
فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ
« وإليك شرح هذه الأبيات : آييت اللعن : آييت أن تَأْتِي من

الأخلاق المذمومة ما تُلتَمُّ عليه ، وكانت هذه تحيةً لخم وجذام ، وكانت منازلهم الحيرة وما يليها ، وكانت تحيةً ملوك غسان : يا خيرَ الفتيان ، وكانت منازلهم الشام : وتستك : تَدَسَّدُ ولا تَسْمَعُ ؛ ورائع : مُفْرِعٌ وَخَوْفٌ . وإضافة مقالة إلى أن قد قلت من إضافة الأعم إلى الأخص ، وهى من الإضافة البيانية أى مقالة هى هذا القول . وظاليع : مائل . والعَرَّ : قَرَّحَ يأخذ الإبل فى مَشَافِرِها وأطرافها شديه بالقرع ، وربما تفرَّق فى مَشَافِرِها مثل القوباء ، يسيل منه ماءٌ أصفرُ ، وكان الأعرابُ إذا وقع العرُّ فى إبل أحدهم اعترضوا بغيراً صحيحاً من تلك الإبل فكَوَّوْا مِشْفَرَه وَعَضَدَه وَفَخَذَه يرون أنهم إذا فعلوا ذلك ذهب العرُّ من إبلهم . وقيل : إنما كانوا يكوون الصحيحَ لئلا يتعلّق به الداءُ لا ليبرأ السقيم . وكَبَلَتْ : قِيدَتْ . والجوامع : الأغلال ، جمع جامعة . وثوبٌ لَهْلَهُ النسيج وهلهل النسيج : إذا كان رقيقاً ، وناصع : بين واضح . وقوله : لَعَمْرَى ... البيت فالعمر بفتح العين هو العمر بضمها لكن حُصَّ استعمال المفتوح فى القَسَم ، أى ما قَسَمِي بَعْمَرَى هين على حتى يهمنى منهم بأنى أحلف كاذباً ، والبطل - بالضم : - هو الباطل والاقارع : هم بنو قريع بن عوف الذين كانوا سَعَوْا به إلى النعمان بن المنذر حتى تغيَّرَ له . وأبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر . وقوله فى غير كنهه : أى جاءنى وعيده فى غير قدر الوعيد ، أى لم أكن بلغت ما يغضب على فيه . وراكس : واد ، والضواجع جمع ضاجعة وهو مُنْحَنى الوادى . وقوله : فَبُتُّ ... ألبت فالمساورة : الموائبة ، والأفعى لا تَلْدُغُ إلا وثباً . وضئيلة : هى الحية الدقيقة القليلة اللحم . والرثس من الحيات : المنقطة بسواد ، وهى من شرارها ، والسّم مبتدأ وناقع خبر ويجرز فى غير الشعر ناقعاً على الحالية وفى أُنْيابها هو الخبر . وليل التام بكسر التاء أطول ليلة فى السنة ، والسليم :

اللدبغ ، وسمت العرب الملسوع ساليا تفاؤلا . وقوله : لخلي النساء في يديه
 قمايع : فقد كان الملدوغ يُجَمَلُ الحَلِيُّ في يديه والجلال جل حتى لا ينام فَيَدِبُّ
 السُّمُّ . فيه وتناذرها الراقون يروى أيضاً : تناذرها الحارون ، وهو جمع حارٍ ،
 وهو الذي يُمَسِكُ الحَيَّاتِ ، أى أنذر بعضهم بعضاً بأنها لا تُجِيبُ راقياً
 وقوله : تُطَلِّقُهُ : تَخِيفُ عنه مرة وتشهد عليه مرة ، ومثل ذلك قول
 الآخر :

تبيتُ الهمومُ الطارِقَاتُ يُعَدُّنِي كاتعَتِرِي الأوصابُ رأسَ المُطَلِّقِ
 يقال : طَلَّقَ السَّلِيمُ : رَجَعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَسَكَنَ وَجَعُهُ بَعْدَ العِدَادِ (١)
 فهو مُطَلِّقٌ ، قال المبرِّدُ : وهذا هو الذى ذكره النابغة قال : وذلك أن
 المنهوش إذا ألحَّ الوجعُ به تارةً وأمسك عنه تارةً فقد قارب أن يُؤَيِّسَ
 من بُرئِهِ ، وإنما ذكر خوفه من النعمان وما يعصديه من لوعمة في إثرِ
 فترة والخائف لا ينأى إلا غراراً ، فلذلك شبه بالملدوغ المُسَهَّدِ . والإمة
 لغة في الأمة : الدين والخير ثم شبهه في البيت الأخير في حال سخظه
 بالليل الشديد الظلمة لا يُهْتَدَى فيه «

ووقف رجلٌ على الحجاج فقال : أصلحَ اللهُ الأمير ، جنى جان في
 الحى فأخذتُ بجزيرته وأسقط عطاى ، فقال الحجاج : أما سمعتَ قولَ
 الشاعر :

جانيك من يجنى عليك وقد تُعِدَى الصَّحاحَ مَبَارِكُ الجُرْبِ (٢)

(١) الدداد : احتياج وجمع اللدبغ . وأصله من العدد ، وقيل : عداد السليم : أن
 تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء ومالم تمض قيل : هو في عداده
 (٢) جانيك من يجنى عليك ، يريد : صاحب جنابتك من يجنى عليك فلا تأخذ

وَرَبِّ مَأْخُودٍ بِذَنْبِ صَدِيقِهِ وَنِجَا الْمُقَارِفِ صَاحِبِ الذَّنْبِ (١)
 فقال : أعزَّ الله الأمير ، كتابُ الله أولى ما أتبع ، قال الله تعالى :
 « معاذ الله أن نأخذَ إلا من وجدنا متاعنا عنده » فقال الحجاج : صدقتَ
 يا غلام ، ردَّ اسمه وأثبتَ رسمه ؛ وأسِنَ له عطاءه .

عذر من بدر منه سخط

قال البحتري :

إذا أخرجتَ ذا كرمٍ تخطى إليك ببعضٍ أخلاق اللئام

طائفة من عبقرياتهم في العداوات

الاحتراس من غرس العداوة

جاء في كيلة ودمته : لا ينبغي للعاقل أن تحمله ثقته بقوته على أن
 يجتترَّ العداوة ، كما لا يجب لصاحب الترياق أن يشرب السمَّ انكالا
 على أدويته .

وقالوا : احذر مُعاداة الرجال فالناس رُجلان : عاقل فاحذر ختله ،

وأحمق فاحذر حقه

بالعقوبة غيره ، قال أبو عبيد : قولهم : جانبك من يجنى عليك يضرب مثلاً للرجل
 يعاقب بجنابة ولا يؤخذ غيره بذنبه ، إنما يجنيك من جنابته راجعة إليك ، وذلك
 أن الإخوة يجنون على الرجل ، وقال غيره : معناه : الذي تلحقك منفعته هو الذي
 ياحتمك عاره ، يعنى : الذي يجنى لك الخير هو الذي يجنى عليك الشر ، فقولهم : جانبك
 معناه الجاني لك ، ومبارك الحرب : مواضع بروكها أى : مرابضها ، والجرب :
 المصابة بالحرب .

(١) قارف فلان الخطيئة : خالطها

وسيمر عليك كثير من عقرياتهم في هذا المعنى في كتاب الإخروانيات
والأصدقاء والصدقة .

نهيهم عن الاغترار بالوَدِّ

نُسَبَطْنَ مَعَهُ الْعِدَاوَةَ

دخل سُديفٌ مولى أبي العباس السفاح ^(١) على أبي العباس أمير المؤمنين
وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أدناه وأعطاه يده فقبلها ، فلما
رأى ذلك سُديفٌ أقبل على أبي العباس وقال :

جَرَّدَ السِّيفَ وَارْفَعَ الْعَفْوَحَتِي لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِي أَمْوِيًّا

لَا يَغْرُنُكَ مَا تَرَى مِنْ أَنَاسٍ إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ سُلَيْمَانُ فَقَالَ : قَتَلْتَنِي أَيُّهَا الشَّيْخُ تَمَلِّكَ اللَّهُ وَقَامَ أَبُو الْعَبَّاسِ
فَدَخَلَ ، فَإِذَا الْمُنْدِيلُ قَدْ أُلْقِيَ فِي عُنُقِي سُلَيْمَانَ ، ثُمَّ جَرَّ فَقَتَلَ .

ودخل شبُّلُ بنُ عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي ، وقد
أجلس ثمانين رجلاً من بني أمية على مُمِطِ الطعام ، فقبل بين يديه وقال :

أَصْبَحَ الْمَلِكُ نَابِتَ الْأَسَاسِ بِالْبَهَائِلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ ^(٢)

(١) ذكر أبو الفرج في الأغاني أنه مولى خزاعة وكان سبب ادعائه ولاء بني
هاشم أنه تزوج مولاة لآبي لُهب ويقال : بل أبوه هو الذي تزوجها فولدت له سديفاً
وسديف شاعر مقل من مخضرمي الدولتين شديد التعصب لبني هاشم مظهراً لذلك
أيام بني أمية

(٢) الأساس واحدها أس ، وقد يقال للواحد : أساس وجمعه أسس ، والهلول :
العزير الجامع لكل خير

طلبوا وتر هاشم فشفوها بعد ميل من الزمان ويأس^(١)
 لأتقيان عبد شمس عثارا واقطعن كل رقلة وأواسى^(٢)
 ذلها أظهر التوؤد منها وبها منكم كخز الماوسى
 ولقد غاظنى وغاز سوائى قرهم من نماريق وكرايسى^(٣)
 أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
 وأذكروا مصرع الحسين وزيدا وقتيلاً بجانب المهراس^(٤)
 والقتيل الذى بجران أضحى ثاوباً بين غربة وتماس^(٥)
 نعم شبلى الهراش مولاك شبلى لونيما من حبال الإفلايس
 فأمر بهم عبد الله ، فشدخرا بالعمد ، وبسط عليهم البسط ، وجلس
 عليها ودعا بالطعام وإنه ليستمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً ، ولما فرغ من
 الأكل قال : ما أعلمني أكلت أكلة قط أهنأ ولا أطيب لنفسى منها ا وقال

(١) يقال فيك ميل علينا بسكون الياء أما كل منتصب مثل الحائط فيقال : فى الحائط ميل بالتحريك

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة ويقال - إذا وصف الرجل بالطول - : كأنه رقلة ، والأواسى : جمع آسية وهى : أصل البناء بمنزلة الأساس

(٣) النمارق جمع نمرة وهى : الوسائد

(٤) زيد هو زيد بن على بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك سنة ٢٢١ هـ وقتله يوسف بن عمر الثقفى أمير العراق لشام وصلبه بالكناسة - محلة بالكوفة - عريانا هو وجماعة من أصحابه ، وقوله : وقتيلاً بجانب المهراس فالمهراس : ماء بأحد ويريد : حمزة بن عبد المطلب ، وإنما نسب شبلى قتل حمزة إلى بنى أمية لأن أباسفيان ابن حرب كان قائداً كفار قريش يوم أحد

(٥) القتيلى الذى بجران هو إبراهيم بن محمد بن على ، وهو الذى يقال له الإمام

لِشِبْلِ : لولا أنك خلطت كلامك بالمسألة لا غنمُك جميع أموالهم ^(١) ،
ولقدتُ لك على جميع موالى بنى هاشم .

وقال المتنبى :

فلا تغرركُ ألسنةُ موالٍ تُقلِبُهِنَّ أفئدةُ أعادى ^(٢)

وكنْ كالموتِ لا يرثى لِبَاكِ بكي منه ويروى وهو صاِد ^(٣)

فإن الجرحَ يَنفِرُ بعد حينٍ إذا كان البناءُ على فسادٍ

» قوله : فإن الجرح ... ألبيت : مثله قول البُحْتَرِي :

إذا ما الجرحُ رُمَّ على فسادٍ تَبَيَّنَ فيه تفریطُ الطيب

وفى كليله ودمته : لا يغرُّ العاقلُ سكونُ الحقدِ فى القلبِ مالم يجدْ مُحَرَّكَ

فإنه كالجرمِ المكنونِ مالم يجدْ حَطْبًا ؛ والعداوةُ إذا وَجَدَتْ فُرْصَةً اشتعلتْ

فلا يُطْفِئُهَا شىءٌ دون النفسِ ...

(١) بالمسألة يريد : سؤاله إذ قال :

أعم شبل الهراش مولاك شبل لو نجما من حبايل الإفلاس

(٢) موال : جمع مولى وهو الولي والصديق يقول : لا تغتر بما تراه من إظهار

ودم فإن تلك الألسنة الموالية تقامها أفئدة معادية

(٣) لا يرثى : لا يرحم . والصادى : العطشان ، يقول : كن قاسياً عليهم كالموت

لا يرحم الباكى من خوفه ، ويروى وهو صاِد كأنه لطلبه الشرب بعد الرى صاِد ،
أى لطلب النفوس ، ومعنى بروى : ينال مالو أدركه لروى

* كالموت ليس له رى ولا شبع *

(٤) نفر الجرح : هاج وورم بعد البرء ، وقوله : إذا كان البناء على فساد أى

إذا نبت اللحم على ظاهره وله غور فاسد ، يعنى . أنهم يطوون العداوة فى أنفسهم إلى
أن تمكهم الفرصة .

نهيهم عن السكون إلى من تقدم

منك إليه إساءة

يُحكى أن رجلاً كان له عبدٌ سنديٌّ ، فتعرّض لامرأته ، فعيلم الرجلُ بذلك ، فأخذَه وحبَّه ، ثم تحوَّبَ لذلك ، فداواه ، فلما برأ اتفق أن غاب الرجل يوماً ، فعمدَ السنديُّ المحبُّوبُ إلى ابنتين كانا لسيده فأخذهما وصعد السورَ ، فلما بصرَ بالرجل قال : والله إن لم تحبَّ نفسك كما حببتني لأفدنيهما من السور ليُموتا ، وإن نفسي لأهونُ من شربة ماء ، فلما رأى الرجلُ منه الجِدَّ حبَّ نفسه ، قرى العبدُ بالابنتين من السور وقال : إن حبك نفسك قصاص لما حببتني ، وقتل ابنك زيادةً أعطيتكما ...

وتزعمُ العرب : أن أخوين كانا في إبلٍ لهما ، فأجدبت بلادهما ، وكان بالقرب منهما وادٍ خصيبٌ وفيه حيةٌ تحميه من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان ، لو أني أتيتُ هذا الوادى المُكائِبَ فرعيتُ فيه إبلي وأصلحتُها؟ فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لا يهبطُ ذلك الوادى إلا أهلكته ، قال : فوالله لأقتلنَّ ، فهبط الوادى ورعى به إبله زماناً ، ثم إن الحية نهشته فقتله ، فقال أخوه : والله ، ما في الحياة بعد أخى خير ، فلاطلبنَّ الحية ولاقتلنها ، أو لا تبعنَّ أخى ، فهبط ذلك الوادى وطلب الحية ليقتلها طلباً بثاره ، فقالت له الحية : فهل لك في الصلح ، فأدعك بهذا الوادى تكون فيه وأعطيك كلَّ يومٍ ديناراً ما بقيت؟ قال : أوفاعلة أنت؟ قالت : نعم ، قال : إني أفعل ، فحلف لهما وأعطاهما الموائيق : لا يضرهما ، وجملت تعطيه كلَّ يومٍ ديناراً ؛ فكثُر ماله حتى صار من أحسن الناس حالاً ؛ ثم إنه ذكر أخاه فقال : كيف ينفعني العيش وأنا

أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ أَخِي أَعْمَدَ إِلَى فَأَسِهَ فَأَخَذَهَا؛ ثُمَّ رَصَدَ لَهَا، حَتَّى خَرَجَتْ،
فَضْرَبَهَا ضَرْبَةً شَجَّتْ رَأْسَهَا، فَلَمَّا رَأَتْ مَا فَعَلَ قَطَعَتْ عَنْهُ الدِّينَارَ، خِيفَ
الرَّجُلُ شَرَّهَا وَتَدَمَّ، فَقَالَ لَهَا: هَلْ لَكَ أَنْ تَتَوَاتَّقَ وَتَعُودَ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ؟
فَقَالَتْ: كَيْفَ أَعَاوِدُكَ وَهَذَا أَمْرٌ فَأَسْكَ وَهَذَا قَبْرُ أَخِيكَ! وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ
الحِكَايَةَ النَّابِغَةُ الذِّيَابِيُّ فِي آيَاتٍ لَهُ لَادَاعِي إِلَى إِرَادِهَا وَقَدْ جَاءَ فِي
خَتَامِهَا هَذَا الْبَيْتُ:

أَبَى لَكَ قَبْرُ لَا يَزَالُ مُوَاجِهِي وَضَرْبَةُ فَأَسِ فَوْقَ رَأْسِي فَاغْرَهُ

نهيهم عن احتقار العدو

قال ابن نباتة السعدي:

وَإِذَا عَجَزْتَ عَنِ الْعَدُوِّ فَدَارِهِ وَأَمْرُجْ لَهُ إِنْ الْمِزَاجَ وَفَاقُ
فَالنَّارُ بِالْمَاءِ الَّذِي هُوَ ضِدُّهَا تُعْطَى النَّضَاجَ وَطَبْعُهَا الْإِحْرَاقُ
وَقَالُوا: لَا يُتَّقَى الْعَدُوُّ الْقَوِيُّ بِمِثْلِ الْخُضُوعِ وَاللِّينِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ
الرِّيحِ الْعَاصِفِ تَقْلَعُ الْأَشْجَارَ الْعِظَامَ، لِتَأْيِبِهَا عَلَيْهَا، وَيَنْسَلِمُ مِنْهَا النَّبَاتُ
اللِّينُ لِتَمَايُلِهِ مَعَهَا.

ومن أمثالهم: إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنَّ

وقال الإمام ثعلب: هذا مثل ومعناه: إِذَا تَدَطَّمَّ أَخُوكَ شَائِحًا عَلَيْكَ
فَالنَّزِيمُ لَهُ الْهُوَانُ؛ وَعِبَارَةُ الْأَزْهَرِيِّ: الْمَعْنَى: إِذَا غَلَبَكَ وَقَهْرَكَ وَلَمْ تَقَاوِمِهِ
فَتَوَاضَعْ لَهُ، فَإِنْ اضْطَرَّابَكَ عَلَيْهِ يَزِيدُكَ ذُلًّا وَخَبَالًا؛ وَقَالَ الرَّجَاجُ: الَّذِي
قَالَهُ ثَعْلَبٌ خَطَأً، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ: إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهُنَّ - بِكسر الهاء - وَمَعْنَاهُ إِذَا
اشْتَدَّ عَلَيْكَ فَهُنَّ: لَمْ وَدَارِهِ، وَهَذَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، كَمَا رُوِيَ عَنْ

معاوية رضى الله عنه أنه قال : لو أن بينى وبين الناس شعرةٌ يمدونها
وأمدتها ما انقطعت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا أرخوها مَدَدْتُ ،
وإذا مَدَّوها أَرخَيْتُ ، فالصحيح فى هذا المثل ، فهن بالكسر ، من قولهم : هان
يهن : إذا صار هيناً لينا ، كقوله :

هَيْنُونَ لَيْنُونَ أَيَسَارٌ ذَوُو كَرَمٍ سُوَاسُ مَكْرَمَةٍ أَبْنَاءُ أَظْهَارِ
وإذا قالوا : فهن فهو من الهوان ، والعرب لا تأمر بذلك ، لأنهم أعزة
أبأون للضم . وقال ابن سيده . وعندى أن الذى قاله ثعلب صحيح لقول
ابن الأحرر - شاعر إسلامى - :

وقارعة من الأيام لولا سيئهم لراحت عنك جينا
دببت لها الضراء وقلت : أبقى إذا عزَّ ابنُ عمِّك أن تهونا^(١)

المتبجح بإظهار اللبان وإضمار العداوة

قال المتنبي :

وجاهل مدّه فى جهله ضحكى حتى أتته يدُ فَراسةٍ وفمُ
إذا نظرت نيوبَ اللبث بارزةً فلا تظننَّ أن اللبث مُبْتَسِمُ
« مدّه : أمهله وطول له ، وأصل الفرس : دق العنق يقول : ربّ جاهل
خدعته مجاملتى وتركه فى خمقه ضحكى منه حتى افترسته وبطشت به بعد زمان
يعنى أنه يُغضى عن الجاهل ويحلم إلى أن يُجازيه ويعصف به ، ثم قال فى

(١) الضراء فى الاصل : الشجر المذلف فى الوادى يقال : فلان يمشى الضراء :
إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر ، والضراء أيضاً : المشى فيما يوارى بك عن
تكديه وتختله يقال : فلان لا يدب له الضراء ، . يقال للرجل - إذا ختل صاحبه
ومكر به : هو يدب له الضراء

البيت التالي : إذا كشر الأسد عن نابه فليس ذلك تبسماً ، بل قصداً للاقتراس ، يريد : أنه وإن أبدى بشره ، وتبسّمه للجاهل فليس ذلك رضى عنه ، وفي مثل هذا يقول أبو تمام :

قَدْ قَلَصْتُ شَفَنَاهُ مِنْ حَفِيفَتِهِ فَخَيْلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْيِيسِ مُبْتَسِمًا

العدو يكاشرك إذا حضرك

قال المثقّب العبدى - شاعر جاهلى - :

إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْشِرُ لِي حِينَ أَلْقَاهُ وَإِنْ غَبْتُ شَتْمُهُ
وقال ابن الرومى :

يُذِيعُ لِي صَفْحَةَ السَّلَامَةِ وَالسَّلَامِ وَيُخْفِي فِي قَلْبِهِ مَرَضًا
وقال المتنبي :

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مِنَ السُّوءِ يَذْكُرُنِي وَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحًا وَإِهْوَانًا (١)
وبما يصح أن يذكر هنا ما روى : أنه قيل لأعرابي : كيف فلان فيكم ؟
فقال : إذا حَضَرَ هِبْنَاهُ ، وَإِنْ غَابَ اغْتَبْنَاهُ ، قال : ذلك هو السيد فيكم ...

من نظره ينبي عن عداوته

وتحذيرهم من العداوة المستورة

قال شاعر :

سُتُورُ الضَّمَائِرِ مَهْتُوكَةٌ إِذَا مَا تَلَا حَظَّتْ الْأَعْيُنُ
وقال زهير بن أبي سلمى :

وَمَا يَكُ فِي عَدُوِّ أَوْ صَدِيقٍ تُخْبِرُكَ الْعَيُونُ عَنِ الْقُلُوبِ

(١) يقول : إذا ظهرت لمن يذكرني بالسوء في غيبي عظمي وخضع لي وأنا أعرض عن عتابه إعراسا عنه واحتقارا له لأنه لا يقدر أن ينظر إلى في حضرتي

وقال عُمَيْرُ بْنُ حُبَابٍ :

أَلَا رَبُّ مَنْ تَدْعُو صَدِيقًا وَلَوْ تَرَى
يُسْرَكَ بِأَدْبِهِ وَتَحْتَ أَدِيمِهِ
تُبِينُ لَكَ الْعَيْنَانِ مَا هُوَ كَأْتَمُّ
وَفِينَا - وَإِنْ قِيلَ اصْطَلَحْنَا - تَضَاغُنُّ

وقال أبو نُوَاسٍ :

كَمَنَّ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا

كَسَكُمُونَ النَّارِ فِي حَجْرِهِ (٤)

وقبله :

وَابْنِ عَمِّ لَا يُكَاشِفُنَا
وَهِيَ الْآيَاتُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

قَدْ لَبَسْنَاهُ عَلَى عَمْرِهِ (٥)

لَا أَذُودُ الطَّيْرِ عَنْ شَجَرٍ

قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ ثَمَرِهِ

وقال زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ :

وَقَدْ يَنْبُتُ الْمُرُّ عَلَى دِمَنِ الثَّرَى

وَتَبَى حَزَازَاتُ النَّفُوسِ كَمَا هِيَ (٦)

(١) يفرى : يفتاق ويكذب ، من الافتراء

(٢) تبرى : تبرى وتحت

(٣) جاء في اللسان : النثر : الكلا يهيج أعلاه وأسفله ندى أخضر تدفى منه

الإبل إذا رعته ، واستشهد بالبيت ثم قال : يقول : ظاهرنا في الصلح حسن في مرآة

العين وباطننا فاسد كما تحسن أوبار الجربى عن أكل النثر وتحتها داء منه في أجوافها .

وقال أبو منصور الأزهري : وقيل النثر في هذا البيت نشر الجرب بعد ذهابه ونبات

الوبر عليه حتى يخفى ، قال : وهذا هو الصواب

(٤) الشنان : البغض . يقول : البغض قد كمن فيه واستتر مثل كمنون النار في

الحجر الذي يوربه ويقدحه

(٥) لا يكاشفنا : لا يظهرنا على العداوة ، ولبسناه على غمره : عاشرناه على ما به

من حقد (٦) الدمن جمع دمنة والمراد : الموضع الذي يتلبد فيه السرقيين وأبعار

الغنم والبقر ، وفي الحديث : إياكم وخضراء الدمن ، قيل : وما ذاك . قال صلى الله

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الفتن فقال : يكون بعدها هُدنةٌ على دَخْنٍ وجماعةٌ على أَقْدَاءٍ « وأصل الهدنة : السكون بعد الهيج ، ومنه قيل للصلح بعد القتال بين كل متحارين : هُدنة ، لأنها مُلاينةٌ وفترةٌ سكون بين المتقاتلين ، والدخن : السكْدورةُ إلى السوادِ كالمدخان . والمراد سكون على غل ،

ثبات العداوة الذاتية

قالوا في ذلك : الوُدُّ والعداوة يُتوارثان .

وفي كَلِمَةٍ ودمنةٌ : ليس بين العداوة الجوهرية صلحٌ وإن اجْتهد ، فالماءُ وإن أُطيل إسخاؤه فليس يمتنع من إطفاءِ النار إذا صَبَّ عليها . ويُحكى : أن أعرابياً أخذ جَرَوْ ذئب ، فرباه بلبن شاةٍ عنده ، وقال : إذا ربيته مع الشاةِ أنس بها ، فيذُبُّ عنها ويكونُ أشدَّ من الكلب ، ولا يعرف طبع أجناسه ، فلما قوى وَثَبَ على شاةٍ فافترسها ، فقال الأعرابيُّ :

أَكَلْتُ شَوْهِي وَنَشَأْتُ فِينَا فَمَا أَدْرَاكَ أَنْ أَبَاكَ ذَيْبُ

حمد المداجاة طلباً للفرصة

قال علي كرم الله وجهه : أنسى الأشياءَ لعدوك أن لا تُعلمه أنك اتخذتهُ عدواً .

وقال القاضي التتوخي :

أَلْتَقَى الْعَدُوَّ بِوَجْهِهِ لَا قُطُوبَ بِهِ يَكَادُ يَقْطُرُ مِنْ مَاءِ الْبَشَاشَاتِ
فَأَحْزَمُ النَّاسِ مَنْ يَلْقَى أَعَادِيَهُ فِي جَسْمٍ حَقْدٍ وَثُوبٍ مِنْ مَوَدَّاتِ

عليه وسلم : المرأةُ الحسناءُ في المنبتِ السوءِ ، شبه المرأةَ بما يثبت في الدمن من الكلالِ يرى له غصارةٌ وهو وبني المرعى منبتن الأصل

الرَّقِيقُ يُؤْمِنُ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ وَكَثْرَةُ الْمَرْحِ وَفَتْحُ الْعِدَاوَاتِ

المسرة بوقوع العداة بين أعدائك

في كناية ودمنة : من حق العاقل أن يرى معاداة بعض عدوه لبعض ظفراً حسناً ، ففي اشتغال بعضهم ببعض خلاصه منهم .

دنى يعاديك بلا سبب

قال المتنبي :

وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تَجِيهُهُ وَأَغِيظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُهُ
 يقول : أتعب من ناداك من ناداك فلم تجبه ، لأنك لا تشفيه بالجواب ،
 فيجهد في النداء ، كما أن أغيط الأعداء لك من عاداك وهو دونك ، لأنك
 ترفع عن معارضته فلا تشتفي منه ،
 وقال شاعر :

يَسْطُو بِلَا سَبَبٍ وَتِلْكَ طَبِيعَةُ الْكَبَابِ الْعَقُورِ

تأسف من يعاديه لئيم أو دنى

قال المتنبي في عذر من يخاصم دينياً ويدافعه :

إِذَا آتَتْكَ الْإِسَاءَةُ مِنْ لَيْمٍ وَلَمْ أَلَمْ الْمَسِيءَ فَمَنْ أَلُومُ

وقال علي بن الجهم في تأسف من يعاديه لئيم :

بَلَاءٌ لَيْسَ يُشْبِهُهُ بَلَاءٌ عِدَاوَةٌ غَيْرُ ذِي حَسَبٍ وَدِينٍ

يُذِيحُكَ مِنْهُ عَرَضًا لَمْ يُضِنِّهِ وَيَرْتَعِ مِنْكَ فِي عَرِضٍ مَصُونٍ

ويحكى : أن خنزيراً بدت إلى الأسد وقال : قاتلني ، فقال الأسد :

أَسْتَ بِكَفِّي ، وَإِن أَنَا قَتَلْتُكَ لَمْ يَكُن لِي ذَلِكَ شِغْرًا ، وَإِن قَتَلْتَنِي لِحَقِّي عَارٌ عَظِيمٌ ، فَقَالَ الْخَنزِيرُ : لِأَخْبَرَنَّ السَّبَاعَ بِبُكُوكَ ، فَقَالَ الْأَسَدُ : اِحْتِمَالُ الْعَارِ فِي ذَلِكَ أَيْسَرُ مِنَ التَّلَطُّحِ بِدَمِكَ .

حشهم على العداوة بالقول لا بالفعل

قالوا : غَضِبُ الْجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ ، وَغَضِبُ الْعَاقِلِ فِي فِعْلِهِ

وقالوا : « وَنَشْتُمُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالتَّكْلِمْ » وقد تقدم

طائفة من عقرياتهم

في الناس وما جُبِلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ

وَسُوءِ الظَّنِّ وَالشَّمَاتَةِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى

ولمناسبة عقرياتهم في العداوات نورد عليك هاهنا صدرًا من عقرياتهم

في النَّاسِ وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَسُوءِ الظَّنِّ وَالشَّمَاتَةِ وَالْمُزَاحِ وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى

الناس

لا يزال الناس بخير ما تباينوا

من أروع ما قيل في النَّاسِ وَحِكْمَةُ تَبَايُنِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا تَبَايَنُوا ؛ فَإِذَا تَسَاوَوْا هَلَكُوا » ، قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي الْهَيْبَةِ مَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَسَاوَوْنَ إِذَا رَضُوا بِالنَّقْصِ وَرَكِبُوا التَّنَافُسَ فِي طَلْبِ الْفَضَائِلِ وَدَرَكِ الْمَعَالِي ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ خَاصًا فِي الْجَهْلِ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ لَا يَتَسَاوَوْنَ فِي الْعِلْمِ وَإِنَّمَا يَتَسَاوَوْنَ إِذَا كَانُوا كُلُّهُمْ جُهَالًا ، وَقِيلَ :

أراد بالتساوي التحزب والتفرق وأن لا يجتمعوا على إمام ويدعى كل واحد الحق لنفسه فينفرد برأيه . . . وقال أبو عبيد : أَحْسَبُ قَوْلَهُ : فإذا تساؤوا هلكوا ، لأن الغالب على الناس الشر ، وإنما يكون الخير في النادر من الرجال ، لعزته ، فإذا كان التساوي فإنما هو في السوء . . . » وقال شاعر :

النَّاسُ أَخْيَافٌ وَشَتَّى فِي الشَّيْمِ وَكُلُّهُمْ بِجَمْعِهِمْ بَيْتُ الْآدَمِ

« أخياف : ضروبٌ مختلفة الاخلاق والأشكال . والآدم . قيل : أراد آدم ، وقيل الأرض ، ولعله يشير بهذا إلى ما جاء في الأثر : كلكم لآدم وآدم من تراب ؛ وقال مسلم بن الوليد :

النَّاسُ كُلُّهُمْ لِيَضْنٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اخْتَلَفَ طَبَائِعُ فِي أَنْفُسِ

« الضنء : الأصل » وقالوا : الناس في اختلافهم في خلقهم كاختلافهم في خلقهم . وقال خالد بن صفوان : الناس أخياف ، منهم من هو كالكلب ، لا تراه الدهر إلا هرايرا على الناس ، ومنهم كالخنزير ، لا تراه الدهر إلا قذراً ، ومنهم كالقرود ، يضحك من نفسه . وقال بعضهم : الناس أخياف : علق مَضْنَةٌ لا يُبَاعُ ، وعلق مَظَنَةٌ لا يُبْتَاعُ ، وقال أبو العتاهية :

مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَليْسَ مَحْضٌ يَخْبَثُ بَعْضٌ وَيَطِيبُ بَعْضٌ

« وقد بما قلت فيما قلت ، في كتابي «الفردوس» : ولم لا يكون هذا الاختلاف

في الحياة الدنيا بين الأفراد والجماعات إنما يُقصدُ به إلى معنى جميل مأمونه بدأ السنأ قد نُشئنا كأنغام آلات الموسيقى ، هي وإن اختلفت غير أن اجتماعها يُؤلف من هذا الاختلاف نغما موسيقياً متجانساً بديعاً يُطرب السمع ويملك على المرء مشاعره . ولعل الأصل في هذا كله قوله عز وجل : قُلْ كَلِمًا يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ قَرَّبَكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا . . . وقوله :

ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ...

وجدت الناس أخبر ثقله

ومن أبداع ما قيل في ذمّ الناس ما جاء في حديث أبي الدرداء: وجدتُ الناسَ أَخْبَرَ ثَقَلِهِ .. قال ابن الأثير في النهاية: القَلْبُ: البغض، يقال: قَلَاهُ يُقْلِيهِ قَلِيًّا وَقَلِيًّا: إذا أَبْغَضَهُ، قال الجوهري: إذا فُتِحَتْ مَدَدَتْ، ويقال: لغة طَيِّبٌ. يقول جَرَّبِ النَّاسِ فَإِنَّكَ إِذَا جَرَّبْتَهُمْ قَلْبَتَهُمْ وَتَرَكْتَهُمْ، لما يظهر لك من بواطن سرّاتهم. لَفْظُهُ أَنْظَ الْأُتْرُ وَمَعْنَاهُ الْخَبْرُ، أَي مِنْ جَرَّبْتَهُمْ أَبْغَضْتَهُمْ وَتَرَكْتَهُمْ: وَالْهَاءُ فِي ثَقَلِهِ: لِلسَّكْتِ. وَمَعْنَى نَظَمِ الْحَدِيثِ: وَجَدْتُ النَّاسَ مَقُولًا فِيهِمْ هَذَا الْقَوْلَ.

الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة

وجاء في الحديث الشريف: النَّاسُ كِإِبِلٍ مِائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً
يعنى أَنَّ الْمَرِضِيَّ الْمُنْتَخَبَ مِنَ النَّاسِ فِي عِزَّةٍ وَوُجُودِهِ كَالنَّجِيبِ مِنَ الْإِبِلِ الْقَوِيَّ عَلَى الْأَحْمَالِ وَالْأَسْفَارِ الَّذِي لَا يَوْجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْإِبِلِ. وَقَالَ الْإِمَامُ الْأَزْهَرِيُّ: الَّذِي عِنْدِي فِي هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّ الدُّنْيَا وَحَذَرَ الْعِبَادَ سُوءَ مَغْبَتِهَا وَضَرَبَ لَهَا فِي الْأَمْثَالِ لِيَتَعْتَبَرُوا، وَيَحْذَرُوا، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْذَرُهُمْ كَمَا حَذَرَهُمُ اللَّهُ، فَرَغِبَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ بَعْدَهُ فِيهَا وَتَنَافَسُوا عَلَيْهَا حَتَّى كَانَ الزُّهْدُ فِي النَّادِرِ الْقَلِيلِ مِنْهُمْ فَقَالَ: تَجِدُونَ النَّاسَ بَعْدِي كِإِبِلٍ مِائَةٍ لَيْسَ فِيهَا رَاحِلَةٌ، أَي أَنَّ الْكَامِلَ فِي الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ قَلِيلٌ كَقَلَّةِ الرَّاحِلَةِ فِي الْإِبِلِ، وَالرَّاحِلَةُ هِيَ

البعيرُ القوي على الأسفار والأحمال ، النجيبُ النَّامُ الخلقُ الحَسَنُ المنظرُ ، ويقعُ
على الذَكَرِ والآثي ، والهَاءُ فِيهِ لِلْبَالِغَةِ ،

وقال الشاعر :

الناسُ بِمِثْلِ بُبُوتِ الشَّعْرِ كَمِ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِالْفِ كَمِ بَيْتِ بَدْيَوَانٍ
وفي هذا المعنى يقول المعرّي :
الناسُ كالشَّعْرِ تُتَلْنَى الأَرْضُ جَائِثَةً بِالْجَمْعِ يُزَجِّي وَخَيْرٌ مِنْهُمْ رَجُلٌ

لو تكاشفتُم ما تدافتُم

ومن كلمة لسيدنا رسول الله صلوات الله عليه : لو تكاشفتُم ما تدافتُم .
يقول : لو علم بعضهم سريرة بعض لاسْتَنَقَلَ تشييعَهُ ودَفَنَهُ . ولعل
أبا العتاهية قد أخذ من هذا الحديث قوله :

وفي الناس شرٌّ لو بدأ ما تعاشرُوا ولكن كساهُ اللهُ ثوبَ غِطاءِ

وقالوا في ذم الناس :

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَى

وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكَدْتُ أَطِيرُ

وقال المعرّي :

يَحْسُنُ مَرَأَى لِبْنِي آدِمٍ وَكُلُّهُمْ فِي الذَّوْقِ لَا يَنْدُبُ
مَا فِيهِمْ بُرٌّ وَلَا نَاسِكٌ إِلَّا إِلَى نَفْعٍ لَهُ يَجْذِبُ
أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لَا تَظْلِمُ النَّاسَ وَلَا تَكْذِبُ

وقال محمد بن يسير :

سَوَاءٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أَنَا فِي هَذَا مِنْ أَوْلِهِمْ
لَسْتُ تَدْرِي حِينَ تَنْسَبُهُمْ أَيْنَ أَذْنَانِمْ مِنْ أَفْضَلِهِمْ

وقال بعضهم : كنتُ عند الحسن البصريِّ ، فقال : أَسْمَعُ حَسِيْسًا ، وَلَا أَرَى أَنِيْسًا ، صِيْبَانٌ حَيَارَى ، مَا لِهْمُ تَفَاقَدُوا عَقُولَهُمْ ، وَفِرَاشُ نَارٍ ، وَذِيْبَانٌ طَمَعٌ . وَقِيلَ لِسَفِيَّانِ الثَّوْرِيَّ : دُلَّنَا عَلَى رَجُلٍ نَجْلِسُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : تِلْكَ ضَالَّةٌ لَا تَوْجِدُ . . . وَقَالَ فُلَانٌ : رَأَيْتُ كَلْثُومَ بْنَ عَمْرٍو الْعَتَابِيَّ يَأْكُلُ حُبْزًا فِي الطَّرِيقِ ، فَقُلْتُ لَهُ أَمَا تَسْتَحْيُ أَنْ تَأْكُلَ بِحَضْرَةِ النَّاسِ ؟ فَقَالَ : أَرَأَيْتَ لَوْ كُنْتُ فِي دَارٍ فِيهَا بَقْرٌ ، أَمَا كُنْتُ تَأْكُلُ بِحَضْرَتِهِمْ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَهَؤُلَاءِ بَقَرَاتٌ قُلْتُ : إِنْ شَدْتُ أُرَيْتُكَ دَلَالَةً عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قَامَ وَوَعِظَ ، وَجَمَعَ قَوْمًا ثُمَّ قَالَ : رُوِيَ عَنِ غَيْرِ وَجْهِ : أَنَّ مَنْ بَلَغَ لِسَانَهُ أَرْبَعَةَ أَهْفِهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا أَخْرَجَ لِسَانَهُ يَنْظُرُ هَلْ يَبْلُغُ !

وقال رجل لأحد الشعراء : أَيْنَ سِكَّةُ الْخَيْرِ ؟ فَقَالَ : اسْلُكْ أَيَّ سِكَّةٍ شَدْتَ فَكَلَّمْتَهَا دَرُوبُ الْخَيْرِ . . . وَمِثْلُ هَذَا مِنَ النَّوَادِرِ الْمُسْتَرْقَةِ . . .

وقال بعضهم : النَّاسُ أَرْبَعَةٌ أَصْنَافٌ : آسَادٌ ، وَذِيَابٌ ، وَثَعَالِبٌ ، وَضَانٌ ، فَأَمَّا الْآسَادُ فَالْمُلُوكُ - وَهِيَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحُكْمِ الْمُسْتَبْدِينَ - وَأَمَّا الذِّيَابُ فَالتَّجَارُ ، وَأَمَّا الثَّعَالِبُ فَالْقُرَّاءُ الْخَادِعُونَ ^(١) . وَأَمَّا الضَّانُ فَالْمُؤْمِنُ - يَرِيدُ الطَّيِّبَ الْكَرِيمَ - يَنْهَشُهُ كُلُّ مَنْ يَرَاهُ . وَقَالَ كَثِيرٌ عَزَّةً :

سَوَاسٍ كَأَسْنَانِ الْخِمَارِ فَمَا تَرَى لِيذِي شَيْبَةٍ مِنْهُمْ عَلَى نَائِيٍّ فَضْلًا

(١) لعل المراد بالقراء : النساك . وقد جاء في الحديث : أكثر منافع أمتي قراؤها قال ابن الأثير في النهاية . أي أنهم يحفظون القرآن نفيًا للنعمة عن أنفسهم وهم معتقدون تضييعه وكان المنافقون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الصفة

«يقال هُم سَوَاسِيَةٌ وَسَوَاسٌ وَسَوَاسِيَةٌ : إِذَا اسْتَوَوْا فِي اللُّؤْمِ وَالْحَسَّةِ وَالشَّرِّ، وَقَالَ آخَرُ :

شِبَابُهُمْ وَشِدِيهِمْ سَوَاءٌ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْحَمَارِ
«وَأَسْنَانِ الْحَمَارِ مَسْتَوِيَةٌ»

وقال طرفة بن العبد :

كَلَّ خَيْمِلٌ كُنْتُ خَالَتُهُ لَا تَرَكَ اللهُ لَهُ وَاضِحَةً (١)
كَلِمَ أَرْوَعٌ مِنْ ثَعْلَبٍ مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ
وقال المتنبى :

وَلَمَّا صَارَ وَدَّ النَّاسِ خِبَا جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامِ بَابِتْسَامِ
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعَلَى أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ
وقال ابن الرومي :

إِعْلَمُ بَانَ النَّاسِ مِنْ طِينَةٍ يَصْدُقُ فِي الثُّبِّ لَهَا الثَّابِ (٢)
وَلَا عِلَاجَ النَّاسِ أَخْلَاقَهُمْ إِذْنُ لَفَاحِ الْحَمَا اللَّازِبِ (٣)
وقال المتنبى :

أَذْمُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلُهُ وَأَعْلَهُمْ قَدَمٌ وَأَحْزَمَهُمْ وَغَدُ
وقال :

إِنَّمَا أَنْفُسُ الْأَنْبِيَاءِ سِبَاعٌ يَتَفَارَسُنَ جَهْرَةً وَاجْتِيَالًا
مَنْ أَطَاقَ النَّاسَ شَيْءٌ غِلَابًا وَاجْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالًا
كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ الْغَضْبُفَرَّ الرَّبَالَا

(١) الواضحة : الأسنان التي تبدو عند الضحك . (٢) الثب : العيب

(٣) الحمأ : الطين الأسود المذنب ، واللازب . الذي يلزق ويصلب

وقال :

إننا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحساناً وإجمالاً
لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يُفقر والإقدام قتال

وقالوا في أن من شيم الناس أن تحمد من رشد وتلوم من يعوى
وفي ذلك يقول القطامي :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل^(١)

وقد أخذ من قول المرتش الأصغر :

ومن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يعر لا يعدم على النى لا بما
وهذا كعمري من عناوين اللوم المركب في الطباع.

وقالوا في انتكاس الأحوال وارتفاع السفلة الأندال والقائل : خدش

بن زهير - شاعر جاهلي من شعراء قيس - وهو ابن عم لبيد :

فإنك لا تبالي بعد حولٍ أظبي كان أمك أم حمار

فقد لحق الأسافل بالأعلى وماج اللوم واختلط النجار

وعاد الفند مثل أبي قبيس وسبق مع المعلةجة العشار

« النجار : الأصل . والفند : قطعة من الجبل طولاً ، وأبو قبيس جبل

بمكة ، والمراد به : الرجل الشريف ، كما يراد بالفند ، الرجل الوضيع ، والمعلةجة :

المرأة اللثيمة الأصل الفاسدة النسب . والعشار : جمع العشاء : الناقة مضى

لحلمها عشرة أشهر ؛ يقول هذا الشاعر : أما وقد لحق الأسافل بالأعلى

واختلطت الأصول وماج أمر الناس واضطرب وعظم شأن اللوم ونفقت

(١) الهبل : الثكل - الفقد -

سُوقُهُ وَعَادَ الْحَسِيدِ مِثْلَ الشَّرِيفِ حَتَّى سِيدَتْ الْإِبِلَ الْحَوَامِلَ فِي مَهْرِ اللَّيْمَةِ
وَتَغْيِرُ بِذَلِكَ الزَّمَانَ وَاطْرَحَتْ مِرَاعَاةَ الْأَنْسَابِ فَلَا تَبَالِي بَعْدَ قِيَامِكَ بِنَفْسِكَ
وَاسْتِغْنَاكَ عَنِ أَبِيكَ ، مَنْ انْتَسَبَ إِلَيْهِ ، شَرِيفًا كَانَ أَمْ وَضِيعًا ... وَضَرَبَ
الْمَثَلَ بِالظُّبِيِّ وَالْحِمَارِ وَجَعَلَهُمَا أَمِينَيْنِ وَهِيَ ذِكْرَانِ لِأَنَّهُ مِثْلُ لِحَقِيقَةِ ، وَقَصِدُ
قَصْدِ الْجَنَسِيِّينَ وَلَمْ يَحْقُقْ أَبُوهُ . وَذَكَرَ الْحَوْلَ ، لِذِكْرِ الظُّبِيِّ وَالْحِمَارِ ، لِأَنَّهُمَا
يَسْتِغْنِيَانِ بَأَنْفُسِهِمَا بَعْدَ الْحَوْلِ ؛ فَهَذَا شَاعِرٌ سَاخِطٌ كَمَا تَرَى ،

وقال ابن الرومي :

دَهْرٌ عَلَا قَدْرُ الْوَضِيعِ بِهِ وَهُوَ الشَّرِيفُ يَحْطُهُ شَرَفُهُ
كَالْبَحْرِ يَرْسُبُ فِيهِ أَوْلُوهُ سَفَلًا وَتَطْفُو فَوْقَهُ جِيفُهُ

وقال :

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَرْفَعُ كُلَّ وَغْدٍ وَيَخْفِضُ كُلَّ ذِي شِسْمٍ شَرِيفَةٍ
كَمِثْلِ الْبَحْرِ يَغْرَقُ فِيهِ حَتَّى وَلَا يَنْفَكُ تَطْفُو فِيهِ جِيفَةٍ
أَوْ الْمِيزَانَ يَخْفِضُ كُلَّ وَافٍ وَيَرْفَعُ كُلَّ ذِي زِنَةٍ خَفِيفَةٍ

وقال الوزير المغربي :

إِذَا مَا الْأُمُورُ اضْطَرَبْنَ اعْتَلَى سَفِينُهُ بُضَامُ الْعُلَى بِاعْتِلَاتِهِ
كَذَا الْمَاءُ إِنْ حَرَّ كُنْتَهُ يَدُّ طَفَا عَكِرٌ رَاسِبٌ فِي إِنْائِهِ

وقال المعري في الناس :

لَقَدْ قَدَّمْتُ عَنْ أَصْحَابِ دِينٍ لَهُمْ نُسْكٌ وَلَيْسَ لَهُمْ رِبَاءُ
فَأَلْفَيْتُ الْبَهَائِمَ لَا عُقُولَ تُقِيمُ لَهَا اللَّيْلَ وَلَا ضِيَاءُ
وَإِخْوَانَ الْفَطَانَةِ فِي اخْتِيَالٍ كَأَنَّهُمْ لِقَوْمِ أَنْبِيَاءُ
فَأَمَّا دَوْلَاءُ فَأَهْلُ مَكْرٍ وَأَمَّا الْأَوْلُونَ فَأَغْيَاءُ

فإن كان الثَّقِي بَلَمَّا وَعِيًّا فَأَعْيَارُ الْمَذَلَّةِ أَتَقِيَاءُ
 « الأعيار : جمع عَيْر ، وهو الحمار يضرب به المثل في الذل قال المتلمس :
 ولا يقيم على ضَمِيمٍ أَلَمَّ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانَ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتِدُ
 فذَاكَ يُخَسِّفُ مَرْبُوطًا بِمَقْوَدِهِ وَذَا يُشْجِحُ وَلَا يَرِثِي لَهُ أَحَدٌ
 وقال :

بَنِي الدَّهْرِ مَهْلًا إِنْ ذَمْتُ فِعَالِكُمْ
 مَتَى يَتَقَضَى الوَقْتُ وَاللَّهُ قَادِرٌ
 تَجَاوَرَ هَذَا الجِسْمُ وَالرُّوحُ بَرَهَةً
 فإني بنفسى لا تحالة أبدأ
 فَنَسْكُنُ فِي هَذَا التُّرَابِ وَنَهْدًا
 فَمَا بَرَحَتْ تَأْذَى بِذَاكَ وَتَصْدَأُ
 وقال المعرى :

جَرَبْتُ دَهْرِي وَأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكَتُ
 لِي التَّجَارِبُ فِي وَدَّامِرِي غَرَضًا
 وقال :

أُولُو الْفَضْلِ فِي أوطَانِهِمْ غُرَبَاءُ
 تَوَاصَلَ حَبْلُ النِّسْلِ مَا بَيْنَ آدَمِ
 تَنَاءَبَ عَمْرُو إِذْ تَنَاءَبَ خَالِدٌ
 وَزَهْدَنِي فِي الْخَلْقِ مَعْرِقِي بِهِمْ
 تَشِدُّ وَتَنَائِي عَنْهُمْ الْقُرَبَاءُ
 وَيُنِي وَلَمْ يُوَصَّلْ بِبِلَائِي بَاءُ
 يَعْذَوِي فَمَا أَعْدَتِي الثُّوبَاءُ
 وَعَلِي بَانَ الْعَالَمِينَ هَبَاءُ
 وقال المعرى :

أَرَأَيْتِكَ فَلْيَغْفِرْ لِي اللَّهُ زَلَّتِي
 وَقَدْ يُخَافُ الْإِنْسَانُ ظَنَّ عَشِيرِهِ
 إِذَا قَوْمُنَا لَمْ يَعْْبُدُوا اللَّهَ وَحَدَّهُ
 بِذَاكَ وَدِينُ الْعَالَمِينَ رِثَاءُ
 وَإِنْ رَاقَ مِنْهُ مَنَظَرٌ وَرُؤَاؤُ
 بِنُصْحِ فَإِنَّا مِنْهُمْ بُرُؤَاؤُ
 وقال :

إِذَا بَكَرُ جَنَى فَتَوَقَّ عَمْرًا
 فَإِنَّ كَلِيهَمَا لَابٌ وَأَمُّ

وفي كلِّ الطباعِ طباعٌ نَكَزٍ وليس جميعهنَّ ذواتِ سُمِّ
« النكز : تسع الحية »

رَأَيْتُ الْحَقَّ لَوْلَا تَوَارَتْ بِأَجٍّ مِنْ ضَلَالِ النَّاسِ جَمِّ
وقال :

رِيَاءُ بَنِي حَوَاءَ فِي الطَّبَعِ ثَابِتٌ فَهُمْ مُجَسَّدٌ فِي النِّفَاقِ وَهَازِلٌ
سَخَوَالِيْقُولِ النَّاسِ جَادُوا وَأَقْدَمُوا لِيَذْكَرَ فِي الْهَيْجَاءِ قَرْنَ مُنَازِلُ
وقال :

النَّاسُ مِثْلُ الْمَاءِ تَضْرِبُهُ الصَّبَا فَيَكُونُ مِنْهُ تَفَرُّقٌ وَتَأَلُّفٌ
وَالْحَيْرُ يَفْعَلُهُ الْكَرِيمُ بِطَبِيعِهِ وَإِذَا اللَّيْمُ سَخَا فَذَلِكَ تَكَلُّفٌ
شَكَوَتْ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ عَدْرَهُمْ

لَا تُنْكَرِينَ فَعَلَى هَذَا مَضَى السَّافُ
وَقَلَّمَا تَسْكُنُ الْأَضْغَانُ فِي خَدِّدٍ إِلَّا فِي وَجْهِ مَنْ يَسْعَى بِهَا كَلْفُ
أَمْسَى النِّفَاقِ دُرُوعًا يُسْتَجَنُّ بِهَا مِنَ الْأَذَى وَيُقَوَّى بِمَرَدَّهَا الْخَلْفُ
« الخلف : اليمين »

حَسَّنَ الْوَعْدَ بِالْإِنْجَازِ تَبِعَهُ إِذَا مَوَاعِدُ قَوْمِ شَانَهَا الْخُلْفُ
وقال :

إِذَا فَرَعْنَا فَإِنَّ الْأَمْنَ غَايَتُنَا وَإِنْ أَمِنَّا فَمَا نَخْلُو مِنَ الْفَرَعِ
وَشِيْمَةُ الْإِنْسِ مِمَزُوجُهَا مَلَلٌ فَمَا تَدُومُ عَلَى صَبْرٍ وَلَا جَزَعِ
وقال :

إِذَا مَا أَسَنَّ الشَّيْخُ أَقْصَاهُ أَهْلُهُ وَجَارَ عَلَيْهِ النَّجْلُ وَالْعَبْدُ وَالْغُرْسُ

« العرس : الزوجة »

يُسَبِّحُ كَيْمًا يَغْفِرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ رُوِيَكَ فِي عَهْدِ الصَّبَا مُلِي الطَّرْسُ

وقال :

أَهْرُبُ مِنَ النَّاسِ فَإِنْ جِئْتَهُمْ فَمِلَ سَابِ جَرَّهَ السَّاحِبُ (١)

يَذْتَفِعُ النَّاسُ بِمَا عِنْدَهُ وَهُوَ لَقِيَ بَيْنَهُمْ شَا حِبُ (٢)

وقال :

إِنْ مَارَتْ النَّاسَ أَخْلَاقٌ يُعَاشُ بِهَا فَإِنَّهُمْ عِنْدَ سُوءِ الطَّبَعِ أَسْوَأُ

أَوْ كَانَ كُلُّ بَنِي حَوَاءَ يُشْبِهُنِي فَبَيْسَ مَا وَلَدَتْ فِي الْخَلْقِ حَوَاءُ

بُعْدِي مِنَ النَّاسِ بُرُهُ مِنْ سَقَامِهِمْ وَقَرُّهُمْ لِلْحَجَى وَالذِّينِ أَدْوَاهُ

كَالْبَيْتِ أُرْدَدَ لَا إِطَاءَ يُدْرِكُهُ وَلَا سِنَادَ وَلَا فِي الْاَلْفِظِ إِقْوَاهُ (٣)

وقال :

قَدْ حُجِبَ الثُّورُ وَالضِّيَاءُ وَإِنَّمَا دِينُنَا رِيَاءُ

يَا عَالَمَ السُّوءِ مَا عَلِمْنَا أَنْ مُصَلِّكَ اتَّقِيَاءُ

كَمْ وَعَظَّ الوَاعِظُونَ مِنَّا وَقَامَ فِي الْأَرْضِ أَنْبِيَاءُ

فَانصَرَفُوا وَالبَلَاءُ بَاقٍ وَلَمْ يَزُلْ دَاوُكُ الْعِيَاءُ

« زال يزول : راح وذهب ؛ والعياء : الذي لا يبرأ منه »

حُكْمٌ جَرَى لِلْمَلِكِ فِينَا وَنَحْنُ فِي الْأَصْلِ أُغْيَاءُ

(١) السَّابُ : زق الخمر

(٢) اللقي : الملقى على الأرض ، والشاحب : المهزول المتغير اللون لعارض كمرض ونحوه

(٣) الايطاء : تكرر القافية بلفظها ومعناها ، والاقواء : اختلاف إعراب القوافي ،

والسناد أنواع وهو كل عيب يحدث قبل الروي كارداف قافية وتجريد أخرى

وهذه من عيوب القافية

وقال :

مُلَّ المَقَامُ فمِمْ أَعَاثِرُ أُمَّةً أَمَرَتْ بِغَيْرِ صِلَاحِهَا أَمْرَاؤُهَا
ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا فَعَدَّوْا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَاؤُهَا
وقال بشار بن برد :

خَيْرُ إِخْوَانِكَ المِشَارِكُ فِي المِسرِّ وَأَيْنَ المِشَارِكُ فِي المِرِّ أَيْنَا
الَّذِي إِنْ شَهِدْتَ سَرَّكَ فِي الحِمْسِيِّ وَإِنْ غَبْتَ كَانَ أُذُنًا وَعَيْنَا
مِثْلُ سِرِّ اليَاقوتِ إِنْ مَسَّهُ النَّارُ جَلَاهُ البِئْسَاءُ فَازدادَ رَينَا
أَنْتَ فِي مَعَشِرٍ إِذَا غَبْتَ عَنْهُمْ بَدَلُوا كُلَّ مَا يَزِينُكَ شِينَا
وَإِذَا مَا رَأَوْكَ قَالُوا جَمِيعَا أَنْتَ مِنْ أَكْرَمِ البَرَايَا عَلِينَا
مَا أَرَى لِلْأَنْامِ وُودًا صَحيحَا عَادَ كُلُّ الوِدادِ زُورًا وَمِينَا
وقال ابن الرومي :

ذُوقْتُ الطُّعُومَ فَمَا التَّدَذُّتُ بِرَاحَةٍ مِنْ مُحِبَّةِ الأَخْيَارِ وَالأَشْرَارِ
أَمَّا الصِّدِيقُ فَلَا أَحَبُّ لِنَفْسَاءَ حَذَرَ القَلْبِ وَكَرَاهَةَ الإِعْوَارِ
وَأَرَى العَدُوَّ قَدَى فَأَكْرَهُ قُرْبَهُ فَهَجَرْتُ هَذَا الحَلِيقَ عَنِ إِعْذارِ
أَرِنِي صَدِيقًا لَا يَنْوِءُ بِسَقَطَةٍ مِنْ عَيْنِهِ فِي قَدْرِ صَدْرِ نِهارِ
أَرِنِي الَّذِي عَاشَرْتَهُ فَوَجَدْتَهُ مُتَغاضِيًا لَكَ عَنِ أَقْلٍ عِشارِ
أَحِبُّ قَوْمًا لَمْ يُحِبُّوا رَبَّهُمْ إِلَّا لِيَفْرَدُوهُ لَدَيْهِ وَنارِ

وقال :

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفادٌ فَلَا تَسْتَكْبِرَنَّ مِنَ الصَّحابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ ما تَراهُ يَحُولُ مِنَ الطَّعامِ أَوْ الشَّرابِ
إِذا انْقَلَبَ الصِّدِيقُ غَدًا عَدُوًّا مُبِينًا وَالأَمورُ إِلى انْقِلابِ

ولو كان الكثير يُطيب كانت صاحبة الكثير من الصواب
وما اللبّيجُ الملاحُ بمُرّويات وتلقَى الرّىّ في النّظفِ العذابِ
وبعد فإن هذا الباب مُتّسعٌ جداً، وسيمر عليك كثير من عقوباتهم فيه في باب
الإخوانيات وباب الطبائع، فلنّهتزئ بهذا المقدار.



الغوغاء

ولهم في السُّقّاطِ والسّفلةِ وهذه الرّجّة من الناس كلام كثير، فن ذلك قول
واصل ابن عطاء: أَلَا قَاتَلَ اللهُ هَذِهِ السّفلةَ، تُؤَادِنُ حَادَّ اللهِ وَنَبِيّه، وَتُحَادُّ مَنْ
وَادَّ اللهُ وَنَبِيّه، وَتَذُمُّ مَنْ مَدَحَهُ اللهُ، وَتَمْدُحُ مَنْ ذَمَّهُ اللهُ، عَلَيَّ أَنْ يَهْمُ
عُلْمَ الْفَضْلِ لِأَهْلِ الطّبقةِ العالِيَةِ، وَبِهِمْ أُعْطِيَتِ الأوساطِ حَقّاً مِنَ الثُّبُلِ...
ومنه قول سيدنا على رضى الله عنه. وقد أتى بجحان ومعه غوغاء —
فقال: لا ترحباً بوجوه لا تُرى إلا عند كلّ سؤاَةٍ... وقوله رضى الله عنه:
هم الذين إذا اجتمعوا ضُروا وإذا تفرقوا نَفَعُوا؛ فقليل له: قد عَلِمْنَا مَضْرَةَ
اجتماعهم فما منفعةُ اتّراقتهم؟ فقال: يرجعُ أصحابُ المِهْنِ إلى مهنتهم، فينتفعُ
الناسُ بهم، كرجوع البناءِ إلى بنائه، والنساجِ إلى منسجِه، والحَبّازِ
إلى مَخْبِزِه.

وكان الحسن البصرى إذا ذكر الغوغاء والسُّوق يقول: قتلةُ الأنبياء،
وكانوا يقولون: العامةُ كالبحر إذا هاج أهلك راحه، وكان المأمون الخليفة
العباسى يقول: كلُّ شرٍّ وظلمٍ في العالم فهو صادرٌ عن العامة والغوغاء؛ لأنهم
قتلة الأنبياء، والشّعاة بين العلماء، والنّمامون بين الأوداء، ومنهم اللصوص

وقطاع الطريق والطرَّارُونَ والمحتالون والساعون إلى الساطان ، فإذا كان يوم
القيامة حُسِرُوا على عادتهم في السعاية ، فقالوا : رَبَّنَا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وكِبْرَاءَنَا
فَأَضَلُّونَا السَّيْلَا ، رَبَّنَا وَأَتَمَّمْ ضَيْقَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهَمُ لَعْنًا كَبِيرًا... وقال
الجاحظ : الغاغة والباعَّة^(١) والحاكة كأنهم إعدارُ^(٢) عام واحد ، ألا ترى أنك
لا تجمد أبداً في كل بلدة ، وفي كل عصر ، هؤلاء ، إلا بمقدار واحد وجهة
واحدة ، من السخف والنقص والخول والغباوة .

ومن كلمة سيدنا علي في فضل العلم على المال ووصف الطغام — قال
كُمَيْلُ بن زياد النخعي : أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، فأخرجني
إلى الجبان^(٣) ، فلما أضحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءَ^(٤) ، ثم قال : يا كميلُ بن زياد ،
إن هذه القلوب أوعيةٌ يخفيها أوعاها ، فأحفظ عني ما أقولُ لك ، الناس ثلاثةٌ ،
فقالِمْ رَبَّانِيٌّ ، ومُتَعَلِّمٌ على سبيلِ نِجَاةٍ ، وهَمَّجٌ رَعَاعٌ ، أتباعُ كُلِّ نَاعِيٍّ
يَمِيلون مع كل ربح ، لم يَسْتَضِيئُوا بنور العلم ، ولم ياجأوا إلى ركنٍ وثيق ،
يا كميلُ ، العلم خيرٌ من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرسُ المال ، والمال
تَنَقُّصُهُ التَّفَقُّةُ والعلمُ يَزْكُو على الإنفاق ، وصنيعُ المال يَزُولُ بزواله ؛
يا كميلُ بن زياد ، هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ ، والعلماء باقون ما بقى
الدهر . إلى آخر هذه الخطبة العلوية التي تراها في نهج البلاغة ...

(١) الذي في اللسان : وبوغاء الناس : سفلتهم وطاشتهم وحقاقم .

(٢) الإعدار : الختان وطعام الختان وفي الحديث : كنا إعدار عام واحد ، أي

(٣) الجبان والجبانة يريد الصحراء .

ختنا في عام واحد ، وكانوا يمتنون لسن معلومة فيما بين عشر سنين وخمس عشرة

(٤) تنفس الصعداء : أي تنفساً ممدوداً طويلاً

وقال معاوية لَصَمَّصَةَ بن صوحان : صِف لي الناس ، فقال : حُلِقِ الناس أطواراً ، طائفة للسيادة والولاية ، وطائفة للفقهِ والسُّنة ، وطائفة للبأس والنَّجدة ، ورجرة بين ذلك ، يُغْلُونَ السَّعْر ، وَيَكْدِرُونَ الماء ، إذا اجتمعوا ضروا ، وإذا تفرقوا لم يُعرَفوا ... ومن طريف التفسير وغيرها ما قيل في قوله تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم » أى من السلطان ، أو من تحت أرجلكم ، أى من السَّفَل .

وقال دَعْبِل :

ما أَكْثَرَ الناسَ لا بل ما أَقْلَهُمْ اللهُ يعلم أنى لم أَقُلْ فَنَدَا
إِنّى لأَفْتَحُ عَيْنى حين أَفْتَحُها على كثيرٍ ولكن لا أرى أحداً
وهم يشبهون سوادَ الناسِ بالدُّبِّ ، والدُّبُّ مقصور : الجراد قبل أن يطير ،
وفي حديث عائشة قالت : كيف الناس بعد ذلك ؟ قال : دَبِّ يأكل شِدَادُهُ
ضِعافَهُ حتى تقوم عليهم الساعة ...

قلة الوفاء في الناس وشيوع الغدر والمكر في عاقبتهم

وقالوا في قلة الوفاء في الناس ووصف عاقبتهم بالغدر ، والمكر السيئ ،
ومن أروع ما قيل في ذلك قوله عز وجل : « وما وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ
وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ » . وقال سبحانه : « الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ
من بعد ميثاقه وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ به أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فى الأَرْضِ
أولئك لهم اللعنةُ ولهم سُوءُ الدَّارِ » ...

وقال : « أَفأَمِنَ الذين مَكَرُوا السِّبْاطِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذابُ مِنْ حيثُ لا يَشْعُرُونَ ، وقال : ولا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ

إلا بأهله ... وقال : ومن نكثَ فإنما ينكثُ على نفسه . وقال : إنما
بغيتكم على أنفسكم ... وقال المتنبي :

غيري بأكثرِ هذا الناسِ يندعُ إن قالموا جبنوا أو حدّثوا شجعوا
أهلُ الحفيظة إلا أن تُجرّبهم وفي التجاربِ بعد الغيِّ ما يزع

وقال أبو فراس الحمداني :

بمن يثقُ الإنسانُ فيما ينوبهُ ومن أين للحرِّ الكريمِ صحاب
وقد صارَ هذا الناسُ إلا أقلهم ذئاباً على أجسادهن ثياب

وقال أبو تمام :

إن شئت أن يسودَ ظنك كلهُ فأجلهُ في هذا السوادِ الأعظم
ليس الصديقُ بمن يعيرك ظاهراً متبسماً عن باطن متجهّم

« يقول : إن شئت أن لاتظن بأحد خيراً فاختر من شئت من هذا الناس ،

وكان يحيى بن خالد البرمكي إذا اجتهد في يمينه يقول : لا والذي جعل
الوفاء أعزّ ما يرى . وكان يقول : هو أعزّ من الوفاء . وقالوا : من عامل الناس
بالمكر كافأوه بالقدر

وكانت العرب إذا غدرَ منهم غادر ، يوقدون له بالموسم ناراً
وينادون عليه يقولون : ألا إن فلاناً غدر ... وقالوا : ربّ حيلة أهلكت
المحتال ، وقال امرؤ القيس :

أحارِ بنَ عميرٍ وكأني نخِرُ ويعدو على المرءِ ما ياتمِرُ

« رجل نخِر : خالطه الداء ، وقوله ويعدو الخ : أراد أن المرء ياتمر لغيره

بسوء فيرجع وبال ذلك عليه » وقال شاعر لا أذكره :

وكم من حافرٍ لآخيه ليلاً تردي في حفيرته نهاراً

ومن قولهم في وصف الغادر : فلان يحسو الأماناتِ حسواً ، وفلان

أعذر من الذئب، قال : * هو الذئب ولذئب أوفى أمانة *
وقال : * والذئب يأدو للغزال يأكله *

« يأدو للغزال : يَحْتَلِه لِيَأْكَلِه ، قال الشاعر :

حَنَنْتَنِي حَانِيَاتِ الدَّهْرِ حَتَّى كَأَنِّي خَانِلٌ يَأدُو لِصَيْدِ ،

ويقال : رَكِبَ فلان السَّخِيرَ : إذا غدر ، قال حسان بن ثابت :

يَا حَارِ مَنْ يَغْدِرُ بِذِمَّةِ جَارِهِ مِنْكُمْ فَإِن مَحْمُوداً لَمْ يَغْدِرِ

إِنْ تَغْدِرُوا فَالْغَدْرُ مِنْكُمْ شِيمَةٌ وَالْغَدْرُ يَنْبُتُ فِي أَصُولِ السَّخِيرِ

قال ابن برى : إنما شبه الغادر بالسخر ، لأن السخر شجر إذا انتهى استرخى

رأسه ولم يبق على انتصابه ، يقول حسان : أنتم لا تثبتون على وفاء كهذا السخر

الذي لا يثبت على حال ، بينما يرى معتدلاً منتصباً ، عاد مسترخياً غير منتصب »

وبعد فإنهم على هذا نصحوا بمداراة الناس ما دام الاستغناء عنهم غير

مستطاع . قال رجل لابن عباس : ادعُ الله لي أن يُغْنِيَنِي عن الناس

فقال : إن حوائج الناس تتصل بعضها ببعض كاتصال الأعضاء ، فمتى يَسْتغْنِي

المرء عن بعض جوارحه ؟ ولكن قل : أَعْنِي عن شرار الناس . وروى :

أن بعضهم كان يطوف بية قول : من يشتري مني بضائع بعشرة آلاف درهم ؟

فدعاه بعض الملوك وبذل له المال فقال له : اعلم أن الله لم يخلق خلقاً

شرا من الناس ، وإن لم يكن بُدُّ من الناس فانظر كيف تحتاج أن تعامل

ما لا بُدُّ منه ولا غنى بك عنه ... ثم قال : هل يساوى هذا الكلام

عشرة آلاف درهم ؟ قال : دونك المال ، ولم يأخذه ... وقالوا :

لثنا التعايش ، مداراة الناس . وقال النِّظَام - إبراهيم بن سيار

أحد شيوخ المعتزلة - : ما يُسُرُّني ترك المداراة ولي حُرِّمَ النَّعْمِ ،

قيل له : لِمَ ؟ قال : لأن الأمر إذا غَشِيكَ فَشَحَّصْتَ له أَرْدَاكَ ، وإذا طَاطَأَتْ له تَحَطَّأَكَ . . . وقال معاوية : لو كان بيني وبين الناس شَعْرَةٌ ما انقطعت ، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها ، وإذا أرسلوها جذبتها . . . وقال أكرم بن صَيْفِي : الانقباض من الناس مَكْسَبَةٌ للعداوة ، وإفراط الأُنس مَكْسَبَةٌ لقرناء السوء ، ومن أمثال العرب : لا تَكُنْ حُلُوقاً فَتُسْتَرَطَّ وَلَا مُرّاً فَتُلْغَظَ « استرطه ابتلعه ، وجاء في كتاب للهند : بعض المقاربة حزم ، وكل المقاربة عَجْز ، كالحشبة المنصوبة في الشمس ، تُمَالُ فيزيد ظلها ، ويُفْرَطُ في الإمامة فَيَنْقُصُ الظَّلُّ . . .

وقال الطفرائي في لاميته المشهورة المعروفة بلامية العجم :

وَحُسْنُ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ مَعْجَزَةٌ فَظَنَّ شَرًّا وَكُنْ مِنْهَا عَلَى وَجَلٍ
غَاضُ الْوَفَاءِ وَفَاضُ الْغَدْرِ وَانْفَرَجَتْ مَسَافَةُ الْخُلْفِ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
وَإِنَّمَا رَجُلُ الدُّنْيَا وَوَاحِدُهَا مَنْ لَا يَعُولُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ

الأنذال واللاثام

اللُّؤْمُ : ضِدُّ الْعِتْقِ وَالْمَكْرَمِ ، وَالنِّيمُ : الدَّنَى الْأَصْلُ الشَّجِيحُ النَّفْسُ :
وَالنَّدَالَةُ : الْحِسَةُ وَالسَّفَالَةُ وَرَكَكَةُ الْعَقْلِ وَالتَّأَخُّرُ عَنِ الْمَكَارِمِ ، وَالنَّذْلُ :
الْحَسِيْسُ الْحَقِيرُ الْفَسَلُ الَّذِي لَا مَرْوَةَ لَهُ . وَمِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي هَذَا الصَّنْفِ
مِنَ النَّاسِ قَوْلُ أَبِي الْأَسَدِ نُبَاتَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيِّ - شَاعِرٍ كَانَ مَعَاصِرًا
لِأَبِي تَمَّامٍ : -

إِنْ يَبْخَلُوا أَوْ يَجْبُّوا أَوْ يَنْدِرُوا لَا يَخْفَلُوا
يَعْدُوا عَلَيْكَ مَرْجَلَيْسَنَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

كَأَبِي بَرَأِشَ كُلِّ لَوْ نَ لَوْ نُهْ يَتَخَيَّلُ

« وَصَفَ قَوْمًا مَشْهُورِينَ بِالْمَقَابِحِ لَا يَسْتَحُونَ وَلَا يَحْتَفِلُونَ بِمَنْ رَأَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : يَغْدُوا هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : لَا يَحْفِلُوا ، لِأَنَّ عُدُوَّهُمْ مُرَجَّلِينَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَحْنَلُوا . وَالْتَرَجِيلُ : مَشْطُ الشَّعْرِ وَإِرْسَالُهُ . وَأَبُو بَرَأِشَ طَائِرٌ صَغِيرٌ أَعْلَى رِيشِهِ أَغْبَرُ وَأَوْسَطُهُ أَحْمَرُ وَأَسْفَلُهُ أَسْوَدٌ فَإِذَا انْتَفَشَ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ أَلْوَانًا شَتَّى . وَهَذَا أَبُو بَرَأِشَ غَيْرُ بَرَأِشَ الَّتِي وَرَدَتْ فِي قَوْلِهِمْ : عَلَى أَهْلِهَا دَأَتْ بَرَأِشُ ، فَهَذِهِ اسْمُ كَلْبَةٍ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ أُغْيِرَ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، فَهَرَبُوا وَتَبِعْتَهُمْ بَرَأِشُ فُرِجَ الَّذِينَ أَغَارُوا خَائِبِينَ ؛ فَسَمِعَتْ بَرَأِشُ وَقَعَّ حَوَافِرِ الْحَيْلِ ، فَتَبَحَّتْ فَاسْتَدَلُّوا عَلَى مَوْضِعِ نَبَاحِهَا ، فَعَظَفُوا عَلَيْهِمْ وَاسْتَبَاحُوهُمْ ، فَذَهَبَتْ مَمْلَأًا وَقَالُوا : عَلَى أَهْلِهَا تَجْنِي بَرَأِشُ ، قَالَ حَمْرَةَ بْنُ بَيْضَ :

لَمْ تَكُنْ عَنْ جَنَابِي لِحِقْمَتِي لَا يَسَارِي وَلَا يَمِينِي جَنَّتِي
بَلْ جَنَابَا أَخِي عَلَى كَرِيمٍ وَعَلَى أَهْلِهَا بَرَأِشُ تَجْنِي

وقال آخر — وهي من أبيات الحماسة — حماسة أبي تمام :-

أَنَاخَ اللُّؤْمِ وَسَطَ بَنِي رَبَاحٍ مَطِيبَتُهُ فَأَقْسَمَ لَا يَرِيمُ
كَذَلِكَ كُلُّ ذِي سَفَرٍ إِذَا مَا تَنَاهَى عِنْدَ غَايَتِهِ يُقِيمُ

« يُقَالُ : أَنْخَتُ الْبَعِيرَ قَبْرَكَ ، وَلَا يُقَالُ قَنَاخَ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ مَا اسْتَغْنَى عَنْهُ بِغَيْرِهِ ، وَلَا يَرِيمُ : لَا يَبْرَحُ ، وَقَوْلُهُ : كَذَلِكَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ لِأَنَّ كُلَّ ذِي سَفَرٍ مَبْتَدَأُ وَمَقِيمٌ خَبْرُهُ ، كَأَنَّهُ قَالَ : رَكَلَ مُسَافِرٌ إِذَا مَا انْتَهَى إِلَى غَايَتِهِ يُبَلِّغِي عَصَاهُ كَذَلِكَ ، أَيْ مِثْلَ إِقَامَةِ اللُّؤْمِ فِيهِمْ ، وَقَدْ نَقَلَ الْبُحْتَرِيُّ هَذَا الْمَعْنَى إِلَى الْمَدْحِ فَقَالَ :

إِذَا مَا رَأَيْتَ الْمَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ مُنَّمٌ لَمْ يَتَحَوَّلِ »

وقال جبرير :

وَكَنتَ إِذَا تَزَلْتِ بَدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخَزِيَّةٍ وَتَرَكَتِ عَارَا

وقال :

تَمِيمٌ بِطَرْقِ الثُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتِ سُبُلَ الْمَكَارِمِ صَلَّتِ

وقالوا فيمن لا يصلح لخير ولا شر : فلان أملس ليس فيه مستقر

لخير ولا شر . وقالوا : فلان ما هو برطب فيعصر ولا يبابس فيسكسر .

وقالوا : شر الناس الذي لا يتوقى أن يراه الناس مسيئاً ، وقد تقدم .

وقال الشاعر :

قَوْمٌ إِذَا خَرَجُوا مِنْ سَوَاءٍ وَجَرُوا فِي سَوَاءٍ لَمْ يَخْبَأُوهَا بِأَسْتَارِ

الظن

وَلِتَفَشَى الْغَدْرَ وَالْمَكْرَ فِي هَذَا النَّاسِ مَدَحُوا الْاِحْتِرَاسَ وَالْحَذَرَ وَسُوءَ

الظَّنِّ بِالنَّاسِ . قيلَ لبعضهم : ما الحزم ؟ قال : سوء الظن بالناس . وقال

الشاعر الببغاء :

وَأَكْثَرُ مَنْ تَلَقَى يَسْرُكَ قَوْلُهُ وَلَكِنْ قَلِيلٌ مَنْ يَسْرُكَ فِعْلُهُ

وَقَدْ كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ بَعْضَ مَذَاهِبِي

فَأَدَّبَنِي هَذَا الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ

وقالوا عليك بسوء الظن ، فإن أصاب فالحزم ، وإن أخطأ فالسلامة .

وقال بعضهم : إن قوله تعالى : إن بعض الظن إثم : دلالة على أن جلته

صواب . وقال عبد الملك بن مروان : فرق ما بين عمر وعثمان أن عمر

أساء ظنه فأحكهم أمره ، وأن عثمان أحسن ظنه فأهمل أمره . وقيل

لبعضهم : أسأت الظن ا فقال : إن الدنيا لما امتلأت مكاره وجب على العاقل أن يملأها حذرًا ...

ولما رأوا أن الظن هو الغالب على الناس وأنه لذلك يكاد يكون غريزة من الغرائز الإنسانية ، وأن تحقيقه ولا سيما بين الأصدقاء يعد من الإفراط المقوت ، وأنه لا يليق بمكارم الأخلاق ، ذموه وتعووه على أهله ، قال تعالى : اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم . وقال سيدنا رسول الله : ثلاثة لا يسلم منهن أحد : الطيرة ، والظن ، والحسد ، قيل : فما المخرج منهن يا رسول الله ؟ قال : إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ . . . وقال صلوات الله عليه : إياكم والظن فإن الظن أ كذب الحديث . وقال ابن الأثير في النهاية : أراد : إياكم وسوء الظن وتحقيقه ، دون مبادئ الظنون التي لا تملك وخواطير القلوب التي لا تدفع ، وقيل : أراد : الشك يعرض لك في الشيء فتحققه وتحكم به . وأكذب الحديث : أي حديث النفس ؛ لأنه يكون بإلقاء الشيطان في نفس الإنسان ، وقال المتنبى :

إذا ساءَ ففعلُ المرءِ ساءتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَمْتَدُّهُ مِنْ تَوَهُمِهِ
وَعَادَى مُجِبِّهِ بِقَوْلِ عِدَاتِهِ فَأَصْبَحَ فِي دَاجٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

وقال شاعر :

مَنْ سَاءَ ظَنًّا بِمَا يَهْوَاهُ فَارَقَهُ وَحَرَّضْتَهُ عَلَى إِبْهَادِهِ التَّهْمُ
وَمِنْ هُنَا مَدَحُوا التَّثْبِتَ وَالتَّغَافَلَ . وَتَرَى سَائِرَ عِبْقَرِيَاتِهِمْ فِي الظَّنِّ فِي
باب الطبائع و باب الإخوانيات .

الشّماتة

والشّماتة: الفرح ببيّلة تنزل بمن تعاديه، تقول: شمت به يشمت شماتةً وشماتاً، وأشمته الله به، وفي القرآن الكريم: فلا تُشمتنّ بى الأعداء... وقد تقدم طرف من عبقرياتهم فى الشّماتة بالموت، ومن عبقرياتهم فى الشّماتة مطلقاً قول الفرزدق:

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناسٍ حوادثُهُ أناخَ بأخرينا
فقلّ للشامتينَ بنا أفيقوا سيلقى الشامتونَ كما لقينا
وقيل لأيوبَ النّبىّ عليه السلام: أى شىء كان أشدَّ عليك فى بلائك؟
قال شّماتة الأعداء.

الحقْد

الحِقْدُ - كما جاء فى اللسان - : إمساكُ العداوةِ فى القلبِ والزُّبُصُ لفُرصَتها، قال: والحقْدُ: الضُّغنُ. قال: وحَقَّدَ علىَّ يحقِّدُ حقِّداً، وحَقَّدَ - بالكسر - حقِّداً وحِقِّداً فهو حاقدٌ؛ فالحقْدُ: الفعل، والحِقْدُ: الاسمُ، وتحقَّدَ: كتحقَّدَ، قال جرير:

يا عدنَّ إنَّ وصالهنَّ خِلاَبَةٌ ولقد جَمَعنَّ مَعَ البِعادِ تحقُّداً
«وبعد، فالحقْدُ على أنه خَلَّةٌ لا تَنفِقُ والنُّبَلُ والسُّودَدُ ومكايِمُ
الأخلاقِ فإنه دليلُ الحيويَّةِ، وهنَّ ثمَّ يكاد يكونُ خَلَّةٌ مرَّ كوزةً فى الطباعِ،
وإذا كانوا قد مَدَّحوه فإنما يترامونَ - كما قلنا - إلى أنه عُنوانُ الحيويَّةِ وأنَّ
من لا يحقِّدُ لا يشكر، وإذا هم ذُوهه، فإنهم إنما يدعون إلى تناسيه وأنَّ
من سُمِّوا بالأخلاقِ أن لا يحجِّلَ المرءُ الحقْدَ القديم، كما قال المُتَمَنِّعُ الكِنْدِيُّ»

واسمُه محمد بن عُمَيْرَة ، وهو شاعر كِنْدِيّ إسلامي^(١) ، وكان أحسن الناس
 وَجْهًا فإذا سَفَرَ لُقِعَ ، أى أصابته العين ، فَيَمْرَضُ وَيَأْحَقُهُ عَنَتٌ ، فكان
 لا يمشي إلا مُقَنَّعًا ، قال من أبيات جيدة تراها في حماسه أبي تمام وغيرها :
 ولا أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عليهم
 وليس رَئِيسُ القومِ مَنْ يَحْمِلُ الحِقْدَا

ذم الحقد ومدحه

أما عقربياتهم في ذم الحقد: فمن ذلك ما يُروى : أنه قيل للأخنف بن
 قيس : مَنْ أَسْوَدُ الناس ؟ فقال الأخرقُ في ماله المَطْرَحُ الحِقْدِيهِ :
 وقال ابن الرومي يذمه بعد أن مدحه ، كما سيأتي :

يا مادحَ الحقدِ مُحْتالًا لَهُ شَهًّا لَقَدْ سَلَكْتَ إِلَيْهِ مَسْلَكًا وَعَثًّا^(٢)
 لَنْ يَقَابَ العيبَ زَيْنًا مَنْ يُزِينُهُ حَتَّى يَرُدَّ كَبِيرًا عَانِيًا حَدَثًا^(٣)

(١) وهو صاحب هذه الايات الجيدة في صاحب السوء :

وصاحبُ السُّوءِ كالداءِ العيَاءِ إذا ما رَفُضَ في الجوفِ يَجْرِي هَاهُنَا وَهَنَا
 يُلْبِي وَيُخْبِرُ عن سَوَاتِ صاحِبِهِ وما رأى عنده من صالحٍ دَفْنَا
 كمُهْرٍ سَوِّءٍ إذا رَفَعْتَ سِيرَتَهُ رامَ الجِمَاحَ وإن خَفَضْتَهُ حَرْنَا
 إن يَحْيَى ذاكَ فَكُنْ منه بمَعزِلَةٍ أُرْماتِ ذاكَ فلا تَعْرِفْ له جَنْنَا
 « داء عياء : لا يُبرأ منه ، ورفعت سيرته : حملته على أن يزيد في سرعة

سيره ؛ والجئن - بالتحريك - القبر »

(٢) وعث الطريق : تعسر سلوكه والكلام على المثل

(٣) عانيا : جاوز الحد

إِنَّ الْقَيْحَ ، وَإِنْ صَنَعْتَ ظَاهِرَهُ يَعُودُ مَا لَمْ مِنْهُ مَرَّةً شَعْبًا (١)
 كَمْ زَخْرَفَ الْقَوْلُ ذُو زُورٍ وَلِبْسُهُ عَلَى الْقُلُوبِ وَلَكِنْ قَلَمًا لَيْثًا
 قَدْ أَبْرَمَ اللَّهُ أَسْبَابَ الْأُمُورِ مَعًا فَلَنْ تَرَى سَيِّئًا مِنْهُنَّ مُنْتَكِبًا
 يَادِافِنَ الْحَقْدَ فِي ضِعْفِي جَوَائِحِهِ سَاءَ الدِّفِينُ الَّذِي أُمْسَتْ لَهُ جَدْنَا (٢)
 الْحَقْدُ دَاءٌ دَرِيٌّ لَا دَوَاءَ لَهُ يَرِي الصُّدُورَ إِذَا مَا جَمْرُهُ حُرِنَا (٣)
 فَاسْتَشْفِ مِنْهُ بِصَفْحٍ أَوْ مُعَاتَبَةٍ فَإِنَّمَا يَبْرَأُ الْمِصْدُورُ مَا نَفَثَا (٤)
 وَاجْعَلْ طِلَابَكَ بِالْأَوْتَارِ مَا عَظُمْتَ

وَلَا تَكُنْ لِصَغِيرِ الْأَمْرِ مُكْتَرِنًا
 وَالْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَإِنْ جُرْمٌ مِنْ مُجْرِمٍ جَرَحَ الْإِكْبَادَ أَوْ فَرْتَا (٥)
 يَكْفِيكَ فِي الْعَفْوِ أَنَّ اللَّهَ قَرَّظَهُ وَحَيًّا إِلَى خَيْرٍ مَنْ صَلَّى وَمَنْ بُعِنَا
 شَهِدْتُ أَنَّكَ لَوْ أَدْنَبْتَ سَاءَكَ أَنْ
 تَلْقَى أَخَاكَ حَقُودًا صَدْرُهُ شَرِنَا (٦)

(١) شعبت : منتشر مفرق

(٢) الجدث : القبر

(٣) حرث : هيج ، ويرى الصدور : يأكلها

(٤) المصدور : الذى يشتكى صدره ، وما فى قوله : ما نفثا مصدرية ، و نفث : رى بالنفائة وهو ما يلقىه المصدور من فيه وفى المثل : لا بد للمصدور أن ينفث وقد يستعار ذلك للبعانى كما هنا وكما ورد أن بعضهم قال لشاعر : متى تقول هذا الشعر ، فقال : أويستطيع المصدور أن لا ينفث أى لا يبرق ، شبه الشعر بالنفث لأنهما يخرجان من الفم .

(٥) الفرث : تفتيت الكبد بالغم والأذى

(٦) الشرث ههنا : الغليظ الحشن ، من شرث الكف غلظ ونشقة ، والشرث

أيضا : الخلق البالى من كل شيء فلعله من هذا أيضا .

إِذَنْ وَسَمَّكَ أَنْ يَدْسَى الذُّنُوبَ مَعًا وَأَنْ تُصَادِفَ مِنْهُ جَانِبًا دَيْثًا
إِنِّي إِذَا خَلَطَ الْأَقْوَامُ صَالِحَهُمْ بَسِيئِ الْفَعْلِ جِدًّا كَانَ أَوْ عَيْبًا
جَدَلْتُ صَدْرِي كظَرْفِ السَّبِيكِ حَيْثُ يَسْتَخَالِصُ الْفِضَّةَ الْبَيْضَاءَ لَا الْخَبْمَا
وَلَسْتُ أَجْعَلُهُ كَالْحَرِيصِ أَمْدُحَهُ بِحِفْظِ مَا طَابَ مِنْ مَاءٍ وَمَا خَبْمَا

وقال يمدح الحقد:

حَقَدْتُ عَلَيْكَ ذَنْبًا بَعْدَ ذَنْبٍ وَلَوْ أَحْسَنْتَ كَانَ الْحِقْدُ سُكْرًا
أَدِيمِي مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ فَاعْلَمْ أُبِيءَ الرَّيْعُ حِينَ أُسِيءُ بَذْرًا
وَلَمْ تَمْكُ، يَا لِكَ الْخَيْرَاتُ، أَرْضُ لِتُزْرَعَ خَرْبَقًا فَتُرِيْعَ بُرًّا
أُوْدِي إِنْ فَعَلْتَ الْخَيْرَ خَيْرًا إِلَيْكَ وَإِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ شَرًّا
وَلَسْتُ مُكَافِئًا بِالنُّكْرِ عُرْفًا وَلَسْتُ مُكَافِئًا بِالْعُرْفِ نُكْرًا
يُسَمَّى الْحِقْدُ عَيْبًا وَهُوَ مَدْحٌ كَمَا يَدْعُونَ حُلُوَ الْحَقِّ مُرًّا

« الخربق: نبات كالشم ورقه أبيض وأسود، والبر: القمح »

وأراد يحيى بن خالد بن برمك وزير الرشيد أن يَضَعَ من عبد الملك ابن صالح فقال له: يا عبد الملك بلغني أنك حقود فقال عبد الملك: أيها الوزير، إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر إثمًا لباقيان في قلبي، فقال الرشيد: ما رأيتُ أحدًا احتجَّ للحقد بأحسن مما احتج به عبد الملك وقال ابن الرومي يمدح الحقد أيضا وقد عابه عائب:

لَيْنَ كُنْتَ فِي حَفْظِي لِمَا أَنَا مُودِّعٌ

من الخير والشر انتحيت على عرضي

لَمَّا عَيْبَتْنِي إِلَّا بِفَضْلِ إِبَانِهِ وَرُبَّ أَمْرِي يُزِرِّي عَلَى خُلُقِي مَحْضٍ
وَلَا عَيْبَ أَنْ تُجْزَى الْقُرُوضُ بِمِثْلِهَا بَلِ الْعَيْبُ أَنْ تَدَانَ دَيْبًا وَلَا تَقْضِي

وخَيْرُ سَجِيَاتِ الرِّجَالِ سَجِيَّةٌ تُؤْفِيكَ مَا تُسْدى مِنْ القَرَضِ بِالقَرَضِ
 إِذَا الأَرْضُ أَدَّتْ رَيْعَ مَا أَنْتَ زَارِعٌ مِنْ البَدْرِ فِيهَا فَهِيَ نَاهِيكَ مِنْ أَرْضٍ
 وَلَوْلا الحُقُودُ المُسْتَكِنَاتُ لَمْ يَكُنْ لِيَنْقُضَ وَتَرَأَ آخَرَ الدَّهْرِ ذُو نَقْضٍ
 وَمَا الحِقْدُ إِلاَّ تَوَأْمُ الشُّكْرِ فِي الفَتَى وَبَعْضُ السَّجَايَا يَلْتَهِنُ إِلَى بَعْضٍ
 فَحَيْثُ تَرَى حِقْدًا عَلَى ذِي إِسَاءَةٍ فَتَمَّ تَرَى شُكْرًا عَلَى حَسَنِ القَرَضِ
 وَفِي هَذَا القَدْرِ مِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الحِقْدِ كَفَايَةٌ. وَتَرَى فِي بَابِ الطَّبَائِعِ
 مَا يَنْقَعُ غُلَّتِكَ إِذَا شَاءَ اللهُ.

الحسد

الحَسَدُ وَقَانَا اللهُ شَرَّهُ — دَاءٌ مِنَ الأَدْوَاءِ المُتَّصِلَةِ الحَيِثُ الشَّامِعَةِ فِي
 هَذَا النَّاسِ إِلاَّ مَنْ عَصَمَ رَبُّكَ ، قَالَ عَلِياؤُنَا: الحَسَدُ: أَنْ يَرَى الرَّجُلُ لِأَخِيهِ
 نِعْمَةً فَيَتَمَنَّى أَنْ تَزُولَ عَنْهُ وَتَكُونَ لَهُ دُونَهُ ، أَمَا الغَبْطُ أَوْ الغِبطَةُ فَهِيَ :
 أَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُهَا وَلَا يَتَمَنَّى زوالَها عَنْهُ ، وَهِيَ كَمَا قَالَ الإِمَامُ
 الأَزْهَرِيُّ - : ضَرْبٌ مِنَ الحَسَدِ ، وَلَكِنها أَخْفَى مِنْهُ ، قَالَ : أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ
 صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سُئِلَ : هَلْ يُضْرُّ الغَبْطُ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، كَمَا يُضْرُّ الحَبْطُ
 فَأَخْبَرَ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلَيْسَ كَضَرِّ الحَسَدِ الَّذِي يَتَمَنَّى صاحِبُهُ زوالَ النِّعْمَةِ عَنْ
 أَخِيهِ ، وَالْحَبْطُ : ضَرْبٌ وَرَقِ الشَّجَرِ حَتَّى يَتَحَاتَّ عَنْهُ ثُمَّ يَسْتَخْلِفُ مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يُضْرَّ ذَلِكَ بِأَصْلِ الشَّجَرَةِ وَأَغْصَانِها

وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ...

قَالَ الإِمَامُ البِيضاوِيُّ : مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ : أَيْ مِنْ

الأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ كَالجَاهِ وَالْمَالِ ، قَالَ : لَا تَتَمَنَّوْهُ . فَلَعَلَّ عَدَمَهُ خَيْرٌ ، قَالَ :

والمقتضى للنوع كونه ذريعةً إلى التحاسد والتعادي مُعْرِبةً عن عَدَم الرضا بما قَسَمَ اللهُ له ، وأنه أشبهٌ لحصول الشيء له من غير طلب ، وهو منهوم لأن تَمَنَّى ما لم يُقَدَّر له معارضة لحكم القدر وتمنى ما قدر له بتغيير كسب ضائع ومحال ؛ وقد نعى الله في غير ما آية على أولئك الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ،

وفي الحديث : لا حسدَ إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آتاء الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله قرآنا فهو يتلوه ... قال الإمام الأزهرى : هو أن يتمنى الرجل أن يرزقه الله مالا يُنْفِقُ منه في سبيل الخير أو يتمنى أن يكون حافظاً لكتاب الله فيتلوه آتاء الليل وأطراف النهار ، ولا يتمنى أن يُرزأ صاحب المال في ماله أو تال القرآن في حفظه . وقال ثعلب : معناه ليس حسد لا يضر إلا في اثنتين ، أقول : ومعنى ذلك أن كل حسد ضار إلا في هاتين أى أن حسد صاحب المال ينفقه في سبيل الخير وحافظ القرآن يتلوه ، غير ضار ، لأن هذين على سبيل سواء يستحقان معه أن يُحسدا ، أى أن يُغبطا ...

وقال حكيم : الحسد من تعادى الطبائع واختلاف التركيب وفساد مزاج البلية وضعف عقْدِ العقل . والحاسد طويل الحسرات .

وقال حكيم : الحسد جرحٌ لا يبرأ ، وحَسْبُ الحسود ما يُلْقَى . وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم ، لِمَ تَحْسُدُ أخاك ؟ إن كان الله أعطاه لكرامته عليه ، فبِمَ تَحْسُدُ مَنْ أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فبِمَ تَحْسُدُ مَنْ وَصِيَهُ إلى النار أو في الأثر : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقل على بن أبى طالب : ما رأيت ظالما أشبهَ بظالم من الحاسد ، نفَس دائم ،

وعقل هائم، وحزن لازم، وقالوا: الحسود لا يسود... قال رَوْحُ بن زَبَاعِ الجُدَاجِيُّ: كنتُ أرى قوماً دُونِي فِي المَنْزِلَةِ عَنِ السَّاطَانِ يَدْخُلُونَ مَدَاخِلَ لَأَدْخُلَهَا، فَلَمَّا أَذْهَبْتُ عَنِ الحَسَدِ دَخَلْتُ حَيْثُ دَخَلُوا... وَقَالَ ابْنُ المِقْفَعِ: أَقْلٌ مَا لَتَارَكَ الحَسَدَ فِي تَرْكِهِ أَنْ يَصْرِفَ عَنِ نَفْسِهِ عَذَابًا لَيْسَ بِمُدْرِكٍ بِهِ حِطًّا وَلَا غَائِظَ بِهِ عَدْوًا، فَإِنَّمَا لَمْ تَرَ ظَلَمًا أَشْبَهَ بِمُظْلُومٍ مِنَ الحَاسِدِ، طُولُ أَسْفٍ، وَمُخَالَفَةُ كِتَابَةِ وَشِدَّةُ تَحْرِيقٍ، وَلَا يَبْرَحُ زَارِيَا عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ وَلَا يَجِدُ لَهَا مَزَالًا، وَيُكَدِّرُ عَلَى نَفْسِهِ مَا بِهِ مِنَ النِّعْمَةِ فَلَا يَجِدُ لَهَا طَعْمًا وَلَا يَزَالُ سَاخِطًا عَلَى مَنْ لَا يَبْرِضَاهُ وَمُتَسَخِّطًا لِمَا لَنْ يَبَالَ فَوْقَهُ، فَهُوَ مُنْعَصُ المَعِيشَةِ دَائِمُ السَّخَطِ مَحْرُومُ الطَّلِبَةِ، لِأَنَّهَا قِسْمٌ لَهُ يَقْتَضِعُ وَلَا عَلَى مَا لَمْ يُقْسَمَ لَهُ يَغْلِبُ؛ وَالحَسُودُ يَتَقَابُ فِي فَضْلِ اللَّهِ مُبَاشِرًا لِلشَّرِّ مُتَمَتِّعًا بِهِ مُهْمَلًا بِهِ إِلَى مُدَّةٍ وَلَا يَقْدِرُ النَّاسُ لَهَا عَلَى قَطْعٍ وَانْتِقَاصٍ... وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ نَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أُنَاحُ لِسَانِ حَسُودٍ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرَفِ العُودِ
لَوْلَا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَائِبِ لَمْ تَزَلْ لِلحَاسِدِ التُّعْمَى عَلَى الحَسُودِ
وَقَالَ البَحْرِيُّ:

وَلَنْ يَسْتَبِينَ الدَّهْرَ وَوَضَعَ نِعْمَةً إِذَا أَنْتَ لَمْ تُدَلِّلْ عَلَيْهَا بِحَاسِدٍ
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بنِ المَعْتِزِ:

أَصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الحُسُودِ دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

وَقَالَ ابْنُ المِقْفَعِ أَيْضًا: الحَسَدُ وَالْحِرْصُ دَعَامَتَا الذُّنُوبِ، فَالْحِرْصُ أَخْرَجَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الجَنَّةِ، وَالحَسَدُ نَقَلَ إبْلِيسَ مِنَ جِوَارِ اللَّهِ تَعَالَى

وقال الجاحظ: من العدل المحض والإنصاف الصريح - الخالص - أن
تَحُطَّ عن الحاسد نصف عقابه ، لأن ألم جسمه قد كفاك دُونَ شَطْر
غَيْظِكَ ؛ وللجاحظ رسالة مطولة في الحسد تراها في رسائله
وقيل للحسن البصرى : أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ ؟ قال : لا أَبَالِكَ ،
أَنْبَيْتَ إِخْوَةَ يَوْسُفَ ؟ وقالوا : الحسود غَضبانُ على القدر ، والقَدْرُ
لا يُعْتَبَرُ - أى لا يزال عَتْبُهُ : أى لا يرضيه - أخذ هذا المعنى منصور
الفيقيه فقال :

ألا قل لمن بات لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله إذا أنت لم ترض لي ما وهب
وقال معاوية : كل الناس يمكننى أن أَرْضِيَهُ ، إلا الحاسد الذى لا يردّه
إلى مودتى إلا زوالُ نعمتى . وقال المتنبى :

سِوَى وَجَعِ الْحَسَادِ دَارٍ فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحْوُلُ
وقال آخر :

كلُّ العداوةِ قد تُرْجى إِمَانَتُهَا إِلا عِدَارَةٌ مِنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ
ويقال : إذا أراد الله أن يسلط على عبده عدواً لا يَرْخُمُهُ سَلْطَ عَلَيْهِ
حاسداً ... وقال العُتْبِيُّ - وذكر وُلْدُ الَّذِينَ مَاتُوا - :

وحتى بكى لى حُسادهم وقد أترعوا بالدموع العيوننا
وحسبك من حادثٍ بامرئ يرى حاسديه له راحينا
وقالوا : مَنْ دَعَمَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى تَرْكِ الدُّنْيَا فَلْيَسْطُرْ : هلْ يَحْسُدُ أَحَدًا ، فَإِنْ
حَسَدًا كَانَ تَرْكُهُ عَجْزًا ، لِأَنَّهُ لَوْ زَهَدَ فِيهَا مَا حَسَدَ عَلَيْهَا
وقال البحرى :

مُسْتَرِيحُ الْأَحْسَادِ مِنْ كُلِّ ضَغْنٍ بَارِدُ الصَّدْرِ مِنْ غَلِيلِ الْحَسُودِ

وقيل لسفيان بن معاوية : ما أسرع حسدَ الناس إلى قومِكَ ا فقال :
 إنَّ العرانيين تلقاها مُحَسَّدَةً ولا ترى للشامِ الناسَ حَسَاداً (١)

وقال آخر :

وترى اللبيبَ مُحَسَّداً لم يجترِمِ شتمَ الرجالِ وعِزُّهُ مَشْتومُ
 حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالتقوا أعداءَهُ له وخصومُ
 كضرائرِ الحسناءِ قُلتن لوجهها حسدا وظلماً : إنه لديمُّ

وقال آخر :

إن تحسدوني فإني لا ألوهكم

قَبلي مِنَ الناسِ أهلُ الفضلِ قد حَسِدُوا

فدام لي ولهم مابى وما بهم وماتَ أكثرنا غيظاً بما يجحدُ
 أنا الذى تجِدُونى فى حلوقكمُ لا أرتقى صَدراً عنها ولا أَرِدُ (٢)

وخطب الحجاج يوماً برُسْتَقْبَازَ بقولِ سُوَيْدِ بنِ أبى كاهل - شاعر

جاهلى إسلامى - :

كيف يرجون سقاطى بعد ما جَلَّلَ الرأسِ بياضَ وصاعُ
 رَبِّ من أنصجتُ غيظاً صدره قد تمنى لى موتاً لم يُطعُ
 ويرانى كالشجأ فى حلقه عسيراً نخزجه ما يُستزغُ
 مُزبداً يخطُرُ ما لم يرنى فإذا أسمعته صوتى انقمعُ

(١) عرانيين القوم : سادتهم وأشرفهم . وأصل العرنيين الأنف حيث يكون فيه

الشم يقال : هم شم العرانيين

(٢) لا أرتقى صدرأ ولا أَرِدُ : أى فأنا كالشجى الدائم الذى لا منجاة لأعدائى منه

لم يَضُرَّنِي غيرَ أنْ يَحْسُدَنِي

فَهُوَ يَزُقُّوْهُ مِثْلَ مَا يَزُقُّوْهُ الضُّوْعُ (١)

وَيُحْيِيْنِي إِذَا لَاقَيْتُهُ وَإِذَا يَخْلُوْهُ لَهْ لِحْيٍ رَتَعُ

قَدْ كَفَانِي اللهُ مَا فِي نَفْسِهِ وَإِذَا مَا يَكْفِ شَيْئًا لَا يُضَعُ

وقال ابن الرومي لصاعد بن مخلد:

وَصِدِّ لَكُمْ لِزَالٍ يَسْفُلُ جَدُّهُ وَلَا بَرِحَتْ أَنْفَاسُهُ تَتَّصَعِدُ (٢)

يرى زَبْرِجَ الدُّنْيَا يُزْفُ إِلَيْكُمْ

وَيُغْضِي عَنْ اسْتِحْقَاقِكُمْ فَهُوَ يُفَادُ (٣)

ولو قاس باستحقاقكم ما منحتهم لأطفأ نارا في الحشا توقد

وآتق من عقد العقيلة جيدها وأحسن من سربالها المتجرد (٤)

وقال الأصمعي: رأيت أعرابيا قد أتت له مائة وعشرون سنة،

فقلت له: ما طول عمرك؟ فقال تركت الحسد فبقيت. وكانوا يقولون:

سِتَّةٌ لَا يَخْلُونَ مِنَ الْكُتَابَةِ: رَجُلٌ افْتَمَرَ بَعْدَ غَنَى، وَغَنِيٌ يَخَافُ عَلَى مَا فِي النَّوَى

— الهلاك والضياع — وحقود، وحسود، وطالب مرتبة لا يبلغها قدره

وخطايط الأدباء بغير أدب.

ومن ألفاظهم في وصف الحسد: قد دبت عقارب الحسد، وكمنت

(١) زقا الديك والطار ونحوهما: صاح، وكذلك الصبي إذا اشتد بكأوه، والضوع

طار من طير الليل إذا أحس بالصبح صدح

(٢) جدّه: حظه

(٣) يفاد: يحرق فؤاده

(٤) يقول: إن جيد العقيلة أجمل من العقد الذي يظن أنه يزينه، والمتجرد -

أي الجسم العريان - أجمل من السربال، وهو القميص

أَفَاعِيهِمْ بِكُلِّ مَرَصَدٍ : فَلَانَ قَدْ وَكَلَ بِي لِحَطًّا يَبْتَضِلُ بِأَسْهُمِ الْحَسَدِ ...

ومن وصاياهم في باب الحذر من الأعداء الحسد قول أعرابي يهبط رجلاً : وَيَحْتَكُ ، إن فلانا وإن ضحك إليك ، فإنه يضحك منك ، وإن أظهر الشفقة عليك ، إن عقابه لتسرى إليك ، فإن لم تتخذهُ عَدُوًّا فِي عَلَانِيَتِكَ فَلَا تَجْعَلْهُ صَدِيقًا فِي سِرِّيَتِكَ ...

وحذر بعض الحكماء صديقاً له صحبه رجل ، فقال : احذر فلاناً ، فإنه كثير المسألة ، حسن البحث ، لطيف الاستدراج يحفظ أول كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخرت بما قدمت ، فلا تظهرن له المخافة فيرى أنك قد تحررت . واعلم أن من يقظة الفطنة إظهار الغفلة مع شدة الحذر . فبأنه مباتة الآمن ، وتحفظ منه تحفظ الخائف . فإن البحث يظهر الخفي الباطن ، ويؤدي المستكن الكامن .

هذا ، وقد عقد الإمام الغزالي للحسد باباً زاخراً في كتابه الإحياء حال فيه على طريقته هذا الداء - داء الحسد - وبين أسبابه وأعراضه وعلاجه ولماذا كان شائعاً بين الأقران والإخوة والأقارب فارجع إليه إذا أردت التوسع في هذا الباب ، ولنختار منه هذه الحكاية الطريفة ، قال : كان رجل يغشى بعض الملوك ، فيقوم بحذاء الملك فيقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه ، فإن السوء سيكفيك إساءته ، فحسده رجل على هذا المقام ، وذلك الكلام ، فسعى به إلى الملك فقال : إن هذا الذي يقوم بحذاءك ويقول ما يقول ، زعم أن الملك أبخر ، فقال له الملك : وكيف يصح ذلك عندي ؟ قال تدعوه إليك ، فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر ، فقال له :

انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم ، فخرج الرجل من عنده ، وقام بخذاء الملك على عادته ، فقال : أحسن إلى المحسن بإحسانه فإن المسىء سيكفيك إساءته ، فقال له الملك : آذن مني ، فدنا منه ووضع يده على فيه ، مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم فقال الملك في نفسه : ما أرى فلاناً إلا قد صدق ، وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلّة ، فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عماله : إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه واسلخه وأحش جلدته تبنا وأبعث به إلى ، فأخذ الكتاب وخرج ، فلقى الرجل الذي سعى به فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : خط الملك لي بصلّة ، فقال : هبه لي ، فقال : هوك ، فأخذه ومضى إلى العامل ، فقال العامل : في كتابك : أن أذبحك وأسألك ، قال : إن الكتاب ليس هو لي ، فالله الله في أمرى حتى تراجع الملك ، فقال : ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسلخه وحشا جلدته تبنا وبعث به ، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته ، وقال مثل قوله ، فعجب الملك وقال : ما فعل الكتاب ؟ فقال : لقيني فلان فاستوهبه مني ، فوهبته له ، قال الملك : إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر ، قال : ما قلت ذلك ، قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم ، فكرهت أن تشمه ، قال : صدقت ، ارجع إلى مكانك فقه . كفى المسىء إساءته ... ومثل هذه الحكايات كثير ويصح أن توضع في باب السعاية والمسكر ، وعاقة الماكرين .

«وبعد» فإن ما نورده ههنا من عقرياتهم في الحسد والحقد وما إليهما إنما هو قليل من كثير تراه في باب الطبائع وإنما نورد ما نورد من هذه العقريات لستوفى باب العداوات ..

المزاح

ولأن المزاح في الكثير الأعم الأغلب مَدْرَجَةٌ البغضاء رأينا أن
نورد هنا صدرا من عبقرياتهم فيه .

قال الزبيدي شارح القاموس : المزاح : المباشطة إلى الغير على جهة
التأطف والاستعطاف دون أذية ، حتى يخرج الاستهزاء والسخرية . قال :
وقد قال الأئمة : الإكثارُ منه والخروجُ عن الحدِّ يُخلُّ بالمروءة والوقار ،
والتنزهُ عنه والتقبُّضُ يُخلُّ بالسنَّة .

ويقال : مزاح يمزحُ مَزْحًا ومزاحًا ومزاحًا ومزاحة ، وقد مازحهُ مَازَحَةً
ومزاحًا ، والاسمُ المَزاحُ بالضمِّ والمزاحةُ أيضا :

نهيهم عن المزاح

جاء في الأثر : إياك والمزاح فإنه يذهبُ بهنَاءِ المؤمنين ويُسَقِطُ
مُرُوَّةَ قَلْبِهِ وَيَجْعَلُ غَضَبَهُ .

وقالوا : المَزاحُ مجلبةٌ للبغضاء مَثَلَةٌ للبهَاءِ (١) : مَقْطَعَةٌ للإخاء .

وقالوا : المَزاحُ أولُه فَرحٌ وآخرُه تَرَحٌ ، وهو نَقَائِضُ السُّفَهَاءِ مِثْلُ
نَقَائِضِ الشُّعْرَاءِ . (٢)

وقالوا : لا تَمَازِحْ صَغِيرًا فَيَجْتَرِيَّ عَلَيْكَ ، وَلَا كَبِيرًا فَيَحْقِدَ عَلَيْكَ

(١) مثلبة : منقصة ومسبة

(٢) القبيضة في الشعر : ما ينقض به واجمع النقائض ومن ثم قالوا : نقائض
جرير والفرزدق ، وأصل النقص : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء ومنه المماقضة في
القول وهو أن ينقض الآخر ما قاله الأول

وقال مسعرُ بنُ كِدام لابنه :

ولقد حَبَّوْتُكَ يا كِدامُ نصيحتي فاستمع لِقَوْلِ أبِ عَليكَ شَفِيقِ
أما المِزاحَةُ والمِراءُ فدَعَهُما خُلُقانِ لِأَرْضاهُما إصْديقِ^(١)
ولقد بَلَوْتُهُما فلم أَحْمَدُهُما لِمُحاورِ جَارِ ولا لِرفِيقِ
وقالوا: المِزاحُ سِبابُ النَّوْكِ^(٢)

وقال عُمرُ بنُ عبدِ العَزيزِ: لا يَكونُ المِزاحُ إلا من سَخَفٍ أو بَطَرِ.

وقالوا: الغالبُ فيه واِترُ. والمِغلوبُ نائِرُ. وقال أبو نَواسِ:

رُبَّمَا اسْتَفْتِيحَ بِالْمِزْحِ مِغَالِيقُ الحِمامِ

حمدهم القصد في المزح

ومزاحُ الأمائل

جاء في الأثر: إني لأمزحُ ولا أقولُ إلا حقا ...

ومن مُزاحِه صلواتُ اللهُ مارُوى: أنَّ عِجوزاً من الأَنصارِ أتتهُ فقالت:

يا رسولَ اللهُ، ادْعُ لي بالمِغفرةِ، فقال: أما عَلِمْتِ أَنَّ الجَنَّةَ لا يَدْخُلُها

العَجائِزُ اِصْفَرَحَتْ، فبَسِمَ رسولُ اللهُ وقال: أما قَرَأْتِ القرآنَ؟ « إِنَّا

أَنشَأناهُنَّ إِنْشاءً فَجَعَلناهُنَّ أَبكاراً عَرُباً أَتراباً،^(٣)

وأَتَبَهُ أُخرى في حاجَةِ لِزَوجِها فقال لها: وَمَنْ زَوجُكِ؟ فقالت:

فلانُ، فقال لها: الذي في عَينِهِ بياضُ؟ فقالت: لا، فقال: بَلَى، فانصَرَفت

عَجلَى إلى زَوجِها، وجعلت تَأمَلُ عَينِيه، فقال لها: ماشَأُ نَكا؟ فقالت:

(١) المِراءُ: الجِدالُ وترى عَقبَياتِهم في المِراءِ في كتابِ العِلمِ والأَدبِ

(٢) الحَقِيقُ (٣) عَرَبٌ جَمعُ عَرُوبٍ وهى: المِراةُ الحِسانَةُ المُنجِيةُ إلى زَوجِها

المِطِيعَةُ لَه، أو العاشِقةُ، أو المِغْتَلَبَةُ، أو الغِنجَةُ. والأَترابُ: الأَمائلُ

أخبرني رسول الله أن في عينيك بياضا ، فقال : أما ترين بياض عيني
أكثر من سوادهما !

وقال صلوات الله عليه لُبْنَى كان لأبي طلحة الأنصاري ، وكان له
نُغْرٌ^(١) فمات : ما فعل النُّغَيْرُ يا أبا عمير ؟
وقالوا : الناس في سجين ما لم يتمازحوا .

وقال رجل لأبي عيينة . المزاح سبة ، فقال : بل سنة لعن يُحْسِنُهُ .

يا ساعتي في مجوني قد طببتُ فيك وطبتِ
إني إذا ضاقَ صدري قطعتُ بالسُّخْفِ ووقتي

وقال سعيد بن العاص لابنه : أقتصد في مزاحك فالإفراط فيه يذهب
البهاء ويُجَرِّئُ عليك السفهَاء ، وتركهُ يَقْبِضُ المَوَارِسِينَ وَيُوحِشُ المُخَالَطِينَ

نهيهم عن الغضب في المزاح

قال ابن سيرين : ليس من حُسنِ الخُلُقِ الغضب من المزاح

المدحوح بأن فيه الجِدُّ والهزل

قال شاعر :

أخو الجِدِّ إن جاددتَ أرضاكَ جِدُّه

وَدُو باطِلٍ إن شئتَ أهلكَ باطِلُهُ

وقال أبو تمام :

الجِدُّ شيمته وفيه فُكاهته سُجَّحٌ ولا جِدٌّ لمن لم يَلْمَبِ^(٢)

(١) النغر : البلب (٢) السجح : اللين السهل

عذر من يضحك وهو محزون

❖ وقد يَضْحَكُ الْمَوْتُورُ وَهُوَ حَزِينٌ ❖

وقال آخر :

وَرُبَّمَا ضَحِكَ الْمَكْرُوبُ مِنْ عَجِبِ السَّنِّ أَضْحَكَ وَالْأَحْشَاءُ تَضَطَّرِمُ

نهيهم عن كثرة الضحك

في الأثر : إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ فَإِنَّهَا تُمِيتُ الْقَلْبَ وَتُورِثُ الدَّسِيَانَ .
وفيه أيضاً : وَبِئْسَ الَّذِي يُحَدِّثُ فَيَسْكَذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ ،
وَبِئْسَ لَهُ ، وَبِئْسَ لَهُ .

وقال عمرُ بن الخطاب : مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ

وقال علي : إِذَا ضَحِكَ الْعَالِمُ ضَحِكَةً مَجَّ مِنَ الْعِلْمِ بَجَّةٌ .

وقالوا : كَثْرَةُ الضَّحِكِ تُورِثُ الرُّعُونَةَ .

وقيل لأبي العيَّان : فُلَانٌ يَضْحَكُ مِنْكَ أَفْقَالُ : إِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا

كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وهذا من الأجوبة المسكتة ، وكان

أبو العيَّان ذا نواذر .

إيراد جد في مسلك هزل

قال خالد بن صفوان : رَمَانِي بِأَصْلَبَ مِنَ الْجَنْدَلِ ، وَتَشَقَّقِي بِأَحْرَّ مِنَ

الْحُرْدَلِ ، ثُمَّ قَالَ إِنِّي أَمَازُحُكَ !

لي صاحب ليس يخلو لسانه من جراحی

يُجِدُّ تَمْرِيْقَ عِرْضِي عَلَى سَيْلِ الْمَزَاحِ

صدر من عبقرياتهم في الغيبة والنميمة

ولأن الغيبة والنميمة مدرجتان غالباً للعداء بادرنا بإيراد صدر من عبقرياتهم في هاتين الخلتين الذميتين .

حقيقة الغيبة والنميمة

الغَيْبَةُ الاسم من الاغتيال وهو : أن يتكلم خلفَ إنسانٍ مَسْتُورٍ بِسُوءٍ أو بما يُغْمُه لوسمته وإن كان فيه ، فإن كان صدقاً فهو غَيْبَةٌ وإن كان كذباً فهو البَهْتُ والبُهتان . كذلك جاء عن سيدنا رسول الله صلوات الله عليه . وقال بعضُ الفقهاء : الغَيْبَةُ : أن تذكرَ الإنسانَ بما فيه من العيب من غير أن تُخَوِّجَ إلى ذلك ، وفي هذا احترازٌ مما يقوله الشاهد عند الحاكم . والنميمة : نقلُ الحديث من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر ، ونَمَّ الحديثُ يَنْمُو وَيَنْمُو نَمًّا : نقله ، والاسم النميمة ؛ والنَّمْعُ : تمام ، ويقال للنمام : القمات يقال : قَتَّ : إذا مشى بالنميمة ، ويقال له : قَسَّاسٌ ودرّاجٌ وغمّازٌ وهمّازٌ وماؤسٌ وممّاسٌ .

ذمّ الغيبة والنميمة

قال الله جل شأنه : ولا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ نَمِيئًا فَكَرِهْتُمُوهُ . « قوله سبحانه : يُحِبُّ أَحَدُكُمْ ... الآية : تمثيلٌ وتصويرٌ لما يناله المعتاب من عرض المعتاب على أنظع وجه وأخفشه ، قال الإمام الزمخشري : وفيه مبالغات شتى : منها الاستنهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعلُ ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها إسنادُ الفعل إلى

أجدكم والإشعار بأن أحداً من الآخدين لا يجب ذلك ، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخصاً ، وحتى جعل الأخر ميتاً . قال قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها فأكره لحم أخيك وهو حي .

وفي الحديث : « إن الغيبة أشد من الزنا » قيل : كيف ذلك ؟ قال : « لأن الرجل يزني فيتوب ، فيتوب الله عليه ، وصاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه ، وفي الحديث المرفوع : أن امرأتين صامتا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فأخبر النبي بذلك فقال : صامتا عما أحلّ لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما . واغتاب رجل رجلاً عند قتيبة بن مسلم فقال قتيبة : أمسك أيها الرجل ، فوالله لقد تلبطت بمضغة طالما لفظها الكرام .

وقال علي بن الحسين رضي الله عنه : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب النار وهذا تمثيل جميل ، وقال الشاعر :

لا تهتك من مساوي الناس ما سترتوا فيهتك الله سترتاً من مساويك
وإذا كرت محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعيب أحداً منهم بما فيك

وقالوا : الغيبة مرمى اللثام وجهد العاجز .

وقال تعالى « هَمَزِ مَشَاءِ بِنِيمِمْ »

وقال سيدنا رسول الله : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يرَفَعَنَّ إلينا عورة أخيه المؤمن ... وقال صلى الله عليه وسلم : لا يَرَأِحُ القَتَاتِ رائحة الجنة . والقَتَاتِ : النمام ،

من سمحت نفسه بأن يكون في حلِّ

ومن لا تسمح نفسه

كان أبو الدرداء رضى الله عنه إذا خرج يقول : اللهم إني قد تصدقتُ
بِعِرْضِي عَلَى عِبَادِكَ .

وقال كُثَيْرُ عَزَّةَ :

هَيْتَا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءٍ مُخَايِرٍ لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
« خاتمه الداء : خالط جوفه ،

وقيل لرجل : فلانُ شَتَمَكَ وَاغْتَابَكَ ، فقال : هو في حلِّ . فقيل : أتَحِلُّ
مِنْ اغْتَابِكَ وَبِهِ يَثْقُلُ مِيزَانُكَ ؟ فقال : لِأَحِبِّ أَنْ أُثْقَلَ مِيزَانِي
بِأَوْزَارِ إِخْوَانِي .

وقال رجلٌ لابن سيرين : قَدْ نَاتُ دِنَكَ فَاجْعَلْنِي فِي حِلِّ ، فقال : لِأَحِلِّ
مَاحَرَمَ اللَّهِ عَلَيْكَ . أَمَا مَا كَانَ إِلَى فَهْوٍ لَكَ .

من قلت مبالاته بمن اغتابه

قيل للحكيم : فلانٌ يَشْتِمُكَ بِالْغَيْبِ ، فقال : لَوْ ضَرَبَنِي بِالسَّيْطِ فِي
الْغَيْبِ لَمْ أُبَالِ بِهِ .

وقال شاعر قديم وأنشده هذا الشعر لسيدنا رسول الله العلاء بن الحضرمي :
حَتَّى ذَوَى الْأَضْغَانِ نَسِبَ قُلُوبَهُمْ تَحِيَّتِكَ الْقُرْبَى فَقَدْ تُرْفِعُ النَّعْلُ
وَأِنْ دَخَسُوا بِالْشَّرِّ فَأَعْفُ تَكْرَمًا وَإِنْ خَلَسُوا عَنْكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسْلُ
فَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وَإِنَّ الَّذِي قَالُوا وَرَأَاكَ لَمْ يُقْلُ

«دحس بين القوم : أفسد بينهم ، وخذسوا : أخفروا ، يريد : إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه ، وقد تقدمت هذه الآيات
وقال المتوكلُ الخليفة العباسي لأبي العيناء : ما بقىَ أحدٌ إلا آغتابك ا
فقال :

إذا رَضَيْتُ عَنِّي كِرَامُ عَشِيرَتِي فلا زال غضباناً عليَّ لئامها
وقيل لرجلٍ : فلانٌ يَغتابك : فقال : دَعْنِي يَسْتَرْفَعْنِي اللهُ بِذَلِكَ ، فمن
أَكثَرَتِ النَّاسُ فِيهِ الْوَقِيعَةَ رَفَعَهُ اللهُ ، وإن بنى أُمَّةً مازالوا يَشْتُمُونَ عَلَيَّ
ابن أبي طالب ستمين سنة فلم يزدُه اللهُ إلا رِفْعَةً . وقيل لآخر ذلك فقال :
* ولم يَمَحُ من نورِ النبيِّ أبو جهل *
وقيل لآخر مثله فقال : لا ضيرَ ، إنه أراد أن يمتحنَ وُدِّي ...

ذم ناقص يَغتاب فاضلاً

قال المتنبي :

وإذا أمتك مَدَّمتي من ناقصٍ فهي الشهادة لي بأني كامل
وقبله يقول أبو تمام :

لقد آسف الأعداءَ فضلُ ابنِ يوسُفَ

وذو النَّقِصِ في الدنيا بِذِي الْفَضْلِ مُوَلِّعُ

وقبل أبي تمام يقول مروان بن أبي حفصة :

ما ضرَّني حسدُ اللّئيمِ ولم يزل ذو الفضلِ يحسده ذرُّو النَّقِصِ

وأصل هذا المعنى من قول الطَّرْمَاحِ بنِ حَكِيمٍ :

لقد زادني حباً لنفسي أني بغيضٌ إلى كلِّ امرئٍ غير طائِلِ

وَأَنْتَى شَقِيٌّ بِاللثَامِ وَلَا تَرَى شَقِيًّا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ الشَّمَائِلِ
وقد تقدم .

وقالوا : كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً وهو يقع في الصالحين .
وبلغ الأحنف بن قيس أن رجلاً يغتابه فقال : عُثَيْثَةٌ تَقْرُضُ جِلْدًا
أَمْلَسًا ... « عثيثة تصغير عثة وهي دويبة تلحس الثياب والصوف وأكثر
ما تكون في الصوف ، وهذا مثل قد يضرب للرجل يجتهد أن يؤثر في
الشيء فلا يقدر عليه »

وما يتصل بهذا قولهم :

✽ وما زالت الأشرافُ تُهَجَى وتُمدحُ ✽

✽ وإنما الغيبةُ تُلَقِّحُ الشَّرْفُ ✽ وقولهم :

من رمى غيره بعيه

من هذا قولهم : رَمَتْنِي بِدَائِيهَا وَأَنْسَلْتُ^(١)

وقولهم : عَيْرٌ بُجَيْرٌ بُجْرَةٌ وَنَيْسَى بُجَيْرٌ خَبْرَةٌ . ، قال المُفَضَّلُ الصَّبِي :
بُجَيْرٌ وَبُجْرَةٌ كَانَا أَخَوَيْنِ فِي الدَّهْرِ الْقَدِيمِ وَلَهَا قِصَّةٌ ذَكَرَهَا ، وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ
بُجَيْرٌ تَصْغِيرُ الْأَبْجَرِ وَهُوَ النَّاتِي السُّرَّةِ وَالْمَصْدَرُ : الْبُجْرُ فَالْمَعْنَى : أَنْ ذَا
بُجَيْرَةٍ فِي سُرَّتِهِ عَيْرٌ غَيْرُهُ بِمَا فِيهِ « وَقَوْلُ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ مَا مَعْنَاهُ : أُتْبِصِرُ
الْقَدَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَتَدَعِ الْجِدْعَ الْمُعْتَرِضَ فِي حَلْقِكَ ا

اغتياب المرء غيره يدل على عيبه

قولوا : مَنْ وَجَدْتُمُوهُ عَيَابًا وَجَدْتُمُوهُ مَعِيًّا ، لِأَنَّهُ يَعْيبُ النَّاسَ

(١) إذا أردت الوقوف على أصل هذا المثل فإلى أمثال الميداني

بفضل عَيْبِهِ . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :
 وَيَأْخُذُ عَيْبَ النَّاسِ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ مُرَادُ لَعْمَرِي مَا أَرَادَ قَرِيبُ
 وَقَالُوا : أَعْرَفَ النَّاسِ بُعَوَارِ النَّسَائِ الْمُعْوِرِ . « العُور : العيب ،
 والمُعْوِر : ذو العيب القبيح السريرة »

واعتاب رجل آخر عند بعض الأشراف ، فقال له : يا هذا ، أَوْحَشْتَنَا
 مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَيَّسْنَا مِنْ مَوَدَّتِكَ ؛ وَدَلَلْنَا عَلَى كَثْرَةِ عُيُوبِكَ بِمَا تَذَكَّرُ مِنْ
 عُيُوبِ النَّاسِ ، لِأَنَّ الطَّالِبَ لِلْعُيُوبِ إِنَّمَا يَطْلُبُهَا بِقَدْرِ مَا فِيهَا مِنْهَا
 وَقَالَ شَاعِرٌ :

وَأَجْرًا مِنْ رَأَيْتُ بَطَّهَرَ عَيْبٍ عَلَى عَيْبِ الرَّجَالِ ذُوو الْعُيُوبِ
 يَقُولُ : أَجْرًا النَّاسِ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ بَطَّهَرَ الْعَيْبِ هُمْ ذُوو الْعُيُوبِ ،
 وَالظَّهْرُ : مَا غَابَ عَنْكَ ،

ومما يذكر هنا قول بعض الحكماء : الأشرارُ يَتَّبِعُونَ مَسَاوِيئَ النَّاسِ
 وَيَتْرَكُونَ مَحَاسِنَهُمْ ، كَالذُّبَابِ يَتَّبِعُ الْمَوَاضِعَ الثَّمَالِدَةَ مِنَ الْجَسَدِ وَيَتْرَكُ
 الصَّحِيحَةَ .

تشهية الغيبة واستطابتها

قالوا في ذلك : الْغَيْبَةُ فَكُهَةُ النَّسَاكِ وَالْقُرَاءِ ...
 وَقَصَدَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ مُسْتَرْفِدًا ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ سُئِلَ ،
 فَقَالَ : مَتَعَنِي التَّلَذُّذُ بِالْغَيْبَةِ وَالشُّكُورَى .

وقال رجلٌ لبيته : إِذَا اجْتَمَعْتُمْ فَعَلَيْكُمْ حَدِيثَ أَنْفُسِكُمْ وَدَعُوا
 الْإِغْيَابَ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : نَحْنُ نَحْتَاجُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى كَذَا وَكَذَا ، وَنَفْعَلُ
 وَنُصْنَعُ كَذَا وَكَذَا ، فَقَدْ فَرَعْنَا مِنْ حَدِيثِنَا ، فِيمَاذَا نَشْتَغِلُ !

من اغتاب فاعتيب

قيل : مَنْ رَحَى النَّاسَ بِمَا فِيهِمْ رَمَوْهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ
 وقيل : بِمَحْثُكَ عَنِ عِيُوبِ النَّاسِ يَدْعُو إِلَى بِحْثِهِمْ عَنِ عِيُوبِكَ .
 وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَنَنِ وَالْبَاطِلِ
 وقال شاعر ظريف :

نَحَلَّكَ بِالسَّبِّ لَمَّا رَأَيْتَ أَدِيمَكَ صَحَّ وَمَنْ سَبَّ سُبَّ
 فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِيكَ مِنْ مَعَمَّرٍ سَلَكْنَا إِلَيْكَ طَرِيقَ السِّكِّدِيبِ

نهيهم عن الإصغاء إلى المغتاب

قالوا : إِذَا رَأَيْتَ مَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ فَاجْهَدْ جُهْدَكَ أَنْ لَا يَمْرِكَ ، فَأَشَقَّ
 النَّاسَ بِهِ مَعَارِفَهُ .

وقال عمرو بن عُيَيْدٍ لرجل يَسْتَمِعُ إِلَى آخِرِ يَغْتَابِ : وَيَلْكَ ، نَزَّهُ أذْنَكَ
 عَنِ اسْتِمَاعِ الْخَنَا كَمَا تَنْزُهُ لِسَانَكَ عَنِ التُّنْطُقِ بِهِ .
 وقالوا : * وَالسَّامِعُ الدَّائِمُ شَرِيكَ لَهُ *

وقال بعضُ الْمُتَنَوِّقَةِ : الرَّجُلُ يَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَأَخْشَى عَلَيْهِ بِذَلِكَ
 النَّارَ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَمِدُّ بِذَلِكَ الْغَيْبَةَ إِذَا سَمِعَهَا ...

الممدوح بصيانة مجلسه عن الغيبة

مَدَحَ بَعْضُهُمْ رَجُلًا فَقَالَ : يَنْزُهُ مَجَالِسَهُ عَنِ الْغَيْبَةِ وَمَسَامِعَهُ عَنِ النِّيمَةِ .
 وقال الشاعر :

إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ تَحْفَظُوا فَلَمْ تُنْطَقِ التَّوْرَاءُ وَهُوَ قَرِيبُ

« العوراء: الكلمة الفيحة »

حشهم على التثبت فيما يسمع من السعاية

وُشِيَ بِرَجُلٍ إِلَى بِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ ، فَلَمَّا أُتِيَ بِهِ قَالَ : قَدْ أَنَاكَ كِتَابٌ
 مِنَ اللَّهِ فِي أَمْرِنَا ، فَاعْمَلْ بِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا
 أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » ، وَقَالَ : صَدَقَتْ .
 وَأُبْلَغَ أَحَدُ الْمُلُوكِ عَنْ رَجُلٍ مِنْكَرًا ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ ، فَقَالَ : إِنْ قَتَلْتَنِي
 وَمَنْ سَعَى بِي كَاذِبٌ يَعْظُمُ وِزْرُكَ ، وَإِنْ تَرَكْتَنِي وَهُوَ صَادِقٌ قَلَّ وِزْرُكَ
 وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ مَا تَرِيدُ ، وَالْعَجَلَةُ مُوَكَّلٌ بِهَا الزَّلَلُ ، فَأَمَرَ بِإِبْقَائِهِ .
 وَقَالَ كَثِيرٌ عَزَّةً :

وإن جاءك الواشونَ عنى بكذبةٍ فروها ولم يأتوا لها بحويل (١)
 فلا تعجلى يا عَزَّ أن تتفهمني بنصح أنى الواشونَ أم بحبول (٢)

وقال عبدة بن الطبيب من أبيات يعظ فيها بنيه :

واعصوا الذى يزجى النمام بينكم متنصحا وهو السام المنقع (٣)
 يزجى عقاربه لبيعت بينكم حربا كما بعث العروق الأخدع (٤)
 حران لا يشفى غليل فؤاده غسل بماء في الإناء مشعشع (٥)

(١) فروها من الفرية ، والحويل : المحاولة

(٢) الحبول : الدواهي

(٣) يزجى : يسوق ، والسام : السم ، والمنقع : المرابي

(٤) الأخدع : عرق في العنق في موضع الحجامة

(٥) مشعشع : ممزوج

لا تأمنوا قوماً يشبُّ صديهم بين القبائل بالعداوة يُلشعُ (١)
 إن الذين تروؤنهم إخوانكم يشفي غليل صدورهم أن تُصدعوا (٢)
 فضلت عداوتهم على أحلامهم وأبت ضباب صدورهم لا تُنزع (٣)
 قوم إذا دمس الظلام عليهم هَدجوا قنأفد بالنميمة تمزع (٤)

وسعى رجل بالإمام الليث بن سعد إلى والى مصر ، فأحضره ، فقال
 الإمام : إن رأيت أن تسأله : أسراً أتممتته عليه خفاته ، أم كذب افتراه ؟
 والخائن والكاذب لا يُقبل قولها ...

ووثى واث إلى بعض الأمراء وقال : إن فلاناً هجأك ، فأحضره
 وأعلمه ، فقال الرجل : كلا ، فقال : أخبرني بذلك الثقة ، فقال : الثقة
 لا يكون تماماً .

وكان الفضل بن سهل الوزير يُبغض السعاة ، فإذا أتاه ساعٍ يقول :
 إن كنت صادقاً لم ينفعك ذلك عندنا ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن
 شئت أفلناك .

(١) ينشع من نشع فلان بكذا : أولع به

(٢) هذا البيت من شواهد المستد إليه في علم المعاني والشاهد فيه تنبيه المخاطب
 على الخطأ في ظنه ، إذ في قوله : إن الذين من التنبيه على الخطأ ما ليس في قولك
 إن القوم الفلانيين ، وتروئهم : تظنونهم

(٣) الضباب جمع ضب ، والمراد به : الغل الممعن في الصدر إمعان الضب
 في جحره

(٤) دمس الظلام : اشتدت ظلمته ، وهدجوا : مشوا مشية الشيوخ الراجفة
 المتقاربة الخطى ، وهو الهدجان برواية المفضليات : هدجوا اقال شارحها هدجوا :
 رحلوا : أراد : أنهم يسهرون بالنميمة والاحتتيال في الشر كما يسهر القنفذ لأنه يسير
 ولا ينام ليله أجمع ، وتمزع ، تسرع

وسأل رجل عبد الملك بن مروان الخَلْوَةَ ؛ فقال لأصحابه : إذا شتمتم^(١)
فلماً تهبأ الرجل للكلام قال له : إياك وأن تمدحني ، فإنني أعرفُ بنفسى منك
أو تكذبتني فإنه لا رأى ليكذوب ، أو تسعَى بأحدٍ إليّ ، وإن شئت
أن أقيلك أقبلتكَ ، قال : أظنني :

وَوَشَى إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ وَاشٍ فِي أَحَدِ الْكُتَابِ ، فَوَقَعَ :

أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَيِّكُمْ

مِنَ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا^(٢)

وقال الواثق لأحمد بن أبي دواد القاضي : مازال القوم في ثلبك إلى
الساعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لكل امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم ،
والله وليُّ جزائه ، وعقابك من ورائه ، فما الذي قلتَ لهم ؟ قال :
قلت :

وَسَعَى إِلَى بَصْرَمَ عَزَّةَ نِسْوَةً جَعَلَ الْمَلِيكَ يُحْدِثُ عَنْهَا نَعَالَهَا^(٣)

صعوبة التخلص من اغتياب الناس

سأل بعض الأنبياء ربّه عز وجل أن يدفع عنه ألسنة الناس فلا
يغتابوه ، فقال عز وجل : هذه خصلةٌ لم أجعلها لنفسى فكيف
أجعلها لك !

وقالوا : ليس إلى السلامة من ألسنة الناس سبيل . فانظر إلى ما فيه
صلاحك فالزمه .

(١) تلك كانت عادته إذا أراد انصراف أصحابه يقول : إذا شتمتم

(٢) للحطبة

(٣) لكنير عزة

وقال شاعر :

إذا كنت ملجياً مسيناً ومُحْسِنًا فغَشِيَانُ مَاتِهِوَى مِنَ الْأَمْرِ أَكْبَسُ
« ملجياً : لومياً ، ومسيناً ومحسناً : حالان ،

ذم ناقلِ الغيبة

قالوا : من بلغك فقد شتمك . وفي هذا المعنى يقول شاعر :

لعمرك ما سبَّ الأميرَ عدُوهُ ولكنَّما سبَّ الأميرَ المُبلِّغُ
وقيل لحكيم : فلان عابك بكذا ، فقال : لقد رأيتك تفحنتني بما
استحى الرجلُ من استقبالِ به .

الموصوف بالنيمة

قال سبحانه : (وَلَا تَطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ شَاءَ بَنِيمٍ)
وقال بعضهم لآخر : فلانُ نَمَّ بكَ ، فقال : إن فلاناً لو كان بينك
وبين الله واسطة لَسَعَى بِكَ إِلَيْهِ .

وقال السري الرفاه :

أثمَّ بما استودعتهُ من زُجاجةٍ ترى الشيء فيها ظاهراً وهو باطنُ
وقال العباس بن الأحنف :

أناسٌ أمِنَّاهم فتمُّوا حديثنا فلما كتمنا السر عنهم تقوَّلوا

من اغتاب غيره فرآه

اغتاب أعرابي رجلاً ، فالتفت فرآه ، فقال لو كان خيراً ما حضرته .

من لا يحرم اغتيابه

قال الحسن البصرى : لا غيبة في ثلاثة : فاسقٍ مجاهر ، وإمامٍ جائر ،
وصاحب بدعة .

حتمهم على التحرز

بما يقتضى الغيبة

قال الحسن البصرى : من دخل مداخِلَ التُّهْمَةِ لم يكن له أجرُ الغيبة .
وقالوا : من عرَّضَ نفسه للتُّهْمَةِ فلا يلومنَّ مَنْ أساءَ به الظنَّ
واغتابه .

الباب السادس

في التواضع والكبر

وما إليهما

ولما كان التواضعُ مجلبةً للدودة ، والكبرُ مَذْرَجَةً العداء ، حتى قال بعضهم — وقد قيل له : ما التواضع ؟ فقال : اكتساب المودّة ، فقيل : ما الكبر ؟ فقال : اكتساب البغض — لما كان ذلك كذلك ألحَقْنَا عبقرياتهم فيهما بباب الحلم وما إليه .

حدّ التواضع والكبر

التواضع فضيلة بين الضّعة والكبر ، قال الراغب : التواضع مُشْتَقٌّ من الضّعة وهو : رضا الإنسان بمنزلةٍ دون ما يستحقه فَضْلُهُ ومنزِلَتُهُ ، وهو فضيلة لا تكاد تظهر في أفناء الناس ، لانحطاطِ درجاتهم ، وإنما يتّبينُ ذلك في الملوّك وأجلاء الناس وعلماهم . وهو من باب التفضّل ، لانه يتركُ بعض حقّه ، قال : وهو بين الكبر والضّعة : فالضّعة : وضعُ الإنسان نفسه بمحلّ يُزري به ، والكبر : وضعُ نفسه فوق قدره ، أو هو : ظنُّ الإنسان أنه أكبر من غيره ، والتكبر : إظهار ذلك . وهذه صفةٌ لا يستحقّها إلا الله عز وجل ، ومن ادعاها من المخلوقين فهو فيها كاذب ، وكذلك صارَ مدحاً في البارئ تعالى ، وذمّاً في البشر ، وإنما شرفُ المخلوق في إظهار العبودية كما قال تعالى : لن يُسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله

ولا الملائكة المقربون ، تنسبها على أن ذلك لهم رفعة لا ضعة : قال : والتكبر يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية ، ومن الكبر الامتناع عن قبول الحق ، وأقبح كبر ما كان معه بُخل ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : **تخصّتان لا يجتمعان في مؤمن : الكبر والبخل ، واستحسن قول الشاعر :**

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما نفس الملوك وأخلاق المماليك

ومن تكبر لرياسة نالها دل على دناءة عنصره ، ومن تكبر لتقديته جهل أن ذلك ظل زائل وعارية مُستردة ، ومن تفكّر في ذاته فعرف مبدأه ومُنتهاه وأواسطه عرف نفسه وروض كبره ، وقد نبّه الله على ذلك بقوله : (**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الثَّوَابِ وَالتَّرَائِبِ**) (١) ، وقال : (**قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ**) ، وقال : (**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ**) (٢) ، ثم قال : **وأما العزة فهي : الترفع بالنفس عما ياحقه منه غضاضة ، والعزة منزلة شريفة ، وهي نتيجة معرفة الإنسان بقدر نفسه وإكرامها عن الضراعة للأعراض الدنيوية ، قال الله تعالى : (والله العزة ورسوله والمؤمنين) ، وفي الحديث : « لا ينبغي المؤمن أن يُذكَ نفسه » ولذا قالوا : التكبر على الأغنياء تواضع ، تنبها على أن هذا التكبر عزة**

(١) الترائب موضع الفلادة من الصدر ، وقيل : الترائب : أربع أضلاع من يمنة الصدر وأربع من يسره وقال الفراء : يعني صلب الرجل - العظم من لدن الكاهل إلى العجب - وترائب المرأة

(٢) الامشاج : الاخلط : ماء الرجل وماء المرأة أو النطفة

نفسٍ ، وقال ابن مسعود : من خضع لغنيٍّ فوضع نفسه عنده طمعاً فيه ذهبٌ ثلثا دينه وشَطْرُ مُرُوَّتِهِ . أقول ولهذا باب سيمر عليك .

حَثُّهُمْ عَلَى التَّوَاضُعِ

قال سيدنا رسول الله : « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مُنْقَصَةٍ ، وَذَلَّ فِي نَفْسِهِ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ . » في غير منقصة : بأن لا يضع نفسه بمكان يُزرى به ، ويُؤدى إلى تضييع حقِّ الحقِّ — الله سبحانه — أو الخلق ، فإن القصد بالتواضع خفضُ الجناحِ للثومين مع بقاء عزة الدين . روى أن رجلاً مر على عمر وقد تخشع وتذللَّ وبالغ في ذلك ، فقال عمر : ألسْتَ مُسْلِمًا ؟ قال بلى ، قال : فارْفَعْ رَأْسَكَ وَاْمُدِّ عُنُقَكَ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ عَزِيزٌ مَنِيعٌ ؛ أما كلمة طوبى فللعلماء فيها كلام كثير فمن ذلك قول بعضهم : طوبى : اسم الجنة بالهندية ، قال الصاغاني : فعلى هذا يكون أصلها توبى ، بالتاء ، فإنه ليس في كلام العرب طاء ، وقال قتادة : طوبى كلمة عربية تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ؛ قالوا : ومعنى طوبى لفلان : الحسنَى والخير له . وكان رسول الله صلى عليه وسلم مثلاً أعلى للتواضع ، قال أبو أمامة رضى الله عنه : خرج علينا رسول الله مُتَّكئاً على عصا ، فقمنا له ، فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجمُ يُعَظَّمُ بعضهم بعضاً ، وقال : إنما أنا عبدٌ آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد^(١) وكان صلوات الله عليه يركب الحمار ويُردف خلفه ،

(١) اختلف العلماء في القيام للتنظيم المعتاد ، فقيل : مكروه استدلالاً بهذا الحديث ونظائره ، وذهب بعضهم إلى حرمة وقال بعض الأئمة : إنه مستحب لأهل العلم والصلاح

ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم ، حينما انتهى به المجلسُ جلس... ومن حديث عمر عنه صلى الله عليه وسلم : لا تُظُرُونِي كَمَا أَطَرَّتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ^(١) ، إنما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبدُ الله ورسوله .

وعن عائشة رضى الله عنها : أنه صلوات الله عليه كان في مَهْنَةِ أهله - خدمتهم - يَفْقَى ثوبه ، وَيَحْبِبُ شاتِه ، وَيَرَقَعُ ثوبه ، وَيَخِصِفُ نعلَه ؛ وَيُقِمُّ البيت - يَكْنِسُه وَيَزِيلُ قِمامته - وَيَخْدُمُ نفسه ، ويعقل البعير - يربطه من رجله بالعقال - ويملف ناصحه - الجمل الذى يُسْتَقَى عليه الماء - ويأكل مع الخادم ، وَيَعِجُنُ معها ، ويحمل بضاعته فى السوق . وأخباره فى تواضعه صلوات الله عليه كثيرة متوافرة تراها فى كتب الشائيل والحديث .

وفى المثل : تَوَاضَعُ الرَّجُلُ فى مرتبته ذَبًّا للشَّمامة عند سَقَطَتِهِ .

وقال عروة بن الزبير : التواضع أحد مصائد الشرف ، وفى لفظ :

«سَلَّمَ الشرف»

وقال عبد الله بن المعتز : مُتَوَاضِعُ العُلَمَاءِ أَكْثَرُهُمُ عِلْمًا ، كما أن المكان

المنخفض أكثر الأماكن ماءً .

وللحكام العدول ، بل قد يجب إذا خشى من تركه ضرر كجباية الملوك ، ويستحب لمن قدم من سفر ولذوى الأرحام تكريماً لهم وبراً بهم ، والمنهى عنه إنما هو ما كان على سبيل الرياء والتكبر ، وإنما ناهم صلوات الله عليه لئلا يظنوه سنة

(١) الاطراء : مجاوزة الحد فى المدح والكذب فيه وبذلك فسر الحديث وفى

معنى الحديث قال ابو بصيرى :

دَعَّ مَا دَعَّتْهُ النَّصَارَى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وقالوا: من وضع نفسه دون قدره رفعه الناس فوق قدره، ومن رفعها عن حده وضعه الناس دون قدره.

وقال جعفر بن محمد: رأس الخير التواضع، فقيل له: وما التواضع؟ فقال أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تُسَلِّمَ على من لقيت، وأن تترك المراءَ وإن كنت مُحِقًّا، وأن تكره الرياءَ والسُّمعةَ.

وقالوا: التواضع نعمة لا يَفْطِنُ لها الخالِد.

وقالوا: التواضع كالوَهْدَةِ يَجْتَمِعُ فيها قَطْرُها وقَطْرُ غيرها.

وقال عمر: أريدُ رجلاً إذا كان في القومِ وهو أميرُهم كان كبعضهم، فإذا لم يكن أميراً فكانَ له أميرُهم.

وقال رضى الله عنه حين نظر إلى بض السراة مُبْتَدِلاً لأصحابه: هذا رَجُلٌ يَفِرُّ من الشرف والشرف يَتَّبِعُهُ.

وقد مدح الشعراء المتواضعين فن ذلك قول أبي تمام:

مُتَبَدِّلٌ في القومِ وهو مُبَجَّلٌ مُتَوَاضِعٌ في الحى وهو مُعْظَمٌ

وقال آخر:

مُتَوَاضِعٌ والنُّبُلُ يَحْرُسُ قَدْرَهُ وَأخو النَّبَادَةِ بالنَّبَاهَةِ يَنْبُلُ

وقال البحتري:

دَنَوَتْ تَوَاضِعاً وَعَلَوَتْ بَجْدًا فَشَأْنَاكَ انْحِدَارٌ وَارْتِفَاعٌ

كَذَلِكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى وَيَدْنُو الضَّوُّ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ

وقال أبو محمد التيمي:

تَوَاضِعٌ لِمَا زَادَهُ اللهُ رِفْعَةً وَكُلُّ رَفِيعٍ قَدْرُهُ مُتَوَاضِعٌ

وقال أبو بكر الخوارزمي :
عَجِبْتُ لَهُ لَمْ يَلْبَسِ الْكِبَرَ حُلَّةً وَفِينَا إِذَا جُرْنَا عَلَى بَابِهِ كِبَرُ

ذمهم التكبر

قال الله تعالى : إنه لا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ . وقال سبحانه : كَذَلِكَ نَطْبَعُ
عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مَتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ . وقال : فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها
فإنسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ . وقال : سأصريف عن آياتي الذين يتكبرون في
الأرض بغير الحق .

ودخل الفضل بن يحيى ذات يوم على أبيه وهو يتبخر في مشيته ، فقال له
يحيى : يا أبا عبد الله ، إن البخل والجهل مع التواضع ، أزين بالرجل من
الكبر مع السخاء والعلم ، فيالها من حسنة غطت على عيين عظيمين ، ويالها
من سيئة غطت على حسنتين كبيرتين ، ثم أوما إليه بالجلوس وقال : احفظه
يا أبا عبد الله فإنه أدب كبير أخذناه عن العلماء ...

وهذا كما قال حكيم : وَجَدْنَا التَّوَّاضِعَ مَعَ السَّخَاةِ وَالبُخْلِ أَحْمَدَ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ
مِنَ الْكِبَرِ مَعَ الْإِدْبِ وَالسَّخَاةِ ، فَأَنْبِلُ بِحَسَنَةِ غَطَّتْ سَيِّئَتَيْنِ ، وَأَقْبِحُ
بَسِيئَةِ غَطَّتْ عَلَى حَسَنَتَيْنِ !

وقال علي بن أبي طالب : عَجِبْتُ لِلتَّكْبَرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نَظْفَةً
وهو غداً جيفة . وقال بعض الشعراء :

يَأْمُظْهَرُ الْكِبَرُ إِعْجَابًا بِصُورَتِهِ أَنْظُرْ خَلَاءَكَ إِنْ النَّتْنِ تَشْرِيبُ
لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيمَا فِي بُطُونِهِمْ مَا اسْتَشْفَرَ الْكِبَرُ شُبَابًا وَلَا شَيْبُ
هَلْ فِي ابْنِ آدَمَ غَيْرَ الرَّأْسِ مَكْرَمَةٌ وَهُوَ بِخَمْسٍ مِنَ الْأَفْئِدَةِ تَشْرِيبُ

أَنْفٌ يَسِيلُ وَأُذُنٌ رِيحُهَا سَهْلٌ وَالْعَيْنُ مُرْدَصَةٌ وَالشَّعْرُ مَلْعُوبٌ
 يَابِنُ الشَّرَابِ وَمَا كَوْلُ التَّرَابِ غَدًا أَقْصِرُ بِإِنَّكَ مَا كَوْلٌ وَمَشْرُوبٌ
 وَقَالُوا : دَعِ التَّكْبِيرَ ، فَتَى كُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّبْلِ لَمْ يَبْضُرَكَ التَّبْدُلُ ، وَمَتَى
 لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ لَمْ يَنْفَعَكَ النَّبْلُ .

بعض دواعي التكبر

قال المأمون : ما تكبر أحدٌ إلا لِنَقْصِ وَجَدِهِ فِي نَفْسِهِ .
 وقال حكيم : ما تعاطم أحدٌ على مَنْ دونه إلا تصاغر لمن فوقه
 وقالوا : مائةٌ إلا وضيع ، ولا فآخرٌ إلا سقيط ، ولا تعظم إلا
 لقيط . « السقيط : الأحمق الناقص العقل ، واللقيط : الطفل الذي يوجد
 مرمياً على الطرق لا يُعرَف أبوه ولا أمه ،

وقال يحيى بن خالد بن برمك : لَئِستَ تَرَى أَحَدًا تَكْبَرُ فِي إِمَارَتِهِ
 إِلَّا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ الَّذِي نَالَ هُوَ فَوْقَ قَدْرِهِ ، وَلِستَ تَرَى أَحَدًا يَضَعُ
 نَفْسَهُ فِي إِمَارَةٍ إِلَّا وَهُوَ فِي نَفْسِهِ أَكْثَرُ مِمَّا نَالَ .

وقيل لبعضهم : فلانٌ غَيْرَتُهُ الإِمَارَةُ فَقَالَ : إِذَا وَلى الرَّجُلُ
 وِلَايَةً فَرَأَاهَا أَكْثَرَ مِنْهُ تَغْيِيرًا ، وَإِذَا وَلى وِلَايَةً يَرَى أَنَّهُ أَكْثَرُ مِنْهَا
 لَمْ يَتَغَيَّرْ .

وقالوا : مَنْ نَالَ مَنزِلَةً فَأَبْطَرَتْهُ دَلَّ عَلَى رِداةِ أَصْلِهِ وَعُغْضِرِهِ .

وقال بعض المتصوفة : اللثام إذا تمّولوا استظالوا ، وإذا افتقروا تواضعوا
 والكرام إذا تمّولوا تواضعوا ، وإذا افتقروا استظالوا .

وقال الجاحظ من كلمة له : والكبر في الأجناس الذليلة أرسخ ، ولكن

القِلَّةَ والذلةَ مانعتان من ظهور كِبَرِهِمْ ، وَمَنْ قَدَرَ مِنَ الوَضْعَاءِ أَدْنَى قَدْرَةَ
ظَهَرَ مِنْ كِبَرِهِ مَا لَا خِفَاءَ بِهِ ، وَلَمْ أَرَ ذَا كِبَرٍ قَطُّ عِلًّا مِنْ دُونِهِ إِلَّا وَهُوَ
يَبْذُلُ لِمَنْ فَوْقَهُ بِمَقْدَارِ ذَلِكَ وَوِزْنِهِ ...

متكبر ذنى أو فقير

قالوا: أبغض الناس ذو عُسْرٍ يَخْطُرُ فِي رِءَاءِ كِبَرٍ .
ومن قولهم في ذلك: أَنْفٌ فِي السَّمَاءِ وَأَسْتُ فِي الْمَاءِ

مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه

وذمهم الصلف

وبعض نوادر المزهوين

قال علي بن أبي طالب: لَنْ يَهْلِكَ أَمْرٌ عَرَفَ قَدْرَهُ .
وقال المتنبي:

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى
وقال سيدنا رسول الله: ثَلَاثٌ مَهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوَى مُتَّبَعٌ،
وإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ .

وقالوا: عَجِبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ .

وقال أعرابي لرجل مهجَّبٍ بنفسه: يَسْرُنِي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ النَّاسِ مِثْلَكَ
فِي نَفْسِكَ ، وَعِنْدَ نَفْسِي مِثْلَكَ عِنْدَ النَّاسِ ...

وكان رجل يسمى أبا ثَوَابَةَ أَقْبَحَ النَّاسِ كِبَرًا ، مِمَّنَّا فِي الصَّلْفِ ،
رَوَى أَنَّهُ قَالَ لِغُلَامِهِ: آسِقِنِي مَاءً ، فَقَالَ: نَعَمْ ، قَالَ: إِنَّمَا يَقُولُ «نَعَمْ»

من يقدر على أن يقول «لا»، وأمر بضربه... ودعا أكاراً فكلمه ، فلما فرغ دعا بماء وتمضمض ، استنذاراً لمخاطبته ...

ومن المعجبين بأنفسهم المغالين في العزة وإن كان إلى ذلك من الشخصيات الضخمة الكريمة النبيلة المحترمة عمارة بن حمزة^(١)، روى: أنه دخل على المهدي الخليفة العباسي ، فلما استقر به الجلوس ، قام رجلٌ كان المهدي قد أعد له لتهيئتهم به ، فقال : مظلومٌ يا أمير المؤمنين قال : من ظلمك ؟ قال : عُمارة غَصَبَتِي ضَيْعَتِي ، وذكر ضيعةً من أحسن ضياع عُمارة وأكبرها خراجاً ، فقال المهدي لعُمارة : قُمْ فَاجْلِسْ مع خَصْمِكَ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما هو لي بخَصْمٍ ، إن كانت الضيعةُ له ، فلستُ أنازعه فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له ، ولا أقوم من مجلسٍ شرفني به أمير المؤمنين ، فلما انصرف المجلس سأل عُمارة عن صفة الرجل ، وما كان لبأسه ، وأين كان موضعُ جلوسه ... وكان من تيهه أنه إذا أخطأ يمر على خطئه ، تكبراً عن الرجوع ويقول : نقض وإبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ...

ومن المفرطين في التكبر رجل يسمى عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، قال له رجل من قومه وقد رأى منه ما أعجبه : كثرَ اللهُ فينا مثلك ، فقال : لقد كلفتمُ اللهُ شَطَطاً ...

وهناك من نوادر المتكبرين المستطرفة ما لا يتسع له معجمنا هذا .

(١) ترجم له ياقوت في معجم الادباء ترجمة وافية

معتذر لعجبه وعزته

قيل لإياس بن معاوية^(١) : ما فيك عيب غير أنك مُعَجَّبٌ ، فقال :
 « يُعْجِبُكُمْ مَا أَقُولُ ؟ » قالوا : نعم ، فقال : فأنا أحقُّ أن أُعْجَبَ به ...
 وقال بعض المعجبين :

يقولون : ذو كِبَرٍ ولو خُصَّ بعضهم ببعضِ خِصَالِي ما استفاق من الكبر
 وقال رجل لبعض المزهَّوين : ما أعظمك في نفسك ! فقال : لست
 بعظيم ؛ ولكنني عزيز ، لقوله تعالى : ولله العزةُ ولرسوله وللؤمنين . وفي
 هذا المعنى يقول بعضهم :

وما أنا مَزْهُوٌّ ولكنني فتى أَبَتْ لِي نَفْسٌ حُرَّةٌ أَنْ أُذِيَلَهَا
 « أذيلها : أهينها » وهذا من قبيل قول القائل :
 وَأَكْرِمُ نَفْسِي أَنْي إِنْ أَهْنَتْهَا وَحَقِّكَ لَمْ تَكْرُمْ عَلَى أَحَدٍ بَعْدِي
 ولمثل هذا المعنى باب ساستوعب عقرياتهم فيه .

التكبر على ذوى الكبر

سئل الحسن البصرى عن التواضع ، فقال : هو التكبر على الأغنياء
 « يريد : الترفع وعدم التذلل لهم طمعاً في مالهم أو جاههم »
 وأنشد المبرد :

إِذَا تَاهَ الصَّدِيقُ عَلَيْكَ كَبْرًا فَتَهْ كَبْرًا عَلَى ذَاكَ الصَّدِيقِ

(١) الذى يضرب به المثل فى الذكاء والفتنة ، ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء
 البصرة ، ترجم له ابن خلكان .

فإنجابُ الحقوقِ إغيرِ راعٍ حُقُوقَكَ رأسُ تضييعِ الحقوقِ
وقال الأصمعي : قال رجل : ما رأيت ذا كبرٍ قط إلا تحول داؤه
في . « يريد : أنى أتكبر عليه » ، وقال آخر : ما ناه أحدٌ قط على مرتين
« يريد : أنه إذا تاه مرة لم أعاوده وتركته وأعرضت عنه »
وقال عدى بن أرطاة وهو أمير لوكيع بن الأسود : سوَّ على ثيابي ،
فقال : * ذكُرْتُني الطعنَ وكنْتُ ناسياً ^(١) في خَفِي ضَيْقِ فُلَيْمِدَةَ الأَمِيرِ حَتَّى
أَنْزِعَهُ ، فقال له عدى : إن الجليسَ لَيَبِي من جليسه أكثر من هذا ، فقال
يا عدى ، إذا عُرِيتَ عَنَّا فَكَلِّفْنَا أَكْثَرَ من هذا ، أمَّا وأنت ترى لك علينا
بسطة فلا ...

ذمهم الإفراط في التواضع

قالوا : مِنَ التَّوَّاضِعِ مَا يَضَعُ .
وقال عبد الله بن المقفع : الإفراط في التواضع يوجب المذلة ، والإفراط في
المؤانسة يوجب المهانة .

حمد تعظيم الكبار

قَدِمَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمِ الْمِنْقَرِيّ سَيِّدَ أَهْلِ الْوَبْرِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

(١) قال الميداني - وأورده في أمثاله - : أصله أن رجلاً حمل على رجل ليقته ،
وكان في يد المحمول عليه رمح : فأنساه الدهش والجزع ما في يده ، فقال له الحامل :
ألقى الرمح ، فقال الآخر . وأن معي رمحاً لا أشعر به؟ ذكرتني الطعن ... المثل وحمل
على صاحبه فطعنه حتى قتله . يضرب في تذكّر الشيء بغيره .

وسلم ، فبسط له رداءه ، ثم قال : إذا أناكم كريم قوم فأكرموه .
 ورُوِيَ أن مجوسياً دخل على رسول الله . فأخرج صلوات الله عليه
 من تحته وسادةً حَشُوها ليف ، وطرحها له ، وأقبل عليه يحدثه ، فلما نهض
 قال عمر : إنه مجوسى فقال عليه الصلاة والسلام : قد علمت ، واكن
 جبريل . يا مرنى أن أكرم كل كريم قوم إذا أتى ، وهذا سيد قومه .
 وركب زيد بن ثابت رضى الله عنه ^(١) ، فدنا منه عبد الله بن عباس
 يأخذ بركابه ، فقال : ما تفعل يا ابن عم رسول الله ؟ فقال . هكذا أمرنا
 أن نفعل بأمرائنا ^(٢) ، فقال زيد : أرني يدك ، فأخذها وقبلها ، وقال : هكذا
 ررنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

(١) هو الصحابي العالم الجليل ، كاتب الوحي ، وجامع القرآن في عهد أبي بكر
 وقال فيه أبو بكر : إنك شاب عاقل لا تهتك ، وكان أحد فقهاء الصحابة الجلة
 الفراض - علماء المواريث - مات في عهد مروان بن الحكم
 (٢) ورد أن النبي صلوات الله عليه ، سلم زيد بن ثابت الراية في إحدى الغزوات
 وأمره على الجيس فيها

الباب السابع

في الشجاعة وعبقرياتهم فيها

وفي الصبر في القتال

وسائر ما يتصل بالحرب

ودونك ما وقع عليه الاختيارُ من عبقرياتهم في الشجاعة والصبر في الحروب، وسائر ما ينعطف على هذه المعاني وينشعب به القول فيما وأنت فقد علمت مما أسلفنا عليك في باب الصبر أن الشجاعة لون من ألوانه . ومن ثم أردفنا القول على الأبواب السابقة — وهي جميعاً من ألوان الصبر — بالقول على الشجاعة وما إليها .

حقيقة الشجاعة

قالوا : الشجاعة : فضيلةٌ بين التهور والجبن .

وفي الأثر : الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده .

وسُئِلَ بعضهم عن الشجاعة فقال : جِسْلَةُ نَفْسٍ أَبِيَّة .

وقيل لبعضهم : ما الشجاعة ؟ فقال : صبر ساعة .

وقال بعض المجرّبين : الرجال ثلاثة : فارس ، وشجاع ، وبطل ؛ فالفارس

الذي يَشُدُّ إذا شَدُّوا ، والشجاع : الداعي إلى البرّاز والمُجِيب داعيَهُ ،

والبطل : الحامى يُظهور القوم إذا ولّوا ...

ويروى أن زياد بن أبيه كتب إلى ابن عباس : أن صِف لي الشجاعة والجن
والجود والبُخل ، فكتب إليه : كتبت تسألني عن طبائع رُكبت في
الإنسان تركيب الجوارح ، اعلم أن الشجاع يقاتلُ عمن لا يعرفه ، والجان
يَفِرُّ عن عِرْسِه — زوجه — وأن الجواد يُعطي من لا يلزمه وأن البخيل
يُمسك عن نفسه .

الأسباب المشجعة

قال الجاحظ : الأسباب المشجعة قد تكون عن الغضب ، والشراب^(١)
والهوج^(٢) ، والغيرة ، والحمية ، وقد تكون مرقوة النَفج^(٣) وحب
الأحدوثه ؛ وربما كان طبعاً ، كطبع الرحيم ، والسخي ، والبخيل ، والجزوع
والصبور ؛ وربما كان للدين ، ولكن لا يباغ الرجل للدين مالم يُشيعه
بعض ما تقدم ، لأن الدين يُجَلَّبُ مَكْتَسَبٌ ، ولا يكاد يباغ الطبيعة .
وقالوا : لا يصدق القتال إلا ثلاثة : مُتَدِينٌ ، وَغَيْرَانٌ ، وَمَتَعِضٌ
من ذل .

(١) المراد : الخمر

(٢) الهوج : الطيش والحق والتسرع

(٣) النَفج : افتخار المرء بما ليس فيه .

حُثُّهُمْ عَلَى الثَّبَاتِ وَالْإِقْدَامِ

وَنَهَيْهِمْ عَنِ الْإِحْجَامِ وَالْفَسْكَ فِي الْعَوَاقِبِ

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا
فَلَا تُؤَاوِمُوا الْآدِبَارَ) ... « زحفاً حال من الذين كفروا ، والزحف :
الجيء الكثير الذي يُرَى لِكَثْرَتِهِ كَأَنَّهُ يَزْحَفُ ، : أَيْ يَدِبُّ دَيْبِيًّا ،
مِنْ زَحَفَ الصَّبِي : إِذَا دَبَّ عَلَى آسْتِهِ قَلِيلًا قَلِيلًا ؛ سُمِّيَ بِالمصدر ، والجمع :
زُحُوفٌ ، والمعنى : إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ لِلْقِتَالِ وَهُمْ كَثِيرٌ مُتَوَافِرُونَ وَأَنْتُمْ قَلِيلٌ
فَلَا تَفِرُّوا ، فضلاً أَنْ تُدَاوِمُوا فِي العَدَدِ ، أَوْ تُسَاوِمُوا » ... وقال سبحانه :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ
تُفَاجِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) ... « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً : إِذَا حَارَبْتُمْ جَمَاعَةً ،
فَاثْبُتُوا : لَا تَفِرُّوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا : اذْكُرُوهُ سُبْحَانَهُ فِي مَوَاطِنِ
الْحَرْبِ ، مُسْتَظْهِرِينَ بِذِكْرِهِ مُتَرَقِّبِينَ لِنُصْرِهِ ، وَفِي هَذَا إِشْعَارٌ بِأَنَّ عَلَى
الْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَفْتُرَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ أَشْغَلَ مَا يَكُونُ قَلْبًا وَأَكْثَرَ مَا يَكُونُ
هَمًّا ، وَأَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ مُجْتَمِعَةً لِذَلِكَ وَإِنْ كَانَتْ مُتَوَزَّعَةً عَنْ غَيْرِهِ ، وَفِشَلٌ
يَفْشَلُ : ضَعْفٌ وَجَبُنٌ وَذَهَبَتْ قُوَاهُ ؛ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : إِذَا اخْتَلَفْتُمْ
ضَعُفْتُمْ وَإِذَا اتَّفَقْتُمْ كُتِمَ أَقْوِيَاهُ ، وَالرِّيحُ : الدَّوْلَةُ ، سُبِّهَتْ فِي نَفْوَذِ أَمْرِهَا
وَتَمَثَّلَتْ بِالرِّيحِ وَهَبِهَا ، وَمَنْ ذَا يَقَالُ : هَبَّتْ رِيحُ فُلَانٍ : إِذَا دَالَتْ لَهُ
الدَّوْلَةُ وَنَفَذَ أَمْرَهُ »

وقال أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة :

أَحْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ تُوَهِّبْ لَكَ الْحَيَاةَ .

وقالوا : من فَكَّرَ فِي الْعَوَاقِبِ لَمْ يَشْجَعْ .

وقالوا : السَّلَامَةُ فِي الْإِقْدَامِ ، وَالْحَمَامُ فِي الْإِحْجَامِ .

وتقول العرب : الشَّجَاعُ مَوْتِي . وَأَيُّ تَنْهَيْبِهِ الْأَقْرَانُ فَيَتَحَامَوْنَهُ

فَيَكُونُ ذَلِكَ وَفَايَةً لَهُ «

وَأَسْتَشِيرَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ فِي حَرْبٍ أَرَادُوهَا فَمَقَالَ : أَقِلُّوا الْخِلَافَ

لَا مَرَاتِنَكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ كَثْرَةَ الصَّيَاحِ مِنَ الْفُشْلِ ، وَالْمَرَّةُ يَعْجِزُ لِاحْوَالِهِ (١)

وَأَدْرِعُوا اللَّيْلَ فَإِنَّهُ أَخْفَى لِلرَّيْلِ .

وقال هانئ بن مسعود الشيباني يرمي ذي قار يُحَذِّرُ قَوْمَهُ : إِنْ الْخِذَرَ

لَا يُنْجِي مِنَ الْقَدْرِ ، وَالصَّبْرُ مِنَ أَسْبَابِ الظُّفْرِ ، وَالْمَنِيَّةُ وَاللَّدِينِيَّةُ ، وَاسْتِقْبَالُ الْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ اسْتِدْبَارِهِ ، وَالطَّعْنَ فِي نُفَرِ النُّحُورِ أَكْرَمُ مِنْهُ فِي الْأَعْجَازِ وَالظُّهُورِ ، وَهَالِكٌ مُعْذَرٌ خَيْرٌ مِنْ نَاجٍ فَرُورٌ ...

وقال أبو مسلم الخراساني لبعض قواده : إِذَا عَرَضَ لَكَ أَمْرٌ نَازِعٌ

فِيهِ مَنَازِعَانِ ، أَحَدُهُمَا يَبْعَثُ عَلَى الْإِقْدَامِ وَالْآخَرُ عَلَى الْإِحْجَامِ ، فَاقْدُمْ ، فَإِنَّهُ أَدْرَكَ النَّارَ ، وَأَنْفَى لِلْعَارِ .

وقالت الخنساء :

نُهِنَ النُّفُوسَ وَهَوَّنَ النَّفُوسَ فِي يَوْمِ الْكَرْبَةِ أَوْقَى لَهَا

وقيل للمهلب بن أبي صفرة : إِنَّكَ كَلْتَلِقِي نَفْسَكَ فِي الْمَهَالِكِ ، فَقَالَ :

إِنْ لَمْ آتِ الْمَوْتَ مُسْتَرِيلاً ، أَتَانِي مُسْتَعْجِلاً ، إِنْ لَسْتُ آتَى الْمَوْتَ مِنْ

(١) مثل معناه : لَا تَضِيقِ الْحَيْلَ وَمَخَارِجَ الْأُمُورِ إِلَّا عَلَى الْعَاجِزِ ، وَالْحَالَةِ :

حُبِّهِ وَإِنَّمَا آتَيْهِ مِنْ بُغْضِهِ ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْحَصِينِ بْنِ الْحَمَامِ الْمُرِّيِّ (١) :
تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أُجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ
« وَهِيَ آيَاتٌ مَشْهُورَةٌ يَقُولُ فِيهَا :

فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كَلُومُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدَّمَا

نُقَلِّقُ هَامًا مِنْ رِجَالِ أَعِزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَى وَأَظْلَمَا

« وَمَعْنَى تَأَخَّرْتُ ... أَلْبَيْتِ : لَمَّا تَأَخَّرْتُ طَمَعْتُ فِي الْعَدُوِّ ، وَظَنَنْتِي

جَبَانًا فَاجْتَرَأْتُ عَلَيَّ ، لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَطْمَعُ فِي الْجَبَانِ ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ الْقَتْلَ

إِلَى الْجَبَانِ أَسْرَعَ ، فَتَقَدَّمْتُ ، فَكَانَ التَّقَدُّمُ أَنْجَى لِي ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ

الْمَعْنَى : أَحْبَبْتُ مُسْتَبْقِيًا لِحَيَاتِي ، فَلَمْ أُجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً كَمَا يَكُونُ فِي الْإِقْدَامِ

وَذَلِكَ أَنَّ الْأُحْدُوثَةَ الْجَمِيلَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّقَدُّمِ لَا بِالتَّأَخُّرِ . وَمَعْنَى فَلَسْنَا

عَلَى الْأَعْقَابِ ... أَلْبَيْتِ : نَحْنُ لَا نُؤَلِّي فَنُجْرَحَ فِي ظَهْرِنَا فَتَقْطُرَ دِمَاؤُنَا

عَلَى أَعْقَابِنَا ، وَلَسْنَا نَسْتَقْبِلُ السِّيفَ بِوُجُوهِنَا ، فَإِنَّ أَصَابَتَنَا جِرَاحٌ

تَقْرَتُ دِمَاؤُنَا عَلَى أَقْدَامِنَا ، وَقَوْلُهُ نَقَلْنَا هَامًا ... أَلْبَيْتِ فَالْهَامُ جَمْعُ هَامَةٍ ،

وَهِيَ : الرَّأْسُ يَقُولُ : نُشَقُّقُ هَامَاتٍ مِنْ رِجَالِ يَكْرُمُونَ عَلَيْنَا ، لِأَنَّهُمْ مَنَا

وَهُمْ كَانُوا أَسْبَقَ إِلَى الْعُقُوقِ : وَيُقَالُ : عَقَّ الرَّحْمُ كَمَا يَقَالُ : قَطَعَهَا .

وَقَالَ الْكَلْبَجِيُّ الْيَرْبُوعِيُّ — شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ — :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَغْشِ الْكِرْبِيَّةَ أَوْشَكَتْ جِبَالُ الْهُوَينِي بِالْفَتَى أَنْ تَقَطَّعَا

« الْغَشْيَانُ : الْإِتْيَانُ ، وَالْكِربِيَّةُ . الْحَرْبُ ، وَقِيلَ : شِدَّتْهَا ، وَقِيلَ

النَّازِلَةُ وَأَوْشَكَتْ : قَارَبَتْ وَدَنَتْ ، وَالْجِبَالُ جَمْعُ جَبَلٍ ، بِمَعْنَى : السَّبَبِ ،

اسْتَعِيرَ لِكُلِّ شَيْءٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَالهُوَينِي : الْخَفِضُ وَالرَّاحَةُ

(١) شاعر فارس جاهلي كان يقال له : مانع الضمير

والباء في بالفتى : للمصاحبة فيكون حالا ، أو بمعنى عن فيتعلمن بها بعدما
 وجاز لأنه ظرف ، وتقطعا بحذف إحدى التاءين والفاعل ضمير جبال ،
 وقوله : بالفتى فقد كان يجب أن يقول بدل الفتى : به ، أو : بالمرء واسكنه
 عدل عن المضمر والمظهر إلى انظ آخر لأنه أشبه المضمّر ، وقال ابن
 رشيقي : قوله بالفتى حشو وكان الواجب أن يقول : به لأنّ ذكر المرء قد
 تقدم ، إلا أن يريد بالفتى معنى الزراية والأطنوزة — السُّخْرِيَّة — فإنه
 محتمل . وهذا تحيّلٌ دقيق من ابن رشيقي ،

المبادر إلى الحرب غير مبال بها

قال البُحْتَرِيُّ :

تسرّع حتى قال مَنْ شَهِدَ الْوَعْيَ لِقَاءِ أَعَادِ أُمَّ لِقَاءِ حَبَائِبِ

وقالوا : أشجعُ بيتِ قالته العرب قول العباس بن مرداس :

أشدُّ على الكَتِيبَةِ لأبالي أحتنني كان فيها أم سواها

ووصف أعرابيٌّ قومًا فقال : ما سألوا قطُّ كم القومُ ؟ وإنما يسألون :

أين هم ؟

وسأل رجلٌ يزيد بنَ المهَلَبِ فقال : صف لي نفسك ، فقال : ما بارزت

أحدًا إلا ظننتُ أن رُوْحَهُ في يدي ...

ولما بلغ قَتَيْبَةُ بنُ مُسلمٍ حدود الصين قيل له : قد أوغلت في بلاد

الترُّك ، والحوادثُ بين أجنحة الدهر تُقبِلُ وتُدبِرُ ، فقال : بثقتي بنصر

الله أوغلتُ ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العُدَّة ، فقال الرجل : أسألك حيث

شدت ، فهذا عزمٌ لا يفُسلُهُ إلا الله ...

حث من دعى إلى المبارزة على الإجابة

قال علي بن أبي طالب لبعض بنيه : لا تَدْعُونَ أَحَدًا إِلَى الْمُبَارَاةِ ،
وَلَا يُدْعَوَنَّكَ أَحَدٌ إِلَّا أَجَبْتَهُ ، فَالدَّاعِيَ بَاغٌ ، وَالْبَاغِي مَصْرُوعٌ .

وقال طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : مَنْ فَتَى ؟ خِلْتُ أَنِّي

عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ (١)

وقال بَشَّامَةُ بْنُ حَزْنِ النَّهْشَلِيِّ - شاعر إسلامي - :

إِنَّا لَمِنْ مَعْشَرٍ أَقْنَى أَوَائِلَهُمْ قَوْلُ السَّكَاةِ : أَلَا ابْنَ الْمُحَامُونَا ؟
لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعَا مَنْ فَارِسُ خَالِهِمْ إِيَّاهُ يَعْنُونَا

المنازل وقت المنازلة

قال زهير بن أبي سُلي من قصيدة يمدح هَرِمًا :

لَيْتَ بِي بَشَّرَ يَصْطَاذُ اللَّيْثِ إِذَا

مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا

يَطْفَعُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا آطَمْتُنَا

ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا أَعْتَمَتْنَا

« عَمَّرَ : ، وضع باليمن ، وقيل : مأسدة بناحية تبالة . وقوله : كَذَّبَ

أَي لَمْ يَصْدُقَ الْحَمَلَةَ ، يُقَالُ : كَذَّبَ الرَّجُلُ عَنْ كُنَا : إِذَا رَجَعَ عَنْهُ ،

(١) من تعلقاته ، يقول : إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : مَنْ فَتَى يَكْفِي مَهْمَا أُوْدِفِعَ شَرًّا ؟ خِلْتُ

أَنِّي الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ ، فَلَمْ أَكْسَلْ فِي كِفَايَةِ الْمَهْمِ وَدَفَعْتُ الشَّرَّ ، وَلَمْ أَتَبَلَّدْ فِيهِمَا

يقول : إذا رجح الشجاع عن قرنه ولم يَصْدُقِ الحيلة عليه فهذا الممدوح يَصْدُقُهَا . واعتق : التزم قرنه ، يقول : إذ ارتمى الناس في الحرب بالنبل دَخَلَ هو تحت الرمي فجملَ يُطَاعُهُمْ ، فإذا تطاعنوا ضاربَ بالسيف ، فإذا تضاربوا بالسيوف اعتقنَ قرنه والتزمه ، أى أنه يزيد عليهم في كلِّ حالٍ من أحوالِ الحرب »

صدرٌ من عبقرياتهم في الصبر

من أحسن ما قيل في الصبر يوم اللقاء قولُ نَهْشَلِ بْنِ حَرْمِ بْنِ ضَمْرَةَ (١) :

ويوم كان المصطلين بحيره - وإن لم تكن نارٌ - قيامٌ على الجمر
صبرنا له حتى يبوخ وإنما تفرج أيام الكريمة بالصبر
« باخت الحرب والنار تبوخ بوخا وبووخا وبوخا : سكنت وقرت
وكذلك الحر والغضب والحوى »
وقال من لا أذكر اسمه :

بكي صاحبي لما رأى الموت فوقنا مُطِلاً كإطلال السحاب إذا اكفهر
فقلت له : لا تبك عينك إنما يكونُ غداً حُسنُ الشاء لمن صبر
فا آخر الإحجام يوماً ممجلاً ولا تجل الإقدام ما آخر القدر

(١) شاعر شريف مشهور من المخضرمين بقى إلى أيام معاوية وكان مع علي في حروبه ، وأبوه شاعر شريف وجده ضمرة ضخم الشرف وكان من خير بني دارم ، دخل على النعمان بن المنذر فقال له : من أنت ؟ قال : أنا حمزة ، قال النعمان : تسمع بالمعدي لا أن تراه فقال : أبيت اللعن ، إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان وإن قاتل قاتل بجنان الخ .

فَأَسَى عَلَى حَالٍ يَقِلُّ بِهَا الْأَسَى
وَكَرَّ حِفَاطًا خَشِيَّةَ الْعَارِ بَعْدَمَا
وَقَالَ قَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ: (١)

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شِعَاعًا
فِيَّانَكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ
وَمَنْ لَا يُعْتَبِطُ بِسَأْمٍ وَيَهْرَمُ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ

« أقول لها ، أى للنفس ، والشعاع : المتفرق ، وهذا مثل ، ومعناه المبالغة
في الفزع ، ولن تراعى من الروح ، وهو : الفزع . يذُكَّرُ تشبيعه نفسه
وتعريفه إياها — بعد ما استشعرت الفزع — أن الأجل مُقَدَّرٌ وأن الزيادة
لا تلحقه كما بين ذلك في البيت التالي . وأخو الخنع : الذليل ، والخنوع :
الذلة ، ولا يكاد الخنوع يُسْتَعْمَلُ إلا في ذلة في غير موضعها ، واليراع :
القصة التي لا جوف لها ، والرجل الجبان لا قلب له ؛ فكأنه لا جوف له ،
فوضع اليراع مكان الجبان ، لأنه بمعناه . والاعتباط : الموت من غير علة
يقول : مَنْ لَمْ يَمُتْ شَابًّا مَاتَ هَرَمًا ، وبسأم : أى بسأم ما يعتره من تكاليف

(١) فارس شاعر مشهور ، وشخصية ضخمة في الإسلام ، كان رأساً من رؤس
الخوارج ، وسلم عليه بالخلافة ثلاث عشرة سنة .

الحياة ولا بُدَّ أن تُسَلِّمَهُ المَوتُ يوماً إلى الانقطاع، أى لا بد في النهاية من الموت ،

وقال عمرو بن الإطنابة - شاعر جاهلي ، والإطنابة : أمه - :

أَبَتْ لِي عِفِّي وَأَبِي بِلَاقِي وَأَخَذِي الحَدَّ بِالشَّمَنِ الرِّيحِ (١)
 وإِقْدَامِي عَلَى المَكْرُوهِ نَفْسِي وَضَرَبِي هَامَةَ البَطْلِ المَشِيحِ (٢)
 وَقَوْلِي كَلِمَا جَشَّاتُ وَجَاشَتْ مَكَانَكَ تُحَمِّدِي أَوْ تُسْتَرِيحِي (٣)
 لِأدْفَعُ عَن مَآزِرِ صَالِحَاتٍ وَأُحْيِي بَعْدُ عَن عَرِضِ صَحِيحِ-

يروى أن معاوية قال : اجتمعوا الشعرَ أكبرَ همِّكم وأكثرَ آدابكم فإن فيه مآزٍ أسلافكم ومواضع إرشادكم ، فلقد رأيتني ليلة الحرير وقد عزمتُ على الفرار فاردني لإقول ابن الإطنابة ، وأنشد الآيات .

وقيل لبعض بني المهلب : بهمَ نلتُم ما نلتُم ؟ قال : بصبر ساعة

(١) بلائِي : بأسِي في الحروب ، واستعار الثمن لما يبذله في المكارم على طريق التصريح ، والريح الزائد منه

(٢) وإِقْدَامِي يروى : وإِجْشَامِي ، ويروى بدل هذا السطر

• وإِعْطَانِي عَلَى الإِعْدَامِ مَالِي •

والهامية : الرأس ، والمشيح : المبادر المنكش الجاد في القتال ،

(٣) وَقَوْلِي كَلِمَا جَشَّاتُ وَجَاشَتْ يروى • وَقَوْلِي كَلِمَا جَشَّاتُ لِنَفْسِي •

وهي رواية جيدة ومعنى : جَشَّاتُ وَجَاشَتْ : كلما تطلعت ونهضت جزعا وفرعا وعن بعضهم : جَاشَتْ نَفْسُهُ : غَشَّتْ أَوْ دَارَتْ لِلغَيْثَانِ : فإن أردت أنها ارتفعت من حزن أو فزع قلت جَشَّاتُ . ومكانك اسم فعل أى : الزمى يانفس مكانك يحمدك الناس أن ظفرت أو تستريحى إن مت

الخُدعة والحيلة والتحرز في الحرب

قال سيدنا رسول الله : (الحرب خدعة) « خُدعة وُخْدعة ، والفتح أفصح ، وِخْدعة مثل هُمزة ، قال علماءنا : ورُويت عن النبي صلى الله عليه وسلم : خُدعة ، ومعناها : من خُدِعَ فيها خُدعة فزاتُ قدومه وعطب فليس لها إقالة ؛ قال ابن الأثير : وِخْدعة . أفصح الروايات وأصحها ، ومن قال خُدعة أراد . هي تُخدع ، كما يقال : رجلٌ لَعْمَةٌ : يُلَعَنُ كثيراً ، وإذا خُدِعَ أحدُ الفريقين صاحبهُ في الحرب فكأنما خُدِعت : ومن قال : خُدعة أراد أنها تُخدع أهلها ، كما قال عمرو بن معديكرب ^(١)

الحربُ أولَ ما تكونُ فتيّةٌ تسعى بزيمتها لكل جهول
حتى إذا استعرت وشبَّ ضرامها

عادت عجوزا غيرَ ذاتِ خليلٍ

شمطاء جرتُ رأسها وتسكرت مكرودةً للشَّم والتقبيل
وقالوا : إذا لم تغيب فأخلب « أي إذا أعيك الأمرُ بغالبه فاطلبه
تخادعة » .

وقال بعضهم : كُنْ بجيالك أوثقَ منك بشدتك ، وبحدرك أفرح
منك بتجدتك ، فإن الحرب حربٌ للمتهور وغنيمةٌ للمتحدّر
وقالوا : حازمٌ في الحرب خيرٌ من ألف فارس ، لأن الفارسَ يقتلُ
عشرة وعشرين ، والحازم قد يقتلُ جيشاً بحزبه وتدييره .

(١) هو الفارس المشهور صاحب الغارات والوفائع في الجاهلية والإسلام وهو صحابى رضى الله عنه .

وقالوا : القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصالٌ من أخلاق الحيوان :
شجاعة الديك ، وتحنن الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان
الثعلب ، وتختل الذئب ، وجمع الذرة ، وبكور الغراب .

وقال المهلب بن أبي صفرة لبيده : عليكم في الحرب بالمكيدة فإنها
أبلغ من النجدة ... وسئل بعض أهل التمرس بالحروب : أى المكاييد
فيها أحزم ؟ فقال : إذكاء العيون ، — بث الجواسيس — وإفشاء الغلبة
واستطلاع الاخبار ، وإظهار السرور ، وإماتة الفرق — الخوف —
والاحتراس من البطانة ، من غير إقصاء المستنصح ولا استنصاح
لمستغش ، وإشغال الناس عما هم فيه من الحروب بغيره .

وكان مالك بن عبد الله الحنمى وهو على الصافية — الجماعة تُقام
وتُصَف للحرب — يقوم في الناس — إذا أراد أن يرحل — فيحمد الله
ويثنى عليه ، ثم يقول : لئن دأرت بالعداة درب كذا ؛ فيتفرق الجواسيس
عنه بذلك ، فإذا أصبح سلك بالناس طريقاً غيرها ، فكانت الروم تُسميه :
الثعلب ...

وقال حكيم : اللطف في الحيلة ، أجدى للوسيلة .

وقالوا : من لم يتأمل الامر بعين عقله لم يقع سيف حياته إلا على مقاتله
والثبث يُسهل طريق الرأي إلى الإصابة ، والعجلة تضمن العثرة .
«وبعد» فإن هذا الباب متسع جداً ، ومن أحب التوسع فيه والوقوف
على أخبارهم في المكاييد ، وأساليبهم العجيبة فيها فعلية بالموسوعات — مثل
نهاية الأرب للنويرى ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وبكتب التاريخ ،
فتلك مجالاتها .

ما ينبغي أن يتصف به

أمرأء الجيوش

من أجود ما قيل فيما ينبغي أن يتصف به أمرأء الجيوش قول لقيط ابن يعمر الإيادي - وهو شاعر جاهلي قديم مُقَلِّدٌ - كان كاتباً في ديوان كسرى سابور بن هرمز الملقب بندي الأكتاف - وكانت إياد غلبوا على سواد العراق ، وقتلوا من كان به من الفرس ، فلما بلغ خبرهم سابور أجمع على غزو إياد فكتب إليهم لقيط قصيدة ينذر قومه غزو سابور إيام ، فوقع الكتاب بيد كسرى فقطع لسان لقيط وغزا إيادا وهي قصيدة جيدة جداً يقول فيها :

أبلغ إياداً وخللٌ في سراتهم
 إنو أرى الرأي إن لم أعص قد نصعاً^(١)
 يالھف نفسي إن كانت أموركم
 شتى وأحكيم أمر الناس فاجتمعا
 إنني أراكم وأرضاً تُعجبون بها
 مثل السفينة تغشى الوعث والطبما^(٢)
 ألا تخافون قوماً لا أبالكم
 أمسوا إليكم كأمثال الدبا سرعاً^(٣)

(١) خلل في سراتهم : خصص يقال : خلل في دعائه ، أي خصص ، قال :

كانك لم تسمع ولم تك شاهداً
 غذاة دعي الداعي فعم وخطلا
 والسراة جمع سري ، وقيل : اسم جمع والجمع سرواء وأسرياء . وهم الأشراف أولوا
 المروءة ، ونصعاً : وضع من نصع اللون نصوعاً ونصاعة : اشتد يياضه

(٢) الوعث من الرمل : ما غابت فيه قوائم الدواب . والطبع في الأصل : ما يغشى
 السيف من الصدا ، استعاره لما يعلو الماء من الغناء والزبد ، شبه سرورهم وهم
 بأرضهم غير مفكرين فيما يحوطها وفيما يحفظها من العدو بالسفينة تغشى - وهي سائرة -
 ما يمنع حركتها ويصد جريتها

(٣) الدبي : الجراد قبل أن يطير : وسرعاً : مصدر سماعي لسرع سراعته وسرعة :

أبناء قوم تآيؤكم على حنق لا يشعرون أضل الله أم نفعا^(١)
أحرار فارس أبناء الملوك لهم من الجوع جموع تزدهي القلعا^(٢)
إلى أن يقول :

خزر عيونهم كأن لاحظهم حريق غاب ترى منه السنأ قطعاً^(٣)
لا الحرث يشغلهم بل لا يرون لهم من دون ييضتكم ريباً ولا شبعاً^(٤)
وأتم تحرثون الأرض عن سفه في كل معتمل تبغون مزرعا^(٥)
وتلبسون ثياب الأمن ضاحية لا تفزعون وهذا الليث قد جمعا^(٦)

إذا عجل ، يريد : أمنوا مسرعين

(١) تآيؤكم : تعمدوكم وقصدوكم ، يقال : تآيته بوزن تفاعلته ، وتآيته - بالتشديد - إذا تعمدت آيته ، وآيته : شخصه .

(٢) تزدهي : تستخف ، وقد زهاه زهواً وازدهاه : استخفه وتهاون به . والقلع جمع قلعة - بالتحريك - : صخرة عظيمة صعبة المرتقى تتقلع عن الجبل

(٣) خزر عيونهم من الخزر - بالتحريك - وهو : ضيق الجفون لتحديد النظر ، والغاب جمع غابة وهي . أجمة القصب أو ذات الشجر المتكاثف ، سميت بذلك لأنها تغيب من فيها ، والسنأ : ضوء النار ولمعان البرق

(٤) ييضتكم : مجتمعكم وموضع عزمكم ، على المثل بيضة الدجاجة إذا سلمت سلم ما فيها من طعم أو فرخ ، وفي الحديث : ولا تسلط عليهم عدواً فيستبيح ييضتهم ، يريد : موضع سلطانهم ومستقر عزمهم ، واستباحتها : استنصاحها

(٥) معتمل : موضع اعتمال ، وهو أن يعمل الرجل لنفسه كاختدم إذا خدم نفسه وأنشدوا :

إن الكريم وأبيك يعتمل إن لم يجد يوماً على من يتكل
و أراد من يتكل عليه لحذف عليه هذه وزاد على متقدمة أي أنه يعتمل إن لم يجد
من يتكل عليه

(٦) ضاحية : علانية

مالي أراكم نيباءاً في بلهنيةٍ وقد ترون شهابَ الحربِ قد سَطَمَا (١)
 فأشفوا غليلي برأيٍ منكم حصيدٍ يُصيحُ نَوَادِي له رِيَانٌ قد نَقَمَا (٢)
 ولا تكونوا كمن قد باتَ مُكْتَنِعَا إذا يُقَالُ له : افرُجْ نَعْمَةً كُنَعَمَا (٣)
 يسعى ويحسبُ أنَّ المَالَ مُخْلِدُهُ إذا استفادَ طريقاً زادَه طَمَعَا (٤)
 فاقنوا جِيَادِكُمْ وَاَحْمُوا ذِمَارَكُم

واستشعروا الصبرَ لا تستشعروا الجزعا (٥)

إلى أن قال :

لَا تُنَاهِكُمْ لِإِبِلٍ لَيْسَتْ لَكُمْ لِإِبِلٍ إِنَّ الْعَدُوَّ يَعْظُمُ مِنْكُمْ قَرَعَا (٦)
 لَا تُشْمِرُوا الْمَالَ الْأَعْدَاءِ لَهُمْ إِنَّ يَظْهَرُوا يَحْتَوُونَكم وَالْبِلَادَ مَعَا

(١) بلهنية : رخاء وسعة عيش وغفلة من حوادث الدهر

(٢) الغليل في الاصل : شدة العطش وحرارته ، أراد : شدة الحزن وحرارته

وحصيد - بكسر الصاد - : محكم ، من الحصيد - بالتحريك - وهو في الاصل : اشتداد
 قتل الحبال واستحكام الصناعة في الاوتار والدروع ، وكذلك رأى حصيد ومستحصد ،
 ونقع الماء العطش : أذهب وسكنه ، محثهم على توحيد الرأي لا تختلف بهم الاهواء
 (٣) مكنتما : منقبضاً مجتهداً ، وكنع الرجل : قبض واجتمع ، وقال ابن الاثير :
 جبن وهرب .

(٤) الطريف من المال : ما استطرفته واستحدثته كالطارف ، خلاف التليد

والتلاد والتالد ، وهو : ما ورثته عن الآباء قديما

(٥) فاقنوا جياذكم : الزمواها ، والذمار : ما يلزم حفظه وحمايته من مال وأهل

وعسيرة ، واستشعروا الصبر : مستعار من استشعر الثوب : لبسه على شعر جسده ،
 وهو الشعار دون الدثار ، يقول : وطنوا أنفسكم على الصبر ولا تضمروا الجزع
 في أنفسكم

(٦) إن العدو الخ يريد : إن قرع العدو عظمكم ، والقرع : الضرب ، كنى

بذلك عن إذلالهم وإهانتهم

والله ما انفكت الأموال منذ أبدٍ لأهلها إن أصيبوا مرةً تبعاً
يا قوم إن لكم من إرث أوليكم مجداً قد أشققت أن يفنى وينقطعاً
ماذا يرث عليكم عز أوليكم إن ضاع آخره أو ذل واتضما
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً على نسائكم كسرى وما جمعاً^(١)
يا قوم بيضتكم لا تفجعن بها إني أخاف عليها الأزلم الجدعا^(٢)
هو الجلاء الذي يجتث أصلكم فمن رأى مثل ذا رأياً ومن سمعاً^(٣)
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعاً^(٤)

ثم قال يصف أمير الجيش - وهو شاهدنا - :

وقلِّدوا أمركم لله درُّكم رجب الذراع بأمر الحرب، مضطلعا^(٥)

(١) غير - بضمين - جمع غيور، من الغيرة وهي: الحمية والألفة
(٢) تقدم معنى البيضة آنفاً، والأزلم الجذع في الأصل: الوعل، وهو تيس
الجليل، وذلك أن له زلتين. وهما هتان معلقتان في حلقة، وهو مادام حياً جذع
لا تسقط له سن. استعير ذلك للدهر الشديد، وذلك أن البلياً منوطة به تابعة له
وأنه باق على حاله لا يتغير على طول إناه كأنه قتي لم تسقط له سن، ومن كلاهم:
أودى به الأزلم الجذع يريدون: أهلكه الدهر

(٣) يجتث أصلكم: يقتلعه ويستأصله، ومعنى اجتث في اللغة: أخذت جثته
(٤) أمشاط جمع مشط - بضم الميم - وهي: سلاميات ظهر القدم، وهي
العظام الرقاق المفترشة فوق القدم دون الأصابع، وقوله: ثم افزعوا يريد: هبوا
وانتهبوا كما يفزع النائم، وكأنه من الفزع - الخوف - لأن الذي يهب وينتبه لا يخلو
من فزع ما

(٥) رجب الذراع كناية عن إطاقته وسعة قوته، ومضطلع مفتعل من الضلعة
وهي قوة الأضلاع، وقد اضطلع بحمله: قوى عليه ونهض به

لا مُتْرَفًا إِنْ رَخَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ
 لا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ
 لا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعًا (١)
 هَمْ يَكَادُ شَبَاهُ يَفْصِمُ الضَّلْعَا (٢)
 يَرُومُ مِنْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مُطَّلِعًا
 يَكُونُ مُتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبِعًا (٣)
 هُمْسَتْحَكِمِ الرَّأْيَ لَا قَهْمًا وَلَا ضَرَعًا (٤)
 عَنْكُمْ وَلَا وَلَدٌ يَبْنِي لَهُ الرَّفْعَا
 وليس يَشْغَلَهُ مَالٌ يُسْمَرُهُ
 حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْزٍ مَرِيرَتُهُ
 مَازَالَ يَجْلُبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ
 إِلَى أَنْ قَالَ :

(١) المترف : المتنعم المتوسع في ملاذ شهواته

(٢) ريث يبعثه : مقدار ما يبعثه ، يقول : لا يطعم النوم إلا يسيراً حتى يبعثه الهم الماضي ، والشبا جمع شباة وهي حد كل شيء وطرفه كحد السيف والسنان ، تخيل أن لهما حداً ، ويفصم من الفصم - بالفاء - وهو أن ينصدع الشيء من غير أن يبين خلاف القصم - بالقاف - وهو كسر الشيء الشديد حتى يبين ، والضلع والضلع لغتان وهي : مخنية الجنب

(٣) يجلب هذا الدهر أشطره يريد : خبر ضروبه ، يعني أنه مر به خيره وشره وشدته ورخاؤه : تشبيهاً بجلب جميع أخلاف الناقة ما كان فيها حفلاً وغير حفل وداراً وغير دار ، وأصله من أشطر الناقة ، ولها خلفان قدامان وآخران كأنه حلب القادمين وهما الخير والآخرين وهما الشر ، وكل خلفين شطر ، وجعل الأشطر موضع - الشطرين كما تجعل الحواجب موضع الحاجبين ، وقوله : يكون متبعاً طوراً ومتبعاً ، أى قد اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتبع فعلم ما يصلح الرئيس ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : قد لنا وإبل علينا ، أى : سسنا وسيس علينا فأصلحنا أمور الناس وأصلحت أمورنا ، وكل ذلك كناية عن جودة الرأي وإحكام الأمر

(٤) المريرة من الحبل : ما طال واشتدفتله واجمع المرائر ، واستمرت : استحكمت والشزر : الفتل ، ضرب ذلك مثلاً لاستجماع قوته واستحكام عزيمته ، والقهم : الكبير المنسن ، والضرع هنا : الصغير السن الضعيف

لقد بَدَلْتُ لَكُمْ نُصِيحِي بِلا دَخَلٍ فَاسْتَيْقِظُوا إِن خَيْرَ الْعِلْمِ مَا نَفَعَا
 هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَبَنَ سَمِيعًا
 وَلَمَّا أَوْفَدَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ كَعْبَ بْنَ مَعْدَانَ الْأَشْقَرِيَّ حِينَ
 هَزَمَ عَبْدَ رَبِّهِ الْأَصْغَرَ وَأَجَلَى قَطْرِيَّ بْنَ الْفُجَاءَةَ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ كَرِمَانَ
 نَحْوِ أَرْضِ خِرَاسَانَ إِلَى الْحِجَاجِ بْنِ يَوْسُفَ ، قَالَ لَهُ الْحِجَاجُ : كَيْفَ كَانَتْ
 مُحَارَبَةُ الْمُهَلَّبِ لِلْقَوْمِ ؟ قَالَ : كَانَ إِذَا وَجَدَ الْفُرْصَةَ سَارَ كَمَا يُسُورُ اللَّيْثُ ، ^(١)
 وَإِذَا دَهَمَتْهُ الطَّخْمَةُ ^(٢) رَاغَ كَمَا يَرُوعُ الثَّعْلَبُ ، وَإِذَا مَادَهُ الْقَوْمُ صَبَرَ صَبْرَ
 الدَّهْرِ . قَالَ : وَكَيْفَ كَانَ فِيكُمْ ؟ قَالَ : كَانَ لَنَا مِنْهُ إِشْفَاقُ الْوَالِدِ الْحَرِيبِ
 وَلَهُ مَنَاطَعَةُ الْوَالِدِ الْبَرِّ . قَالَ : وَكَيْفَ أَفْلَتَكُمْ قَطْرِيَّ ؟ قَالَ : كَادَنَا يَبْعُضُ
 مَا كَدَنَاهُ بِهِ ، وَالْأَجَلَ أَحْصَنُ جُنَّةً وَأَنْفَذُ عُدَّةً . قَالَ : فَكَيْفَ اتَّبَعْتُمْ
 عَبْدَ رَبِّهِ وَتَرَكْتُمُوهُ ؟ قَالَ آثَرْنَا الْحَدَّ عَلَى الْفَلِّ ^(٣) ، وَكَانَتْ سَلَامَةُ الْجُنْدِ
 أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ شَجَبِ الْعَدُوِّ ^(٤) . فَقَالَ لَهُ الْحِجَاجُ : أَكُنْتَ أَعَدَدْتَ هَذَا
 الْجَوَابَ قَبْلَ لِقَائِي ؟ قَالَ : لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ...

حُثِّمُوا عَلَى التَّفْكِيرِ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

قالوا : من قاتل بغير نَجْدَةٍ ، وخاصمَ بغير حُجَّةٍ ، وصارعَ بغير قُوَّةٍ
 فقد أعظمَ الخطرَ ، وأكبرَ الغررَ ... « الغرر : الخطر » ،

(١) سار : وثب وثار

(٢) الطخمة : جماعة الناس ، يريد جند العدو

(٣) الفل : القوم المنهزمون

(٤) الشجب : الهلاك

وقالوا :

إذا ما أردت الأمر فاذرعه كله ورسه قياس الثوب قبل التقدّم
لعلك تنجو سالماً من ندامة فلا خير في أمر أتى بالتندّم

من يؤثر الموت في العز على الحياة في الذل

قال المنبهي :

عش عزيزاً أومت وأنت كريم بين طعن الفنا وخفق البنود
فروس الرماح أذهب للغية خط وأشفي لغل صدر الحمود
لا كما قد حيت غير حميد وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز في لظى وذر الذل لولو كان في جنان الخلود

وقال أبو تمام :

يرى العلقم المأدوم بالعز أرية يمانية والأرى بالضم علقماً^(١)
ونظر عبد الله بن علي العباسي إلى قتي عليه أبهة الشرف وهو يقاتل
مُسْتَبْسِلًا^(٢) ، فناداه : يا قتي ، لك الأمان ولو كنت مروان بن محمد - آخر
الدولة الأموية - فقال : إلا أكنه ، فلست بدونه ، قال : فلك الأمان
من كنت ؛ فأطرق ثم قال :

(١) المأدوم : المخلوط ، والأرية : واحداً الأرى ، وهو : العسل ، وقلبا تستعمل
واحدة ، ووصفها باليمانية لأن النحل تعسل في جبال الشراة وهي باليمن
(٢) المستبسِل الذي يطرح نفسه في الحرب : يريد أن يقتل أو يقتل لا محالة

أُدِّلَ الحَيَاةِ وَكَرُّةِ المَاتِ وَكَلَّا أَرَاهُ طَعَامًا وَبَيْلًا
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهُمَا فَسِيرًا إِلَى المَوْتِ سِيرًا جَمِيلًا
ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ؛ قَالَ : فَإِذَا هُوَ ابْنُ أَمْسَلَةَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ
مِرْوَانَ .

نهيهم عن مخافة القتل

وحثهم على تصور الموت

وتمدحهم بذلك

قيل لعلي بن أبي طالب : أُنْقَاتِلْ أَهْلَ الشَّامِ بِالغَدَاةِ وَتَظَاهِرْ بِالعَيْشِ
فِي ثُوبٍ وَرَدَاءٍ ؟ فَقالَ : أَبِالمَوْتِ أَخـَوْفِ اللهِ ، مَا أبالي أَسَقَطْتُ عَلَى
المَوْتِ أَمْ سَقَطَ المَوْتُ عَلَى ، وَكثِيرًا مَا كانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَتَمَثَّلُ :
أَيُّ يَوْمِي مِنَ المَوْتِ أَفْزَرُ يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمَ قُدِّرْ (١)

(١) هذا البيت من أبيات نسبه السيوطي في شواهد المغني لشاعر اسمه الحارث
ابن منذر الجرمي ونسبها ابن سيده - اللسان مادة عفر - لشاعر آخر اسمه ضباب بن
واقد الطهوي وقد أورد السيوطي بعده هذه الآيات :

إِنَّ أَخْوَالي جَمِيعًا مِنْ شَقِيرٍ لَبِسُوا لِي عَمَسًا جِلْدَ النَّمِرِ
تَحْتَوُوا أَنْلَتْنَا بَغِيًّا وَلَمْ يَرْهَبُوا غَبَّ الوَبَالِ المُسْتَعِرِ
فَلَيْنَ طَأْطَأْتُ فِي قَتْلِهِمْ لَتَهَاضَنَّ عِظَامِي عَنْ عَفْرِ
وَلَيْنَ غَادَرْتُهُمْ فِي وَرْطَةٍ لِأَصِيرَنَّ نَهْرَةَ الذُّبِّ القَفْرِ
وَلَيْنَ أَعْرَضْتُ عَنْهُمْ بَعْدَما أَوْهَنْتَنِي لِتِصْبِي بِقُرِّ

: أورد ابن هشام وغيره هذا البيت هكذا :

يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرَ لَا أَرْهَبُهُ وَمِنَ الْمَقْدُورِ لَا يُنْجِي الْخَذَرُ
وقال المتنبي :

إِذَا غَامَزَتْ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعُ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعَمَ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ صَغِيرٍ كَطَعَمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ
« يقول : إذا حاولت الشرف وخاطرت بنفسك في سبيل الحصول
عليه فلا تقنع بما دون أعلاه ، ولا ترض باليسير منه ، فإن طعم
الموت في الأمر الهين كطعمه في الأمر الصعب ، وإذن فلا سبيل للغمام
إلا أن يقصد إلى أسمى الأمور »
وقال :

يَرَى الْجُبْنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّثِيمِ

في أي يومى من الموت أفر أَيَوْمَ لَمْ يُقَدَّرَ أَمْ يَوْمَ قُدِرَ
فتح راه يقدر شاهدا على أن لم قد ينصب بها المضارع في لغة وأورد ابن هشام كلاماً لأئمة
النحاة في تخريج البيت على نصب يقدر « راجعه في المغنى في الكلام على لم ، وفي اللسان
مادة قدر ، والآن لنشرح هذه الآيات الجميلة فنقول : قوله : لبسوا الى عمساً جلد
النمر ، فالعمس : الشدة يقول : أبطنوا الى العداوة ، وأثلة كل شيء : أصله ، ويقال :
فلان ينحت أثلتنا : إذا قال في حبه قبيحاً ، وطأطأ في قتلهم : أسرع واشتد ، وقوله
* لتهاضن عظامى عن عفر *

أى : عن بعد من أخوالى لانهم وإن كانوا أقرباء فليسوا في الترب مثل الاعمام ، والورطة
الامر تقع فيه من هلكه وغيرها أو هي الهلكة ، ونهزة : أى صيد وفي الاصل :
اسم للشئ الذى هو لك معروض كالغنيمة ، والفرصة تجدها من صاحبك ويقال :
نهزة المحتلس أى : هو صيد لكل أحد ، والذئب القفر : المنسرب الى القفر - المغازة
لانبات بها ولا ماء - وقوله : لتصينى بقر فإنه يقال للشدة إذا نزلت : صارت بقر
أى : صارت الشدة في قرارها ، وقال أبو عبيد : إنما هو مثل ، وربما قالوا : وقعت
بقر . وقال ثعلب معناه : وقعت في الموضع الذى ينبغى

وقال : من قطعة جيدة نوردما كُلَّها لبراعتها :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمانِ وَعَنَّاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ ماعانانا
وَتَوَلَّوْا بُغْضَةَ كُلِّهِمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحيانا
رَبِّمًا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لِيالِيهِ - وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الإِحسانا
وَكأنالِمُ يَرْضُ فَيُنابِرِيبُ الدَّهْرَ رَحَى أَعاناهُ مِنْ أَعاناهُ (١)
كَلِمًا أَنْبَتَ الزَّمانُ قَناءَ رَكَّبَ المَرءُ فِي القَناءِ سِنانانا (٢)
وَمُرادُ النُّفوسِ أَصغَرُ مِنْ أَنْ تَتعادى فِيهِ وَأَنْ تَتفانانا
غَيرَ أَنْ الفَتى يَلاقى المَنايا كالحاتٍ ولا يُلاقى الهوانا (٣)
وَلو أَنَّ الحِياةَ تَبقى لِحَيِّ لعدَدنا أَضَلنا الشُّجعانانا (٤)
وَإِذا لَمْ يَكُنْ مِنَ المَوْتِ بُدًّا فَمِنَ العَجْزِ أَنْ تَكُونَ جِبانانا (٥)

(١) في « يرض » ضمير هو فاعل يرض يفسره « من أعانا » وأضمره قبل الذكر على شريطة التفسير ، أو تقول : إن « من أعانا » فاعل يرض وأعانه على التنازع ، يقول : هذا الذي أعان على الدهر كأنه لم يرض بما يصيبني من محنة حتى أعانه على كما قال الآخر :

أعان على الدهر إذحك بركه كفى الدهر لو وكَلَّتُهُ بي كافي
و البرك : كل كل البعير و صدره الذي يدوك به الشيء تحته ،

(٢) القنأة : عود الرمح ، والسنان : زجه الذي يطعن به يقول : إذا انتدب الزمان للإسائة بما جبل عليه صارت عداوة المعادى مدداً لقصده نحوك ، فجعل القنأة مثلاً لما في طبع الزمان وجعل السنان مثلاً للعداوة
(٣) كالحات : عابسات .

(٤) يقول : لو كانت الحياة باقية لكان الشجاع الذي يتعرض للقتل أضل الناس ، يعنى أن الحياة فانية وإن جبن الإنسان ولزم عقر داره وحرص على البقاء ثم أكد هذا بالبيت التالى يقول : إذا كان الموت لا يحيص عنه ولا ينجو منه شجاع ولا جبان فإن الجبن يكون من ضعف الهمة وعجزها .

كلُّ مالم يكن من الصَّعب في الأنته

س سهلٌ فيها إذا هو كانا ^(١)

وبعثتُ بنو حنيفة بالفند الزماني ^(٢) حين طلبت بكر بن وائل إليهم
يستنصرونهم، وقالوا - بنو حنيفة - : قد بعثنا إليكم ألف فارس - وكان
يقال له : عديد الألف - فلما ورد قالوا له : أين الألف ؟ قال : أنا ، فلما
كان الغد وبرزوا حمل على ألف فارس مُردِّفٍ فانتظمهم ...

(١) كل : مبتدأ ومن الصعب خبرها وسهل خبر ثان ويكن تامة وكذا وكانا ،
يقول : إنما يصعب الأمر على النفس قبل وقوعه فإذا وقع سهل وهان كما قال
البحري :

لعمرك ما المكروه إلا ارتقابه وأبرح مما حل ما يتوقع

(٢) الفند الزماني - واسمه شهل بن شيبان بن ربيعة ... بن بكر بن وائل - شاعر
جاهلي قديم ، وفارس من فرسان ربيعة المشهورين المعدودين ، شهد حرب بكر وتغلب
وهو صاحب هذه الأبيات الحماسية المشهورة ، قالها في حرب البسوس وإنما لنوردها
هنا على شهرتها :

صفحنا عن بني ذهل	وقلنا : القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجع	من قوماً كالذي كانوا
فلما صرح الشر	فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدو	ن دناهم كما دانوا
مشيتا مشية الليث	غدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين	وتخضع وإقران
وطعن كغم الرق	غدا والرق ملان
وبعض الجلم عند الجهم	ل للذلة إذعان

.....

وفي الشر نجاةٌ ح بين لا يُنجيك إحسانٌ

و الصفع : العصفو ، ويقال : أعرضت عن هذا الأمر صفحا : إذا تركته ، ويقال : أصفحت عنه كما يقال : أضربت عنه ، ويقال : أبدى لي صفحته : إذا أمكنك من نفسه يقول : صفحنا عنهم فلم نؤاخذهم بما كان منهم لأنهم إخواننا عطفنا عليهم الرحم . ويرجعن : يرددن ، يقال رجع فلان ورجعت فلانا يقول : صفحنا عنهم للرحم فعسى أن تردم الأيام إلى ما كانوا عليه من قبل من التوادم . وصرح الشر : انكشف ويقال صرح الشيء : إذا كشفه وصرح هو ، كما تقول : بين الشيء وبين هو : أى تبين وقيل : صرح : خلص ، شبه باللبن الصريح وهو الذى قد ذهب رغوته وإذا ذهب الرغوة فاللبن عريان ، وقوله : فأمسى وهو عريان : أى منكشف لاستردونه ، ويروى : فأضحى ، بدل فأمسى ، وهو أحسن وإن كان أصبح وأمسى وأضحى وظل يراد بها فى مثل هذا الموضع معنى صار . وقوله : دناهم كما دانوا : جواب لما فى قوله : فلما صرح الشر : أى فعلناهم مثل فعلهم بنا . يقول : صفحنا عنهم وقعدنا عن ضربهم وذكرنا الرحم والقراية بيننا وظننا أن حالهم ترجع إلى الحسنى فلما أبوا إلا الشر ركبناه معهم وقوله : مشينا مشية الليث يروى :

• شددنا شدة الليث • وعلى هذه الرواية يكون عدا بدل غدا وتوهين تفعيل من الوهن وهو الضعف ، ونخضيع تفعيل من الخضوع وهو الذل والاقران : اللين والاسترخاء ، والباء فى بضرب تتعلق بمشينا أى مشينا بضرب فى ذلك الضرب تضعيف للضررب وتذليل ، قال بعض النقاد . والأجود أن يقول ما معناه : بضرب يفلق الهام ويبتز العظم مثلا فأما أن يقول : ضرب يوهى ويرخى فإن أدنى الضرب يوجب هذا ، وإذن فمن الجائز أن يكون المعنى : فيه توهين وصوت فى القطع وكسر العظام ويكون معنى إقران : غلبة أو مواصلة لا فتور فيها ويكون تخضيع من الخضة وهو اختلاط الصوت فى الحرب ، ويروى البيت :

بِضْرِبٍ فِيهِ تَفْجِيعٌ وَتَأْيِيمٌ وَإِرْنَانٌ

أى يفتح الأخر بالأخر والولد بالوالد ، والتأيم قتل الأزواج ، والإرنان : من الرنين وهو رفع الصوت بالبكاء . وغذا بالذال المعجمة : سأل وصف الطعن بالسعة وذكر أن الدم يسيل من موضع الطعنة كما يسيل الماء من فم القربة .

الجود بالنفس

وحب الموت في الوغى
وأَنْفَتَهُمْ من الموت على الفراش

قال أبو تمام :

يَسْتَعْدِبُونَ مَنَائِمَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَأْسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قَتَلُوا

وقال :

وَحَنَّ لِلْمَوْتِ حَتَّى ظَنَّ مُبِصِرُهُ كَأَنَّهُ حَنَّ مُشْتاقًا إِلَى وَطَنِ
لَوْ لَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَمًا
لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

وقال :

قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ حَسِبْتَهُمْ لَمْ يَحْسِبُوا أَنَّ الْمَنِيَّةَ تُخَاقُ
أَنْظُرُ بِحَيْثُ تَرَى السِّيفَ لَوَامِعًا أَبَدًا وَفَوْقَ رُؤْسِهِمْ تَأْتِقُ
وقال بشامة بن حزن النهشلي :

إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرُّوعِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِي الْأَمَنِ أَغْلِينَا (١)

(١) يقول : إذا كان يوم الروع تقدمنا للقاه ، فإن ذهبنا أنفسنا ذهب رخيصة لانا بذلتناها بالاندام ولم نمنعها بالإحجام ، واكفها يوم الامن غالية ، والالف في أغلينا : للاطلاق ، والزون ضمير النفس ، ومعنى أغلين وجدت غالية وليس يريد أنهم مع الغلاء يمكنون منها بل المراد قطع المقدره عنها كما قال القائل :

تُعْرَضُ لِلسِّيفِ إِذَا التَّقِينَا نَفُوسًا لَا تُعْرَضُ لِلسَّبَابِ
وكما قال الاجدع والدمسروق للفتية .

وقال عبد الله بن محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة :
 وإني من قوم كأن أنفسهم بها أتف أن تسكن اللحم والدماء
 وقال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي — شاعر إسلامي — :^(١)
 ومامات منا سيد حنف أنفه ولا ظل يوماً حيث كان قتيل^(٢)

لقد عيّلت نسوان همدان أذ:

لهن غداة الروع غير بدول

وأبذل في الهيجاء وجهي وإني له في سوى الهيجاء غير بدول

(١) تروى هذه الآيات للسموأل بن عادي اليهودي الجاهلي ، قال الخطيب
 التبريزي : وإذا كانت هذه الآيات جاهلية - أي للسموأل - فتروى :
 • وما مات منا سيد في فراشه •

أي بدل • وما مات منا سيد حنف أنفه • أي لأن النبي صلى الله عليه
 وسلم هو أول من قال : مات حنف أنفه

(٢) قلنا : إن أول من قال : حنف أنفه هو سيدنا رسول الله ، قال ابن الأثير :
 هو أن يموت على فراشه ، كأنه سقط لانه فمات ، والحنف : الهلاك ، قال : كانوا
 يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته ؛ وعبارة
 غير ابن الأثير كما في اللسان : إنما قيل للذي يموت على فراشه : مات حنف أنفه
 — ويقال : مات حنف أنفه — لأن نفسه تخرج بنفسه من فيه وأنفه ، قال : ويقال
 أيضاً : مات حنف فيه ، ومن قال : حنف أنفه أراد سمي أنفه وهما : منخراه ، ويحتمل
 أن يراد : أنفه وفمه ، فغلب أحد الاسمين على الآخر ، وعبارة الخطيب التبريزي :
 والمعنى : كان حنفة - أي هلاكه - بأنفه ، أي بالانفاس التي خرجت من أنفه عند
 نزوع الروح ، لا دفعة واحدة ، قال : ويقال : خص الأنف بذلك لأنه من جهته
 يتقضى الرمق وقوله :

• ولا ظل يوماً حيث كان قتيل •

فانه يقال : ظل دمه : إذا بطل ولم يطلب به يقول : لا يبطل دم قتيل منا وحاصل

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاتِ نَفُوسَنَا وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الظُّبَاتِ تَسِيلٌ ^(١)
وقال عنتره :

بَكَرَتْ تُتَخَوِّفُنِي الْحُتُوفَ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ عَرَضِ الْحُتُوفِ بِمَعزِلِ
فَأَجِبْتُهَا : إِنْ الْمَنِيَّةَ مَنَهَلُ لَا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بِكَأْسِ الْمَنَهَلِ
فَأَنْتِي حَيَاءُكَ لَا أَبَالِكِ وَأَعْلَمِي أَنِّي أَمْرٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ
إِنْ الْمَنِيَّةَ لَوْ تُعْتَلُّ مُثَلَّتْ مِثْلِي إِذَا نَزَلُوا بِضَنِّكَ الْمَنْزِلِ
« الخوف : المكاره والمثائف ، و « عن عرض » أى ما يعرض منها
وبمعزل ، أى فى ناحية منعزلة عن ذلك ، و : منهل : مورد ، وقوله :
فأنتى حياءك ، أى احفظيه ولا تضيعيه ، والضنك : الضيق يقول : إن
المنية لو حُلِقَتْ مثالا لكانت فى مِثْلِ صورتي ...



وقال خالد بن الوليد وهو فى مرض الموت : لقد كَفَيْتُ كَذَا وَكَذَا
رَحْفًا ، وما فى جسدى موضعُ شِبْرِ إِلَّا وَفِيهِ طَعْمَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ أَوْ رَمِيَةٌ ،
ثم دا أنا ذا أموت على فراشى حتف أنى ! فلا نامت أعينُ الجبناء ...
« وقد تقدم ذلك »

وقال الْمُفَضَّلُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ :

معنى البيت : نحن لانموت ولكن نقتل ، ودم القتل من لا يبطل
(١) نفوسنا : أرواحنا أو دماؤنا ، والظبات جمع ظبة : وهى حد السيف وفى
إضافة الحد إلى الظبات إما أن يكون المراد بالظبات السيوف كلها ثم أضاف الحد
إليها وأما أن تكون إضافة الحد إلى الظبات من إضافة البعض إلى الكل ويكون
التقدير : يسيل على الحد من الظبات وتكون الظبات مضارب السيوف ، والمصراع
الأول يدل على الشجاعة والثانى على العز والمنعة

هَلِ الْجُودُ إِلَّا أَنْ تَجُودَ بِأَنْفُسِ عَلَى كُلِّ مَاضِي الشَّفَرِ تَيْنِ قَضِيبِ
 وَمَنْ هَرَّ أَطْرَافَ الْقَنَاخِشِيَّةِ الرَّدَى فَلَيْسَ يَلْتَجِدُ صَالِحٍ بِكَسُوبِ
 وَمَاهِي إِلَّا رَقْدَةٌ تُورِثُ الْعُلَى لِرَهْطِكَ مَا حَنَّتْ رَوَائِمُ نَيْبِ
 « هر أطراف القنا يقال : هر الشيء يهر - بالكسر والضم - هراً
 وهريراً : كرهه يقال : هر فلان الكأس والحرب هريراً : أي كرهها قال
 عنزة :

حَلَفْنَا لَهُمْ وَالْحَيْلُ تُرَدِّي بِنَامِعًا نُزَايِلِكُمْ حَتَّى تَهْرُوا الْعَوَالِيَا^(١)
 عَوَالِي زَرْقًا مِنْ رِمَاحِ رُدَيْنَةَ هَرِيرِ الْكِلَابِ يَتَقِينُ الْأَفَاعِيَا
 وقوله : وماهي إلا رقدة ... أليت قال المبرد : مأخوذ من قول
 أخيه يزيد بن المهلب ، وذلك أنه قال في يوم العقر ، وهو اليوم الذي
 قُتِلَ فِيهِ - : قَاتَلَ اللهُ ابْنَ الْأَشْعَثِ - عبد الرحمن بن الأشعث -
 مَا كَانَ عَلَيْهِ لَوْ غَمَصَ عَيْنَيْهِ سَاعَةً لِلْبُوتِ وَلَمْ يَكُنْ قَتِيلَ نَفْسِهِ ... وَذَلِكَ
 أَنَّ ابْنَ الْأَشْعَثِ قَامَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ فِي سَطْحِ اللَّبُولِ ، فزَعَمُوا أَنَّهُ رَدَى
 نَفْسَهُ ، وَغَيْرُ أَهْلِ هَذَا الْقَوْلِ يَقُولُونَ : بَلْ سَقَطَ مِنْهُ بِسَنَةِ النَّوْمِ . وَقَوْلُهُ
 تُورِثُ الْعُلَى لِرَهْطِكَ ، فَاَلْمَعْنَى : تُوْرِثُ الْعُلَى رَهْطَكَ ؛ وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى :
 (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّوْبَا تَعْبُرُونَ) وَالنَّيْبُ جَمْعُ نَابٍ وَهِيَ : الْمُسْتَمَّةُ مِنَ الْإِبِلِ
 سَمَّوْهَا بِذَلِكَ حِينَ طَالَ نَابُهَا وَعَظْمٌ ، وَالرَّوَائِمُ : الْعَاطِفَاتُ عَلَى أَوْلَادِهَا «

(١) الرديان : ضرب من السير وهو أن يرحم الفرس الأرض رجماً بحوافره
 من شدة العدو ، وقوله : نزايلكم دو جواب القسم أي لانزايلكم كخذف لا على
 حد قولهم نالته أبرح قاعداً : أي لا أبرح ، ونزايلكم : نبارحكم يقال : ما زيلته : أي
 ما بارحته ، والعوالي جمع عالية : الريح وهي مادون السنان بقدر ذراع

من يخوض الحرب لا بد أن يُوطن نفسه على الموت

قالت الخنساء :

ومن ظنَّ من يُلاقى الحروب بأن لا يصابَ فقد ظنَّ عجزاً
وقالوا : * إن الشجاعة مقرون بها العطبُ * (١)

وقال تابط شراً من أبيات اختارها أبو تمام في حماسه :

ومن يُغزَّ بالاعداءِ لا بدُّ أنهُ سَيَلْقَى بهم من مَصْرَعِ الموتِ مَصْرَعاً

في القتل حياة

قال المهلب بنُ أبي صُفرة : ليس شيءٌ أنتمى من سيفٍ ! ولقد صدَّق
فما نال السيفُ أنتمى عدداً وأكرم ولداً من ولد المهلب ... وقال الحجاج
لامرأةٍ من الخوارج : والله لأحصدنكم حصداً ، فقالت : أنت تحصد
والله يزرع ، فانظر أين قُدرةُ المخلوق مع قدرة الخالق !

ومما يصحُّ أن يورد هنا وإن كان من وادٍ آخر قوله تعالى : « ولكم

(١) من أبيات لشاعر جبان يكنى أبا الغمر :

أضحت تُشجِّعُنِي هندٌ وقد علمت أن الشجاعة مقرون بها العطبُ
لا والذي ممع الأبصارَ رؤيتَهُ ما يشتهي الموت عندي من له أربُ
للحربِ قَوْمٌ أضلَّ اللهُ سَعِيَهُمْ إذا دعَتهُم إلى نيرانها وثبوا
ولستُ منهم ولا أبني فِعالَهُمْ لا القتلُ يُعجِبُنِي منها ولا السلبُ

في القصاص حياةٌ يا أولى الألباب ،^(١)

تأثير الخوف والخوف منه

والموفى على الجماعة

قيل لعلي بن أبي طالب : بهم غلبت الأقران ؟ قال : بتمسكن هيبتي في قلوبهم ... وبعث أميراً في طلب قوم رجلاً ، فما لبث أن جاءه برجل أطول ما يكون ، فقال : كيف تمكنت منه ؟ فقال : وقع في قلبي أن آخذه ، ووقع في قلبي أنه مأخوذ ، فنصرني عليه خوفه وجرأتى ... ونظر رجل إلى علي بن أبي طالب وقد شتت العسكر ، فقال : قد علبت أن ملك الموت في الجانب الذي فيه علي .

ومن المأثور عن المصطفى صلوات الله عليه قوله : « نُصرت بالرعب مسيرة شهر » ... قال ابن الأثير : كان أعداء النبي صلى الله عليه وسلم قد أرقع الله في قلوبهم الخوف منه ، فإذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر هابوه وفزعوا منه .

(١) قال الزمخشري : كلام فصيح لما فيه من الغرابة ، وهو أن القصاص قتل وتفويت للحياة وقد جعل مكانا وظرفا للحياة ، ومن إصابة محز البلاغة بتعريف القصاص وتسكير الحياة لأن المعنى : ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة ، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة ، وهم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل وكن يقتل بالمقتول غير قاتله فتشور الفتنة ويقع بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام شرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة ، أو نوع من الحياة وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاعتصام من القاتل ، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسين ...

وقال المتنبي : * وَيُسْتَعْظُمُونَ الْمَوْتَ وَالْمَوْتَ خَادِمُهُ *
 وقال سلم الخاسر : * كَانِ الْمَنَايَا جَارِيَاتُ بَأْمَرِهِ *
 وقال الفرزدق :

تَلَطَّطَ السَّيْفُ مِنْ شَوْقٍ إِلَى أَنْسِ

فَالْمَوْتُ يَلْحَظُ وَالْإِقْدَارُ تَلْتَضِرُ

أظله منك خنفٌ قد تجلله حتى يؤامر فيه رأيتك القدر^(١)

وقيل الأسكندر : إن في عسكر دارا ألف مقاتل ، فقال : إن القصاب

الحاذق وإن كان واحداً لا يهوله كثرة الغنم... وقال شاعر :

فَوَاحِدُهُمْ كَالْأَلْفِ بِأَسَا وَنَجْدَةٌ وَالْفَهْمُ لِلْعُجْمِ وَالْعُرْبِ قَاهِرُ

وقال أبو تمام يمدح أبا سعيد الطائي ويذكر ما صنع بالخرميّة :

أَقِيمْتَهُمُ وَالْمَنَايَا غَيْرُ دَافِعَةٍ لِمَا أَمَرْتَ بِهِ وَالْمُلْتَقَى كَبَدُ^(٢)

فِي مَوْقِفٍ وَقَفَ الْمَوْتُ الزُّوَامُ بِهِ

فالمجدد يوجد والأرواح تفتقد^(٣)

مُسْتَضْجِبَانِيَّةٌ قَدْ طَالَمَا ضَمِنْتُ لَكَ الْخُطُوبَ فَأَوْقَتْ بِالذِي تَعُدُّ

وَرُحْبَ صَدْرٍ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ

كوسعيه لم يضح عن أهله بلد^(٤)

صدعت جريتهم في غضبة قليل

قد صرح الماء عنها وأنجلي الزبد

(١) يؤمره : يشاوره فيأمر وينفذ رأيه ويروي بدل رأيتك : ربه

(٢) الكبد : الشدة والمشقة

(٣) الزوام : الكريه أو السريع

(٤) رحب صدر : سعة صدر

مِنْ كُلِّ أَرْوَعٍ تَرْتَمَاعُ الْمُنُونُ لَهُ

إذا تجرد، لا نيكس ولا يجحد^(١)

يكاد حين يلاقى القرن من حنق

قبل السنان على حوائبه يرد^(٢)

قلوا ولكههم طابوا فأنجدهم

جيش من الصبر لا يحصى له عدد

المتبرم بالحرب والسخرية منه

قال سعد بن مالك أحد سادات بكر بن وائل في الجاهلية وقرانها^(٣)

يأبؤس للحرب التي وضعت أرايط فاستراحوا

وهو من أبيات جيدة اختارها أبو تمام في حماسه وبعده :

(١) النيكس : الضعيف ، والجحد : القليل الخير

(٢) الحوباء : النفس والجمع حوباوات

(٣) قال سعد هذه الأبيات في حرب البسوس حين هاجت الحرب بين بكر وتغلب لقتل كليب واعتزل الحارث بن عباد وقال هذا أمر لاناقة لي فيه ولا جمل فعرض سعد في هذا الشعر بعود الحارث . وهذا الحارث بن عباد كان من حكام ربيعة وقرانها المعدودين ، وكان قد اعتزل حرب ابني وائل ثم حدثت أمور أفضت به إلى خوضه هذه الحرب ، وهو القائل من أبيات :

قرباً مربط النعامه مني لقيت حرب وائل عن حبال

لم أكن من جناتها علم الله ولاني بحرها اليوم صالي

ولما فعل ما فعل قال لسعد بن مالك : أتاني عن وضعته ا - يشير إلى قول

سعد : التي وضعت أرايط - قال سعد : لا ، ولكن لا محبا لعطر بعد عروس ،

ومعناه : إن لم تنصر قومك الآن فلن تدخر نصرك ...

والحربُ لا يَبْقَى لِحِمَا جِمِهَا التَّخْيِيلُ والمِرَاحُ
 إِلا الفَتَى الصَّبَارُ فِي النَّجَّدَاتِ وَالْفَرَسُ الوَقَاحُ
 مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لِابْرَاحِ
 المَوْتُ غَايَتُنَا فَلَا نُقْصِرُ وَلَا عَنْهُ جِمَاحُ
 وَكَأَنَّمَا وِرْدُ المِنِيَةِ عِنْدَنَا مَاءٌ وَرَاحُ

« قوله يا بُؤْسَ للحرب ، أصله : يا بُؤْسَ الحرب ، فَأُفْحِمَت اللام
 بين المتضايقين ، يدعو على الحرب وَيَذْمُ نكباتها سخريةً ؛ ومعنى وضعت
 أراهمط : حَطَّطَهُمْ وَأَسَقَطَهُمْ فلم يكن لهم ذكر ولا شرف في هذه الحرب
 فاستراحوا من مكابدها كالنساء ، قال بعض الأعراب لرجل : إنه قد وضع
 المكارم فاستراح ، وقال رجل للأحنف : لا أبالي أهجيت أم مُدِحت ،
 فقال : استرحت من حيث تعب الكرام ، وأراهمط إما جمع أراهط جمع
 رهط وإما جمع ردهط على خلاف القياس ، والردط : النفر من ثلاثة إلى
 عشرة ، والجاحم : المكان الشديد الحر ، من جَحَمَت النار فهي جاحمة :
 إذا اضطربت ، ومنه الجحيم ، والتخييل : التكبر ، من الخيلاء . يقول :
 إنما لا يُبْقَى على نَحْوَةِ المُنْحَوِّ ، وذلك أن أولي الغناء يتكرمون عن
 الخيلاء . ويختال المغرور فإذا جُرِبَ فلم يُحَمَّدَ أَفْتَضَحَ وسقط ، أو تقول
 مَنْ كان ذا خَيْلَاءٍ ومرح ثم بُلِيَ بالحرب شَغَلَتْهُ عن خَيْلَائِهِ ومرحه .
 والمراح بكسر الميم : النشاط ، أى أنها تكف حدة البطر النشيط ، وهذا
 تعريض بالحارث بن عباد بأنه صاحب خيلاء ومرح . والصبار مبالغة صابر
 والنجدة : الشدة والبأس في الحرب ، والوقاح : الفرس الذى حافره صلبٌ
 شديد ، ومنه الوقاحة .

وقوله : فأنا ابنُ قيس لا براح ، أى : أنا المشهور فى النجدة كما سمعت . وأضاف نفسه إلى جدّه الأعلى لشهرته به ، وجملة لا براح حال مؤكدة لقوله : أنا ابن قيس كأنه قال : أنا ابن قيس ثابتاً فى الحرب ، والبراح مصدر يروح الشيء براحا : إذا زال من مكانه . وقوله : فلا أضربُ هناك ولا جماح فالقصر . الحبس ، والجماح مصدر جمع : إذا انفلت وهرب يريد : لا يمكن حبسُ نفس عن الموت ولا مهرب عنه . والورد : الورد وهو دخول الماء ، وقيل : حضوره وإن لم تدخله .

وقال شاعر :

ماذا قَ هَمًّا كالشجاعِ ولا خلا بِمَسْرَةٍ كالعاجِزِ المتَوَانِي

المدحوح بقوة نفسه دون جسمه

قال أبو تمام :

والصَّبرُ بالأرواحِ يُعرَفُ أَضْلُهُ صبرُ الملوكِ وليسَ بالأجسامِ

وقال شاعر :

وإني للَقَوِيُّ عَلَى المعالى وما أنا بالقوى عَلَى الصِّراعِ

وقال معاوية رضى الله عنه : ما كان فى الشَّبانِ شيءٌ إلا وكان فى منه

مُسْتَمْتَعٌ ، إلا أنى لم أكن نُكَّحَةً ولا صُرَعَةً . « رَجُلٌ نُكَّحَةٌ : كثير

النِّكاحِ — الوطء — ورجلٌ صُرَعَةٌ : يصرع الناس ،

وأورد أبو تمام فى حماسه لبعض الشعراء :

لا قُوَّتِي قُوَّةُ الرَّاعِي فَلَائِصُهُ يَاوِي فَيَاوِي إِلَيْهِ الكلبُ والرُّبِيعُ

مِنَّا الإناةُ وبمضُ القومِ يحسبنا أتا بطلاءُ وفى إبطائنا سَرَعُ

« يقول : ليس غَنَانِي فِي الْمُهَيَّمَاتِ غَنَاءَ الرَّعَاءِ الَّذِينَ سَعِيَهُمْ مَقْصُورٌ عَلَى ضَمِّ الْقَلَاصِ وَحَفْظِهَا فِي مِرَاعِيهَا فَإِذَا أَوَى إِلَى مَوْضِعٍ أَوَى إِلَيْهِ كَلْبُهُ الَّذِي يَحْرَسُهُ وَرُبْعَهُ ، وَهُوَ مَا تُنْتِجُ فِي الرَّبِيعِ ، وَالسَّرْعَةُ : السَّرْعَةُ »

القصص إلى العدى مجاهرة

قال السري الرفاء : من أبيات يمدح بها سيف الدولة بن حمدان :
 وَيَجْعَلُ بِشْرَهُ نُذْرَ الْأَعَادِي فَيَبْعَثُهُ جَنُوبًا أَوْ شِمَالًا
 وَلَمْ يُنْذِرْهُمْ مِقَّةً وَلَسْكَنَ تَرَفَعُ أَنْ يُصِيبَهُمْ اغْتِيَالًا (١)
 وأشار على الإسكندر المقدوني أصحابه أن يُبَيِّتَ الفُرسَ (٢) ، فقال :
 ليس من الإنصاف أن أجعل غَلَبَتِي سِرَّةً ...

المقاتل عن حريمه

لِإِمَامِ الْإِسْكَانْدَرِ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ الْحُرُوبِ بِنَفْسِهِ ، فَقَالَ : لَيْسَ مِنَ الْإِنْصَافِ
 أَنْ يَقْتُلَ قَوْمِي عَنِّي وَأَتْرِكَ الْقِتَالَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَهْلِي وَنَفْسِي ...
 وقيل للحسن البصري : يَا أَبَا سَعِيدٍ ، إنا نكون في هذه البعوث
 والسرايا فنصيب المرأة من العدو ، وهي ذات زوج ، أفتحل لنا من قبل
 أن يُطَاقَها زوجها ؟ وكان الفرزدق حاضرًا ، فقال الفرزدق : قد قلت أنا

(١) المقة : المحبة

(٢) تبويت العدو : أن يقصد في الليل من غير أن يعلم فيؤخذ بغتة ، والاسم :
 البيات ، وأما قولهم : بيت الأمر فعناه : دبره بليل قال تعالى : إذ يبيتون ما لا يرضى
 من القول ، قال الزجاج : كل ما فكر فيه أو خيض فيه بليل فقد بيت ، يقال : هذا
 أمر دبر بليل وبيت بليل ، بمعنى واحد .

في مِثْلِ هذا شِعْرًا ، وأنشد :

وَذَاتِ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رِمَاخُنَا حَلَالًا لِمَنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمْ تُطَلِّقْ (١)

فقال الحسن : أصبت ، كنتُ أرى أَنَّكَ أَشْعَرُ مِنِّي فَإِذَا أَنْتِ أَفْقَهُ

قال ابن رشيقي في العمدة : وما أُعْظِنُ الْفِرْزَدَقَ إِلَّا أَرَادَ مَذْهَبَ الْجَاهِلِيَّةِ فِي السَّبَايَا ...

وقال زيادُ الأَعْجَمُ مِنْ كَلِمَتِهِ الَّتِي يَرْتِي بِهَا الْمَغِيرَةَ بْنِ الْمُهَاجِبِ بْنِ

أَبِي صُفْرَةَ :

صَمَّانٍ مَخْلُوفَانِ حِينَ تَهْلَا قِيَا أَبَا بُوْجِهٍ مُطَلِّقِي أَوْ نَكِيحِ

المستنكف من السلب

قال أبو نَمَامٍ مِنْ بَائِتِهِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَبْنِي فِيهَا الْمَعْتَصِمُ بِفَتْحِ عَمُورِيَّةٍ :

إِنَّ الْأُسُودَ أُسُودَ الْغَابِ هِمَّتْهَا يَوْمَ الْكُرْبِيَّةِ فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبِ

وَقَتَلَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا فَأَرَادَ قَنْبَرُ أَنْ يَأْخُذَ سَلْبَهُ ،

فقال : يَا غِلَامَ ، لَا تُعَرِّ فِرَائِي ... وقال عنتره في معلقته :

هَلَّا سَأَلْتَ الْحَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنَّ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي (٢)

يُخْبِرُكَ مِنْ شَهِدِ الْوَقِيعَةِ أَنِّي أَعْشَى الْوَعَى وَأَعْفَى عِ الْغَنَمِ

ه جهاراً بأيدينا ولما تطلق

(١) يروي العجز هكذا :

(٢) الحيل يريد : الفرسان

الشبان والكهول في الحرب

قال رجلٌ لآخر : لاغزوتك بمرْدٍ على جُردٍ^(١) ، فقال له : لألقينك
بكهول على فحول .

وقال المتنبي :

سأطلبُ حقِّي بالقنا ومشايخٍ كأنهمُ من طولِ ما التَّشَمُّوا مُردُ^(٢)

نُقالٍ إذا لا قوا خِفافٍ إذا دُعوا

كثيرٍ إذا شدوا قليلٍ إذا عدوا^(٣)

وطَئِنِ كَأَنَّ الطَّعْنَ لا طَئِنَ عِنْدَهُ

وَضَرِبِ كَأَنَّ النِّارَ مِنْ حَرِّهِ بَرْدُ^(٤)

(١) الجرد جمع أجرد والاجرد من الخيل : السابق .

(٢) يقول : سأطلب حقى بالرماح وبصحب لى لا يفارقون الحروب فلا يفارقهم اللثام ولا ترى لحام فكأنهم مرد ، واللثام فى الحرب عادة العرب لثلا تسقط عمامتهم وقال الواحدى : كنى بالقنا عن نفسه وبالمشايخ عن أصحابه يعنى : أنه يطلب حقه بنفسه وبغيره ، وأراد : أنهم محسكون مجربون ولذلك جعلهم مشايخ

(٣) مراده بكوتهم نقالا : شدة وطأتهم على العدو أو ثباتهم لدى اللقاء ، وكنى بالحقفة عن سرعة الإجابة إذا دعوا للنجدة ، وبالكثرة عن سد الواحد مسد الجماعة أى أنهم على قاتهم فى العدد يغنون غناء السواد الأعظم

(٤) وطعن : عطف على القنا والضمير فى عنده يعود إلى الطعن الأول يقول : وأطلب حقى بطعن شديد كأن كل طعن غيره بالقياس إليه لا شىء ، وبضرب حاز كأن حر النار بالإضافة إليه برد

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِجٍ

رِجَالُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شَهِدٌ^(١)

وهم يفضلون الثَّيْبَانَ على الكهول في الحروب ، وقد أورد الراجب في محاضراته أبياتاً عزاهما إلى طاهر بن الحسين ، في هذا المعنى^(٢) ، والأبيات وإن كانت في معناها قد أصابت مقطع الحق والسداد بَيِّنَاتٌ مِثْلُهَا ليس من الجمال في شيء ومن ثمَّ استحسننا أن ننتشرها ونوردنا عليك مشورةً ألقاها مع المحافظة على المعنى ، وهاكها : مِنْ صَائِبِ الرَّأْيِ أَنْ تَسْتَظْهِرَ فِي تَدْبِيرِ حَرْبِكَ بِالشَّيْخِ المَحَنِّكِينَ الَّذِي تَمَرَّسُوا بِالأَيَّامِ حُلُومِهَا وَمُرَّهَا ، وَالَّذِينَ تُغْنِي آرَائِهِمْ غَنَاءَ العَمَلِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُغْشَى الوَغَى إِلَّا بِحَدِيثِ السَّنِّ مُقْتَبِلِ الشَّبَابِ ، فَإِنَّ الكَهُولَ الَّذِينَ تَنْقَسُ بِهِمُ العُمُرَ وَاقْتَرَبُوا مِنْ مَنَاهِلِ المَوْتِ تَرَاهُمْ يَتَمَثَّلُونَ المَوْتَ أَوَّلًا بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ خَوْفًا وَجَزَعًا ، وَمِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ يَجُوبُونَ ، أَمَا حَدِيثُ السَّنِّ فَإِنَّ لَهُ شَأْرًا بَعِيدًا يُرِغُهُ ، وَأَمَّا عِرَاضًا يَحَاوِلُ تَحْقِيقَهَا ، وَمِنْ هُنَا كَانَ جَرِيئًا طَمُوحًا بَعِيدًا مُرْتَقَى الهِمَّةِ فَهُوَ لَا يَبَالِي أَسْقَطَ عَلَى المَوْتِ أَمْ سَقَطَ المَوْتُ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ المَوْتَ لَيْسَ مِنْهُ عَلَى بَالٍ ...

(١) في فهمها أراد : في أفواهها فأوقع الواحد موقع الجماعة ، والسابج : الفرس

السريع الجري كأنه يسبح

(٢) هو والد عبد الله بن طاهر ، وكان من أكبر أعوان المأمون وهو الذي

تولى محاربة الأمين حتى قتله وهو وإن كان أديباً يحب الشعر إلا أنه لم يرد له شعر

فلعل هناك تحريفاً في المحاضرات ولعل الأبيات لابن عبد الله بن طاهر الذي كان له

شعر مليح .

العاجز أعاديه عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك

قال علي بن جبلة المعروف بالعكوك من أبيات يمدح بها أبا غانم
حميد بن عبد الحميد الطوسي :

يَرْتُقُ مَا يَفْتُقُ أَعْدَاؤُهُ وليس بأسو فَتَقَهُ آمِي (١)
فالنَّاسُ جِسْمٌ وَإِمَامُ الْهُدَى رأسٌ وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّاسِ
وقال الكُمَيْت :

لَا يَهْدِمُ النَّاسُ مَا تَبْنِي أَكْفُهُمْ مِنَ الْفَعَالِ وَلَا يَبْنُونَ مَا هَدَمُوا (٢)
وقال أشجع السُّلَمِي من قصيدة يمدح بها جعفر بن يحيى البرمكي وزير
الرشيد :

وَلَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَن حَطَّهُ وَلَا يَضْمُونُ الَّذِي يَرْفَعُ
وابعده :

تَرِيدُ الْمَلُوكَ مَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَضْنَعُونَ كَمَا يَضْنَعُ
وليس بأوسعهم في الغنى ولكنَّ معروفه أوسع
وهذا البيت الثالث من قول ابن زياد الأعرابي :

وَلَمْ يَكْ أَكْثَرَ الْفَتِيَانِ مَالًا وَلَسْكَنَ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا

(١) ارتق ضد الفتق وهو : لام الفتق وإصلاحه ، وبأسو فتقه مجاز من أسا
الجرح بأسوه : داواه . والآسي : الطيب المداوي
(٢) الفعال : الفعل الحسن

وقال المتنبي :

لا يجبرُّ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ولا يهَيِّضونَ عَظْمًا أَنْتَ جَاوِرُهُ (١)

من تصحبه الطيور والسباع في القتال

أول من وَصَفَ المحارِبَ تَصَحَّبَهُ الطيورُ والسباعُ رِقَّةً بانتصاره ،
وبالشَّبَعِ من فرائسِهِ : النابغة الذبياني إذ يقول في قصيدة له يمدح بها عمرو
ابن الحارث الأصغر من ملوك غَسَّان بالشام :

عصائبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ	إذا ما غزوا بالجيشِ حلقَ فوقهم
من الضارياتِ بالدماءِ الدَّوَارِبِ	يُصَاحِبَتُهُمْ حتى يُغْرَنَ مَغَارَهُمْ
جلوسَ الشيوخِ في ثيابِ المراتِبِ	تراهنَّ خلفَ القومِ خُزراً عيونها
إذا ما التقيَ الجمعانِ أولُ غالبِ	جوانِحَ قد أيقنَّ أن قيسلَهُ
إذا عرَّضَ الحظيُّ فوق السكواثِبِ	لهنَّ عليهم عادةٌ قد عرفنَهُما

« العصائب : الجماعات . وقوله : يصاحبنهم يقول : تسير جماعاتُ
الطير معهم كأنما تغير ياغارتهم على الأعداء ، وهذه الطيور من المتدربات
الضاريات المولعات بدماء القتلى . والخزر جمع أخزر وخزراء أى : ضيقة
العيون خلقة ؛ أو أنها تتخازر ، أى تقبض أجفانها ، لتحدِّدَ النظر ، وقوله
جلوس الشيوخ ، أى أنها لدى اشتداد القتال تقعُّ على أعالي الأرض والهضاب
كأنها في ريشها ووقوفها وتحديد النظر ترقبُ القتلى جالسةٌ جلوس
الشيوخ إذا التفوا بأكسيَّةِ المراتبِ يحدِّدونَ النظر إلى شيء بعيد ، والمراتب

(١) هاض العظم : كسره بعد الجبور

جمع مَرَبَّانِي ، وهو الثوب المبطن بفراء الأراب . وجوانح : مائلات
للوقوع . والخطي : أى القنا المذسوبة إلى الخط - بلد بالبحرين - والكواثب
- بالشاء المئانة - جمع كائبة ، وهى من جسم الفرس ماتحت الكاهل . إلى
الظهر بحيث إذا نُصِبَ عليه السرجُ كانت أمام القَرَبُوسِ يوضع الفارس
عليها رُفْحُه مُسْتَعْرِضًا ، يقول : اعتادت الطير أن الرماح إذا عُرِضت على
الكواثب كان ذلك لِرِزْقِ بُسَاقِ إِلَيْهَا .

وقال أبو تمام :

وقد ظَلَلَتْ عِقْبَانُ أَعْلَامِهِ ضُحَى بَعْقَبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ (١)
أَقَامَتْ مَعَ الرَايَاتِ حَتَّى كَانَهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهُمْ تَفَارَتِلِ
وَقَالَتْ جَنُوبُ آخَتْ عَمْرٍو ذَى السَّكْبِ تَرْتِيهِ :

تَمَشَّى الدُّورُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشَى العَدَارَى عَلَيْهِنَّ الجَلَابِبُ

« الجلاببُ : ثوبٌ أَوْسَعُ مِنَ الخِثَارِ دون الرداء تُغَطِّي بِهِ المرأةُ رَأْسَهَا
وقيل : الملاءةُ التى تَشْتَمِلُ بِهَا ، ومعنى قوله وهى لاهية : أن النسور
آمنةٌ منه لا تَفَرِّقُهُ لكونه مَيْتًا فهى تمشى إليه مَشَى العَدَارَى ، وأول هذه
المرئية :

كُلُّ امْرِئٍ يَطْوَالِ العَيْشِ مَكْدَرُبُ
وَكُلُّهُ مِنْ غَالِبِ الأَيَامِ مَغْلُوبُ

وقال المتنبي :

(١) العقبان الأولى جمع عقاب : الراية الضخمة ، والثانية جمع عقاب أيضاً :
سباع الطير .

تَرَكْتَ جَمَاجِمَهُمْ فِي النَّقَا . وَمَا يَتَخَلَّصْنَ لِلنَّاخِلِ (١)
فَأَنْبَتَ مِنْهُمْ رَيْبَعَ السَّبَاعِ فَأَنْتَ يَا حَسَانَكَ الشَّامِلِ

وقال :

سحابٌ مِنَ الْعُقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا سحابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَّتْهَا صَوَارِمُهُ

وقال في صفة جيش وقد ألمَّ بهذا المعنى :

وَذِي لَجِبٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ بِنَاجٍ وَلَا الْوَحْشُ الْمُنَارُ بِسَالِمِ (٢)
تَمْرٌ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ تُطَالَعُهُ مِنْ بَيْنِ رَيْشِ الْقَشَاعِ (٣)
إِذَا ضَوْوُهَا لَا قِيَّ مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةٌ

تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ (٤)

وقال :

يُطَمَعُ الطَّيْرَ فِيهِمْ طَوْلُ أَكْلِهِمْ حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَائِهِمْ تَقَعُ

(١) النقا : الكتيب من الرمل يقول : دست رؤسهم بحوافر الخيل فطحنها وامتزجت بالرمل حتى لو نخل الرمل لم يتخلص من رؤسهم شيء ، ثم قال في البيت التالي : تركتهم جزراً للسباع فأخصبت بكثرة القتلى فكأنك أنبت لها ريبعاً فلو قدرت السباع لأنبت عليك بما شملتها من إحسانك

(٢) اللجب : اختلاط الأصوات ، والمثار : الذي أثاره الخوف من مكنه يقول إذا طار ذو الجناح وسايره فليس بناج لكثرة الرماة في الجيش ، وإن نار وحش أخذ

(٣) القشاعم : النور يقول : تمر الشمس على هذا الجيش وهي ضعيفة من كثرة عقبانها التي تخيم عليه وتبعه ولا ينفذ ضوءها إليه إلا في خلال النور كما ذكر في البيت التالي

(٤) البيض جمع بيضة وهي : الخوذة ، شبه ما يتساقط من الضوء في فرج أجنحة الطير فوقع بالدرهم يقول لكثرة اشتباك الطير لا يصل إليه ضوء الشمس إلا من منافذ ضيقة فوقع مستديراً

وقال أبو نواس :

تَأْيَأُ الطَّيْرِ عُذْرَتُهُ ثِقَةً بِالشَّبْعِ مِنْ جَزْرِهِ
« تأيأ الشيء : قصد آيته ، أى شخصه . والجزر : قَطَعَ اللحم »

عذر من يلبس الدروع

ونحوها في الحرب والمستغنى بشجاعته وبقينه عنها

قال أبو تمام في المستغنى بجلادته عن الدروع :

إِذَا رَأَوْا لِلنَّبَايَا عَارِضًا لِبُسَا مِنْ اليَقِينِ دَرُوعًا مَا لَهَا زَرْدُ
وَسُسَيْلَ بَعْضِ الأَبْطَالِ : فِي أَى الجُنَيْنِ يُحِبُّ أَنْ تَلْقَى عَدُوَّكَ ؟
قال : فِي أَجَلٍ مُسْتَأْخِرٍ ... وَقِيلَ لِآخِرِ : لَوْ احْتَرَسْتَ فَقَالَ : كَفَى
بِالأَجَلِ حَارِسًا ...

وما يؤثر في كثرة لبس الدروع والاستعداد للحرب أبدأ قول مسلم بن
الوليد من قصيدته التي يمدح بها يزيد بن يزيد الشيباني وهو ابن أخى معن
ابن زائدة :

تراه في الأَمْرِ فِي دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ
لا يَأْمَنُ الدَّهْرَ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلٍ

وبعده :

لا يَعْجَبُ الطَّيْبُ حُدَيْهِ وَفَرَقَهُ ولا يُسَّحُّ عَيْلِيهِ مِنَ الكَحْلِ
يُروى أَنَّ عَمَّهُ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ كَانَ يُقَدِّمُهُ عَلَى أَوْلَادِهِ فَعَاتَبَتْهُ امْرَأَتُهُ
فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهَا : فَأَرِيكِ مَا تَبْطِئِينَ بِهِ عَذْرِي ، يَا غَلَامَ ، إِذْ هَبْ فَادْعُ
حَسَّاسًا وَزَائِدَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ وَفُلَانًا وَفُلَانًا حَتَّى أَنْتَى عَلَى جَمِيعِ أَوْلَادِهِ إِلا لَسْتُ

أن جاؤا في الغلائل الْمُطَيِّبَةَ والنَّعَالَ السَّنْدِيَّةَ ، وذلك بعد هُدَاةٍ من الليل ، فسَلَّوْا وجلسوا ، ثم قال مَعْن ، يا غلام ، ادع يزيدَ ، فلم يلبث أن دخلَ عَجَلًا وعليه سلاحُه ، فوضع رُوحَه بياب المجلس ، ثم دخلَ ، فقال مَعْنُ له : ما هذه الهيئة يا أبا الزبير ، فقال : جاءني رسولُ الأمير فسبق وَهَمِي إلى أنه يُريدني لِمِهِمْ فَلَبِسْتُ سلاحِي وقلت : إن كان الأمر كذلك مَضَيْتُ ولم أُعْرَجْ وإن كان غيرُ ذلك فَنَزَعُ هذه الآلة عني من أيسر الأشياء ، فقال مَعْن : انصرفوا في حفظ الله ، فلما خَرَجوا قالت زوجته قد تَبَيَّنَ لي عُدْرُكَ ، فَأُنشِدُ مَثَمَلًا :

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَدَتْ عِصَامًا وَعَلِمَتْهُ الْعُكْرُ وَالْإِفْدَامَا
وَصَيَّرَتْهُ مَلِكًا هُمَامَا

وإلى ذلك أشار مسلم بالبيتين المذكورين : ويُروى : أن مُسَلِّمًا لما انتهى في إنشاد هذه القصيدة إلى البيت الأول قال له يزيد المددوح : هَلَا قَلتَ كما قال أعشى بكر بن وائل في مدحه قيس بن معد يكرب ^(١) وإذا تجيءُ كَتِيبَةٌ مَلُومَةٌ شَهَبَاءُ تَجْتَلِبُ الكَمَاءُ نِزَالَهَا ^(٢) كنتُ المَقَدَّمُ غيرُ لابسِ جُنَّةٍ بالسيفِ أَضْرِبُ مَعْلِبًا أَبْطَالَهَا ^(٣)

(١) هذا قيس هو والد الأشعث بن قيس الكندي الصحابي

(٢) السكتبية : القطعة العظيمة من الجيش ، وكتيبة ملومة : مجتمعة مضموم بعضها الى بعض ، وشهباء : لما فيها من بياض السلاح والحديد في حال السواد ، والكماء : الأبطال مدججين بالسلاح

(٣) رحل معلم : يعلم مكانه في الحرب بعلامة جعلها لنفسه وهو شأن الشجعان وأبطالها مفعول تضرب .

فقال مسلم : قولى أحسن من قوله لأنه وَصَفَهُ بِالْحُرْقِ وَأَنَا وَصَفْتَهُ
بِالْحَزْمِ . وَيُرْوَى مِثْلَ هَذَا لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مَعَ كَثِيرٍ عَزَّةً ...

تحریم الملاهی علی المحارب

قال معاوية رضى الله عنه : مَاذُوتُ أَيَّامَ صِفِّينَ ^(١) لِحِمَاً وَلَا حَلْوَاءَ
بَلْ أَتَّصَرْتُ عَلَى الْخَبْزِ حَتَّى فَرَعْتُ .

وَكَتَبَ عَامِلُ الْبَيْتِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي وَقْتِ مُحَارَبَتِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
ابْنَ الْأَشْعَثِ : إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِجَارِيَةٍ اشْتَرَيْتُهَا بِمَالٍ عَظِيمٍ ،
وَلَمْ يُرَ مِثْلُهَا قَطُّ ، فَلَمَّا دَخَلَ بِهَا عَلَيْهِ رَأَى وَجْهَهَا جَمِيلًا وَخَلْقًا نَدِيمًا ،
فَأَتَى إِلَيْهَا أَضْيَابًا كَانَتْ فِي يَدِهِ فَتَنَكَّسَتْ لِتَأْخُذَهُ ، فَرَأَى جِسْمًا قَدْ بَهَرَهُ ،
فَلَمَّا هَمَّ بِهَا أَعْلَمَهُ الْأَذِنُ أَنَّ رَسُولَ الْحِجَابِ بِالْبَابِ فَأَذِنَ لَهُ ، وَنَحَى
الْجَارِيَةَ ، فَأَعْطَاهُ كِتَابًا مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ كِتَابًا ، ثُمَّ
بَاتَ يُقَلِّبُ كَفَّ الْحَارِيَةَ وَيَقُولُ : مَا أَفَدْتُ فَائِدَةً أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ ، فَتَقُولُ :
فَمَا بِالَّذِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا يَمْتَعُكَ ؟ فَقَالَ : يَمْنَعُنِي مَا قَالَهُ الْأَخْطَلُ ، لِأَنِّي
إِنْ خَرَجْتُ مِنْهُ كُنْتُ أَلَّامَ الْعَرَبِ :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَا زَرَمَ دُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ
فَمَا إِلَيْكَ سَبِيلٌ أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَدُوِّ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ ،
فَلَمْ يَقْرَبْهَا حَتَّى قَتَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَوْلَ الْأَخْطَلِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ ،

(١) صِفِّينَ : مَوْضِعٌ بِقَرْبِ الرَّقَّةِ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ مِنَ الْجَانِبِ الْقَرْبِيِّ وَأَيَّامُ
صِفِّينَ : أَيَّامُ الْحَرْبِ بَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَكَانَتْ مَدَّتْهَا مِائَةٌ يَوْمٍ وَعِشْرَةٌ
أَيَّامًا وَكَانَتْ وَقَائِعُهَا تَسْعِينَ وَقَعَةً وَكَانَتْ فِي سَنَةِ ٣٧ هـ .

يعنى : أنه يَجْتَبِيهَا فِي طُهْرِهَا وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يَسْتَقِيمُ لَهُ غَشْيَانُهَا فِيهِ
 وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الْأَعَشِيُّ مِنْ كَلِمَةٍ لَهُ يَمْدَحُ بِهَا هُوَذَةَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ الْحَنَفِيِّ :
 وَفِي كُلِّ عَامٍ أَنْتَ جَاشِمٌ غَزْوَةٌ تَشُدُّ لِأَقْصَاهَا عَزِيمٌ عَزَائِكَ
 مُورَثَةٌ مَالًا وَفِي الْحَيِّ رِفْعَةٌ لِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَ
 « جاشم اسم فاعل جَشِمَ الْأَمْرَ - بِالْكَسْرِ - تَكَلَّفَهُ عَلَى مَشَقَّةٍ ،
 وَالْعَزِيمُ كَالْعَزِيمَةِ مَصْدَرُ عَزَمَ عَلَى الْأَمْرِ : جَدَّ فِي عَمَلِهِ ، وَالْعَزَاءُ : الصَّبْرُ
 يَقُولُ الْأَعَشِيُّ : أَنْتَ فِي كُلِّ عَامٍ تُكَلِّفُ نَفْسَكَ الْغَزْوَ وَاقْتِحَامَ مَكَارِهِهَا
 تَشُدُّ وَتُوَثِّقُ عَزِيمَةَ صَبْرِكَ لِأَقْصَاهَا ، أَيْ أَبْعَدِهَا وَأَعْلَاهَا ، أَوْ غَايَتَهَا
 وَمُنْتَهَاهَا ، وَهَذِهِ الْغَزَوَاتُ تُورَثُكَ مَا لَا كَثِيرًا بِنِجْمَانِهَا ، وَرِفْعَةٌ لَكَ فِي
 الْحَيِّ . وَالْقُرُوءُ جَمْعُ قَرْوٍ وَهُوَ : الطُّهْرُ هُنَا ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : وَالْمَطْلَقَاتُ
 يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فَقَالَ الْحِجَازِيُّونَ الْقُرُوءُ :
 الْأَطْهَارُ ، وَقَالَ أَهْلُ الْعِرَاقِ الْحَيْضُ ، أَمَا فِي قَوْلِ الْأَعَشِيِّ فَالْقُرُوءُ : الْأَطْهَارُ
 لِأَلْحَيْضِ لِأَنَّ الدَّمَاءَ إِذَا يُؤْتَيْنِ فِي أَطْهَارِهِنَّ لِأَنَّهُنَّ حَيْضُهُنَّ فَإِنَّمَا ضَاعَ
 بِغَزْوِهِ وَغَلَبَتْهُ عَنْهُنَّ أَطْهَارُهُنَّ . هَذَا وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ : لِمَا ضَاعَ فِيهَا لِأَنَّ
 الْعَاقِبَةَ مِثْلَهَا مِثْلُ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
 لِيَعْبُدُونِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا . هَذَا وَقَوْلُهُ تَعَالَى ثَلَاثَةَ
 قُرُوءٍ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : جَاءَ هَذَا عَلَى غَيْرِ الْقِيَاسِ وَالْقِيَاسُ : ثَلَاثَةُ أَقْرَاءٍ وَلَا
 يَجُوزُ أَنْ يَقَالَ : ثَلَاثَةُ فُلُوسٍ ، إِذَا يَقَالَ : ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ إِذَا أَكْثَرَتْ فَهِيَ
 الْفُلُوسُ ، وَلَا يَقَالَ : ثَلَاثَةُ رِجَالٍ إِذَا هِيَ ثَلَاثَةُ رَجُلَةٍ ، وَلَا يَقَالَ ثَلَاثَةَ
 كِلَابٍ إِذَا هِيَ ثَلَاثَةُ أَكْلَبٍ . وَقَالَ النَّحْوِيُّونَ : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ
 أَرَادَ : ثَلَاثَةَ مِنَ الْقُرُوءِ ،

طائفة من عبقرياتهم في الصلح

والتحذير من الحرب

قال عز وجل : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا . » (السلم : الصلح ، بفتح السين وكسرها ، وتذكّر وتوثك ، وقال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأْصَلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . » (نزلت هذه الآية الكريمة في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهده عليه الصلاة والسلام بالسعف والنعال ، والجمع في اقتتلوا باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع ، وبغت : تعدت ، وتفيء : ترجع ، وأقسطوا : أعدلوا »

ومن كلامهم : الحرب صعبة مرة ، والصلح آمن ومسرّة
ومنه : إياك والمعادة ، فإنك لن تعدم مكرّ حلیم ، أو مفاجأة لئيم .
ومنه : لا تستثيروا السباع من مرائبها فتندموا ، وداروا الناس
في جميع الأحوال

ومنه : الفتنه نائمة ، فن أيقظها فهو طعامها « الفتنه هنا : ما يقع بين الناس من القتال والحروب . »

وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته :

وما الحرب إلا ما علبتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضرّيتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرّحى بيّفأها وتلتح كشافاً ثم تلتج فتسهم

فَتُلْتَجِّحُ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كَأُحْمِهِمْ كَأُحْمِ عَادٍ ، ثُمَّ تُرَضِعُ فَتَقَطِّمِ .
فَتُغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تُعِلُّ لِأَهْلِهَا قَرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمِ .

إِن أَنْ قَالَ :

وَمَنْ يَعِصِ أَطْرَافَ الرَّحَاجِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ الْعَوَالِي رُكِبَتْ كُلُّ لَهْدَمِ
« المرجم من الحديث : المقولُ بطريق الظنِّ لا عن تحقيق ، يقول :
وما حدثني عن الحرب وتخويفكم أهوالها بالحديث المُفْسَرِي ، وإنما أنتم قد
علمتم وبلاتِ الحرب وذقتموها فلا تقرَّبوها ؛ وَضَرِي يَضْرِي : اشتدَّ حرُّه
والضرية : الحمل على الضراوة . وَضَرِمَتِ النَّارُ تَضْرِمُ : التَّهَبَتْ يقول :
مَتَى تَهَيَّجُوا الْحَرْبَ تَهَيَّجُوهَا مَذْمُومَةٌ ، أَي تُذَمُّونَ عَلَى إِثَارَتِهَا ، وَيَشْتَدُّ
حَرُّهَا إِذَا حَمَلْتُمُوهَا عَلَى شِدَّةِ الْحَرِّ فَيَشْتَدُّ حَرُّهَا وَتَلْتَبُ نَارُهَا ، يُحْتَبُّهُمْ
عَلَى التَّمَسُّكِ بِالضَّمْحِ وَيَنْدَرُهُمْ بِسُوءِ عَاقِبَةِ إِيقَادِ نَارِ الْحَرْبِ . وَقَوْلُهُ : فَتَعْرَكُكُمْ
أَلَيْتَ ، فَالْعَرَكُ : الدَّلْكُ ، وَالثَّقَالُ : الْجِلْدُ أَوْ الْحِرْزَةُ تُوضَعُ تَحْتَ الرَّحَى
لِيَقَعَ عَلَيْهَا الطَّحِينَ ، وَالبَاءُ فِي « بِثِقَالِهَا » بِمَعْنَى مَعَ ، وَالْفَاحُ : حَمَلُ الْوَلَدِ
يُقَالُ : لَقِحَتْ النَّاقَةُ تَلْقَحُ : إِذَا حَمَلَتْ ، وَتَلْقَحُ كِشَافًا : أَي تَلْقَحُ لِفَاحًا
كِشَافًا ، بَأَن تَحْمِلَ فِي عَامَيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ ، وَتُنْتِمُّ : أَي تَأْتِي فِي كُلِّ مَرَّةٍ
بِتَوَّءَيْنِ ، يَقُولُ : إِذَا هَجَمَ الْحَرْبَ طَخَنَتْكُمْ طَحْنُ الرَّحَى الْحَبِّ مَعَ ثِقَالِهَا
وَتَطُولُ شِدَّتُهَا وَوَيَلَاتُهَا وَتَتَوَلَّدُ مِنْ جَرَائِمِ صَنُوفٍ وَضُرُوبٍ مِنَ الْأَهْوَالِ
وَالشُّرُورِ ، وَمَثَلُهَا فِي ذَلِكَ مَثَلُ النَّاقَةِ تَحْمِلُ حَمَلَيْنِ فِي عَامَيْنِ مُتَوَالِيَيْنِ ثُمَّ
لَا تَلِدُ إِلَّا تَوْءَمَيْنِ ، جَعَلَ إِفْنَاءَ الْحَرْبِ إِيَابَهُمْ بِمَنْزِلَةِ طَحْنِ الرَّحَى الْحَبِّ
وَجَعَلَ صَنُوفَ الشَّرِّ تَتَوَلَّدُ مِنَ الْحَرْبِ بِمَنْزِلَةِ الْوِلَادِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَمْهَاتِ
وَبَالِغٍ فِي وَصْفِهَا بِاسْتِبْعَابِ الشَّرِّ شَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا جَعَلَهُ إِيَابًا لِاقْتِحَةِ كِشَافًا ،

والآخر إنآمها . وأشام مصدر من الشؤم ، على وزن أفعل ، أو صفة
 لمخزوف ، واحمر عاد : لقب لعاقرة ناقة صالح عليه السلام نبي ثمود وأسمه
 قَدَار ، وكان عقره لهذه الناقة شؤماً على قومه ، ويريد بعاد ثمود إما توئها
 وخطأ وإما لأن ثمود من عاد ، يقول : إن هذه الحرب تطول ويلاتها
 وشُرورها وتلدج لكم غلمان شؤم أو غلمان أب أشام شؤم قدار
 عاقرة الناقة ، ثم تعيش هذه الغلمان فتترضعهم الحرب وتقطمهم ، وكل
 ذلك كناية عن طول ويلات الحرب وطول شرورها . وقوله : فتغلل
 لكم ... أليت يقول : فتغلل لكم هذه الحرب ضرورياً من الغلات ليست
 كغلات قري العراق من الحلب الذي يكال بالقفيز ، أو من ثمن الغلة وهي
 الدراهم ، يعنى : أن المضار المتولدة من هذه الحرب تُربى على المنافع المتولدة
 من هذه القري ، وكل هذا حدث منه لهم على الاعتصام بعري الصلح وزجر
 عن إيقاد نار الحرب التي تلك أفاعيلها وأعوالها . وقوله : ومن يعص ...
 أليت فالزجاج جمع زجاج وهو الحديد المركب في أسفل الرمح ، واللهزم : السنان
 الطويل يقول : من يعص أطراف الزجاج أطاع عوالي الرماح التي ركبت فيها
 الأسنة الطوال الحادة والمعنى : من أبى الصلح ذلته الحرب وليته ، وكانت
 العرب إذا التقت رمتان منهم سدّت كل طائفة منهما نحو صاحبها زجاج
 الرماح وسعى الساعون في الصلح ، فإن أبنا إلا التامدى في القتال قلبت كل
 واحدة منهما الرماح واقتلتنا بالآيئة . ، وقال كثير :

رَمَيْتَ بِأَطْرَافِ الزَّجَاجِ فَلَمْ يُفِيقْ مِنْ الْجَهْلِ حَتَّى كَلَّمْتَهُ نِصَالِهَا
 وَخَطَبَ بَعْضُهُمْ خُطْبَةً طَوِيلَةً لِصُلْحِ أُمَّةٍ ، يُقَالُ لَهُ رَجُلٌ : أَنْتَ مُدْ
 الْيَوْمِ تَرَعَى فِي غَيْرِ مَرَعَاكَ ... أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى الْمَقَالِ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ :

«أما بعد» فإن الأصحاب بقاء الآجال، وحفظ الأموال، والسلام. فليأتم القوم ذلك تعانقوا وتواهبوا الديات.

وكتب سَلْمُ بْنُ قَتَيْبَةَ بن مسلم إلى سعيد المَهَلَبِيِّ لما تحاربا بالبصرة:
خُذُوا حَظَّكُمْ مِنْ سَلِينَا إِنْ حَزَبْنَا

إذا زبلته الحربُ : نارهٌ تَسَعَّرُ (١)

وإني وإيّاكم على ما يسوءكم لِمِثْلَانِ أَوْ أَنْتُمْ إِلَى الصِّلْحِ أَفْقَرُ
وقال حكيم : دارِغْ بِالْحَرْبِ مَا أَمَكْنَ ، فَإِنَّ النَّفْقَةَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ
الْأَمْوَالِ ، إِلَّا الْحَرْبِ ، فَإِنَّ النَّفْقَةَ فِيهَا مِنَ الْأَرْوَاحِ ، عِلَاوَةً عَلَى
الْأَمْوَالِ .

وقال النابغة الجعديّ :

وَتَسْتَلِبُ الْمَالَ الَّذِي كَانَ رَبِّهَا ضَيْبِنًا بِهِ وَالْحَرْبُ فِيهَا الْحِرَابُ
وقد تبعه أبو تمام فقال :

❖ وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةٌ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرْبِ ❖

«الْحَرْبُ : أَنْ يُسَلَبَ الرَّجُلُ مَالَهُ»

وقال شاعر يُسَمَّى حِلْحَلَةَ بن قيس الكِنَانِي (٢)

دَعَانِي أَشْبُ الْحَرْبَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَقُلْتُ : لَا ، بَلْ هَلُمَّ إِلَى السِّلْمِ
ومهلا عن الحرب التي لا أديمها صَحِيحٌ وَمَا تَنَفَّكَ تَأْتِي عَلَى سُقْمِ
فإن يظفر الحِزْبُ الَّذِي أَنْتَ مِنْهُمْ وَأَبُوا بِدُهُمٍ مِنْ سِبَاءٍ وَمِنْ غُظْمِ

(١) زبلته : دفعته وصدمته ، وحرب زبون : شديدة يدفع بعضها بعضاً من الكثرة .
(٢) هذه الآليات تراها كاملة في حسانة البحرى .

فَلا بُدَّ من قَتَلَى لَعَلَّكَ فِيهِمْ وإِلا فَجَرَحُ لَيْسَ يَكْفِي عَنِ العَظْمِ^(١)
فَلَمَّا أبى أُرْسِلْتُ فَضَلَّةَ ثَوْبِهِ إِلَيْهِ فَلَم يَرْجِعْ بَعِزْمٍ وَلا حِزْمٍ
فَلَمَّا رَمَانِيَا رَمَيْتُ سِوَادَهُ وَلا بُدَّ أَنْ تَرِمِي سِوَادَ الَّذِي يَرِمِي
فَبَيْتُنَا عَلَى لَحْمٍ مِنَ القَوْمِ غَوِذِرَتْ أَسِنَّتُنَا فِيهِ وَبَاتُوا عَلَى لَحْمٍ-
وَكَانَ صَرِيحَ الجَهْلِ أَوَّلَ وَهَلَّةِ فَبُعْدًا لَهُ مِخْتَارَ جَهْلٍ عَلَى عِلْمٍ-

الحرب تصيب جانبيها وغير جانبيها

العرب تقول : الحرب غشومٌ ، لأنها قد تنال غير جانبيها .
وتقول : * وليس يَصْلَى بنارِ الحربِ جانبيها *
* وأصبحَ مَنْ لم يَجْنِ فيها كَذَى الذَّنْبِ * .

وقال الحارث بن عَبَّاد :

قَرَّبَا مَرَبِطَ النِّعَامَةِ - مِنى لَقِحتُ حَرْبَ وائِلٍ عَنِ حِيَالِ
لَمْ أَكُنْ مِنَ جُنَاتِهَا عَليمَ اللهُ وَإِنى يَحْرُها اليَوْمَ صالِ
قَرَّبَاها بِأَنَّ كَفَى رَهْنُ أَرْتزولُ الجِبالُ قِبلَ الرِجالِ
« النعامة : فرسه ، ولقيحت : حملت ، وحرب لا ينع : مثل بالآشي الحامل ،
وعن حيال : بعد حيال ، أى بعد أن لم تحمل ، وصلى بالنار : قانى حرها
أو احترق بها »

وقال ابن الرومى :

رَأيتُ جُناةَ الحَرْبِ غيرَ كُفَّاتِها إِذا اِختَلَفَتْ فِيها الرِماحُ الشِواجِرُ

(١) ليس يكفي عن العظم لعله يريد : إن جروح الحرب ليست من الجروح
المعروفة ولكنها جروح تصمى وتقتل

كذلك زناد النار عنها بنجوة ولكننا يصلي صلاحها المساعِرُ
 المساعر : جمع مسعر ، وهو : ما تحرك به النار من خشب ونحوه ، ومُسعرُ
 الحرب : وقدها ،

الممتنع من الصلح

قال أبو زيد الطائي — شاعر مخضرم ، كان في الجاهلية مقبياً في أخواله
 بنى تغلب بالجزيرة ، وفي الإسلام منقطعاً إلى الوليد بن عتبة بن أبي معيط
 في ولاية الجزيرة وولاية الكوفة ، ولم يزل به الوليد حتى أسلم ، وقد كان
 نصرانياً ، والأكثر على أنه مات على نصرانيته — :

بعثوا حربنا إليهم وكانوا في مقام لو أبصروا ورخاء
 ثم لما تشذرت وأنافت وتصلوا منها كرية الصلاة
 طلبوا صلحنا ولات أوان فاجبنا أن ليس حين بقاء
 فلحنا الله طالب الصلح منا ما أطفأ العيس بالله مناء

« لو أبصروا فلنو للتمنى ، ورخاء : عطف على مقام ، وتشذرت يقال :
 تشذرت فلان إذا تها للقتال ، وتشذرت القوم في الحرب : أى تطاولوا
 واشربوا ، وأنافت : زادت ، وتصلوا : من صلى النار صلاً ، من باب
 تعب : قاسى حرها ، والصلاء ككتاب : حر النار ، وطلبوا صلحنا :
 جواب لما ، وقوله : ولات أوان فللنحويين في تخريجها كلام كثير
 وأوجهها أن أصلها : ولات أوان صلح ، أخذت الجملة وبني أوان
 على الكسر ، وليس حين بقاء : أى ليس الحين حين بقاء ، والبقاء :
 اسم من قولهم أبقيت على فلان إبقاء : إذا رحمته وتلطفت به ، والمشهور

أن الاسم منه ؛ البقياء والبقوى ، ولحا الله : أى قبَّحَ الله ، وما أطاف :
 فما مُصَدَّرِيَةٌ ظرفِيَّةٌ ، وأطاف وطاف : بمعنى دارَ على الشيء ، والمُبْسُ
 حادى الإبل ، وهو فى الأصل اسم فاعلٍ مِنْ أْبَسَسْتُ الإبل : إذا زَجَرْتَهَا
 والدهناء : موضع فى بلادِ بنى تميم «

وقال الزُّبْران :

فَلَنْ أَصَالِحُهُمْ مَا دُمْتُ ذَا فَرْسٍ وَأَشْتَدَّ قَبْضًا عَلَى الْأَسْيَافِ إِبْهَامِي

ضارع يطلب الصلح

قال المتنبي :

مِنْ أَطَاقَ التَّمَّاسِ شَيْءٌ غَلَابًا وَاغْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالًا

التحذير من صغير يفضى إلى كبير

قال الفرزدق :

تَصَرَّمْ عَنِّي وَدُّ بَكْرٍ بِنِ وَاثِلٍ وَمَا كَادَ عَنِّي وَدُّهُمْ يَتَصَرَّمُ
 قَوَارِصُ تَأْتِينِي وَتَحْتَقِرُونَهَا وَقَدْ بَلَأُ الْقَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفَعَّمُ

« يفعم : يمتلئ ، والقوارص جمع قارصة : الكلمة المؤذية »

وقال آخر :

ذُرُوا الْأَمْرَ الصَّغِيرَ وَزَمَّلُوهُ فَتَلْقِيحُ الْجَلِيلِ مِنَ الدَّقِيقِ

« زملوه : أخفوه »

وقال آخر :

قَدْ يَحْفَرُ الْمَرْءُ مَا يَهْوَى فَيَرُكِبُهُ حَتَّى يَكُونَ إِلَى تَوْرِيظِهِ سَبِيًا

وقال آخر:

إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقَهَا بِمَا يَهِيحُ بِهِ الْعَظِيمُ

ومن كلامهم: مَنْ الْحَبِيَّةِ تَنْبَتُ الشَّجَرَةَ الْعَمِيمَةَ؛ وَمَنِ الْجُرَّةُ تَكُونُ
النَّارَ الْعَظِيمَةَ. وَالتَّمْرَةُ إِلَى التَّمْرَةِ تَمْرٌ، وَالذُّوْدُ إِلَى الذُّوْدِ إِبِلٌ.

و * أَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرٌ ثُمَّ يَنْسَكِبُ *

و * كَمْ بِذِي الْأَثَلِ دَوْحَةٌ مِنْ قَضِيبٍ *

طائفة من عبقرياتهم في التهديد والوعيد

قلة غناء الوعيد

من أمثالهم: الصَّدَقُ يُبَيِّئُ عَنْكَ لَا الْوَعِيدُ، أَيْ: إِنَّمَا يُذَيِّئُ عُدُوكَ

عَنْكَ أَنْ تَصُدَّقَ فِي الْقِتَالِ، لَا أَنْ تُوعِدَهُ وَلَا تُنْفَذَ مَا تُوَعِدُهُ بِهِ «

وقالوا: مِنْ عِلَامَاتِ الْعَاقِلِ تَرْكُ التَّهْدِيدِ قَبْلَ إِمْكَانِ الْفُرْصِ، وَعِنْدَ

إِمْكَانِهَا الْوُثُوبُ مَعَ الشُّقَّةِ بِالظَّفَرِ.

وقالوا: * إِنَّ الْوَعِيدَ سِلَاحُ الْعَاجِزِ الْحَمِيْنِ *

« الْحَقِيقُ: الْأَحْمَقُ »

وقالوا: * إِنَّ الْكُتَابِيبَ لَا يُهْزَمَنَّ بِالْكَتُبِ *

من يتهدد بظهور الغيب ولا يغني غناءً

قال عنتره في معلقته:

وَلَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَكُنْ

لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي صَمُصَمِ

الشامى عَرَضِي ولم أَشْتَهُمَا والناذِرِينَ إِذَا لم أَلْقَهُمَا دى
« الدائرة : اسم للحادثة ، سميت بها لأنها تدور من خير إلى شر ومن
شر إلى خير ، ثم استعملت في المكرومة دون المحبوبة ، والدائرة : الهزيمة
والشوء يقال : عليهم دائرة السوء ، وفي الحديث : فيجعل الدائرة عليهم ،
أى الدولة بالغبلة والنصر ، وقوله سبحانه : ويتربصُ بكم الدوائر . قيل :
الموت أو القتل ، وقوله : والناذرين يقول : والموجبان على أنفسهما سفك
دى إذا لم ألقهما ، يريد : أنهما يتوعدانه حال غيبته أما في حال حضوره
فلا يتجاسران على ذلك »

وقال القَرَمَطِيُّ :

تَمَمَّانِي إِذَا لم تَرَنِي فَإِذَا جِئْتُ قَطَعْتَ القنطرة
يأبى العباسى مَنْ يَنْصُرُكُمْ أَصْبِي أم خَصِي أم مَرَّة

وقال آخر :

كَأَصْدَى يُسْمَعُ مِنْهُ صَوْتُهُ فَإِذَا طالَبْتَهُ لم يَسْتَبِينَ
« الصدا : ما يُجِيبُكَ من صوت الجبل ونحوه بمثل صوتك »

من لا يبالي بتهديده

قال جرير :

زعم الفرزدق أن سَيَقْتُلُ مِرْبَعًا

أَبَشِرُ بطول سلامة بِمِرْبَعُ

وقال مقاتل بن مِسْمَعٍ لعباد بن الحصين : لولا شيء لَأَخَذْتُ رَأْسَكَ

فقال : أَجَلُ ، ذلك الشيء سَيَبْنِي ...

وقال ابن أبي عيينة :

فَدَعَ الوَعِيدَ فَمَا وَعَيْدَكَ ضَارِي أَطِينُ أُجْنِحَةِ الذَّبَابِ يَضِيرُ

وقال الفرزدق :

مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَإِزِلَ أَهْجَوْتَهَا أَمْ بُلَّتْ حَيْثُ تَنَاطَحَ البَّحْرَانِ

وأبرق رجلٌ لآخر وأرعد فلما زاد أنشد :

قَد هَبَّتِ الرِّيحُ طُولَ الدَّهْرِ واخْتَلَفَتْ عَلَى الجِبَالِ فَمَا نَالَتْ رِوَاسِيهَا

طائفة من عبقرياتهم

في الهزيمة والخوف وأن الفرار لا يبقى من الموت

قال جل شأنه : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَنْ لَا تُنْتَعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا . « يقول سبحانه : لن ينفع الناس الفرار فإنه لا بد لكل شخص من ختف أنف أو قتل في وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم ، ثم قال جل شأنه : وَإِنْ نَفَعَكُمْ الْفِرَارُ مِثْلًا فَمُتَّعْتُمْ بِالتَّأخِيرِ لم يكن ذلك التمتع إلا تمتعاً وزماناً قليلاً . « وقال سبحانه : أينما تكونوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ . « البروج : الحصون ، والمشيّدة المرتفعة . »

وقال عليُّ يوم الجمل : إن الموت طالبٌ حثيث ، لا يُعْجِزُهُ الْمُتَمِيمُ وَلَا يَفْوَتْهُ الْهَارِبُ ، وَإِنْ لَمْ تُقْتَلُوا تَمُوتُوا ، وَإِنْ أَثْرَفَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ .
ومن أمثال العرب : فلانٌ أجراً من فارسٍ خصاف . « وخصاف كقطايم قرس قال السابون : كان مالك بن عمرو الغساني يقال له : فارس خصاف ، وكان من أجبن الناس ، فغزا يوماً ، فأقبل سهمٌ حتى وقع

عند حافرٍ فريسه فانعززَ في الأرض وجعل يهتز حيناً فقال : إن لهذا
السهم سبباً ينجئه — يُحرِّكه — فاخفى عنه ، فإذا هو قد وقع على نفق
يربوع فأصاب رأسه ، فتحرك اليربوع ساعةً ثم مات ، فقال : هذا في
جوفٍ جُحِرَ جاءه سهمٌ فقتله ، وأنا ظاهرٌ على فرسٍ المارءُ في شيء
ولا اليربوعُ ، ولا أقتلُ إلا بأجلى ، ثم شدَّ عليهم فأنكى في القوم ، فكان
بعد ذلك من أشجعِ الناس ... وكان معاوية يتمثل بهذين البيتين كثيراً :

أكانَ الجبانُ يرى أنه سيقْتَلُ قبلَ انقضاءِ الأجلِ
فقد تُدرِكُ الحوادثُ الجبانَ ويسلِمُ منها الشجاعُ البطلُ

تفضيل القتلى على الهرب

قال سُقراط لرجل هرب من الحرب : الهرب من الحرب فضيحة !
فقال الرجل : شر من الفضيحة الموت ، فقال سُقراط : الحياة إذا كانت
صالحة فمسلمٌ ، وإذا كانت رديئةً فالموت أفضلٌ منها .
ولما قتل الاسكندرُ المقدونيُّ ملكَ الهند قال لحكائه : لمَ مَنَعْتُمُ الملكَ
من الطاعة ؟ قالوا : ليموتَ كريماً ولا يعيشَ تحت الذلِّ .

الممتنع من الفرار

قالت امرأة من عبد القيس :

أبوا أن يفرُّوا والقنا في نُحورِهِم ولم يبتَغُوا من خَشْيَةِ الموتِ سُلماً
ولو أنهمُ فرُّوا لكانوا أَعزَّةً ولكن رأوا صبراً على الموتِ أكرمًا

« ولم يبتغوا يروى : ولم يرتقوا ،

المعير بانهزامه

من كلام الحجاج : وَ لَيْسَ كَالْإِبِلِ الشَّوَارِدِ إِلَى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها ، لا يلوى الشيخ على بنيه ، ولا يسأل المرء عن أخيه ... وقال أبو تمام من قصيدته البائية التي يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عمورية : وانهزام ملك الروم :

وَلَى وَقَدِ أَلْجَمَ الْخَطِيئَةَ مَنْطِقَهُ بِسَكْتَةٍ تَحْتَهَا الْأَحْشَاءُ فِي صَخَبِ (١)
أَحَدَى قَرَابِينَهُ صَرَفَ الرَّدَى وَمَضَى يَحْتَكُ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الْهَرْبِ (٢)
مَوْكَلًا بِيَفْسَاعِ الْأَرْضِ يُشْرِفُهُ مِنْ خِيفَةِ الْخَرْفِ لَامِنْ خِيفَةِ الطَّرَبِ (٣)

وقال البحرى من أبيات يمدح بها أحمد بن طولون :

تَخَطَّى حُزُونَ الْأَرْضِ رَاكِبًا وَجْهَهُ لِيَمْتَعَ مِنْهُ الْبُعْدُ مَا يَبْدُلُ الْقُرْبُ
وَلَوْ كَانَ حُرًّا النَّفْسِ وَالْعَيْشُ مُدْبِرٌ لِمَاتِ وَطَأَمُ الْمَوْتِ فِي فَوْهِ عَذْبُ
وقال أبو جعفر المنصور لبعض الخوارج : عَرَفْنِي : مَنْ أَشَدُّ أَصْحَابِي

إِقْدَامًا ؟ فقال : لا أعرفهم بوجوههم ، فإنى لم أرَ إلا ألقاهم ...

وقال ابن الرومى فى سليمان بن عبد الله بن طاهر :

قَرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضْرَبَ بِهِ شَوْقُ إِلَى وَجْهِهِ سَيْدِنْفَهُ
لَا يَعْرِفُ الْقِرْنَ وَوَجْهَهُ وَيَرَى قَفَاهُ مِنْ فَرَسِهِ فَيَغْرِفُهُ

وقال المتنبى لما أوقع سيف الدولة بنى عقيل وفشير وبنى العجلان

(١) ولى : أى ملك الروم ، وألجم الخطى منطقه : أخرسه السيف

(٢) أحدى : أعطى ، وقرايينه : المقربون له جمع قربان وهو جليس الملك

الخاص يقول : أن ملك الروم قدم المقربين إليه هدية البوت وفر على أحسن مطاياها وأنجمها . (٣) اليفاع ما ارتفع من الأرض ، ويشرفه : يعلوه .

وبني كلاب ويذكر إجماعهم من بين يديه :

فَلَزَهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ أَحَدٌ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ
مَضَوْا مُتَسَابِقِ الْأَعْضَاءِ فِيهِ لِأَرْؤُسِهِمْ بَارُجُلِهِمْ عِشَارُ

• لَزَهُ إِلَى الشَّىءِ : أَلْجَأَهُ إِلَيْهِ وَأَدْنَاهُ مِنْهُ يَقُولُ : أَحْوَجَهُمْ طَرَادُكَ
إِيَّاهُمْ إِلَى قِتَالٍ شَدِيدٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ سِلَاحٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ غَيْرَ الْفِرَارِ ، ثُمَّ قَالَ
فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : لِإِسْرَاعِهِمْ فِي الْهَرَبِ وَالْهَزِيمَةِ خَوْفًا مِنَ الْقِتَالِ كَانَتْ
أَعْضَاؤُهُمْ كَأَنَّمَا يَسَابِقُونَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، الْأَرْجُلُ تَسَابِقُ الرَّؤُوسَ وَالرُّؤُوسُ
تَسَابِقُ الْأَرْجُلَ ، وَكَأَنَّ الرَّؤُوسَ تَتَعَثَّرُ بِالْأَرْجُلِ حِينَ تَرِيدُ الرَّؤُوسُ
الْإِسْرَاعَ فَتَقْتَمِنُهَا الْأَرْجُلُ ، .

وقال زيد بن علي بن الحسين حين خرج من عند هشام مُغْضَبًا :
مَا أَحَبَّ أَحَدُ الْحَيَاةِ إِلَّا ذَلَّ ، وَتَمَثَّلَ :

شَرَّدَهُ الْخَوْفُ فَأَزْرَى بِهِ كَذَاكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَ الْجِلَادِ
قَدْ كَانَ فِي الْمَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ وَالْمَوْتُ حَتْمٌ فِي رِقَابِ الْعِبَادِ

• شَرَّدَهُ : جَعَلَهُ شَرِيدًا طَرِيدًا وَيُقَالُ : شَرَّدَهُ : إِذَا سَمِعَ بِهِ ، وَأَزْرَى بِهِ :
فَقَصْرَهُ وَحَقَرَهُ وَهَوَّنَهُ ، وَحَرَ الْجِلَادِ : شِدَّتُهُ ، وَالْجِلَادِ : الْقِتَالُ بِالسُّيُوفِ ،

ترك اتباع المنهزم

قيل لعلي بن أبي طالب : أنت رجل محروبٌ وتركبُ بذلة ، فلو اتخذت
الحيل ا فقال : أنا لا أفر من كرت ولا أكر على من قر . • محروبٌ
شديد الحزب شجاع ، وكر على العدو بكر : عطف ،
وأوصى الإسكندر صاحب جيش له فقال : حبب إلى أعدائك الحرب .

قال : كيف أصنع ؟ قال : إذا ثبتوا جِدًّا في قتالهم وإذا انهزموا لا تتبّعهم .
وعاتبَ الحجاج المهلبَ بن أبي صُفرة في تركه اتباعَ الخوارج لما
انهزموا ، فكتب إليه : أما عَلِمْتَ أن الكلب إذا أجمر عقر ...
« أجمر : دخل الجحر » ،

الفازّ وقت الفرار والثابت وقت الثبات

قالوا : الهربُ في وقته خير من الصبر في غير وقته .
وقالوا : من هرب من معركة فعرف مصيره إلى مستقره فهو شجاع .
وقال معاوية يوماً : لقد عَلِمَ الناسُ أن الخيل لا تجرى بمثلي ، فكيف
قال النجاشي : (١)

ونجى ابنَ حربٍ سابقٍ ذو علالةٍ أجشٌ هزيمٌ والرماحُ دواني (٢)
فقال عمرو بنُ العاص له : لقد أعياني أن أعلمَ أجبانُ أنت أم
شجاع ؟ فقال :

شجاعٌ إذا ما أمكنتني فُرصةً وإلا تكن لي فرصةٌ فخبانُ
وقال المهلبُ بن أبي صُفرة : الإقدامُ على الهلكة أضيّعُ ، كما أن

(١) هو قيس بن عمرو بن مالك ... أحد بني الحارث بن كعب ، نسب إلى أمه
وكانت من الحبشة ، وكان من أشرف العرب ، إلا أنه كان فاسقاً ، وهو الذي أتى
به على رضى الله عنه وهو سكران في شهر رمضان ، نضربه ثمانين وزاد عشرين ،
فقال : ماهذه العلاوة يا أبا حسن ؟ قال : لجرأتك على الله وشربك في رمضان ، ولأن
ولدانا صيام وأنت مفطر . وبيته هذا من أبيات تراها في مجموعة المعاني طبع الجوائب
(٢) يقال لأول جرى الفرس : بداهته وللذى يكون بعده : علالته وفرس
أجش : غليظ صهيل وهو مما يحمّد في الخيل ، والمهزيم من الخيل : الشديد الصوت

الإحجام عن الفرصة عجز .

وقال المتوكل الخليفة العباسي لأبي العيناء : إني لَأَفَرِّقُ من لسانك ا
فقال : يا أمير المؤمنين ، الكريم ذو فَرَقٍ وإحجام ، واللثيم ذو وقاحة وإقدم .
وقال الشاعر :

أُفَاتِلُ حتى لا أرى لي مُقَاتِلا وأنجو إذا غمَّ الجبانُ من الكَرْبِ

المتفادى من حضور الحرب

والمحتج لانتهزاه بالخوف من القتل

قيل لأعرابي : ألا تغزو فإن الله قد أندرك ؟ فقال : والله إني لا أبغض
الموتَ على فراشي فكيف أضي إليه ركضاً ا

ورأى المعتصم الخليفة العباسي في بعض مُتَمَرِّزَاتِهِ أسداً ، فنظر إلى
رجل أعجبه زينه وقوامه وسلاحه فقال له : أفيك خيرٌ ؟ فعلم الرجل
مُرَادَهُ ، فقال : لا ، فقال : لا قَبِّحَ اللهُ سِوَاكَ .

واجتازَ كِسْرَى في بعض حُرُوبِهِ برَجُلٍ قد استَظَلَّ بشجرة وألقى
سلاحه ورَبَطَ دَابَّتَهُ فقال له : يانذل ، نحن في الحرب وأنت بهذه الحالة ا
فقال : أيها الملك ، إنما بلغت هذه السنَّ بالتوقى ، فقال : زه ،
وأعضاه مالا...

وقيل لرجل : إنك انهزمت اقال : خَضَبُ الأميرِ علي وأنا حتى خيرٌ من
أن يرضى وأنا مَيِّت .

وقال أبو دلامة :

قالوا : تَقَدَّمْتُ قَتُّ : لستُ بِفَاعِلٍ أخافُ على فَنَخَارَتِي أن تَحَطَّأ

فلو كان لي رأسان أتلفتُ واحداً ولكنه رأسٌ إذا زال أعقما
ولو كان مُبتاعاً لدى السوقِ مثله فقلتُ ولم أحفيل بأن أتقدماً
وقال :

يقول لي الأميرُ بغير نُصحٍ : تقدم حين جد بنا المراس
ومالي إن أطعتك من حياةٍ ومالي بعد هذا الراس رأس
وقيل لجان : لم لا تُقاتل؟ فقال : عند النطاح يُغلب الكبش الأجم
« الأجم » : الذي لا قرن له ، وهذا مثل يُضرب لمن غلبه صاحبه بما أعد له ،
وقالوا : الشجاع ملقى والجبان موفى ، وقال البديع الهمداني :
ماذا قَهما كالشجاع ولا خلا بمسرة كالعاجز المتواني
وهرب سليمان بن عبد الملك من الطاعون ف قيل له : قل لن ينفعكم
الفرارُ إن فررتم من الموت أو القتلِ وإذا لا تُتمتعون إلا قليلا . فقال
ذلك القليلُ تُريد .

هارب يعتذر عن هربه

بأنه نبوة أو قدر

قال زُفر بن الحارث وقد فرَّ يوم مَرَجِ رَاهِطٍ عن رقيقه :
أينذهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتهُ بصالحِ أيامي وحسينِ بلاتيا
فلم تُرني زلَّةٌ قبل هذه فرارى وتركي صاحبي وراثيا
وقديماً قال عمرو بن معديكرب — وكان قد فرَّ من بني عَبَس :
وليس يُعابُ المرءُ من جُبْنِ يومه إذا عرفتُ منه الشجاعة بالأمس
وقد تقدم قول الشاعر الجبان :

قَامَتْ تُشَجِّعُنِي هِنْدٌ قَتَلْتُ لَهَا : إِنَّ الشَّجَاعَةَ مَقْرُونٌ بِهَا الْعَطْبُ
 لَا وَالَّذِي مَنَعَ الْأَبْصَارَ رُؤْيَتَهُ مَا يَشْتَهَى الْمَوْتَ عِنْدِي مَنْ لَهُ أَرْبُ
 لِلْحَرْبِ قَوْمٍ أَضَلَّ اللَّهُ سَعِيَهُمْ إِذَا دَعَّوهُمْ إِلَى نِيرَانِهَا وَتَبَّوْا
 وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا أَهْوَى فِعَالَهُمْ لَا الْقَتْلُ يُعْجِبُنِي مِنْهَا وَلَا السَّلْبُ
 وَجَاءَ فِي كَلِيلَةِ دِمْنَةَ : إِنْ الْخَازِمَ يَكْرَهُ الْقِتَالَ مَا وَجَدَ بَدَأَ مِنْهُ ،
 لِأَنَّ النَّفْقَةَ فِيهِ مِنَ الْأَنْفُسِ وَالنَّفَقَةَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَالِ . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى
 يَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ :

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إِنَّمَا نَفَقَاتُهُمْ مَالٌ وَقَوْمٍ يُنْفِقُونَ نَفْسًا

المتخلف عن قومه

قَالُوا : الشُّجَاعُ يُقَاتِلُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، وَالْجَبَانُ يَقْرُءُ مِنْ عَرْسِهِ ، وَالْجَوَادُ
 يُعْطَى مَنْ لَا يَسْأَلُهُ ، وَالْبَخِيلُ يَمْنَعُ مِنْ نَفْسِهِ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :
 يَقْرُءُ جَبَانَ الْقَوْمِ عَنْ أُمَّ نَفْسِهِ وَيَحْمِي شُجَاعَ الْقَوْمِ مَنْ لَا يُنَاسِبُهُ
 وَيُرْزَقُ مَعْرُوفَ الْجَوَادِ عَدُوَّهُ وَيُجْرَمُ مَعْرُوفَ الْبَخِيلِ أَقَارِبُهُ
 وَقَالَ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعَيِّرُ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ حِينَ
 قَرَّ يَوْمَ بَدْرٍ :

إِنْ كُنْتَ كَاذِبَةً الَّتِي حَدَّثْتَنِي فَتَجُوتِ مَنْجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ
 تَرَكَ الْأَحْبَةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَجِلَامٍ
 مَلَأَتْ بِهِ الْفَرْجَيْنِ فَارْمَدَتْ بِهِ وَتَوَى أَحْبَتُهُ بِشَرِّ مَقَامٍ
 « الطَّمْرَةُ : الْفَرَسُ الْكَثِيرُ الْجَرِي ، وَالْفَرْجَانُ : مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا
 وَمَلَأْتُهُمَا : مَلَأْتُهُمَا جَرِيًا . وَارْمَدَتْ : أَسْرَعَتْ ، وَتَوَى : أَقَامَ »

وقال أبو تمام من تصيدة يمدح بها المعتصم ويذكر هزيمة بابك
الخرمي :

ونجا ابنُ خائنةِ البُعولةِ لو نجا بمُهفَهِفِ الكَشْحَيْنِ والآطالِ
تركِ الأحبَّةِ ساليًا لا ناسيًّا عُدْرُ الدَّسِيِّ خِلافِ عُدْرِ السَّالِي

« خائنة البعولة : كناية عن الزانية ، والكشحان : جانبنا البطن من
ظاهر وباطن ، والمهفهِف : الضامر الدقيق ، والآطال جمع إطل وإطل كإبل
ولأبل : الخاصرة ، والدسي : الناسي ،

من نجا وقد استولى عليه الخوف

قال أبو تمام من قصيدة يمدح بها أبا دُلفَ ويذكر هزيمة بابك
الخرمي كذلك :

ظَلَّ القَا يَسْتَقِي من صَفِّهِ مُهَجًّا إِمَّا ثِمَادًا وإِما ثَرَّةً خُسُفَا
مِن مُشْرِقِ دَمِهِ فِي وَجْهِهِ بَطْلٌ وواهِلِ دَمِهِ لِلرَّعْبِ قَد نَزِفَا
فذاك قَد سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا جُرْعًا وذاك قَد سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا نُظْفَا

« من صفه : من صف بابك ، والمهج جمع بهجة : دم القلب ، والثماد :
الماء القليل ، والثرة : من قوطم : عين ثرة : كثيرة الماء ، والخسف
جمع خسيف وخسوف : البئر لا ينقطع ماؤها ، والواهل : الخائف جداً ،
ونزف : ذهب دمه ، وبطل إما قرأته بالرفع على أن دمه مبتدأ وبطل خبر
ولك أن تقرأه بالخفض على أنه مردود إلى مشرق ويكون دمه فاعل مشرق
وقوله : فذاك ... أليت أراد أبو تمام أن يقول : البطل الذي دمه في
وجهه سقيت الرماح منه جرعاً ، أى كثيراً ، والجبان الذي طار دمه من

الفرع سقيت منه نطفاً أى قليلاً، وقد يدبر عن الكثير بالنطفة فيكون :

الأولُ مراداً به الجبان والثاني مراداً به البطل ،

وقيل لرجل تعرّض له الأسد فأفلت منه : كيف حالك ؟ قال

سَلِمْتُ غير أن الأسدَ خراً في سراويلي ...

وقالت امرأةٌ من بنى المهلب :

فإن نبتوا فعمرهم قصيرٌ وإن هربوا قويلهم طويلٌ

تسليّة المنهزم

قال المتنبي يعتذر عن سيف الدولة في هزيمة وقعت لجماعة من جيشه

قلّ للدمستق إنَّ المُسلمينَ لكم خانوا الأميرَ جَازأهمُ بما صنعوا

وجددتموهم نياماً في دِمائكمُ كأنّ قتلاكم إياهمُ فجعوا

لا تحسبوا من أسرتهم كان ذا رمقٍ

فليس يأكل إلا الميتَ الضبعُ

وإنما عرض الله الجُودَ بكمُ لئكي يكونوا بلافسلٍ إذا رجعوا

فكلُّ غزو إليكم بعدَ ذا فله وكلُّ غازٍ لسيفِ الدولةِ التبعُ

د الدمستق : قائد جيش الروم ؛ و : المسلمون — بفتح اللام — :

الذين أسلّهم سيف الدولة للعدو لتخاذلهم عنه، وقوله : وجدتموهم ... ألبيت

هو بيان لما صنعوا، وقوله : في دمائكم : أى في دماء قتلاكم وذلك أنهم

تخلّدوا قتلى الروم فتلطخوا بدمائهم ، وألقوا أنفسهم بينهم تشبها بهم خوفاً

من الروم ، ثم قال : كأنهم كانوا مفعولين بقتلاكم فهم فيما بينهم يتوجعون

لهم . وقوله : لا تحسبوا من أسرتهم ... ألبيت ، يقول : ليس لكم أن تفخروا

بهؤلاء الذين أسرتهم ولا تظنّوهم كان فيهم رَمَقٌ - بقية حياة - وإنما هم أموات، من الجبن والخوف، وأنتم إِيخَسْتِكُمْ ودناءة نفوسكم لا تقدرون إلا على أمثالهم، كما أن الضبُع لا تفترس إلا الجثث الميتة. وقوله: وإنما عَرَّضَ اللهُ... ألبت يقول: إنما خذك الله هؤلاء الجنود وجعلهم لكم عرضة ليظهر الله عسكر سيف الدولة من أمثالهم فيعود إليكم بجنود أبطال ليس فيهم قَسْلٌ ولا نذل. وقوله: فكل غزو إليكم... ألبت يقول فكل غزوة إليكم بعد اليوم تكون له لا عليه لأن الأديباء من جنوده قد أسروا ولم يبق إلا المختارون من الأخيار، وكل غاز تبع له لأنه سيّد الغزاة..

ولما انهزم بعض القواد دخلَ عليه بعض الأفاضل فقال: الحمد لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا، فقد تقدّمت للشهادة بجهدك ولكن عليم الله حاجتنا إليك فأبقاك لنا.

صدر من عبقرياتهم في الجبن

قال سبحانه وتعالى: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو...
وقالت عائشة رضی الله عنها: إن الله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير،
كلما خَفَقَتِ الرِّيحُ خَفَقَتْ معها، نَأْفِ لِلْجَبْنَاءِ، أْفِ لِلْجَبْنَاءِ.
وبما قيل في الجبن من الشعر القديم قول القائل:
ولو أنها عصفورةٌ لحسبتُها مُسَوِّمةٌ تدعو عبيداً وأرثماً
يقول لورأيت عصفورةً لحسبتُها من جُبْنِك خيلاً مُسَوِّمةً؛ وعبيد
وأرثم: قيلتان،

ومثله قول عروة بن الورد :

وأشجعُ قد أدركتهم فوجدتهم
يخافونَ خطفَ الطير من كلِّ جانبٍ

وقال الآخر :

ملزاتٍ تحسبُ كلَّ شيءٍ بعدهمُ
خيلاً تَكُرُّ عليهم ورجالا

وقال ابنُ الرومي :

وفاريسُ أجَبَنَ من صِفْرِدٍ
يحولُ أو يغورُ من صَفْرَةَ

لو صاح في الليل به صاحُ
لكانت الأرض له طافراً

يرحمهُ الرحمنُ من جُبْنِهِ
فيرزُقُ الجندَ به النُصْرَ

« الصَّفْرِدُ : طائرُ جبانٍ يقال له : أبو المليح ،

وقال أبو تمام :

حيرانُ يحسبُ يحسبُ النَّقْعَ من دَهَشِ

طَوْدًا يُحاذِرُ أن ينقضَ أو جُرُفاً

« السجف : الستر ، والنقع : غبار الحرب ، والطود : الجبل ، والجرف :

جانب الجبل الأملس ،

وقال دِعْبَلُ :

كانَ نَفْسَهُ من طُولِ حَيْرَتِهَا
منها على نَفْسِهِ يومَ الوغَى رَصْدُ

وأنى الحجاجُ برجلٍ من أصحابِ ابنِ الأشعثِ ، فقال للحجاج : أسألكُ

أنْ تَقْتَلَنِي وتُخَلِّصَنِي ، فقال له الحجاج : لِمَ ؟ فقال : إني أرى كلَّ ليلةٍ

في المنام أنك تقتلني ، وقِتْلَةٌ واحدةٌ خيرٌ ، فضحك وخرى سبيله .

من يظهر الشجاعة خارج الحرب

ويجبن فيها

قالوا : فلان يتشعب في الهيجاء ويتنمر في الرخاء .

وقال دِعْبِل :

أسود إذا ما كان يوم كرهية ولكنهم يوم اللقاء ثعالب

وقال :

عيرُ رأى أمدَ العرينِ فراعهُ حتى إذا وتى تولى ينهتُ

وقال آخر :

يغيرُ بحيثُ تختلفُ العرالي وإن يأتنُ فذو كبرٍ وتيرُ

عقريات شتى

في الشجاعة والحرب

قالوا : أحسن ما قيل في وصف الحرب والمتحاربين قول الأول :

كان الأفقُ محفوفٌ بنارٍ وتحت النارِ أسادٌ زيرُ (١)

ومما يتصل بذلك ما قيل في ليالي صفين :

الليلُ داجٍ والكباشُ تلتطِحنُ نطاحَ أسدٍ ما أراها تَصْطَلِحنُ

فمن يُقاتِلُ في وعاها مانجا ومن نجا برأسه فقد ربيح (٢)

(١) تصيح غضباً. وأصله مهموز من زار الأسد يزير وبزار : صاح وغضب

(٢) في أمثال الميداني : قال أبو عبيد : وهذا الشعر أراه قيل في ليالي صفين ثم

وكان يزيد بن عمر بن هبيرة والى العرّاقين من قبيل بني أمية لا يُمدُّ
نصر بن سيّار والى خراسان من قبيله بالرجال ، ولا يرفع ما يرد عليه
من أخبار خراسان إلى مروان بن محمد آخر الدولة الأموية ، فلما كثُر
ذلك على نصر كتب إليه كتاباً وفيه هذه الآيات :

أرى خَلَالَ الرَّمَادِ وميضَ جَمْرٍ ويوشِكُ أن يكونَ له ضِرَامٌ ^(١)
فإنَّ النَّارَ بالعودينِ تُذَكِّي وإنَّ الحربَ أولها الكلامُ ^(٢)
فإن لم يُطفئها عُقلاءُ قومٍ يكونَ وفودها جُبثٌ وهامٌ
فقلتُ مِنَ التَّمَجُّبِ لبتَ شعري أأيقاظُ أميَّةُ أم نيامٌ
• قوله : وإنَّ الحربَ أولها الكلامُ نحوه قول بعضهم : إنَّ الفِتْنَةَ تُلقَحُ
بالنَّجْوَى وتُنتِجُ بالشكوى ...

ومما قيل في كثرة الجيش من قديم الشعر قول الأَخْلَسِ بن شهاب
التغَلبي وهو من حضر حرب البسوس :

بِجَاوَاءٍ يَنْفِي وَرُدُّهَا سَرَعَانَهَا كأنَّ وميضَ البرقِ فيها كواكِبُ
« الجَاوَاءُ : السَّكِينَةُ يَضْرِبُ لونها إلى السَّكَلْفَةِ — اللونُ السَّكِدِرُ —
وذلك من صدأ الحديد ، والسَّرَعَانُ : الأوائِلُ ، يقول : إن الميأة لا تسهمهم
والأماكن تضيق بهم فكلما نزلت فرقة منهم رحل من تقدّمهم ،
وقولُ أويس بن حجر :

قال : وقوله • ومن نجا برأسه فقد ربح •
هو مثل يضرب في إبطاء الحاجة وتعذرها حتى يرضى صاحبها بالسلامة منها .

(١) خلل الرماد : خلاه

(٢) تذكي : تلهب وتضرم

ترى الأرض منا بالفضاء مَرِيضَةً

مُعْضَلَةٌ مَنَا بِجَمْعِ عَرْمَرِمٍ

« عَضَلَتِ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا : إِذَا ضَاقت بِهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ ، وَعَضَلَتِ الْمَرَاةُ بَوْلِهَا تَعْضِيلًا : إِذَا نَشِبَ الْوَالِدُ نَفْرَجَ بَعْضُهُ وَلَمْ يَخْرُجْ بَعْضُ فَبَقِيَ مُعْتَرِضًا ، وَقَالَ أَبُو نُؤَاسٍ :

أَمَامَ تَحْمِيْسٍ أَدْجُوَانٍ كَأَنَّهُ قَيْصٌ مَحْكُوكٌ مِنْ قَتْنَا وَجِيَادٍ

« الْأَدْجُوَانُ : الْأَسْوَدُ ، وَاشْتَقَاةُ مِنَ الدُّجَى ، وَبُرُوى : أَرْجُوَانٍ ،

وَهُوَ : الْأَحْمَرُ . .

وقال ابن الرومي :

لَوْ حَصَبْتَهُمْ بِالْفُضَاءِ سَحَابَةً لَظَلَّ عَلَيْهِمْ حَصْبُهَا يَتَدَخَّرُجُ

وهو من قول قيس بن الخطيم :

لَوْ أَنَاكَ تُتَلَقَى حَنْظَلًا فَوْقَ بَيْضِنَا تَدَخَّرُجَ عَنِ ذِي سَامِهِ الْمُتَقَارِبِ

« الْبَيْضُ جَمْعُ بَيْضَةٍ : الْحُوذَةُ ، سَمِيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا عَلَى شَكْلِ بَيْضَةِ

النَّعَامِ ، وَالْحَنْظَلُ ثَمَرٌ يَشْبَهُ الْبَطِيخَ لَكِنَّهُ أَصْفَرُ مِنْهُ جَدًّا وَيَضْرِبُ الْمِثْلَ بِمَرَاتِهِ ، وَقَوْلُهُ : عَنِ ذِي سَامِهِ ، أَي عَلَى ذِي سَامِهِ ، فَمَنْ فِيهِ بِمَعْنَى عَلَى وَالْهَاءِ فِي سَامِهِ يَرْجِعُ إِلَى الْبَيْضِ الْمَمَّوهِ بِهِ ، أَي الْبَيْضِ الْمَمَّوهِ بِالسَّامِ ، وَالسَّامُ : عُرُوقُ الذَّهَبِ وَالنُّضَّةِ ، وَهُوَ هُنَا الطَّرَائِقُ الْمُدْهَبَةُ فِي الْبَيْضِ ، قَالَ الْإِمَامُ ثَعْلَبُ : مَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ تَرَاثَرُوا فِي الْحَرْبِ حَتَّى لَوْ وَقَعَ حَنْظَلٌ عَلَى رُؤْسِهِمْ عَلَى إِمْلَاسِهِ وَاسْتَوَاءِ أَجْزَائِهِ لَمْ يَنْزِلْ إِلَى الْأَرْضِ ،

وقال أبو عمرو بن العلاء : أحسن ما قيل في صفة الجيش قول النابغة :

إِنِّي لِأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مِنْ أَجْلِ بَفْضَائِكُمْ يَوْمٌ كَأَيَّامِ

أَوْ تَزْجُرُوا مُكْفَهَرًا لَا كِفَاءَ لَهُ كَاللَّيْلِ يَخْاطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ
تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ نُورًا بِنُورٍ وَإِظْلَامًا بِإِظْلَامٍ
« أَوْ تَزْجُرُوا عَطْفَ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، وَالْمُكْفَهَرُ : الْجَيْشُ الْعَظِيمُ ، وَلَا
كِفَاءَ لَهُ : لِأَنْظِيرِهِ لَهُ ، وَيَخاطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ إِمَّا جَعَلْتَهُ صِفَةً لِلَّيْلِ وَالْأَصْرَامُ
جَمْعُ صَرِيمٍ وَهُوَ اللَّيْلُ الْمَظْلَمُ فَيَكُونُ الْمَعْنَى يَخاطُ دُظْلًا بِدُظْلٍ ، وَإِمَّا جَعَلْتَهُ
صِفَةً لِلْجَيْشِ فَيَكُونُ الْمَعْنَى : يَخاطُ كُلَّ حَتَّى بِقَبِيئَتِهِ خَوْفًا مِنَ الْإِغَارَةِ عَلَيْهِ ،
وَقَوْلُهُ : تَبْدُو كَوَاكِبُهُ ... الْبَيْتُ يَرِيدُ : شِدَّةَ الْهَوْلِ وَالْكَرْبِ ، وَهَذَا كَمَا
تَقُولُ الْعَامَّةُ : أَرَيْتَهُ النُّجُومَ وَسَطَ النَّهَارِ .

قال الفرزدق : * أربك نجوم الليل والشمس حية *

وقال طرفة : * وتربك النجم يجرى بالظهور *

وفي هذا المعنى يقول جرير :

والشمس طالعة ليست بكاسفة تبسكي عليك نجوم الليل والقمر

يقول : إن الشمس طالعة وليست بكاسفة نجوم الليل ، لشدة الغم

والكرب الذي فيه الناس ، فنجرم مفعول كاسفة ،

قالوا : وأحسن من قول النابغة قول زيد الخيل :

بني عامر دل تعرفون إذا غدا أبو مكثف قد شد عقد الدوابر

بجيش تضل البلقي في حجراته ترى الأكم منه سجداً للجوافر

وجمع كمثل الليل من تجس الوغى كثير تواليه سريع البوابر

« قَوْلُهُ : قَدْ شَدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ أَرَادَ : شَدَّ دَوَابِرَ الْبَيْضَةِ — أَيْ

مَآخِرِهَا — بِالذَّرْعِ لثَلَا تَسْقُطُ إِذَا رَكَضَ الْفَارَسُ : وَقَوْلُهُ : تَضَلُّ الْبَلْقُ

فِي حَجْرَاتِهِ لِحَجْرَاتِهِ : فَوَاحِيَهُ جَمْعُ حَجْرَةٍ يَقُولُ لِكَثْرَتِهِ لَا يَرَى بِهِ الْأَبْقَى

والأبلى مشهور المنظر لاختلاف لونه — السواد والبياض — وكان رؤساء العرب لا يركبون البلق في الحرب لئلا تنيم عليهم فيقتصدوا بشرّ، وقوله : ترى الآم منه سجداً للحواضر يقول : لكثرة الجيش يطحن الآم حتى يلبصقها بالأرض : * يدع الآم كأنهن صحارى *
 وقوله : كمثل الليل يريد : ظلمة يكاد سواده لكثرتيه يسد الأفق ،
 والوغى : الأصوات ، والارتجاس : صوت الشيء المختلط العظيم كالجيش والرعد ، والتوالى : اللواحق ،

ومن بارع ما قيل في الكيد في الحرب قول أبي تمام :
 هَزَزْتَ لَهُ سَيْفًا مِنَ الْكَيْدِ إِنَّمَا تُجَدُّ بِهِ الْأَعْنَاقُ مَا لَمْ يُجَرِّدِ
 يَسْرُ الَّذِي يَسْطُو بِهِ وَهُوَ مُعَمَّدٌ وَيَفْضُحُ مِنْ يَسْطُو بِهِ غَيْرَ مُعَمَّدِ
 « يقول : إن أخفيت الكيد ظفرت وسررت ، وإن أظهرته اففضحت وخبت ،
 وقال يصف أفاعيل رُمح الممدوح في أعدائه :

أَنْهَيْتَ أَرْوَاحَ الْأَرْوَاحِ إِذْ سَرِعَتْ فَمَا تُرَدُّ لَرَيْبِ الدَّهْرِ عَنْهُ يَدُ (١)
 كَانَهَا وَهِيَ فِي الْأَوْدَاجِ وَالْعِنَّةِ وَفِي السُّكْلِ تَجِدُ الْغَيْظَ الَّذِي تَجِدُ
 مِنْ كُلِّ أَرْزَقٍ نَظَارَ بِلَا نَظَرٍ إِلَى الْمَقَاتِلِ مَا فِي مَتْنِهِ أَوْدُ (٢)
 كَأَنَّهُ كَانَ خِدْنَ الْحَبِّ مَذْزَمِنٍ فَلَيْسَ يُعْجِزُهُ فَلْبٌ وَلَا كَيْدُ

(١) أرواحه : أرواح بابك الخرمى ومن معه ، وقوله فما ترد البيت يقول : إن الخرمى يعد هذه الوقعة وما نزل به من أفاعيلك ستوالى عليه نوب الدهر فلا ترد يد لريب الدهر عنه (٢) أود : اعوجاج

ماغزى قوم قط في عقر دارهم

إلا ذلوا

ومن حُطبة لعلی بن أبی طالب رضی الله عنه وقد انتهى إليه : (١)
 أن خيلاً لمعاوية (٢) وردت الأنبار فقتلوا عاملاً له يُسمى حسان بن
 حسان ، فخرج مُغضباً يُجرُّ ثوبه حتى أتى الأُخيلة (٣) ، وأتبعه الناس فرقي رِبارة من
 الأرض (٤) فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم
 قال : «أما بعد ، فإن الجها بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رَغْبَةً عنه ألبسه
 الله الذلَّ ، ورسيمَ الخسف ، ودُيْثَ بالصغار ، وقد دعوتكم إلى حربٍ
 هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً وقلتُ لكم : أغزوم من قبل أن
 يغزوكم فولدني نفسي بيده : ماغزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا ، فتخاذلتم
 وتراكلتم وثقلَ عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظهيراً ، حتى سُدتْ عليكم
 الغارات ، هذا أخو غامد قد وردت خيـله الأنبارَ وقتلوا حسان بن
 حسان ورجالا منهم كثيراً ونساءً ، والذي نفسي بيده : لقد بلغني أنه كان
 يُدخِل على المرأة المسلمة والمعاهدة (٥) فتتزعج أحجألهما ورعُهما ثم أنصرفوا

(١) أنهماء إليه عالج من الأنبار ، وكان عليّ يومئذ بالكوفة وقد تفرقت أصحابه
 عنه بعد حرب صفين وحكومة الحكيم (٢) بروى أنه وجه سفيان بن عوف
 ابن المغفل الغامدي في ستة آلاف وأمره أن يتجدر إلى دهيت ، ثم إلى الأنبار ،
 فيوقع بأهلها فقتل من أصحاب عليّ حسان عامله عليها وثلاثين رجلاً واحتمل ما فيها
 من الأموال ؛ ودهيت - بكسر الهاء - بلد على شاطئ الفرات ، والأنبار : مدينة
 بالعراق كذلك على شاطئ الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ

(٣) اسم موضع خارج الكوفة (٤) اسم لكل مرتفع من الأرض كالرُبوة
 (٥) المرأة الذمية ذات العهد

مؤثورين لم يُكَلِّمَ منهم أحدَ كَلِّمًا ، فلو أن امرأً مُسَلِّمًا مات من دون هذا أسفًا ما كان فيه مَلُومًا بل كان به عندي جديرًا . يا عجباً كلَّ العجب ، عجبٌ يُبِيت القلبَ وَيَشْغَلُ الفَهْمَ وَيُكْسِرُ الأَحْزَانَ ، من تَضَافِرِ هؤُلاءِ القومِ على باطِلِهِمْ وَفَسَلِيتِكُمْ عن حَقِّكُمْ حتى صَبَحْتُمْ غَرَضًا تَرْتَوْنَ وَلَا تَرْمُونَ ، وَبُعَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيِّرُونَ ، وَيُعَصَى اللهُ عز وجلَّ فيكم وَلَا تَرْضَوْنَ ، إذا قُلْتُ لَكُمْ : اغزَوْهم في الشتاء قَاتِمٌ : هذا أو أن قُرُوضِرَ ، وإن قَاتَ لَكُمْ : اغزَوْهم في الصيف قَاتِمٌ : هذه سَمَارَةُ القَيْظِ أَنْظِرْنَا يَنْصِرِمُ الحَرُّ عَنَا ، فإذا كُنْتُمْ من الحَرِّ والبرد تَفَرِّقُونَ فأنتم والله من السَّيْفِ أفرُّ : يا أشباهَ الرجالِ ولا رجالِ ، ويا طغَامَ الأَحْلَامِ ، ويا عَاقِلَ رَبَاتِ الحِجَالِ ، والله لقد أَفْسَدْتُمْ على رأْيِ بالعِصيانِ ، ولقد مَلَأْتُمْ جوفِي غَيْظًا ، حتى قالت قريشُ : ابنُ أبي طالبٍ رجلٌ شُجاعٌ ولاكن لا رأْيَ له في الحربِ ! اللهُ دَرْتُمْ ، وَمَنْ ذا يَكُونُ أَعْلَمَ بها مِنِّي أو أَشَدَّ لها مِرَاسًا ! فوالله لقد تَهَضَّتْ فيها وما بَلَغَتْ العِشْرِينَ . ولقد نَيْفَتْ اليومَ على السَّتينِ ولكن لا رأْيَ لمن لا يُطَاعَ ... « وإليك شرح بعض ألفاظ هذه الخطبة الخالدة ، قوله : وَسِمَ الخَسْفَ معناه : كَلَّفَ وألْزِمَ وَجُشِمَ قال تعالى : يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ . أي يُجَشِّمُونَكُمْ أَشَدَّ العَذَابِ ، فسِمَ : كَلَّفَ وألْزِمَ ، والخَسْفُ : الذلُّ والهوانُ ، وأصله أن تُحْبَسَ الدَّابَّةُ على غير عَلفٍ ثم استعير فوضع موضعَ الهوانِ : وَدِيثٌ : دُلَّلَ . ومنه اشتقاق الدُّيُوثِ وهو : الرجلُ الذي لا غَيرةَ له . وقوله : في عُقْرِ دارِهِم : أي في أصلِ دارِهِم ، والعُقْرُ : أصلُ كلِّ شَيْءٍ ، ومن ثم قيل . لفلان عَقَارٌ : أي أصلُ مالٍ يَعتمدُ عليه من منزلٍ وَضِيعَةٍ ونخيلٍ ونحو ذلك . وقوله : وتواكَلْتُمْ يقال : وَكَلْتُ

الامر إليك وركنته أنت إلى : أى لم يتوَلَّهُ واحد منا دون صاحبه
ولكن أحالَ به كلُّ واحد منا على الآخر : وقوله : واتخذتموه وراءكم
ظهيراً : أى رَمَيْتُمْ به وراء ظهوركم ، أى لم تلتفتوا إليه ، ويقال فى المثل :
لا تجعل حاجتى منك يظهر : أى لا تطرحها غيرَ ناظرٍ إليها ، وقوله : حتى
سُدَّتْ عليكم الغارات : أى صَبَّتْ وُبَّتْ عليهم من كلِّ وجه . وقوله :
فتتزع أحجالهما يعنى : الخلاخيل واحدهما حجل . والرُعْتُ : جمع رعات
جمع رَعْمَةٍ والرَعْمَةُ : الشَّنْفُ أى القُرْطُ الذى يوضع فى الأذن ؛ وقوله :
وانصرفوا موفورين أى : لم يُرْزَوْا ، أى لم يُصابوا ولم يُتَلَّ أحدٌ منهم
فى بدنه ولا ماله . ولم يُكَلِّمْ أحدٌ منهم أى لم يُخَدِّش أحدٌ منهم خدشاً .
وكلُّ جُرحٍ صُغَرَ أو كَبُرَ فهو كَلِمٌ . وقوله : مات من دون هذا أسفاً يريد :
تحسراً . وقوله : من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم أى : من تعاونهم
وتظاهروهم . ويقال : نَشَلَ فلان عن كذا : إذا هابَهُ جُبْنًا وفزعاً فأحجمَ
عنه وامتنع من المضىِّ فيه . والقَرَّ — بضم القاف — البرد أما القَرَّ
— بالفتح — فهو اليوم البارد . والقَرَّ — بكسر الصاد — شدة البرد
قال تعالى : كمثل ريجٍ فيها صِرٌّ . والقيظ : الصيف ، وحمارته : اشتداد حره
واحتدأه . والطعام : من لا عقل له ولا معرفة عنده . وقوله : وباعقول
رَبَاتِ الحجال : فالحجال جمع الحجلة وهى كالعقبة ويديت للعروس يُرَبِّين بالثياب
والستور ، يُنْسَبُهُمْ إلى ضعفِ النساء .



ومن رائق الشعر القديم فى باب الحثِّ على الإقدام والذود عن الذمَّار
ووصفِ الأبطال والمتخاذلين المتباطئين قول شاعر من بنى العنبر اسمه

قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ — شاعر إسلامي — وكان ناس من بني شيبان قد أغاروا عليه فأخذوا له ثلاثين بعيراً فاستنجد قومه فلم يُنجدوه فأتى مازنَ تميم فركب معه نفرٌ فأطردوا لبني شيبان مائة بعير فدفعوها إليه فقال هذه الأبيات التي افتتح بها أبو تمام حماسته :

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبجِ إبلي	بنو الشقيقة من ذهلٍ بنِ شيبانا
إذا أقامَ بنصري معشرٌ خشنٌ	عند الحفيظةِ إن ذو لؤثةِ لانا
قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا
لا يسألون أخاهم حينَ يندُبهم	في الثابتِ على ما قال برهاننا
لكن قومي وإن كانوا ذوى عددٍ	ليسوا من الشرِّ في شيءٍ وإن هانا
يجزون من ظلمِ أهلِ الظلمِ مغفرةً	ومن إساءةِ أهلِ السوءِ إحسانا
كان ربك لم يخْلُقْ لحشيتيه	سواهم من جميعِ الناسِ إنسانا
فأيتَ لي بهم قوما إذا ركبوا	شئوا الإغارةَ فرساناً وركباناً

« بنو الشقيقة هي الرواية الصحيحة وإن كانت رواية شراح الحماسة : بنو اللقيطة ، والشقيقة : امرأة من بني ذهل بن شيبان ، وبنوها كانوا سيارة مرّدة ليس يأتون على شيء إلا أفسدوه ، وأما اللقيطة فهي امرأة من فزارة ، هكذا زعم أبو محمد الأعرابي . والاستباحة : في معنى الإباحة وهي شبه النهي ، استباحه : انتهبه حتى لكانه مباحٌ لا تبعه عليه فيه ، وخشن جمع أخشن وهو من صفات الرجال مثل يُراد به امتناع الجانب وإباء الضيم . ورجلٌ ذو لؤثة : بطيء متمكث ذو ضعف واسترخاء ، يقول : لولم أكن من بني العنبر وكنت من بني مازن ثم نالني من بني الشقيقة مانالني من استباحتهم إبلي لكان لي منهم من ينصرتني عليهم ويأخذ بحقّي اقتساراً منهم »

إذا لَانَ ذُو الضَّعْفِ وَالوَهْنِ فَلَمْ يَدْفَعْ ضِيماً وَلَمْ يَجْمَحْ حَقِيقَةً ، وَمُرَادُ الشَّاعِرِ تَهْيِجُ قَوْمِهِ عَلَى الْإِتْقَامِ لَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ لِأَنَّ ذَمَّهُمْ ، وَالْحَفِيزَةَ : الْغَضَبَ وَالْحَمِيَّةَ وَالْمَنْعَ لِلشَّيْءِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَحَافِظَ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ فَيَبْدَأُ الشَّرَّ نَوَاجِذَهُ مِثْلُ لَشِدَّتِهِ وَصَوْلَتِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ السُّبْحَ إِذَا صَالَ أَوْ شَدَّ كَشَرَ عَنْ أَنْيَابِهِ ، فَشَبَّهَ الشَّرَّ بِهِ فِي حَالِ شِدَّتِهِ ، وَطَارُوا إِلَيْهِ يَرِيدُ : أَسْرَعُوا إِلَيْهِ ، وَوُحْدَانًا جَمَعَ وَاحِدَ كِرَاكِبٍ وَرُكْبَانٍ ، وَالزَّرَافَاتُ : الْجَمَاعَاتُ ، يَقُولُ فِي هَذَا الْبَيْتِ . لَأَنَّهُمْ لِحَرِصِهِمْ عَلَى الْقِتَالِ وَحُبِّهِمْ إِيَّاهُ لَا يَلْتَمِظُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، لِأَنَّ كَلَامًا مِنْهُمْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِجَابَةَ تَعَيَّنَتْ عَلَيْهِ ، فَإِذَا سَمِعُوا بِذِكْرِ الْحَرْبِ أَسْرَعُوا إِلَيْهَا مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ ؛ وَمِثْلُهُ قَوْلُ حُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ الْهَلَالِيِّ الصَّحَابِيِّ :

قَوْمٌ إِذَا هَتَفَ الصَّرِيحُ رَأَيْتَهُمْ مَا بَيْنَ مُلْحِمٍ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعٍ^(١)
 وَقَوْلُهُ : لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهُمْ... أَلَيْتَ يَقُولُ : إِذَا دُعُوا إِلَى الْحَرْبِ أَسْرَعُوا
 إِلَيْهَا غَيْرَ سَائِلِينَ مَن دَعَاهُمْ لَهَا ، وَلَا بَاحِثِينَ عَنْ سَبَبِهَا ، لِأَنَّ الْجَبَانَ رُبَّمَا
 تَعَلَّ بِذَلِكَ فِتْبَاطًا عَنِ الْحَرْبِ . وَنَحْوُهُ قَوْلُ سَلَامَةَ بْنِ جَنْدَلٍ :
 إِنَّا إِذَا مَا أَنَا صَارِحٌ فَرِحُ كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ قَرَعُ الظَّنَائِبِ
 « يَقُولُ سَلَامَةُ : إِذَا دَعَانَا إِلَى إِعَاتَتِهِ أَجْبَنَاهُ إِلَيْهَا مُجِدِّدِينَ ، وَالظَّنْبُوبُ :
 عَظْمُ السَّاقِ ، يَقَالُ : قَرَعُ لِهَذَا الْأَمْرِ ظُنْبُوبُهُ : إِذَا جَدَّ فِيهِ »

(١) هتف : صاح وپروی تقع : أى ارتفع والصريح : الصياح أو بمعنى الصارخ وپروی إذا سمعوا الصريح . وسافع : آخذ بناصية فرسه ، من قوله تعالى : لنسفعاً بالناصية ، يقول : هم قوم إذا ارتفع الصياح للحرب أسرعوا إليه فترام دائرين بين ملحم مهرة وقابض بناصية مهرة يجذبه إليه بسرعة .

وقوله : لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَرِيَّ عَدَدٍ ... أَلَيْتَ وَصَفَ قَوْمَهُ
بأنهم يُؤَثِرُونَ السَّلَامَةَ وَالتَّعْفُوَ عَنِ الْجُنَاةِ مَا وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَلَوْ
أَرَادُوا الْإِنْتِقَامَ لَقَدَّرُوا بَعْدَهُمْ وَعُدَّوْهُم . هَذَا إِذَا كَانَ الشَّاعِرُ لَا يُرِيدُ كَمَا
قُلْنَا هِجَاءَ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ حَتِّهِمْ عَلَى الْإِنْتِقَامِ ، أَمَا إِذَا كَانَ يُرِيدُ ذَمَّهُمْ
فَإِنَّهُ يَهْجُوهُمْ وَيُعَيِّرُهُمْ بِالْجُبْنِ فِي هَذَا الْبَيْتِ . وَقَوْلُهُ : كَأَنَّ رَبَّكَ ... الْبَيْتِ
تَهْكُمُ مِنْهُ وَسُخْرِيَّةٌ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا : أَنَّهُمْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ
عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ ، وَمِنْ ذَا قَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ
فِي حَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ : أَخْبِرْنِي : أَيُّ فَارِسٍ كَانَ أَشْجَعًا ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ
أَشَدَّ غَنَاءً ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ أَصْبَرَ ؟ فَذَكَرَهُمْ لَهُ وَمَيَّزَهُمْ .



وَمِنْ طَرِيفِ آيَاتِ الْحَمَاسَةِ الَّتِي أوردَهَا أَبُو تَمَامٍ فِي حَمَاسَتِهِ وَالْمَبْرَدُ فِي
الْكَامِلِ آيَاتُ قَالَ الْمَبْرَدُ : إِنَّهَا لِأَعْرَابِيٍّ مِنْ بَنِي سَعْدِ ^(١) وَنَسَبَهَا أَبُو تَمَامٍ
إِلَى الْهُذُلُولِ بْنِ كَعْبِ الْعَنْبَرِيِّ - وَكِلَاهُمَا شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ - وَكَانَ هَذَا
الْقَائِلُ مُنْمَاكًا - أَيُّ عَقِدَ لَهُ عَلَى امْرَأَةٍ وَلَمْ يَبْتَنِ بِهَا - فَنَزَلَ بِهِ أَضْيَافٌ
فَقَامَ إِلَى الرَّحَى فَطَحَنَ لَهُمْ ، فَمَرَّتْ بِهِ زَوْجَتُهُ فِي نِسْوَةٍ ، فَقَالَتْ لَهِنَّ :
أَهَذَا بَعْلِي ؟ فَأُعْلِمَ بِذَلِكَ فَقَالَ :

تَقُولُ : وَصَكَّتْ نَحْرَهَا بِيَمِينِهَا : أْبَعْلِي هَذَا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسُ ؟
فَقُلْتُ لَهَا : لَا تَعْجَلِي وَتَبَيَّنِي فَعَالِي إِذَا التَّفَّتْ عَلَى الْفَوَارِسِ
أَلَسْتُ أَرُدُّ الْقِرْنَ بِرُكْبٍ رَدَّعُهُ

وَفِيهِ سِنَانٌ ذُو غِرَارَيْنِ نَائِسٌ

(١) قَالَ ابْنُ بَرِيٍّ : هُوَ نَعِيمُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدِ السَّعْدِيِّ

وَأَحْتَمَلُ الْأَوْقَ الثَّقِيلَ وَأَمْتَرِي
 حُلُوفَ الْمَنَايَا حِينَ فَرَ الْمُغَامِسُ
 وَأَقْرِي الْهُمُومَ الطَّارِقَاتِ حَزَاءَةً
 إِذَا كَثُرَتْ لِلطَّارِقَاتِ الْوَسَاوِسُ
 إِذَا حَامَ أَقْوَامٌ تَقَحَّحْتُ غَمْرَةً
 يَهَابُ حُمَيْهَا الْإَكْثُ الْمُدَاعِسُ
 لَعَمْرُ أَيِّكَ الْخَيْرِ إِنْ لَخَادِمُ
 لِضَيْفِي وَإِنِّي إِنْ رَكِبْتُ لِفَارِسُ
 وَإِنِّي لِأَشْرَى الْجِدَّةِ أَبْغِي رَبَاحَهُ
 وَأَتْرُكُ قَرْنِي وَهُوَ خَزْيَانُ نَاعِسُ

« الْقَعَسُ : دخول الظهر وخروج الصدر ، وهو نقيض الحدب ،
 وقول المرأة : أبغى هذا ؟ إشارة تحقير ، تعجب مما رأت ، وقوله : بالرحى
 المتقاعس فإن « بالرحى » تبيين ومعنى ذلك أن كلمة « المتقاعس » تدل على
 أن هناك تقاعساً ولما قال بالرحى دل ذلك على أن التقاعس حدث
 بالرحى ، ولم يرد أن يعمل المتقاعس في قوله بالرحى لأن ذلك على
 ما قال النحاة ممنوع ، لأن أل في المتقاعس اسم موصول كالذى وبالرحى
 صلة ولا يجوز أن تتقدم الصلة على الموصول . وقوله : ألسنت أرد القرن
 يركب رذعه ، فالقرن : من يقاوهك في قتال ، وقوله : يركب رذعه ،
 قيل : الرذع ههنا : الدم على سبيل التشبيه برذع الزعفران ، ومعنى ركوبه
 دمه : أنه جرح فسأل دمه فسقط فوقه متشجاً به ، وقيل : الرذع : العنق
 أي سقط على رأسه فاندقت عنقه ، وقيل معناه : صرع منكوساً رأسه

أَسْفَلَهُ ، مِنْ أَرْتَدَعَ السَّهْمُ : إِذَا رَجَعَ النَّصْلُ مُتَأَخَّرًا فِي السِّنَخِ .
 وَذُو غَرَارَيْنِ : ذُو حَدِيدَيْنِ ، وَنَائِئُسٌ : مُضْطَرَبٌ ، مِنْ نَاسٍ يَنُوسُ : إِذَا
 تَحَرَّكَ وَاضْطَرَبَ ، وَتُرُوِي : يَابَسُ وَمَعْنَاهُ : صُلْبٌ ذَكَرُ لَا تَأْنِيثَ فِيهِ .
 وَالْأَوْقُ : الثَّقَلُ وَقَدْ آقَى عَلَيْهِ يَوْقُ : مَالٌ بِثِقَلِهِ ، وَوَصَفَهُ بِالثَّقِيلِ مَبَالِغَةً .
 وَالْخُلُوفُ جَمْعُ خَلْفٍ — بِالْكَسْرِ — وَهُوَ فِي الْأَصْلِ : ضَرْعُ النَّاقَةِ ،
 وَأَمْتِرَاوَهُ : اسْتِخْرَاجُ مَا فِيهِ مِنَ اللَّبَنِ . يَرِيدُ : أَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ خَبِيثَاتِ الْمَنِيَا
 بِأَفَاعِيلِهِ الْمُدْهِشَةِ وَقَدْ جَدَّ الْخُطْبُ وَاشْتَدَّتْ الْحَرْبُ ، وَالْمُغَامَسُ : الَّذِي
 يَنْغَمَسُ فِي لُجَّةِ الْحَرْبِ لَا يَبَالِي أَصَابَ أَمْ أُصِيبَ ، وَقَوْلُهُ : وَأَقْرَى الْهَمُومِ
 الطَّارِقَاتِ حَزَامَةً ... أَلَيْتَ يَقُولُ : أَحْزَمُ عِنْدَهَا إِذَا اشْتَدَّتْ وَكَثُرَتْ
 أَحَادِيثُ النَّفْسِ بِهَا . وَخَامٌ : جَبِينٌ وَنَكَصَ يَقَالُ : خَامَ عَنِ الْقِتَالِ يَنْخِمُ
 خَيْمًا وَخَيْمَانًا : جَبِينٌ . وَالْحَمِيَا : صَدْمَةُ الشَّرِّ ، وَالْأَلْدُ فِي الْأَصْلِ : الشَّدِيدُ
 الْخِصُومَةِ الَّذِي يَحِيدُ عَنِ الْحَقِّ ، وَالْمَرَادُ هُنَا الَّذِي لَا يَبْتَنِي عَنِ الْحَرْبِ .
 وَالْمَدَاعِسُ : الْمَطَاعِنُ بِقَالَ : دَعَسَهُ بِالرَّيْحِ : إِذَا طَعَنَهُ . وَالرَّبَّاحُ مَصْدَرٌ كَالرَّبْحِ
 وَقَوْلُهُ : وَأَتْرَكَ قِرْنِي الْخِ يَقُولُ : أَهَيْئُهُ فَأَكْسِرُهُ حَتَّى يَبْقَى مَطْرَقًا مُتَنَدِّمًا
 كَمَنْ غَلَبَهُ النَّعَاسُ ، وَقِيلَ مَعْنَى نَاعَسَ : مُشْرِفٌ عَلَى الْمَوْتِ يَقَالُ طَعَنْتُ
 صَاحِبِي فَأَنْتَهُ : أَي قَتَلْتَهُ . »



وقالت ليلي الأَخِيلِيَّةُ وَهِيَ مِنْ أَيْبَاتِ الْحَمَاسَةِ :

لَا تَفْزُونَ الدَّهْرَ آلَ مُطْرَفٍ لَا ظَالِمًا أَبَدًا وَلَا مَظْلُومًا
 قَوْمٌ رِبَاطُ الْخَيْلِ وَسَطَ يَوْمِهِمْ وَأَسِنَّةُ زُرُقِ بُخَالِ نَجُومَا
 وَخُرُوقُ عَنهُ الْقَمِيصُ تَخَالُهُ وَسَطَ الْيُبُوتِ مِنَ الْحَيَاءِ سَقِيمَا

حتى إذا رُفِعَ اللّوَاءُ رَأَيْتَهُ تَحْتَ اللّوَاءِ عَلَى الْخَيْسِ زَعِيمًا
 « قولها : لا تَغْزُونَ بِرُؤْيٍ لَا تَقْرَبَنَّ وَقَوْلُهَا : لَا ظَالِمًا أَبْدًا وَلَا مَظْلُومًا
 تَرِيدُ : لَا يُبْتَدِئًا لَهُمْ بِالْحَرْبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحَارِبُوكَ وَلَا مُنْتَقِمًا مِنْهُمْ إِنْ
 حَارِبُوكَ ، لِأَنَّهُمْ أَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ لَا يَطَّافُونَ عَلَى أَنْ حَالَ ، وَيُرْوَى :
 « لَا ظَالِمًا فِيهِمْ وَلَا مَظْلُومًا »

قال البكري شارح الأملی : وهذه الرواية هي بيّنة لوجهين أحدهما :
 أنها أفادت معنى حسناً ، لأنه قد يكون ظالماً أو مظلوماً من غيرهم فيستجبر
 بهم الردُّ ظلامته ، أو لاستدفاع مكروه عتوته فلا بدّ لهم من إجارته ،
 والوجه الثاني أن قوله : لا تَقْرَبَنَّ الدهر قد أغنى عن قوله : أبدأ ، فصار
 حشواً لا يُفيد معنى ، وقولها : قومٌ رِبَاطُ الخيل ... البيت تقول : إنهم
 أصحابُ خيلٍ ورماحٍ مستعدون أبدأً لدفع الأعداء والذود عن حياضهم ،
 وأسنة زُرُق : صافيةٌ لا مِعةٌ كأنها نجوم في الصفاء واللّعان ، وقولها :
 وَخَرَّقَ عَنْهُ الْقَمِيصُ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى جَذْبِ
 الْعِفَاةِ لَهُ ، وَالثَّانِي : أَنَّهُ يُؤَثِّرُ بِجِدِّ ثِيَابِهِ فَيَكْسُوهَا وَيَكْتَفِي بِمَعَاوِزِهَا
 — أَيْ الثِّيَابِ الْبَالِيَةِ مِنْهَا لِأَنَّهَا ثِيَابُ الْمُعْوِزِينَ — وَقَوْلُهَا : تَحَالَهُ مِنَ الْحَيَاءِ
 سَقِيماً تَرِيدُ أَنَّهُ لِإِمَاعَانِهِ فِي السُّكْرِ وَالسُّخَاءِ تَظَنَّهُ سَقِيماً مِنَ الْحَيَاءِ تَخَشِيَةً أَنْ
 لَا يَكُونَ قَدْ بَلَغَ مِنْ إِكْرَامِ الضَّيْفِ مَا يَنْبَغِي ، تَمَدُّحُهُ بِالْجُودِ كَمَا تَمَدُّحُهُ
 بِالشَّجَاعَةِ . وَالْخَيْسُ : الْجَيْشُ ، وَالزَّعِيمُ : الْكَفِيلُ وَالرَّئِيسُ .

وقال بعضُ بني مازين :

وقد علموا بأن الحربَ ليست لأصحابِ المَجَامِرِ وَالْحَلُوقِ
 ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى أَقْنَانَاكُمْ عَلَى وَصَحِ الطَّرِيقِ

« المجامر : المباخر ، أى التى توضع فيها النار والبُحُور لِتَبَخَّرَ بها
وَيُطَيَّبَ : والخلوق : طيبٌ معروفٌ يُتخذ من ألوانِ شتى من الطيب ،
وقيل : الزعفران »

وقال أبو تمام فى مرثيته المشهورة لمحمد بن حميد الطوسى التى أولها :
كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَقْدَحِ الأُمْرُ
فليس لِعَيْنٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُدْر

قال :

فَوَيْ ماتَ بينَ الطغينِ والضُّربِ مِيتَةً
تقوم مقامِ النَّصْرِ إذْ فَانَهُ النَّصْرُ
وما مات حتى ماتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ
من الضربِ ، واعتَلَّتْ عليه القنا الشُّمْرُ
وقد كان فوتُ الموتِ سهلاً فرَدَهُ
إليه الحِفاظُ المرُّ والخلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعافى العارَ حتى كَأَنَّما
هُوَ الكُفْرُ يومَ الرَّوعِ أو دُونَهُ الكُفْرُ
فَأُثْبِتَ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ
وقال لها : من تحت أنْخِصِكَ الحِشْرُ

غدا عُدْوَةٌ والحمدُ نَسْجُ رِدايهِ فلم يَنْصَرِفْ إلا أوْ كَفانَهُ الأَجْرُ
تَرَدَى ثيابَ الموتِ حُرّاً فادْجَا لها الليلُ إلا وهى من سُنْدُسِ حُضْرُ
« قوله : تقوم مقامِ الصر : لأنه قُتلَ قِتْلَةً بطلِ شجاع ، إذ لم يُقْتَلْ
حتى تَشَلَّمَ حَدَّ سَيْفِهِ مِنْ شِدَّةِ ما ضَرَبَ بِهِ وَحَتَّى أَقْصَصَتْ الرِماحُ فى يَدَيْهِ

كما قال في البيت التالي ، قال نَقْدَة الشعر : إن أبا تمامَ نظر في هذا المعنى إلى قول عُرْوَة بن الورد :

ومن بكٍ مثلي ذا عيالٍ ومُقْتِرًا من المالِ يطرَحُ نفسهُ كلَّ مَطْرَحِ
لِيَبْلُغَ عُذْرًا أو يَنالَ رَغِيْبَةً ومُبْلِغُ نفسِ عُذْرَها مثلُ مُنْجِحِ

قالوا : إن عُرْوَة جعل اجتهاده في طلب الرزق عُذْرًا يقوم مقام النجاح وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذي هو أفضى اجتهاد المجتهد في إلقاء الأعداء قائمًا مقام النصر . هذا ، ومضربُ السيف : حُذُه ، وقوله : واعتلت عليه القنا السُمُرُ فعنى اعتلال القنا أن العلة أصابها فلم تستطع العمل معه وتحقيق مطالب همته من الصُمود للأعداء ، أو تقول : معنى اعتلالها : أنها تجتنت عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى العصيان والخلاف عليه ، وما ذنبه عندها إلا كثرة تكاليفها الطعن لا يُريحها من ذلك ، والحفاظ : الحِمِيَّةُ والغَضْبُ محافظة على الحُرمة وكل ما يجب على المرء حمايته ، والخلق الوعر : الشديد الأنفة ، ولا يُمدح به إلا في العداوة . قال المازني :

تُعَاتِبُنِي فِيمَا تَرَى مِنْ شِرَاسِي وَشِدَّةِ نَفْسِي أُمُّ سَعْدٍ وَمَا تَدْرِي
فَقَلْتُ لَهَا : إِنَّ الْكَرِيمَ وَإِنْ حَلَا لِيُوجَدُ أَحْيَانًا أَمْرًا مِنَ الصَّبْرِ

« الروع هنا : الحربُ وفي الأصل : الخوف . وقوله : فأثبت في مُسْتَنْقِعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ ... أَلْبَيْتِ . جعلَ للوْتِ مُسْتَنْقِعًا كَمُسْتَنْقِعِ الْمَاءِ ، وهو : مُجْتَمِعُهُ فِي بَطْنِ الْوَادِي ، وَأَنْحِصُ الْقَدَمِ : مَا لَا يُصِيبُ الْأَرْضَ مِنْ بَاطِنِهَا يَقُولُ : إِنَّهُ لَشِجَاعَتُهُ قَدْ صَمَّ دَ لِلْوَتِ فَلَا تَتَحَوَّلُ رِجْلُهُ إِلَى أَنْ يَمُوتَ حَتَّى كَأَنَّ الْحَشْرَ - يَوْمَ يُحْشَرُ النَّاسَ إِلَى رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - مِنْ

تحت أخصه . وقوله : غذا غدوة ... ألبت يقول : إنه عاش محموداً مشكوراً
ومات مشوباً مأجوراً . وقوله : تردى ثياب الموت ... ألبت يقول : إنه
ارتدى الثياب المأطخة بالدم فلم ينقض يوم قتله ولم يدخل في ليلته إلا
وقد صارت الثياب حُضراً من سُندس الجنة . قال علماء البيان : في هذا
البيت الطباق المسمى بالتدبيح ، وهو أن يذكر الشاعر أو الناثر في معنى من
المدح أو غيره ألواناً لفصيد الكناية أو التورية ، ويسمى تدبيح الكناية
أيضاً ، فإنه هنا ذكر لون الحمرة والخضرة والمراد من الأول الكناية عن
القتل ومن الثاني الكناية عن دخول الجنة ،



وقال البُحْتُريُّ :

مَعَشَرُ أَسَاكِتِ حُلُوهُمْ الْأَرْضَ ضَاكَادَتْ لَوْلَاهُمْ أَنْ تَمِيدَا
فَإِذَا الْجَدْبُ جَاءَ كَانُوا غَيْرِنَا وَإِذَا التَّفْعُ نَارَ ثَارُوا أُسُودَا
وَكَأَنَّ الْإِلَهَ قَالَ لَهُمْ فِي الْوَأ حَرَّبِ كَرُونَا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدَا

وقال مُسلم بن الوليد :

لَوْ أَنَّ قَوْمًا يَخْلُقُونَ مَنِيَّةً مِنْ أَبِيهِمْ كَانُوا بَنِي جِبْرِيَلَا
قَوْرٌ إِذَا حَمَى الْوَطَيْسُ لَدَيْهِمْ جَعَلُوا الْجَاهِمَ لِلشُّيُوفِ مَقِيلَا

وقيل للهلب بن أبي صفرة : إنك لتلقى نفسك في المهالك ا قتال :

إِنْ لَمْ آتِ الْمَوْتَ مُسْتَرِلاً ، أَنَانِي مُسْتَعْجِلاً ، إِنِّي لَسْتُ آتِي الْمَوْتَ مِنْ
حُبِّهِ ، وَإِنَّمَا آتَيْهِ مِنْ بُغْضِهِ ، وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْحُصَيْنِ بْنِ الْحَمَامِ :

تَأَخَّرْتُ أَسْتَقْبِلُ الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ تَقْدَمَا

وقد تقدم

وقال المتنبي :

شجاعٌ كأنَّ الحربَ عاشِقَةٌ له إذا زارها فدَّتْهُ بالخيلِ والرَّجْلِ
« المراد بالخيل : الفرسان ، والرجل جمع راجل يقول : هو شجاع يُقتل
ولا يُقتل فكأن الحرب تعشقه فإذا زار الحرب استبقتته وأفت من سواه
من الفرسان والرجال ، فكأنما جعلتهم فداء له . »

وقال :

وكم رجالٌ بلا أرضٍ لكثرتهم تَرَكَتْ جَمَعَهُمْ أرضاً بلا رَجُلٍ
ما زال طَرَفُكَ يجرى في دِمَائِهِمْ حتى مَشَى بك مَشَى الشَّارِبِ الثَّمِيلِ

« قوله : وكم رجال ... ألبيت يقول : كم جمع الأعداء لك جموعاً
تَغيبُ الأرضُ من كثرتهم وتخفى على الابصار حتى كأنهم رجالٌ بلا أرضٍ
فقتلتهم وأنيبتهم حتى خَلَيْتْ أرضهم فبقيت ولا رجل فيها ، وفي هذا البيت
نظر من ناحية كثرة الجيش إلى قول أبي تمام في صفة جيش :

مَلَأَ المَلَأَ عَصَباً فكاد بأن يُرَى لا خَلْفَ فِيهِ ولا لَهُ قُدَامُ

وقوله : ما زال طرفك ... ألبيت ، فالطرف : الفرس الكريم ، والثميل
السكران ، يقول ما زالت تخوض دماءهم بقرسك حتى تعثر بالقتلى وأمالته
دماؤهم عن سنن جزيه وأزلقته حتى مشى بك مشى السكران ،

وقال الشابُّ الظريفُ من قسيده له يمدح بها ابن عبد الظاهر :

ومعشِرٍ لم تزل للحربِ بيضُهُمُ

حُمُرُ الخُدودِ وما من شأنها الخجلُ^(١)

(١) البيض : السيوف ، وجعلها حمر الخدود لما يسيل فوقها من دماء الأعداء.

إذا انتَضَرها بُروقًا صُيِّرَتْ سُجْبًا

يسيلُ من جانِبَيْها عارضٌ قَطِلُ (١)

يُثْنِي حديثُ الرَّغَى أَعْطَافَهُمْ طَرِبًا

كأنَّ ذِكْرَ المنايا بينهم عَزَلُ (٢)

كم نارٍ حربٍ بهم شُبَّتْ وهم سُجْبُ

وأرضِ قومٍ بهم فاضتْ وهم شُعْلُ (٣)

وقال الشاعر أبو الفرج البَغَاءُ شاعر اليتيمة :

يسعى إلى الموتِ والقنا قَصْدُ وخيلُهُ بالرؤسِ تَنْتَمِلُ

كأنَّهُ واثقٌ بأنَّ له عُمرًا مُقيماً ومالهُ أَجَلُ

« والقنا قَصْدُ : أى قَطْعُ ، والمفرد : تَصَدَّةٌ وهى : القِطْمَةُ من الشئِ »

إذا انكسر ،

وقال آخر :

كأنَّ سيفوفهُ صيغَتُ عقوداً تجولُ على الترائِبِ والنُجُورِ

وسُمِّرَ رماحِهِ جُعِلَتْ هُمُوماً فما يَحْظُرْنَ إلا فى صَمِيرِ

ومن كلامِ على بن أبى طالب : رَبُّ حَيَاةٍ سَبَبُهَا التَّعَرُّضُ لِلدَّوْتِ ،

وَرَبُّ مَمِيَّةٍ سَبَبُهَا طَلْبُ الحَيَاةِ .

ووبعد ، فإنَّ عقربياتهم فى الشجاعة والتمدح بها لا تكاد تُحصى كثرةً ،

وإنَّ الناظِرَ فى الأدب العربى ولا سيما المنظوم منه يتحقَّق من أنَّ الشجاعة

(١) انتضى السيف : استله من غمده ، والعارض السحاب والمراد هنا الدماء

(٢) الأعطاف جمع عطف وهو الجانب

(٣) وهم سحِب أى فى الكرم ، وهم شعل أى كالنار فى استئصال أعدائهم .

والإشادة بها تكاد تكون أحدَ شَطْرَي ما يتمدحون به ويتوهون بفضله ،
أما الشطر الآخر فهو الجود والكرم ، وبحبك بهاتين الخلتين ، وإنهما
دعامتا سائر الفضائل ، ولنجزئ بهذا المقدار وإن كان قَطْرًا من بحرٍ ،

صدر من عبقریاتهم في وصف آلات الحرب

قال البُحْتَرِيُّ يَصِفُ السَيْفَ :

يَتَنَاوَلُ الرُّوحَ البَعِيدَ مَنَالُهُ عَفْوًا ، وَيَفْتَحُ فِي القَضَاءِ المَقْفَلَ
مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تُمَضِّهِ يَدُ فَارِسٍ بَطْلٍ ، وَمَضْقُولٌ وَإِنْ لَمْ يُصْقَلِ
يَغْشَى الوَعَى فَالْتَرُسُ لَيْسَ بِجُنَّةٍ مِنْ حَدِّهِ وَالدَّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلِ
مُضْعٍ إِلَى حُكْمِ الرَّدَى ، فَإِذَا مَضَى

لَمْ يَلْتَفِتْ ، وَإِذَا قَضَى لَمْ يَعْدِلِ

مُنَالِقٌ يَفْرِى بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ مَا أَدْرَكَتْ وَلَوْ أَنَهَا فِي يَدِ بَلِ
وَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ وَإِذَا أُصِيبَ فَمَالُهُ مِنْ مَقْتَلِ

وقال عبد الله بن المعتز يصفه :

وَلِي صَارِمٌ فِيهِ المَنَايَا كَوَامِنٌ فَمَا يُبْتَضَى إِلَّا لِسَفْكِ دِمَاءِ
تَرَى فَوْقَ مَتَلِيهِ الفِرْنَدَ كَأَنَّهُ بَقِيَّةُ غَيْمٍ رَقَّ دُونَ سَمَاءِ (١)
وقال ابن الرومي :

خَيْرٌ مَا اسْتَعَصَمَتْ بِهِ الكَفَّ عَضْبُ دَكَرٍ هَزَهُ أُنَيْثُ المَهْزِ (٢)

(١) فرند الشيف : وشية

(٢) الذكر من السيوف : الشديد الجيد الصارم ، وهزه أنيث المهز يريد : أنه

لين منقاد مطواع مع شدته

مَا تَأَمَّلْتَهُ بَعْدِيكَ إِلَّا أُرْعِدَتْ صَفْحَتَاهُ مِنْ غَيْرِ هَرٍّ
 مِثْلَهُ أَفْرَعِ الشُّجَاعِ إِلَى الدَّرِّ عَ فَعَالَى بِهَا عَلَى كُلِّ بَرٍّ (١)
 مَا يُبَالِي أَصَمَّتْ شَفْرَتَاهُ فِي مَحْزِ أُمِّ حَادَاتَا عَنْ مَحْزِ
 وَلَمَا صَارَ الصَّمَامَةُ سَيْفُ عَمْرُو بْنِ مَعْدِيكَرِبَ إِلَى مُوسَى الْهَادِي
 أَدِنَ لِلشُّعْرَاءِ أَنْ يَصْفُوهُ ، فَبَدَأَهُمُ ابْنُ يَامِينَ فَقَالَ :

حَازَ صَّمَامَةَ الزُّبَيْدِيِّ مِنْ دُونِ جَمِيعِ الْإِنَامِ مُوسَى الْآمِينَ
 سَيْفَ عَمْرُو وَكَانَ فِيهَا سَمِيمًا خَيْرَ مَا أُعْجِدَتْ عَلَيْهِ الْجُفُونَ
 أَخْضَرَ الْمُنَى بَيْنَ حَدِيدِيهِ نُورٌ مِنْ فِرْنِدٍ تَمْتَدُّ فِيهِ الْعُيُونُ
 أَوْقَدَتْ فَوْقَهُ الصَّوَاعِقُ نَارًا ثُمَّ شَابَتْ بِهِ الذُّعَافُ الْقُيُونُ (٢)
 فَإِذَا مَا سَلَسَتْهُ بَرَزَ الشَّمْسَ رِضَاءً فَلَمْ تَكُنْ تَسْتَمِينُ
 يَسْتَطِيرُ الْأَبْصَارَ كَالْقَبَسِ الْمُشْعَلِ مَا تَسْتَقِرُّ فِيهِ الْعُيُونُ
 وَكَانَ الْفِرْنِدُ وَالرُّوْنِقُ الْجَا رَى فِي صَفْحَتَيْهِ مَاءٌ مَعِينُ
 وَكَانَ الْمُنَى نَيْطَتْ إِلَيْهِ فَهُوَ مِنْ كُلِّ جَانِبِيهِ مَنُونُ
 مَا يُبَالِي مَنْ اتَّضَأَهُ لَضَرْبِ أَشْمَالِ سَطَطَ بِهِ أُمُّ يَمِينُ
 قَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ : وَقَدْ أُخِذَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ تَشْبِيهُهُ
 السَّيْفَ بِالشَّمْسِ ثُمَّ بِالْقَبَسِ ، لِأَنَّهُ قَدْ حَطَّهُ دَرَجَاتٍ ... (٣) ،

ولمناسبة عمرو بن معديكرب وصمصامته يُروى أن عمر بن الخطاب
 بعث إلى عمرو أن يبعث إليه بسيفه الصمصامة دنا ، فبعث إليه به ، فلما

(١) يقول : إن هذا السيف بلعجى الشجاع إلى أن يتقيه بأجود الدروع ، والبز :
 السلاح يدخل فيه الدرع والمغفر والسيف (٢) الذعاف : السم الذي يقتل من
 ساعته ، والقيون جمع قين وهو الحداد وكل صانع (٣) القبس : الجذوة من النار

ضرب به وجده دون ما بلغه عنه ، فكتب إليه في ذلك ، فأجابه يقول :
 إنما بعثتُ إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث له بالساعد الذي يضربُ به .
 وسأله عمر يوماً عن السلاح فقال : ما تقول في الرُّمح ؟ قال : أخوك
 ورُبَّما خانَكَ فأنقَصْ ؛ قال : فما تقول في السُّترس ؟ قال : هو الجُنْ
 وعليه تدور الدوائر ، قال : فالنَّبل ؟ قال : منايا تُخَطِّطُ وتُصَيَّبُ ، قال :
 فما تقول في الدرع ؟ قال : مَثَقَلَةٌ للراجل مَشْغَلَةٌ للراكب ، وإنها لِحِصْنُ
 حصين ؛ قال : فما تقول في السيف ؟ قال : هُنا لك قارَعَتَكَ أُمك عن
 الثُّكْلِ^(١) ؛ قال : بَلْ أُمك اقال : بَلْ أُمك يا أمير المؤمنين ! فعلاه أمير المؤمنين
 بالدِّرَّة ، وقيل : بَلْ قال له — لما قال عمر بل أُمك — قال : أُمِّي
 يا أمير المؤمنين « الحمى أضرعتني لك » أراد : أن الإسلام قَيَّدَتني ، ولو
 كنت في الجاهلية لم تُكلمني بهذا الكلام ، وهو مثلُ تَضْرِبُهُ العرب إذا
 اضْطَرَّت للخضوع .

ومثل ذلك قول الأغر النهشلي لابنه لما بعثه لحضور ما وقع بين
 قومه فقال : يا بُنَيَّ ، كُنْ يَدًا لاصحابك على مَنْ قاتلهم ، وإياك والسيف
 فإنه ظلُّ الموت ، واتقِ الرُّمح فإنه رِشَاءُ المَنِيَّةِ ، ولا تَقْرَبِ النَّهْمَ فإنها
 رُسلُ تَعَصِي وتُطِيع ، قال : فِيمَ أَقاتل ؟ قال : بما قال الشاعر :

جَلاميدُ أملاءُ الأَكْمَفِ كأنها رُؤسُ رجالٍ حُلِقَت في المَواهِمِ

(١) الشكل : الفقد ، وامله يريد : أن يصف السيف بأنه أفنك أنواع الأسلحة
 وأروعها فسلك إلى ذلك - بعبارة الكناية فعبارة بجملة لازمها يدل على ما يريد أبلغ دلالة
 إذ يقول : هُنا لك — أي إذا ذكر السيف أو تقارعت السيوف ، قارعته أُمك ودافعته
 عن الشكل والهلاك إشفاقاً عليه ، فإن الإشفاق أعظم ما يكون على المنازل إذا كان
 السلاح السيف ، لأن ضرباته صائبة قاتلة

فعليك بها وأصقها بالأعقابِ والشوق . « قوله : جلاميد أملاء
الأكف ... البيت هو أحد أبيات أوردّها المبرد وهي :

تُغَطِّي نُمَيْرٌ بِالْعِمَامِ لَوْنَهَا وكيف يُغَطِّي اللُّؤْمَ طَىُّ الْعِمَامِ -
فإنْ أَضْرِبُونَا بِالسَّيَاطِ فَإِنَّا ضَرَبْنَاكُمْ بِالْمُرَهَفَاتِ الصَّوَارِمِ -
وإنْ تَحْلِقُوا مِنَّا الرُّؤْسَ فَإِنَّا حَلَقْنَا رُؤْسًا بِاللَّهْمَا وَالغَلَاصِمِ -
وإنْ تَمْنَعُوا مِنَّا السَّلَاحَ فَعِنْدَنَا سِلَاحٌ لَنَا لَا يُشْتَرَى بِالدَّرَاهِمِ -
جَلَامِيدُ أَمْلَاءُ الْأَكْفِ كَأَنهَا رُؤْسُ رِجَالٍ حُلِقَتْ بِالْمَوَاسِمِ

« قوله : حلقنا رؤسا : يريد أزلناها بالسيوف ، واللها بفتح اللام
جمع لهاة وهي لحمة مشرقة على عكدة اللسان ، والغلاصم جمع الغلصمة وهي
لحمة بين الرأس والعنق ، والجلاميد جمع جلمود وهو الحجر تأخذه بيدك
وهو بيان لقوله سلاح لنا لا يشتري بالدرهم ،

وقال المعري :

كَانَ أَرَاقِمًا نَفَثَتْ سِمَامًا عَلَيْهِ فَعَادَ مُبَيِّضًا نَجِيمًا
وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ حُمَةُ الْأَفَاعِي يَعِشُ — إِنَّ فَاتَهُ أَجَلٌ — عَلِيلًا
كَانَ فِرْنَنْدُهُ وَالْيَوْمُ حَمْتُ أَفَاضَ بَصْفِجِهِ تَجِيمًا
تَرَدَّدَ مَآوَهُ عُلُوقًا وَسُفْلًا وَهَمَّ فَمَا تَمَكَّنَ أَنْ يَسِيلًا
يَسْكَادُ سَنَاهُ يُجْرِقُ مَنْ فَرَاهُ وَيُغْرِقُ مَنْ نَجَا مِنْهُ كُلُّوَلَا

« كَانَ أَرَاقِمًا ... البيت يقول : كَانَ الْحَيَاتِ نَفَثَتْ السَّمُومَ عَلَى هَذَا

السيف فصار أبيض ناحلا ، وذلك أن السم موصوف بالبياض ، ومن
نكزته الحية ونفثت فيه سمها تحل جسمه ، فجعل البياض في السيف لونا
للمم والنحافة فعلة ، وقوله : ومن تعلق به : البيت لما وصف السيف

بالتحول لما نفثت الأراقمُ عليه سماءها حَقَّقَ وَجَهَ نَحْوَهُ ، وهو أن مَنْ
 خالطَهُ سُمُّ الأفاعي هلك في غايِبِ الأمرِ ، وإنْ فَاتَهُ الهلاكُ عاش عَيْسِيلاً ،
 والعَيْسِلُ نَحِيلُ الجِسمِ لا نَحَالَةٌ ؛ وقوله : كَأَنَّ فِرْنَدَهُ ... البيتُ فالْفِرْنَدُ :
 جَوْهَرُ السيفِ وماؤُهُ ، ويومُ حَمَتُ : شديدُ الحَرِّ ، والسَّجْلُ : الدَّلْوُ ،
 إذا كانَ فيها ماءٌ ، ولا يُقالُ لها وهي فارغةٌ : سَجِلٌ ولا ذَنُوبٌ ، والسَّجِيلُ :
 الضَّخْمُ العَظِيمُ ، يَصِفُ بِياضِ السيفِ وبريقه ، أي كانَ جَوْهَرَ السيفِ
 وقد صُبَّ بوجهِه دَلْوٌ من الماءِ في يومٍ شديدِ الحَرِّ ، فهو أبيضُ براقٌ
 كأنه ماءٌ ، وإنما ذَكَرَ شِدَّةَ الحَرِّ لِأنه إذا كانَ اليومُ شديدَ الحَرِّ كانتِ الحاجةُ
 إلى الماءِ أَشدَّ ، أو لِأنَّ الماءَ مع إشراقِ الشمسِ أَشدُّ بريقاً ولمعاناً .
 وقوله : تَرَدَّدَ ماؤُهُ ... البيتُ لما شَبَّهَ فِرْنَدَ السيفِ بالماءِ وَصَفَهُ بأنَّ
 الماءَ كأنه يتردَّدُ فيه من أعلاه إلى أسفلِهِ ومن أسفلِهِ إلى أعلاه ، وَيَهُمُّ
 الماءُ أن يَسِيلَ من صَفْحَتِهِ فلا يَتِمَكَّنُ من السيلانِ ، لِأنه محصورٌ في
 أجزائه ، وقوله : يَكادُ سناهُ ... البيتُ فالسَّنا : الضَّوْءُ ، وَقَرَّاهُ : قَطَعَهُ ،
 وَكَلَّ السيفِ والرَّحْمُ يَبْكُلُ كالأولِ : إذا نَبَّاهُ عن العملِ ، يقولُ : إن هذا
 السيفُ جَمَعَ بين النارِ والماءِ فهو يُحَرِّقُ من قَطَعِهِ ويُغْرِقُ بِمائه مَنْ كَلَّ
 السيفُ عنه قَنجاً منه .

وقال إسحاق بن خَلْفٍ :

أَهْضَى مِنَ الأَجْلِ المُنَاحِ أَلْقَى بِجَانِبِ حَاصِرِهِ
 وَكَأَنَّمَا ذَرُّ الهَبَا عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الرِّياحِ

وقال النابغة :

تَطِيرُ بِضَاضاً بَيْنَهُمْ كُلِّ قَوْنَسٍ وَيَتَّبِعُهَا دَنَهُمْ فَرَّاشُ الحَواجِبِ

تَقْدُ السَّلْوِقِي المَضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتُوْقِدُ بِالصُّفْحِ نَارَ الحُبَابِ
 « بَضَضْتُ الشَّيْءَ أَضْضُهُ نَضًّا فَهُوَ مَفْضُوضٌ وَفِضِيضٌ : كَسَرْتُهُ وَفَرَقْتُهُ ،
 وَفَضَّضْتُهُ وَفِضَّضْتُهُ : مَا تَنَكَّسَ مِنْهُ وَتَفَرَّقَ ، وَالْقَوْنِسُ : مُقَدِّمُ الرَّأْسِ ،
 وَقَوْنِسُ البَيْضَةِ مِنَ السَّلَاحِ : أَعْلَاهَا ، وَالْفِرَاشُ : عَظْمُ الحَاجِبِ ، أَوْ وَشْرَةُ
 تَسْكُونُ عَلَى العِظَامِ دُونَ اللِّحْمِ ، وَيُقَالُ : ضَرَبْتُهُ فَأَطَارَ فِرَاشَ رَأْسِهِ وَذَلِكَ
 إِذَا طَارَتِ العِظَامُ رِقَاقًا مِنْ رَأْسِهِ ، وَالسَّلْوِقِي : الدَّرْعُ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى سَلُوقٍ ،
 وَهِيَ قَرِيبَةٌ بِالْيَمَنِ تُعْرَفُ بِسَاقِيَّةٍ وَإِلَيْهَا تُنْسَبُ أَيْضًا السِّكْلَابُ السَّلْوِقِيَّةُ ،
 وَالصُّفْحُ جَمْعُ صُفْحَةٍ وَهِيَ : كُلُّ عَرِيضٍ مِنَ الحِجَارَةِ وَنَحْوِهَا ، وَالحُبَابِ :
 الشَّرَرُ الَّذِي يَسْقُطُ مِنَ الزَّنَادِ يَقُولُ فِي البَيْتِ الثَّانِي : إِنَّ هَذِهِ السِّيُوفُ
 تَقْدُ — تَقْطَعُ — الدَّرْعَ الَّتِي ضَوْعَفَ نَسْجُهَا وَالفَارِسُ وَالفَرَسُ وَتَصِلُ
 إِلَى الأَرْضِ فَتَقْدَحُ النَّارَ بِالصُّفْحِ » .

وَقَالَ البُحْتَرِيُّ يَصِفُ الدَّرْعَ :

يَمْشُونَ فِي زَرَدٍ كَانَ مُتَوْنَهَا فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ مُتُونِ نَهَاءِ
 بَيْضٌ نَسِيلٌ عَلَى الحِكَاةِ فُضُوْهَا سَيْلَ السَّرَابِ بِقَفْرَةٍ بِيْدَاءِ
 وَإِذَا الأَرِسَّةُ خَالَطَهَا خِلَّتَهَا فِيهَا خِيَالَ كَوَاكِبٍ فِي مَاءِ
 « نَهَاءُ جَمْعُ نَهْيٍ ، وَالنَّهْيُ : الغَدِيرُ »

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ المُعْتَزِّ .

كَمْ بَطَلٍ بَارَزَنِي فِي الوَعْيِ عَلَيْهِ دِرْعٌ خِلَّتَهَا تَطَرِدُ
 كَأَنَّهَا مَاءٌ عَلَيْهِ جَرَى حَتَّى إِذَا مَاغَابَ فِيهِ جَمَدٌ

وَقَالَ المُتَنَبِّي :

تَرُدُّ عَنْهُ قَنَا الفُرْسَانِ سَابِقَةً صَوْبُ الأَرِسَّةِ فِي اثْنَانِهَا دِيمُ

تَحُطُّ فِيهَا الْعَوَالِي لَيْسَ تَنْفُذُهَا كَأَنَّ كُلَّ سِنَانٍ فَوْقَهَا قَلَمٌ
 « يقول في البيت الأول : تمنع الرياح من النفوذ في عدو الممدوح
 درعُ سَابِغَةٍ قَدْ تَلَطَّخَتْ بِالِدَّمَاءِ الَّتِي تَسِيلُ مِنَ الْإِسْتِنَةِ عَلَيْهَا ، أَوْ أَنْ وَقَعَ
 الْإِسْتِنَةُ فِي هَذِهِ الدَّرْعِ كَدِيمَةِ الْمَطَرِ تَتَابَعًا . وَيَقُولُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : إِنْ
 الرِّيحُ تَوَثَّرَ فِي دَرْعِهِ ، أَيْ نَجَّرَحُهَا ، وَلَا تَنْفُذُهَا إِلَى جِسْمِهِ ، حَتَّى كَأَنَّ
 أَسَدَتَهَا أَقْلَامَ تَحُطُّ فِي الْقِرطَاسِ وَلَا تَخْرُقُهُ » . وَقَالَ الْمَعْرِيُّ :

إِذَا طُوِيَتْ فَالْقَعْبُ يَجْمَعُ شِمْلَهَا وَإِنْ نُثِلَتْ سَالَتْ مَسِيلَ مِمَادٍ
 وَمَا هِيَ إِلَّا رَوْضَةٌ سَدِكُهَا ذُبَابُ حُسَامٍ فِي السَّوَابِغِ شَادٍ
 عَلَى أَنَّهَا أُمُّ الْوَعْغَى وَابْنَةُ اللَّظِي وَأَخْتُ الظُّبَى فِي كُلِّ يَوْمٍ جِلَادٍ

« الْقَعْبُ : الْقَدْحُ الصَّغِيرُ ، وَنَثَلُ الدَّرْعِ يَنْثَلُهَا : إِذَا أَلْقَاهَا عَلَى نَفْسِهِ
 وَصَبَّهَا عَلَيْهِ ، وَالثَّمَادُ جَمْعُ ثَمَدٍ وَهُوَ : الْمَاءُ الْقَلِيلُ . يَقُولُ : إِذَا طُوِيَتْ
 صَغُرَ حَجْمُهَا بِالطِّيِّ حَتَّى يَسَعَهَا الْقَعْبُ . وَإِنْ لُبِسَتْ سَالَتْ عَلَى الْبَدَنِ
 كَالْمَاءِ . وَقَوْلُهُ : وَمَا هِيَ إِلَّا رَوْضَةٌ ... الْبَيْتِ ، فَسَدِكُ بِالشَّيْءِ : لَزِمَهُ ، وَشَادٍ
 يَشْدُو فَهُوَ شَادٍ : إِذَا رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْغِنَاءِ ، شَبَّهَ هَذِهِ الدَّرْعَ بِالرَّوْضَةِ ،
 وَالذُّبَابُ يَجْتَمِعُ فِي الرِّيَاضِ وَيُصَوِّتُ فِيهَا ، يَقُولُ : إِنْ هَذِهِ الدَّرْعُ رَوْضَةٌ
 قَدْ أَوْلَعَ بِهَا ذُبَابُ السَّيْفِ ، وَهُوَ : حَدُّهُ الَّذِي يَتَعَنَّى فِي الدَّرْعِ ، أَيْ أَنَّهَا
 دِرْعٌ لَا تَزَالُ عَلَى بَطْلِ مُحَارِبٍ تَرُدُّهَا سُيُوفَ الْأَقْرَانِ وَتَقَارِعُهَا فَيَسْمَعُ
 صَوْتًا وَقَعِيهَا . وَقَوْلُهُ : عَلَى أَنَّهَا ... الْبَيْتِ فَالْجِلَادُ : الضَّرَابُ بِالسَّيْفِ ،
 وَجَعَلَ الدَّرْعَ أُمَّ الْوَعْغَى — أَيْ الْحَرْبِ — إِذْ أَنَّهَا تَجْرِي تَجْرِي الْأَصْلَ
 وَالْمَلْجَأُ الَّذِي يُلْجَأُ إِلَيْهِ ، وَجَعَلَهَا ابْنَةَ اللَّظِي — أَيْ النَّارِ — لِأَنَّهَا لِأَنَّهَا
 مَحْمَلَةٌ بِالنَّارِ ، وَأَخْتُ الظُّبَى — جَمْعُ ظُبَّةٍ وَهِيَ حَدُّ السَّيْفِ — إِذْ لَا تَزَالُ

تَرِدُهَا ظُبَاتُ السِّوْفِ وَتَقَارِبُهَا وَلَا تَوَثُرُ فِيهَا ، وَصَفَّهَا بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْمُنْبِتَةِ
عَنِ الْقَرَابَاتِ مُرِيداً بِهَا مَا يَنْسَبُهَا مِنَ الْمَعْنَى .

وَلَأَبَى الْعِلَاءِ الْمَعْرَى فِي الدَّرُوعِ مَقْطُوعَاتٌ كَثِيرَةٌ ، لَقَدْ آفَتِنَ فِيهَا افْتِنَانَا ،
وَأَبْدَعَ مَا شَاءَتْ عِبْقَرِيته تَرَاهَا فِي سَقَطِ الزَّوْدِ .

وَإِذَا أَرَدْتَ التَّوَسُّعَ فِي وَصْفِ آلَاتِ الْقِتَالِ مِنَ السِّوْفِ وَالدَّرُوعِ
وَالرَّمَاكِ وَالْقِسِيِّ وَالنَّبَالِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى الْمَوْسُوعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَدَوَابِّ
الشُّعْرَاءِ فَسَوْفَ تَرَى فِيهَا الطَّمَّ وَالرَّمَّ ، مِمَّا لَعَلَّ يَنْقَعُ عُلَّتَكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

تمَّ الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث إن شاء الله



استدراكات وتصويبات أخرى

لما وقع في المجلد الأول من الأخطاء

جاء في صفحة ٤٢ من المجلد الأول من الذخائر هذا البيت هكذا :

إذا ظلم المولى فزعتَ لِظُلْمِهِ فحركَ أحشائي وهرتِ كلابيا

وقد نهنا في تصويبات المجلد الأول : إلى أن فزعت صوابها فَرِغْتُ
وهنا نحاول أن نشرح هذا البيت شرحا آخر علاوة على الذي أوردناه هناك في

شرحه فنقول : قال التبريزي : فحركَ أحشائي يروى « وحركَ أحشائي »

وهذا كما يقال : هذا أمرٌ قد حرك مِنِّي : إذا اضطربت له ، وقوله :

حركَ أحشائي يجوز أن يكون تحركت أحشاؤه لِوَجِيبِ قَلْبِهِ وخفقانه ،

ونبتت كلابه لِتهيئته للانتقام وتدججه في السلاح وتجمع أصحابه ، والكلب

يُنْكِرُ أصحابه إذا رآهم بهذه الحال ، وأنشد الأصمعي في مثله :

أناؤس إذا ما أنكرَ الكلبُ أهلهُ

حَمَوْا جَارَهُمْ مِنْ كُلِّ شَنْعَاءٍ مُظْلِمٍ

ووجهُ آخر ، وهو أن يكون تحركت أحشاؤه لإعداد ما يُعده .

والمتسرع يُلحِقُهُ ذلك

وجاء في صفحة ٦٠ : ورأى عُمرُ بنُ الخطاب رجلاً يقول : أنا ابن

بطحاء مَكَّة ... الخ وصحة هذه الجملة كما جاء في الأغاني ج ٤ ص ٣١٨

طبعة دار الكتب هكذا : وسمع عُمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه رجلاً يقول

لآخر يفخرُ عليه : أنا ابنُ مُسَلِّطِ حِجْرِ البِطَّاحِ ، وابن كذا وكذا ، فقال له

عمر : إن كان لك عقل فلك أصلٌ ، وإن كان لك خُلُقٌ فلك شرفٌ ،
 وإن كان لك تقوى فلك كرمٌ ، وإلا فذاك الحار خيرٌ منك : أَحَبُّكُمْ إِلَيْنَا
 قَبْلَ أَنْ زَاكِمَ أَحْسَنُكُمْ سَمَنًا ، إِذَا تَكَلَّمْتُمْ فَأَبْيَسُكُمْ مَنَظِقًا . فَإِذَا اخْتَبَرْنَاكُمْ
 فَأَحْسَنُكُمْ فِعْلًا .

وجاء في صفحة ٧٩ من المجلد الأول : وقال حمادٌ عَجْرَدٌ في ذلك
 من أبيات : بُثَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعَكَ قِلَّتُهُ الْحُجَّ ، وَصَوَابُهُ هَكَذَا : وقال بشار
 ابن بُرْدٍ يهجو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان قد
 سَمَّنَحَهُ فَلَمْ يَمْنَحَهُ :

ظَلَّ الْيَسَارِ عَلَى الْعَبَاسِ مَمْدُودُ	وَقَابُهُ أَبَدًا فِي الْبُخْلِ مَعْقُودُ
إِنَّ السَّكْرِيمَ لِيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ	حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ بِجَهْدِ
وَالْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلُ	زُرُقِ الْعَيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سَوْدُ
إِذَا تَكَرَّهْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَائِلِ وَلَمْ	تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرَ الْجُودُ
أَوْ رِقَ بِخَيْرٍ تُرَجِّي لِلنَّوَالِ فَمَا	تُرَجِّي الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ
بُثَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعَكَ قِلَّتُهُ	فَكُلُّ مَا سَدَّ فَقْرًا فَهُوَ مَحْمُودُ

وجاء في صفحة ١٢١ هذا البيت هكذا :

وَمَا خُبْرُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءِ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ
 وَصَوَابُهُ هَكَذَا :

وَمَا خُبْرُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءِ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ

وهو أحد أبيات لآبي نواس يهجو بها إسماعيل بن سهل وقيل هذا

البيت :

على حُبِّزِ إِسْمَاعِيلَ وَاقِيئَةَ الْبُخْلِ فَقَدْ حَلَّ فِي دَارِ الْإِمَانِ مِنَ الْأَكْلِ

وبعدہ :

يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ سِوَى صُورَةٍ مَا إِنْ تُمِرُّ وَلَا تُحَلِّي
إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ . وَالْمَثَلُ هِيَ الْمَثَلُ جَمْعٌ ، مِثَالٌ وَهُوَ : مَا يُفَسِّرُشُ مِنْ مَفَارِشِ
الصُّوفِ الْمُلَوَّنَةِ ، وَقَوْلُهُ : يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ ... نَضْمِيرٌ عَنْهَا لِعِنْقَاءِ مُغْرِبِ ،
وَقَوْلُهُ : مَا إِنْ تُمِرُّ وَلَا تُحَلِّي : قَمَرٌ : تَجَمُّهُ مُرًا وَتَحَلِّي : تَجْعَلُهُ حُلُومًا وَالْمَعْنَى :
لَا تَأْتِي هَذِهِ الصُّورَةُ بِطَائِلٍ إِذْ أَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لِعِنْقَاءِ مُغْرِبٍ فِي الْوَاقِعِ وَهَذَا
عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ : فَلَا أَنْتَ حُلُومٌ وَلَا أَنْتَ مُرٌ : أَي لَسْتَ هُنَاكَ »

وجاء في صفحة ١٢٤ : فهى حق أريد بها باطل ، وصوابها : فهى حق أريد

به باطل .

وجاء في صفحة ١٥٩ : ولى حمر النعم . وصوابها . ولى حمر النعم

وجاء في صفحة ٣١٥ : لم يدخله يا ذنى فأخرجته يا ذنى . وصوابها :

لم يدخله يا ذنى فأخرجته يا ذنى .

وجاء في هذه الصفحة : قال ابن عباس رضى الله عنه ، وصوابها قال ابن

عبّاش رضى الله عنه ، « وهذا ابن عياش هو أبو بكر بن عياش المُحدِّثُ

المتروكى سنة ١٩٣ هجرية وقد ترجم له ياقوت في معجم الأدباء « ج ٧ »

وقد وردت فيه حكايتنا هكذا : قال أبو بكر بن عياش : كنت إذ أنا شابُّ إذا أصابتنى مُصيبةٌ ، تصبَّرتُ ورَدَدْتُ البكاء ، فكان ذلك يوجعُنِي ويزيدني ألمًا ، حتى رأيت بالكناسة — محلة بالكوفة — أعرابياً واقفاً وقد اجتمع الناس حوله فأنشد :

خَلِيلِيَّ عَوْجًا مِنْ صُدُورِ الرِّوَا حِلِّ بِجَهْوَرِ حُزْوِي وَأَبْكِيَا فِي الْمَنَازِلِ
لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً مِنْ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجِيَّ الْبَلَابِلِ
فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَتَقِيلُ : ذُو الرِّمَّةِ ، قَالَ : فَأَصَابَتْنِي بَعْدَ ذَلِكَ صَائِبٌ فَكُنْتُ أَبْكِي
فَأَجِدُ رَاحَةً ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : قَاتِلِ اللَّهُ الْأَعْرَابِيَّ ، مَا كَانَ أَبْصَرَهُ وَأَعْلَمَهُ !



أغلاط مطبعية

في هذا الجزء الثاني

صواب	خطأ	ص	سطر
وفي باب العزم	وفي باب الغرم	٧	١٢
فِيصِيرُكَ	فِيصِيرُكَ	١	٤٤
حَسَنُ الكِدْنَةِ - بكسر الكاف	حَسَنُ الكِدْنَةِ	٤	٤٦
وضمها - : أى السَّمَن			
فَكَأَنها	فَكَأَنه	٢٠	٤٨
عَلَيْته	عَلَيْه	٢٠	٦٠
عُلُوهُ	عُلُوهُ	١٢	١٠٠
فإن يكُ حُرْم	فإن يكُ حُرْم	١٤	١٢١
قال زُفَر بن الحارث	قال من لا أذكر اسمه	١٥	١٢٢
		١٩ و ١٨	١٦٢
سطر أجنبي عنهما			
الشاعر البَيْغَاء	الشاعر البَيْغَاء	١٣	١٦٨
نهبهم عن الغضب من المرح	نهبهم عن الغضب في المرح	١١	١٨٤
أى يَوْمِيَّ	أى يَوْمِيَّ	١٠	٢٢٩
وانجلى الزُّبْدُ	وانجلى الزُّبْدُ	١٧	٢٤٠
إنِ العَدُوُّ	إنِ العَدُوُّ	٨	٢٤٤
بيد أن ميناها	بيد أن معناها	٥	٢٤٧
سحاب	سحاب	٤	٢٥١

فهرس الجزء الثاني

من الذخائر والعقريات

عقريات شتى

تندرج في الابواب السابقة

سمر أخلاق الخلفاء الراشدين ٢ طلحة بن عبيد الله ٢ حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة
والحياء والتبلى ٧ سلم وأدب وسمو خلق ٩ خير ما يرزقه العبد ١٠ لانزال العرب عربا ما حافظت
على زبها ١٠ توفير العالم والشريف والكبير ١١ عبرة ١٤ لانتك إلى غير الله ١٥ نبالة
وسرورة ١٥ دعوة الله ١٦ كلمات في السؤال ١٦ كما ويرون أن الملوك لا يستحي من مسألتهم ١٦
مثل في الرياء ١٨ الم نصف المرم ١٩ مثل الدنيا وآفتها ١٩ عمرو بن العاص يصف حاله في
احتضاره ٢٠ ماذا قال عبد الله بن الزبير حين آتاه خبر مقتل أخيه المصعب ٢١ إذا ضيقت شيئا
ضاق جداً ٢٢ لا تلهن على ما فانك ٢٢ ومن قولهم في الحث على التعزى ٢٣ لكل غد طعام ٢٤
اللتام مولعون بايذاء الكرام ٢٥ آيات في الصبر والشجاعة والكرم ٢٦ آيات حكيمة ٢٧
آيات من لم يروها فلا مروءة له ٣٠ حكم ومواعظ ٣٢ في الموت ٣٥

طائفة من عقرياتهم في التعازى

اتسالية بعد وقوع المخذور ٣٧ من دواعى التسلى قرب الماحوق باليت ٣٨ من تعازى الملوك
وتسليمهم بأن الناس جميعاً مصابون ٣٨ التسلى بأنهم معزى لامعزى به ٣٩ التسلى عن معنى بمن بقى ٣٩
من تسلى بماله من الثواب وبعض تعازيهم ٤٠ من مات له كثير من أهله فصبر ٤١ ومن ادعيتهم
لدوى المصيبة ٤٢

عقرياتهم في الطب والمرضى وعبادة المرضى

معنى الطب ٤٢ وصف طبيب حاذق ٤٢ الطبيب الجمال ٤٣ مدح الحية وذمها ٤٣ شرب
الدواء ٤٤ سياسة الأبدان بما يصلحها من الطعام وغيره ٤٥ من تناول طعاما وتحقق تولدعة
منه ٤٧ الحى ٤٨ الرمد ٥٠ النفوس ٥١ عود إلى عقرياتهم في الشداوى والأدوية ٥١
شهرة المريض إلى الطعام ٥٢ شكوى العلة ٥٢ فضل الصحة والعافية ٥٣ نفع المرضى ٥٤
وصف العلة بأنها تال الأمان ٥٤ وجوب عبادة المريض ٥٦ أدب عبادة المريض ٥٦ شكاية
من لا يعود له إخوانه ٥٧ الاعتذار عن ترك العبادة ٥٧ من علاه مرضه ٥٧ مريض عاد صحيحا ٥٨
حنهم العائد على تنفيظ المريض ٥٨ حنهم على تخوفه ليتجنب المضار ٥٨ تغير اللون ٥٨ ثبته
من برأ من المرض ٥٩ نفدية المريض ٦٠

٦١ { عبقریات شتی
فی الطب والمرض والعیادة

الباب الرابع فی کتمان السر وإفشاءه

وعبقریاتهم فی ذلك وفیما یجرى هذا المجرى

من الشوری والاستبداد بالرأى والنصح والإنابة والعجلة

تمهید ٦٤ حفظ اللسان ٦٥ منع إظهار السر قبل تمامه ٦٦ حثهم على حفظ السر ٦٦ من یکره اطلاعه على السر ٦٧ المتختر بحفظ السر ٦٨ المدوح بحفظ السر ٦٨ صموبة حفظ السر ٧٠ من لا یحفظ مره ویستحفظه غیره ٧٠ الأحوال الی یفشو فیها السر ٧١ المساررة فی المحافل ٧١ المتجج باظهار أسرار أصدقائه ٧٢ الرخصة فی إفشاء السر إلى الصدیق ١٢ عبقریات شتی فی کتمان السر ٧٣ عبقریاتهم فی المشورة والاستیذان بالرأى ٧٦ مدح المشورة ٧٦ حثهم على مشاورة الحازم اللیب ٧٧ استشارة الکبار والصغار ومن یتعمد على مشورته ورویه ٧٨ من یجب أن یجتنب استشارته ٨١ وجوب نصیحة مستشیرک ٨١ الحک على قبول النصح وإن کان مرأ ٨٢ عتاب من لم یقبل النصح ٨٣ ضیاع النصح لمن لا یقبله ٨٣ معایبة من یتنصح الناس ویستنش الناصح ٨٤ الناصح منهم ٨٥ وصف غاش فی نصحه ٨٦ الاستبداد وکراهة المشورة ٨٦ المتفادی من أن یتنذر ٨٨ مدح الإنابة والرؤية وذم العجلة ٨٨ مدح العجلة وانتهاز الفرص ٩٠ عبقریات شتی فی المشورة ٩١

عبقریاتهم فی الوعظ والأمر بالمعروف والنهی عن المنکر

نهی من لم یتعظ عن الوعظ ٩٥ حثهم على الوعظ بالفعال دون المقال ٩٥ التلطف والین فی الوعظ ٩٦ الحک على الاتعاض ٩٦ وعظ من لا یتعظ ٩٦ حثهم على قبول وعظ من لیس یتعظ ٩٧ النهی عن الاقتداء بذوی الزلات ٩٧ الحک على الأمر بالمعروف والمحال الی یجوز فیها ٩٧

الباب الخامس

فی الحلم وکظم الغیظ والعفو والغضب والانتقام وما إلى هذه المعانی

تمهید ١٠٠ المدوح بالحلم وتمدحهم به ١٠٢ فضل کظم الغیظ ١٠٤ التغضب وألوانه وما یسکن به ثوراته ١٠٥ من اجتهد فی إغضابه فحلم ١٠٧ حثهم على ترک الغضب المؤدی إلى الاعتذار ١٠٩ حثهم على اتصام عن الفیج وتمدحهم بذلك ١١٠ حثهم على العفو مطلقاً ١١٠ التحمل عن الخدم ١١١ الرحمة ومدح ذریها ١١٢ ما یسجن فیہ الحلم من الکبار وما یتفتح ١١٢ حثهم على در الحدود ١١٣ حث القادر على العفو ١١٣ ذم المتشی من الغیظ ١١٤ مدح من صغیح =

قدرة ١١٥ الحث على إقالة من سلم ظاهره ١١٥ العفو عن سلم باطنه ١١٦ عتب من يحفظ الذنب بعد تقادمه ١١٧ العفو عن المقر المعترف ١١٧ حسن العفو عن المص ١١٨ استعفاء من خلط لإقرارا بإنكار ١١٨ معذرة مع إنكار ١١٩ معذرة بتكذيب نفسه ١٢٠ استعفاء من زعم أن ذنبه كان خطأ ١٢١ مستعفى سأل أن يقوم ويؤدب ١٢٢ مستعفى سأل العفو لفرط خوفه ١٢٢ مستعفى اتكل على سالف حرمة ١٢٢ الاستعفاء للذنب من قوم محسنين ١٢٣ متوصل إلى العفو بمراجعة أو حجة ١٢٣ مستعفى ذكر فرط خوفه من الوعيد ١٢٣ من استعفى واستوهب معاً ١٢٤ المتوصل إلى العفو بالثبوت إلى حين التبيين ١٢٥ نسي العاقب عن التثريب ١٢٥ نسيهم عن الاعتذار وصعوبته ١٢٦ تأسف من يعاتب بغير ذنب ١٢٧ التهي عن الحلم إذا كان يسبب ذلاً أو ضراً ١٢٨ دفع الجهل بالجهل ١٢٩ من نسي عن الاعتذار بحمله ١٣٠ الحلم مغر وضار مذل ١٣٠ نسيهم عن إكرام اللتام ١٣١ الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه ١٣٢ حث القادر على العقاب قبل فوته ١٣٢ التبتج بقسوة القلب وقلة الرحمة ١٣٣ أخذ البريء بذنب الجاني ١٣٤ عذر من بدر منه سخط ١٣٨ الاحتراس من غرس العداوة ١٣٨ نسيهم عن الاعتذار بالود تستيطن معه العداوة ١٣٩ نسيهم عن السكون إلى من تقدم منك إليه إساءة ١٤٢ نسيهم عن احتقار العدو ١٤٣ المتبتج باظهار اللبان وإضمار العداوة ١٤٤ العدو يكافئك إذا حضرك ١٤٥ من نظره ينجو عن عداوته ١٤٥ ثبات العداوة الذاتية ١٤٧ حمد المدعاة طبا للفرصة ١٤٧ المسرة بوقوع العداوة بين أعدائك ١٤٨ ذنب يعاديك بلا سبب ١٤٨ تأسف من يعاديه لثبتم أو ذنبه ١٤٨ حثهم على العداوة بالقول لا بالفعل ١٤٩

طائفة من عبقرياتهم

في الناس وما جبل عليه السواد الأعظم
من الحقد والحسد وسوء الظن والثمالة وما جرى هذا المجرى

الناس - لا يزال الناس بخير ما تابناهم ١٤٩ وجدت الناس أخبرتم ١٥١ الناس كابل مائة لا تجد نهرا رحلة ١٥١ لوتكاشتم ما تداقتم ١٥٢ تفارق في الناس وأرواهم ١٥٢ الفوغاه ١٦١ قلة الوفاء في الناس وشروع الغدر والمكر في عامتهم ١٦٣ الأندال والثام ١٦٦ الظن ١٦٨ الثمالة ١٧٠ الحقد ١٧٠ ذم الحقد ومدحه ١٧١ الحسد ١٧٤ المزاح ١٨٢ نسيهم عن المزاح ١٨٢ حدم القصد في المزح ومزاح الأمانيل ١٨٣ نسيهم عن الغضب من المزح ١٨٤ المدحوخ بأن فيه الجدد والمزول ١٨٤ عذر من يضحك وهو محزون ١٨٥ نسيهم عن كثرة الضحك ١٨٥ إيراد جسد في مسلك هول ١٨٥ صدر من عبقرياتهم في الغيبة والتمية - حقيقة الغيبة ١٨٦ ذم الغيبة والتمية ١٨٦ من سمحت نفسه بأن يكون في حل ومن لا تسمع نفسه ١٨٨ من فلت مبالاته بمن اغتابه ١٨٨ ذم ناقص إغتاب فاضلا ١٨٩ من رمى غيره بيمينه ١٩٠ اغتاب المرء غيره يدل على عيبه ١٩٠ تشبه الغيبة واستطابتها ١٩١ من اغتاب فاختب ١٩٢ نسيهم عن الاغتاب إلى الغتاب ١٩٢ المدحوخ بصيانة مجلسه عن الغيبة ١٩٢ حثهم على الثبوت فيما يسمع من السعاية ١٩٢ صعوبة التخلص من اغتاب الناس ١٩٥ ذم ناقص الغيبة ١٩٦ الموصوف بالتمية ١٩٦ من اغتاب غيره فرآه ١٩٦ من لا يوم اغتابه ١٩٧ حثهم على التحرز عما يقتضى الغيبة ١٩٧

الباب السادس

في التواضع والسكبر وما إليهما

- حدائق التواضع والسكبر ١٩٨ حثهم على التواضع ٢٠٠ ذمهم السكبر ٢٠٣ بعض دواعي السكبر ٢٠٤
متكبر ذئ أو فقير ٢٠٥ مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه وذمهم الصلف وبعض نوادر المزهوين ٢٠٥
معتذر لعجبه وعزته ٢٠٧ استكبر على ذوى السكبر ٢٠٧ ذمهم الافراط في التواضع ٢٠٨ حد
تعظيم الكبار ٢٠٨

الباب السابع

في الشجاعة وعقوباتهم فيها

وفي الصبر في القتال وسائر ما يتصل بالحرب

- حقيقة الشجاعة ٢١٠ الأسباب المدججة ٢١١ حثهم على الثبات والاقدام ونهيهم عن الاحجام
والفكر في العواقب ٢١٢ البادر إلى الحرب غير مبال بها ٢١٥ حث من دعى إلى المبارزة على
الاجابة ٢١٦ المنازل وقت المنازلة ٢١٦ صدر من عقوباتهم في الصبر ٢١٧ الحدعة والحيلة
واتحزز في الحرب ٢٢٠ ما ينبغي أن يتصف به أمراء الجيوش ٢٢٢ حثهم على التفكير قبل
التقدم ٢٢٧ من يؤثر الموت في العز على الحياة في الذل ٢٢٨ نهيمهم عن مخافة القتل وحثهم على تصور
الموت وتمدحهم بذلك ٢٢٩ الجود بالفسوح والموت في الوغى وأنفقتهم من الموت على الفرائس ٢٣٤
من يحوض الحرب لا بد أن يوطن نفسه على الموت ٢٣٨ في القتل حياة ٢٣٨ تأثير الخوف والخوف
منه والوفى على الجماعة ٢٣٩ المدوح بقوة نفسه دون جسمه ٢٤٣ اتقصد إلى العدى بمجاهرة ٢٤٤
المقاتل عن حريمه ٢٤٤ المستنكف من السلب ٢٤٥ الشبان والكهول في الحرب ٢٤٦ العاجز
أعاده عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك ٢٤٨ من تصبه العاير والسباع في القتال ٢٤٩ عذر من
يلبس الدروع ونحوها في الحرب والمستغنى بشجاعته ويثنيه عنها ٢٥٢ تحريم الملاهي على المحارب ٢٥٤
طائفة من عقوباتهم في الصلح والتحذير من الحرب ٢٥٦ الحرب تصيب جانبها وغير جانبها ٢٦٠
المتع من الصلح ٢٦١ ضارح طلب الصلح ٢٦٢ المعير بانهمائه ٢٦٧ ترك اتباع المنهم ٢٦٨
الفاروق والفرار والثبات وقت الثبات ٢٦٩ المتفادى من حضور الحرب والمحتج لانهمائه بالخوف من
القتل ٢٧٠ هارب يعتذر عن هربه ٢٧١ التخلف عن قومه ٢٧٢ من نجا وقد استولى عليه
الخوف ٢٧٣ تلبية المنهم ٢٧٤ صدر من عقوباتهم في الجبن ٢٧٥ من يظهر الشجاعة خارج
الحرب ويحجن فيها ٢٧٧ عقوبات شتى في الشجاعة والحرب ٢٧٧ ماغزى قوم قط في عقر دارهم
إلا ذلوا ٢٨٢ صدر من عقوباتهم في وصف آلات الحرب ٢٩٦ استدراقات أخطار في الجزء الأول ٣٠٤
استدراقات أخطار في الجزء الثاني ٣٠٧ الفهرس ٣٠٨

الذخائر والعقبات
منجم ثقفنا في جامع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وسلام على عباده الذين اصطفى

«أما بعد، فهذا مُعْجَمٌ تَفَاقَى جَامِعٌ لِسْتَى الْوَأْنِ الْمَعَانِي الَّتِي يَتَدَارَكُهَا النَّاسُ وَيَتَعَاوَرُونَهَا بَيْنَهُمْ، فِي شَتَى أَغْرَاضِهِمْ وَمَنَاحِيهِمْ، وَمُتَافِقَاتِهِمْ وَمَعَاوَرَاتِهِمْ، وَسَائِرِ أَسْبَابِهِمْ؛

ولقد أُلْقِيَ فِي رُوعِي^(١) أَنْ أَقُومَ بِوَضْعِ هَذَا الْمُعْجَمِ وَتَحْقِيقِهِ، فَكَانَ بَعْدَ عَوْنِ اللَّهِ وَتَمَامِ تَوْفِيقِهِ؛

ولقد أُسْمِيَتْهُ «الذَّخَائِرُ وَالعَبْقَرِيَّاتُ»،

ولهذا المُعْجَمِ وَتَأْلِيفِهِ قِصَّةٌ: ذَلِكَ أَنَّ وَزَارَةَ الْمَعَارِفِ الْمِصْرِيَّةَ كَانَتْ قَدْ أَعْلَنْتْ رَغْبَتَهَا مَذْهُبِيَّاتٍ، فِي أَنْ يَخْتَارَ مَنْ يَرْتَقِبُ^(٢) مِنَ الْأَدْبَاءِ، أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الطَّائِفَةِ مِنْ مُؤَلَّفَاتِ الْقُدَامَى الَّتِي وَقَعَ عَلَيْهَا اخْتِيَارُ الْقَائِمِينَ بِالْأَمْرِ فِي الْوِزَارَةِ، كَيْ يَهْدُبُوهَا وَيَجْلُوهَا عَلَى التَّلَامِيذِ وَأَشْبَاهِ التَّلَامِيذِ مِنَ النَّسَائِ

(١) أُلْحَمْتُ، وَالرُّوعُ: الْقَلْبُ وَالْعَقْلُ، وَوَقَعَ ذَلِكَ فِي رُوعِي: أَيُّ فِي نَفْسِي

وَوَخَلَدِي وَبَالِي، وَالْمَرْقُوعُ: الْمُلْهَمُ كَأَنَّ الْأَمْرَ يَلْقَى فِي رُوعِهِ

(٢) يَرْتَقِبُ: يَرْغِبُ

الشادين^(١) جلوة حسنة تحلولي بها في أعينهم ، وتطبي^(٢) أهواءهم ، ويلتصني بها عنهم ماعسى أن تدبوه طباعهم ، وتتجاف أذواقهم ؛ وكان من بين هذه التواليف التي اختارتها الوزارة كتاب محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء لأبي القاسم حسين بن محمد المشهور بالراغب الأصبهاني^(٣) ، ولما كان هذا الكتاب من الكتب القيمة بحق في بابه حُبب إلى بادي الرأي^(٤) أن أضرب بسهم ، في هذا العمل

(١) النشأ : تقرأ بفتح الشين جمع ناشئ. يتكادم وخدم وتقرأ بسكون الشين مثل صحب وصاحب ، والشادى : الذى تعلم شيئاً من العلم والادب ونحوهما ، أى أخذ طرفاً منه
(٢) طباه واطباه : استماله ودعاه إليه .

(٣) قال الإمام جلال الدين السيوطى فى بغية الدعاة - وقد سماه المفضل بن محمد - قال : المفضل بن محمد الأصبهاني الراغب صاحب المصنفات ، كان فى أوائل المائة الخامسة ، له مفردات القرآن وأفانين البلاغة والمحاضرات - أقول : ومن مؤلفاته : الذريعة إلى مكارم الشريعة - قال السيوطى : وقفت على الثلاثة ، وكان فى ظنى أن الراغب معتزلى حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشى على ظهر نسخة من القواعد الصغرى لابن عبد السلام مانصه : ذكر الإمام فخر الدين الرازى فى تأسيس التقديس فى الأصول أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالى قال : وهى فائدة حسنة فان كثيراً من الناس يظنون أنه معتزلى ، أقول : وفى كشف الظنون لكتاب جلبي : إن الإمام الغزالى كان يستصحب كتاب الذريعة دائماً ويستحسنه لنفسه . أقول : وفى الحق أن كتاب الذريعة من الكتب القيمة فى معناه ، وكثيراً ما اعتمدت عليه فى هذا المعجم ، ولعل منشأ اتهامه بالاعتزال هو هذا الكتاب - الذريعة - لان طريقته فيه موفية على الغاية فى السداد ؛ وأزيد على ذلك : أن الراغب بيدولى أنه شيعى يشبه ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة وذلك أنه يقرن اسم سيدنا على بن أبى طالب دائماً بقوله : عليه السلام ؛ وهذا وإن لم يك منكراً إلا أننا لم نألفه من غير رجال الشيعة
(٤) فعلت كذا بادى الرأي : فيما بدا من رأى وظهر

الضخْم، فَأَعْمَدَ عَمَدَ عَيْنٍ إِلَيْهِ ^(١)، وَأَحَقَّقَ بِذَلِكَ مَاتَرَامَتِ وَزَارَةَ الْمَعَارِفِ إِلَيْهِ،
بَيَدَ أَنِي لَمَّا أَنْعَمْتُ النَّظْرَ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ وَأَسْتَقْرَيْتُهُ رَأَيْتُ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ
يَبْقَى عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَتَدَارَكَهُ أُدَيْبٌ ضَلِيعَ دَرَاكٍ، بِالضَّبْطِ وَالشَّرْحِ
والتَّحْرِيرِ. مِمَّا اسْتَبَدَّ بِهِ وَطَفَى عَلَيْهِ وَتَخَوَّنَهُ ^(٢)، مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّصْحِيفِ
وَالْأَخْطَاءِ الَّتِي أَلَوْتَ بِمَحَاسِنِهِ.

ولقد تلامح لي، بل بدأ لمحا باصراً ^(٣): أن الراغب إنما وضع هذه
المحاضرات المنتهين، لا للشادين، لأن مختاراته تكاد تكون خداجاً ^(٤) مُقْتَضِبَةً
مبتورةً كأنها مذكرات، أو رءوس مسائل «أملها الراغب لتكون منبهةً للأديب» ^(٥)
إذا هو استذكرها ما قد اقتراً ^(٦)، فداعت ^(٧) الأشباد وتجاوبت النظائر، فطاع
له المراد ^(٨) خاور وحاضر وناقل وثاقف، فبذ الأقران، فأشربت إليه الأعناق،
وئيت به - كما يقال - الخناصر ^(٩)؛ ومن هنا لا يكاد ينتفع بمحاضرات الراغب
غير أولئك الذين اضطلعوا قبلاً بما فيها كاملاً غير منقوص في مظانها

(١) إليه: متعلق بأعمد، أى أقصد إليه متعمداً، وعمد عين، قال الزخشرى في
الاساس: فعلت ذلك عمد عين: إذا فعلته بجد ويقين قال عمر بن أبي ربيعة.

ثم صَدَّتْ بِوَجْهِهَا عَمَدَ عَيْنٍ زَيْبٌ لِقَضَاءِ أُمِّ الْحَبَابِ

(٢) تخونه وخون منه: تنقصه (٣) لمحا باصراً: أمراً واضحاً

(٤) ناقصاً وهذا من الوصف بالمصدر (٥) منبهة للأديب: تعلق قدره

(٦) اقتراً: قرأ (٧) تداعت وتجاوبت: دعا بعضها بعضاً فأجتمعت:

وتجاوبت كما تتجاوبت القبارى. (٨) طاع له المراد: أمه طائعاً سهلاً

(٩) يقال: فلان تئى به الخناصر: يبتدأ به إذا ذكر أشكاله

من القرآن الكريم والحديث الشريف، وسائر كتب الأدب واللغة والتاريخ
وموسوعات الثقافة العربية في شتى ألوانها .

هذا شيء، وشيء آخر، هو أن أبواب المحاضرات، أو حدوده، لم ترقى ،
أما تلك العناوين الصغيرة التي طواها الراغب تحت كل باب أو كل حد
فقد راقني كل الرُّوق، وإن لم ترق جلال الدين السيوطي^(١) ...

لهذا كُله رَغِبْتُ عن مُعالجة المحاضرات على النحو الذي اقترحت وزارة
المعارف، وانصرفتُ نَفْسِي عن ذلك إلى وضع مُعجم حاشِدٍ حافِلٍ مستقل ،
يهجم فيه الطالب على طَلِبَتِهِ ، في أى معنى من المعاني «مَوْضُوعَةً على طَرَفِ
الثَّامِ^(٢) وجبل الذراع ، من غير أن يحتاج في التنقيح عنها إلى الإيجاف
والإيضاع.^(٣)

على أنى جَعَلْتُ محاضراتِ الراغب مُعَوَّلَى الأوَّلَ في هذا المشوار ،^(٤)

(١) اختصر السيوطي محاضرات الراغب وسمى كتابه « مختصر محاضرات الأدباء،
واقصر فيه على ذكر الحدود، ويوجد من هذا المختصر نسخة خطية في دار الكتب
المصرية ، وقد توفي السيوطي سنة ٩١١ ولعل عذر السيوطي عن عدوله عن العناوين
الصغيرة هو أن كتابه مختصر . (٢) الثام : نبت ضعيف له خوص أو شبيهه
بالخوص وربما حشى به وسد به خصائص البيوت ، الواحدة ثمامة ويقال : هو لك
على طرف الثام وجبل الذراع إذا كان هين المتناول .

(٣) الإيجاف : ضرب من سير الإبل والخيال قال تعالى : فما أوجفتم عليه من خيل
ولاركاب ، أى ما عملتم ، والإيضاع ، الإسراع في السير قال تعالى : ولا وضعوا خلالكم
والمراد : أن الطالب يعثر على طلبته بدون مشقة (٤) المشوار : المكان تشار فيه
الدابة أى يجربها رائضها لتعرف قوتها ، وعشر عشر عثاراً : كبا

الكثير العثار، ومنهلى العذب الذى اليه الايراد ومنه الإصدار، وعمدتى فى
لم شمل الأشباه والنظائر، وكل ما كان من المعانى قد وشجته القربات والأواصر
ولقد تحيرت من المحاضرات سويدوات القلوب وأناسي العيون^(١)، وضممت
إليها أولات الأرحام^(٢) مما أعفله الراغب وأثبتته الآخرون، مثل ابن
قتيبة فى عيون الأخبار، وابن عبد ربّه فى العقد الفريد، وأبى هلال
العسكرى فى ديوان المعانى، والنويرى فى نهاية الأرب، وفلان، وفلان،
ولم أجتزئ بذلك، بل زدت خيراً ما أترسمه^(٣) مما قرأت وأدارست طوال
هذا الدهر، فترى خير مافى الكامل للبرّد، والأمالى لأبى على القالى، وما
لا يكاد يُحصى من الدواوين والأسفار، وما خلقه لنا الأوائل والأواخر
من عبقرى الآثار.

«وبعد» فليسمح لى القارئ فى أن أزيدَه علماً بكنه هذا المعجم وحقيقه
الطريقة التى اتبعتها، والجهود الجاهدة التى بذلتها، والملاحظات التى يصح
أن تلاحظ عليه، والنقد الذى ربما يوجهُ إليه؛ فإنى بما أعتمل^(٤)
جد بصير...

وأول ذلك وأولاه بالإشادة والتنويه: أنى أودعتُ هذا المعجم، كما
أسلفت؛ خيراً مافى محاضرات الأدباء للراغب، حتى كيصح أن يُطلق عليه

(١) أحسن مافيه، وسويدوات القلوب: حباتها وفيه النور وإنسان العين: سوادها

(٢) المعانى التى تمت إليها بسبب وأصل، فهى من ذوات قرباها

(٣) قال الزمخشري فى أساس البلاغة: وأنا أترسم من ذلك الأمر شيئاً: أى

أذكره ولا أحققه

(٤) أعتمل: أعمل

«مختارات المحاضرات» وإن كان في هذا الإطلاق بعض الظلم «للذخائر والعبقریات» لأنها في الواقع مختار المحاضرات وغير المحاضرات، وإياك والظن أن هذا العمل وحده هينٌ لئِنْ، فقد علمت أن المحاضرات لقد طغى عليها التحريف والتصحيف إلى حد أن كلَّ حَرْفٍ، فضلا عن كل كلمة، من آيةٍ كريمة، أو حديثٍ شريف، أو بيت من الشعر، أو كلمة مأثورة، لا بد أن أحققه بالرجوع إلى مصادره المختلفة حتى يستقيم ويقرَّ به القرار، وإذ ذلك ألقى عصا التسيار، إذ تقرَّ عيني كما قرَّ عينا بالإياب المسافر ...

يحيء بعد ذلك أني كلما رأيتُ الراغب يورد في أي باب من الأبواب أثرا من آثارهم، أكان من المنظوم أم من المنثور، فزعت إلى مَظَانِّه، فأكلت مالا بدَّ من إكاله، وزدت ما أستحسن زيادته، من كل ما قد يعلق بالذاكرة، أو أتعثر عليه في أثناء مطالعاتي ومراجعاتي.

أما أبوابُ هذا المعجم فقد عدتُ بها وانحرَفت لا عن أبواب المحاضرات فحسب، بل عنها وعن سائر ما كان على غرار المحاضرات من سائر الموسوعات، وأنت إذا تصفَّحت الذخائر والعبقریات بدالك أني ابتكرتُ طريقة مُشَبَّهة في تبويبها، فقد جَهدتُ جَهدِي أن تكون الأبواب متجانسة متجاوبة، ومن ثمَّ كسرتُ هذا المعجم على كُتُب وطَوَيْتُ الكُتُب على أبواب وأدرجت في كل باب سائر المعاني المتشابهة الأرقام ...

أما عناوين المعاني فقد انتفعت بعناوين الراغب كل الانتفاع، فخذت على حذوها بعد شيء من التصرف والتحوير والزيادة في أكثر العناوين^(١)

(١) يلاحظ الناظر في الجزء الأول من الذخائر والعبقریات، أن خطني

يأتى بعد كل أولئك أنى امتزت عن الراغب وغير الراغب بعمَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ ، فأما أولهما فهو شرح كل ما يَجْمَلُ شَرْحُهُ من العبقريات ، وقد يُلاحَظُ أنى تبسطت فى الشرح - فى كثير من المواضع - إلى الحدِّ الذى قد يُتَكْرَهُ الخاصَّة ، ولكن يَجْمَلُ أن يلاحَظ كذلك أنى وضعتُ هذا المعجمَ الخاصَّة وغير الخاصَّة ، أى لكلِّ قارئٍ ، على أن هذه الشروح هى الأخرى لَوْنٌ من ألوانِ الأدبِ والثقافة ، وقبلما تخلو من الفوائد والعوائد ... وعلى أنَّ هناك من العبقريات - كـ بعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والحكم والمواعظ ، وبعض الألفاظ المتداولة - ما حرَّفَه السَّواد الأعظمُ عن مواضعِهِ وجَهِلوا عَزَازةَ الذى يغزوه قائلوه ، فكان لامندوحة عن تبيان معناه^(١)؛ وفى هذا علاوةً على ذلك امتثال لقول سيدنا رسول الله : يَجْمَلُ هذا العلمَ من كل خَلْفٍ عُدوله ، يَنْفُونَ عنه تحريفَ الغالين ، واتِّحالَ المُبطلين ، وتأويلِ الجاهلين ... وأما العمل الآخر فهو تصدير كل باب بكلمة أكشف بها المراد بما عقد له هذا الباب ، وذلك كقولنا على البر والتقوى ، وعلى الصبر ، وعلى الشكر ، وهكذا وهكذا ... وهذا عمل له قيمته التى ما منها بُدُّ .

وبما امتاز به هذا المعجم أنى لم أقتصرُ على إيراد العبقريات من الأقوال

كانت أن أضع عنوان كل طائفة من المعاني فى أوائل السطور ومضيت على هذه الطريقة إلى قريب من تلك صفحات هذا الجزء ثم استحسنت أن أعدل عن هذه الخطة إلى وضع العناوين وسط السطور لتكون أدنى إلى التيسير وأعون للطالب على العثور بضالته من أقرب سبيل وهذه - كما يرى القارئ - من الهنات الهيئات التى اغتفروا قد تدوركت فى سائر الكتاب

(١) يلاحظ أن الشرح يرى طوراً فى عمود الكتاب وصلبه وطوراً فى هامشه

وإنما عَرَضْتُ فيما عَرَضْتُ لترجمة بعض العبريين الذين نبغوا في معنى من المعاني، مثل القاضي أحمد بن أبي دواد، تلك الشخصية الضخمة التي حُلِدَتْ آثارها في اصطناع المعروف والإحسانِ إلى الناس، وإن كنت أوجزت القول في ذلك كلَّ الإيجاز، وكذلك عَرَضْتُ للتعريف بالشعراء والعلماء والزهاد والحكماء الذين أوردت في هذا المعجم عبقرياتهم، وإن كان ذلك في أجزاء اختصار، وقد يلاحظُ أني أغفلت التعريف بكثير من القائلين، كما أغفلت في بعض المواضع شرح كثير من أقوالهم، وذلك إما لأنني عَرَفْتُ ما من يجب أن يُعْرَفَ وشرحت ما يَحْتُمِلُ أن يشرح في مواضع أخرى، وإما حَدَثَ ذلك سَهْواً ورفلة، وقد يَحْدُثُ - وذلك في النَّدْرَةِ - أن يكون الإغفال - ولا سيما إغفال التعريف بالرجال - لائقاً لم أوفَّق إلى التَّعْرِيفِ عليهم ...

هذا وكانت النِّيَّةُ أن أتوسَّع في إيراد عبقریات المعاصرين، ولكنني اقتصدت في ذلك كل الاقتصاد، لأن هذا المعجم من ناحية ليس كتاب مختارات بالمعنى المعروف وإنما هو معجم معاني، وإن كنت قد عملت ما وجدت إلى ذلك السبيل على أن يكون كتاب مطالعة بجانب أنه كتاب مراجعة، ومن ناحية تحشيتُ أن أُنهَمَ بما أنا براء منه في الواقع إذا أنا أوردت المختار من عبقریات بعض المعاصرين دون بعض، على أن آثار المعاصرين كثيرة التداول بين قراء هذا الجيل، ومن هنا أوردت فيه بعض عبقریات المعاصرين بمن استأثر الله بهم، وأوردت أيضاً ما استحسنت إيراده بما أقبل إلى العربية من اللغات الأجنبية، وبخاصة ما نُشِرَ قديماً في مجلة البيان التي كنت أقوم

بإخراجها من سنة ١٩١١ إلى نهاية سنة ١٩٢١ ميلادية؛ وكذلك وقع اختياري على البارع كل البراعة من الكلمات الطويلة بعض الطول لبعض العبقريين من الغابرين، وإن كان ذلك في النادر الذي لا يؤبه له، لندرته، وإن كنت كذلك حذفت مما اخترت من هذا الضرب كثيراً من الفضول.

أما تسمية هذا المعجم «الذخائر والعبقریات» فلهذه التسمية مغزى أغزوه، أما العبقریات فإنی أريد بها - كما هو واضح - كلماتهم القصيرة الماثورة المتفوقة في معناها، على أني لم آل جهداً في تختيار العبقری في معناه ومبناه معاً؛ وأما الذخائر فإنی لم أقصر في هذا المعجم على اختيار نوايع الكلم، وإنما قد تلجئُ الحالُ إلى أن أشعشعه كما تُشعشع الرياح، بالماء القراح^(١) فأورد بعض المباحث اللغوية والعلية، على شريطة أن تكون بجانب مكاتها الرفيعة في بابها جميلة مستطرفة مُحذقة^(٢) قصيرة مُتجردة من الأذنانِ والفضول، كبعض كلمات بارعة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تراها مبعثرة ههنا وههنا في كتابه الحيوان، مثل كلامه على الخصاص والخصيان، وكلامه على العين وأفعلها في المعين، وكبعض كلمات كذلك لغيره... وأمثال لهذا كثيرة، على أن كلا الحرفين - الذخائر والعبقریات - مما يصح أن يوضع موضع الآخر، فيطلق على كل ما يؤثر ويُدخّر لنفاسته، سواء كان من الكلمات أم من الموضوعات، فكل عبقرى من القول هو ذخيرة من الذخائر، وكل موضوع قيم هو عبقرى من العبقریات.

(١) شعشع الشراب: مزجه، والماء القراح: الخالص الذي لا يشوبه شيء.

(٢) كلام محذف: من قولهم حذف الصانع الشيء: سواه تسوية حسنة كأنه حذف

كل ما يجب حذفه حتى خلا من كل عيب وتهذب

وهذا المعجم يقع في زهاء عشرة أجزاء ، كل جزء منها يستوعب ما يُرَبَّى على العشرين والثلاثمائة صفحة من هذا القِطْع ، من هذا الورق الذي تَرَى ...

«وبعد» فإنى على هذا الجَهْدِ الجَاهِدِ لأُبْرِيءُ هذا الكتاب ، من العاب^(١) ، وهل يصح في الأفهام أن رجلاً يَجْرُ وراءه نَيْفًا وستين سنةً ، مُوقِرَةً بِكَلِّ ما يُضَعِفُ المُنَّةَ^(٢) ويوهن القوى ، وَيَعِصِفُ بالحيوية عَضْفًا ، لا تتكاثر هفواته وَعَثْرَاتُهُ ، وتَوَافُرُ سَقَطَاتِهِ وزَلَّاتِهِ ، في عَمَلٍ مِثْلِ هذا يُجَاهِلُهُ ، وتَأليفِ تَشَعُّبِ موضوعاته وَمَسَائِلِهِ ، وإذا كانت الموسوعات التي منها تَخَيَّرْتُ حِسَابًا بهذا المعجم فَذَلِكَ ، وإذا كانت عبقرياتهم ههنا نظامًا نَهَى نِثَارُ مَبْدَدَةٍ هُنَاكَ ، وإذا كان المؤلفون يستظهرون على إخراج مؤلفاتهم في العادة بالوراقين^(٣) والمصححين فلقد قمت وحدى بهذا العمل دون الاستعانة بأحد من أولئك ... على أن النقصان ، عالق بالإنسان ، كان من كان ، وإنما الكمال ، للحي الذي لا يموت ذى الجلال ...

اللهم إني أبرأ إليك من الحول والقوة ، اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ، يا مَنْ لا يَنْفَعُ ذا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ^(٤) ، يا مَنْ وَعَدْتَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ^(٥) بِحُسْنِ الْجَزَاءِ وحاشَ لَهِ أَنْ يُخْلِفَ

(١) العاب : العيب

(٢) المنة : القوة

(٣) أعنى بالوراقين من يسمون اليوم «السكرتيرين الخصوصيين» ،

(٤) الجد : الحظ ومعنى لا يَنْفَعُ ذا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ : لا يَنْفَعُ ذا الْغَنِيِّ عِنْدَكَ غِنَاهُ ،

وإنما يَنْفَعُهُ الْعَمَلُ بِطَاعَتِكَ ، وَمِنْكَ : مَعْنَاهُ عِنْدَكَ

(٥) المحسنون : أى الذين يحسنون أعمالهم ويتقنونها

الوَعْد ، سبحانك تبارك اسمك وتعالى جدك ، أسألك يا مَنْ تُجيبُ دعوةَ
الداعي إذا دعاك ، أَنْ تَهَبَ هذا الكتاب من توفيقك ما يتصل معه برضاك ،
وَيُعِمُّ الانتفاعُ به والإفادةُ منه ما اختلف الملوآن ، وكرّر الجديدان (١) . . .

عبد الرحمن البرفوقى

ديسمبر سنة ١٩٤١

ذو القعدة سنة ١٣٦٠

(١) الملوآن والجديدان : الليل والنهار

استدراك

نذرت بعض أخطاء مطبعية في المقدمة وما هي ذى :

سطر	صفحة	خطأ	صواب
١٧	ط	وسويدوات القلوب حباتها وفيه النور	وسويداوات القلوب حباتها
١٧	ط	وإنسان العين سوادها	وإنسان العين سوادها وفيه النور
٦	ل	اختصار	قول
٧	ل	ما من	من